

تُرجمت روايات ستيفن كينغ إلى 36 لغة وبيع منها أكثر من 300 مليون نسخة!

Stephen King

ستيفن كينغ

فصول متنوعة

Different Seasons

أربع روايات في كتاب

فصول متنوعة

Different Seasons

أربع روايات في كتاب





يضم هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
DIFFERENT SEASONS
حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الروائي
Stephen King
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم

فصول متنوعة

Different Seasons

أربع روايات في كتاب

ستيفن كينغ

ترجمة

أمين الأيوبي

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم - ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

الطبعة الأولى

1428 هـ - 2007 م

ردمك 978-9953-87-246-9



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. s.a.l.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611)

الفصل الأول

ينابيع الآمال الخالدة

خلاص ريتا هايوُرث

وسجن شاوشانك

أعـــتقد أنه يوجد شخص مثلي في كل ولاية وكل سجن فيدرالي في أميـــركا، فأنا الشخص الذي يستطيع أن يوفر لك كل ما تريده وفي الوقت الـــذي تريده، كالسجائر العادية، أو السجائر المحشوة بالحشيش، أو زجاجة من الشراب للإحتفال بتخرّج ابنك أو ابنتك من الثانوية العامّة، أو أي شيء آخر... وبدون سبب.

دخلـــت سجن شاوشانك وأنا لم أتجاوز العشرين من عمري، وأنا من بـــين الأشخاص القلائل في عائلتي الصغيرة السعيدة من المسجونين الذين لـــديهم اســـتعداد للإعتراف بما قاموا به. لقد ارتكبت جريمة قتل. كنت قد وقعت عقد تأمين بمبلغ كبير على حياة زوجتي التي تكبرني بثلاثة أعوام، ثم قمت بتعطيل مكابح سيارة الشفروليه ذات المقعدين والتي كان والدها قد أهـــدانا إيّاها كهدية زواجنا. سارت الأمور وفقاً للخطة التي رسمتها تماماً، باستثناء أنني لم أخطط لتوقفها لكي تصطحب معها جارتها وابنها الرضيع مـــن كاستل هيل إلى البلدة. تعطلت المكابح، واصطدمت السيارة بالأشجار عـــند حافة الطريق بعد أن تزايدت سرعتها. قال الذين كانوا يقفون بجانب الطـــريق إنه لا بدّ وأنها كانت تسير بسرعة ثمانين كيلومتراً في الساعة أو أكثر عندما اصطدمت بنصب الحرب الأهلية، وتحوّلت إلى كتلة من اللهب.

كمـــا أنتـــي لم أخطط كي تعتقلني الشرطة، ولكن هذا ما حصل. لا يـــوجد حكم بالإعدام في ماين، ولكنّ المدّعي العام رأى أنه يجب أن أحاكم على مقتل ثلاثة أشخاص وأن يصدر في حقّي ثلاثة أحكام بالسجن المؤبّد، وأن أنفذ هذه الأحكام الواحد تلو الآخر. وهذا ما يحتّم عليّ الإنتظار لوقت طـــويل جداً ريثما تسنح لي فرصة الحصول على إطلاق سراح مشروط. وقد وصف القاضي فعلتي بالجريمة الشنيعة، والشائنة، إن وصف القاضي ينطـــبق علـــى فعلتي بشكل دقيق، ولكنها أصبحت شيئاً من الماضي الآن. وفـــي إمكانك البحث في الملفات الصفراء في كاسل روك كول، حيث تبدو

العــناوين الرئيسية الكبيرة التي تعلن عن إدانتي مضحكة وعتيقة بالمقارنة مع هتلر وموسوليني.

ربما ستسألني، هل أعدت تأهيل نفسي؟ لا أعرف حتى ما تعنيه تلك الكلمــة، علــى الأقـل فــي سياق الكلام الذي يجري تداوله في السجون والإصـــلاحيات. ولكنني أعتقد بأنها كلمة ذات مدلول سياسي. وربما يكون لها معنى آخر، أو ربما ستسنح لي الفرصة لكي أعرف معناها، ولكن ذلك يمكن أن يحدث في المستقبل... وهذا أمر يتعلّم بعض المدانين عدم التفكير فــيه. كــنت صـــغيراً، بهيّ الطلعة، ومن أبناء الأحياء الفقيرة في البلدة. عاشرت فتاة جميلة، وعبوسة، وعنيدة تعيش في أحد المنازل القديمة الفخمة فــي شارع كاريبيان. ووافق والدها على زواجي منها إذا قبلت بالعمل في شركته التي تصنّع أدوات بصرية "والعمل على طريقته الخاصة". لكن تبين لــي أن ما كان يريده حقيقة هو إبقائي في منزله لكي أكون تحت مراقبته، مــثل حــيوان أليف سيئ الطبع، ويمكنه أن يعض. لكن الشعور المتراكم بالكــراهية دفعنـــي إلى القيام بما قمت به. ولو سنحت لي فرصة ثانية، ما كنت سأعيد الكرّة، ولكنني لست متأكداً من أن ذلك يعني أنه أعيد تأهيلي.

علــى كل حال، لست أنا الشخص الذي أنوي الحديث عنه، فأنا أريد أن أتحــدث عــن شــخص يدعى أندي دوفريسن. لكن قبل أن أحدثك عن أنــدي، علــيّ أن أشــرح لك القليل من الأشياء الأخرى عن نفسي، ولن يستغرق الأمر طويلاً. كما قلت سابقاً، أنا الشخص الذي لا يزال في إمكانه تدبيــر حاجــياتك منذ قرابة أربعين عاماً. وهذا لا يعني السجائر المحشوّة والمــشروبات وحــسب، بالــرغم من أن هذه السلع تكون دائماً في أعلى اللائحــة، بــل وفي مقدوري أن أوفر آلاف الأشياء الأخرى للرجال الذين يقــضون أوقــاتهم هــنا، والتي يعتبر بعضها شرعياً تماماً ولكن يصعب الحــصول عليه في مكان من المفترض أنك وُضعت فيه من أجل معاقبتك. كان يوجد زميل واحد سُجن لأنه اغتصب فتاة صغيرة، وكشف عورته أمام عــشرات مــن الفتــيات الأخريات. وقد أحضرت له ثلاث قطع من رخام الفيــرمونت الــوردي اللــون، فقام بنحت ثلاثة تماثيل منها؛ تمثال لطفل رضــيع، وتمــثال لصبي في الثانية عشرة من عمره تقريباً، وتمثال لشاب ملــتحٍ. وهذه التماثيل موجودة الآن في غرفة الجلوس في منزل رجل كان حاكماً لهذه الولاية فيما مضى.

إليك هذا الإسم الذي ربما ستتذكره إذا كنت قد نشأت في شمال ولاية ماساشوستس؛ روبرت ألان كوت. حاول هذا الرجل في العام 1951 أن يسرق مصرف فيرست ميرسنتايل في ميكانيك فالز، ولكن العملية تحولت إلى مجزرة؛ حيث قُتل ستة أشخاص في النهاية، اثنان منهم من أفراد العصابة، وثلاثة من الرهائن، وأحد عناصر شرطة الولاية الشبّان الذي أساء توقيت رفع رأسه، فاستقرّت رصاصة في عينه. كان لدى كوت مجموعة من النقود المعدنية. وكان من الطبيعي ألاّ يسمحوا له باقتنائها هنا، ولكن بمساعدة أمّه ورجل وسيط كان يعمل سائقاً لشاحنة نقل الغسيل، تمكنتُ من إحضارها له. قلت له: "بوبي، لا بدّ وأنك مجنون. فكيف تريد اقتناء مجموعة من النقود المعدنية في فندق حجري مليء باللصوص؟" فابتسم، ونظر إليّ قائلاً: "أنا أعرف أين ينبغي أن أحتفظ بها، وستكون في مأمن هناك. لا تقلق". تبين لي أنه كان محقاً، إذ إن بوبي كوت تُوفي إثر إصابته بسرطان في الدماغ في العام 1967، ولكن تلك المجموعة من القطع النقدية لم تظهر أبداً.

كنت أحضر أصابع الشوكولاته للرجال في يوم الفالنتين، حيث قمت بإحضار ثلاثة من أصابع الشوكولاته بالحليب التي يقدمونها في محلات ماكدونالدز لرجل أيرلندي معتوه اسمه أومالي. حتى أنني تمكنت من إحضار بعض الأفلام لمجموعة مؤلفة من عشرين رجلاً جمعوا ما لديهم من مال لاستئجار تلك الأفلام... بالرغم من أن الأمر انتهى بي إلى قضاء أسبوع في زنزانة انفرادية بسبب فعلتي الترفيهية تلك. وهذه هي المجازفة التي تواجهها عندما تكون الشخص الذي يمكنه إحضار كل شيء.

حصلت على كتب مرجعية، وكتب سخيفة، وعلى أدوات صغيرة مثل الأجراس اليدوية، ومسحوق معالجة الحكّة الجلدية، وفي أكثر من مناسبة، رأيت رجلاً يمضي فترة عقوبة طويلة حصل على سروال من زوجته أو عشيقته... وأعتقد بأنك تعرف ما يفعله الرفاق هنا بهذه الأشياء في الأمسيات الطويلة. وأنا لا أحضر كافّة هذه الأشياء مجاناً، حتى أن بعضها باهظ الثمن. ولكنني لا أقوم بذلك من أجل المال فقط، فما النفع الذي سيعود به المال عليّ؟ فأنا لن أقتني أبداً سيارة كاديلاك أو أسافر بالطائرة إلى جامايكا لكي أمضي هناك أسبوعين من شهر فبراير/شباط. أنا أقوم بذلك لنفس السبب الذي من أجله يبيعك اللحام الشريف اللحم الطازج فقط؛ فأنا

أتمتع بسمعة طيبة، وأريد أن أحافظ عليها. لكن يوجد شيئان أرفض أن أتعامل بهما وهما الأسلحة والمخدرات. فأنا لن أساعد أحداً على قتل نفسه أو قتل شخص آخر، وقد قتلتُ بيدي ما يكفي من الناس لكي أمضي هنا بقية حياتي.

عندما جاء إليّ أندي دوفريسن في العام 1949، وسألني إن كنت أستطيع تهريب ريتا هايوُرث إلى السجن من أجله، قلت له: "لا توجد لديّ مشكلة في ذلك على الإطلاق".

عندما أُدخل أندي سجن شاوشانك في العام 1948، كان في الثلاثين من عمره. كان رجلاً قصير القامة، أنيق المظهر، ماهر اليدين، وذا شعر رملي اللون، وكان يضع نظارة ذهبية، ويقلم أظافره النظيفة بشكل دائم. أعتقد أنه من المضحك أن تتذكر أموراً كهذه عندما تتحدث عن رجل، ولكنها تلخّص ما كان يمثله أندي بالنسبة لي. كان يبدو دائماً كما لو أنه ينبغي أن يرتدي ربطة عنق. في الظاهر، كان أشبه بنائب رئيس في قسم الودائع في مصرف كبير في بورتلاند. وهذا عمل جيد بالنسبة إلى شابّ في مثل سنّه وخصوصاً عندما تفكر في مدى صرامة تمسك المصارف بالتقاليد المحافظة... وعليك أن تضرب تلك الصرامة بعشرة عندما تتحدث عن نيو إنغلاند، حيث لا يثق الرفاق هناك برجل في حوزته أموالهم ما لم يكن أصلع الرأس، وأعرج، ويكثر من الذهاب إلى دورة المياه. لقد دخل أندي السجن لأنه قتل زوجته وعشيقها.

كما أعتقد أنني ذكرت سابقاً، كل شخص يقبع في السجن هو رجل بريء. إنهم يقرأون ذلك النص كما يقرأ رجال الدين سفر الرؤيا على شاشات التلفزة. إنهم ضحايا القضاة أصحاب القلوب القاسية، أو ضحايا المحامين غير الكفوئين، أو ضحايا ألاعيب رجال الشرطة، أو ضحايا الحظ العاثر. إنهم يقرأون النص، ولكن في مقدورك أن ترى نصاً مختلفاً على وجوههم. إن معظم الأشخاص المدانين من الصنف الرديء، لا يؤدّون نفعاً لأنفسهم ولا لأي شخص آخر، وحظهم العاثر أن أمهاتهم حملن بهم إلى أن وضعنهم.

خلال السنوات التي قضيتها في شاوشانك، تعرّفت على أقل من عشرة رجال، شعرت بأنهم صادقون عندما قالوا لي إنهم أبرياء. كان أندي دوفريسن واحداً من هؤلاء، بالرغم من أنني لم أقتنع ببراءته إلاّ بعد مضيّ

فتــرة طويلة من الزمن. ولو أنني كنت عضواً في هيئة المحلّفين تلك التي اســتمعت إلـــى قضيته في محكمة بورتلاند العليا طوال الأسابيع العاصفة الـــستة في الفترة الواقعة بين عامي 1947 و1948، لكنت صوّت لصالح إصدار قرار بالإدانة أيضاً.

كانت قضية لعينة، واحدة من تلك القضايا المثيرة للإهتمام والتي تحـــتوي على كافة العناصر المناسبة. كان فيها فتاة جميلة ذات صلات اجتماعية، وشخصية رياضية محلّية، ورجل أعمال شابّ لامع في قفص الإتهام، هذا بالإضافة إلى كافة الفضائح التي يمكن للصحف أن تتحدث عـــنها، وكـــان لـــدى الإدعـــاء قضية سهلة. ولهذا السبب، لم تستغرق المحاكمـــة أكثـــر من ستة أسابيع لأن المدعي العام كان يخطط للترشّح لعـــضوية الكونغرس. كانت المحاكمة سيركاً قضائياً ممتازاً، حيث كان المتفـــرّجون يقفون في الطابور بدءاً من الساعة الرابعة فجراً، بالرغم مـــن درجة الحرارة التي كانت أدنى من الصفر، لكي يضمنوا الحصول على مقاعد لهم.

ساق الإدعاء جملة من الحقائق التي لم يطعن فيها آندي أبداً. فقد كان لديـــه زوجـــة، اســـمها ليندا كولينز دوفريسن. قالت له في يونيو/حزيران 1947 بأنهـــا ترغب في تعلّم لعبة الغولف في نادي فالماوث الريفي. وقد تلقّـــت دروســـاً بالفعـــل لمدة أربعة شهور، وكان مدرّبها محترفاً في لعبة الغولف وكان اسمه غلين كوينتين. وفي أواخر أغسطس/آب 1947، عرف آنـــدي بـــأن كوينتين وزوجته أصبحا عاشقين، وكان ذلك السبب في وقوع مـــشادّة عنـــيفة بـــين آنـــدي وليندا مساء العاشر من سبتمبر/أيلول، وكان موضوع المشاجرة خيانتها الزوجية.

أدلـــى آنـــدي بشهادته في القضية وقال: "عبّرت ليندا عن سرورها لمعرفتـــي بالحقيقة، وأخبرتني أن تجسسي عليها كان يغيظها". وقال أيضاً: "إنهـــا أخبرته بأنها تخطط للحصول على الطلاق". وتابع قائلاً إنه أخبرها أنـــه يفـــضل أن يراها في الجحيم على أن يمنحها الطلاق. في تلك الليلة، خرجتْ لتمضي سهرتها مع كوينتين في منزله المستأجّر المؤلف من طابق واحـــد والـــذي يقع في مكان لا يبعد كثيراً عن ملعب الغولف. وفي صباح اليوم التالي، وجدتهما عاملة التنظيف لديه ميتين في السرير، بعد أن أطلق على كل منهما أربع رصاصات.

كانــت الحقــيقة الرابعة الأخيرة هي التي عملت ضدّ أندي أكثر من ســائر الحقائــق الأخــرى. فقد كان للمدعي العام، بما لديه من طموحات سياسية، تأثير كبير في مرافعته الإفتتاحية ومرافعته الختامية. قال المدعي العام بأن أندي دوفريسن لم يكن زوجاً مظلوماً يسعى إلى الأخذ بالثأر من زوجــته الخائــنة، فذلك، وفقاً للمدعي العام، عمل يمكن تفهمه وإن كان لا يمكــن الصفح عنه. لكنه أخذ بثأره بدم بارد، إذ إنه أفرغ أربع طلقات في جــسم كل منهما، وليس الطلقات الست التي يمكن حشوها في المسدس، بل ثمانــي طلقــات. فلقــد بقــي يطلق الرصاص من مسدسه حتى فرغ من الذخيــرة... ثــم توقــف لإعادة تلقيم المسدس لكي يتمكن من إطلاق النار علــيهما مجــدداً. أربـــع طلقات له، وأربع طلقات لها، لقد توهجت شمس بورتلاند.

كان موظف يعمل لدى وايز باونشوب في لويستون قد شهد بأنه باع أنــدي مــسدساً من عيار 0.38 يتّسع لست طلقات من النوع الذي يستعمله رجــال الشرطة وذلك قبل يومين فقط من وقوع الجريمة المزدوجة. وشهد الــساقي فـــي النادي الريفي بأن أندي قدم إلى النادي عند الساعة السابعة تقــريباً عشية العاشر من سبتمبر/أيلول، واحتسى ثلاثة أكواب من الشراب في غضون عشرين دقيقة؛ وعندما نهض من مقعده، قال له إنه ذاهب إلى منــزل غلــين كوينتين، وأنه- أي الساقي- يمكنه "معرفة باقي القصة من الصحف". وقال موظف آخر، يعمل في متجر هاندي بيك الذي يبعد حوالى كيلومتــر تقــريباً عـــن منزل كوينتين، للمحكمة بأن دوفريسن وصل عند الساعة التاسعة إلا ربعاً تقريباً في الليلة نفسها، حيث اشترى علبة سجائر، وثلاث زجاجات من الشراب وبعض المناشف. وشهد الطبيب الشرعي في المقاطعــة بـــأن كوينتين وزوجة دوفريسن لقيا حتفهما بين الساعة الحادية عــشرة مساء والثانية من بعد منتصف الليل ليلة العاشر/الحادي عشر من ســبتمبر/أيلول. وشهد التحرّي، الذي يعمل لدى مكتب المدعي العام والذي جرى تكليفه بهذه القضية، بأنه كانت هناك باحة على مسافة تقل عن سبعين متراً من منزل الضحية، وأنه في فترة ما بعد الظهر من يوم الحادي عشر مـــن ســـبتمبر/أيلول تم العثور على ثلاثة من الأدلّة في تلك الباحة. الدليل الأول كـــان عـــبارة عـــن زجاجتين فارغتين من نوع نراجنسيت (ظهرت علــيهما بــصمات المدّعــى عليه)، والثاني كان اثني عشر عقب سيجارة

(وجمـيعها من نوع كولز، وهو النوع الذي يدخنه المدّعى عليه)، والثالث كـان بـصمة من الجصّ لمجموعة من آثار الإطارات (والتي تطابقت مع آثـار إطارات سيارة البلايموث من طراز 1947 والتي يستعملها المدّعى عليه).

عُثـر فـي غرفة الجلوس في منزل كوينتين على أربع مناشف ملقاة علـى الأريكـة. بدت هذه المناشف مثقوبة بالرصاص، وظهر عليها آثار بـارود العـيارات النارية. طرح التحرّي نظرية (بالرغم من اعتراضات محامـي أندي الشديدة) تقول إن القاتل لفّ تلك المناشف حول فوهة سلاح الجريمة من أجل إخماد صوت الطلقات النارية.

اعتلـى أندي دوفريسن منصة الشهود للإدلاء بشهادته، وسرد قصته بهـدوء وبرودة أعصاب، ودون انفعال. قال إنه بدأ يسمع إشاعات مزعجة تـدور حـول زوجـته وغلين كوينتين بدءاً من الأسبوع الأخير من شهر يولـيو/تموز. وفي أواخر أغسطس/آب، شعر بما يكفي من الإنزعاج لكي يتحقق بنفسه من الأمر. في إحدى الأمسيات، عندما كان من المفترض أن تـذهب ليـندا إلى السوق في بورتلاند بعد أن تُنهي تمارين الغولف، لحق أنـدي بهـا وبكوينتـين إلى أن وصلا إلى منزل الأخير المستأجَر (والذي وُصـف فـي التقارير بعش الحب). أوقف سيارته في الباحة إلى أن عاد كوينتـين بـزوجته إلى النادي حيث كانت قد أوقفت سيارتها، أي بعد ذلك بحوالى ثلاث ساعات.

سأله المدعي العام في الإستجواب: "هل تريد أن تقول لهذه المحكمة بأنك لحقت بزوجتك بسيارتك البلايموث الجديدة ذات الأبواب الأربعة؟"

أجـاب أندي: "لقد تبادلت وأحد أصدقائي سيارتينا في تلك الأمسية".

غيـر أن هذا الإعتراف الهادئ الذي أوضح فيه مدى دقة تخطيطه للتحقيق الذي أراد القيام به لم يكن له أثر بالنسبة إلى أعضاء هيئة المحلّفين.

وبعـد أن أعـاد لـصديقه سيارته، واستقلّ سيارته البلايموث، عاد إلى منزله. كانت ليندا مستلقية في السرير تقرأ كتاباً. سألها كيف كانت رحلتها إلى بـورتلاند، فأجابـت بأنها أمضت وقتاً ممتعاً، ولكنها لم تجد شيئاً يعجبها لكي تـشتريه. قال أندي للحاضرين الذين حبسوا أنفاسهم: "عندئذٍ تيقنت من صحة الأمر". كان يتحدث بنفس الصوت الهادئ الرصين الذي ميّز معظم إفادته.

سـأله محاميه: كيف كانت حالتك الذهنية خلال الأيام السبعة عشر الممتدة بين تلك الأمسية والليلة التي قُتلت فيها زوجتك؟"

أجاب أندي بهدوء وبرودة أعصاب: "شعرت باكتئاب شديد". وكما لو كـان يـسرد ما في لائحة مشترياته، قال إنه فكّر في الإنتحار لدرجة أنه اشترى مسدساً من متجر في لويستون في الثامن من سبتمبر/أيلول.

عـندئذ دعاه محاميه إلى إطلاع هيئة المحلّفين على ما حدث بعد أن غـادرت زوجته المنزل إلى منزل غلين كوينتين ليلة وقوع الجريمة. قصّ أندي عليهم القصة... ولكن خلّف أسوأ انطباع ممكن لدى هيئة المحلّفين.

لقد عرفت أندي عن قرب طوال ثلاثين عاماً، ويمكنني أن أجزم لك بأنـه كان أكثر الرجال الذين عرفتهم ثقة بنفسه. كان لا يرى بأساً في أن يمـنحك جزءاً قليلاً من وقته، ولكنه كان يرى أنه من الظلم إبقاؤه محتجزاً في ذلك المكان. كان من نوع الرجال الذين إذا عزموا على الإنتحار، فإنهم يفعلـون ذلـك بدون أن يتركوا رسالة، ولكن ليس قبل أن يرتب أوضاعه على الوجه المطلوب. ولو أنه بكى على منصة الشهود، أو اعترى صوتَه الـضعف أو اعتـراه التردد، أو لو أنه صاح حتى في وجه المدعي العام الـذي يطمـح إلى الإنتقال إلى واشنطن، لما كان حصل في اعتقادي على حكـم بالـسجن المـؤبد. ولو أنه قام بذلك، لكان على لائحة المفرَج عنهم بـشروط بحلول العام 1954. ولكنه سرد قصته كآلة تسجيل، وبدا كما لو أنـــه يقـول لهيـئة المحلّفين، *إما أن تصدقوا قصتي وإما أن تكذبوها*. وقد اختارت هيئة المحلّفين الخيار الثاني.

قــال إنـــه كان ثملاً في تلك الليلة، وأنه اعتاد على أن يكون ثملاً بـشكل أو بآخـر منذ الرابع والعشرين من أغسطس/آب، وأنه رجل لا يحـسن الـتحكم بمقدار ما يشربه من الشراب. بالطبع، كان ابتلاع هذه الإفادة صعباً على أية هيئة محلّفين. ولم يكن في استطاعتهم تصوّر هذا الـشاب الواثـق من نفسه، هادئ الأعصاب، والذي يرتدي سترة ثلاثية القطـع مـصنوعة من الصوف، وهو يهوي على الأرض بعد اكتشافه العلاقـة الغـرامية التـي جمعت بين زوجته الخسيسة ولاعب غولف محترف في بلدة صغيرة. وما حملني على تصديقه هو أن الفرصة التي

سنحت لي لمراقبة أندي عن كثب لم تسنح للرجال الستة والنساء الست الذين كانوا يشكلون هيئة المحلّفين.

كـــان أندي دوفريسن يحتسي أربع كؤوس فقط من الشراب كل عام، وذلك على مدى الأعوام التي عرفته فيها. كان يلتقي بي في باحة التدريب الملحقـــة بالسجن في كل عام قبل أسبوع تقريباً من ذكرى ميلاده، ثم يلتقي بـــي مجـــدداً قبل أسبوعين تقريباً من حلول الكرسمس. وفي كل من هاتين المناســبتين، كـــان يحضر زجاجة من الشراب. كان يشتريها كما يشتري معظـــم المساجين حاجياتهم؛ بالإستعانة بالأجور التي يدفعونها هنا، إضافة إلـــى القليل من ماله الخاص. فحتى العام 1965، كنت تحصل أثناء إقامتك هنا على عشرة سنتات في الساعة. وفي العام 1965، زادوا ذلك المبلغ إلى ربـــع دولار. كانـــت عمولتـــي ولا تزال عشرة في المئة مقابل تدبير أمر الشراب، وعندما تضيف ذلك الرسم الإضافي إلى سعر الشراب، تكون قد كـــوّنت فكرة عن مقدار العرق الذي ينبغي على أندي دوفريسن أن يفرزه فـــي عمله في غسيل الثياب في مغسل السجن لكي يشتري كؤوسه الأربع كل عام.

فـــي صـــباح ذكـــرى مـــيلاده، الـــذي يـــصادف في العشرين من سبتمبر/أيلول، كان يقيم لنفسه احتفالاً كبيراً. كما كان يقيم احتفالاً آخر في مـــساء ذلـــك اليوم بعد أن تُطفأ الأنوار. وفي اليوم التالي، كان يعيد لي ما بقـــي من الزجاجة، وكنت أتقاسمها مع من حولي. وفي ما يتعلق بالزجاجة الأخـــرى، كان يحتسي كأساً واحدة ليلة الكرسمس وكأساً أخرى ليلة السنة الجديدة. وكان يعيد لي الزجاجة أيضاً مع تعليمات بتمريرها إلى الزملاء. أربـــع كؤوس في العام؛ هذا هو سلوك رجل عانى من الظلم بسبب زجاجة من الشراب. كان هذا الظلم شديداً بما يكفي لسفك الدم.

قال لهيئة المحلّفين بأنه كان ثملاً ليلة العاشر من سبتمبر/أيلول لدرجة أنه يستطيع أن يتذكر أجزاء متفرّقة فقط مما حصل في تلك الليلة. كان قد ثمل في فترة ما بعد الظهر من ذلك اليوم – وهو عبّر عن ذلك بالقول "لقد احتسيت كأساً مزدوجة"– قبل أن يواجه ليندا.

مـــن الأمـــور التـــي تذكّـــرها أنه بعد أن غادرت ليندا المنزل للقاء كوينتين، قرر أن يواجههما. وفي طريقه إلى منزل كوينتين، انعطف باتجاه الـــنادي الريفـــي لكي يحتسي بعض الشراب على عجل. قال أندي إنه لا

يستطيع تذكر أنه قال للساقي بأنه يمكنه معرفة *باقي القصة من الجرائد*، أو أنــه قــال لــه أي شيء على الإطلاق. ولكنه تذكر شراء بعض زجاجات الـشراب، لكـنه لـم يتذكر شراء مناشف لتجفيف الصحون. وتساءل: "ما حاجتـي إلـى مناشف تجفيف الصحون؟" وأشارت إحدى الصحف إلى أن ثلاث سيدات من هيئة المحلّفين شعرن بالإرتباك.

بعد ذلك بوقت طويل، حدثني عن ذلك الموظف الذي أدلى بشهادة حـول تلك المناشف، وأعتقد بأنه من المناسب أن أذكر لك ما جاء في ذلـك الحديث. قال لي أندي في أحد الأيام عندما كنا في قاعة التدريب: "لنفترض أنه في أثناء حملتهم لجمع الشهود، عثروا على ذلك الشخص الـذي باعنـي الشراب في تلك الليلة. وهذا يعني أنهم تعرفوا عليه بعد مـرور ثلاثـة أيـام. كانـت الأحـداث تحظى بتغطية شاملة في كافة الصحف. ربما تجمع حوله خمسة أو ستة من أفراد الشرطة، إضافة إلى ذلك التحرّي الذي يعمل في مكتب المدّعي العام، ومساعد المدّعي العام. أليس من الممكن أنهم بدؤوا حديثهم معه بالقول *ألا تعتقد أنه من الممكن أنــه اشترى أربع أو خمس مناشف؟* ثم أكمل طريقه إلى هناك. إذا أراد عـدد كبيـر من الأشخاص منك أن تتذكر شيئاً، يمكن أن تكون كثرتهم عاملاً قوياً في إقناعك".

وافقت على أن ذلك أمر ممكن.

مـضى أنـدي فـي حديثه المسلّي فقال: "لكن كان هناك عامل أكثر إقـناعاً. فأنا أعتقد بأنه أقنع نفسه على أبعد تقدير، فقد كان محطّ الأنظار، حيث كان الصحفيون يطرحون عليه الأسئلة، وكانت الصحف تنشر صوره على صفحاتها... وتوّج ذلك بالطبع بظهوره الملفت في قاعة المحكمة. أنا لا أقول بأنه تعمّد تلفيق شهادته أو حلف زوراً. أعتقد بأنه من المحتمل أنه كـان سـيجتاز اختـبار كـشف الكذب أو يحلف بأمّه بأنني اشتريت تلك المناشف. ولكن تبقى الذاكرة شيئاً غير موضوعي.

أنـا أعـرف الكثير عن هذه الأمور، وبما أن محاميّ الخاص اعتقد بأنّنـي لفقت نصف قصتي، فهو لم يأتِ على ذكر المناشف في مرافعاته. فالأمـر في ظاهره ضرب من الجنون. فقد كنت ثملاً لدرجة يصعب معها تصوّر أنني فكّرت في إخماد صوت المسدس. ولو كنت أنوي ارتكاب تلك الجريمة، لكنت أفرغت عليهما الرصاص وحسب".

ذهب إلى الباحة، وأوقف سيارته هناك، احتسى شرابه، وأشعل بضع سجائر، وشاهد أنوار السلّم وهي تُطفأ... وبعد خمس عشرة دقيقة، شاهد زوجته وهي تغادر المنزل. قال إن في مقدوره تقدير ما حصل.

سأله محاميه: "يا سيد دوفريسن، هل ذهبت بعد ذلك إلى منزل غلين كوينتين وقتلت الضحيتين؟"

أجاب آندي: "كلا، لم أفعل ذلك". قال إنه بقي صاحياً حتى منتصف الليل، وأنه شعر بأولى علامات الثمالة السيئة فقرر أن يعود إلى البيت وينام، على أن يفكر في المسألة برمتها كما يفعل الناضجون في اليوم التالي. "في ذلك الوقت، وفيما كنت أقود سيارتي عائداً إلى المنزل، بدأت أفكر في أن الطريقة الأسلم هي في السماح لها بالحصول على الطلاق".

"أشكرك يا سيد دوفريسن".

نهض المدعي العام وسأله: "طلّقتها بأسرع الطرق التي يمكنك التفكير فيها، أليس كذلك؟ طلقتها بواسطة مسدس من عيار 0.38 ملفوف بالمناشف. أليس كذلك؟"

أجاب آندي بطريقة هادئة: "كلا سيدي، أنا لم أفعل".

"ثم أطلقت النار على عشيقها".

"كلا سيدي".

"أتقصد بأن تقول بأنك أطلقت النار على كوينتين أولاً؟"

"ما عنيته هو أنني لم أطلق النار على أي منهما. لقد شربت زجاجتين من الشراب، وأشعلت بضع سجائر بعدد أعقاب السجائر التي عثر عليها رجال الشرطة في الباحة. ثم عدت بالسيارة إلى منزلي، وخلدت إلى النوم".

"قلتَ لهيئة المحلّفين بأنك كنت تفكر في الإنتحار في الفترة الواقعة بين الرابع والعشرين من أغسطس/آب والعاشر من سبتمبر/أيلول".

"نعم سيدي".

"كان ذلك الشعور قوياً بحيث دفعك إلى شراء مسدس".

"أجل".

"هل يزعجك يا سيد دوفريسن إذا قلت لك بأنك لا تبدو في نظري من النوع الذي يقدم على الإنتحار؟"

أجاب أندي: "كلا، ولكنك لم تولّد لديّ انطباعاً بأنك مرهف الإحساس على نحو مؤثر، وأنا أشك كثيراً في أنني كنت سألجأ إليك لحل مشكلتي لو كنت أشعر برغبة في الإنتحار".

ســاد جــو من التوتر البسيط في قاعة المحكمة بسبب هذا الحوار، ولكنه لم يُكسبه أي نقاط لدى هيئة المحلفين.

"هل أخذت مسدسك معك ليلة العاشر من سبتمبر/أيلول؟"

"كلا، كما سبق أن شهدت.."

"أجل هذا صحيح". ابتسم المدعي العام بطريقة تهكمية، "لقد ألقيته في النهر، أليس كذلك؟ نهر رويال، في فترة ما بعد الظهر من يوم العاشر من سبتمبر".

"أجل سيدي".

"أي قبل يوم من وقوع الجريمة المزدوجة".

"أجل سيدي".

"كان ذلك عملاً يبعث على الإرتياح، أليس كذلك؟"

"لــم يكن عملاً يبعث على الشعور بالإرتياح أو الإنزعاج، ولكن هذا ما حصل فعلاً".

"أعــتقد بأنك سمعت شهادة الملازم مينشر". كان مينشر مسؤولاً عن الفريق الذي قام بتمشيط ذلك الجزء من نهر رويال بالقرب من الجسر بوند رود، الــذي شهد أندي بأنه ألقى مسدسه فيه. ولكن الشرطة لم تعثر على المسدس.

"أجل سيدي. أنت تعرف بأنني سمعتها".

"إذن، أنت سمعته وهو يقول للمحكمة بأنهم لم يعثروا على المسدس، بالــرغم مــن أنهــم استمرّوا في البحث ثلاثة أيام. كانت تلك إفادة مريحة أيضاً، أليس كذلك؟"

أجــاب أندي بهدوء: "إذا وضعنا مسألة الشعور بالإرتياح جانباً، إنها حقيقة أنهم لم يعثروا على المسدس. ولكنني أودّ أن ألفت نظرك ونظر هيئة المحلّفــين إلــى أن جسر بوند رود قريب جداً من المكان حيث يصبّ نهر رويال في خليج يارماوث. فالتيار قوي هناك، وربما انجرف المسدس إلى الخليج نفسه".

"هكــذا لــن يكــون في الإمكان إجراء مقارنة بين الحزوز اللولبية

الموجـودة على الرصاصات التي انتُزعت من جثتي زوجتك والسيد غلين كوينتين الغارقتين بالدماء والحزوز اللولبية التي في ماسورة مسدسك. هذا صحيح أليس كذلك يا سيد دوفريسن؟"

"أجل، هذا صحيح".

"إنه أمر مريح جداً، أليس كذلك؟"

في هذه المرحلة، واستناداً إلى الصحف، أظهر أندي أحد ردود فعله العاطفية القليلة طوال فترة الأسابيع الستة التي استغرقتها المحاكمة. ابتسامة خفيفة ومُرّة ارتسمت على وجهه.

"بما أنني بريء من هذه الجريمة يا سيدي، وبما أنني أقول الحقيقة بـشأن إلقـاء مسدسي في النهر في ذلك اليوم قبل وقوع الجريمة، يبدو الأمـر مـزعجاً تمامـاً بالنـسبة لي لأنهم لم يتمكنوا من العثور على المسدس".

واصل المدعي العام استجوابه على مدى يومين. فأعاد قراءة شهادة الموظـف التي ذكر فيها أمر بيعه المناشف على أندي. وأعاد أندي القول إنه لا يستطيع تذكّر أن اشتراها، ولكنه اعترف بأنه لا يستطيع تذكر أنه لم يشترِها.

هـل كـان الخبـر الذي يقول إن أندي وليندا دوفريسن حصلا على بوليـصة تأمين مشتركة في مطلع العام 1947 صحيحاً؟ أجل، كان الخبر صـحيحاً. وفـي حـال تمت تبرئة أندي، هل كان سيحصل على تعويض مقداره خمسون ألف دولار؟ أجل. أليس صحيحاً أنه ذهب إلى منزل غلين كوينتـين بنية ارتكاب جريمة قتل؟ أليس صحيحاً أيضاً أنه ارتكب جريمة قتل مزدوجة؟ كلا، هذا ليس صحيحاً. إذن، ماذا يعتقد أنه حصل فعلاً على اعتبار أنه لم تظهر أية علامات تدل على عملية سرقة؟

قـال أنـدي بهـدوء: "لا سبيل أمامي لمعرفة ذلك يا سيدي". أحيلت القـضية على هيئة المحلّفين عند الساعة الواحدة من بعد ظهر يوم أربعاء كثيـر الـثلوج. وعاد أعضاء الهيئة الإثني عشر في الساعة 3:30. وقال حاجـب المحكمـة بـأنهم كانوا سيعودون في وقت أبكر من ذلك، ولكنهم توقفـوا للإسـتمتاع بتـناول وجبة دجاج رائعة في مطعم بينتلي على نفقة المقاطعـة. وجـدوه مذنباً. ولو كانت ماين تنفذ عقوبة الإعدام، لكان علّق رأسه في الهواء قبل أن تطلّ نباتات الزعفران برؤوسها من بين الثلوج.

سـألـه المدعي العام عن رأيه في حقيقة ما حصل، ولكنّ أندي تهرّب مـن الـسؤال؛ غير أن الحقيقة هي أنه لم يكن يملك أدنى فكرة، وهذا ما عـرفته مـنه بعـد وقت طويل في إحدى الأمسيات في العام 1955. لقد احتجـنا إلى سبع سنين لكي ننتقل من الترحيب بإيماءة الرأس إلى صديقين حميمَين؛ ولكنني لم أشعر بمدى قربي من أندي إلاّ في العام 1960 تقريباً، وأنـا أعـتقد بأنني الوحيد الذي تمكن من التقرّب منه فعلاً. فبما أننا كنا نقـضي فترة عقوبة طويلة، كنا في الجناح نفسه من السجن من البداية إلى النهاية، بالرغم من أنه كانت تفصلني عنه بضعة أبواب.

ضـحك وقـال: "ما رأيك؟" لكن لم يكن هناك أثر للمرح في صوته. "أعتقد بأنه كان هناك الكثير من الحظ السيئ في تلك الليلة. أعتقد بأنه كان يوجد شخص غريب يسير بالقرب من المكان. ربما كان لصاً، وربما كان مجـنوناً. أقدم ذلك الرجل على قتلهما، وهذا كل ما في الأمر. وأنا موجود مكانه هنا".

كـان الأمـر بهـذه البـساطة. ولكـنه أدين بالسجن المؤبد هنا في شاوشانك. وبعد مرور خمس سنين، بات يحقّ له حضور جلسات الإستماع الخاصة بإطلاق السراح المشروط، وكان طلبه يواجَه بالرفض بانتظام مثل انـتظام حـركة عقارب الساعة مع أنه كان سجيناً مثالياً. إن الخروج من شاوشـانك، إذا كـنتَ مداناً بجريمة مذكورة في طلب العفو، عملية بطيئة، بمـثل بطء تآكل صخرة بفعل جريان النهر. أنت لا تستطيع شراء هؤلاء الـرفاق، كمـا أنك لا تستطيع التحدث إليهم بكلامٍ معسول أو التباكي لهم. وفي ما يتعلق بالمسجونين هنا، المال لا يجدي نفعاً، ولا أحد يعمل من أجل إخراجهم. وبالرغم من توفر أسباب تدعم طلب أندي أيضاً، فهي لم تساعده في شيء.

كان يوجد شخص جدير بالثقة، اسمه كيندريكس، كان يدين لي بمبلغ كبير من المال في الخمسينيات، وقد احتاج إلى أربع سنين لكي يتمكن من سداد ما عليه. معظم الفوائد التي دفعها لي كانت على شكل معلومات؛ ففي المـيدان الذي أعمل فيه، ستكون ميتاً إذا لم تتمكن من العثور على طرق للتجسس على الآخرين. وعلى سبيل المثال، كان كيندريكس هذا قادراً على الوصـول إلى ملفات لم أكن لأتمكن من الإطلاع عليها. قال لي كيندريكس بـأن تصويت المجلس المكلف بمنح المساجين إطلاق سراح مشروطاً في

حالة أندي كان سبعة مقابل لا شيء في العام 1957، وأصبح ستة أصوات مقابل صوت واحد في العام 1958، ثم عاد إلى سبعة أصوات مقابل لا شيء في العام 1959، ثم خمسة أصوات مقابل صوتين في العام 1960. لا أعرف كيف جاءت نتائج التصويت بعد ذلك، ولكنني أعرف بأنه مرّت ست عشرة سنة على ذلك التاريخ ولا يزال يقبع في الزنزانة 14 في الجناح الخامس. بحلول ذلك التاريخ، أي سنة 1975، كان قد أصبح في السابعة والخمسين من عمره. وعلى الأرجح كانت قلوبهم ستمتلئ عطفاً وسيسمحون له بالخروج في العام 1983 تقريباً. إنهم يعطونك الحياة، والحياة هي الشيء الذي يأخذونه منك. ربما سيطلقون سراحك يوماً ما، ولكن عليك أن تعرف شيئاً: عرفت رجلاً يدعى شيروود بولتون، وكان يحتفظ بحمامة. ظل يحتفظ بتلك الحمامة من العام 1945 وحتى العام 1953، وهو العام الذي أطلقوا فيه سراحه. لم يكن رجلاً يهتم بتربية الطيور في الكارتاز، وكل ما في الأمر هو أنه كان يربّي تلك الحمامة. كان يطلق عليها اسم جايك، وقد أطلق سراحها قبل يوم واحد من إطلاق سراحه، فطارت كما تتمنى لها أن تفعل. لكن بعد مضي أسبوع تقريباً على مغادرة شيروود بولتون عائلتنا السعيدة الصغيرة، التقى بي صديق في الزاوية الغربية من الملعب الرياضي حيث كان شيروود يمارس العابه الرياضية. وكان قد وجد طائراً أشبه بكومة صغيرة من بياضات السرير، وبدا أنه مات جوعاً. سألني صديقي: "أليست هذه جايك يا ريد؟" بلى، كانت تلك الحمامة هامدة مثل صخرة.

لا أزال أتذكر المرّة الأولى عندما تحدث إليّ أندي دوفريسن لسبب ما، وأنا لا أزال أتذكر تلك الحادثة كما لو أنها جرت بالأمس. لم يكن ذلك الوقت الذي أراد فيه رؤية ريتا هايوُرث، بل كان ذلك سيحصل في وقت لاحق، في صيف العام 1948. ولكنه جاءني من أجل شيء آخر.

أنا أبرم معظم صفقاتي في الملعب الرياضي، وهناك كان اللقاء. إن مساحة ملعبنا كبيرة، بل إنه أكبر بكثير من معظم الملاعب الأخرى. إنها باحة مثالية يبلغ طولها تسعين متراً. وعلى الجانب الشمالي يوجد السور الخارجي، وعلى طرفيه يوجد برجا مراقبة. إن الحراس في هذين البرجين مزودون بالمناظير وأسلحة قمع الشغب. تقع البوابة الرئيسية في ذلك الجانب الشمالي. وفي الجانب الجنوبي من الملعب، توجد منصات تحميل

الشاحنات؛ توجد خمس منصات. إن سجن شاوشانك مكان مزدحم خلال أيام العمل من كل أسبوع؛ شحنات قادمة، وشحنات مغادرة. يوجد لدينا منشأة لتصنيع لوحات رخص السيارات، ومغسل آلي ضخم تُغسل فيه كافة الملبوسات التي تُستخدم في السجن، وفي مستشفى كيتري ودار إليوت للتمريض. كما يوجد مرآب كبير للسيارات حيث يقوم الرفاق بإصلاح المركبات التابعة للسجن والولاية والبلدية، ناهيك عن السيارات الخاصة بأطقم العاملين والمكاتب الإدارية... وفي أكثر من مناسبة، تلك السيارات التي يملكها أعضاء المجلس الذي يمكنه إطلاق سراح السجناء.

الجانب الشرقي عبارة عن سور حجري سميك مليء بالنوافذ الطويلة الرفيعة. يقع جناح الزنزانات الخامس عند الجهة الشرقية من ذلك السور. وفي الجهة الغربية توجد الإدارة والمستوصف. إن شاوشانك أقل ازدحاماً من معظم السجون الأخرى. وإذا عدنا إلى العام 1948، نجد أن النسبة الإجمالية للزنزانات المشغولة فيه لم تزد عن الثلثين، ولكن يمكن أن يتواجد في الملعب في أي وقت ما بين ثمانين ومئة وعشرين مداناً؛ يلعبون كرة القدم والكرة الطائرة، ويقامرون، ويتحدثون إلى بعضهم البعض، ويبرمون الصفقات. وفي يوم الأحد، يصبح المكان أكثر ازدحاماً، إذ إنه يكون أشبه بيوم عطلة في المقاطعة... لو كانت توجد فيه نساء.

كان ذلك اللقاء في أحد أيام الآحاد عندما جاء أندي إليّ للمرة الأولى. كنت قد فرغت للتوّ من التحدث إلى إلمور أرميتاج- وهو زميل غالباً ما كان يقدم لي يد العون- عن جهاز راديو عندما جاء أندي. كنت أعرف من يكون بالطبع، فقد اشتُهر بأنه متكبر وبارد الأعصاب. وكان الناس يقولون إنه جاهز للوقوع في المشكلات. كان بوغز دايموند- وهو رجل شرّير- واحداً من هؤلاء الناس. لم يكن لدى أندي رفيق في الزنزانة، وسمعت بأن تلك كانت رغبته. ولكنني لست مضطراً إلى الاستماع إلى الشائعات عن رجل في حين يمكنني أن أحكم عليه بنفسي.

قال أندي: "مرحباً. أدعى أندي دوفريسن". مدّ يده إليّ فصافحته. لم يكن من النوع الذي يضيّع الوقت في مخالطة الآخرين، بل كان يدخل في صلب الموضوع مباشرة. "فهمت أنك رجل تعرف كيف تدبّر الأشياء".

وافقته القول إنني أستطيع تدبير بعض الأشياء بين الحين والآخر.
سألني أندي: "كيف تقوم بذلك؟"
قلت: "في بعض الأحيان، يبدو أن تلك الأشياء تصلني من تلقاء نفسها. وأنا لا أستطيع أن أشرح لك الأمر بغير أنني أيرلندي".
ردّ على ما قلته بابتسامة خفيفة وقال: "أتساءل إن كان في مقدورك أن تحضر لي مطرقة".
"ما هو هذا الشيء، ولماذا تريده؟"
بدا أنه فوجئ بسؤالي وقال: "هل تجعل الدوافع جزءاً من عملك التجاري؟" بعد أن سمعت منه تلك الكلمات عرفت لماذا يوصف بأنه متكبر؛ ولكنني أحسست بشيء من الفكاهة في سؤاله.
قلت له: "سأخبرك. إذا كنت تريد فرشاة أسنان، لن أطرح عليك أية أسئلة، وإنما أحدد لك سعراً، لأن فرشاة الأسنان، كما تعرف، ليست أداة قاتلة".
"هل لديك حساسية شديدة تجاه الأدوات القاتلة؟"
"أجل".
طارت كرة نحونا، فالتفت بسرعة الهرّة، والتقطها وهي في الهواء، في خطوة كان سيفتخر بها فرانك مالزوني. أعاد أندي الكرة إلى المكان الذي جاءت منه بضربة سريعة باليد، ولكن كان لتلك الضربة بعض النكهة. كان في مقدوري رؤية كثير من الأشخاص الذين يراقبوننا بأعينهم فيما كانوا يتدبّرون شؤونهم الخاصة. وربما كان الحرّاس في البرج يراقبوننا أيضاً. وأنا لن أبالغ في وصف ذلك الأمر، لكن هناك بعض المساجين الذين لديهم وزن في أي سجن، وربما يصل عددهم إلى أربعة أو خمسة في سجن صغير، وربما يصل إلى عشرين أو ثلاثين في سجن كبير. في سجن شاوشانك، كنت أحد هؤلاء الذين لديهم وزن، وهو ما يعني أنه سيكون لرأيي في أندي دوفريسن أهمية كبيرة في كيفية قضائه لوقته هنا. وعلى الأرجح أنه عرف ذلك أيضاً، ولكنه لم يكن يتذلل، وقد احترمت ذلك الأمر فيه.
"كلامك منطقي. سأقول لك ما هو هذا الشيء ولماذا أريده. المطرقة أداة أشبه بفأس صغيرة؛ بهذا الطول تقريباً". وباعد بين يديه ليريني مقدار طولها، وعندها لاحظت لأول مرّة مدى نظافة أظافره، "وهي تتميّز برأس

مـستدقّ مـن جانب، ورأس مسطح في الجانب الآخر. وأنا أريد مطرقة لأنني أحب الحجارة".

قلت له: "تحبّ الحجارة".

قال: "انتظر لحظة".

مازحته، ثم جلسنا على الأرض كما يفعل الهنود.

بـدأ أندي بتجميع الأوساخ بيديه النظيفتين، وهو ما خلّف سحابة من الغبار الناعم. كان فيها بعض الحجارة. وأحد هذه الحجارة القاتمة كان من الكوارتـز، ولكـنه لـم يعد كذلك بعد أن فركه بيده، بل بدا حجراً أبيض جمـيلاً. قـام أندي بتنظيف الحجر ثم رماه في اتجاهي. أمسكت بالحجر، وذكرت له اسمه.

قـال: "إنه من الكوارتز بالتأكيد. انظر. هذا حجر من المايكا، وهذا حجـر مـن الطـين الصفحي، وهذا حجر من الغرانيت مع رواسب من الغـرين. وهـذه قطعـة من الحجر الجيري المدرّج، وهي الأحجار التي اقتلعوها من جانب هذا التل ليشيدوا هذا المكان". رمى تلك الأحجار بعيداً، وأزال غـبارها عـن يديه. وأضاف: "أنا مولع بالحجارة... أو كنت على الأقل مولعاً بها. وعندما أكبر، أرغب في أن أكون كذلك أيضاً، ولكن على نطاق محدود".

سألته، وأنا أهمّ بالنهوض: "هل ترغب في القيام برحلات استكشافية فـي أيام الآحاد في ساحة التمارين الرياضية؟" كانت فكرة سخيفة، غير أن رؤية هذا الحجر الصغير من نوع الكوارتز جعلتني مرحاً بعض الشيء. لا أعـرف الـسبب علـى وجه التحديد، فربما كانت هذه مناسبة سمحت لي بالإلـتقاء بالعـالم الخارجـي فيما أعتقد. فأنت لا تفكر في أمور كهذه في الملعب، لأن الكوارتز حجر تلتقطه من مجرى نهر صغير.

قـال أنـدي: "من الأفضل أن تقوم برحلات استكشافية هنا في أيام الآحاد بدلاً من عدم القيام بأية رحلات على الإطلاق".

قلت له: "يمكن زرع شيء مثل هذه المطرقة في رأس أحدهم".

قال بهدوء: "لا يوجد لديّ أعداء هنا".

ابتسمت، وقلت: "على الإطلاق؟ انتظر لحظة".

"إذا كانـت تـوجد مـشكلة، ففي إمكاني معالجتها دون أن أستخدم مطرقة".

"ربما تفكر في الهرب، كأن تتسلل من أسفل السور، لأنك إذا كنت..."

ضحك بأدب. وعندما رأيت المطرقة بعد ثلاثة أسابيع، فهمت سبب حاجته إليها.

قلت له: "أنت تعرف بأنه إذا رآك شخص، وأنت تحمل مطرقة، فسينتزعها منك. وإذا رأى ملعقة في يدك، فسينتزعها منك. فما الذي تنوي أن تقوم به، الإكتفاء بالجلوس في الملعب وحفر الأرض؟"

"أعتقد أن بإمكاني القيام بما هو أفضل بكثير من ذلك".

لومأتُ برأسي. لم يكن ذلك الجزء من المسألة من اختصاصي على كل حال. إنه رجل يريد الإستعانة بخدماتي لكي أحضر له شيئاً. لكن كيفية الإحتفاظ به أمر يخصه هو.

سألته: "كم يبلغ ثمن أداة مثل هذه؟" كنت قد بدأت بالإستمتاع بأسلوبه الهادئ واللطيف. عندما تكون قد أمضيت عشر سنين من الإثارة، كما فعلت حتى ذلك الحين، يمكن أن تشعر بالملل من الذين يصيحون ويتباهون، ويتشدقون. أجل، أعتقد بأنه سيكون من الإنصاف القول إنني أعجبت بأندي منذ لقائي الأول به.

قال: "ثمانية دولارات في متجر الخرضوات، ولكنني أعرف بأنه في عمل مثل العمل الذي تقوم به، هناك تكاليف إضافية".

"الكلفة الإضافية هي عشرة في المئة، ولكن يتوجب عليّ زيادتها إذا كانت الأداة خطرة. بالنسبة إلى الأداة التي تسأل عنها، سأحتاج إلى دفع مزيد من المال من أجل تدبّرها. لنقل إن ثمنها يبلغ عشرة دولارات".

"إذن المبلغ هو عشرة دولارات".

نظرت إليه، وابتسمت قليلاً، وسألته: "هل تملك عشرة دولارات؟"

أجابني بهدوء: "أجل".

بعض مضي وقت طويل اكتشفت أنه يملك أكثر من خمسمائة دولار كان قد أحضرها معه. عندما يفتشون ثيابك في هذا الفندق، من واجب أحد الحرّاس أن يطلب منك الإنحناء من أجل تفتيشك، ولكن يمكن لشخص لديه التصميم أن يدخل شيئاً من غير أن يلحظه أحد.

قلت: "هذا جيد. يجدر بك أن تعرف ما أتوقعه منك في حال أمسكوا بك وأنت تحمل ذلك الشيء الذي سأحضره لك".

قـــال: "أعتقد بأنه ينبغي أن أعرف". كان في مقدوري الإستنتاج من التغيّـــر البسيط في عينيه الرماديتين أنه عرف بالضبط ما كنت سأقوله له. كان في حديثه شيء من البساطة ومسحة من الفكاهة الساخرة.

"إذا أمسكوا بـــك، عليك أن تقول بأنك وجدتها. وهذا كل ما ينبغي علـــيك قوله. وسيضعونك في حبس انفرادي لمدة ثلاثة أسابيع أو أربعة... إضافة إلى أنك ستفقد لعبتك، وتحصل على علامة سوداء في سجلّك. لكنك إن أعطيـــتهم اســـمي، فلن أتعامل معك بعدها أبداً. وسأرسل بعض الرفاق لكـــي يـــشبعوك ضرباً. أنا لا أحبّ العنف، ولكنك ستتفهم موقفي. فأنا لا أستطيع السماح بخروج الأمور عن السيطرة، فهذا يعني القضاء عليّ بكل تأكيد".

"أجل. هذا ما سأفعله. أنا أفهم حقيقة الأمر، ولا داعي لأن تقلق".

قلت له: "أنا لا أقلق أبداً. في مكان مثل هذا، لا مجال للقلق".

أومـــأ برأســـه ثـــم ذهب. وبعد ثلاثة أيام، مشى بجانبي في الملعب الرياضـــي أثـــناء استراحة الزملاء في المغسل. لم يتكلم أو ينظر حتى في اتجاهي، ولكنه وضع صورة لألكسندر هاملتون في يدي بمثل خفة الساحر في تلاعبه بأوراق اللعب. كان رجلاً استطاع أن يتكيف بسرعة. أحضرت لـــه المطـــرقة، حـــيث أبقيـــتها فـــي زنزانتي لليلة واحدة، وكانت مطابقة للأوصـــاف التـــي ذكرها لي تماماً. فلم تكن أداة للهرب (لأنه سيحتاج إلى ســـتمائة عـــام تقريباً لكي يحفر نفقاً أسفل السور باستخدام تلك المطرقة)، ولكننـــي شـــعرت بالـــرغم من ذلك ببعض الريبة. فلو وضع ذلك الرأس المـــستدقّ في رأس أحدهم، فهو بالتأكيد لن يستمع إلى غابير ماكي ومولي علـــى جهاز الراديو مجدداً، علماً بأن مشكلات أندي مع *الشقيقات* كانت قد بدأت أصلاً. ولكنني أملت بألاّ يكونون السبب الذي ابتاع المطرقة من أجله.

فـــي الـــنهاية، تأكدت من صحة حكمي. ففي ساعة مبكرة من صباح الـــيوم التالي، وقبل عشرين دقيقة من إطلاق صفارة النهوض من الفراش، وضعت المطرقة في سترتي وكذلك علبة سجائر لإرني، ذلك الزميل القديم الذي بقي يمسح ممرات جناح الزنزانات الخامس إلى أن أُطلق سراحه في العـــام 1956. دسّ أندي المطرقة في سترته من غير أن ينبس ببنت شفة، ولم أرَ المطرقة بعد ذلك طوال تسع عشرة سنة، وبمرور تلك الفترة كانت قد بليت تقريباً من غير أن يُنتفَع منها بشيء.

فــي الأحــد التالــي، اقترب منّي أندي في باحة التمارين الرياضية مجـدداً، لم يكن يوجد فيه شيء يستحقّ النظر إليه، فقد كانت شفته السفلى مـتورّمة لدرجة أنها بدت أشبه بقطعة سجق، وكانت عينه اليمنى متورّمة وشـبه مغمـضة، كمـا كـان هناك جرح بشع على خدّه. كان يعاني من مـشكلات مـع *الشقيقات*، ولكنه لم يأتِ على ذكر ذلك. قال لي: "أشكرك على الأداة". ثم مضى في طريقه.

راقبـته بفـضول. مـشى بضع خطوات، ورأى شيئاً بين الأوساخ، فانحنـى والتقطه، وكان حجراً صغيراً. لا توجد جيوب في ثياب المساجين الـذين يقومـون بأعمال السخرة، باستثناء الثياب التي يلبسها الميكانيكيون أثـناء عملهـم. ولكـن هناك طرق للتغلب على هذه المشكلة. وضع أندي الحجـر الـصغير في كمّه. أعجبت بتلك الحركة كما أعجبت بأندي. فعلى الرغم من المشكلات التي كان يعاني منها، كان يتابع حياته بطريقة عادية. هـناك الآلاف الـذين لا يريدون أو لا ينوون أو لا يستطيعون فعل ذلك، والكثير من هؤلاء ليسوا في السجون أيضاً. ولاحظت أيضاً أنه بالرغم من أن وجهــه بدا كما لو أنه اجتاحه إعصار، فقد كانت يداه أنيقتين ونظيفتين، وكذلك أظافره.

لـم أرَه كثيراً في الشهور الستة التالية، فقد كان أندي يمضي الكثير من وقته في تلك الفترة في عزلة.

أودّ أن أذكـر لك القليل عن *الشقيقات*. ممن يعرفون بالمتنمرين، ثم اشـتهروا بالملوك القتلى. لكن في شاوشانك، كانوا دائماً الـشقيقات. لست أعـرف الـسبب، لكن فيما عدا الإختلاف في الأسماء، أعتقد بأنه لم يكن يوجد بينهم فارق.

لـيس بالأمر المفاجئ بالنسبة إلى الكثيرين في هذه الأيام انتشار الـشذوذ داخـل هـذه الجـدران، لكن المثلية تأتي بمئات من الأشكال والـنماذج المخـتلفة. فهـناك رجال لا يمكنهم الإمتناع عن الممارسة بطـريقة مـا، فيترددون إلى رجل آخر ليحميهم من الإصابة بالجنون. وعادة ما يتبع ذلك اتفاق بين الرجلين اللذين كانا يشتهيان الجنس الآخر فـي الأسـاس، بالـرغم مـن أنني أتساءل أحياناً إن كان أمثال هؤلاء سيـشتهون المغايـر بالقـدر الـذي يعتقدونه فعلاً عندما يعودون إلى زوجاتهم أو عشيقاتهم.

ويوجد في السجن رجال *يتغنّيرون*. وبالعبارة الدارجة، يصبحون مثليين. وغالباً (لكن ليس دائماً) ما يلعبون دور الأنثى حيث يجري التنافس بشراسة على إرضائهم.

الآن جاء دور الحديث عن *الشقيقات*. إنهم بالنسبة إلى المجتمع الموجود في السجن مثل المغتصب بالنسبة إلى المجتمع الذي خارجه. وعادة ما يكونون من أصحاب المدد الطويلة لارتكابهم جرائم وحشية. وفريستهم سجين صغير، وضعيف، وعديم الخبرة... أو كما في حالة أندي دوفريسن، ضعيف من حيث المظهر. والساحات التي يصطادون فيها فريستهم هي الحمامات، والأماكن المعزولة خلف الغسالات في المغسل، وفي المستوصف أحياناً. وقد حدثت عمليات اغتصاب في أكثر من مناسبة في الكشك الذي بحجم للخزانة خلف القاعة العامة. وغالباً ما تأخذ *الشقيقات* عنوة ما كان في الإمكان أخذه مجاناً، إذا كانت تلك مشيئتهم. لكن *الشقيقات* يجدون دائماً متعة في أخذ ما يريدون بالقوة، وأعتقد بأنهم سيبقون على هذه الحال دائماً.

بالنظر إلى حجمه الصغير، ومظهره الحسن (وربما بسبب ميزة تمالك النفس التي أعجبتني فيه)، بدأ *الشقيقات* بملاحقته منذ الساعة التي وصل فيها. ولو كان ما أقوله لك نوعاً من القصص الخيالية، لكنت قلت إن أندي قاتل قتالاً شرساً إلى أن تركوه وشأنه. كنت أرغب لو كان في إمكاني قول ذلك، ولكنني لا أستطيع، فالسجن ليس عالم القصص الخيالية.

أول محاولة اعتداء عليه وقعت في الحمام ولم يكن قد مضى على انضمامه لعائلتنا السعيدة في شاوشانك سوى ثلاثة أيام. بدأ الأمر بالملامسة والمداعبة، كما فهمت. فهم يرغبون في قياس رد فعلك قبل أن يقدموا على خطوتهم التالية، كما يفعل ابن آوى عندما يريد معرفة إن كانت الفريسة ضعيفة كما يوحي مظهرها.

ردّ أندي باللكمات، وأصاب شفة *شقيقة* ضخم أخرق اسمه بوغز دايموند. لكن حارساً دخل المكان قبل أن تتطور الأمور أكثر. توعّده بوغز قائلاً إنه سينال منه؛ وهذا ما قام به بوغز فعلاً.

وقعت الحادثة الثانية خلف الغسالات في المغسل. وقع الكثير من الحوادث في ذلك الحيّز الطويل، والوسخ، والضيّق على مرّ السنين. والحراس على علم بما يحدث ولكنهم لا يتدخلون. إنه مكان معتم ومليء

بأكياس الثياب وأدوات التنظيف، وملاة الهكسلايت التي لن تؤذي يديك مثل الملـــح إذا كانتا جافتين، ولكنها تصبح قاتلة مثل حمض البطاريات إذا كانتا رطبتـــين. لا يحـــب الحـــراس الـــذهاب إلى هناك. فالمكان لا يسمح لهم بالمـــناورة، وأول الأشياء التي يتعلمونها عندما يأتون للعمل في مكان مثل هـــذا هو عدم السماح للمساجين بمحاصرتهم في مكان لا يمكنهم الحصول على الدعم فيه.

لـــم يكـــن بوغز هناك في ذلك اليوم، لكن هينلي باكوس، الذي يعمل كمـــراقب في غرفة الغسيل منذ العام 1922، قال لي بأن أربعة من رفاقه كانـــوا هناك. تمكن أندي من إبقائهم بعيداً لفترة من الوقت مستخدماً مغرفة صـــغيرة مليئة بالهكسلايت، مهدداً بنثرها على عيونهم إن حاولوا الإقتراب أكثر، ولكنه تعثر أثناء محاولته الإلتفاف حول أحد الصناديق، فوثبوا عليه في الحال.

أعـــتقد بأن عبارة اغتصاب العصابات لا تتغير كثيراً مع الإنتقال من جـــيل إلـــى آخـــر. هذا ما فعله به أولئك *الشقيقات* الأربع. لا يصاب من تعـــرّض للإعـــتداء بأي أذى بدني، ولكن الإغتصاب يبقى اغتصاباً. وفي نهاية المطاف، تنظر إلى وجهك في المرآة مجدداً، وتقرر ماذا ستصنع من نفسك.

مـــرّ أندي بهذه المعاناة لوحده، كما فعل في كل معاناة مرّ بها طوال تلك الأيام. لا بدّ وأنه وصل إلى الإستنتاج الذي وصل إليه من كانوا قبله، وهـــو أنـــه توجد طريقتان فقط للتعامل مع *الشقيقات*: مقاتلتهم ثم التعرّض للإعتداء أو الإكتفاء بالتعرض للإعتداء.

قـــرّر أنـــدي أن يقاتل. وعندما لحق به بوغز واثنان من رفاقه بعد مرور أسبوع تقريباً على حادثة المغسل (قال بوغز: "سمعت بأنك تعرضت لاعـــتداء". وفقاً لرواية إرني الذي كان معنا في تلك الفترة) وجّه إليه أندى لكمـــة قوية، وكسر أنف أحد رفاقه، ويدعى روستر ماكبرايد، وهو مزارع ضخم دخل السجن لأنه ضرب ربيبته حتى الموت. وقد توفي روستر هنا، وأنا سعيد لإضافة هذه المعلومة.

غادر بوغز دايموند السجن في ذلك الصيف إلى الأبد. كان ذلك حدثاً غـــريباً، فقد وُجد بوغز في زنزانته وقد تعرّض لضرب مبرّح في صباح أحد الأيام في أوائل شهر يونيو/حزيران وذلك عندما لم يُسمع صوته أثناء

عـد الحاضرين في غرفة تناول الإفطار. لم يقل من فعل به ذلك، أو كيف تمكن من الوصول إليه. لكن بحكم خبرتي، أعرف بأنه يمكن رشوة سجّان لكـي يقـوم بـأي شيء عدا عن إحضار مسدس لسجين. لم تكن رواتب الـسجانين مجـزية، وهي لا تزال على هذه الحال الآن. في تلك الأيام، لم يكـن يـوجد نظام إغلاق إلكتروني، ولا دارة تلفزيونية مغلقة، ولا مفاتيح رئيسية تتحكم بكافة الأقسام داخل السجن. في العام 1948، كان لكل جناح زنـزانات مفتاحه اليدوي الخاص. وبالتالي كان في الإمكان رشوة حارس بكـل سـهولة لكـي يسمح لشخص -وربما لشخصين أو ثلاثة أشخاص- بالدخول إلى الجناح، أو إلى زنزانة دايموند.

لا بـدّ وأن كلفـة هـذا العمل كانت باهظة بالطبع، وليس ذلك وفقاً للمعاييـر الخارجية. كلا، فالمعايير الإقتصادية في السجون أكثر تواضعاً. عندما تمكث في السجن مدة من الزمن، ستجد أن فاتورة بمبلغ دولار واحد تـشبه فاتـورة بمبلغ عشرين دولاراً في الخارج. وحسبما أعتقد فقد كلّف الإعتداء على بوغز شخصاً ما مبلغاً كبيراً من المال؛ لنقل خمسين دولاراً للحـصول علـى المفـتاح، إضافة إلى المال الذي دُفع لشخصين أو ثلاثة أشخاص لقاء إشباعه ضرباً.

كما أنني أعرف أمراً آخر، وهو أنه بعد عملية الضرب تلك - التي تـسببت بكسر ثلاثة أضلاع، ونزيف في العين، والتواء في الظهر، وورك مخلـوع- لـم يعـد بوغز دايموند يتعاطى مع أندي. في الواقع، بعد تلك الواقعة، لم يعد يتعاطى مع أحد. وأصبح مثل ريح قوية في فصل الصيف، كثيرة الصخب لكن قليلة الأضرار. ويمكنك القول إذا شئت بأنه تحول إلى *شقيقة* ضعيف.

كانت تلك نهاية بوغز دايموند، رجل ربما كان سيقدم على قتل أندي في النهاية لو لم يقم أندي بالخطوات اللازمة لمنعه من القيام بذلك (إذا كان هـو ذلـك الـشخص الـذي قام بتلك الخطوات). ولكن ذلك لم يكن نهاية مشكلات أندي مع *الشقيقات*. توقفت التحرّشات لفترة من الوقت، ثم عادت مجدداً، وإن لم تكن بمستوى العنف نفسه أو الوتيرة ذاتها. فابن آوى يحبّ الفريسة السهلة، وهناك طرائد في السجن أسهل من أندي دوفرين.

كـان يقاتلهم دائماً، هذا ما أذكره عنه. فقد عرف حسبما أعتقد بأنهم إذا تمكـنوا من النيل منه بدون قتال مرّة، فسيكون من الأسهل عليه تركهم

يـنالون منه بدون قتال في المرّة التالية. ولهذا السبب، كان أندي يعاني من رضوض في وجهه بين الحين والآخر، كما أنه أصيب بكسر في اثنين من أصـابعه بعد ستة أو ثمانية شهور من ضرب دايموند. أجل؛ وفي يوم في أواخـر العام 1949، دخل الرجل عيادة المستوصف بعد أن أصيب حنكه بكـسر مـن جرّاء ضربه بأنبوب على الأرجح. كان يقاومهم دائماً، ولهذا الـسبب، كان يمضي وقته في عزلة. ولكنني لا أعتقد بأن أندي كان يعاني مـن العزلة كما هو حال الرجال الآخرين، لأنها كانت فرصة لكي يختلي بنفسه.

كـان *الـشقيقات* واقعاً عرف كيف يتكيف معه؛ وفي العام 1950، توقـف الأمر كلياً تقريباً. وهذا جزء من قصتي التي سأرويها عندما يحين الوقت المناسب.

في خريف العام 1948، التقيت بأندي في صباح أحد الأيام في ساحة التمارين الرياضية، وسألني إن كانَ في مقدوري أن أحضر له ست أدوات جلخ أفقية.

سألته: "ما هو هذا الشيء الذي تطلبه؟"

شـرح لـي ما يقصده المولعون بالحجارة، كان ما يريده عبارة عن قطعـة قماش للتلميع بحجم المنشفة، مزودة ببطانة سميكة، مع وجه أملس وآخر خشن؛ الوجه الأملس يشبه ورقة سنفرة ذات حبيبات ناعمة، والوجه الخشن عبارة عن مادة حاكّة مثل الليف الفولاذي الصناعي (لقد كان أندي يحـتفظ بصندوق في زنزانته، بالرغم من أنه لم يحصل عليه منّي؛ أعتقد بأنه وجده في مغسل السجن). قلت له إننا يمكن أن نتفق على هذه الأشياء، وقمت بإحضارها له من المتجر نفسه الذي حصلت منه على المطرقة. لكن فـي هـذه المـرّة، تقاضيت من أندي نسبة العشرة في المئة المعتادة ولم آخذ سـنتاً إضافياً. فأنا لم أتصور وجود شيء قاتل أو حتى خطر في قطع مقاسها 15×15 سم من القماش المبطن، أي أدوات الجلخ الأفقية.

مـرّت خمسة شهور تقريباً قبل أن يسألني أندي إن كان في مقدوري أن أحـضر لـه صورة لريتا هايوُرث. دار ذلك الحوار في القاعة العامة، أثناء عرض فيلم سينمائي. في هذه الأيام، أصبحنا نشاهد الأفلام السينمائية مـرة أو مرتين في الأسبوع، ولكنها كانت في ذلك الحين مناسبة شهرية. عـادة ما تتضمن الأفلام التي نشاهدها رسالة ترفع المعنويات، وهذا الفيلم،

عطلــة نهاية الأسبوع الضائعة، لم يكن شيئاً مختلفاً. العبرة الأخلاقية التي تحــدث عنها الفيلم هي خطر تعاطي المسكرات. إنها عبرة يمكننا أن نجد بعض السلوى فيها.

قام أندي بمناورة لكي يقترب مني، وعندما وصلنا إلى منتصف الفيلم تقــريباً، اقتــرب مني أكثر، وسألني إن كنت أستطيع أن أحضر له صورة لــريتا هايْــوُرث. ســأقول لك الحقيقة، لقد أثار الأمر فضولي. فهو بارد، وهــادئ، ورزيــن في العادة، لكن في تلك الأمسية، كان سريع الإنفعال، ومحرجاً تقريباً، كما لو كان يطلب مني إحضار بعض الأشياء الهابطة التي يفترض أنها تزيد من *متعة خلوتك*، كالمجلات مثلاً. بدا رجلاً كثير النشاط وعلى وشك أن يفرغ طاقاته.

قلــت لــه: "يمكنني احضارها لك. لكن عليك أن تهدأ أولاً. هل تريد الكبيــرة أم الــصغيرة؟" في ذلك الوقت، كانت ريتا فتاتي المفضلة (وقبل بــضع ســنين كانــت بيتــي غرابل)، وصورها تأتي في مقاسين. يمكنك الحصول على صورة ريتا الصغيرة مقابل دولار واحد، ويمكنك الحصول على صورة ريتا الكبيرة، والتي هي بطول متر وعشرين سنتيمتراً بقامتها الكاملة، مقابل دولارين ونصف.

قــال من غير أن ينظر إليّ: "أريد ريتا الكبيرة". أود أن أقول لك إنه لم يكن على عادته في تلك الليلة. بدا محمرّ الوجه مثل طفل يحاول الدخول إلى صالة سينما باستخدام بطاقة التجنيد. "هل يمكنك القيام بذلك؟"

"اطمــئن، يمكنني احضارها لك بالتأكيد. *هل يقضي الدبّ حاجته في الغابــة*؟" كــان الجمهــور يصفق، ويطلق صيحات الإستهجان مع خروج الحشرات من الجدران لكي تنال من راي ميلاند.

"هل يمكنك إحضارها بسرعة؟"

"في غضون أسبوع، وربما في غضون وقت أقلّ".

"حسناً". ولكنه بدا محبطاً، كما لو أنه كان يأمل بأن تكون إحدى هذه الصور في سروالي في تلك الليلة. "كم يبلغ ثمنها؟"

ذكرت له السعر الإجمالي. يمكنني إحضارها له بثمن الكلفة، فقد كان زبــوناً جيداً. كما كان رجلاً طيباً؛ تساءلت في أكثر من مناسبة عندما كان يعاني من مشكلات مع بوغز، وروستر، والباقين، إلى متى سيبقى صابراً قبل أن يلجأ إلى استخدام المطرقة ليسحق بها رأس أحدهم.

تعتبر الصور جزءاً هاماً من عملي، بحيث إنها تأتي بعد المشروبات والسجائر مباشرة، وقبل السجائر المحشوة بالحشيش بنصف خطوة. وخلال الستينيات، توسعت أعمالي في كافة الإتجاهات، مع تزايد الطلب على جيمي هندريكس، وبوب دايلان، وصورة إيزي رايدر. لكن غالباً ما كانت صور الفتيات التي تعلّق على الجدران، تطلب الواحدة تلو الأخرى.

بعد مرور بضعة أيام على حديث أندي معي، أحضر سائقُ إحدى شاحنات المغسل ممن أتعامل معهم أكثر من ستين صورة، تعود في غالبيتها لريتا هايوُرث. ربما كنت تتذكر تلك الصورة أيضاً، فأنا متأكد من ذلك.

إن إدارة السجن على علم بالسوق السوداء هذه، في حال كنت تتساءل عن ذلك، فهي تعرف بأمرها بالتأكيد. وربما كانت تعرف عن أعمالي بقدر ما أعرف أنا. وهي راضية بذلك لأنها تدرك بأن السجن أشبه بقدر ضغط كبيرة، وبأنه ينبغي توفر متنفس للسماح بتصريف بعض الطاقة. وهي تقوم بالمداهمات في المناسبات، وكنت أقضي فترات عقوبة في السجن الإنفرادي ثلاث مرات في العام تقريباً، ولكنهم يغضون الطرف عن أشياء مثل الصور. عِش ودع غيرك يعيش. وعندما تظهر صورة كبيرة لريتا هايوُرث في زنزانة مريبة، فالإفتراض هو أنها وصلت بواسطة البريد من صديق أو قريب. صحيح أنه يجري فتح كافة الرزم التي يرسلها الأصدقاء والأقارب والتحقق من محتواها وتسجيله، لكن من الذي سيتكبّد عناء الرجوع إلى السجلات للتحقق من شيء لا يؤذي مثل صورة لريتا هايوُرث أو آفا غاردنر؟ عندما تكون في قدر ضغط، تتعلم كيف تعيش وتدع غيرك يعيش وإلاّ فسينحت شخص لك فماً من طراز جديد فوق جوزة حلقك تماماً. في السجن، تتعلم شيئاً عن التسامح.

كان إرني هو الذي حمل الملصق مجدداً إلى زنزانة أندي التي تحمل الرقم 14 من زنزانتي التي تحمل الرقم 6. وهو الذي عاد إليّ بورقة كتب عليها أندي بخطّه الأنيق كلمة واحدة فقط "شكراً".

بعد ذلك بوقت قصير، أثناء إخراجنا من الزنزانات من أجل تناول طعام الفطور، نظرت إلى زنزانته خلسة، وشاهدت صورة ريتا. كانت معلقة فوق سريره حيث يمكنه أن ينظر إليها في الليالي بعد أن تُطفأ الأنوار، على وهج الأنوار الساطعة في ساحة التمارين الرياضية.

الآن، أودّ أن أروي لــك مــاذا حصل في منتصف مايو/أيار 1950 والــذي أنهى أخيراً سلسلة مناوشات أندي التي استمرت ثلاث سنوات مع *الـشقيقات*. كانــت تلك أيضاً الحادثة التي أخرجته في نهاية المطاف من المغــسل إلــى المكتــبة حيث صار يملأ وقته بالعمل إلى أن غادر عائلتنا الصغيرة السعيدة في وقت مبكر من ذلك العام.

ربما لاحظتَ أن الكثير مما أخبرتك عنه عبارة عن روايات سمعتها؛ شخص رأى شيئاً وأخبرني بما رآه، وأنا رويت لك ما أخبرني به. حسناً، قمــت بتبــسيط الأمور في بعض الأحيان بحيث لم أروِ لك كل ما حصل فعــلاً، وأنــا أكرّر (أو سأكرر) معلومة تداولها أربعة أشخاص أو خمسة. فهكذا تسير الأمور هنا. إن الشائعات واقعية جداً، وعليك أن تستخدمها إذا كنت تريد البقاء في المقدمة كما عليك أن تعرف بالطبع كيف تنتقي أجزاء الحقيقة من بين الأكاذيب، والأقاويل، والأمنيات. ربما خطرت ببالك فكرة بأنني أصف شخصاً أقرب إلى الأسطورة منه إلى الرجل، وينبغي عليّ أن أتفــق معــك علــى أنه يوجد شيء من الحقيقة في ذلك. بالنسبة إلينا نحن الــسجناء الذين نقضي فترات سجن طويلة، ونعرف أندي منذ عدة سنين، يوجد عنصر خيالي فيه، شيء من السحر الأسطوري، إذا كان في مقدورك أن تفهــم ما أعنيه. والقصة التي رويتها لك عن رفض أندي التسليم لبوغز دايموند جزء من تلك الأسطورة، وقتاله المستمر مع *الشقيقات* جزء منها، وكيفية حصوله على وظيفة في المكتبة جزء منها أيضاً... ولكن مع فارق هــام وحيد وهو أنني كنت هناك ورأيت ماذا حصل، وأقسم بأن ما سأقوله لــك هو الحقيقة. ربما كان قسَم شخص مدان لا يساوي الكثير، لكن صدّق ما سأقوله لك: "أنا لا أكذب".

صــرنا نتحدث بصراحة، فهذا الرجل سحرني. ولو عدنا إلى قصة الــصورة، سأجد بأن هناك شيئاً واحداً تجاهلت الإشارة إليه، وربما هذا ما كــان يجدر بي أن أفعله. فبعد مرور خمسة أسابيع على تعليقه صورة ريتا (كــنت قد نسيت أمرها وانشغلت بإبرام صفقات أخرى)، أحضر لي إرني صندوقاً صغيراً أبيض اللون. قال "إنه من دوفريسن".

قلت له: "شكراً يا إرني". وأعطيته نصف علبة سجائر.

والآن، تــساءلت عــن هذا الشيء الذي أحضره لي فيما كنت أنزع غطاء الصندوق. كان يوجد فيه الكثير من القطن الأبيض، وأسفله...

بقيت أنظر لفترة طويلة. مرّت دقائق من غير أن أجرؤ على لمس ما فيه، فقد كان جميلاً جداً. يوجد نقص حادّ في الأشياء الجميلة في هذا المكان، والجميل في الأمر أنه يوجد الكثير من الرجال الذين لا يشعرون بالإفتقار إلى هذه الأشياء الجميلة.

كان يوجد في ذلك الصندوق قطعتان من الكوارتز، وكانتا مصقولتين بعناية، ومنحوتتين على شكل قطعتين خشبيتين. كان يوجد فيهما الكثير من آثار بيريت الحديد كما لو كانت نقطاً من الذهب. ولو لم تكونا ثقيلتي الوزن، ربما كانتا ستصلحان كزوج لأزرار لكمّي قميص؛ كانتا أشبه بمجموعة متطابقة.

ما هو مقدار العمل الذي قام به لنحت هاتين القطعتين؟ ساعات وساعات بعد إطفاء الأنوار. فالعمل يبدأ بالنحت والقولبة، ثم تأتي مرحلة التلميع والصقل التي لا تنتهي بواسطة أدوات الجلخ الأفقية. عندما نظرت إليهما، شعرت بالدفء الذي يشعر به أي رجل أو امرأة عندما ينظر إلى شيء جميل، شيء تطلب جهداً وبراعة. أعتقد بأنني شعرت بشيء آخر أيضاً، شيء من الرهبة بسبب مثابرة رجل لا يعرف الكلل. ولكنني لم أعرف مقدار إصرار أندي دوفريسن إلاّ في وقت متأخر جداً.

في مايو/أيار 1950، قررت السلطات بأنه ينبغي طلاء سطح منشأة تصنيع لوحات السيارات بطبقة من القطران. أرادت القيام بهذا العمل بسرعة قبل أن ترفع حرارة الجوّ، ولذلك طلبت بعض المتطوعين للقيام بهذا العمل الذي خُطط لكي ينتهي في غضون أسبوع تقريباً. تطوع ما يزيد عن سبعين رجلاً لأنه كان عملاً خارجياً، ومايو/أيار شهر جميل يساعد على القيام بالأعمال الخارجية. وقع الإختيار على تسعة أسماء أو عشرة بالقرعة، وصدف أن اسمي واسم أندي كانا من بين تلك الأسماء.

كنا نسير في الأسبوع التالي إلى باحة التمارين الرياضية بعد تناول وجبة الفطور، وكان يسير أمامنا حارسان، إضافة إلى حارسين في الخلف، من غير أن ننسى طبعاً كافة الحراس في البرجين الذين كانوا يراقبوننا عن كثب من خلال المناظير.

كان أربعة منا يحملون سلّماً طويلاً قابلاً للمد في المسير الصباحي كل يوم، وكنا نسنده إلى جدار ذلك المبنى المنخفض والمسطح. وبعد ذلك،

نبدأ بنقل براميل القطران الحارّ إلى السقف. اسكب بعضاً من القطران على جلدك، وستذهب جرياً على الأقدام إلى المستوصف.

لشرف على ذلك العمل ستة حراس تم اختيارهم على أساس الأقدمية. كان العمل أشبه بإجازة أسبوعية رائعة لأنه بدلاً من التصبب عرقاً في المغسل أو في منشأة تصنيع لوحات السيارات أو الإشراف على مجموعة من المساجين وهم يقطعون الأخشاب أو ينتزعون الأعشاب الضارة في الساحات، كانوا يقضون أيام عطل منتظمة من أيام مايو/أيار تحت أشعة الشمس، وهم جالسون يتحاورون، وظهورهم تستند إلى السور المنخفض. حتى أنهم ليسوا بحاجة إلى التشدد في مراقبتنا لأن مركز الحراسة الملاصق للسور الجنوبي قريب بما يكفي للسماح للرفاق الذين في الأعلى أن يلفظوا العلك التي في أفواههم علينا إذا أرادوا ذلك. وفي حال قام أي عضو في الفريق الذي يطلي السقف بخطوة واحدة مضحكة، فلن يستغرق تمزيقه برصاصات المدفع الرشاش من عيار 0.45 أكثر من أربع ثوانٍ. ولذلك، كان هؤلاء الحرّاس يكتفون بالجلوس وقضاء قسط من الراحة. وكل ما كانوا بحاجة إليه هو ست زجاجات مدفونة في الثلج المجروش، وسيكونون أسياد الجلسات الترفيهية.

أحد هؤلاء الحرّاس كان زميلاً اسمه بايرون هادلي، وبحلول العام 1950، كان عدد السنوات التي أمضاها في العمل في شاوشانك أكثر من السنوات التي قضيتها فيه. في الواقع، فاقت مدة عمله هنا مدة عمل الحارسَين الآخرَين إذا جمعنا فترتي عملهما معاً. كان الزميل الذي يشرف على العمل في العام 1950 من الشمال اسمه جورج دونهي وكان أنيقاً. وهو يملك شهادة في إدارة السجون، وكان مكروهاً من قبل الجميع على حسب علمي، باستثناء الأشخاص الذين تدبّروا أمر تعيينه. وسمعت بأنه لا يهتم سوى بثلاثة أشياء: جمع الإحصاءات من أجل كتاب (نُشر في وقت لاحق من قبل دار في نيو إنغلند تسمى لايت سايد برس، وعلى الأرجح أنه احتاج إلى سداد ثمن الطباعة سلفاً)، ومعرفة الفريق الذي فاز ببطولة كرة القاعدة المحلّية كل سبتمبر/أيلول، وتمرير قانون تنفيذ عقوبة الإعدام في ماين. كان جورج دونهي أحد المؤيدين التقليديين لتنفيذ عقوبة الإعدام. وقد طُرد من وظيفته في العام 1953 بعد أن تبين بأنه كان يدير أعمال صيانة السيارات بكلفة متدنية في مرآب السجن ويتقاسم الأرباح مع بايرون هادلي

وغريغ ستاماس. خرج هادلي وستاماس من تلك الفضيحة بدون أذى- فقد كانا بارعين في إخفاء تورّطهما في تلك العملية- ولكن دونهي تحمّل العقوبة. لم يأسف أحد على رحيله، ولكن لم يُسرّ أحد لرؤية غريغ ستاماس مكانه أيضاً. كان رجلاً قصيراً يتميز بملامح قاسية، وعينين بنيتين باردتين لن ترى مثلهما أبداً، وكان يُظهر دائماً وجهاً عبوساً مؤلماً، كما لو كان يريد الذهاب إلى الحمام ولكنه لا يستطيع تدبّر الأمر. تميزت معاملة السجانين بالكثير من الوحشية أثناء مدة رئاسة ستاماس، وبالرغم من عدم امتلاكي إثباتات، لكنني أعتقد بأنه تم دفن حوالي خمسة أشخاص ليلاً في الغابة التي تقع في يسار السجن. كان دونهي سيئاً، ولكن غريغ ستاماس كان متوحشاً، ووغداً، وقاسي القلب.

أمضى دونهي وبايرون هادلي أوقاتهما كصديقين حميمين. وبوصفه حارساً، لم يكن دونهي أكثر من رئيس صوري يتباهى بنفسه، ولكن ستاماس هو الذي أدار السجن من خلال دونهي وهادلي.

كان هادلي رجلاً طويلاً ثقيل الحركة وأحمر الشعر. كانت آثار أشعة الشمس تظهر على وجهه بسهولة، وكان يتحدث بصوت مرتفع، وفي حال لم تتحرك بالسرعة التي تناسبه، كان يضربك بعصاه.

في ذلك اليوم، كان الشخص الثالث على السطح يتحدث إلى حارس آخر اسمه ميرت إنتوستل. كان لدى هادلي بعض الأخبار المدهشة، ولذلك عمل على لفت أنظار الآخرين. هذا هو أسلوبه؛ كان رجلاً ناكراً للجميل لا يمكن أن ينطق بكلمة واحدة طيبة أمام أي كان، رجلاً تملكته قناعة بأن العالم أجمع يعاديه. فقد سرق العالم منه أفضل سنين حياته، وسيكون العالم أكثر سعادة إذا تمكن من سرقة الباقي. تعرفت على بعض الحراس الذين اعتقدت بأنهم ورعون. وأظن أنني أعرف سبب ذلك؛ إنهم قادرون على رؤية الفارق بين حياتهم الخاصة، الفقيرة والشقية، وحياة الرجال الذين تدفع لهم الولاية رواتبهم لإدارة السجن. أي أن هؤلاء الحراس قادرون على إجراء مقارنة بالإستناد إلى الألم كمعيار، في حين لا يستطيع الآخرون إجراءها أو لا يرغبون بالقيام بذلك.

بالنسبة إلى بايرون هادلي، لم يكن يوجد معيار للمقارنة. كان في إمكانه الجلوس هناك، هادئاً ومرتاحاً تحت أشعة شمس مايو/أيار الدافئة، والعثور على سبب لكي يندب حظه الجيد في حين توجد مجموعة من

الــرجال على مسافة لا تزيد على ثلاثة أمتار يعملون وهم يتصببون عرقاً فـيما تحترق أيديهم بسبب تلك الدلاء المليئة بسائل القطران المغلي، رجال يتوجب عليهم أداء عمل شاقّ في أيام تبدو أشبه بالراحة بالنسبة إليهم. ربما تتذكر السؤال القديم، ذلك السؤال الذي من المفترض أن يحدد نظرتك إلى الحياة عندما تجيب عنه. بالنسبة إلى بايرون هادلي، سيكون الجواب دائماً، 'نــصف فارغ'، الكوب نصف فارغ، إلى الأبد. لنفترض أنك أعطيته كوباً من عصير التفاح البارد، ستراوده أفكار بأنه خلّ. وإذا قلت له بأن زوجته كانت مخلصة له دائماً، سيقول لك بأن السبب هو بشاعتها التي لا يوجد لها مثيل.

كان يجلس هناك وهو يتحدث إلى ميرت إنتوستل بصوت مرتفع بما يكفي لكي يصل إلى آذان الجميع، وكانت جبهته العريضة البيضاء قد بدأت بالإحمرار بفعل أشعة الشمس، فيما وضع إحدى يديه على السور المنخفض الذي يحيط بالسقف، والأخرى على قِراب مسدسه 0.38.

ســمعنا جمــيعاً القــصة مع ميرت. وما فهمناه هو أن شقيق هادلي الأكبر انتقل إلى تكساس قبل أربع عشرة سنة تقريباً ولم يسمع أفراد عائلته عنه شيئاً منذ ذلك الحين. اعتقدوا بأنه مات، أو أنه ذهب من دون عودة. ثم اتــصل بهــم محامٍ منذ أسبوع ونصف من أوستن. قال إن شقيق هادلي قد توفــي قــبل أربعــة شهور. مات وهو رجل غني (قال أحد العاملين على الــسطح، "مــن المدهش كيف يمكن لبعض المعتوهين أن يكونوا على هذا القــدر مــن الحظ"). جمع ذلك الرجل ثروته بعمله في النفط وعقود النفط، وقد بلغت نحو المليون دولار.

كــلا، هادلي لم يصبح مليونيراً –ربما كان ذلك سيجعله سعيداً، لمدة قــصيرة علــى الأقــل– فقد ترك شقيقه وصية اشترط فيها توزيع خمسة وثلاثــين ألف دولار على كل فرد حيّ من أفراد عائلته في ماين، إذا أمكن العثور عليهم. هذا ليس بالأمر السيئ، بل أشبه بشخص حالفه الحظ، وفاز بجائزة سباق الخيل.

غيــر أن كــوب بايرون هادلي كان نصف فارغ دائماً. وهو أمضى كافة الفترة الصباحية تقريباً وهو يشكو حظه إلى ميرت بسبب الحصة التي ســتنتزعها الحكومة من هذه الثروة غير المتوقعة. قال: "ستترك لي نصف المبلغ تقريباً وهو ما يكفيني لشراء سيارة جديدة. وماذا سيحصل بعد ذلك؟

عليك أن تدفع الضرائب المتوجبة على السيارة، إضافة إلى تكاليف إصلاحها وصيانتها، وسيضايقك أولادك بالطلب منك أن تسمح لهم بقيادتها".

قال ميرت: "وقيادتها، إذا كانوا في عمر يجيز لهم ذلك". عرف ميرت إنتوستل ذلك الجزء من الرغيف الذي تعلوه الزبدة، ولذلك لم يقل ما لا بدّ أنه كان واضحاً بالنسبة إليه كما هو بالنسبة إلى الباقين منّا: إذا كان ذلك المال يسبب لك كل هذا القلق، فسأكتفي بإزاحة حمله عن كاهلك. ففي النهاية، لماذا نحن أصدقاء؟

قال بايرون: "هذا صحيح، يريدون قيادتها، ويريدون تعلّم القيادة عليها. وماذا سيحصل عند انتهاء العام؟ إذا وُجد خطأ في حساب ما يتوجب عليك دفعه من ضرائب ولم يعد لديك ما يكفي لتغطية الفرق، عليك أن تسدد الباقي من جيبك الخاص، أو ربما تُضطرّ إلى اقتراض المبلغ من إحدى وكالات التسليف. كما أن الحكومة ستراجع حساباتك على كل حال. وعندما تفعل ذلك، فهي تأخذ المزيد دائماً. فمن يستطيع أن يحارب العم سام؟ إنه يضع يده داخل قميصك ويعصر بطنك إلى أن يصبح وردي اللون. وسينتهي بك الأمر إلى سداد المبلغ كاملاً".

صمت لفترة من الوقت فيما كان يفكر في هذا الحظ السيئ الذي جعله يرث مبلغ خمسة وثلاثين ألف دولار. كان أندي دوفريسن يطلي السطح بالقطران بواسطة فرشاة كبيرة وهو على مسافة لا تزيد عن خمسة أمتار. وما لبث أن وضعها في الدلو وتوجّه إلى المكان الذي يجلس فيه ميرت وهادلي.

حبسنا أنفاسنا جميعاً، ورأيت أحد الحرّاس، واسمه تيم يونغبلود وهو يضع يده على مسدسه، في حين ربت أحد الرفاق في برج الحراسة على ذراع صديقه والتفتا إليه أيضاً. اعتقدتُ لبرهة بأن أندي سيتعرض لإطلاق نار، أو للضرب، أو للأمرين معاً.

قال أندي لهادلي بصوت رقيق جداً: "هل تثق بزوجتك؟"

حدّق هادلي به، وبدأ وجهه يتحوّل إلى اللون الأحمر، وعرفت أن تلك علامة سيئة. وفي غضون ثلاث ثوانٍ تقريباً، سحب هراوته، ونخز بها أندي بين فخذيه. يمكن لضربة قوية في هذا الموضع أن تقتلك، ولكنهم يسعون دائماً إلى توجيه ضرباتهم إلى هذا الموضع. وإذا لم تقتلك الضربة،

فستــصيبك بالــشلل مدة تكفي لكي تنسى الخطة الظريفة التي كنت تخطط للقيام بها.

قال هادلي: "أيها الصبي، سأمنحك فرصة واحدة فقط لكي تمسك بتلك الفرشاة. وستنزل من ذلك السطح على رأسك".

اكتفــى أندي بالنظر إليه بهدوء وبدون حركة. كانت عيناه جامدتين مثل الجليد، وبدا كما لو أنه لم يسمع ما قيل له. وتولّدت لديّ رغبة في أن أشـــرح له حقيقة الموقف، وأعطيه مقرراً تعليمياً سريعاً. ينص هذا المقرر علـــى وجــوب عدم مقاطعة الحرّاس وهو يتحدثون ما لم يُطلب منك ذلك (وعندئذٍ، عليك أن تقول بالضبط ما يريدون سماعه ثم تغلق فمك مجدداً). لا يهمّ إن كان الرجل أسود، أم أبيض أو أحمر أم أصفر، لأننا نملك جميعاً فـــي السجن صفتنا المميزة الخاصة. في السجن، جميع المساجين يعاملون كمـــا لو كانوا سود البشرة، وعليك أن تعتاد على هذه الفكرة إذا كنت تنوي الصبر على رجال من أمثال هادلي وغريغ ستامامس، الذين سيقتلونك حتماً حالما ينظرون إليك. عندما تكون في السجن، فأنت ملك للولاية؛ وفي حال نـــسيت ذلك، فالويل لك. عرفتُ رجالاً فقدوا أعينهم، وعرفت رجالاً فقدوا أصــــابعهم. أردت أن أقول ذلك لأندي لكن الأوان كان قد فات أصلاً. ففي إمكانه العودة والإمساك بالفرشاة وسيكون هناك رجل ضخم في انتظاره في الحمامـــات في تلك الليلة. والأهم من ذلك كله، أردت أن أنصحه بألاّ يزيد الوضع السيئ أصلاً سوءاً.

لكن ما قمت به هو أنني بقيت أطلي المسطح بالقطران كما لو أن شيئاً لا يحـــدث. فأنا، مثل أي شخص آخر، أهتم بمصالحي أولاً. عليّ أن أفعل ذلك، والوضع أشبه بلوح تشقق أصلاً، وفي شاوشانك، يوجد دائماً أشخاص من أمثال هادلي على استعداد لإنهاء مهمة تكسيره.

قال أندي: "ربما أسأتُ التعبير عما أريد قوله. فسواء كنت تثق بها أم لا، هــذه مــسألة لا تهمنا هنا. المشكلة هي فيما إذا كنت تعتقد بأنها ستلجأ يوماً إلى القيام بعمل ما من وراء ظهرك، وتحاول خداعك".

نهــض هادلي، ونهض ميرت، ونهض تيم يونغبلود. أصبح وجه هادلي أحمـــر مثل قطعة من الجمر. قال: "مشكلتك الوحيدة ستكون في إحصاء عدد العظـــام التـــي بقيت سالمة من الكسور. وفي إمكانك عدّها في المستوصف. اقترب يا ميرت، لأننا سنقوم بإلقاء هذه الحثالة من هذا الجرف".

شهر تيم يونغبلود مسدسه، فيما واصل من تبقّى منّا طلاء القطران مثل المجانين. إنها ضربة شمس. لا بدّ وأنهم سيقومون بفعلتهم، سيقوم هادلي وميرت ببساطة بإلقائه من الجرف. حادث فظيع. كان السجين دوفريسن، الذي يحمل الرقم 81433-شاوشانك يحمل بضعة دلاء فارغة عندما انزلقت رجله عن السلّم. يا له من حادث مؤسف.

أمسك الحارسان به، فأمسك ميرت بيده اليمنى، فيما أمسك هادلي بيده اليسرى. ولم يُبدِ أندي أيّة مقاومة، كما لم يرفع عينيه عن وجه هادلي الأحمر.

أضاف أندي بنفس النبرة الهادئة: "إذا كنت تسيطر على السيدة هادلي، فما من سبب يمنعك من أخذ كل سنت من ذلك المال. سيكون المجموع النهائي يا سيد هادلي خمسة وثلاثين ألف دولار. ولن يأخذ منه العم سام شيئاً".

بدأ ميرت بجرّه نحو الحافّة، فيما بقي هادلي في مكانه بدون حراك. لوهلة، بدا أندي أشبه بحبل في لعبة شدّ الحبال. ثم قال هادلي: "انتظر لحظة يا ميرت. ماذا تقصد بقولك هذا أيها الصبي؟"

قال أندي: "ما أعنيه هو أنك إذا كنت تسيطر على زوجتك، ففي إمكانك إعطاءها المال".

"من الأفضل أن تتكلم بعبارات مفهومة، وإلاّ فستسقط من هنا".

قال أندي: "تسمح لك مصلحة جباية الضرائب بتقديم هدية لمرّة واحدة فقط لزوجتك. ويمكن أن تصل قيمة تلك الهدية إلى ستين ألف دولار".

صار هادلي ينظر إلى أندي كما لو أنه قُطع رأسه بفأس. قال: "كلا، هذا الكلام ليس صحيحاً. أتقول بأن المبلغ معفى من الضرائب؟"

قال أندي: "إنه معفي من الضرائب، ولا يمكن لمصلحة جباية الضرائب أن تلمس منه سنتاً واحداً".

"كيف يمكن لك أن تعرف شيئاً كهذا؟"

قال تيم يونغبلود: "كان يعمل مصرفياً يا بايرون. وأعتقد بأنه يمكنه..".

قال هادلي: "أغلق فمك يا تراوت". من غير أن ينظر إليه. احمرّ وجه تيم يونغبلود، وأغلق فمه في الحال. يطلق عليه بعض الحرّاس لقب تراوت لأن شفتيه سميكتان وعينيه أشبه بعيني رجل مخبول. بقي هادلي

ينظـــر إلى أندي، وقال: "أنت المصرفي الذكي الذي قتل زوجته. ما الذي يدعونـــي إلـــى تصديق مصرفي ذكي مثلك؟ آه، لكي ينتهي بي الأمر إلى تكسير الصخور معك؟ فهذا ما تتمناه، أليس كذلك؟"

قال أندي بهدوء: "إذا دخلتَ السجن بتهمة التهرّب من دفع الضرائب، فـستدخل سجناً فيدرالياً، وليس سجن شاوشانك. ولكنك لن تفعل. إن الهدية المعفـــاة من الضرائب التي تقدمها لزوجتك ثغرة قانونية مثالية. وقد قمتُ باســتغلالها عــشرات، لا بل مئات المرات. إنها تهدف أساساً إلى السماح للأشـــخاص الذين يديرون أعمالاً تجارية صغيرة بالحصول على إعفاء من الضرائب، وكذلك الأشخاص الذين يجلون كسباً غير متوقع لمرّة واحدة في حياتهم، مثلك تماماً".

قـــال هادلـــي: "أرى أنك تكذب". ولكن أندي لم يكن يكذب؛ كان في إمكانـــك أن تـــرى أنه لا يكذب. أحسسنا بأن عاطفة تنبع من وجه هادلي، وشيئاً غريباً على جبين لفحته الشمس، عاطفة شبه مجنونة عندما تنظر إلى قسمات وجه بايرون هادلي. كان هناك أمل.

"كـــلا، أنـــا لا أكـــذب. وأنا لا أرى سبباً لعدم تصديق كلامي أيضاً. استشر محامياً، ثم اذهب إلى مصلحة جباية الضرائب، وسيقولون لك الأمر نفسه من غير أن يتقاضوا منك شيئاً. في الواقع، أنت لست بحاجة إليّ لكي أخبرك بذلك أصلاً، ففي إمكانك التحقق مما قلته لك بنفسك".

"أنـــت رجل ملعون. وأنا لست بحاجة إلى مصرفي ذكي قتل زوجته لكي يدلّني على ما فيه مصلحتي".

قـــال أنـــدي: "ســتحتاج إلى محامٍ مختص بالأمور الضريبية أو إلى مـــصرفي لكـــي يعدّ لك الهدية وهو أمر سيكلفك بعض النقود. أو إذا كان يهمك الأمر، سأكون سعيداً بإعدادها لك بدون مقابل تقريباً، أما السعر فهو ثلاث زجاجات من الشراب لزملائي في العمل".

قـــال ميرت: "زملاؤك في العمل". فيما كان يضحك بصوت مرتفع. كان ميرت العجوز حارساً وغداً. أملت بأن يموت بمرض سرطان الأمعاء في جزء من العالم حيث لم يتم اكتشاف المورفين بعد. "زملاؤك في العمل، أليس هذا ظريفاً؟ زملاؤك في العمل؟ أنت لن تحصل على.."

صـــاح هادلي: "أغلق فمك اللعين". فلاذ ميرت بالصمت. أعاد هادلي النظر إلى أندي مجدداً. "ماذا كنتَ تقول؟"

أجاب أندي: "كنت أقول بأنني سأكتفي بطلب ثلاث زجاجات من الشراب لزملائي في العمل، إذا كان العرض يبدو عادلاً. في اعتقادي، سيشعر الرجل بأنه رجل فعلاً عندما يعمل في الهواء الطلق في فصل الربيع إذا كان في مقدوره الحصول على زجاجة من الشراب. أنا أعبّر عن رأيي وحسب. ستتم الأمور بسلاسة، وأنا على ثقة بأنهم سيكونون ممتنّين لك".

تحدثتُ إلى بعض الرجال الآخرين الذين كانوا معنا في ذلك اليوم- ريني مارتن، ولوغان سان بيير، وبول بونسانت كانوا ثلاثة منهم- لقد رأينا جميعاً الشيء نفسه. فقد أصبح أندي فجأة من يدير الدفة. كان هادلي الطرف الذي يضع مسدساً في وسطه، وهراوة في يده، والذي لديه صديق خلفه اسمه غريغ ستاماس، وكانت إدارة السجن بأكملها خلف ستاماس، وسلطة الولاية خلف كل ذلك، ولكن فجأة، لم يعد لذلك أهمية تحت أشعة الشمس الذهبية، وشعرت بأن قلبي قفز من صدري كما لم يحدث من قبل منذ أن أوصلتني الشاحنة إلى هذا المكان، وأقفل أربعة أشخاص البوابة خلفي في العام 1938 ومشيت نحو باحة الألعاب الرياضية.

نظر أندي إلى هادلي بعينيه الباردتين، والصافيتين، والهادئتين. لم يكن الأمر مقتصراً على حكاية الخمسة وثلاثين ألف دولار، فقد اتفقنا جميعاً على ذلك. أعدت الحكاية مرة بعد أخرى في ذهني وعرفت السبب. كان الوضع يتلخص في وقوف رجل في مواجهة رجل، وتمكن أندي ببساطة من إخضاعه كما يمكن لرجل قوي أن يرغم رجلاً ضعيفاً على إنزال يده على الطاولة في لعبة مصارعة الأيدي. لم يكن يوجد سبب كما ترى يمنع هادلي من إعطاء إشارة لميرت في تلك الدقيقة لكي يلقي بأندي من فوق الحافة على رأسه، ثم يعمل بنصيحته بعد ذلك.

لا يوجد سبب، ولكنه لم يفعل ذلك.

قال هادلي: "بإمكاني أن أشتري لكم زجاجات من الشراب إذا شئت ذلك. سيكون للشراب طعم جيد وأنتم تعملون". حتى أن العملاق اللعين تمكن من إظهار شهامته.

قال أندي: "سأكتفي بقول نصيحة واحدة لك لن تكلّف مصلحة جباية الضرائب نفسها عناء تقديمها لك". كانت عيناه ثابتتين على هادلي من غير أن ترمشا. "قدّم تلك الهدية لزوجتك إذا كانت واثقاً منها. وإذا كنت تعتقد

بأنه يوجد احتمال بأن تعمد إلى خداعك أو توجيه طعنة لك في الظهر، ففي إمكانك العمل على شيء آخر".

تساءل هادلي بحدّة: "تخدعني؟ أيها السيد المصرفي البارع، إنها لا تجرؤ حتى على تذوّق طعامها ما لم أعطِها إشارة بذلك".

قال أندي: "سأملأ لك الإستمارات التي تحتاج إليها. يمكنك الحصول عليها من مكتب البريد، وسأملأها لك لكي توقّع عليها". كان لتلك العبارة أهمية خاصة، فقد انتفخ صدر هادلي، ثم نظر إلينا وقال: "ما الذي تنظرون إليه؟ تحرّكوا عليكم اللعنة". وعاد ونظر إلى أندي وقال: "وأنت تعال معي أيها البارع. أصغِ إليّ جيداً. إذا كنت تريد خداعي بطريقة ما، فستجد نفسك تركض وراء رأسك في الحمام قبل أن ينقضي الأسبوع".

قال أندي بنبرة ناعمة: "أجل، أفهم ذلك". وهو فهم ما سمعه فعلاً. وكما تبين لنا فيما بعد، لقد فهم أشياء كثيرة لم أفهمها أنا؛ كما لم يفهمها أي شخص آخر. وهكذا انتهى أمر فريق من المساجين عمل على طلاء سقف منشأة تصنيع لوحات السيارات بالقطران في العام 1950، في اليوم ما قبل الأخير من إكمال انتهاء العمل، إلى احتساء الشراب وهم جالسون عند الساعة العاشرة من صباح يوم من أيام الربيع؛ شراب قدمه لهم أقسى فريق حراسة عمل في سجن شاوشانك. لم يكن الشراب بارداً، ولكنه ظل أفضل شراب تذوقته في حياتي. جلسنا ونحن نشرب وأحسسنا بأشعة الشمس وهي تلفح أكتافنا، ومن غير أن نرى أدنى تعبير عن نصف سعادة أو نصف رضى على وجه هادلي – كما لو كان يراقب مجموعة من القرود، لا مجموعة من الرجال وهم يحتسون شرابهم– يمكن أن يفسد علينا جلستنا. دامت تلك الجلسة عشرين دقيقة أحسسنا فيها أننا رجال أحرار. كنا أشبه بمن يحتسي الشراب، ويطلي بالقطران سطح منزله.

كان أندي الشخص الوحيد الذي لم يشرب. سبق أن أخبرتك عن عادته في الشرب. اكتفى أندي بالجلوس في الظل، ويداه معلقتان بين ركبتيه، وهو يراقبنا وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة. كان مدهشاً عدد الرجال الذين يتذكرونه وهو في تلك الحال، وكان مدهشاً عدد الرجال الذين كانوا في فريق العمل عندما واجه أندي دوفريسن المراقبَ بايرون هادلي. اعتقدت بأنهم كانوا تسعة أو عشرة أشخاص منا. ولكن بحلول العام 1955، لا بدّ وأن العدد بلغ مائتين، وربما أكثر... إذا كنت تصدق ما سمعتَه.

أجل، إذا طلبت إجابة صريحة عن السؤال حول مع إذا كنت أحاول أن أخبرك عن رجل أو أسطورة تشكّلت تحت أعين الرجال، مثل حبّة لؤلؤ يحيط بها القليل من الحصى؛ سأقول لك بأن الجواب يكمن في صفة ما بين الصفتين. وكل ما أعرفه على وجه اليقين هو أن أندي لم يكن يشبهني أو يشبه أي شخص آخر عرفته منذ أن دخلت السجن. لقد أحضر معه خمسمائة دولار، وبطريقة ما، تمكن من إحضار شيء آخر أيضاً *إحساس بقيمته الخاصة*، أو إحساس بأنه سيكون الفائز في النهاية... أو ربما مجرّد حسّ بالحرّية، حتى داخل هذه الجدران الرمادية اللون. كان معه نوع من الأنوار الداخلية حملها معه. وهو لم يفقد ذلك النور سوى مرّة واحدة، وذلك جزء من قصته أيضاً.

لم يعد أندي يعاني من مشكلات مع *الشقيقات*. فقد مرّر ستاماس وهادلي كلمة التحذير. ففي حال جاء أندي دوفريسن إلى أي منهما أو إلى أي حارس آخر من رفقتهما، وكشف له عن أدنى إشارة إلى أنه تعرّض لاعتداء، فسيذهب كل من *الشقيقات* إلى سريره في تلك الليلة مع ألم في الرأس. لم تبدر عنهم أية مقاومة للوضع الجديد. وبعد ذلك اليوم الذي قضاه على سطح منشأة تصنيع اللوحات، مضى أندي في طريقه ومضى *الشقيقات* في طريقهم.

منذ ذلك الحين، صار يعمل في المكتبة، تحت إشراف سجين قاسٍ اسمه بروكس هاتلين. حصل هاتلين على تلك الوظيفة في أواخر العشرينيات لأنه تلقّى تعليماً جامعياً. كان حائزاً على شهادة في تربية المواشي، ولكن التعليم الجامعي في مؤسسات ذات دخل منخفض مثل سجن شاوشانك هي من الندرة بحيث إنها تجسد مثالاً على القول المأثور الذي يقول بأنه لا يحقّ للمتسولين الإختيار.

في العام 1952، حصل بروكسي، الذي كان قد قتل زوجته وابنته بعد خسارته في لعبة البوكر على إطلاق سراح مشروط. وكما هي العادة، أبقته الولاية بحكمتها السديدة مدة طويلة في السجن إلى أن ضاعت كل الفرص التي يمكن أن تسمح له بأن يصبح جزءاً صالحاً في المجتمع. كان قد بلغ ثمانية وستين عاماً، وأصيب بالتهاب في المفاصل عندما أُخرج من البوابة الرئيسية ببزته البولندية وحذائه الفرنسي، وأوراق إطلاق السراح المشروط في يد وتذكرة حافلة نقل الركاب في اليد الأخرى. كان يبكي

عندما غادر السجن، فقد كان شاوشانك عالمه، والعالم الذي خارج جدرانه كـــان بالنسبة إلى بروكس بمثل قطاعة البحار الغربية بالنسبة إلى البحارة الخرافيين في القرن الخامس عشر. في السجن، كان بروكس شخصاً مهماً، كـــان أمين المكتبة، والرجل المثقف. لكن في حال ذهب إلى مكتبة كيتري وطلـــب الحصول على وظيفة، فلن يسمحوا له حتى بالحصول على بطاقة مكتـــبة. وســمعت أنـــه توفي في دار للمعوزين المسنين في العام 1953، وبـــبلوغه تلـــك السنة، كان قد عمّر لمدة تزيد بمقدار ستة شهور عن المدة التـــي اعـــتقدت بأنه سيعمّرها. فقد درّبوه على حبّ العالم داخل السجن ثم ألقوه خارجه.

خلف أندي السجينَ بروكس في وظيفته، وأصبح أمين المكتبة طوال ثـــلاث وعـــشرين سنة. وقد استخدم قوة الإرادة نفسها التي شاهدناه وهو يستخدمها مع بايرون من أجل الحصول على ما يريده للمكتبة، ورأيته وهو يحـــوّل بـــشكل تدريجـــي إحـــدى الغرف الصغيرة (التي لا تزال رائحة التيـــربنتين تفـــوح منها لأنها ظلت تُستخدم كمستودع لأدوات الدهان حتى العام 1922 ولأنها لم تكن تتمتع بتهوئة جيدة) من غرفة مليئة بكتب ريدر دايجست، وناشونال جيوغرافيك لتصبح أفضل مكتبة في سجون نيو إنغلند.

قـــام بـــتلك العملية خطوة بعد أخرى، فبدأ بوضع صندوق للإقتراحات بالقـــرب مـــن الـــباب، وتخلّـــص من كافة المنشورات التافهة. ولكنه احتفظ بالمنـــشورات التي أبدى المساجين اهتماماً جنياً بها. وكتب إلى النوادي الثقافية الرئيـــسية في نيويورك، وأقنع اثنين من هذه النوادي، بإرسال كافة منشوراتهم الرئيسية إلينا بسعر زهيد. لقد اكتشف رغبة ملحّة في الحصول على معلومات تـــتعلق بهـــوايات بسيطة مثل نحت الصابون، والمصنوعات الخشبية، وألعاب خفّة اليد، ولعب الورق الإفرادية. وحصل على كل ما أمكنه من كتب تتحدث عـــن هذه المواضيع. كما أنه وضع صندوقاً للكتب أسفل طاولة الإستعلامات، فكان يعيرها بحرص مع التأكد من إعادتها إلى المكتبة دائماً.

ويـــدأ يكـــتب لمجلـــس الشيوخ في أوغوستا في العام 1954. وكان ســـتامامس قـــد أصبح مراقب السجن حينها، واعتاد على وصف أندي بأنه جالب الحظ. وكان يمضي وقته في المكتبة في التحدث إلى أندي، حتى أنه كان يلفّ ذراعه حول كتف أندي في لفتة أبوية. لكنه لم يخدع أحداً، وأندي لم يجلب الحظ لأحد.

قـال لأندي بأنه ربما كان مصرفياً خارج السجن، ولكن ذلك الجزء مـن حـياته تحول بسرعة إلى شيء من الماضي وأنه من الأفضل له أن يعتاد على حقائق الحياة داخل السجن. وفي ما يتعلق بمجموعة الجمهوريين الـروتاريين فـي أغوسـتا، كانت هناك ثلاثة أوجه لصرف أموال دافعي الـضرائب علـى السجون والإصلاحيات. الوجه الأول هو بناء مزيد من الجدران، والوجه الثاني هو إضافة المزيد من القضبان، والوجه الثالث هو زيادة عدد الحرّاس. وفي معرض الحديث عن مجلس الشيوخ في الولاية، قـال سـتاماس بأن الرفاق في توماستون، وشاوشانك، وبيتسفيلد، وساوث بورتلاند هم حثالة أهل الأرض. كانوا هناك من أجل تعقيد الأمور، وتعقيد الأمـور هـوَ العمل الذي ينوون القيام به. وفي حال كان يوجد القليل من السوس في الخبز، فلن يكون أمراً في غاية السوء.

رسـم أنـدي على وجهه ابتسامته الخفيفة والرصينة، وسأل ستاماس عمـا يمكن أن يحدث لمكعب من الخرسانة المسلحة في حال كانت تسقط علـيه قطـرة واحـدة من المياه كل العام وعلى مدى مليون عام. ضحك سـتاماس، وربـت على ظهر أندي وقال: "لن تقضي مليون سنة في هذا المكـان أيهـا الحصان العجوز، لكن في حال حدوث ذلك، فأنا أعتقد بأنك ستقـضي تلـك السنوات وعلى وجهك تلك الإبتسامة الخفيفة نفسها. اكتب الرسائل، وسأرسلها عبر البريد نيابة عنك في حال دفعت ثمن الطوابع".

هـذا ما قام به أندي. وكان الشخص الذي ضحك أخيراً، بالرغم من أن سـتاماس وهادلي لم يكونا من بين العاملين في السجن لكي يريا ذلك. بقـيت الطلبات التي كان يقدمها أندي لتوفير الأموال للمكتبة تُرفض بشكل روتينـي لغايـة العام 1960، عندما حصل على شيك بمبلغ مائتي دولار؛ على الأرجح أن مجلس الشيوخ وافق على تخصيص ذلك المبلغ على أمل إسـكاته وصـرفه. لـم يكن ذلك الأمل أكثر من وهم، فقد شعر أندي بأنه وضع أخيراً إحدى قدميه على الطريق وهو ما حمله ببساطة على مضاعفة جهوده، فصار يبعث برسالتين كل أسبوع بدلاً من رسالة واحدة. وفي العام 1962، حـصل علـى أربعمائة دولار، وفي السنوات التي بقيت من ذلك العقـد، كان يحصل على سبعمائة دولار في العام بشكل منتظم. وفي العام 1971، ارتفع المبلغ إلى ألف دولار، وهذا مبلغ ليس مبلغاً كبيراً إذا قارنّاه بما تحصل عليه المكتبات العادية في البلدات الصغيرة حسبما أعتقد، ولكن

مـــبلغ ألـــف دولار يمكـــن أن يساعد على شراء الكثير من قصص بيري مايـــسون وجايـــك لوغان ويسترنز. وبحلول الوقت الذي غادر فيه أندي، صـــار فـــي إمكانـــك دخول المكتبة (التي توسعت من غرفة لخزن أدوات الـــدهان الأصلية لتشتمل على ثلاث غرف)، وتجد كل شيء تريده تقريباً. وفـــي حال صادف ولم تجد طلبك، كان هناك احتمال قوي بأن يتمكن أندي من إحضاره لك.

ربما تسأل نفسك الآن إن كانت هذه التطورات حدثت لأن أندي أخبر بايـــرون عـــن كيفـــية إعفاء المال غير المتوقَّع الذي ورثه من الضرائب. والجواب هو نعم... ولا. وعلى الأرجح أنك ستتمكن من معرفة ما حصل بنفسك.

ســـرت أحاديـــث بـــأن شاوشانك يأوي داهية في شؤون المال. ففي أواخـــر فـــصل الـــربيع وصيف العام 1950، أنشأ أندي صندوقَي ائتمان للحـــرّاس الذين يرغبون في تأمين التعليم الجامعي لأولادهم، وقدم نصائح لـــبعض الحـــرّاس الآخـــرين الـــذين أرادوا المخاطرة بشراء أسهم عادية (وتمكـــنوا من تحقيق أرباح مرتفعة كما تبيّن لاحقاً، حتى أن أحدهم تمكن من الحصول على تقاعد مبكر بعد ذلك بسنتين)، سأكون كاذباً إذا قلت بأنه لـــم يـــساعد مـــراقب السجن نفسه، جورج دونهي، على كيفية إعداد ملاذ ضـــريبي لنفسه. حدث ذلك قبيل طرده بوقت وجيز، وأعتقد بأنه لا بدّ وأنه كـــان يحلـــم بالملايين التي سيجنيها من كتابه. بحلول العام 1951، صار أنـــدي يعـــدّ الكشوفات الضريبية لعدد من الحرّاس في شاوشانك، وبحلول العـــام 1952، بـــات يعـــدّ الكـــشوفات الضريبية لكل الحرّاس فيه. وكان يتقاضى أكثر النقود قيمة في السجن: النية الحسنة.

في وقت لاحق، عندما أصبح ستاماس المراقب في السجن، بات أندي شخـــصية أكثـــر أهمـــية؛ لكنني إذا حاولت أن أذكر لك كيفية حدوث ذلك بالتفصيل، سأكون في عداد المخمّنين. فهناك أشياء لا أعرفها عن الآخرين ولا يمكننـــي سوى تخمينها. فأنا أعرف بأن بعض المساجين حصلوا على كافة الإعتبارات الخاصة-أجهزة راديو في زنزاناتهم، إمتيازات غير عادية في عدد الزيارات، وأشياء من هذا القبيل- وأنه يوجد أشخاص في الخارج يقدمون لهم المال لكي يحصلوا على تلك الإمتيازات. يطلق المساجين على هـــؤلاء الأشـــخاص لقب أنجلز. فقد يتم إعفاء سجين من العمل في منشأة

تصنيع اللوحات في فترة ما بعد الظهر من أيام السبت، ويمكنك أن تستنتج بـــأن لذلك الزميل أنجل (ملاك) في الخارج دفع مبلغاً من المال لكي يؤمن لـــه ذلـــك. إن الطريقة المتبعة في العادة هي في أن يدفع الأنجل (الملاك) رشـــوة إلـــى حـــارس متوســـط الرتبة، ليقوم هذا الحارس بتوزيعها على الأشخاص الذين هم في أعلى وأسفل السلّم الإداري.

ثـــم بـــرزت فضيحة صيانة السيارات التي تسببت في طرد المراقب دونهـــي. وقـــد استمرّت العملية في الخفاء مدة من الوقت، ثم برزت إلى الـــسطح بقـــوة لـــم يـــسبق لهـــا مثيل في أواخر الخمسينيات. كان بعض المـــتعاقدين الـــذين يـــتعاملون مع إدارة السجن بين الحين والآخر يدفعون بعـــض العائـــدات إلى كبار المسؤولين في الإدارة، وأنا واثق تماماً من أن الأمر نفسه ينطبق على الشركات التي كان يتم شراء معداتها وتركيبها في المغـــسل، ومنـــشأة تـــصنيع اللوحات، ومصنع الأختام الذي شُيّد في العام 1963.

بحلول نهايات الستينيات، حدثت طفرة في التجارة بالأقراص، وكانت المجمـــوعة الإدارية نفسها منهمكة في جمع المال فيها. وقد تحول ذلك إلى نهر هادر من المداخيل الخفية. لم تكن تلك المداخيل تشبه أكوام الدولارات الخفـــية التي لا بدّ وأنها توزّع في سجن كبير مثل أتيكا أو سان كوينتين، ولكنها لم تكن مبالغ تافهة أيضاً. لقد تحول المال نفسه إلى مشكلة بعد فترة وجيـــزة. فأنت لا تستطيع وضع هذا المال في محفظتك ثم توزع مجموعة مـــن الأوراق المالية من فئة العشرين وفئة العشرة دولارات عندما ترغب فـــي بـــناء حـــوض للسباحة في فناء منزلك أو إضافة طابق إليه. فبعد أن تتجاوز نقطة معينة، عليك أن تبين المصدر الذي جاء منه كل ذلك المال... وإذا لـــم تكـــن تفسيراتك مقنعة بما فيه الكفاية، فمن المحتمل أن ينتهي بك الأمر إلى المحاكمة.

بالتالي، كان هناك حاجة إلى خدمات أندي، لذلك أخرجوه من المغسل ووضـــعوه في المكتبة. ولكن إذا كنت تريد أن تنظر إلى المسألة من زاوية أخـــرى، فإنـــك لن تتخيل خروجه من المغسل أصلاً. فكل ما قاموا به هو أنهـــم أوكلـــوا إليه مهمة غسيل الأموال الوسخة بدلاً من غسيل الشراشف الوســـخة. كـــان يعمل على تحويلها إلى أسهم، وسندات، وسندات بلديات معفاة من الضرائب، سمّها ما تشاء.

قال لي مرّة بعد مرور عشر سنين تقريباً على ذلك اليوم الذي كنّا فيه فوق سطح منشأة تصنيع اللوحات، بأن مشاعره حيال ما كان يقوم به كانت واضحة، وأنه لا يشعر بوخز الضمير تقريباً. فهو لم يطلب إرساله إلى شاوشانك، علماً بأنه رجل بريء أدين بسبب حظه العاثر، وأنه ليس صاحب رسالة ولا فاعل خير.

قال لي بوجهه شبه العابس نفسه: "وإلى جانب ذلك يا ريد، ما أقوم به هنا لا يختلف بشيء عما كنت أقوم به خارج السجن. وسأقول لك هذه المسلّمة التهكمية، يتزايد مقدار حاجة الفرد أو الشركة إلى المساعدة من خبير مالي طردياً مع عدد الأشخاص أو الشركات التي يتم التعامل معها.

إن الأشخاص الذين يديرون هذا المكان وحوش أغبياء وبهائم متوحشة في أغلب الأحيان. كما أن الأشخاص الذين يديرون العالم المستقيم قساة ووحوش، ولكن صدف أنهم ليسوا بمثل غباء هؤلاء، لأن معايير الكفاءة هناك أعلى بعض الشيء. إنه فرق ليس بالكثير، بل هو فرق بسيط".

قلت: "لا أريد المزايدة عليك في مهنتك، لكن الأقراص تثير أعصابي، مثل الحبوب المنشّطة، والمهدّئة. وأنا لن أتعاطى أشياء مثل هذه، ولم يسبق لي أن تعاطيتها".

قال آندي: "كلا، أنا لا أحب الأقراص أيضاً. ولم يسبق لي أن تعاطيتها. ولكنني لا أتعاطى السجائر ولا المسكرات أيضاً".

قلت له: "أنا لا أتعاطى الأقراص، ولا أحضرها إلى هذا المكان، ولا أبيعها متى وصلت إلى هنا. وغالباً ما يقوم الحرّاس بذلك".

"أجل أنا أعرف ذلك. لكن هناك خط فاصل دقيق هنا. فالأمر يُختصر في أن بعض الأشخاص يرفضون تلطيخ أيديهم. هذا ما يسمى بالطهارة، ولذلك، تحط طيور الحمام على كتفك يا ريد وتلطخ قميصك. والحدّ الآخر هو الاستحمام في الأوساخ والتعامل بأي شيء يمكن أن يعود عليك بالدولارات؛ مسدسات، وسكاكين، وهيروين. هل سبق أن اقترب منك أحد السجناء وعرض عليك توقيع عقد؟"

أومأت برأسي. إنهم يعتقدون بأنه إذا كنت تستطيع أن تحضر لهم البطاريات لأجهزة الراديو التي لديهم أو أفلام الكرتون أو السجائر المحشوة بالحشيش، فهذا يعني أن في إمكانك أن توفر لهم قناة تصلهم بشخص سيستخدم سكيناً.

قـــال أنـــدي: "ولكنك لا تقوم بذلك لأن الأشخاص من أمثالنا يا ريد يعرفون أنه يوجد خيار ثالث، بديل عن البقاء على طهارة أو الاستحمام في القذارة والوحل. إنه البديل الذي يختاره كل ناضج في هذا العالم. عليك أن تخـتار أهـون الشرّين وتبقي نواياك الطيبة نصب عينيك. وأنا أعتقد بأنك تحكـم علـى مقـدار نجاحـك في عملك بمدى قدرتك على النوم ليلاً... وبالأحلام التي تراها وأنت نائم".

قلت ساخراً: "النوايا الطيبة. أنا أعرف كل شيء عنها يا أندي. يمكن لشخص أن يهوي في الجحيم أثناء سيره على تلك الطريق".

قـال: "إيـاك أن تعتقد ذلك. فالجحيم هنا في شاوشانك. إنهم يبيعون الأقـراص وأنـا أقول لهم ماذا ينبغي أن يفعلوه بأموالهم. ولكنني حصلت علـى المكتـبة، وأنـا أعرف عشرات الأشخاص الذين استخدموا الكتب الموجـودة فيها في اجتياز الإختبارات المعادلة لاختبارات الثانوية العامة. ربما عندما يخرجون من السجن سيكونون قادرين على تغيير حالهم. عندما احتجنا إلى تلك الغرفة الثانية في العام 1957، حصلت عليها. والسبب هو أنهم يريدون إبقائي سعيداً، فأنا أعمل لقاء أجر زهيد. وهذه هي المقايضة".

"لكنك حصلت على مقرك الخاص".

"هذا صحيح، وهذا الذي يعجبني في الأمر".

على مدى سنوات خمسينيات القرن العشرين ارتفع عدد نزلاء السجن ببطء، وكاد المكان يضيق على من فيه في الستينيات مع إلقاء القبض على كـل طالـب جامعـي فـي أميركا يريد تجربة المخدرات، ومع العقوبات المخيفة المفروضة على كل من يستخدم السجائر المحشوة بالحشيش. لكن لم يكن لدى أندي طوال تلك الفترة زميلاً في الزنزانة باستثناء رجل هندي ضـخم قلـيل الكلام اسمه نورمادين (وعلى غرار كافة الهنود في الشانك، كانـوا يسمونه الزعيم)، وهو لم يلبث في السجن فترة طويلة. هناك الكثير من أصحاب المدد الطويلة الذين اعتقدوا بأن أندي مجنون، ولكن أندي كان يكتفـي بالتبسم. عاش لوحده، وكان يحبّ أن يمضي وقته بهذه الطريقة... وكما قال: "إنهم يرغبون في إبقائه سعيداً، لأنه يعمل بأجر زهيد".

يمـرّ الـوقت فـي الـسجن بطيئاً، وأقسم لك بأنه يتوقف في بعض الأحـيان، ولكنه يمرّ. فقد رحل جورج دونهي على وقع عناوين الصحف الرئيـسية التـي كانـت تكتب، 'فضيحة' و'استغلال المناصب'. ثم خلفه

ستاماس الذي جعل شاوشانك طوال السنين الستّ التالية أشبه بالجحيم. ففي فترة عمل ستاماس كمراقب، كانت الأمرّة في المستوصف والزنزانات في الجناح الإنفرادي مليئة دائماً.

نظـرت إلـى نفـسي في مرآة الحلاقة الصغيرة التي أحتفظ بها في زنزانتـي فـي أحد الأيام من عام 1958، ورأيت رجلاً في سنّ الأربعين ينظر إليّ. حين دخل السجن صغيراً في العام 1938، كان أصهب الشعر، ويعيش في حالة شبه جنونية بسبب الندم، ويفكر في الإنتحار. ذلك الصغير قـد رحـل، وحـلّ الشعر الرمادي محلّ الشعر الأحمر الذي بدأ ينحسر. وظهـرت التجاعـيد حول عينيه. في ذلك اليوم، رأيت رجلاً عجوزاً في الـداخل ينتظـر انقـضاء الوقت لكي يخرج من السجن. لقد أرعبني ذلك المنظر، فلا أحد يرغب بأن يتقدم في السنّ وهو في السجن.

رحـل سـتاماس باكراً في العام 1959. وجاء العديد من المراسلين الـذين أرادوا إجراء تحقيقات حول الحياة في هذا المكان، حتى أن أحدهم أمـضى أربعة شهور هنا تحت اسم مستعار. كانوا يتهيؤون لنبش الفضائح وعمليات استغلال المناصب مجدداً، لكن ستاماس هرب قبل أن يتمكنوا من توجـيه الإتهامات إليه. وأنا تفهمت ذلك. فلو حوكم وأدين، لكان انتهى به الأمر إلى هنا، ولو حصل ذلك، لما عاش أكثر من خمس ساعات. كما أن بايـرون هادلي رحل قبل سنتين من الوقت المحدد. فقد تعرّض هذا الوغد لأزمة قلبية وحصل على تقاعد مبكر.

لـم يكن لأندي علاقة بأعمال ستاماس. في مطلع العام 1959، عُين مـراقب جديد، ومساعد مراقب جديد، ورئيس جديد للحرّاس. وعلى مدى الـشهور الثمانـية التي تلت ذلك، أصبح أندي سجيناً من جديد. تلك كانت الفتـرة التـي شارك فيها الهندي الضخم الزنزانة مع أندي. ثم ما لبثت أن عـادت الأمور إلى سابق عهدها، فقد خرج نورمادين، وبات أندي يقضي وقته لوحده. تتغيّر أسماء أصحاب المناصب الرفيعة، ولكنّ اللعبة لا تتغيّر.

تحـدثت إلـى نـورمادين مرّة عن أندي. قال نورمادين: "إنه زميل طـيّب". عانيت من صعوبة في استنتاج أي شيء مما يقوله لأن حنكه كان مـشقوقاً. وأضـاف: "أحبـبت الإقامة في تلك الزنزانة، فهو لم يكن يتفوه بالـدعابات، ولكنه لم يكن يريدني في زنزانته، ففي مقدوري استنتاج ذلك. وقـد شـعرت بالسعادة لأنني خرجت منها، لأن التيار الهوائي سيئ فيها.

كـنت أشـعر بالبـرد دائماً. وهو لم يكن يسمح لأحد بأن يلمس شيئاً من أغراضـه. وهـذا أمر لا بأس به. إنه رجل لطيف ولا يمزح أبداً. ولكن المشكلة في التيار البارد".

بقيت صورة ريتا هايوُرث معلّقة في زنزانة أندي حتى العام 1955، إذا لـم تخنّي ذاكرتي. وبعدها جاءت صورة مارلين مونرو، تلك الصورة التي تظهر فيها وهي واقفة على قضبان قطار الأنفاق. بقيت صورة مونرو معلقة حتى العام 1960 عندما استبدلها أندي بصورة جاين مانسفيلد. كانت جاين، وأرجو أن تعذرني على هذا التعبير، كبيرة الصدر. وبعد سنة واحدة تقريباً، حلّت محلها ممثلة إنكليزية؛ ربما كان اسمها هازل كورت، ولكنني لـست مـتأكداً. في العام 1966، سجلت صورة راكيل ويلش رقماً قياسياً بـبقائها على الجدار في زنزانة أندي ستة أعوام. وآخر الصور التي علّقها كانت لمغنّية روك حسناء اسمها ليندا رونزتات.

سـألته مرّة عمّا تعنيه له تلك الصور، فنظر إليّ نظرة غريبة وقال: "لمـاذا؟ إنها تعني لي كما تعني لغالبية المساجين حسبما أعتقد. إنها تعني الحـرّية. فأنت تنظر إلى أولئك الفتيات الحسناوات وتشعر كما لو أنه في مقـدورك... تقـريباً الـتواجد بقربهن. كن حرّاً. أعتقد أن هذا هو سبب إعجابـي براكيل ويلش أكثر من إعجابي بغيرها. كانت تقف لوحدها على ذلك الشاطئ في مكان هادئ حيث يمكن للرجل أن يسمع نفسه وهو يفكر. ألم يسبق أن انتابك هذا الشعور عندما نظرتَ إلى واحدة من هذه الصور يا ريد؟ إنك تستطيع الوقوف بجانبها مباشرة؟"

قلت له بأنه لم يسبق أن فكّرت في الأمر بهذه الطريقة.

قـال: "ربما ستفهم ما أعنيه يوماً ما". وكان على حق. فبعد انقضاء عـدة سنين، فهمت بالضبط ما كان يعنيه... وعندما فعلت، كان أول شيء فكّرت فيه هو نورمادين، وكيف قال إن الجوّ بارد دائماً في زنزانة أندي.

حـصل أمـر مـريع لأنـدي في أواخر مارس/آذار أو في مطلع أبـريل/نيسان 1963. كنت قد أخبرتك بأنه يتميز بشيء يفتقر إليه السجناء الآخـرون بمـن فـيهم أنا. حسناً سمّه هدوء البال، أو الشعور بالطمأنينة الداخلية، أو حتى إيمان لا يتزعزع بأن هذا الكابوس الطويل سينتهي يوماً. وبغض النظر عن تسميتك له، بدا أندي دوفريسن دائماً رجلاً رابط الجأش. لـم تكن تظهر عليه علامات اليأس التي تبدو على غالبية الذين قضوا مدّة

في هذا المكان. ولم يكن في مقدورك الشعور بأنه فقد الأمل. كان ذلك واقع الحال حتى أواخر شتاء العام 1963.

عُيِّن مراقب جديد، رجل اسمه صامونيل نورتون. وعلى حدّ علمي، لم يسبق لن رآه أحد مبتسماً. كان لديه شيء جلبه معه من أحد دور العبادة في إليوت. إختراعه الوحيد كرئيس لعائلتنا السعيدة كان التأكد من امتلاك كل وافد جديد نسخة من الكتاب المقدس. كانت توجد لوحة صغيرة على مكتبه كتب عليها بأحرف ذهبية العبارة التالية: **الإيمان مخلّصي**. كما علّق على الجدار لوحة من القماش المطرّز الذي أعدّته زوجته كتب عليها: **القضاء محتوم**. كانت تلك العبارة قليلة الأثر في نفوس الأغلبية منّا. فقد شعرنا بأن القضاء قد وقع فعلاً وأننا على استعداد للشهادة بأن الصخور لن تحمينا أو أن الشجرة الميتة لن توفر لنا ملجأ. كان لديه اقتباس من الكتاب المقدس لكل مناسبة. وأفضل نصيحة أقدمها لك إذا التقيت برجل مثل هذا هي أن تظهر وجهاً عبوساً وتحمي نفسك بكلتا يديك.

لم يقع الكثير من الحوادث التي تستدعي نقل المساجين إلى المستوصف كما كان الحال في أيام غريغ ستاماس، وتوقفت عمليات دفن الموتى تحت جنح الظلام على حسب علمي. لا أقصد من قولي هذا أن نورتون لم يكن مؤمناً بالعقاب. فقد كان الجناح الإنفرادي عامراً بالمساجين دائماً. وكانت أسنان الرجال تتساقط، ليس بسبب الضرب ولكن بسبب الحميات التي تقتصر على الخبز والماء.

كان ذلك الرجل أكثر المهرطقين جنوناً من بين الذين رأيتهم في مناصب رفيعة. فالعمليات غير المشروعة التي حدثتك عنها سابقاً استمرّت في الإزدهار، ولكن سام نورتون أضاف إليها نصائحه المفيدة الجديدة. كان أندي يعرفها، وبما أننا أصبحنا صديقين حميمين في ذلك الوقت، فقد أطلعني على بعض منها. عندما يذكر أندي واحدة من تلك النصائح، كانت تظهر على وجهه أمارات السرور والعجب، كما لو أنه يحكي لي عن حشرة منقرضة بشعة جعلتها بشاعتها وجشعها هزلية أكثر منها مرعبة.

أصرّ المراقب نورتون على البرنامج *من الداخل إلى الخارج* والذي ربما قرأتَ عنه في الستينيات أو السبعينيات، حتى أن النيوزويك كتبت عنه. تتحدث عنه الصحافة كما لو أنه تقدم حقيقي في الإصلاحات العملية وإعادة التأهيل. كان يوجد في الخارج مساجين يقطعون الخشب الذي

يُصنع منه الورق، ومساجين يعملون في ترميم الجسور والطرقات، ومساجين يشيّدون أقبية محاصيل البطاطا. أطلق نورتون على هذا البرنامج *من الداخل إلى الخارج*، وطُلب منه شرح هذا الأمر اللعين في كل نادٍ للروتاري والكيوانيس في نيو إنغلند، وخصوصاً بعد أن ظهرت صورته في مجلة النيوزويك. أطلق المساجين على البرنامج اسم *قطع الطرقات*، ولكن وعلى حدّ علمي، لم يُطلب إلى أحد منهم التعبير عن رأيه أمام أعضاء الكيوانيس.

كان نورتن يحضر كافة تلك العمليات، من قطع الأشجار إلى حفر خنادق تصريف المياه إلى بناء عبّارات جديدة أسفل الطرقات السريعة في الولاية. كان يوجد مئات الطرق لتنفيذ هذه الأعمال؛ الرجال، المواد، سمّها ما تشاء. ولكنه كان ينفذها بطريقة مختلفة أيضاً. اعترى الخوف المقاولين الذين يعملون في مجال البناء من برنامج نورتون لأن عمالة السجن مثل عمالة العبيد، وهم لا يستطيعون المنافسة في مثل هذه الحالة. هكذا، استطاع سام نورتن تمرير العديد من المغلفات السميكة من أسفل الطاولة طوال الأعوام الستة عشر التي قضاها كمراقب في شاوشانك. وعندما يتم تمرير المغلف، فإمّا أن يزيد في ثمن العطاء، أو لا يتقدم بعطاء على الإطلاق، أو يزعم بأن كافة العاملين في البرنامج إلتزموا أعمالاً أخرى. ولطالما أدهشني أنه لم يُعثر على نورتون أسفل جذع شجرة في مكان ما في ماساشوستس ويداه مكبّلتان خلف ظهره وقد أُفرغت عشر رصاصات في رأسه.

على كل حال، لا بدّ وأن نورتون كان يؤمن بمفهوم البيوريتانية التي تقول إن أفضل طريقة لمعرفة الأشخاص الذين يجدر بك التعامل معهم هي في التحقق من حساباتهم المصرفية.

كان أندي دوفريسن ذراعه اليمنى في كافة هذه الأعمال، كما كان شريكه الصامت. أصبحت مكتبة السجن رهينة أندي، ونورتون عرف ذلك، ولذلك استغلّها خير استغلال. قال لي أندي إن إحدى الحِكم المفضلة لدى نورتون هي أن إحدى اليدين تغسل اليد الأخرى. ولذلك قدّم له أندي النصائح الجيدة والإقتراحات المفيدة. لا أستطيع القول إن أندي أشرف على برنامج *من الداخل إلى الخارج*، ولكنني متأكد من أنه أدار الشؤون المالية الخاصة لذلك الوغد. أعطاه النصائح الجيدة، وقدم له الإقتراحات المفيدة،

وكـــان يتم توزيع للمال، وكانت المكتبة تحصل على مجموعة من الكتيبات التـــي تـــشرح كيفـــية إجـــراء الـــصيانة للسيارات، ومجموعة حديثة من موســـوعات غروليـــر، وكتب تشرح كيفية الإستعداد لاختبارات الإنجاز العلمـــي. هـــذا بالإضافة بالطبع إلى المزيد من كتب إرلي ستانلي غاردنر ولويس لامور.

أنـــا علـــى قـــناعة بأن ما حدث لم يكن سببه عدم رغبة نورتون في خسارة ذراعه اليمنى الجيدة وحسب، بل ولأنه كان يخشى الأمور التي قد تحـــصل -مـــا يمكن أن يقوله أندي ضدّه- في حال خرج أندي من سجن شاوشانك.

عرفت بهذه القصة على دفعات على مدى سبعة أعوام، سمعت بعضاً مـــن أجزائها من أندي؛ ولكن ليس كلها. لم يشأ أن يتحدث عن ذلك الجزء من حياته أبداً، وأنا لا ألومه على ذلك. ولكنني اطلعت على أجزاء منها من عـــدة مـــصادر مختلفة. سبق أن قلت لك بأن المساجين ليسوا سوى عبيد، ولكـــن لـــديهم عادة العبيد الذين يبدون بلهاء فيما هم آذان صاغية. اطلعت علـــى أجـــزاء منها بدون تسلسل، ولكنني سأرويها لك من ألفها إلى يائها، وســـتفهم حيـــنها لمـــاذا قضى هذا الرجل حوالى عشرة شهور في ذهول واكتـــئاب فظيع. انظر، أنا لا أعتقد بأنه عرف الحقيقة حتى العام 1963، أي بعـــد مـــضي خمسة عشر عاماً على دخوله هذه الحفرة الجهنمية. ولا أعـــتقد بأنه عرف مدى السوء الذي يمكن أن تصل إليه الأمور إلاّ بعد أن تعرّف على تومي ويليامز.

انـــضمّ تومي ويليامز إلى عائلتنا الصغيرة السعيدة في شاوشانك في نوفمبـــر/تـــشرين الثانـــي 1962. كـــان يعتبـــر نفـــسه بأنه مواطن من ماساشوســـتس، ولكـــنه لـــم يكـــن فخـــوراً بذلك. عندما بلغ سنّ السابعة والعشرين، كان قد عمل في كافة أنحاء نيو إنغلند. كان لصاً محترفاً، وكما لا بـــدّ وأنـــك قد حزرت، راودني شعور بأنه كان من الأفضل لو أنه تعلّم مهنة أخرى. كان رجلاً متزوجاً، وكانت زوجته تأتي لزيارته كل أسبوع، وقد استحوذت عليها فكرة مفادها أن الأمور يمكن أن تتحوّل نحو الأحسن بالنـــسبة إلـــى تومـــي- وبالتالي يمكن أن تصبح أفضل بالنسبة إليها وإلى ولـــدهما الـــذي يبلغ من العمر ثلاثة أعوام- في حال حصل على الشهادة الثانوية. أقنعته بتلك الفكرة، وهكذا بدأ تومي بزيارة المكتبة بشكل منتظم.

بالنسبة إلى أندي، كان ذلك الأمر قد أصبح روتينياً. رأى أن تومي حصل على سلسلة اختبارات تعادل اختبارات الثانوية العامة. وكان تومي يركز على المواضيع التي أهملها في الثانوية العامة ولم تكن كثيرة، ثم يخضع لامتحان. كما رأى أندي أنه انخرط في عدد من المناهج التي تدرّس بالمراسلة والتي تغطي المواضيع التي فشل فيها عندما كان في المدرسة أو تخلّى عن دراستها.

ربما لم يكن أبرع طالب تعرّف عليه أندي، كما أنني لا أعرف إن كان قد تمكن من الحصول على الشهادة الثانوية، ولكن ذلك لا صلة له بقصتي. الشيء المهم هو أنه أحبّ أندي دوفريسن كثيراً، كما فعل الجميع بعد حين.

سألت أندي في أكثر من مناسبة: "ماذا يفعل شخص ذكي مثلك في السجن". سؤال صعب يماثل السؤال الذي يقول: "ماذا تفعل فتاة جميلة مثلك في مكان كهذا؟" لكن أندي لم يكن من النوع الذي تطرح عليه مثل هذا السؤال، لأنه كان سيكتفي بالتبسم وتحويل المحادثة في اتجاه آخر. وكما هي العادة، سأل تومي شخصاً آخر، وعندما عرف القصة أخيراً، أعتقد بأنه تلقّى أقوى صدمة في حياته.

كان الشخص الذي سأله تومي شريكه في كيّ الثياب وطيّها في المغسل. يطلق الرفاق على هذه الخدمة العصارة، لأن هذا ما ستفعله بك بالضبط إذا لم تتنبه جيداً، وسمحت للآخرين بالإيقاع بك. كان اسمه لاتروب وقد مضى على دخوله السجن أحد عشر عاماً تقريباً بتهمة ارتكاب جريمة قتل. وقد أعاد ذكر تفاصيل محاكمة دوفريسن على تومي بكثير من السعادة، لأنها كسرت الرتابة في سحب شراشف الأسرّة المضغوطة من الماكينة ووضعها في السلّة. كان قد وصل إلى مرحلة انتظار نطق هيئة المحلّفين بالحكم بالإدانة بعد تناول أعضائها وجبة الغداء عندما بدأت المتاعب وتوقفت العصارة. إذ يبدأ العمل بإدخال الشراشف المغسولة التي جرى إحضارها من مركز إليوت للتمريض عند الطرف الآخر في العصارة، وبعد ذلك تجفف الشراشف، وتطوى بطريقة أنيقة في الطرف الذي يعمل فيه تومي وتشارلي بمعدل شرشف واحد كل خمس ثوانٍ. تتمثل مهمتهما في الإمساك بها، وطيّها، ووضعها في العربة التي سبق أن وُضعت عليها ورقة فارغة بنية اللون.

لكــن تومــي اكتفى بالوقوف هناك وهو يحدق في تشارلي لاتروب وفمــه مفــتوح بحــيث كاد يلامس صدره. كان يقف وسط مجموعة من الشراشف التي تتساقط منها الأوساخ على الأرضية.

ثم وصل هومر جيساب باحثاً عن المشكلات. لم يعره تومي انتباهاً، وبقــي يــتحدث إلى تشارلي كما لو أن هومر، الذي حطم من الرؤوس ما يفوق قدرته على العدّ، لم يكن موجوداً.

"ما هو اسم لاعب الغولف المحترف ذاك؟"

أجــاب تــشارلي: "كوينتين". وهو في حالة من الإرتباك والإنزعاج. وقال في وقت لاحق بأنه كان أبيض اللون مثل علم الإستسلام. "أعتقد بأنه غلين كوينتين. أو شيء من هذا القبيل".

صــاح هومر الذي احمرّت رقبته مثل عُرف الديك: "إلى هنا الآن، إلى هنا الآن. ضع الشراشف في الماء البارد. أسرع، أسرع، أنت.."

قال تومي ويليامز: "غلين كوينتين، يا الله". وكان ذلك كل ما قاله لأن هومــر جيــساب، أكثر الرجال عدوانية، وجّه إليه لكمة خلف أذنه. سقط تومــي على الأرضية سقطة قوية أدّت إلى كسر ثلاث من أسنانه الأمامية. وعندما أفاق، وجد نفسه في الحبس الإنفرادي حيث بقي هناك لمدة أسبوع بعد أن أضيفت نقطة سوداء إلى سجلّه.

حــدث ذلك في مطلع شهر فبراير/شباط 1963. عمل تومي ويليامز بعــد خــروجه من الحبس الإنفرادي مع ستة أو سبعة آخرين من المحكوم علــيهم بالسجن لفترات طويلة، وقصّوا عليه نفس الحكاية. أنا أعرف ذلك لأنني كنت واحداً من هؤلاء. لكن عندما سألته عن السبب الذي يدعوه إلى سماعها، لاذ بالصمت.

فــي أحــد الأيــام، ذهب إلى المكتبة وباح بمعلومة هامة إلى أندي دوفريــسن. ولأول مرّة وآخرة مرّة، على الأقل منذ أن اقترب منّي لطلب ملــصق ريتا هايوُرث مثل صبي يشتري لأول مرّة قطعة من الشوكولاته، فقد أندي برودة أعصابه... في تلك الحادثة فقط، فجّر جام غضبه.

رأيته في وقت لاحق من ذلك اليوم. بدا مثل رجل تلقّى ضربة عنيفة بــين عينــيه. كانت يداه ترتجفان، وعندما تحدثت إليه، رفض الإجابة عن أســئلتي. كــان قد التقى قبل انتهاء فترة ما بعد الظهر من ذلك اليوم ببيلي هانلــون، رئــيس الحــرّاس، وحدد موعداً مع المراقب نورتون في اليوم

التالي. وقال لي في وقت لاحق بأنه لم يغمض له جفن في تلك الليلة، وأنه بقي ينصت إلى رياح الشتاء الباردة وهي تعصف في الخارج، ويراقب الأنوار الكاشفة وهي تدور المرّة بعد الأخرى، فيما تولّد ظلالاً طويلة متحركة على الجدران الإسمنتية للقفص الذي صار بيته منذ أن أصبح هاري ترومان رئيساً. حاول أن يفكر في المسألة برمتها. قال لي ذلك كما لو أن تومي صنع مفتاحاً لاءم قفصاً في ذهنه، قفصاً أشبه بزنزانته الخاصة. لكن بدلاً من أن يحتجز رجلاً، كان القفص يحتجز نمراً اسمه الأمل. صنع ويليامز المفتاح الذي فتح باب القفص، وأطلق سراح النمر لكي يزأر في دماغه.

اعتُقل تومي ويليامز قبل ذلك بأربع سنين في رودي أيلاند أثناء قيادته سيارة مسروقة ملأها بالبضائع المسروقة. وشى تومي بشريكه في الجريمة، وتوصل إلى اتفاق مع المدعي العام، وحصل على حكم مخفف وهو السجن ما بين سنتين وأربع سنين مع النفاذ. وبعد مرور أحد عشر شهراً على بدء تنفيذ الحكم، أُطلق سراح زميله القديم وأصبح لدى تومي زميل جديد اسمه إلوود بلاتش. وقد دخل بلاتش السجن بعد قيامه بعملية سطو مسلّح وكان يقضي فترة عقوبة تتراوح ما بين ست سنين واثنتي عشرة سنة.

قال لي تومي: لم يسبق أن رأيت شخصاً شديد التوتر مثله. لا ينبغي لرجل مثل هذا أن يكون سارقاً، وخصوصاً إذا كان يحمل سلاحاً، لأنه سيطلق النار عندما يلاحظ أية حركة. حتى أنه كاد أن يخنقني في إحدى الليالي لأن شخصاً في القاعة كان يقرع على قضبان زنزانته بكوب من الصفيح. أمضيت معه سبعة شهور في زنزانة واحدة إلى أن أطلقوا سراحه. لا يمكنني القول بأنني تحدثت إلى بلاتش لأنك تعرف بأن أحداً لا يستطيع أن يتحاور معه، بل هو من يتحدث إليك. كان يتحدث طوال الوقت ولا يغلق فمه أبداً. وإذا حاولتَ النطق بكلمة، فسيلوّح بقبضته، ويرمقك بعينيه. كنت أشعر بقشعريرة متى قام بذلك. إنه رجل ضخم، شبه أصلع، عيناه خضراوان وغائرتان. آمل بألاّ أراه مجدداً. كان أشبه بمذياع يتكلم كل ليلة. قال لي بأنه سرق أكثر من مائتي متجر. يصعب عليّ تصديق ذلك، ولكنه أقسم بأنه صادق في كلامه. والآن، أصغِ إليّ يا ريد. أنا أعرف أشخاصاً يلفقون القصص بعد أن يكتشفوا شيئاً، ولكن حتى قبل أن

أعـــرف عن لاعب الغولف ذاك، واسمه كوينتين، خطر ببالي أنه في حال أقـــدم بلانـــش علـــى سرقة منزلي، وعرفتُ بالأمر لاحقاً، سأعتبر نفسي محظـــوظاً لأني لا أزال على قيد الحياة. هل يمكنك تخيّل وجوده في غرفة نوم امرأة، وهو يتفحص علبة الجواهر التي لديها، ولكنها تسعل وهي نائمة أو تـــتحول إلى الجنب الآخر بسرعة؟ إن مجرّد التفكير في أمر كهذا يثير فيّ القشعريرة.

قـــال بأنه قتل بعض الأشخاص أيضاً لأنهم قاوموه، أو هذا ما يدّعيه على الأقل. وأنا أصدقه، لأنه بدا رجلاً يمكنه ارتكاب جريمة قتل. إنه أشبه بمـــسدس جاهز لإطلاق النار. عرفتُ شخصاً كان يحمل مسدس سميث أند ويـــسون مبـــتور الماســـورة. لم يكن ذلك المسدس يصلح لشيء باستثناء الإكـــثار مـــن الحديث عنه. كان بحاجة إلى القليل من الضغط على الزناد لدرجة أن الرصاصات ستنطلق منه لو وضعه هذا الشخص، واسمه جوني كالهان، على مجهار آلة التسجيل وأدارها عند أعلى صوت ممكن. هذه هي حقيقة بلانش، وأنا لا أستطيع أن أصفه لك بأفضل من ذلك. ولا يساورني أدنى شك في أنه قتل بعض الأشخاص.

أردت بـــدء حديث معه فقلت: "من تودّ أن تقتل؟" على سبيل المزاح. ضـــحك وأجـــاب، 'يوجد شخص يقضي عقوبة في ماين بسبب الشخصين اللذَين قتلتهما. إنه ذلك الشخص الذي قتلت زوجته وعشيقها'.

مضى تومي في حديثه فقال: "لا أستطيع أن أتذكر إن كان قد ذكر لي اســـم تلـــك المرأة أم لا. أعتقد بأنه فعل ذلك. لكن في نيوإنغلند، لا يختلف دوفريـــسن بشيء عن سميث أو جونز في المناطق الأخرى من البلاد لأنه يـــوجد الكثيـــر من الضفادع هنا. دوفريسن، لافيسك، كويليت، بولين، من يمكنه تذكر أسماء الضفادع؟ ولكنه ذكر لي اسم ذلك الشخص. قال لي بأن اســـمه هو غلين كوينتين وأنه لاعب غولف أحمق وثري. قال بلانش بأنه اعـــتقد بأن الرجل ربما يحتفظ ببعض المال في منزله، ربما خمسة آلاف دولار. كان ذلك المبلغ يساوي الكثير حينها كما قال لي. ولذلك قلت 'متى حدث ذلك؟' فأجاب: 'بعد الحرب. بعد انتهاء الحرب مباشرة'.

دخل المنزل، فاستفاق ذلك الشخص وسبب له بعض المتاعب. هذا ما قالـــه بلانش. ربما علا صوت ذلك الشخص بالشخير. على كل حال، قال بلانـــش إن كوينتين كان في السرير مع زوجة أحد المحامين وقال إن ذلك

المحامي دخل سجن شاوشانك بسبب قتله (بلانش) للاعب الغولف والزوجة الخائـــنة. ثم علا صوته بالضحك. يا الله، لم يسبق أن شعرت بالغبطة كما شعرت عندما حصلت على الأوراق الخاصة بإطلاق سراحي".

أعـــتقد بأنك عرفت لماذا ثار جنون أندي عندما قصّ عليه تومي تلك القـــصة، ولمـــاذا طلب رؤية مراقب السجن على الفور. كان إلوود بلانش يقضي فترة حكم تتراوح ما بين ستّ واثنتي عشرة سنة عندما تعرّف عليه تومـــي قبل أربع سنين. ولو سمع أندي تلك القصة في العام 1963، لربما كان على وشك الخروج من السجن، أو ربما كان قد خرج منه أصلاً. إذن، هاتان الجمرتان اللتان كان أندي يغلي بسببهما؛ فكرة أن بلانش موجود من ناحية، واحتمال أنه ذهب مع الرياح من ناحية أخرى.

لاحظـــت وجود بعض التناقضات في قصة تومي، لكن ألا يوجد مثل هذه التناقضات دائماً في الحياة الفعلية؟ قال بلانش لتومي بأن الرجل الذي دخل السجن كان محامياً، في حين أن أندي مصرفي، ولكنهما مهنتان يمكن للأشـــخاص غير المثقفين أن يخلطا بينهما بكل سهولة. كما عليك ألاّ تنسى بأنـــه مـــضت اثنتا عشرة سنة بين الفترة التي كان بلانش يتابع فيها وقائع المحاكمـــة في الصحف والوقت الذي قص فيه حكايته على تومي ويليامز. كمـــا قـــال لتومي إنه سرق أكثر من ألف دولار من خزانة كوينتين، ولكن الشرطة قالت في محاكمة أندي بأنها لم تلاحظ وجود آثار تدلّ على حدوث ســـرقة. لكـــن لدي بعض الأفكار التي تفسر ذلك. أولاً: إذا سرقت النقود وكـــان صـــاحبها في عداد الأموات، فمن أين لك أن تعرف إن تمت سرقة شيء ما، ما لم يخبرك شخص آخر عن فقدان ذلك المال؟ ثانياً: من قال إن بلانـــش لـــم يكن يكذب في ذلك الجزء من الحكاية؟ ربما لم يشأ الإعتراف بأنه قتل شخصين بدون سبب. ثالثاً: ربما كانت هناك آثار تدلّ على حدوث ســـرقة ولكـــن أفراد الشرطة تجاهلوها - يمكن لرجال الشرطة أن يكونوا أغبياء- أو لأنهم تعمّدوا إخفاءها لكي لا يفسدوا على المدّعي العام قضيته، فقـــد رشّـــح نفسه لمنصب رسمي كما تعرف، وكان بحاجة إلى إدانة لكي يواصـــل حملـــته الإنتخابية. ولم تكن جريمة سطو وقتل مزدوجة لم تُحل لتخدمه في شيء في حملته على الإطلاق.

من بين هذه الإحتمالات الثلاثة، أعجبني الإحتمال الثاني. فقد تعرفت علـــى القليل من أمثال إلوود بلانش في الفترة التي قضيتها في شاوشانك؛

فهـم سـريعو الضغط على الزناد، ومن أصحاب العيون المجنونة. يرغب هـؤلاء فـي إقناعك بأنهم أفلتوا من العقاب حتى وإن أُلقي القبض عليهم لإقدامهم على سرقة ساعة يد من طراز تايمكس يبلغ ثمنها دولارين إضافة إلى تسعين دولاراً، وهي التهمة التي دخلوا السجن بسببها.

لكـن يوجد أمر في قصة تومي أقنع أندي بما يتجاوز كل شكّ، وهو أن بلاتـش لـم يطلق النار على كوينتين بلا سبب، لأنه قال بأن كوينتين 'أحمـق وثري'، وأنه عرف بأن كوينتين لاعب غولف. حسناً، اعتاد أندي على الذهاب إلى ذلك النادي برفقة زوجته لتناول العشاء مرّة أو مرتين كل أسـبوع وعلـى مدى عدة سنين، كما أن أندي تناول الكثير من المسكرات عـندما عرف بشأن خيانة زوجته له. كما أن ذلك النادي الريفي يوجد فيه ميـناء يعمل فيه شخص في العام 1947، تطابق وصفه مع وصف تومي لإلـوود بلاتـش. رجـل طـويل وضخم، شبه أصلع، وعيناه خضراوان وغائـرتان. رجل ينظر إليك بطريقة لا تبعث على الارتياح، كما لو كان يـريد أن يقيّمك. قال إندي بأنه لم يعد يعمل هناك، وهو ما يعني بأنه ترك عملـه أو أن بريغـز المسؤول عن الميناء، قام بطرده. ولكنه لم يكن من الـرجال الذين يمكن أن تتساهم، فقد كانت ملامحه أقوى من أن تمحى من الذاكرة.

إذن، ذهـب أنـدي لرؤية المراقب نورتون في يوم ممطر وعاصف تلبّدت فيه الغيوم الرمادية في السماء فوق الجدران الرمادية، في يوم بدأت فيه آخر ندف الثلج بالذوبان لتكشف عن الأراضي الهامدة التي كان يعلوها العشب في الحقول التي خلف السجن.

يعمـل المـراقب في مكتب كبير الحجم في جناح الإدارة، ويوجد خلـف مكـتب المراقب باب يؤدي إلى مكتب مساعد المراقب. لم يكن المـساعد في مكتبه في ذلك اليوم، ولكن كان يوجد شخص آخر جدير بالـثقة. كـان رجلاً نصف أعرج غاب عن ذاكرتي اسمه، ولكن كافة الـرفاق فـي السجن، بمن فيهم أنا، يطلقون عليه اسم تشستر على اسم زمـيل المارشـال ديلـون. كـان من المفترض أن يقوم تشستر بري المـزروعات وتلميع الأرضيات. وأعتقد بأن النباتات عطشت في ذلك الـيوم وأن التلمـيع الوحيد الذي قام به كان لأذنه الوسخة التي ألصقها بثقب مفتاح الباب الذي يصل بين الغرفتين.

سمع صوت باب مكتب المراقب وهو يُفتح ثم يُغلق، ثم سمع نورتون يقول: "صباح الخير يا دوفريسن. كيف يمكن لي أن أساعدك؟"

بدأ أندي بالقول: "أيها المراقب". قال لنا تشستر إنه بالكاد كان قادراً علـى التعـرف علـى صوت أندي لأنه تغيّر كثيراً. "أيها الرقيب، هناك أمـر... أمـر حصل لي... لدرجة أنه... أنه يصعب عليّ معرفة من أين يجب أن أبدأ".

قـال المراقب بصوت عذب: "حسناً، لِمَ لا تبدأ من البداية؟ فهذه هي الطريقة الأفضل".

وهـذا مـا قـام بـه أندي. بدأ بإنعاش ذاكرة نورتون في ما يتعلق بتفاصـيل الجـريمة التي سُجن بسببها، ثم أطلع المراقب على القصة التي رواهـا تومـي ويليامز بكامل تفاصيلها. كما أعطاه اسم تومي وهو الأمر الـذي لـم يكن حكيماً كما سترى على ضوء التطورات التي حدثت لاحقاً، ولكننـي أسـألك ما هي الخيارات الأخرى التي كانت متوفرة لديه إذا كان يريد لقصته أن تتحلّى بالمصداقية؟

عـندما انتهى أندي من حديثه، لاذ نورتون بالصمت المطبق لبعض الـوقت. كان في إمكاني تخيل صورته، وقد أسند ظهره إلى الكرسي أسفل صـورة الحاكم المعلقة على الحائط، وهو ينقر بأصابعه، والتجاعيد تظهر على جبينه.

أخيـراً، قـال: "أجـل. هذه أغرب قصة سمعتها في حياتي. ولكنني سأقول لك أكثر ما فاجأني فيها يا دوفريسن".

"ما هو ذلك، سيدي؟"

"أنك خُدعت بهذه القصـة".

"سيدي؟ أنا لا أفهم ماذا تقصد". قال تشستر بأن أندي دوفريسن، الذي واجـه بايـرون هادلي فوق سقف منشأة تصنيع اللوحات قبل ثلاث عشرة سنة، كان يتلعثم في حديثه.

قـال نورتـون: "حسناً، يبدو لي جلياً أن هذا الفتى الصغير ويليامز معجب بك، بل إنه مسحور بك في الواقع. فهو يسمع قصتك، ومن الطبيعي أن يرغب في... بعث السرور في نفسك إذا جاز التعبير. هذا أمر طبيعي جـداً، فهـو لا يـزال في مقتبل العمر، ولا يتمتع بذكاء ملفت. فمن غير المفاجئ إذن أنه لم يدرك الحالة التي أنت فيها. والآن، ما أقترحه هو.."

سـألـه أندي: "ألا تعتقد بأنني فكرت بذلك؟ ولكنني لم أخبر تومي عن الـرجل الذي كان يعمل في المرفأ. حتى أني لم أخبر أحداً عنه؛ فلم يخطر ببالي أن أفعل ذلك. ولكن وصف تومي لزميله في الزنزانة، وأوصاف ذلك الرجل... كانت متطابقة".

"حـسناً، ربمـا تكـون قد أفرطتَ في التصورات الإنتقائية". تعتبر العـبارات، مـثل التصورات الإنتقائية، من الأشياء التي ينبغي أن يتعلمها الأشـخاص الـذين يعملـون فـي إدارة الـسجون والإصـلاحيات، وهم يستخدمونها طوال الوقت.

"لكن القصة لم تنتهِ يا سيدي".

قال نورتون: "هذا هو رأيك في الموضوع، ولكن رأيي مختلف. دعنا لا ننسى أنني سمعت منك فقط أنه كان يوجد رجل يعمل في نادي فلاموث هيلز الريفي في تلك الفترة".

قال أندي مجدداً: "كلا سيدي. كلا، هذا ليس صحيحاً لأنه.."

قاطعـه نورتـون بـصوت مرتفع: "وعلى كل حال، دعنا ننظر إلى المسألة من الطرف الآخر للتلسكوب. لنفترض أنه كان يوجد شخص فعلاً اسمه إلوود بلونش".

قال أندي بحزم: "بلانش".

"بلانش أجل. ودعنا نقول بأنه كان زميل توماس ويليامز في الزنزانة فـي رود أيلـند. هناك احتمال قوي بأن يكون قد أُطلق سراحه الآن. هذا جيد. نحن لا نعرف حتى مقدار المدة التي ربما قضاها هناك قبل أن يلتقي بـه ويليامـز، ألـيس كذلك؟ وكل ما نعرفه هو أنه كان يقضي فترة حكم تتراوح ما بين ست سنين واثنتي عشرة سنة".

"كلا، نحن لا نعرف مقدار المدة التي قضاها في السجن، ولكن تومي قـال بأنـه رجل سيئ. وفي اعتقادي، هناك احتمال قوي بأنه لا يزال في السجن. وحتى وإن أُطلق سراحه، فلا يزال السجن يملك سجلاً يبيّن عنوان آخر مكان كان يقيم فيه، وأسماء أقاربه.."

"كِلا الأمرين سيؤديان بنا إلى طريق مسدود".

سكت أندي للحظة، ثم قال فجأة: "حسناً، إنها فرصة أليس كذلك؟"

"أجل بالطبع. إذن لنفترض الآن يا دوفريسن أن بلانش موجود وأنه لا يزال قابعاً في سجن رود أيلند. والآن، ما تراه سيقول إذا ذهبنا إليه؟ هل

ســيجثو على ركبتيه، ويغمض عينيه، ويقول: أنا من ارتكب تلك الجريمة، أنا فعلتها؟ أضيفوا حكماً بالسجن المؤبد إلى الحكم الصادر في حقي".

قال أندي بصوت منخفض لدرجة أنه بالكاد تمكن تشستر من سماعه: "كـيف يمكن أن تكون بهذا القدر من قلّة الإحساس". ولكن صوت المراقب ظل مسموعاً.

"ماذا قلت؟ ما هو الشيء الذي وصفتني به؟"

صاح أندي: "عديم الإحساس. هل الأمر متعمد؟"

"يــا دوفريسن، لقد أخذت خمس دقائق من وقتي -بل سبع- وجدول أعمالي حافل اليوم. ولذلك، أعتقد بأنه ينبغي أن نكتفي بالإعلان عن انتهاء هذا اللقاء الوجيز و.."

صاح أندي: "النادي الريفي يحتفظ بكافة السجلات، ألا تدرك ذلك؟ لديهم الإستمارات الضريبية واستمارات تعويضات الصرف من العمل، وهي تحمل اسمه. يمكن أن نجد موظفين الآن كانوا يعملون في النادي حينها، وربما سنجد بريغز نفسه. مضى على الحكاية خمسة عشر عاماً، وهذا يعني أنهم لا يزالون يذكــرونه. سيتذكرون بلانش. وإذا أقنعت تومي بالشهادة بما أخبره به بلانش، وإذا شــهد بريغــز بأن بلانش كان هناك يعمل في النادي الريفي، سيكون في مقدوري الحصول على محاكمة جديدة، يمكنني أن.."

"أيها الحارس، أخرج هذا الرجل من هنا".

قــال أنــدي: "مــاذا دهاك". كان تشستر يصرخ حينها. "إنها حياتي وفرصــتي في الخروج من هنا، ألا ترى ذلك؟ وأنت لن تتكبّد عناء إجراء مكالمــة بعــيدة لكي تتحقق من قصة تومي على الأقل. اسمع. سأدفع ثمن المكالمة، سأدفع ثمن.."

ثم سمع صوت الحراس وهم يضربونه ويجرّونه إلى خارج المكتب.

قال واردن نورتون: "إلى الحبس الإنفرادي. وليكن طعامه الخبز والماء".

هكذا جرّوا أندي إلى الخارج، بعد أن فقد السيطرة على نفسه، ولكنه ظل يصرخ قائلاً: "إنها حياتي، إنها حياتي. ألا تفهم أنها حياتي؟"

أمــضى أنــدي في الحبس الإنفرادي عشرين يوماً يقتات على الخبز والمــاء. كانت تلك العقوبة الثانية التي قضاها في الحبس الإنفرادي. وكان شــجاره مــع نورتون العلامة السوداء الأولى في سجله منذ أن انضمّ إلى عائلتنا السعيدة.

سـأحكي لـك القليل عن الحبس الإنفرادي في شاوشانك طالما أننا نتحدث عن هذا الموضوع. إنه أشبه برجوع إلى تلك الأيام الصعبة التي قضاها الرواد في أوائل ومنتصف القرن الثامن عشر في ماين. في تلك الأيام، لم يكن يوجد من يضيع الكثير من الوقت على أمور مثل *إدارة السجون وإعادة التأهيل والتصور الإنتقائي*. في تلك الأيام، كان يجري الإعتناء بك بطريقة في غاية الوضوح. فإما أن تكون مذنباً وإما أن تكون بريئاً. إذا كنت مذنباً، يكون مصيرك المشنقة أو السجن. وفي حال حُكم عليك بالسجن، فأنت لا تذهب إلى مؤسسة. كلا، بل ستحفر سجنك الخاص برفش تقدمه لك مقاطعة ماين. عليك أن توسع عرض الحفرة وعمقها بقدر الإمكان خلال الفترة الممتدة بين شروق الشمس وغروبها. وبعد ذلك يعطونك مجموعة من القراب ودلواً، ثم تنزل إلى الحفرة. وبعد أن تنزل فيها، يغلق عليك السجان الحفرة بالقضبان، ويلقي بعض الحبوب وقطعة من اللحم الذي يكثر فيه الدود مرّة أو مرتين كل أسبوع، وربما تحصل على قطعة صغيرة من الصابون مساء يوم الأحد. وفي الحفرة، يبول السجين في الدلو، وهو الدلو نفسه الذي يرفعه طلباً للماء عندما يأتي السجان عند الساعة السادسة صباحاً. وإذا كان الطقس ممطراً، يستخدم السجين الدلو لإخراج الماء من حفرته... ما لم يكن يريد أن يغرق مثل جرذ في أنبوب تصريف مياه الأمطار.

لم تكن هناك فترات سجن طويلة في *الحفرة* كما كانوا يسمونها، حيث كان قضاء ثلاثين شهراً بمثابة مدة طويلة على نحو غير عادي. وعلى حدّ علمي، لطول مدة سُجن فيها رجل وخرج حياً كان الصبي دورهام، وكان معتوهاً يبلغ عمره أربعة عشر عاماً خصى زميلاً له في المدرسة بقطعة من معدن صدئ. وقد أمضى في الحفرة سبع سنين، ولكنه خرج منها شاباً قوياً.

عليك أن تتذكر بأن جزاء جريمة أكثر خطورة من سرقة النقود أو الكفر كان الإعدام شنقاً، وأن جزاء الجرائم البسيطة مثل تلك التي ذكرتها لك آنفاً وما شابهها، هو قضاء فترة تتراوح ما بين ستة شهور وتسعة شهور في الحفرة ثم تخرج بعد ذلك شاحب اللون، منكمشاً، وشبه أعمى وأسنانك تهتز، وقد ابتُليت قدماك بالفطر. لم يكن الجناح الإنفرادي في شاوشانك أقل سوءاً كما أعتقد. المرء يصف الأمور بثلاثة أوصاف

رئيسية، فهناك الجيد، والسيئ، والفظيع. وفيما تهبط من العتمة إلى الفظاعة، تزداد صعوبة التمييز بين درجات السوء. لكي تصل إلى الجناح الإنفرادي، يتم اقتيادك نزولاً على سلّم مؤلف من ثلاث وعشرين درجة نحو مستوى القبو حيث يمكنك سماع أصوات قطرات المياه فقط. والإنارة الوحيدة متوفرة بواسطة سلسلة من اللمبات المتدلّية بقوة ستين واط. الزنزانات تشبه البراميل الصغيرة، أو الخزائن التي يخبّئها الأغنياء في بعض الأحيان خلف اللوحات الجدارية. وعلى غرار الخزائن، الأبواب الدائرية مثبتة بمفاصل، ومصمتة بدلاً من أن تكون على شكل قضبان. يمكنك الحصول على التهوئة من الأعلى، ولكن لا توجد إنارة سوى إنارة لمبة بقوة ستين واط، تُطفأ بوساطة مفتاح رئيسي عند الساعة الثامنة مساءً، أي قبل ساعة من إطفاء الأنوار في باقي أقسام السجن. وهذه اللمبة ليست محاطة بشبيكة أو شيء من هذا القبيل. وإذا كنت تودّ قضاء وقتك في الظلام فلا بأس بذلك. لم يكن ذلك خيار الكثيرين... ولكن بعد الساعة الثامنة، ليس أمامك خيار. لديك سرير مثبت بالجدار ومرحاض بدون مقعد. وأمامك ثلاث طرق لتمضية وقتك: الجلوس، أو قضاء الحاجة، أو النوم. يا لها من خيارات كثيرة. يمكن أن تمرّ عليك فترة العشرين يوماً كما لو أنها عام كامل، وفترة ثلاثين يوماً كما لو كانت عامين، وفترة أربعين يوماً كما لو كانت عشرة أعوام. يمكنك في بعض الأحيان سماع أصوات الجرذان من خلال نظام التهوئة. في وضع مثل هذا، لا يمكن التمييز بين درجات الوضع الفظيع.

إذا كان هناك شيء يمكن أن يقال في مدح الحبس الإنفرادي، فهو أنه يمنحك وقتاً للتفكير. وقد حصل آندي على عشرين يوماً ليفكر فيها فيما كان يستمتع بتناول الخبز والماء. وعندما خرج من الحبس، طلب عقد لقاء آخر مع المراقب. قوبل الطلب بالرفض، لأن مثل هذا اللقاء "سيعود بنتائج عكسية" على حدّ قول المراقب. وهذه من جملة العبارات التي عليك أن تتقنها قبل أن تبدأ العمل في ميدان السجون والإصلاحيات.

عاد آندي الصبور وتقدم بالطلب. وكرّر الطلب، ثم كرّر الطلب. لقد تغيّر آندي دوفريسن. وفجأة، في ربيع العام 1963، ظهرت التجاعيد على وجهه وغزا الشيب رأسه. وفقدَ تلك الابتسامة التي طالما ارتسمت حول فمه. صار يكثر من التحديق في الفراغ، وستتعلم بأنه عندما يحدق رجل

بهــذه الطريقة، فهو يعدّ السنين، والشهور، والأسابيع، والأيام التي قضاها في السجن.

أعــاد الطلب المرّة تلو المرّة. كان رجلاً صبوراً. لم يكن يملك شيئاً ســوى الوقت. ولا بدّ وأنه كان فصل الصيف. في واشنطن، وعد الرئيس كنــيدي، بشنّ حملة جديدة لاستئصال الفقر والقضاء على عدم المساواة في حقــوق الإنــسان، من غير أن يدرك بأنه لم يتبقَّ له في هذه الحياة سوى نــصف عــام. وفي ليفربول، برزت فرقة موسيقية تسمى البيتلز كقوة لها اعتبارها في الموسيقى البريطانية، ولكنني لا أعتقد بأن الولاية سمعت بها.

التقـــى بـــه نورتـــون فـــي نهاية يونيو/حزيران، وعرفتُ بشأن هذه المحادثة من أندي نفسه بعد سبع سنين تقريباً.

قــال أنــدي لنورتون بصوت منخفض: "إذا كانت قصتي تسبب لك الإنزعاج، فلا داعي للقلق. هل تعتقد بأنني اختلقت القصة؟ سأقطع ذراعي إن كنت كاذباً، لأني سأكون متهماً مثل.."

قاطعه نورتون قائلاً: "هذا يكفي". كان وجهه طويلاً وبارداً مثل شاهد القبر. أسند ظهره إلى الوراء حتى كاد رأسه يلامس الحائط.

"ولكن.."

قال نورتون: "إياك أن تأتي على ذكر المال أمامي مجدداً. لا في هذا المكتب ولا في أي مكان آخر، ما لم تكن تريد أن ترى المكتبة وقد عادت إلى غرفة للتخزين ومستودع لأدوات الدهان مرّة أخرى. هل تفهم؟"

"كنت أحاول أن أصفي مزاجك. هذا كل ما أردته".

"حــسناً، عــندما أريــد من ابن عاهرة مثلك أن يصفي لي مزاجي، ســأتقاعد. لقــد وافقت على تحديد هذا الموعد لأنني سئمت من محاولاتك المــزعجة يا دوفريسن. أريد أن أضع حداً لها. إذا كنت تريد شراء جسر بــروكلين، فهذا شأنك. لكن إياك أن تجعل ذلك واحداً من شؤوني. أنا أكن لك احتراماً، ولكن هذه هي النهاية. إنها النهاية. هل تفهم ما أقول؟"

أجاب أندي: "أجل. ولكنني سأكلف محامياً كما تعرف".

"ولماذا تكلف محامياً؟"

أجــاب أنــدي: "أعــتقد بأنه سيكون في إمكاننا جمع أجزاء القصة بأكملهــا. بشهادة تومي ويليامز وشهادتي وشهادة السجلات والموظفين في النادي الريفي، أعتقد بأننا نستطيع أن نجمع أجزاء القصة".

"تومي ويليامز لم يعد واحداً من نزلاء هذا السجن".

"ماذا تقول؟"

"لقد تم نقله".

"إلى أين؟"

"إلى كاشمان".

هنا، لاذ أندي بالصمت. كان رجلاً ذكياً، ولكن هذه القصة تحتاج إلى رجل أبله إلى حدٍّ يفوق الوصف كي لا يشتمّ رائحة صفقة من وراء كل ذلك. يعتبر كاشمان سجناً خالياً من الإجراءات الأمنية المشددة وهو يقع في شمال مقاطعة أروستوك. يعمل النزلاء فيه على حصاد البطاطا، وهذا عمل شاقّ، ولكنهم يحصلون على أجور محترمة لقاء هذا العمل، كما يمكنهم الدراسة في معهد محترم لتعليم التقنيات المهنية، إن هم شاؤوا ذلك. والأهم من ذلك بالنسبة إلى سجين مثل تومي، الذي لديه زوجة وطفل، يوجد في كاشمان برنامج إجازات... وهو ما يعني توفر فرصة للعيش كرجل طبيعي، في أيام عطل نهاية الأسبوع على الأقل. فرصة لبناء طائرة ورقية مع ابنه، ومعاشرة زوجته، وربما الذهاب في نزهة.

من المؤكد أن نورتون أغرى تومي بكل هذه المزايا مقابل أمر واحد: عدم التفوه بمزيد من الكلام عن إلوود بلاتش، لا في الوقت الحالي ولا في المستقبل، لو ينتهي به الأمر إلى قضاء أوقات صعبة في توماستون مع أشخاص أشرار. وبدلاً من أن يعاشر زوجته، سيعاشر شاذاً هرماً.

سأل أندي: "لكن لماذا؟ لماذا.."

قال نورتون بهدوء: "أردتُ أن أخدمك فتحققت من رود أيلند. كان لديهم سجين بالفعل اسمه إلوود بلاتش. وقد حصل على إطلاق سراح مشروط، وهو برنامج آخر من هذه البرامج الليبرالية المجنونة التي تسمح للمجرمين بالعودة إلى الشوارع. وقد اختفى منذ ذلك الحين".

قال أندي: "هل المراقب هناك واحد من أصدقائك؟"

ابتسم سام نورتون في وجه أندي ابتسامة بمثل برودة سلسلة ساعة الشمّاس وقال: "أنا أعرف ذلك الرجل".

سأل أندي: "لِمَ لا يمكنك الإفصاح لي عن سبب قيامك بذلك؟ فأنت تعرف بأني لن أتحدث عن... عن أي شيء يحدث. أنت تعرف ذلك. إذن، ما هو السبب؟"

أجـــاب نورتون: "لأن أشخاصاً مثلك يسببون لي الضجر. أنا أحبك في المكـــان الـــذي أنت فيه الآن يا سيد دوفريسن. وطالما أنني المراقب هنا في شاوشانك، ستبقى حيث أنت. وكما ترى، فقد اعتدتَ على الإعتقاد بأنك أفضل مـــن أي شخص آخر. أنا ماهر جداً في ملاحظة ذلك على وجوه الرجال. وقد لاحظـــتُ ذلـــك على وجهك منذ المرّة الأولى التي زرتَ فيها المكتبة. وربما يكـــون ذلـــك محفوراً على جبينك بأحرف كبيرة. ولكن تلك النظرة قد زالت الآن، ولا بأس لديّ بذلك. وليس مردّ ذلك أنك أداة نافعة، إياك أن تعتقد ذلك. ولكن السبب ببساطة هو أن الرجال من أمثالك بحاجة إلى تعلّم التواضع. فلقد اعتدتَ على المشي في باحة التمارين الألعاب الرياضية كما لو أنك في غرفة جلوس في إحدى حفلات الكوكتيل التي يشتهي فيها كل من الحاضرين زوجة الرجل الآخر ويشرب حتى الثمالة. ولكنك لم تعد تمشي هناك، وسأراقبك لكي أعرف إن كنت ستعود إلى المشي هناك مجدداً. سأراقبك على مدى عدة سنين بمتعة كبيرة. والآن، اخرج من هنا".

"حسناً. لكن عليك أن تعرف بأن كافة النشاطات اللامنهجية قد توقفت الآن يـــا نورتون، الإستشارات المالية، وعمليات الإحتيال، والنصائح التي تـساعد على تجنب دفع الضرائب. سيتوقف كل ذلك. وعليك أن تلجأ إلى قسم الموارد البشرية لكي يرشدك إلى كيفية التصريح عن دخلك".

احمـــرّ وجه نورتون... ثم تحول لونه إلى الإصفرار. "ستقضي عقوبة فـــي الـــسجن الإنفرادي بسبب قولك هذا. ثلاثون يوماً، تعيش فيها على الخبز والمـــاء، إضـــافة إلى نقطة أخرى سوداء. وفيما لا تزال هنا، فكّر في الأمر التالـــي: إذا توقف أي من النشاطات السابقة، فلن تكون هناك مكتبة. وسأجعل شـــغلي الـــشاغل إعـــادة ذلـــك المكان إلى ما كان عليه قبل مجيئك إلى هنا. وســـأحول حـــياتك إلـــى... جحـــيم. وستقضي أصعب وقت يمكنك قضاؤه. وستخسر غرفة الهيلتون ذات السرير الواحد في الجناح الخامس كنقطة بداية. وستخسر تلك الأحجار التي على عتبة النافذة. ستخسر الحماية التي وفّرها لك الحراس من هؤلاء السدوميين. ستخسر... كل شيء. هل هذا واضح؟"

أعتقد بأنه كان واضحاً بما فيه الكفاية.

مـــرّ الوقت كالمعتاد؛ أقدم حيلة في العالم، وربما الحيلة الوحيدة التي هي سحر حقيقي. ولكن أندي دوفريسن تغيّر. فقد أصبح رجلاً جافاً، وهذا هـــو التعبيـــر الوحـــيد الذي يمكن أن أصفه فيه. تابع أندي الإشراف على

أعمال نورتون القذرة وبقي يعمل في المكتبة، واستمرّ في احتساء الشراب كلما حلّت ذكرى ميلاده أو عطلة رأس السنة، واستمرّ في مشاركة زملائه ما بقي من زجاجة الشراب. كنت أحضر له أدوات جديدة لصقل الحجارة بين الحين والآخر. وفي العام 1967، أحضرت له مطرقة جديدة مثل تلك التي أحضرتها له قبل تسعة عشر عاماً كما سبق أن أخبرتك والتي بليت تماماً. تسعة عشر عاماً! عندما تقول ذلك فجأة، تبدو تلك الكلمات أشبه بصوت إغلاق الباب. والمطرقة التي كان يبلغ ثمنها عشرة دولارات حينها، أصبح ثمنها اثنين وعشرين دولاراً بحلول العام 1967. وقد ظهرت على وجهي ووجهه علامات الحزن بسبب ذلك.

استمرّ أندي في نحت الحجارة التي يجدها في باحة التمارين الرياضية وصقلها، ولكن الباحة أصبحت أقل حجماً بحيث باتت في العام 1962 بنصف المساحة التي كانت عليها في العام 1950. ومع ذلك، كان في استطاعته العثور على ما يكفي من الحجارة لكي يبقى مشغولاً. عندما يفرغ أندي من كل حجر، كان يضعه بعناية على عتبة نافذته بعد أن يدير وجهه ناحية الشرق. قال لي إنه يحب النظر إلى حجارة هذا الكوكب التي التقطها من القاذورات وهي تحت الشمس. أحجار من الشيست، والكوارتز، والغرانيت. منحوتات ظريفة جُمعت بواسطة مادة لاصقة. صخور رسوبية متنوعة صُقلت وقُطعت بطريقة تجعلك تدرك لماذا أطلق عليها أندي اسم "ساندويتشات الألفية"؛ إنها الطبقات المؤلفة من مواد مختلفة تراكمت على مرّ العقود والقرون.

كان أندي يحرص على إهداء حجارته ومنحوتاته بين الحين والآخر لتوفير مكان لمنحوتاته الجديدة. وقد حصلت منه على أكبر عدد من تلك المنحوتات التي تشبه أزرار القمصان بحيث صار لديّ خمس منها. من هذه المنحوتات، حجرا الميكا اللذان حدثتك عنهما والمنحوتان على شكل رجل يلقي رمحاً، ومنحوتتان من الحجارة الرسوبية بدت طبقاتها مصقولة بطريقة رائعة. لا زلت أحتفظ بها، وأتفحصها في أوقات كثيرة، وأفكر في ما يمكن لرجلٍ أن يقوم به لو توفر له الوقت الكافي والإرادة لاستخدام قدراته، قطرة في كل مرة.

إذن، في الظاهر بقيت الأمور على حالها. ولو أراد نورتون أن يلحق الأذى بأندي كما قال له، كان سينظر إلى ما هو أسفل السطح لرؤية التغيير

الـــذي سيطرأ. لكنه لو رأى مقدار التغيّر الذي طرأ على أندي، فأعتقد بأنه كان سيقتنع بأربع سنين تلي الصدام الذي وقع بينه وبين أندي.

قــال لأندي بأنه يمشي في باحة التمارين الرياضية كما لو كان في حفلة كوكتـــيل. لم يكن ذلك الوصف الذي كنت سأستخدمه، ولكنني عرفت ماذا كان يقصد بذلك. أراد أن يصف أندي الذي يلبس الحرّية كما لو كانت معطفاً غير مرئـــي، وكـــيف أنـــه لم يطوّر عقلية مثل عقلية السجناء. فعينا أندي لم تكونا باهتـــين، وهو لا يمشي مثل باقي الرجال في آخر اليوم وهم في طريقهم إلى زنـــزاناتهم من أجل قضاء ليلة لا نهاية لها؛ بخطى متثاقلة وظهر أحدب. بل كان يمشي وظهره منتصب، بخطى مستقيمة كما لو كان في طريق العودة إلى منـــزله لتـــناول شريحة من اللحم المطهو جيداً وملاقاة امرأة حسناء بدلاً من تناول طبق من الخضار النيئة التي لا طعم لها، والبطاطا المهروسة والمتكتلة، وشـــريحة أو شـــريحتين من اللحم كثير الدهون الذي يطلق على السجناء اسم اللحم الغامض... وصورة راكيل ويلش على الجدار.

لكـــن بالرغم من تلك السنوات الأربع، لم يصبح مثل الآخرين، وإن يكـــن قـــد أصـــبح كثير الصمت، ومنطوياً على نفسه، وكثير التأمل. من يـــستطيع أن يـــوجّه له اللوم على ذلك؟ وبالتالي ربما كان نورتون الوحيد الذي سُرّ بذلك... لفترة وجيزة على الأقل.

تبدّد المزاج السيئ الذي سيطر عليه أثناء إجراء مباريات بطولة لعبة كـــرة القاعدة في العام 1967. كانت تلك السنة الحلم، السنة التي فاز فيها فـــريق ريد فوكس بالبطولة بدلاً من أن يحلّ في المركز التاسع كما تكهّن وكـــلاء المراهنات في لاس فيغاس. عندما حصل ذلك –عندما فاز الفريق بـــبطولة دورة كـــرة القاعدة– حلّت سعادة غامرة في السجن بأكمله. كان هناك إحساس بأنه في حال عادت الحياة إلى ريد فوكس، ففي إمكان الجميع أن يفعلوا ذلك. لا يمكنني شرح حقيقة ذلك الشعور الآن بأوضح مما يمكن لأحد المهووسين السابقين بفرقة البيتلز أن يشرح ذلك الجنون.

لكن بالنسبة إلى أندي، لا مجال للعودة إلى الكآبة مرّة أخرى. لم يكن من هواة لعبة كرة القاعدة على كل حال، وربما كان ذلك هو السبب. ومع ذلـــك، بـــدا أنـــه تأثر بالأحاسيس الجيدة. بالنسبة إلى أندي، لم تتبدد تلك الأحاســـيس مرّة أخرى بعد المباراة الأخيرة في البطولة. لقد أخرج معطفه غير المرئي من الخزانة، وارتداه.

أذكــر يــوماً مــشرقاً في آخر شهر أكتوبر/تشرين الأول، أي قبل أســبوعين من اختتام بطولة لعبة كرة القاعدة. لا بدّ وأنه كان يوم أحد لأن باحة التمارين الرياضية كانت مليئة بالرجال الذين يتنزهون في عطلة نهاية الأســبوع؛ يتــبادلون رمــي الأقــراص البلاستيكية، ويمرّرون الكرات، ويتقايضون ما يمكنهم مقايضته. وكان آخرون يجلسون إلى الطاولة الكبيرة في قاعة الزوّار تحت أعين الحرّاس، وهم يتحدثون إلى أقاربهم، ويدخنون السجائر، ويتبادلون الأكاذيب، ويتلقون الهدايا.

كــان أندي يجلس القرفصاء على الطريقة الهندية القديمة، وظهره مــسنود إلــى الحائط، وهو يطرق حجرين صغيرين في يديه، ووجهه مواجه لأشعة الشمس. كان الجو دافئاً على نحو غير متوقع تحت أشعة الشمس في ذلك اليوم المتأخر من العام. قال لي: "مرحباً يا ريد. تعال، واجلس قليلاً".

اقتــربت منه، وجلست. سألني أندي: "هل تريد هذا؟" وأعطاني أحد الحجرين اللذين صقلهما بعناية.

أجبته: "بالتأكيد. إنه في غاية الجمال. أشكرك".

بعــد ذلــك، دخــل إلى صلب الموضوع مباشرة فقال: "إنها ذكرى عظيمة تؤذن بسنتك التالية".

أومأت برأسي. فالسنة القادمة ستجعلني رجلاً في الثلاثين من عمره. وبذلك أكون قد أمضيت في سجن شاوشانك ستين في المئة من عمري.

"هل تعتقد بأنك ستخرج منه يوماً؟"

"بالتأكيد. عندما تشيب لحيتي".

ابتــسم ثــم حــوّل وجهه نحو الشمس مجدداً، وأغلق عينيه. "حرارة الشمس تجعلني أشعر بمزاج جيد".

"أعتقد بأنها دائماً كذلك عندما تعرف بأن فصل الشتاء بات قريباً".

أومأ برأسه، ثم بقينا صامتَين فترة من الوقت.

أخيــراً، قال أندي: "عندما أخرج من هذا المكان، سأتوجه إلى حيث الطقس يبقى دافئاً طوال العام". تحدث بهدوء وثقة بالنفس كما لو أنه لم يبقَ أمامــه سوى شهر واحد يمضيه في السجن. "هل تعرف إلى أين أنوي أن أذهب يا ريد؟"

"كلا".

قال: "إلى زيهوتنجو". جرت تلك الكلمة على لسانه بسلاسة مثل الموسيقى. "إنها بلدة في المكسيك. مكان صغير على مسافة ثلاثين كيلومتراً من بلايا أزول وطريق المكسيك العام رقم سبعة وثلاثين. وهي تبعد مسافة مئة وستين كيلومتراً شمال غرب أكابولكو المطلة على المحيط الهادئ. هل تعرف ماذا يقول المكسيكيون عن المحيط الهادئ؟"

أجبته بأنني لا أعرف.

"يقولون بأنه بدون ذاكرة. وهذا هو المكان الذي أنوي قضاء بقية عمري فيه يا ريد. في مكان دافئ ليس فيه ذاكرة".

التقط مجموعة من الحصى وهو يتحدث، ثم رماها بعد ذلك، الواحدة تلو الأخرى، وراقبها وهي ترتطم بالأرض، وتتدحرج على ملعب كرة القاعدة الوسخ، والذي لن يمرّ وقت طويل قبل أن تغطيه الثلوج بعمق نصف متر.

"زيهوتنجو. أريد أن أمتلك فندقاً صغيراً هناك. ست كابينات على امتداد الشاطئ، وست كابينات أخرى إلى الخلف من المجموعة الأولى، للمتسوقين الذين يسلكون الطريق السريع. وسأقوم بتوظيف شخص يصطحب ضيوفي في رحلات صيد. وستكون هناك هدية للشخص الذي يصطاد أكبر سمكة في الموسم، وسأعلق صورته في الردهة. لن يكون مكاناً عائلياً، بل سيكون مكاناً للأشخاص الذين يقضون شهر العسل".

سألته: "ومن أين ستحصل على المال اللازم لشراء هذا المكان الخيالي؟ من حسابك في تجارة الأسهم؟"

نظر إلي وابتسم وقال: "لم تجانب الصواب. أنت تدهشني أحياناً يا ريد".

"ما الذي تتحدث عنه؟"

قال أندي: "عندما يتعلق الأمر بالمشكلات العويصة، يوجد في الحقيقة نوعان من الرجال فقط في هذا العالم. لنفترض أنه يوجد منزل مليء باللوحات والمنحوتات النادرة والكثير من القطع القديمة الجيدة، ولنفترض أن الشخص الذي يملك المنزل سمع بأن إعصاراً قوياً يتوجّه نحو منزله مباشرة. يأمل أحد هذين النوعين من الرجال بحدوث الأفضل. يقول في نفسه بأن مسار الإعصار سيتغيّر. فلا يوجد إعصار عاقل يجرؤ على مسح كافة لوحات رامبرنت، وحصاني ديغاس، والغابة العظيمة، والبنتونز. وإذا

حـــدث الأسوأ، فهي تحظى بتغطية شركة التأمين. هذا هو النوع الأول من الرجال. والنوع الثاني يفترض بأن الإعصار سيخترق منزله مباشرة. وإذا قـــال مكـــتب الأرصـــــاد الجوية بأن الإعصار غيّر مساره، سيفترض ذلك الـــرجل بأنه لن يلبث أن يعود إلى مساره السابق ويسوّي منزله بالأرض. يعـــرف هذا النوع الثاني من الرجال بأنه لا يوجد ضرر في توقع الأفضل طالما أنه مستعدّ للأسوأ".

أشـــعلتُ ســـيجارة، وقلت: "هل تريد من ذلك القول بأنك مستعد لهذه النهاية؟"

"أجـــل. أنــــا مستعد لهذا الإعصار. أعرف أنه سيئ للغاية، وأنني لا أملك الوقت الكافي، ولكنني عملت في الوقت المتوفر لي. كان لدي صديق -وهو الشخص الوحيد الذي وقف بجانبي- يعمل لدى شركة استثمارية في بورتلاند، وقد توفي قبل حوالى ست سنوات".

"أنا آسف".

رمـــى أندي عقب سيجارته، وقال: "كنت أملك مع ليندا حوالى أربعة عـــشر ألـــف دولار، وهو مبلغ ليس بالكبير، ولكنا كنا صغيرين، وكانت الحياة في انتظارنا". عبس قليلاً، ثم ضحك، وقال: "عندما ضرب الإعصار المنـــزل، وضبّت لوحاتي التي رسمها رامبرنت لكي لا يصيبها الإعصار بأضرار. وبعت ما لديّ من أسهم، وسددتُ ضريبة الأرباح الرأسمالية مثل صبي صغير صالح، وأعلنت عن كافة ممتلكاتي، ولم أخفِ منها شيئاً".

"ألم يجمّدوا ممتلكاتك؟"

"كنتُ متهماً بجريمة قتل يا ريد ولم أكن ميتاً. وأنت لا تستطيع تجميد أرصـــدة رجل بريء؛ والحمد لله. ومضت فترة من الزمن قبل أن يمتلكوا الشجاعة لاتهامي بارتكاب الجريمة. وهكذا تسنّى لي ولصديقي جيم بعض الـــوقت. وقـــد أصابني الإعصار بأضرار كبيرة، وقضى على كل شيء. ولكـــن في ذلك الوقت، كان لديّ هم أكبر من مصادرة أرصدتي في سوق الأسهم".

"أجل، أعتقد بأنك كنت كذلك".

"لكن عندما دخلت شاوشانك، كانت جميعها في مكان آمن. يوجد خارج هـــذه الجـــدران يا ريد رجل لم يسبق لأحد الأحياء أن رآه وجهاً لوجه. لديه بطاقة ضمان اجتماعي ورخصة قيادة من ماين. ولديه شهادة ميلاد تحمل اسم

بيتــر ســتيفنز. اسم لطيف وغير معروف أليس كذلك؟" سألته "من يكون هذا الرجل؟" أعتقد بأني عرفت ماذا سيقول، ولكنني لم أصدق ما سمعته.

"أنا".

"أتــريد أن تقول لي بأنه سنح لك الوقت الكافي للحصول على بطاقة هوية مزورة فيما كانوا يصادرون ممتلكاتك، أو أنك أنهيت عملك فيما كنتَ تحاكم بتهمة".

"كلا، أنا لن أقول لك ذلك. كان صديقي جيم الذي حصل على بطاقة الهــوية المزورة. وقد بدأ العمل عليها بعد أن رُفض طلب استئناف الحكم، وكانــت المعلوماتَ الأساسية التي تعرّف عنّي قد باتت في حوزته بحلول ربيع العام 1950".

قلــت: "لا بــدّ وأنــه صديق مقرّب". لم أكن واثقاً من صحة كل ما ســمعت؛ هــل كان صادقاً في جزء مما قاله، أم في الكثير مما قاله، أم لم يكن صادقاً في حرف مما قاله. ولكن النهار كان دافئاً والشمس مالت على الغــروب، وكانــت بالفعل قصة جيدة. "أتريد أن تقول بأن الحصول على هوية مزورة تم بطريقة قانونية مئة في المئة؟"

قــال أندي: "جيم صديق مقرّب. فقد قاتلنا سوية في فرنسا، وألمانيا، قاتلــنا الإحــتلال معــاً. إنه صديق طيب. كان يعرف بأن هذا العمل غير قانونــي، ولكنه عرف أيضاً بأنَ الحصول على هوية مزورة في هذا البلد أمــر ســهل جــداً وآمن للغاية. أخذ مالي؛ بعد سداد ما يتوجب عليه من ضــرائب لكي لا تهتم مصلحة جباية الضرائب به؛ واستثمره لصالح بيتر ستيفنز. وقد قام بذلك في العامين 1950 و1951 بحيث أصبح مقدار المبلغ اليوم سبعون ألفاً وثلاثمائة دولار ومبلغ يسير".

أعتقد بأن حنكي أحدث صوتاً عندما لامس صدري لأنه ابتسم.

"فكر في كافة الأشياء التي يتمناها الأشخاص الذين استثمروا أموالهم مــنذ العــام 1950 والأشــياء التي يتمنّاها بيتر ستيفنز. لو أنني لم أدخل السجن، على الأرجح أن ذلك المبلغ كان سيصل إلى سبعة أو ثمانية ملايين دولار بحلــول هذا التاريخ. كنت سأشتري سيارة رولز... وربما أصابتني قرحة بمثل حجم راديو صغير".

بــدأ يــبحث بــيديه بين الأوساخ، وينخل المزيد من الحصى. كانت تتحرك في يديه برشاقة وبدون انقطاع.

"كـنت آمـل بحدوث الأفضل وأتوقع حدوث الأسوأ؛ لا شيء سوى ذلـك. أردت من استخدام الإسم المزور المحافظة على المبلغ البسيط الذي أملكـه. وضـّبت لوحاتـي مخافـة الإعصار، ولم تكن لديّ فكرة عن أن الإعصار سيستمرّ مدة طويلة".

بقيتُ صامتاً فترة من الوقت، وأعتقد بأني كنت أحاول استيعاب فكرة أن هذا الرجل الصغير، النحيل الجسم الجالس بالقرب منّي يملك من المال أكثـر مما يمكن للمراقب نورتون أن يجنيه في ما تبقّى من حياته البائسة، حتى مع كل ما يقوم به من عمليات احتيال.

أخيـراً، قلـت: "عندما قلتَ بأنك تستطيع توكيل محامٍ، لم تكن تمزح بالتأكيد. لأنك تستطيع بذلك المال توظيف كلارنس دارو. فلماذا عدلت عن رأيك؟ كان من الممكن أن تخرج من هنا بسرعة الصاروخ".

ابتـسم. كانت تلك الإبتسامة الخفيفة التي ارتسمت على وجهه عندما قال لي بأن الحياة في انتظاره وانتظار زوجته. قال: "كلا".

قلت: "أي محامٍ جيد كان سيخرج الصبي وليامز من كاشمان شاه أم أبـى". كـان الإنفعـال قد سيطر عليّ فقلت: "كنتَ ستحصل على محاكمة جديدة، وتوظف تحرّيين خاصين للبحث عن بلاتش وإحراج نورتون. لِمَ لم تقم بذلك يا أندي؟"

"لأنني فقت نفسي دهاء، لأنني إذا وضعت يدي على مال بيتر ستيفنز وأنـا داخل السجن، فسأخسره بالكامل. كان في إمكان جيم أن يقوم بذلك، ولكنه تُوفي. هل عرفت سبب المشكلة؟"

عـرفت الـسبب. بالـرغم من كل النفع الذي يمكن أن يوفره المال لأندي، ربما أصبح ذلك المال ملكاً لشخص آخر. وبطريقة أو بأخرى، هذا مـا حصل فعلاً. وفي حال تدهور القطاع الذي استُثمر هذا المال فيه، فكل مـا يستطيع أندي فعله هو مراقبة تلك الفاجعة وملاحقة أحداثها يوماً بيوم على صفحة الأسهم والسندات في البرس هيرالد. إنها حياة قاسية فعلاً.

"سأبين لك حقيقة الأمر يا ريد. يوجد حقل كبير مليء بالقش في بلدة بوكستون. أنت تعرف أين تقع بلدة بوكستون أليس كذلك؟"

أجبته: "نعم. إنها تقع بالقرب من سكاربورو".

"هـذا صحيح. وفي الطرف الشمالي من هذا الحقل، يوجد جدار من الحجارة وفي مكان ما بموازاة قاعدة ذلك الجدار، يوجد حجر لا علاقة له

بحقـول القـش فـي ماينفيلد. وهو عبارة عن قطعة من الحجر البركاني، ولغايـة العـام 1947، كـنت أستخدمه كمثقّلة على طاولة مكتبي. ولكن صـديقي جيم وضعه بالقرب من ذلك الجدار، ووضع مفتاحاً أسفله. وهذا هـو المفـتاح الخاص بصندوق حفظ الأمانات في مصرف كاسكو بنك في بورتلاند".

قلت: "أعتقد بأنك تعاني من متاعب جمّة. عندما تُوفي صديقك جيم، لا بـدّ وأن مـصلحة جباية الضرائب فتحت كافة صناديق حفظ الأمانات، إضافة إلى صندوق منفّذ الوصية بالطبع".

ابتـسم أنـدي، وربت على كتفي، وقال: "هذا استنتاج ليس بالسيئ. يوجد الكثير في هذا الرأس. ولكننا اتخذنا احتياطاتنا لإمكانية وفاة جيم فيما أنـا قابـع في السجن. فالصندوق باسم بيتر ستيفنز، ومرّة كل عام، ترسل مؤسسة المحامين التي تخدم كمنفّذ لوصية جيم شيكاً إلى المصرف كاسكو لتغطية تكاليف ايجار صندوق ستيفنز".

أضاف: "بيتر ستيفنز موجود في ذلك الصندوق، وهو يتحيّن الفرصة للخـروج. شـهادة مـيلاده، وبطاقـة الضمان الإجتماعي، ورخصة قيادة الـسيارة. لقد انتهت مدة الرخصة منذ ست سنوات لأن جيم تُوفي منذ ست سـنوات. هذا صحيح، ولكنها صالحة للتجديد مقابل خمسة دولارات. كما يحتوي الصندوق على شهادات بأسهمه، وشهادات لأسهم البلدية المعفاة من الـضرائب، وحوالى ثمانية عشر سنداً تُدفع قيمتها لحاملها يساوي كل منها عشرة آلاف دولار".

أطلقت صفرة تعجب.

"إن بيتـر سـتيفنز محتجَز في صندوق حفظ أمانات في كاسكو بنك بـورتلاند وأندي دوفريسن محتجَز في صندوق حفظ أمانات في شاوشانك. الأمـر أشبه بأعمال انتقامية. والمفتاح الذي يفتح الصندوق والمال والحياة الجديـدة موجـود أسفل قطعة من الحجر الأسود في حقل مليء بالقش في بوكـستون. بعد أن أطلعتك على كل هذه التفاصيل، سأخبرك بأمر آخر يا ريد. أمضيت السنوات العشرين الماضية وأنا أطالع الصحف باهتمام غير عـادي لعلّي أقرأ خبراً عن أي مشروع بناء في بوكستون. ولا تزال هناك فكـرة تراودني من أنني سأقرأ يوماً عن مشروع لشقّ طريق سريعة تمرّ من هناك، أو عن تشييد مستشفى جديدة، أو بناء مركز للتسوق. وهذا يعني

دفــن حياتي الجديدة أسفل ثلاثة أمتار من الخرسانة، أو وضعها في أرض سبخة وفوقها كمّ هائل من التراب".

قلت بدون سابق تفكير: "يا الله. إذا كان كل ما تقوله صحيحاً، أتساءل كيف أنك لم تصب بالجنون؟"

ابتسم وقال: "لغاية الآن، كل شيء هادئ على الجبهة الغربية".

"لكن ربما يستغرق الأمر سنين قبل أن..."

"هــذا مــا سيحصل فعلاً. لكن ليس بعدد السنين التي تتمناها الولاية والمــراقب. أنا لا أستطيع الإنتظار كل تلك المدة. فأنا أفكر باستمرار في زيهوتــنجو، وذلــك الفندق الصغير. وهذا كل ما أريده من حياتي الآن يا ريــد، وأنا لا أعتقد بأنني أطلب الكثير. أنا لم أقتل غلين كوينتين ولم أقتل زوجتــي، وذلــك الفــندق ليس بأمنية تتجاوز الواقع. أن أسبح، وتكتسب بــشرتي ســمرة الــشمس، وأنام في غرفة نوافذها مفتوحة وحيّز... أنا لا أطلب الكثير".

ثم رمى أحجاراً كانت في يده.

قال بطريقة تلقائية: "أنت تعرف يا ريد بأنه في مكان كهذا، يتعين أن يكــون لــي رفيق يعرف كيف يتدبر الأمور". بقيت أفكر في ما قاله لمدة طويلة. وأكبر مشكلة اعترضتني لم تكن في أننا كنا نتحدث عن أحلام في باحــة تمارين في سجن قذر محاط بحرّاس يراقبوننا من مراكز الحراسة. قلت له: "لا أستطيع فعل ذلك. لا يمكنني الإنسجام مع الخارج. لقد أصبحت كمــا يقولون، رجلاً خيّراً. داخل السجن، أنا الرجل الذي يستطيع تأمين ما تــريد، أجل. لكن في الخارج، يمكن لأي كان أن يؤمّن لك ما تريد. خارج الــسجن، إذا احــتجت إلى ملصقات أو مطارق أو أي شيء آخر، يمكنك الرجوع إلى الصفحات الصفراء. لكن داخل السجن، أنا الصفحات الصفراء اللعينة. لكنني لا أعرف كيف أبدأ أو من أين أبدأ".

قــال أنــدي: "أنت تستخف بقدراتك. فأنت رجل تعلّم بالإعتماد على نفسه وبنى نفسه بنفسه. أنت رجل لامع".

"اللعنة، أنا لا أملك حتى شهادة الثانوية العامة".

قــال: "أعــرف ذلك. ولكن ليست قطع الأوراق التي تصنع الرجال. كما أنه ليس السجن الذي يحطمهم أيضاً".

"لا يمكنني تدبير أموري خارج السجن يا آندي. أنا أعرف ذلك".

نهض، وقال: "فكّر في الأمر". ثم مضى كرجل حرّ صنع للتوّ رجلاً حرّاً آخر بواسطة اقتراح. كان ذلك كافياً لكي يجعلني رجلاً حرّاً لفترة من الوقت. يمكن لأندي أن يفعل ذلك. يمكن أن يساعدني على نسيان أننا محكومان بالسجن المؤبّد، وتحت رحمة مجلس إطلاق السراح المشروط ومراقب لعين يرغب في أن يُبقي أندي حيث هو. ففي النهاية، كان أندي كلباً مدللاً صغيراً يمكنه أن يعدّ كشوفات الضرائب. يا له من حيوان مدهش.

لكنني عندما عدت إلى زنزانتي في المساء، شعرت بأنني سجين مجدداً. بدت الفكرة بأكملها سخيفة، ولأن الصورة الذهنية للمياه الزرقاء والشواطئ البيضاء وحشية أكثر مما هي مجنونة؛ فهي تجرّ دماغي مثل صنّارة. وأنا لا أستطيع ببساطة ارتداء ذلك المعطف غير المرئي كما يفعل أندي. خلدت إلى النوم في تلك الليلة، وحلمت بحجر بركاني أسود رائع وسط حقل للقش، حجر أشبه بسندان ضخم لدى حدّاد. وكنت أحاول أن أرفع الحجر لكي أتمكن من الحصول على المفتاح الذي في الأسفل. ولكن الحجر لم يتحرك، فقد كان ضخماً جداً.

في الفناء، كان في مقدوري سماع نباح كلاب الشرطة.

وهذا ما يقودنا إلى موضوع الهروب من السجن.

كانت تقع محاولات بين الحين والآخر يقوم بها أفراد من عائلتنا الصغيرة السعيدة. إذا كنت ذكياً فلن تتسلق حائطاً في شاوشانك، فأحزمة الأضواء الكاشفة تنير المكان طوال الليل، وستنير على الأرجح الأصابع الطويلة البيضاء في الحقول المكشوفة التي تحيط بالسجن من جوانبه الثلاثة والمستنقع كريه الرائحة في الجانب الرابع. يتسلّق بعض المساجين الجدار بين الحين والآخر، ولكن الأنوار الكاشفة تكشف أمرهم. وإذا لم تفعل، فسوف يقعون في الأسر وهم يحاولون إيقاف السيارات على الطريق العام 6 أو الطريق العام 99. وإذا حاول الفارّون عبور الحدود، فسيراهم بعض المزارعين ويخبرون إدارة السجن بالموقع الذي رأوهم فيه. ويمكنك القول بأن المساجين الذين يتسلّقون الجدار هم أغبى المساجين. فشاوشانك ليس كانون سيتي. وفي المناطق الريفية، سيبدو رجل بثيابه الرمادية أشبه بصرصور على كعكة الزفاف. على مدى السنين السابقة، كان الرفاق الذين نجحوا في الفرار –ربما بطريقة غريبة وربما بطريقة عادية– هم

الأشخاص الذين قاموا بذلك عندما سنحت لهم فرصة بطريقة مفاجئة. تمكن بعضهم من الفرار بالإختباء في عربات نقل الشراشف. وقد حصل الكثير من تلك المحاولات خلال السنوات الأولى التي قضيتها في هذا المكان، ولكن إدارة السجن تمكنت من سدّ تلك الثغرة بعد حين.

كان لبرنامج *من الداخل إلى الخارج* الذي يديره المراقب نورتون نصيبه من حالات الفرار أيضاً. كانوا أشخاصاً وجدوا أنهم يحبون ذلك الجزء الذي يقع على اليمين من الواصلة أكثر من حبهم لذلك الجزء الذي يقع عن يسارها. وهنا أيضاً، كانت المحاولات ارتجالية إلى حدّ بعيد. ألقِ المجراف، واختبئ بين الشجيرات عندما تلاحظ أن أحد الحراس مشغول بتناول كوب من المياه من الشاحنة أو عندما يدخل اثنان منهم في جدال حادّ حول مسألة ما.

في العام 1969، كان العاملون في برنامج نورتون يجنون محصول البطاطا في مساباتوس. حدث ذلك في الثالث من نوفمبر/تشرين الثاني وكان العمل على وشك الإنتهاء. كان يوجد حارس اسمه هنري بو – لم يعد عضواً في عائلتنا الصغيرة السعيدة – وكان جالس على الصدام الخلفي لإحدى شاحنات البطاطا وهو يتناول غداءه، وبندقيته على ركبتيه عندما رأى ورقة من فئة العشرة دولارات (أو هذا ما قيل لي، ولكن تجري المبالغة في وصف الأمور أحياناً) من خلال الضباب الذي عمّ المكان في فترة ما بعد الظهر. ركض بو خلفها من غير أن يرفع نظره عنها. وفيما كان يقوم بذلك، هرب ثلاثة من المساجين الذين كان مكلفاً بمراقبتهم. أُلقي القبض على اثنين منهم في صالة للألعاب في ليزبون فالز، فيما لم يتم العثور على الثالث حتى يومنا هذا.

أعتقد بأن أشهر حالة فرار كانت محاولة سيد نيدو. حدثت تلك العملية في العام 1958، وأعتقد بأنه لن تقع حادثة أشهر منها. كان سيد يشارك في مباراة في لعبة كرة القاعدة يوم السبت عندما انطلقت صفارة الساعة الثالثة، مؤذنة بذلك بموعد تبديل الحرّاس. يقع موقف السيارات وراء باحة الألعاب الرياضية مباشرة، على الجانب الآخر من البوابة الرئيسية التي تعمل كهربائياً. تفتح البوابة عند الساعة الثالثة، ويختلط الحرّاس الذين جاء دور حراستهم مع الحرّاس الذين أنهوا فترتهم للتوّ. يتداول الحراس الكلام، ويتبادلون النكات المعتادة القديمة.

تقـــدم سـيـد ببطء، وهو يجرّ ماكينة تخطيط الطرقات، وعبر البوابة مبـتعداً عـن خط القاعدة في ملعب كرة القاعدة بعد أن انطلق من البلاطة المطاطية التي يقف عليها حامل المضرب في باحة التمارين الرياضية إلى الخـندق الـذي فـي الطرف الآخر من الطريق 6، حيث تم العثور على الماكيـنة فـوق كومة من الجير. لا تسألني كيف استطاع القيام بذلك. كان يرتدي زيّ المساجين ويبلغ طوله مئة وثمانين سنتيمتراً، وكان يثير الغبار الجيري خلفه. في اعتقادي أنه في فترة ما بعد الظهر من يوم الجمعة، كان الحـرّاس فـي غايـة السعادة لانتهاء دوام عملهم وكان الحرّاس القادمون مكتئبين للغاية لأنه حان دورهم لتولّي مهام الحراسة. ولأن أفراد المجموعة السابقة رؤوسهم في السحاب دائماً ولأن أفراد المجموعة القادمة لا يرفعون أنـوفهم عـن ظهور أحذيتهم... لقد تمكن سيد بطريقة ما من المرور عبر المجموعتين.

علـى حـد علمـي، لا يزال سيد طليقاً. وبقيت أنا وأندي دوفريسن نـضحك طوال سنين بسبب هروب سيد العظيم. وعندما سمعنا عن حادثة اخـتطاف طائـرة الـركاب التي طالب منفذها بالحصول على فدية، تلك الحادثة التي قفز فيها منفذها بالمظلة من الباب الخلفي للطائرة، أقسم أندي بأن الاسم الحقيقي لدي بي كوبر هو سيد نيدو.

قـال أنـدي: "وعلى الأرجح أن جيوبه كانت مليئة بجير خط القاعدة لكي تجلب له الحظ".

لكن ينبغي أن تعرف بأن محاولة مثل تلك التي قام بها سيد نيدو، أو الـزميل الـذي فـرّ من حقل البطاطا في ساباتوس، تعتبر من المحاولات النادرة. وربما تظافرت عدة عوامل في اللحظة نفسها، وهي الفرصة التي ربما ينتظرها أندي تسعين سنة من غير أن تسنح له.

ربمـا تتذكـر بأنني أخبرتك عن شخص يدعى هنلي باكوس، رئيس الزملاء في المغسل. جاء إلى شاوشانك سنة 1922 وتُوفي في مستوصف الـسجن بعـد ذلك بإحدى وثلاثين سنة. كانت هوايته التخطيط لمحاولات الفرار، ربما لأنه لم يكن يجرؤ على القيام بذلك بنفسه. كان في مقدوره أن يخبـرك عـن مـئات الخطط المختلفة، وجميعها خطط مجنونة وسبق أن جُرّبت في شاوشانك، الواحدة تلو الأخرى. خطتي المفضلة كانت تلك التي نفـذها بيفـر موريـسون، وهو سجين حاول أن يبني طائرة شراعية من

الصفر في قبو منشأة تصنيع اللوحات. حصل على التصاميم من كتاب نُشر في العام 1900 اسمه The Modern Boy's Guide to Fun and Adventure.
تمكــن بيفــر من بناء الطائرة من غير أن يعلم بأمره أحد، أو هذا ما قيل، ليكتشف في وقت متأخر بأنه لا يوجد باب في القبو يسمح بإخراج الطائرة مــنه. عــندما قصّ علينا هنلي تلك الحكاية، علا صوتنا بالضحك. وكان يعرف عشرات القصص التي لا تقلّ عنها إثارة للضحك.

عــندما يــتحدث هنلــي عن محاولات الهروب، فهو يذكرها بكافة تفاصيلها. قال لي مرّة بأنه جرى ما يزيد عن أربعمائة محاولة للفرار كان علــى علــم بهــا. فكر في ما قلته لك للحظة قبل أن تومئ برأسك وتتابع القــراءة. أربعمائة محاولة فرار! هذا يعني 12.9 محاولة فرار مقابل كل سنة قضاها هنلي باكوس في شاوشانك. سمّها جائزة أهم محاولة فرار لهذا الشهر. بالطبع، كانت هذه المحاولات غير متقنة في غالبيتها، وأفضت في النهاية إلى إمساك أحد الحرّاس بذراع أحد المساكين وهو يصرخ "إلى أين تعتقد بأنك ذاهب، أيها الأخرق السعيد؟"

قــال هنلــي بأنه ربما كان ستون منها محاولات جدّية، مثل محاولة *اختــراق السور* التي جرت في العام 1937، أي قبل عام واحد من دخولي الــشانك. كان جناح الإدارة لا يزال قيد الإنشاء حينها، وتمكن أربعة عشر ســجيناً مــن الفــرار باستخدام معدات البناء التي كانت أسفل سقيفة غير محكمــة الإغــلاق. دبّ الذعر في الجزء الجنوبي من ماين بسبب هروب *المجــرمين القساة* الأربعة عشر، وكان غالبية الفارّين في حالة من الذعر الشديد ولم يكن لديهم تصور عن المكان الذي ينبغي عليهم أن يتوجهوا إليه مــثل أرنــب تجمّــد فــي مكانه بعد أن سلّطت شاحنة أضواءها الأمامية علــيه على طريق عام فيما كانت تقترب بسرعة نحوه. لم يتمكن أحد من هؤلاء الفارّين الأربعة عشر من الإفلات، حيث قُتل اثنان منهم –على أيدي مدنيــين وليس على أيدي رجال الشرطة أو حرّاس السجن– ولكن لم يفلت منهم أحد.

كــم يــبلغ عــدد الذين نجحوا في الفرار في الفترة الممتدة بين العام 1938، عــندما جــئت إلى هنا، وذلك اليوم من شهر أكتوبر عندما حدّثني أنــدي عــن زيهوتنجو لأول مرّة؟ إذا جمعتُ معلوماتي مع ما قاله هنلي، سأقول بأنه وقعت عشر محاولات ناجحة. عشر محاولات تكللت بالنجاح.

بالـــرغم من أن تلك القصص ليست من النوع الذي يمكنك التأكد منه تمام الـتأكد، فأنــا أعـتقد بأن نصف هؤلاء العشرة يمضون فترات أحكام في سجون أخرى مثل الشانك. والسبب هو أنهم أصبحوا مؤهلين. فعندما تسلب من المرء حريّته، وتعلّمه كيف يعيش في زنزانة، سيفقد قدرته على التفكير بأبعـــاد شاملة. سيصبح مثل الأرنب الذي حدثتك عنه، عاجزاً عن الحركة بفعل الأضواء الأمامية للشاحنة التي لا بدّ وأنها ستقتله. وغالباً ما سينتهي الأمر بالسجين إلى العمل في وظيفة حقيرة لا أمل له فيها بتحقيق النجاح. ما هو السبب؟ لأنها ستعيده إلى الداخل، إلى حيث يفهم كيف تسير الأمور.

لــم يكــن أندي من هذا النوع، بخلافي أنا. تبدو فكرة رؤية المحيط الهادئ جيدة، لكنني كنت خائفاً من أن وجودي هناك سيثير الهلع في نفسي؛ بسبب ضخامة المشروع.

علـــى كل حال، كان اليوم الذي حدثني فيه أندي عن المكسيك، وعن السيد بيتر ستيفنز... هو اليوم الذي بدأت أعتقد فيه بأن لدى أندي مشروعاً للقيام بعملية فرار. تضرّعت إلى الله لكي يتوخى الحذر في حال قام بذلك، ولا أزال. ولـــم أكــن لأراهن بمالي على حظوظه في النجاح. وكما ترى، فالمــراقب نورتــون يضع أندي تحت مراقبة دقيقة. فأندي لم يكن مجرّد سجين يحمل رقماً في نظر نورتون، بل كانت تجمع بينهما علاقة عمل، إذا جــاز التعبيــر. كما أن أندي يملك عقلاً ويملك قلباً، وكان نورتون عازماً على استخدام أحدهما في سحق الآخر.

وكمـــا أنـــه يوجد سياسيون صادقون في الخارج - يحظون بالقبول دائمـــاً- يـــوجد حرّاس صادقون في السجن، وإذا كنتَ قاضياً نزيهاً ولديك غنـيمة وترغب في توزيعها، أعتقد بأنه من المحتمل أن تقبل بفكرة النظر إلـــى الأمـــور مـــن الزاوية الأخرى ريثما تسنح لك فرصة. أنا لست ذلك الرجل الذي يقول لك بأن أمراً مثل هذا لم يحدث، ولكن أندي دوفريسن لم يكـــن ذلك الرجل الذي يستطيع الهرب. لأنه، وكما سبق أن قلت لك، كان يخضع للمراقبة. هذا ما عرفه أندي، وهذا ما عرفه الحراس أيضاً.

لم يكن يوجد شخص يمكن أن يرشّح أندي للمشاركة في برنامج *من الداخل إلى الخارج*، لم يكن ذلك ممكناً طالما أن المراقب نورتون هو الذي يـــدرس طلـــبات الترشيح. كما أن أندي لم يكن من النوع الذي يسعى إلى تنفيذ طرق سيد نيدو العادية في الهرب.

لـو كـنتُ مكانه، لكان ذلك المفتاح سبباً لعذاب لا نهاية له. وكنت سـأعتبر نفسي محظوظاً إذا نمت ساعتين في الليل. فبلدة بوكستون لا تبعد أكثـر من خمسة وأربعين كيلومتراً عن شاوشانك. في غاية القرب، وهي مع ذلك في غاية البُعد.

اعتقدت بالرغم من ذلك بأن الفرصة المثلى هي في الإستعانة بمحامٍ ومحاولـة الحـصول على محاكمة ثانية. ولذلك، كان ينبغي الخروج من دائـرة سـيطرة نورتـون. ربما لا يتطلب إسكات تومي ويليامز أكثر من برنامج أشبه بإجازة مريحة للغاية، ولكنني لم أكن متأكداً تماماً. ربما تمكن أحد المحامين الدهاة من المسيسبي من نقله إلى هناك... وربما لم يكن ذلك المحامـي بحاجة إلى بذل كل هذا الجهد الشاقّ. أحبّ ويليامز صديقنا آندي بحقّ. وكنت أثير هذه المسائل بين الحين والآخر مع آندي، وكان يردّ عليّ بابتسامة فقط، من غير أن ينظر إليّ بعينيه، قائلاً بأنه يفكر في الأمر.

من الواضح أنه كان يفكر في الكثير من الأمور الأخرى أيضاً.

في العام 1975، فرّ آندي دوفريسن من شاوشانك، ولم يتمكنوا من إلقاء القـبض عليه، ولا أعتقد بأنهم سيتمكنون من النجاح في ذلك يوماً. في الواقع، أعتقد بأنه لم يعد هناك وجود لآندي دوفريسن بعد الآن. ولكن أعتقد بأنه يوجد شخص في زيهوتنجو في المكسيك اسمه بيتر ستيفنز، وعلى الأرجح أنه يدير فندقاً صغيراً جديداً في هذا العام، وأعني العام 1976.

سـأخبرك بما أعرفه وأفكر فيه، فهذا كل ما أستطيع القيام به. أليس كذلك؟

فـي الثانـي عـشر مـن شـهر مارس/آذار 1975، فُتحت أبواب الزنـزانات عـند الساعة 6:30 صباحاً كما هي العادة كل صباح في هذا المكان باستثناء نهار الأحد. وكما هي العادة في كل يوم عدا الأحد، يخرج الـزملاء مـن زنـزاناتهم إلـى الممر ويشكلون صفين مع إغلاق أبواب الزنـزانات خلفهـم. ثم يمشون نحو بوابة جناح الزنزانات الرئيسية، حيث يقـوم حارسـان بعـدّهم قبل إرسالهم إلى الكافيتيريا من أجل تناول طعام الفطور الذي هو عبارة عن وجبة من العصيدة، والبيض المخفوق، واللحم المدهن.

جرت الأمور كما هو معتاد إلى أن حان وقت عدّ السجناء عند بوابة جناح الزنزانات. كان من المفترض أن يكون عدد السجناء سبعة وعشرين،

ولكــن تبيّن وجود ستة وعشرين سجيناً. وبعد مناداة نقيب الحرّاس، سُمح لنــزلاء جــناح الزنزانات الخامس بالذهاب إلى الكافيتيريا من أجل تناول طعام الفطور.

قــدم نقــيب الحــرّاس، وهــو رفيق لم يكن بالسيئ، اسمه ريتشارد غونــيار، ومــساعده واسمه دايف بيوركس إلى جناح الزنزانات الخامس، على الفور. أعاد غونيار فتح بوابات الزنزانات، وذهب برفقة بيوركس إلى الممــر معاً، فيما كانا يمرّران العصا على القضبان ويحملان سلاحهما في يديهما. في حالة مثل هذه، عادة ما يكون أحد السجناء مريضاً لدرجة أنه لا يــستطيع الخروج من زنزانته في الصباح. وفي حالات أكثر ندرة، يكون السبب وفاة أحد السجناء أو إقدامه على الإنتحار.

لكــن فــي هذه المرّة، وجدا لغزاً بدلاً من أن يجدا رجلاً مريضاً أو ميتاً. لم يجد النقيب ومساعده أحداً على الإطلاق. يوجد أربع عشرة زنزانة فــي الجناح الخامس، سبع في كل جانب، وكانت جميعها مرتبة -الحرمان مــن امتــيازات الــزيارة هــو عقــوبة من يمتنع عن ترتيب زنزانته في شاوشانك- وخالية.

افتــرض غونــيار فــي بادئ الأمر حدوث خطأ في العدّ على سبيل المزاح، ولذلك بدلاً من ذهاب المساجين إلى العمل بعد الفطور، أعيد نزلاء الجــناح الخامس إلى زنزاناتهم وهم يمزحون ويلعبون. فكل مناسبة يتغير فيها الروتين تلقى الترحاب دائماً.

فُتحت أبواب الزنزانات، ودخل السجناء زنزاناتهم، وأُغلقت الأبواب خلفهــم. صاح أحد المهرّجين: "أريد التحدث إلى محاميّ، أريد التحدث إلى محاميّ، أنتم تديرون هذا المكان كما لو كان سجناً للدعارة".

بيوركس: "اخرس أنت الذي هناك، وإلاّ فستعاقَب".

المهرّج: "لقد عاقبتُ زوجتك يا بيركي".

غونــيار: "اخرســوا جميعاً، وإلاّ فستمضون بقية نهاركم هنا". ثم عاد وبيوركس إلى عدّ السجناء مجدداً، ولكنهما لم يكونا بحاجة إلى الذهاب بعيداً.

ســأل غونيار الحارسَ الليلي في الجانب الأيمن: "من ينزل في هذه الزنزانة؟"

أجــاب الحــارس الليلي: "أندي دوفريسن". وهذا كل ما احتاجا إلى فعله. لم يعد الأمر روتينياً بعد ذلك، فقد انفجر البالون.

في كافة الأفلام السينمائية التي تحكي عن السجون، رأيت أن صفارة الإنــذار تدوي حالما يتم اكتشاف حالة فرار. ولكن ذلك لا يحصل أبداً في شاوشـــانك. أول شيء قام به غونيار هو الإتصال بمراقب السجن. والأمر الثانـــي هـــو الـــبحث عن السجين المفقود. والأمر الثالث هو تنبيه شرطة الولاية في سكاربورو إلى احتمال حدوث عملية فرار.

هـــذا هو الروتين. لم تكن الإجراءات الروتينية تشترط تفتيش زنزانة المـــشتبه في هروبه، ولذلك لم يعمد أحد إلى تفتيشها، ليس في تلك المرّة. فما الذي يدعوهم إلى القيام بذلك؟ كانت حالة ينطبق عليها مبدأ *ما تراه هو ما تحصل عليه*. كانت غرفة صغيرة مربعة الشكل، مع قضبان على النافذة وعلـــى الـــباب الإنزلاقـــي. وفي الغرفة مرحاض وسرير فارغ، وبعض الأحجار الجميلة على عتبة النافذة.

والملـــصق بالطـــبع. كانـــت ليندا رونزتات تتربع على قمة الشهرة حيـــنها، وصورتها معلقة فوق سريره تماماً. ولطالما علّق صورة في ذلك المكان بالضبط وعلى مدى ستة وعشرين عاماً. وعندما نظر خلفها أحدهم - كـــان المراقب نورتون نفسه، كما تبيّن لاحقاً، بعدالته الشعرية، هذا إذا كان لديه أي حسّ بالعدالة- رأى أمراً سبب له صدمة.

لكـــن ذلـــك لـــم يحدث قبل الساعة السادسة والنصف مساءً، أي بعد انقـــضاء حوالى اثنتي عشرة ساعة على التبليغ عن فقدان أندي، وربما بعد عشرين ساعة على هروبه الفعلي من السجن.

خـــرج نورتـــون عن صوابه. وقد حصلت على معلومات من مصادر موثوقة؛ من تشستر الصادق الذي كان يلمّع أرضية القاعة في الجناح الخامس في ذلك اليوم. لم يكن بحاجة إلى تلميع لوحة ثقب المفتاح في أي باب بأذنه في ذلـــك اليوم. قال تشستر بأنه كان في مقدورك سماع صوت المراقب بوضوح من غرفة السجلات والملفات وهو يؤنب ريتشارد غونيار.

"ماذا تقصد بقولك *بأنك سعيد لأنه ليس في السجن*؟ ماذا يعني كلامك هـــذا؟ إنـــه يعني بأنك لم تجده! من الأفضل لك أن تجده لأنني أريده. هل تسمعني؟ أنا أريده".

قال غونيار شيئاً.

"حالة الفرار لم تحدث أثناء نوبتك؟ هذا ما تقوله. وعلى حدّ علمي، لا أحد يعرف متى حصل ذلك، أو كيف حصل ذلك، أو ما إذا كان قد حصل

فعلاً. والآن، أريده في مكتبي بحلول الساعة الثالثة من بعد ظهر هذا اليوم، وإلاّ فستتدحرج بعض الرؤوس. أنا أعدكم بذلك، وأنا أفي بوعودي دائماً".

قال غونيار شيئاً بدا أنه زاد من غضب نورتون الغاضب أصلاً.

"كلا؟ إذن اسمعني! اسمعني! هذا هو سجلّ الجناح الخامس لليلة الماضية. تم عدّ كل سجين فيه. لقد دخل دوفريسن زنزانته البارحة عند الساعة التاسعة مساء، وهذا يعني أنه من المستحيل أن يكون قد فرّ من السجن في هذا الوقت. هذا أمر مستحيل. والآن، اذهب واعثر عليه!"

لكن عند الساعة الثالثة، كان أندي لا يزال في عداد المفقودين. حتى أن نورتون قدم إلى الجناح الخامس مسرعاً بعد ذلك ببضع ساعات، حيث جرى احتجازنا بقية ذلك اليوم. هل جرى استجوابنا؟ لقد أمضينا معظم نهارنا في الإستجواب من قبل حرّاس على عجلة من أمرهم تملّكهم إحساس بنار التنّين في مؤخرة أعناقهم. قلنا جميعاً الكلام نفسه: لم نرَ شيئاً، ولم نسمع شيئاً. وعلى حدّ علمي، كنّا جميعاً نقول الحقيقة. وأنا واثق من هذا الأمر. وكل ما كان في استطاعتنا قوله هو أن أندي دخل زنزانته فعلاً عندما حان وقت دخول السجناء زنزاناتهم، وأن الأنوار أطفئت بعد ذلك بساعة. لكن أحد الأذكياء أشار إلى أن أندي تسلل من خلال ثقب المفتاح. وكانت ثمرة هذا الإقتراح مكوثه في الحبس الإنفرادي مدة أربعة أيام. وكانوا جميعاً مشدودي الأعصاب.

لذلك قدم نورتون إلينا مختالاً في مشيته، وبدأ يحدّق فينا بعينيه الزرقاوين كما لو كان الشرر يتطاير منهما على قضبان أقفاصنا الفولاذية. نظر إلينا كما لو كنّا جميعاً على علم مسبق بذلك، وأنا أرجّح بأنه كان يعتقد ذلك.

ذهب إلى زنزانة أندي وبحث فيها، وكانت لا تزال كما تركها أندي. كانت الشراشف مطوية ولكن لا يبدو أن أحداً نام في السرير. كانت الأحجار على عتبة النافذة، ولكن ليس كلها، فقد أخذ معه الأحجار التي راقت له أكثر من غيرها.

صاح نورتون: "الأحجار". ثم رماها على الأرضية. ارتعب غونيار، الذي كان يعمل وقتاً إضافياً الآن، ولكنه لم يقل شيئاً.

وقعت عينا نورتون على ملصق ليندا رونزتات. ظهرت ليندا في الصورة وهي تنظر إلى الوراء من فوق كتفها. كانت ترتدي ثوب سهرة،

وقد ظهرت عليها سمرة كاليفورنيا. لا بدّ وأنها اعتدت على المشاعر المتطرفة دينياً لنورتون. وفيما كنت أراقبه وهو ينظر إليها، تذكرت ما قاله لي أندي مرّة عن الإحساس بدخول الصورة والوقوف بجانب الفتاة.

بطريقة واقعية جداً، كان ذلك ما قام به فعلاً؛ لأنه كانت تفصل نورتون عن معرفة الحقيقة بضع ثوان فقط.

صاح قائلاً وهو ينزع الملصق عن الجدار بحركة واحدة بيده: "ما هذا الشيء القذر". ظهرت على الفور فجوة في الجدار الخرساني خلفها مباشرة.

لم يكن غونيار ليدخل فيها.

أمره نورتون بالدخول ولكن غونيار رفض أن يتحرك.

صاح نورتون: "سأطردك من وظيفتك بسبب ذلك". كان هستيرياً مثل امرأة أصابها حريق. تحولت رقبته إلى اللون الأحمر الداكن، وبرز وريدان على جبهته. "يمكنك أن تتأكد من ذلك أيها الجبان. سأطردك من وظيفتك، وسأحرص على ألاّ تعمل في أي سجن آخر في نيو إنغلند".

سلّم غونيار بصمت مسدّسه الأميري إلى نورتون من جهة القبضة أولاً. لقد صبر بما فيه الكفاية. كان قد مضى على عمله خارج الدوام ساعتان ودخل في الثالثة، وحصل على ما فيه الكفاية. بدا كما لو أن فرار أندي من عائلتنا الصغيرة السعيدة دفع نورتون إلى تجاوز حدود عدم العقلانية الشخصية التي ظل يحافظ عليها مدة طويلة... لقد أصابه مسّ من الجنون في تلك الليلة.

أنا لا أعرف ما تعنيه اللاعقلانية الشخصية بالطبع. ولكنني أعرف بأنه كان يوجد ستة وعشرون سجيناً يصغون إلى الحوار الحامي بين نورتون وريتشارد غونيار في تلك الليلة مع زوال آخر نور للنهار من السماء الكئيبة. أدركنا جميعاً بأن المراقب صامويل نورتون قد تجاوز للتوّ ما يطلق عليه المهندسون "الإجهاد الذي يسبب الإنهيار".

أقسم بالله أنه بدا لي أنني سمعت أندي دوفريسن وهو يضحك.

أخيراً، نجح نورتون في حمل حارس نحيل الجسم في تلك النوبة الليلية على دخول الفتحة التي صنعها أندي خلف ملصق ليندا رونزتات. كان اسم ذلك النحيل روري تريمونت، ولم يكن يتصف بكثير من الذكاء. ربما اعتقد بأنه سيفوز بالنجمة البرونزية أو ما شابه. وكما تبيّن لاحقاً،

كان من ضروب الحظ أن نورتون حصل على شخص بطول أندي تقريباً وبنيته لكي يدخل الثقب. ولو أنه أرسل حارساً ضخم الجثة -وهي الصفة الغالبة على معظم الحرّاس هنا- لكنت واثقاً بأنه سيُحتجز في المكان بقدر ثقتي بأن لون العشب أخضر... ولربما بقي عالقاً هناك.

دخل تريمونت مستعيناً بحبل مصنوع من فتائل النايلون وجده أحدهم في صندوق سيارته، بعد أن ربطه حول خصره وحمل في يده مصباحاً كبيراً يتسع لست بطاريات. وفي هذا الوقت، كان غونيار قد عدل عن رأيه في الإستقالة، وبدا أنه الوحيد الذي لا يزال قادراً على التفكير السليم، إذ إنه تمكن من العثور على مجموعة من التصاميم. عرفت بالضبط ما الذي كان مرسوماً فيها؛ رأى فيها مقطعاً عرضياً لجدار، على شكل ساندويتش. تبلغ سماكة الجدار ثلاثة أمتار. يتألف الجدار من ثلاثة أقسام، تبلغ سماكة كل من القسم الداخلي والقسم الخارجي متراً وعشرين سنتيمتراً تقريباً، والقسم الأوسط بعرض ستين سنتيمتراً وهو مخصص لتمرير الأنابيب، وعليك أن تعرف بأن الجزء الأوسط هو الجزء الأهم من عدة نواح. سُمع صوت تريمونت من الثقب وهو يقول: "أشمّ رائحة نتنة في هذا المكان أيها المراقب".

"لا بأس. واصل سيرك".

اختفت قدما تريمونت في الفجوة، وكان ضوء المصباح يتحرك يمنة ويسرة. "أيها الرقيب، أشمّ رائحة كريهة للغاية".

صاح نورتون: "قلت لا بأس بذلك!"

سُمع صوت تيرمونت المتألم: "يبدو أنها رائحة غائط. المكان مليء بالغائط".

حسناً، لم أستطع أن أتمالك نفسي. لقد تذكرت يومي بأكمله – بل سنواتي الثلاثين الأخيرة- على الفور، وبدأت أضحك كما لم أفعل منذ أن كنت رجلاً حرّاً، وهو الضحك الذي لم أكن أتوقعه داخل هذه الجدران الرمادية.

صاح نورتون: "اخرجوا ذلك الرجل من هنا". كنت أضحك باستمرار لدرجة أنني لم أعرف إن كان يعنيني أم يعني فريمونت. ولكنني استمريت في الضحك وأنا أضع يديّ على بطني. ولم أكن لأستطيع التوقف حتى وإن هدد نورتون بإطلاق الرصاص عليّ. "أخرجوه من هنا".

حسناً يا أصدقائي وجيراني. كنت ذلك الرجل الذي خرج مباشرة إلى الحــبس الإنفــرادي حــيث بقيت طوال خمسة عشر يوماً. كانت تلك مدة طويلة. ولكنني كنت أفكر بين الحين والآخر بروبرت المسكين قليل الذكاء، ثــم أفكــر بأنــدي دوفريــمن وهو يتوجه جنوباً مستقلاً سيارته الخاصة، ومــرتدياً ثياباً أنيقة، ولم أكن أستطيع أن أتمالك نفسي من الضحك. فعلت ذلك طوال الأيام الخمسة عشر التي قضيتها في الحبس الإنفرادي وأنا أقف على رأسي من الناحية العملية. وها هو أندي يتوجه إلى المحيط الهادئ.

ســمعت باقي ما جرى في تلك الليلة من عدد من المصادر. لم يكن هــناك الكثير على كل حال. وأعتقد بأن روبرت تريمونت قرر بأنه لم يعد يــوجد لديــه مــا يخسره بعد أن خسر غداءه وعشاءه، لأنه لم يحضر في الــوقت المناسب. لم يكن يوجد خطر من احتمال السقوط في حيّز الأنابيب بين القسمين الداخلي والخارجي من جدار جناح الزنزانات، فقد كان ضيقاً بحــيث احــتاج فريمونت إلى إقحام نفسه فيه بالقوة. وفي وقت لاحق قال فريمونت بأنه كان يستطيع أخذ نصف نفس وحسب وعرف بأن الأمر أشبه بمن يُدفن حيّاً.

مــا وجده داخل الممرّ كان الأنبوب الرئيسي لتصريف المياه المبتذلة والذي يخدم أربعة عشر مرحاضاً في الجناح الخامس، وهو أنبوب مصنوع من البورسلان جرى تركيبه قبل ثلاث وثلاثين سنة. كان الأنبوب مكسوراً. وبجانب الفتحة في الأنبوب، وجد تريمونت مطرقة أندي.

أصــبح أنــدي حرّاً، ولكن الأمر لم يكن بهذه السهولة. كان الأنبوب أضيق من الممر الذي نزل فيه تريمونت. لم يدخل فيه روبرت تريمونت، كما لم يدخل فيه أي شخص آخر أيضاً. لا بدّ وأن الأمر كان مقززاً للغاية، فقد قفز جرذ من الأنبوب فيما كان تريمونت يتفحص الفتحة والمطرقة. وما لبث أن عاد إلى زنزانة أندي مثل قرد يمشي على غصن شجرة.

دخــل أندي الأنبوب. ربما عرف بأنه يصبّ في مجرى يبعد مسافة خمــسمائة متــر عــن الــسجن في الجانب الغربي منه. كانت الرسومات التخطيطية للسجن لا تزال موجودة، ولا بدّ وأن أندي وجد طريقة للإطلاع علــيها. كما لا بدّ وأنه عرف بأن أنبوب الصرف الخاص بالجناح الخامس كــان آخر أنبوب غير موصول في شاوشانك بمنشأة معالجة مياه الصرف الــصحي التي أُنشئت حديثاً، ولا بد وأنه عرف بأنه إما أن يقوم بالمحاولة

في منتصف العام 1975 أو لا يقوم بها أبداً لأنهم كانوا سيحولّون مياه الصرف الصحي للجناح الخامس إلى منشأة المعالجة الجديدة في شهر أغسطس/آب.

المسافة تساوي خمسمائة متر، أي ما يوازي طول خمسة ملاعب لكرة القدم. زحف كل تلك المسافة، وربما استعان بمصباح صغير بحجم القلم، وربما لم يأخذ معه شيئاً. زحف وهو يعاني من آلام ربما لا يمكنني تصورها أو لا أرغب في تصورها. وربما تفرقت الجرذان أمامه، أو ربما تقدمت نحوه كما تفعل الحيوانات أحياناً عندما تسنح لها الفرصة للتحلّي بالجرأة في الظلام. ولا بدّ وأنه توفّرت له مسافة لتحريك كتفيه لكي يواصل زحفه، وربما احتاج إلى إقحام نفسه في المواضع التي تلتقي فيها الأنابيب. إذا كان حالي كذلك، فلا بدّ وأن رهاب الحبس كان سيدفعني إلى الجنون، ولكن ذلك لم يحصل.

وجدوا عند الطرف الآخر من الأنبوب آثار أقدام موحلة خارج الأرض السبخة التي يصب الأنبوب فيها. وعلى مسافة كيلومترين من المكان، وجد فريق التفتيش ثياب السجن، وحصل ذلك في اليوم التالي.

تصدّرت القصة عناوين الصحف، كما لا بدّ وأنك حزرت، لكن لم يتقدم أحد ضمن شعاع يبلغ قطره خمسة وعشرين كيلومتراً من السجن للإفادة عن سرقة سيارته، أو سرقة ثيابه، أو عن رؤيته رجلاً عارياً تحت ضوء القمر. لم يحصل ما هو غير عادي مثل نباح كلب في الفناء، فقد خرج أندي من أنبوب الصرف الصحّي، واختفى مثل الدخان.

لكنني أراهن على أنه ذهب في اتجاه بوكستون.

بعد مرور ثلاثة شهور على ذلك اليوم المشهود، استقال المراقب نورتون. كان رجلاً محطماً، وهو ما أثار في نفسي غبطة عظيمة. فقد جفّ ينبوع المال الذي كان لديه. وفي يومه الأخير، رأيته يمشي بخطى متثاقلة ورأسه إلى أسفل مثل سجين قديم في طريقه إلى المستوصف لكي يحصل على أقراص مهدئة. حلّ محلّه غونيار في منصب المراقب، ولا بدّ وأن ذلك بدا بالنسبة إلى نورتون أسوأ ما يمكن أن يحصل. وعلى حدّ علمي، يعيش صامويل نورتون في إليوت الآن، وهو يشارك في القداس كل يوم أحد في الكنيسة، ويتساءل كيف تمكن أندي دوفريسن من الإنتصار عليه.

كنت سأقول له إن الإجابة عن هذا السؤال بمثل بساطة السؤال نفسه، انتصر البعض، ولم ينتصر البعض الآخر ولن ينتصر أبداً.

أخبـرتك عـن التفاصيل التي أعرفها، وسأخبرك الآن بما أفكر فيه. ربما ارتكبت بعض الأخطاء في ذكر بعض التفاصيل، ولكنني أراهن بكل مـا أملـك بأنني لخبرتك مجمل القصة على أكمل وجه، لأنه بوجود رجل مـثل أندي، هناك طريقة واحدة فقط أو طريقتان للقيام بذلك. وعندما أفكر فـي أندي، أفكر في نورمادين، ذلك الهندي نصف المجنون الذي قال في وصف أندي: "زميل جيد". هذا ما قاله عن أندي بعد أن لازمه في زنزانة واحـدة ثمانـية شـهور. "شعرت بالسعادة لأنني خرجت منها، لأن التيار الهوائـي سـيئ فيها. كنت أشعر بالبرد دائماً. هو لم يكن يسمح لأحد بأن يلمس شيئاً من أغراضه. وهذا أمر لا بأس به. إنه رجل لطيف ولا يمزح أبداً. ولكن المشكلة في التيار البارد". عرف نورمادين المسكين ما لم يعرفه أي مـنّا في وقت مبكر. كما مرّت ثمانية شهور كاملة قبل أن يتمكن أندي من إخراجه من زنزانته والإختلاء بنفسه فيها مجدداً. ولولا الشهور الثمانية التـي أمـضاها نورمادين معه في الزنزانة بعد مجيء المراقب نورتون، أعتقد بأن أندي كان سيصبح في عداد الأحرار قبل استقالة نيكسون.

أعـتقد الآن بـأن العمـل بدأ في العام 1949؛ فهو لم يبدأ باستخدام المطـرقة حينها، بل بملصق ريتا هايوُرث. شرحت لك كيف كان متوتراً عـندما طلب الملصق منّي، كان متوتراً ومفعماً بمشاعر الإثارة. اعتقدتُ حيـنها بأن السبب هو شعوره بالإحراج وحسب، ولنّ أندي لم يكن يرغب بـأن يعـرف لحـد بأنه يريد امرأة... وخصوصاً إذا كانت امرأة خيالية. ولكنني أعتقد الآن بأنني كنت مخطئاً، وأن إثارة أندي كانت نابعة من شيء آخر.

مـن كان المسؤول عن إحداث الفجوة التي اكتشفها المراقب نورتون فـي النهاية خلف ملصق يحمل صورة فتاة والذي لم يكن قد بدأ العمل فيه بعد عندما التُقطت صورة ريتا هايوُرث؟ إنها مثابرة أندي دوفريسن وعمله الـدؤوب. ولكن كان يوجد عنصران آخران في المعادلة: توفر الكثير من الحظ، والجدار الخرساني.

أنـا لست بحاجة إلى أن أشرح لك دور الحظ في العملية. أما الجدار الخرساني، فقد تحققت منه بنفسي، واستثمرت بعض الوقت وابتعت بعض

الطوابع وراسلت قسم التاريخ في جامعة ماين أولاً، ثم راسلت رفيقاً حصلت على عنوانه من الجامعة. كان ذلك الرفيق رئيس العمال عندما قامت إدارة *تطوير الأعمال ببناء* جناح ماكس الأمني في شاوشانك.

شُيّد الجناح الذي يضمّ أقسام الزنزانات الثالث والرابع والخامس في الفترة الممتدة بين عامي 1934 و1937. في الوقت الحالي، لا ينظر الكثير من الناس إلى الإسمنت والخرسانة على أنهما من جملة التطورات التكنولوجية، بعكس نظرتهم إلى السيارات والسفن الفضائية، ولكنهما كذلك فعلاً. لم تعرف البشرية الإسمنت الحديث إلاّ في العام 1870، كما لم تعرف الخرسانة الحديثة إلاّ في مطلع القرن العشرين. يُعتبر إعداد الخلطة الخرسانية مهمة دقيقة مثل إعداد الخبز. فقد تضيف إليها الكثير من الماء أو لا تضيف إليها الكمية الكافية من الماء. ويمكن أن تكون الحبيبات الرملية ناعمة جداً أو خشنة، والأمر نفسه ينطبق على الحصى. وإذا عدنا إلى العام 1934، نجد أن علم إعداد الخلطات الخرسانية كان أقل تعقيداً بكثير منه اليوم.

كانت جدران الجناح الخامس سميكة بما فيه الكفاية، ولكنها لم تكن جافة تماماً. في الحقيقة، كانت رطبة جداً لدرجة أن الجدران كانت تتعرق أحياناً. وهذا ما تسبب ببعض التشققات التي بلغ عمق بعضها حوالى ثلاثة سنتيمترات. ولذلك كانت إدارة السجن تضيف إليها طبقة من الملاط بين الحين والآخر.

أُدخل آندي إلى زنزانة في الجناح الخامس. تخرّج آندي من كلية التجارة في جامعة ماين، ولكنه تلقّى مقررات تعليمية في علم الجيولوجيا أثناء دراسته الجامعية. وهكذا، أصبحت الجيولوجيا هوايته المفضلة. في اعتقادي، بدت الجيولوجيا جذابة لهذا الرجل الصبور والذي يهتم بأدق التفاصيل. ترجع الصخور في هذه المنطقة إلى العصر الجليدي، وفيها جبال يبلغ عمرها مليون سنة، ولا تزال صفائح الطبقة السفلية تحتك ببعضها في أعماق الأرض منذ آلاف السنين. إنه الضغط. قال لي آندي مرة بأن علم الجيولوجيا يتلخص في دراسة الضغط.

والوقت بالطبع.

تسنّى له الوقت الكافي لدارسة تلك الجدران. وأنا أعني الكثير من الوقت. فعندما تُقفل بوابات الزنزانات وتُطفأ الأنوار، لا يعود يوجد شيء آخر يمكن أن تنظر إليه سوى الجدران.

يعانـــي القادمـــون الجدد في العادة من صعوبة كبيرة في التأقلم مع ظـــروف الإحـــتجاز في السجن. وليس بالأمر المستغرب أن يطرق عضو جديـــد فـــي عائلتـــنا الصغيرة السعيدة على قضبان زنزانته ويصيح قائلاً أخرجوني من هنا... وقبل أن تقطع توسلاته مسافة كبيرة، يبدأ الرفاق في الجناح بالقول: "سمكة طازجة، سمكة طازجة".

لم يطرق أندي على قضبان زنزانته عندما أُدخل سجن شاوشانك في العام 1948، ولكن ذلك لا يعني أنه لم يراوده الكثير من الأحاسيس نفسها. ربمـــا وصـــل إلى حافة الجنون، والبعض يصابون بالجنون فعلاً، ويبقى الـــبعض فـــي تلـــك الحالة. فقد اختفت الحياة القديمة بلمح البصر، وهناك الكوابيس الغامضة في انتظاره، وسيكون ذلك وقتاً طويلاً في الجحيم.

ربما تسألني ماذا فعل إذن؟ بحث أندي بيأس عن أي شيء لكي يشغل عقلـــه القلـــق. وهـــناك الكثير من الطرق لكي تشغل نفسك حتى وأنت في الـــسجن. ويـــبدو أن دمـــاغ الإنسان قادر على سلوك طرق لا حصر لها لإشغال نفسه. كان يوجد مساجين يجمعون العملات، وكانت أيدي السارقين تـــصل إليها دائماً، كما كان يوجد هواة جمع الطوابع، حتى أنه كان يوجد لدى أحد الزملاء تشكيلة تضم أكثر من خمسة وثلاثين طابعاً مختلفاً.

حـــصر أندي اهتمامه بالأحجار، وجدران زنزانته. في اعتقادي، لم يكـــن يـــنوي في بادئ الأمر سوى نحت إطار في المكان الذي سيعلق فيه ملـــصق ريتا هايوُرث. ولكنه اكتشف في أثناء ذلك بأن الجدار الخرساني ضـــعيف على نحو مدهش. وربما بدأ بنحت الأحرف الأولية لاسمه عندما سقطت قطعة كبيرة من الخرسانة. يمكنني تصوره وهو ممدد في سريره، وعيـــناه على القطعة الخرسانية فيما كان يقلّبها بين يديه. لا بأس بالضرر الذي لحق بحياتك، ولا بأس بوصولك إلى هذا المكان بسبب حظك العاثر. دعنا ننسى كل ذلك ونكتفي بالنظر إلى تلك القطعة الخرسانية.

ربمـــا قـــرر بعد مرور عدة شهور على تلك الحادثة بأنه سيكون مسلياً معـــرفة مقـــدار ما يمكن استخلاصه من ذلك الجدار. ولكنك لا تستطيع البدء بالحفـــر في جدارك، وتقول، عندما تحين جولة التفتيش الأسبوعية (أو إحدى عملـــيات التفتـــيش المفاجـــئة التي ينتج عنها اكتشاف الكثير من المشروبات، والمخدرات، والصور الرذيلة، والأسلحة) وتقول للحارس "أتقصد هذا الشيء؟ إنه مجرد فجوة صغيرة في زنزانتي. ولا داعي للقلق أيها الرجل الطيّب".

كـلا، لم يكن يستطيع أن يفعل ذلك. ولهذا السبب، جاء إليّ، وسألني إن كنت أستطيع أن أحضر له ملصقاً لريتا هايورث، الملصق الكبير وليس الصغير.

كمـا ينبغي ألاّ يغيب عن بالنا أمر المطرقة. وأنا أذكر أنني بقيت أفكـر عـندما طلـبها منّي في العام 1948 وقلت في نفسي بأن المرء سيحتاج إلى ستمائة عام لكي يحفر فجوة بواسطة تلك المطرقة. ولكن لم يكـن أنـدي بحاجـة إلى حفر أكثر من نصف الجدار؛ وحتى لو كانت الخرسـانة ضـعيفة، كان سيحتاج إلى مطرقتين وسبعة وعشرين عاماً لكي يثقبه بالكامل.

لا بدّ وأنه خسر بالطبع واحدة من تلك السنوات عندما تقاسم الزنزانة مـع نورمادين بحيث بات مضطراً إلى العمل ليلاً فقط، وفي وقت متأخر مـن الليل، بعد أن ينام الجميع؛ بمن فيهم الحرّاس الذين يعملون في النوبة الليلية. ولكنني أعتقد بأن العائق الذي أطال وقت إكمال الحفر كان التخلص مـن القطع الخرسانية التي يقتطعها من الجدار أثناء عملية الحفر. كان في مقـدوره كـتم صوت المطرقة عبر وضع الورق الذي يصقل به الأحجار علـى رأسها. لكن ماذا عساه يفعل بالخرسانة المسحوقة والقطع الخرسانية التي كان يقتلعها بين الحين والآخر؟

أعتقد بأنه كان يسحق تلك القطع على شكل حصى صغيرة و...

لا زلت أذكر يوم الأحد الأول الذي تلا إحضاري له المطرقة. أذكر أنـه كـان يمـشي في باحة التمارين الرياضية، ووجهه متورّم من جولته الأخيـرة مع *الشقيقات*. رأيته وهو يحني ظهره، ويلتقط حجراً صغيراً ما لـبث أن اختفى في كمّه. كان إخفاء الأشياء في كمّ القميص أو ثنية رجل السروال خدعة قديمة تمارس في السجون. كما أنني لأذكر أنني رأيت أندي يمـشي فـي أكثر من مناسبة في باحة التمارين الرياضية في يوم حارّ من أيـام الصيف من غير أن تكون هناك ولو نسمة هواء خفيفة باستثناء تلك النسمة التي كانت تهبّ بين قدمي دوفريسن.

وبالتالـي ربمـا صنع بعض الجيوب داخل سرواله أسفل الركبتين، وكـان يمـلأ تلـك الجـيوب بالردم ثم يذهب إلى الباحة. وعندما يشعر بالإطمئـنان، يـبدأ بإفراغها. وقد استخدم تلك الحيلة أسرى الحرب الذين كانوا يحفرون الأنفاق أثناء الحرب العالمية الثانية.

مرّت سنوات فيما كان أندي يُخرج الردم الناتج عن حفر الجدار حفنة بعد أخرى، وكان يقدّم خدماته لكل إدارة جديدة. وكان هؤلاء يعتقدون بأنه أراد خدمتهم لأنه أراد توسيع المكتبة. ما من شك لديّ في أن ذلك كان جزءاً من أهدافه، ولكن الشيء الرئيسي الذي أراده أندي هو أن يكون شاغل الزنزانة الرابعة عشرة في الجناح الخامس وحيداً.

أنا أشك في أنه فكر في خطط حقيقية للهروب أو أنه كان يأمل بالخروج من السجن، في بادئ الأمر على الأقل. وعلى الأرجح أنه افترض بأن سماكة الجدار تبلغ ثلاثة أمتار من الخرسانة المصمتة، وأنه نجح في اختراقه، وأن الجدار يعلو باحة التمارين الرياضية مسافة عشرة أمتار. لكن وكما قلت لك، لا أعتقد بأنه شعر بالكثير من القلق بشأن حفر الجدار. ولا بدّ وأنه قال في نفسه: إذا تمكنت من حفر مسافة ثلاثين سنتيمتراً كل سبع سنوات، فسأحتاج إلى سبعين سنة لكي أخترق الجدار، مما يعني أنني سأكون قد بلغت من العمر حينها مئة عام وعاماً واحداً. والإفتراض الثاني الذي كنت سأتوصل إليه لو كنت محل أندي هو أنه سيتم اكتشاف الأمر وأقضي فترة طويلة في الحبس الإنفرادي، ناهيك عن العلامة الكبيرة السوداء التي ستوضع في سجلّي. ففي النهاية، هناك عمليات تفتيش أسبوعية منتظمة إضافة إلى عمليات التفتيش المفاجئة -والتي تُجرى في الليل عادة- بين الحين والآخر. لا بدّ وأنه استنتج بأن الأمر لن يطول قبل أن يفكر أحد الحراس في نزع ملصق ريتا هايوُرث لمجرد التأكد من أنه لا يخفي بعض المخدارت خلفه.

أما ردّه على الإفتراض الثاني فقد كان ليذهبوا إلى الجحيم بلا شك. حتى أنه ربما جعل منها لعبته المسلّية. فما هي المسافة التي سيخترقها داخل الجدار قبل أن يكتشفوا حقيقة الأمر؟ فالسجن مكان يبعث على الملل على نحو فظيع، وعلى الأرجح أن فكرة التعرض للمباغتة في عملية تفتيش مفاجئة في منتصف الليل بعد أن يرفع الملصق عن الجدار أضافت بعض النكهة إلى حياته في السنوات الأولى التي قضاها في السجن.

كما أعتقد بأنه كان من المستحيل على أندي أن يهرب من السجن بالإعتماد على الحظ وحسب. فلا يمكن للحظ أن يلازمه طوال سبعة وعشرين عاماً. وبالرغم من ذلك، عليّ أن أفترض بأنه في السنتين الأوليين - حتى منتصف مايو/أيار 1950، عندما ساعد بايرون هادلي

علـــى التهرّب من دفع الضرائب المتوجبة على التركة التي ورثها فجأة – كان يعتمد على الحظ بشكل مطلق.

ربما كان لديه ما هو أكثر من الحظ حينها. فقد كان يملك المال، ربما كان يرشو بعض الحرّاس لكي يتساهلوا في مراقبته. ففي الإمكان التوصل إلى تفاهم مع معظم الحراس بحيث إنه إذا كان المبلغ مناسباً، سيصل المال إلـــى جـــيوبهم ويتمكن السجين من الإحتفاظ بالصور التي لديه أو سجائره المحـــشوة بالحـــشيش. كمـــا أن أندي كان سجيناً نموذجياً، وهادئاً، ولبقاً، ومحترماً، ومسالماً. لكن جنون السجناء واندفاعهم هو الذي يحمل الحراس على قلب الزنزانات رأساً على عقب مرة كل ستة شهور على الأقل، وعلى تفتيش الفرش، وتمزيق الوسائد، وتفحص المراحيض بدقة.

فـــي العام 1950، أصبح أندي أكثر من مجرد سجين نموذجي. ففي ذلـــك العـــام، أصـــبح سلعة قيّمة، قاتلاً يفوق الجميع في إعداد الكشوفات الـــضريبية. وكـــان يقـــدم النـــصائح المجانية في التخطيط، والتهرب من الضرائب، وملء طلبات الحصول على القروض (بطريقة خلاّقة في بعض الأحـــيان). وأذكر أنه كان جالساً خلف مكتبه في المكتبة وهو يراجع بتؤدة اتفاقية لاستئجار سيارة فقرة بعد أخرى مع أحد رؤساء الحراس الذي أراد شراء سيارة ديسوتو مستعملة، ويخبره عما هو جيد في الإتفاقية وعما هو ســـيئ فيها، ويشرح له بأنه يمكن الحصول على قرض وعدم تحمل فوائد مرتفعة، ناصحاً إياه بالإبتعاد عن شركات التمويل التي كانت في تلك الأيام أفـــضل بقلـــيل مـــن قروش الإقراض. وبعد أن أنهى مراجعته، بدأ رئيس الحـــراس بمـــدّ يده ولكنه سرعان ما أرجعها. لقد نسي لوهلة كما ترى أنه يتعامل مع جالب حظ، لا مع رجل.

وواظـــب أندي على الإطلاع على القوانين الضريبية وعلى التغيرات التي تشهدها أسواق الأسهم، ولذلك لم يصبح بدون فائدة بعد أن دخل غرفة التخـــزين الـــبارد لفترة، كما يحصل مع غيره في العادة. شرع في تدبير الأمـــوال لمكتبـــته، ووضـــع حداً لحربه مع *الشقيقات*، ولم يعد أحد يعبث بزنزانته. كان زنجياً صالحاً.

ثم جاء اليوم – ربما في شهر أكتوبر/تشرين الأول 1967– الذي تحولت فيه فجأة الهواية القديمة إلى شيء آخر. ففي إحدى الليالي عندما كـــان مختلـــياً بـــصورة راكـــيل ويلش المعلقة فوقه، لا بدّ وأن الرأس

المستدق لمطرقته اخترق الجدار الخرساني بالكامل. وربما سحب بعض القطـــع الخرسانية، ولكنه ربما سمع صوت قطع أخرى وهي تسقط في الممـــرّ، وكـــذلك هي ترتطم بين جانبي الجدار وترتطم بالأنبوب. هل عـــرف حيـــنها بأنه سيصل إلى الممر، أم أنه فوجئ تماماً بذلك؟ أنا لا أعـــرف. ربما كان قد اطلع على التصاميم الخاصة بالسجن وربما لا. وفـــي الحالة الأخيرة، يمكنك التأكد من أنه وجد طريقة للإطلاع عليها في غضون فترة وجيزة.

لا بدّ وأنه أدرك فجأة بأنه بدلاً من ممارسة لعبة، بات يلعب مقابل رهانـــات عالـــية... تـــتعلق بحـــياته ومـــستقبله، وهو ما جعلها أعلى الـــرهانات. وحتـــى في تلك اللحظة، لم يكن متأكداً من ذلك، لكن لا بدّ وأنـــه اســـتوعب الأمـــر جيداً لأنه في تلك المرحلة بالذات حدثني عن زيهوتنجو لأول مرّة. فجأة، تحولت تلك الفجوة السخيفة من كونها لعبة إلى خطة محكمة؛ بعد أن عرف بشأن الأنبوب الرأسي في الأسفل وأنه يمرّ أسفل الجدار الخارجي.

كـــان يحـــتفظ بمفتاح أسفل ذلك الحجر في بوكستون، ولقد سبب له القلق على مدى عدة سنوات. والآن بات عليه أن يقلق من احتمال أن ينظر أحـــد الحـــراس المتحمـــسين الجدد وراء ذلك الملصق ويكتشف المخطط بأكملـــه، أو يـــشاركه زمـــيل آخر في الزنزانة، أو يتم نقله، بعد كل تلك الـــسنين، إلى مكان آخر. بقيت هذه الهواجس تنتابه طوال الأعوام الثمانية التالـــية. وكـــل ما يمكنني قوله هو أنه لا بدّ وأنه أحد أروع الرجال الذين عرفتهم. كنت سأصاب بالجنون لفترة من الوقت، وأنا أعيش حالة من عدم اليقين، ولكن أندي واصل اللعبة.

كـــان عليه التحسب لاحتمال افتضاح أمره مدة ثمانية أعوام أخرى؛ وهـــذا احـــتمال قـــاتم، لأنه بغض النظر عن مدى دقته في تهيئة الأوراق لـــصالحه، فبوصفه نزيلاً في سجن تابع للولاية فهو لا يملك الكثير من تلك الأوراق أصلاً، علماً بأن الحظ بقي بجانبه طوال تسعة عشر عاماً.

أكثر الإحتمالات التي يمكنني التفكير فيها غرابة وإثارة للسخرية هو إمكانية حصوله على إطلاق سراح مشروط. هل يمكنك تخيّل ذلك؟ أي أنه قبل ثلاثة أيام على إطلاق سراحه، يتم نقله إلى جناح لا يحظى بإجراءات أمنـــية مـــشددة لكي يخضع لاختبارات بدنية ومهنية. وفيما هو هناك، يبدأ

للعمل على تنظيف زنزانته بالكامل. وبدلاً من حصوله على إطلاق سراح مشروط، سيحصل على إقامة طويلة في الحبس الإنفرادي في الأسفل، وتليها فترات أطول في الأعلى، لكن في زنزانة أخرى.

بما أننا نعرف بأنه تمكن من إحداث خرق في الجدار وصولاً إلى الممر الرأسي في العام 1967. فلماذا تأخر هروبه حتى العام 1975؟

لا أعرف السبب بالتحديد؛ ولكنني أستطيع إعطاء بعض التخمينات الجيدة.

أولاً: أصبح أكثر حذراً من أي وقت مضى. فقد كان أذكى من أن يسرّع من وتيرة العمل، ويحاول الفرار في غضون ثمانية شهور، أو حتى في غضون ثمانية عشر شهراً. ولا بدّ وأنه عمد إلى توسيع الفتحة بوتيرة بطيئة. لقد أصبحت الفتحة بحجم كوب شاي بحلول الوقت الذي احتسى فيه شرابه عشية رأس السنة الجديدة في ذلك العام. وأصبحت الفتحة بحجم طبق المائدة بحلول الوقت الذي احتسى فيه شرابه عشية الكرسمس في العام 1968. وأصبحت بحجم صينية مع افتتاح دوري كرة القاعدة في العام 1969.

أعتقد لوهلة بأن العمل لا بدّ وأنه سار بوتيرة أسرع مما حصل فعلاً؛ أعني بعد أن اخترق الجدار. فلقد بدا بالنسبة إليه أنه بدلاً من أن يسحق القطع الخرسانية وينقل الفتات في جيوبه إلى خارج الزنزانة كما شرحت لك، كان سيكتفي بإلقائه في الممر. ولكن المدة الطويلة التي استغرقها العمل حملتني على الإعتقاد بأنه لم يجرؤ على فعل ذلك. إذ ربما استنتج بأن الضجيج سيثير شكوك أحدهم، أو أنه إذا عرف بوجود الأنبوب الرأسي، وهو ما أعتقد بأنه حصل فعلاً، فلا بدّ وأنه خشي من أن تتسبب قطعة خرسانية في كسره قبل أن يكمل عمله، مما سيتسبب في تعطيل نظام الصرف الصحي في الجناح الخامس، وهو ما سيؤدي إلى فتح تحقيق. ولا داعي إلى القول بأن التحقيق سيؤدي على إحباط المخطط.

بالرغم مما تقدم، أعتقد بأنه بحلول الوقت الذي أدلى فيه الرئيس نيكسون بقسمه غداة فوزه بولاية ثانية، بات اتساع الفتحة يسمح له بالخروج منها... وربما حصل ذلك في وقت أبكر من ذلك. فقد كان أندي رجلاً نحيل الجسم.

إذن، لماذا لم يهرب حينها؟

هــذه هي المرحلة التي نفدت فيها جعبتي من التخمينات أيها الرفاق. وأحــد الإحــتمالات هــو انسداد الفتحة نفسها بالحطام مما حمله إلى إزالة الحطام العالق. ولكن ذلك لن يستغرق المدة بأكملها. وبالتالي، ماذا حصل؟

أعــتقد بأنــه ربما أصيب بالذعر. فلقد سبق لي أن أخبرتك كيف يمكــن للرجل هنا أن يصبح مؤهلاً. ففي البداية، تعجز عن تحمّل تلك الجــدران الأربعــة، وبعد ذلك تعتاد عليها، ثم تنتقل إلى مرحلة القبول بها، ومن ثم يتكيف جسمك وعقلك وروحك مع الحياة داخل السجن. في الــسجن، يقال لك متى تأكل، ومتى يمكنك كتابة الرسائل، ومتى يمكنك التدخين. إذا كنت تعمل في المغسل أو في منشأة تصنيع اللوحات، يحق لــك الإستراحة مدة خمس دقائق يمكنك خلالها الذهاب إلى دورة المياه. طوال خمسة وثلاثين عاماً، كنت أشعر بالحاجة للذهاب إلى دورة المياه عند تمام كل ساعة وعشرين دقيقة، وبعد انقضاء خمسة وثلاثين عاماً، أصــبح مقدار الوقت الذي أشعر فيه بالحاجة للذهاب إلى دورة المياه، تمــام الساعة وخمس وعشرين دقيقة. وفي حال لم أستطع الذهاب إلى دورة المياه لسبب ما، فقد اعتدت على إرجاء ذلك إلى حين مرور ساعة وثلاثين دقيقة، إلا أنني كنت أعود وأذهب مرة أخرى بعد مرور ساعة وخمس وعشرين دقيقة.

أعتقد بأن أندي كان يتصارع مع ذلك النمر –متلازمة التأهيل تلك– كما كان يتصارع مع الخوف من أن كل ما قام به قد يذهب هباءً.

كــم يبلغ عدد الليالي التي لا بدّ وأنه بقي ساهراً فيها أسفل الملصق، وهــو يفكــر في خط الأنابيب، مدركاً أن كل ما يمكن أن يحصل عليه هو فرصة واحدة؟ ربما عرف من المخططات التصميمية مقدار قطر الأنبوب، ولكــن يــستحيل علــيها أن تــشرح له ما يعنيه المرور فيه؛ وما إذا كان سيــستطيع التــنفس مــن غيــر أن يختنق، وما إذا كانت الجرذان كبيرة ومتوحــشة بما فيه الكفاية لكي تقاتل بدلاً من أن تهرب... كما أنه لا يمكن للمخططــات أن تخبــره بما يمكن أن يعترضه عند نهاية الأنبوب، ومتى سيــصل إلــيه. وإليك نكتة أكثر ظرفاً من نكتة إطلاق السراح المشروط: يــدخل أندي أنبوب الصرف الصحي، ويزحف مسافة خمسمائة متر وهو يــسعل ويشمّ الروائح الكريهة في الظلام، ليصل إلى شبيكة معدنية سميكة عند نهاية الأنبوب. إنه لأمر مضحك للغاية.

لا بــدّ وأنه فكر في هذا الإحتمال. وفي حال سنحت له الفرصة التي طـــال انتظارها وتمكن من الهرب، فهل سيكون قادراً على الحصول على بعــض الثــياب المدنــية والإبتعاد عن السجن من غير أن يدرى به أحد؟ وأخيــراً، لنفترض أنه خرج من الأنبوب وهرب من شاوشانك قبل إطلاق صــفارات الإنــذار، ووصل إلى بوكستون، وقلب ذلك الحجر... ولم يجد شيئاً أسفله؟ لن يكون بالأمر المفاجئ أن يصل إلى ذلك الحقل ويكتشف بأنه تم تشييد مبنى شاهق في الموقع. وربما لاحظ طفل يحبّ الحجارة البركانية الحجــر، فأزاحـــه من مكانه، ورأى مفتاح صندوق حفظ الأمانات. وربما ركــل أحد الصيادين الحجر برجله في شهر نوفمبر/تشرين الثاني ليكشف المفــتاح ويلــتقطه بعد ذلك سنجاب يحبّ الأشياء اللامعة أو طائر القاق. وربمـــا فاضت الينابيع في سنة من السنين، وجرفت المفتاح بعيداً، أو أي شيء آخر من هذا القبيل.

لذلك أعتقد بأن أندي تجمّد في مكانه فترة من الوقت. ففي النهاية، لا يمكنك أن تخسر إذا لم تراهن. ربما تسأل ما هو الشيء الذي لديه ويخاف أن يخــسره؟ سيخسر مكتبته من ناحية، ويعاني من سمّ الإعتياد على حياة الــسجن مـــن ناحية أخرى، هذا بالإضافة على خسارة لأية فرصة مستقبلية بالحصول على الهوية التي تعطيه الأمان.

لكـــنه فعلهـــا فـــي النهاية كما قلت لك للتو. ألم ينجح بطريقة ملفتة؟ أجبني.

ربما تسألني، هل تمكن من الهرب؟ وما الذي حصل بعد ذلك؟ وماذا حــصل عــندما وصــل إلى المرج وقلّب ذلك الحجر... على افتراض أن الحجر لا يزال في مكانه؟

لا يمكننـــي وصف ذلك المشهد لك لأن هذا الرجل الذي يحدثك لا يزال فـــي هذه المؤسسة، ويتوقع أن يبقى فيها عدة سنوات قادمة. ولكن سأقول لك شيئاً. في وقت متأخر من صيف العام 1975، وتحديداً في الخامس عشر من سبتمبر/أيلول، وصلتني بطاقة بريدية أرسلت من بلدة ماكناري الصغيرة بولاية تكــساس. تقـــع تلك البلدة في الجانب الأميركي من الحدود، قبالة إيل بورفنير مباشــرة. كـــان جانب الرسالة من البطاقة فارغاً تماماً. ولكنني عرفت هوية المرســل. وأنا متأكد من ذلك بقدر تأكدي من أننا سنموت جميعاً في يوم من الأيام. كانت ماكناري البلدة التي عبر من خلالها الحدود.

إذن، هذه هي قصتي يا صديقي. لم أكن لأصدق بأن كتابتها ستستغرق كل هذا الوقت، أو هذا العدد من الصفحات. بدأت الكتابة فور حصولي على البطاقة البريدية، وها أنا أختمها في الرابع عشر من يناير/كانون الثاني 1976. وقد استهلكت ثلاثة من أقلام الرصاص وماعوناً كاملاً من الورق. أبقيت أوراقي في مكان آمن، علماً بأنه لا يوجد الكثير ممن يمكنهم قراءة خطي السيئ.

لقد أثارت فيّ هذه القصة ذكريات تفوق ما كنت أتصوره، إذ إنه يبدو أن كتابة المرء عن نفسه أشبه بالتمسك بجذع شجرة في مجرى نهر والغوص إلى أعماقه الموحلة.

حسناً، أنت لا تكتب عن نفسك. سمعت شخصاً يقول، 'أنت تكتب عن أندي دوفريسن. وأنت لست سوى شخصية ثانوية في قصتك نفسها'. لكنك تعرف بأن هذا الكلام ليس صحيحاً، فأحداث القصة كلها تدور حولي. كان أندي قطعة منّي لا يمكنني احتجازها، قطعة ستمتلئ فرحاً عندما تُفتح البوابة لي أخيراً لكي أخرج من هذا المكان وأنا أرتدي بزتي الرخيصة وفي جيبي ورقة من فئة العشرين دولاراً لاستخداماتي الشخصية. ستشعر تلك القطعة بالسعادة بغض النظر عن هرمي أو انكساري أو الرعب الذي يعتري ما تبقّى منّي. وأنا أعتقد بأنه كان لأندي في تلك القطعة أكثر مما كان لي وأنه استخدمها على نحو أفضل منّي.

يوجد آخرون هنا مثلي، آخرون ممن يتذكرون أندي. ونحن سعداء لأنه رحل، ولكننا نشعر بقليل من الحزن أيضاً. فهناك بعض الطيور التي لم تُخلق لكي توضع في قفص، هذا كل ما في الأمر. فريشها كثير اللمعان، وزقزقتها عذبة فرحة. ولذلك فأنت تدعها تذهب، أو عندما تفتح باب القفص لكي تطعمها، تهرب بطريقة ما وتطير بالرغم منك. ستشعر تلك القطعة منك التي تعرف بأن حبسها كان خطأً بداية بالكثير من السعادة، ليصبح المكان الذي تعيش فيه أكثر رتابة وخواءً بعد رحيلها.

هذه هي القصة وأنا سعيد لأنني قصصتها عليك، حتى وإن لم تكن شاملة بعض الشيء، بالرغم من أن بعض الذكريات جعلتني أشعر بالحزن أو حتى بأني أكبر سناً مما أنا عليه حقيقة. أشكرك على حسن استماعك. ويا صديقي أندي، إذا كنت موجوداً هناك، كما أعتقد بذلك فعلاً، حدّق في

النجوم من أجلي بعد أن تغرب الشمس، والمس التراب، وخُضْ البحار، واشعر بأنك حرّ.

لم أتوقع أبداً أن أسرد هذه القصة مجدداً، ولكنني على استعداد للقيام بذلك، بعد أن نشرتُ الصفحات على المكتب أمامي. وسأضيف ثلاث صفحات إضافية أو أربع، بعد أن فتحت ماعون ورق جديداً. اشتريت الماعون الأول من أحد المتاجر في شارع الكونغرس في بورتلاند.

أعتقد بأنني وضعت الخاتمة لقصتي في سجن شاوشانك في يوم كئيب من شهر يناير/كانون الثاني 1976. وأنا الآن أكتب في شهر مايو/أيار 1977 ولا زلت أجلس في غرفة صغيرة حقيرة في فندق بروستر في بورتلاند لكي أضيف إلى قصتي اللمسات الأخيرة.

زجاج النافذة مفتوح، وأصوات السيارات عالية، ومثيرة، ومرعبة. عليّ أن أنظر باستمرار من النافذة لكي أطمئن إلى عدم وجود قضبان فيها. وأنا لا أنام ساعات طويلة في الليل لأن السرير في هذه الغرفة، بالرغم من حقارتها، يبدو كبيراً جداً وفخماً. أنا أستيقظ كل يوم عند الساعة السادسة والنصف صباحاً، وأشعر كل يوم بالضياع والخوف. تراودني أحلام مزعجة، إذ إنني أرى نفسي أسقط من ارتفاع عالٍ، مما يولّد فيّ إحساس الرعب بقدر ما يولّد إحساساً بالنشوة.

ماذا طرأ على حياتي؟ هل يمكنك أن تحزر؟ لقد حصلت على إطلاق سراح مشروط. فبعد ثمانية وثلاثين عاماً من جلسات الإستماع الروتينية والرفض الروتيني (في أثناء تلك الفترة، توفي ثلاثة من المحامين الذين أوكلتهم بعرض قضيتي)، مُنحت إطلاق سراح مشروطاً. وأنا أعتقد بأنهم رأوا أنني استُنفدت تماماً بعد أن أصبحت في سنّ الثامنة والخمسين وصرت آمناً.

أوشكت على إحراق الأوراق التي قرأتَها للتو. فهم يفتشون المطلَق سراحهم بشروط بمثل دقة تفتيشهم *للسمكة الطازجة* القادمة. وفيما عدا احتوائها على شحنة كافية من الديناميت لضمان حدوث انقلاب تام، وست أو ثماني سنوات أخرى داخل السجن، احتوت مذكراتي على شيء آخر: اسم البلدة التي أعتقد بأن آندي دوفريسن موجود فيها؛ وستكون الشرطة المكسيكية سعيدة بالتعاون مع الشرطة الأميركية، وأنا لا أريد أن تكون حرّيتي – أو عدم استعدادي للتخلّص من القصة التي عملت عليها وقتاً طويلاً وبذلت فيها جهداً كبيراً –على حساب حرّية آندي.

ثــم تذكــرت كيف استطـــاع أندي ادخال خمسمائة دولار في العام 1948، وأخـــرجت قصتي التي تحكي عنه بالطريقة ذاتها. لكن لكي ألتزم جانب الأمان، أعدت كتابة كل صفحة أتيت فيها على ذكر زيهوتنجو. ففي حـــال تم العثور على الصفحات أثناء التفتيش أثناء الخروج من شاوشانك، فـــساعود مجدداً، وستبدأ الشرطة بحثها عن أندي على شواطئ البيرو عند بلدة اسمها لاس إنترودرز.

حـــصلت لي لجنة إطلاق السراح المشروط على وظيفة "مساعد في مـــستودع تخـــزين" في متجر فودواي الكبير في سبروس مال في ساوث بـــورتلاند؛ وهـــو ما يعني أنني أصبحت مجرّد حمّال إضافي هرم. يوجد نوعان فقط من الحمالين كما تعرف، الحمالون الكبار والحمالون الصغار. ولا يوجد أحد يبحث عن أي من هذين النوعين. فإذا كنت تتسوق من متجر سبروس مال فودواي، ربما كنت قد حملت لك مشترياتك من الخضار إلى ســـيارتك... لكـــن لا بـــدّ وأنك تسوقتَ في الفترة الواقعة بين مارس/آذار وأبـــريل/نيـــسان 1977، لأن هـــذه هي الفترة التي عملت فيها هناك. في البداية، لم أعتقد بأنني سأتمكن من العيش في الخارج أبداً. سبق أن وصفت لـــك المجتمع داخل السجن بأنه نموذج مصغر عن عالمك الخارجي، ولكن لم تكن لديّ فكرة عن مدى سرعة تغير الأمور في الخارج، وأعني سرعة سير الناس. حتى أنهم يمشون بوتيرة أسرع ويتحدثون بصوت أعلى.

لم يكن ذلك التكيف العملَ الأصعب الذي كان عليّ القيام به، وأنا لم أنتهِ من ذلك على كل حال... فلا يزال أمامي شوط طويل. فبعد أن عرفت بـــصعوبة أن النساء كنّ يشكلن نصف المجتمع طوال أربعين عاماً، وجدت نفـــسي فجـــأة أعمل في متجر مليء بهنّ. نساء طاعنات في السنّ، ونساء حـــوامل يـــرتدين كنـــزات خفيفة عليها أسهم تشير إلى أسفل وشعار يقول 'يوجد طفل هنا'، ونساء نحيلات الجسم وخليعات – في الفترة التي دخلت فـــيها الـــسجن، كانت الفتيات من هذا النوع يُعتقَلن إذا كنّ يلبس مثل هذه الثـــياب ويـــستمعن إلـــى محاضرة عن العفاف – نساء من كافة الأشكال والأحجـــام. وجـــدت نفسي أمضي وقتاً صعباً دائماً وأنا ألعن نفسي لأنني رجل هرم قذر.

إذا أردت أن أتحـــدث عن دورات المياه، فتلك قصة أخرى. إذا كنتُ بحاجـــة إلى الذهاب إلى دورة المياه (أشعر برغبة في ذلك دائماً عند تمام

كل ساعة وخمس وعشرين دقيقة)، عليّ أن أستأذن رئيسي. إن معرفة أنك قـادر على القيام بذلك في هذا العالم الخارجي البرّاق شيء، وتكييف نفسي الداخليـة مع تلك المعرفة بعد كل هذه السنين التي كنت أستأذن فيها أقرب رئـيس للحراس أو قضاء يومين في الحبس الإنفرادي لأنني تجاهلتُ ذلك، شيء آخر.

لم يكن رئيسي يحبّني. كان شاباً يافعاً في السادسة والعشرين أو السابعة والعـشرين مـن عمره، وكنت أشعر بأني أثير اشمئزازه كما يثير اشمئزازك كلـبٌ هـرم مرتعب ذليل يزحف نحوك على بطنه لكي تلاعبه. لقد احتقرت نفـسي، ولكني لم أستطع أن أتوقف. أردت أن أقول له: هذا ما يصنعه قضاء حـياة كاملـة فـي السجن فيك، أيها الشاب. إنه يحول كل شخص في مركز المـسؤولية إلـى سيد، ويحولك إلى كلب لكل سيد. ربما تدرك بأنك أصبحت كلـباً، حتى وأنت في السجن، لكن بما أن كل شخص آخر يرتدي ثياباً رمادية اللون هو كلب أيضاً، لا تعود هناك مشكلة على الإطلاق. ولكنها تعتبر مشكلة كبيرة خارج السجن. غير أنني لم أستطع أن أقول ذلك لشاب مثله لأنه لن يفهم على الإطلاق. كما أن رئيس العمال، وهو رجل ضخم طيب القلب وملتح خدم في سلاح البحرية وكان بمثابة مستودع كبير للنكات البولندية. كان يراني لمدة خمس دقائق كل أسبوع، ويسألني بعد أن تفرغ جعبته من نكاته البولندية، "هل تـنوي البقاء خارج القضبان يا ريد؟" وكنت أقول أجل، وكان ذلك يعني نهاية الحوار حتى مجيء الأسبوع التالي.

لكن ماذا عن الموسيقى والراديو. عندما دخلت السجن، كانت الفرق الموسـيقية الكبيرة في قمة مجدها. لكن الآن، تبدو الأغاني سخيفة بالنسبة لـي. كمـا أنني لاحظت هذا العدد الكبير من السيارات. في البداية، كنت أشعر بأني أحمل روحي في كفي كلما أردت اجتياز أحد الشوارع.

يوجد المزيد –كل شيء غريب ومرعب– ولكن ربما فهمتَ ما أعنيه بقولي هذا، أو ربما يمكنك استيعاب جزء منه. بدأت أفكر في القيام بشيء يعيدني إلى السجن. وعندما تكون في فترة إطلاق سراح مشروط، كل عمل يمكـن أن يفـي بالغرض. وأنا أخجل من قول ذلك، ولذلك بدأت أفكر في سـرقة أحدهم أو سرقة بعض المعروضات في المتجر فودواي، أو سرقة أي شـيء، لكـي أعود إلى المكان الذي كنت أجد فيه الهدوء وأعرف فيه الروتين المتبع في كل يوم.

لو لم أكن أعرف أندي، على الأرجح كنت سأقوم بذلك. ولكنني بقيت أفكر فيه وهو يمضي كل تلك السنين في حفر ذلك الجدار الخرساني بصبر بواسطة مطرقته لكي يعود حراً. فكرت في ذلك، وهذا ما جعلني أخجل وحملني على التخلي عن هذه الفكرة. ربما تقول بأنه كان لديه من الأسباب لكي ينال حرّيته أكثر مما كان لديّ؛ فهو يحمل هوية جديدة، ويملك الكثير من المال. ولكن ذلك غير صحيح في الواقع كما تعرف. فهو لم يكن واثقاً بأنه سيجد هويته الجديدة هناك، وإن المال يمكن أن يكون بعيد المنال دائماً. كلا، كل ما احتاج إليه كان الحرّية، وإذا تخليتُ عما أملكه الآن، أكون قد بصقت في وجه كل شيء ناضل بشدّة لكي يفوز به مجدداً.

إذن، ما كنت أقوم به بعد انتهاء دوام عملي هو الذهاب مشياً إلى بلدة بوكستون الصغيرة. حدث ذلك في مطلع أبريل/نيسان 1977، في الفترة التي بدأ فيها الثلج في الحقول بالذوبان، وارتفعت حرارة الجو، وانتقلت فرق كرة القاعدة إلى الشمال لبدء موسم جديد. كنت أضع في جيبي بوصلة من نوع سيلفا أثناء قيامي بتلك الرحلات.

قال أندي، يوجد حقل كبير مليء بالقش في بلدة بوكستون، وفي الطرف الشمالي من ذلك الحقل، يوجد جدار مبني من الحجارة، وفي مكان ما بموازاة قاعدة ذلك الجدار، يوجد حجر لا علاقة له بحقول القش في ماينفيلد.

ربما تقول إنها رحلة يقوم بها رجل مخبول. كم يبلغ عدد حقول القش في بلدة ريفية صغيرة مثل بوكستون؟ خمسين؟ مئة؟ إعتماداً على تجربتي، يمكنني الإفتراض بأن العدد أكبر من ذلك بكثير، إذا أضفت الحقول المزروعة الآن والتي ربما كانت مليئة بالقش عندما وصل أندي إليها. كما أنه من أين لي أن أعرف إن كان أندي قد عثر على الحقل المطلوب، لأنني ربما لن ألاحظ ذلك الحجر البركاني الأسود. والإحتمال الأرجح هو أن أندي وضعه في جيبه وأخذه معه.

لذلك، أنا أتفق معك في الرأي. إنها رحلة يقوم بها رجل مخبول، ما من شك في ذلك. والأسوأ من ذلك أنها رحلة خطرة بالنسبة إلى رجل لا يزال في حالة إطلاق سراح مشروط، لأنه يوجد في بعض من تلك الحقول لافتات كُتب عليها *ممنوع الدخول*. وكما قلت لك، سيكونون أكثر من سعداء بإعادتك إلى السجن إذا تجاوزتَ حدود ما هو مسموح به. رحلة رجل مخبول... ولكن ذلك ينطبق أيضاً على حفر جدار

خرساني طوال سبعة وعشرين عاماً. وعندما لا تعود ذلك الرجل الذي يستطيع أن يدبّر لك كل شيء، بل مجرّد رجل هرم، سيكون أمراً رائعاً امتلاك هواية تشغل بها وقتك في حياتك الجديدة. وهوايتي كانت البحث عن حجر أندي.

لـذلك، كـنت أذهـب إلى بوكستون، وأمشي في الطرقات. كنت أنـصت إلـى الطـيور، وإلى جريان الجداول في العبارات، وأتفحص الزجاجات التي أظهرها الثلج المنحسر؛ كل شيء عديم النفع وغير قابل للإرجـاع. وأنـا آسف لقول لذلك، لكن يبدو أن نزعة التبذير البغيضة باتت هي السائدة في العالم منذ أن دخلت السجن؛ إضافة إلى البحث عن حقول القش.

كان في استطاعتي استبعاد الكثير منها على الفور لأنه لم يكن يوجد فـيها جـدران حجـرية. وعـندما كنت أرى جدراناً حجرية في الحقول الأخـرى، كانـت البوصلة تقول لي بأنها تواجه الإتجاه الخاطئ. ولكنني مـشيت فـي هـذه الحقـول الأخيرة على أي حال. كان عملاً يبعث على الإرتياح، لأنني أحسست بالحرّية، والسلام فعلاً في تلك النزهات. حتى أن كلـباً هرماً مشى بجانبي في أحد أيام السبت، وفي أحد الأيام، رأيت ظبياً أنحفه برد الشتاء.

ثـم جـاء يوم الثالث والعشرين من أبريل/نيسان، وهو يوم لن أنساه حتـى وإن عـشتُ ثمانية وخمسين عاماً أخرى. كان يوم سبت عطراً في فتـرة مـا بعد الظهر، عندما كنت أمشي في طريق قال لي صبي يصطاد الـسمك بأنـه يسمى أولد سميث. حملت معي غذائي في كيس بني اللون يحمـل شـعار فودواي. وتناولته وأنا جالس على صخرة بجانب الطريق. وعـندما فرغت من تناول طعامي، دفنت بحرص بقايا طعامي كما علّمني والدي قبل وفاته، عندما كنتُ سمكة صغيرة لا يزيد عمرها عن عمر صياد السمك الصغير الذي دلّني على اسم الطريق.

وصلت عند الساعة الواحدة تقريباً إلى حقل كبير على يسار الطريق. وهـناك، رأيـت جـداراً حجرياً في الطرف البعيد منه، يمتدّ في الإتجاه الـشمالي الغربي تقريباً. عدت أدراجي إليه، وغصت في أرضه الموحلة، إلـى أن وصلت إلى الجدار فتسلقته وبدأت أمشي عليه. رأيت سنجاباً على شجرة سنديان بدا كما لو أنه كان يوبخني.

وبعد أن اجتزت ثلاثة أرباع المسافة، رأيت الحجر. لم يكن هناك مجال لكي تخطئ فيه، فهو مزجج وأسود وناعم مثل الحرير. حجر لا علاقة له بحقل القش في ماينفيلد. بقيت أنظر إليه لفترة طويلة، وأحسست بأنني على وشك البكاء لسبب ما. لحق بي ذلك السنجاب، وكان لا يزال يصدر تلك الأصوات. وكان قلبي يخفق بقوة.

عندما أحسست بأنني أسيطر على نفسي، مشيت نحو الحجر، وانحنيت بقربه- تحركت ركبتاي مثل مدفع رشاش ثلاثي المواسير- ولمسته بيدي. كان حقيقياً. لم أحركه من مكانه لأنني اعتقدت بأنه يوجد شيء أسفله. كان من الممكن أن أذهب من غير أن أعرف ماذا يوجد أسفله. كما أنه لم تكن لدي خطط بالتأكيد لأخذه معي لأنني لم أشعر بأنه ملك لي لكي أفعل ذلك؛ أحسست بأن أخذ ذلك الحجر من ذلك الحقل سيكون أسوأ أنواع السرقة. كلا، اكتفيت بلمسه لكي أشعر به على نحو أفضل، وأتلمس حجمه، وأتأكد بأنه حقيقي عبر الإحساس بقوامه الطاهر بيدي.

كان عليّ أن أنظر إلى ما هو موجود أسفله ولمدة طويلة. وقعت عيناي على شيء، ولكن عقلي احتاج إلى وقت لكي يستوعب ما رأى. رأيت مغلفاً، وُضع بعناية في كيس بلاستيكي لحمايته من الرطوبة. كان اسمي مكتوباً على ظهره بخط آندي الواضح. أمسكت بالمغلف، وتركت الحجر حيث تركه آندي.

عزيزي ريد،

إذا كنت تقرأ ما هو مكتوب على المغلف، فهذا يعني أنك خرجت. بطريقة أو بأخرى، خرجتَ من السجن. وإذا تبعتني كل تلك المسافة، فقد تكون على استعداد للذهاب إلى ما هو أبعد من ذلك بقليل. أعتقد بأنك لا تزال تتذكر اسم البلدة، أليس كذلك؟ يمكنني الإستفادة من رجل طيب لكي يساعدني على البدء بمشروعي.

في هذه الأثناء، إحتسِ شراباً على حسابي؛ وفكر في الأمر ملياً. سأراقبك من بعيد. تذكر أن الأمل شيء جيد يا ريد، وربما يكون أفضل الأشياء، والشيء الجيد لا يموت. آمل بأن تصلك هذه الرسالة، وأن تصلك وأنت على خير ما يرام.

صديقك

بيتر ستيفنز

لم أقرأ تلك الرسالة في الحقل، لأنه اعتراني خوف شديد، وحاجة إلى الذهاب بعيداً قبل أن يراني أحد. كنت خائفاً من أن يُلقى القبض عليّ.

عــدت إلى غرفتي وقرأت الرسالة هناك، فيما كنت أشم رائحة طعام العــشاء التي تتصاعد في بئر السلّم؛ بيفورانو، رايساروني، نودل روني. يمكــنك أن تعــرف مــا يتــناوله الرفاق القدامى في أميركا من أصحاب المداخيل الثابتة، على مائدة العشاء هذه الليلة، فاسم طعامهم ينتهي بالتأكيد باللاحقة روني.

فــتحت المغلف، وقرأت الرسالة ثم وضعت رأسي بين يديّ وبكيت. كان مرفقاً بالرسالة عشرون ورقة نقدية جديدة من فئة الخمسين دولاراً.

هــا أنا في فندق بروستر، هارب من العدالة من الناحية التقنية مرّة أخرى؛ جريمتي هي انتهاك إطلاق السراح المشروط. ولكنني لا أعتقد بأن أحــداً ســيقيم حواجز على الطرقات للإمساك بمجرم ملاحق بهذه التهمة؛ وبدأت أتساءل عما ينبغي أن أفعله الآن.

لدي هذه المخطوطة، ولدي حقيبة صغيرة بحجم حقيبة الطبيب أضع فــيها كافــة ممتلكاتــي الشخــصية. أملك تسع عشرة ورقة نقدية من فئة الخمــسين دولاراً، وأربــع أوراق نقدية من فئة العشرة دولارات، وورقة نقديــة من فئة الخمسة دولارات، وثلاثة دولارات، وبعض القطع المعدنية. جزأتُ إحدى الأوراق النقدية من فئة الخمسين دولاراً لشراء ماعون الورق الجديد وعلبة سجائر.

تــساءلت عمــا ينبغي أن أقوم به. لكن لم يكن يوجد لدي سؤال في الحقيقة، لأن المسألة تؤول دائماً إلى خيارين فقط، إما أن تحصل على حياة نشطة أو تموت موتة بطيئة.

أولاً: ســأعيد هــذه المخطوطة إلى الحقيبة، ثم أحكم إقفالها، وأمسك بمعطفــي، وأنزل السلّم، وأسدد كلفة الإقامة في غرفة البراغيث هذه. وبعد ذلك سأذهب إلى حانة في البلدة وأضع على المنضدة ورقة من فئة الخمسة دولارات أمــام الــساقي، وأطلب منه إحضار كوبين من شرابي المفضل؛ كــوب لــي وكــوب لأندي دوفريسن. وفيما عدا بعض المشروبات القليلة الأخرى، سيكون ذلك أول مشروب مجاني أحتسيه وأنا رجل حرّ منذ العام 1938. وبعــد ذلــك، ســأدفع للساقي بقشيشاً بقيمة دولار واحد، وأشكره بعبارات لطيفة. سأغادر الحانة وأسلك شارع سبرينغ متوجهاً إلى المحطة

غرايهاوند حيث سأشتري تذكرة للسفر بالحافلة إلى إيل باسو عبر نيويورك سيتي. وعندما أصل على إيل باسو، وعندما أصل إلى هناك، سأشتري تذكرة سفر إلى ماكناري. وعندما أصل على ماكناري، أعتقد بأنه ستمنح لي الفرصة لكي أعرف إن كان في مقدور رجل عجوز مثلي أن يجد طريقة لاجتياز الحدود نحو المكسيك.

لا زلت أتذكر الاسم بالطبع. إنه زيهوتنجو، واسم كهذا أجمل من أن تنساه.

أشعر بالإثارة، لدرجة أنني بالكاد أستطيع الإمساك بالقلم بيدي التي ترتجف. أعتقد بأنها الإثارة التي يمكن لرجل حرّ فقط أن يشعر بها، رجل حرّ بدأ رحلة طويلة خاتمتها غير معروفة.

آمل بأن يكون أندي هناك.

آمل بأن أتمكن من اجتياز الحدود.

آمل بأن أرى صديقي وأصافحه.

آمل بأن يكون المحيط الهادئ أزرق اللون كما كنت أراه في أحلامي.

آمل.

الفصل الثاني

صيف الفساد

التلميذ الموهوب

1

بــدا أشــبه بطفــل أميركي يقود درّاجته في اتجاه الحيّ السكني في ضاحية المدينة، إنه تود بودين البالغ من العمر ثلاثة عشر عاماً والذي يبلغ طوله مئة وسبعين سنتيمتراً. إنه يتمتع بصحة جيدة إذ إن وزنه يبلغ ستين كيلوغراماً، وشعره ذهبي اللون، وهو أزرق العينين، ويمتلك أسناناً بيضاء متــساوية، وبشرة تعلوها سمرة خفيفة، ووجهاً لم يتشوّه حتى بحبّ الشباب الذي يؤذن ببلوغ سنّ المراهقة.

ارتسمت على وجهه ابتسامة عطلة الصيف فيما كان يقود درّاجته تحــت أشــعة الشمس والظلال إلى مكان لا يبعد كثيراً عن منزله. بدا أشبه بطفل رسم طريقه على ورقة. في الواقع، هذا ما قام به فعلاً؛ فهو يقــوم بتوزيع صحيفة سانتو دوناتو كلاريون. كما بدا أشبه بطفل يبيع بطاقــات معايــدة مقابل ثمن إضافي، فقد كان يتوجب عليه القيام بذلك أيضاً. كانت البطاقات من النوع الذي يُطبع اسمك داخلها؛ جاك وماري بــيورك، أو دون وســالي، أو أبناء عائلة مورشيزونز. بدا مثل صبي يــصفر أثــناء عمله، وغالباً ما كان يفعل ذلك. في الواقع، كان يصفر ببراعة. كان والده يعمل مهندساً معمارياً ويجني أربعين ألف دولار في العــام. درست والدته باللغة الفرنسية في الجامعة، والتقت بأبيه عندما كان في أمس الحاجة إلى مدرس خصوصي. وكانت تطبع النصوص في أوقات فراغها، وقد احتفظت بكافة الشهادات المدرسية القديمة الخاصة بــتود فــي مجلّــد. أحبّ الشهادات إليها كانت الشهادة النهائية للصف الــرابع، والتــي كتبت عليها السيدة أبشو، "تود تلميذ موهوب على نحو غير عادي". وكان تود كما وصفته تماماً. كانت الشهادات مزينة بتقدير ممتاز وجيد جداً من أعلاها إلى أسفلها. ولو أن شهادته كانت أفضل من ذلــك -كمــا لو كانت كافة التقديرات فيها بدرجة ممتاز، مثلاً- لاعتقد أصدقاؤه بأنه غريب الأطوار.

أوقف درّاجته قبالة شارع كلارمونت 963 ونزل عنها. كان المنزل مـنزلاً مـن طابق واحد شُيِّد في الطرف الآخر من العقار، طُليت جدرانه باللـون الأبيض فيما طُليت نوافذه الخشبية باللون الأخضر، مع سياج من الشجيرات عند الواجهة تُسقى، ويُعنى بها جيداً.

رفع تود شعره الأشقر عن عينيه، ومشى في الممر الإسمنتي وصولاً إلـى الـدرجات. لـم تختفِ تلك الإبتسامة عن وجهه. كان يحمل في يده صـحيفة مطـوية. لم تكن صحيفة كلاريون، وإنما صحيفة لوس أنجلوس تايمـز. وضعها تحت إبطه، وارتقى درجات السلّم. هناك، كان يوجد باب خـشبي ضخم، وجرس في الجانب الأيمن من إطار الباب. أسفل الجرس كانـت توجد لوحتان صغيرتان مثبتتان بطريقة أنيقة في الخشب وتعلوهما طـبقة حماية بلاستيكية لكي لا تزول الطبقة النحاسية عنهما أو تتلطخ ببقع المـاء. قال تود في نفسه، إنها الكفاءة الألمانية، ورسم على وجهه ابتسامة أكبـر. كانت فكرة لا تخطر إلاّ على بال الراشدين، وكان يهنئ نفسه ذهنياً دائماً عندما يتوصل إلى واحدة من تلك الأفكار.

كُـتب على اللوحة العليا، أرثر دنكر، وكُتب على اللوحة السفلى، لا نـستقبل جامعـي التبـرّعات، ولا البائعين المتجوّلين، ولا مندوبي المبيعات.

دق تـود الجرس وهو لا يزال يبتسم، وبالكاد استطاع سماع صوته الدفين في مكان ما داخل المنزل الصغير. رفع إصبعه عن الجرس، ورفع رأسـه قلـيلاً، وأصغى إلى أصوات وقع الأقدام. لم يتبين له إن كان يوجد أحـد في المنزل. نظر إلى ساعته التايمكس (وكانت من بين الأشياء التي حـصل علـيها من بيعه بطاقات المعايدة الشخصية) ورأى أنها تشير إلى الثانـية عـشرة وعـشر دقائق. ينبغي أن يكون الرجل في منزله في هذا الوقت. حتى أن تود نفسه يأتي عند الساعة السابعة والنصف على الأكثر، حتى في أثناء العطلة الصيفية. فالذي يصل أولاً يكسب أولاً.

أصـغى السمع لمدة ثلاثين ثانية أخرى، وعندما لم يسمع شيئاً، عاد إلى الضغط على الجرس وهو ينظر إلى عقارب ساعته. أبقى إصبعه على الجـرس إحدى وسبعين ثانية تماماً، وعندها أخيراً سمع صوت وقع أقدام. اسـتنتج من الصوت الخافت أن الشخص ينتعل في قدميه خفاً منزلياً. كان طموح تود أن يصبح تحرّياً خاصاً عندما يكبر.

قـــال الـــرجل الذي يتظاهر بأنه أرثر دنكر: "أنا قادم، أنا قادم. ارفع إصبعك عن الجرس، أنا قادم".

رفـــع تود إصبعه عن زر الجرس، وسمع صوت سلسلة في الجانب الآخر من الباب الداخلي الذي كان بدون نافذة، ثم فُتح الباب.

وقف رجل عجوز محدودب الظهر في رداء الحمام، ونظر من خلال شـــبكة الباب وهو يدخن سيجارة. اعتقد تود بأن شكل الرجل يجمع ما بين شـــكل ألبرت آينشتاين وبوريس كارلوف. كان شعره طويلاً وأبيض اللون ومائلاً إلى الصفرة بطريقة بشعة. إذ إن لونه كان أقرب إلى النيكوتين منه إلى العاج. رأى تود بانزعاج أنه لم يتكبد عناء حلاقة ذقنه في الأيام القليلة الأخيـــرة. كـــان والـــد تـــود يحب أن يقول: "حلاقة الذقن تضفي لمعاناً على الصباح". ولذلك كان يحلق ذقنه كل يوم، سواء أراد الذهاب إلى عمله أم لا.

نظـــر الرجل إلى تود بعينين فاحصتين بدا عليهما الإحمرار. شعر تود بخيبة أمل عميقة وفورية، فقد كان الرجل يشبه ألبرت آينشتاين ويشبه بوريس كارلـــوف، ولكنه كان أكثر شبهاً بالمدمنين على الخمر الذين يتسكعون بالقرب مـــن باحة السكة الحديدية. لكن تود استحضر في ذاكرته بأن الرجل قد نهض مـــن نومه للتو. لقد سبق له وأن رأى دنكر مرات عديدة قبل اليوم (ولكنه كان حريـــصاً للغايـــة علـــى ألاّ يراه دنكر)، كما سبق أن رآه في مناسباته العامة. عُـــرف عـــن دنكـــر أنه رجل في غاية الأناقة، مثل ضابط متقاعد إذا شئت، بالـــرغم مـــن أنـــه أصبح في السادسة والسبعين من عمره؛ على افتراض أن المقالات التي قرأها تود في المكتبة كانت دقيقة في تحديد تاريخ مولده. لاحظ تود أنه في الأيام التي يراه فيها وهو يتسوق في متجر شويرايت أو في إحدى دور الـــسينما الـــثلاث التي تقع على خط سير الحافلة - إذ لم يكن دنكر يملك ســـيارة - كـــان دنكر يرتدي دائماً واحدة من بزاته الثلاث الأنيقة، مهما تكن حرارة الجو مرتفعة. أمّا إذا كان الطقس ينذر بهطول المطر، فكان يضع مظلة تحت إبطه مثل عصا الضابط، وكان يعتمر قبعة من الجوخ الناعم أحياناً. وفي المناســـبات، عـــندما يخـــرج دنكر في نزهة، كان يحلق ذقنه، ويحفّ شاربه الأبيض بإتقان (لأنه كان يخفي عيباً في شفته العليا).

أخيـــراً قال: "صبي". كان صوته عميقاً ورقيقاً. خاب أمل تود مجدداً عـــندما رأى أن ثـــوب الحمام باهت اللون ورث المظهر. وشمّ تود رائحة السجائر والشراب.

عـــاد، وقال: "صبي. أنا لا أريد شيئاً أيها الصبي. اقرأ اللوحة. أنت تحـــسن القراءة، أليس كذلك؟ بالطبع أنت تحسن القراءة، لأن كافة الأطفال الأميـــركيين بمكـــنهم القـــراءة. لا تكن مصدر إزعاج أيها الصبي. طاب يومك". ثم أقفل الباب.

كـــان في إمكانه إلقاء الصحيفة حيث هو. لكن تود فكّر كثيراً في إحدى الليالـــي عندما عجز عن النوم، وأحس بخيبة أمل لأنه رأى هذا الرجل للمرة الأولى من مسافة قريبة، على عكس ما يراه في الشارع؛ بدون مظلته وقبعته. كـــان من الممكن أن ينتهي الأمر عند هذا الحدّ، بصوت رفيع تافه يصدر عن مـــزلاج الباب يحول دون حدوث أي شيء بعد ذلك. لكن وكما لاحظ الرجل نفسه، كان تود صبياً أميركياً، علموه أن المثابرة فضيلة.

قال تود وهو يقدم صحيفة التايمز له بأدب: "لا تنسَ صحيفتك يا سيد دوسندر".

تـــوقفت حـــركة الباب قبل سنتيمترات من الإطار الخشبي. واختفت على الفور تلك النظرة الفاحصة من وجه كورت دوسندر. ربما كانت تلك النظرة تحمل أمارات الخوف. ولكن خيراً فعل بإخفاء تلك النظرة. لكنّ تود شعر بخيبة الأمل للمرّة الثالثة. فهو لم يتوقع أن يكون دوسندر لطيفاً معه، بل كان يتوقع منه أن يتصرف بشكل رائع.

تذكر تود باشمئزاز ما قاله دوسندر: صبي.

أعـــاد فـــتح الـــباب، وفتح الباب بيد بدت عليها آثار مرض التهاب المفاصـــل مـــسافة تكفي لتحريك أصابعه والإمساك بطرف الصحيفة التي كانـــت في يد تود. رأى الصبي بامتعاض أن أظافر أصابع الرجل العجوز كانت طويلة، وصفراء، وخشنة. كانت يداً أمضت معظم الساعات التي بقي صـــاحبها يقظاً فيها في التقاط السجائر الواحدة تلو الأخرى. آمن تود بأن التدخـــين عادة خطرة لن يتمسك بها أبداً. وتساءل كيف أن دوسندر عاش كل هذه الفترة.

قال الرجل العجوز: "أعطني الصحيفة".

قـــال تـــود فـــيما كان يمدّ يده لكي يناوله الصحيفة: "بالتأكيد يا سيد دوسندر". أمسكت بها يد العنكبوت، وأغلقت الباب.

قـــال الـــرجل العجوز: "اسمي هو دنكر وليس دوسندر. من الواضح أنك لا تحسن القراءة. يا لها من مأساة. طاب يومك".

وفيما كان يغلق الباب ببطء، تكلم تود بسرعة من خلال الفتحة الضيقة. "بيرغن- بيلسن، من يناير/كانون الثاني 1943 إلى يونيو/حزيران 1943. اوشفيتز، من يونيو/حزيران 1943 إلى يونيو/حزيران 1944. أونتركوماندنت. باتين.."

توقف الباب ثانية. بدا وجه الرجل العجوز من خلال الفتحة متجعداً، وأشبه ببالون نصف منتفخ. عندئذٍ ابتسم تود.

"غادرت باتين قبل وصول الروس إليها بوقت وجيز، ووصلت إلى بيونس آيرس. البعض يقول إنك أصبحت ثرياً هناك بعد أن استثمرت الذهب الذي أخذتَه من ألمانيا في تجارة المخدرات. وعلى كل حال، أقمتَ في مكسيكو سيتي من العام 1950 وحتى العام 1952، ثم.."

"أيها الصبي، أنت مجنون مثل طائر الوقواق". رسم بأحد أصابعه دوائر سريعة حول أذنه المشوهة. ولكن الفم الخالي من الأسنان بدا أنه يرتجف بطريقة مخيفة.

قال تود الذي ظل مبتسماً: "من العام 1952 وحتى العام 1958. لا أدري على وجه الدقة. لا أحد يعرف حسبما أعتقد، أو لا أحد يريد الكلام على الأقل. غير أن عميلاً إسرائيلياً عثر عليك في كوبا عندما كنت تعمل بواباً في فندق كبير قبيل استيلاء كاسترو على الحكم. وبعد ذلك فقد أثرك عندما دخل الثوار العاصمة هافانا. ثم ظهرت فجأة في ألمانيا الغربية سنة 1965 وكانوا على وشك إلقاء القبض عليك". ثم تلفظ بكلمتين بسرعة، فقال: عثرت *عليك*. وفي نفس الوقت، ضمّ أصابعه، فتحولت يده إلى قبضة ملتوية كبيرة. نظرت عينا دوسندر إلى يدين أميركيتين مفعمتين بالقوة تصلحان للخطابة وصنع المجسمات الجميلة. وقد صنع تود الأمرين. في الواقع، بنى بمساعدة أبيه في السنة الفائتة مجسماً لسفينة التايتنك، وقد استغرق إنجازها أربعة أشهر. ووالده يحتفظ به الآن في مكتبه.

قال دوسندر: "لا أعرف شيئاً عن الموضوع الذي تتحدث عنه". بدون أسنانه الإصطناعية، بدا صوته مشوشاً، ولم يرق لتود. لم يبدُ صوته... حسناً، صادقاً. بدا العقيد كلينك في الهوغانز هيروز أكثر شبهاً بصوت نازي من صوت دوسندر. ولكن في الفترة التي عاشها، لا بدّ وأنه كان لصوته أزيز. ففي مقالة عن معسكرات الموت في مينز أكشن، وصفه الكاتب بوحش باتين الدموي. "اخرج من هنا أيها الصبي قبل أن أتصل بالشرطة".

"يــا للعجــب، أعــتقد بأنــه من الأفضل أن تتصل بالشرطة يا سيد دوسندر، أعني يا هر دوسندر، إذا كنت تفضل هذا اللقب أكثر". حافظ على ابتــسامته، مظهراً أسنانه المثالية التي تغذت على الفلوريد منذ بداية حياته والتي ينظفها ثلاث مرات يومياً بمعجون كرست. "بعد العام 1965، اختفى أثرك مرة أخرى... إلى أن عثرتُ عليك، قبل شهرين في الحافلة المتوجهة إلى وسط المدينة".

"أنت مجنون".

قال تود بابتسامة: "وبالتالي، إذا كنت تريد الإتصال بالشرطة، فافعل. وسأبقى لأنتظر عند مدخل المنزل. لكن إذا كنت لا تريد الإتصال بالشرطة في الحال، لِمَ لا تسمح لي بالدخول ومناقشة المسألة؟"

ســاد الصمت فترة طويلة فيما كان الرجل العجوز ينظر إلى الصبي المبتــسم. كانــت العصافير تغرّد على الأشجار، وفي المبنى الثاني، سُمِع صــوت جزازة أعشاب، وفي مكان أبعد من ذلك، في الشوارع المزدحمة، كانت أبواق السيارات تعزف إيقاع الحياة والتجارة.

بالــرغم مــن كل شيء، شعر تود ببذور الشك، ولم يكن مخطئاً في ذلك. فهل ارتكب خطأً ما؟ لم يعتقد ذلك، ولكن ما كان يقوم به ليس تمريناً فــي صف المدرسة، بل تجربة حياتية حقيقية. ولذلك شعر براحه عظيمة عندما قال دوسندر: "يمكنك الدخول لفترة من الوقت إذا شئت. ولكن السبب هو أني لا أرغب في إثارة مشكلة معك لا غير، هل تفهم؟"

قــال تود: "بالتأكيد سيد دوسندر". فتح الباب، فدخل تود إلى الردهة، وأقفل دوسندر الباب خلفه.

بــدت رائحة المنزل كريهة، مثل الرائحة التي يشمها تود في منزله فــي الــصباح فــي بعض الأحيان بعد سهرة قضاها مع أصحابه وقبل أن تتــسنّى لأمّــه الفرصة لتهوئة البيت. لكن هذه الرائحة كانت أسوأ بكثير. كانــت رائحة ملازمة للمكان، رائحة شراب، وطعام مقلي، وعرق، وثياب قديمــة، وبعــض المستحــضرات الطبية مثل فيمس أو المنثولاتوم. بدت الــردهة معــتمة، وكان دوسندر يقف على مسافة قريبة جداً منه، ورأسه مــنحنٍ علــى فتحة ثوبه مثل رأس نسر ينتظر حيواناً جريحاً ريثما يسلم الروح. في تلك اللحظة، وعلى الرغم من لحيته النابتة ولحم وجهه المتدلّي، كــان في مقدور تود أن يرى الرجل الذي وقف يوماً ببزّة فرقة الأس أس

السوداء على نحو أوضح من أي وقت مضى عندما كان يراه في الشارع، وشعر بقشعريرة الخوف وهي تسري في بدنه. ولكنه أشار فيما بعد إلى أنه لم يشعر بخوف شديد.

بـــدأ حديـــثه بالقـــول: "يجدر بي أن أقول لك بأنه في حال أصابني شـــيء.." ثـــم استدار دوسندر من خلفه وتوجه إلى غرفة الجلوس وصوت خفـــه المنزلـــي مسموع بوضوح. ربت على كتف تود على نحو ينمّ عن الإزدراء، وشعر تود بالدم الحارّ في حلقه ووجنتيه.

تبعه تود بعد أن اختفت ابتسامته للمرة الأولى. لم يتصور أن الأمور ستـــسير على هذا النحو، ولكنه كان مطمئناً إلى أنها ستسير على ما يرام. ثم عادت إليه الإبتسامة بعد أن دخل غرفة الجلوس.

كانت تلك خيبة أمل أخرى، ولكن كان من المفترض بأن يتهيأ لها. لم يرَ بالطبع صورة زيتية لهتلر تظهر شعره وهو يتدلّى فوق جبهته، وعينيه وهمـــا تلاحقانـــك. لم يرَ أوسمة في علب، ولم يرَ سيفاً احتفالياً معلّقاً على الجدار، ولا صورة للوغر أو والثر فوق إطار رفّ المدفأة (في الواقع، لم يكـــن هناك رف أصلاً). بالطبع، قال تود في نفسه، سيكون الرجل مجنوناً لو أنه عرض تلك الأشياء في أمكنة حيث يمكن أن يراها الناس. لكن كان مـــن الصعب أن تخرج كلّ شيء رأيته في الأفلام والمسلسلات التلفزيونية مـــن رأســـك. بـــدت غرفة جلوس لرجل عجوز يعيش لوحده معتمداً على معـــاش الـــتقاعد. رأى مدفأة مزيفة مصنوعة من الطوب المزيف. ولاحظ وجـــود تلفـــاز من نوع موتورولا فوق منصة وقد لُف الهوائي برقاقة من الألمنـــيوم لتحسين قدرته على استقبال البث. كانت الأرضية مغطاة ببساط رمادي اللون يكاد لا يوجد فيه وبر. ولاحظ وجود رف بالقرب من الأريكة يحـــتوي على نسخ من ناشونال جيوغرافيك، وريدرز دايجست، وصحف لوس أنجلوس تايمز. وبدلاً من أن يرى صورة لهتلر أو سيفاً احتفالياً معلّقاً على جدار، رأى إطاراً يحتوي على شهادة مواطنية وصورة لامرأة ترتدي قـــبعة مـــضحكة. قـــال له دوسندر لاحقاً بأن هذا النوع من القبعات يسمى كلوش وأنه كان رائجاً في العشرينيات والثلاثينيات.

قال دوسندر بنبرة عاطفية: "إنها زوجتي. تُوفيت في العام 1955 بعد إصـــابتها بمرض في الرئة. في ذلك الوقت، كنت أعمل في مينشلر موتور وركس في إيسن. كنت محطم القلب".

بقي تود مبتسماً، وهو يقترب من الجدار كما لو كان يريد إلقاء نظرة عــن قرب على صورة المرأة التي تظهر في الصورة. وبدلاً من أن ينظر إلى الصورة، أشار إلى كُمّة المصباح الصغير فوق الطاولة.

صرخ دوسندر بحدّة: "توقف". تراجع تود على الفور مسافة قصيرة.

قال تود: "كان ذلك أمراً جيداً منك. إنها إلسي كوخ التي صنعت كمّة المــصباح تلك من جلد بشري، أليس كذلك؟ كما كانت المرأة التي صنعت تلك الحيلة بواسطة أنابيب زجاجية صغيرة".

أجــاب دوسندر: "لا أعرف شيئاً عن الذي تتحدث عنه". كانت توجد علــبة من السجائر بدون فلتر على سطح التلفاز. عرضها على تود، وقال: "هل ترغب في تدخين سيجارة؟" وعبس عبسة بشعة.

"كــلا، ستسبب لك سرطاناً في الرئة. اعتاد أبي على التدخين، ولكنه أقلع عنه الآن".

ســأل دوســندر بعد أن أخرج عود ثقاب خشبياً وحكّه بسطح جهاز الــتلفاز: "هل تمكن من ذلك فعلاً؟" نفخ الدخان وسأل: "هل يمكنك إعطائي ســبباً واحداً يدعوني إلى عدم الإتصال بالشرطة وإخبارها عن الإتهامات المتوحشة التي وجهتَها إليّ للتو، ولو سبباً واحداً؟ تكلم بسرعة أيها الصبي. فالهاتف على مسافة قريبة منّي في الردهة. أعتقد بأن والدك سيصفعك على وجهك. وستجلس على وسادة عند تناول عشائك على مدى أسبوع كامل".

"والداي لا يؤمنان بالضرب. فالعقاب البدني يسبب مشكلات أكثر مما يسهم في حلها". ومضت عينا تود فجأة. "هل وجهتَ صفعة إلى أي منهنّ؟ أعني النساء. هل جرّدتهنّ من ملابسهنّ و..."

وفي حركة سريعة، توجه دوسندر نحو الهاتف.

قال تود ببرودة أعصاب: "من الأفضل ألاّ تقوم بذلك".

الــتفت دوســندر، وفــي نبــرة أفــسدها عــدم استخدامه لأسنانه الإصــطناعية، قال: "سأقول لك هذا الأمر لمرّة واحدة أيها الصبي، ولمرّة واحــدة فقــط. إسمي أرثر دنكر، وليس لي اسم آخر. كان والدي يدعوني أرثر لأنه كان شديد الإعجاب بالقصص التي يكتبها أرثر كونان دويل. ولم يــسبق أن كــان لي اسم مثل دوسنر، أو هملر، أو فاذر كريسماس. كنت ضــابطاً بــرتبة ملازم في قوات الإحتياط أثناء الحرب، ولكنني لم ألتحق بالحزب النازي أبداً. وفي معركة برلين، قاتلت طوال ثلاثة أسابيع. يمكنني

الإعتـراف بأننــي أيــدت هتلر عندما تزوجت في أواخر الثلاثينيات. فقد أخـرج الـبلاد من حالة الكساد، وأعاد لنا بعض الإعتبار الذي فقدناه في أعقــاب التوقـيع على معاهدة فرساي المثيرة للإشمئزاز وغير المنصفة. أعــتقد بأنني أيدته لأنني حصلت على وظيفة ولأن التبغ بات متوفراً مرّة أخـرى بحيث لم أعد بحاجة إلى التخفي عندما أرغب في تدخين سيجارة. اعــتقدت فــي أواخـــر الثلاثينيات بأنه رجل عظيم. ربما كان كذلك وفقاً لطريقته الخاصة، ولكنه في النهاية أصبح مجنوناً يوجّه جيوشه الجبارة بناء علــى نزوات منجّم. حتى أنه أعطى كلبه بلوندي كبسولة قاتلة. هذه أعمال رجــل مجــنون. في النهاية، أصبح الجميع مجانين يغنّون أغنية هورست فيــسل، فــيما كانــوا يطعمـــون السمّ لأطفالهم. في اليوم الثاني من شهر مايــو/أيـــار 1945، استسلمت كتيبتي للأميركيين. وأذكر أن جندياً اسمه هاكرمايــر قـــدم لي قطعة من الشوكولاته. بكيت حينها، لأنه لم يعد هناك مبـــرر لمواصــــلة القـــتال. لقـــد انتهت الحرب، لقد انتهت في الواقع في فبرايـــر/شباط. كنا ننصت إلى محاكمات نورمبيرغ على الراديو، وعندما أقــدم غورنـــغ على الإنتحار، قايضتُ أربع عشرة سيجارة أميركية مقابل نـــصف زجاجـــة من الشراب، واحتسيت الشراب. وعندما أُطلق سراحي، انتقلت إلى العمل في مصنع إيسن موتور وركس لغاية العام 1963 عندما تقاعـــدت. وبعـــد ذلك هاجرت إلى الولايات المتحدة. كان مجيئي إلى هنا طموحاً ظل يراودني طوال عمري. في العام 1967، حصلت على الجنسية الأميــركية، أي أننـــي مواطن أميركي. أنا أمارس حقي في التصويت. لا صحة في ما يقال عن ذهابي إلى بيونس آيرس، أو برلين، أو كوبا. والآن، إذا لم ترحل من هنا، فسأجري مكالمتي الهاتفية".

راقـــب تود الذي لم يحرّك ساكناً. عندئذٍ، توجه نحو الردهة، وأمسك بـــسماعة الهاتف. بقي تود في غرفة الجلوس إلى جانب الطاولة التي يوجد فوقها المصباح الصغير.

بـدأ دوسندر بإجراء المكالمة. راقبه تود فيما كان قلبه يخفق بشدة. وبعـــد إدخـــال الـــرقم الخامس، إلتفت دوسندر، ونظر إليه. أرخى كتفيه، ووضع سماعة الهاتف.

تنهد وهو يقول: "صبي، صبي".

ارتسمت على وجه تود ابتسامة عريضة، وإن كانت متواضعة.

"كيف عرفتَ بالأمر؟"

أجاب تود: "بضرب من ضروب الحظ والكثير من العمل الشاقّ. لديّ صديق اسمه هارولد بيغلر، ولكن الأولاد يسمونه فوكسي. إنه أحد لاعبـي الدفاع في فريق كرة القاعدة. قام والده بخزن كل تلك المجلات فـي مـرآبه حـيث تـوجد رزم كبيرة منها. إنني أعني المجلات التي صـدرت فـي أيـام الحرب. إنها قديمة، وأنا أبحث عن مجلات حديثة الآن، ولكن الشخص المسؤول عن المنشورات الإخبارية قبالة المدرسة يقـول إنـه لم يعد لغالبية دور النشر تلك وجود. يوجد في غالبية تلك المجـلات صـور لكـراوتس -أعني الجنود الألمان - واليابانيين وهم يعذبـون أولـئك النـسوة. كمـا تـوجد مقالات تتحدث عن معسكرات الإعتقال. وأنا أجد متعة في قراءة المقالات التي تتحدث عن معسكرات الإعتقال".

حـدق به دوسندر، وقال وهو يضع يديه على خذيه: "أنت تجد متعة في القراءة عنها؟"

"أعني لأنني مهتم بها".

تذكّـر ذلك اليوم في مرآب فوكسي كما يتذكر أي شيء واضح آخر فـي حـياته؛ بل وعلى نحو أكثر وضوحاً. تذكر كيف أن السيدة أندرسون (التي يطلق عليها التلاميذ لقب باغز بسبب أسنانها الأمامية الكبيرة) تحدثت إلـى التلاميذ في الصف الرابع، قبل يوم المهن، عما تسميه التعرف على اهتمامك المفضل.

قالـت بطـريقة فيها مغالاة: "يحدث الأمر فجأة. فأنت ترى شيئاً للمـرة الأولى، وعلى الفور تدرك بأنك تعرفت على اهتمامك المفضل. الأمر أشبه بإدارة المفتاح في القفل، أو الوقوع في الغرام للمرة الأولى. ولهـذا الـسبب يكتسي يوم المهن هذا القدر من الأهمية يا أطفال؛ ربما هـذا هـو الـيوم الذي تتعرفون فيه على اهتماماتكم المفضلة". وبدأت تحـدثهم عـن اهتمامها المفضل، والذي تبين بأنه لا علاقة له بتدريس تلامـذة الصف الخامس، وإنما بتجميع البطاقات البريدية التي تعود إلى القرن التاسع عشر.

عـندما دخـل مـرآب فوكسي في ذلك اليوم، تذكر ما قالته السيدة أندرسون وتساءل إن كانت على حق في نهاية المطاف.

كانت رياح سانتا آنا الحارّة تهبّ في ذلك اليوم، وإلى الشرق، كانت الحرائق تندلع في الغابات. تذكّر رائحة الحريق، وتذكر قصة الشعر القصيرة التي اختارها فوكسي، لقد تذكر كل شيء.

قال فوكسي: "أعرف بأنه يوجد بعض المواد الفكاهية في مكان ما هنا". كانت أمه تعاني من إرهاق، ولذلك أخرجتهما من المنزل بسبب الضجيج الذي كانا يحدثانه.

سأل تود: "ما هذه؟" وهو يشير إلى صناديق الكرتون المنتفخة الموجودة أسفل السلّم.

قال فوكسي: "إنها ليست جيدة. قصص حقيقية عن الحرب في الغالب. إنها تبعث على الملل".

"هل يمكنني الإطلاع على بعضها؟"

"بالتأكيد. سأبحث عن المجلات الفكاهية".

لكن فيما كان فوكسي اليدين يبحث عنها، لم يعد تود يشعر برغبة في قراءة المقالات الفكاهية. بدا تائهاً، تائهاً تماماً.

الأمر أشبه بإدارة المفتاح في القفل، أو الوقوع في الغرام للمرة الأولى.

بدا الأمر شبيهاً بذلك. لقد عرف بأمر الحرب بالطبع –لا أعني الحرب الغبية الدائرة حالياً– ولكن أعني الحرب العالمية الثانية. عرف بأن الأميركيين كانوا يعتمرون خوذات مستديرة تعلوها شبكة، بينما كان الألمان يعتمرون خوذات مربعة إلى حدٍّ ما. وعرف بأن الأميركيين انتصروا في معظم المعارك وأن الألمان اخترعوا الصواريخ قبيل انتهاء الحرب وأطلقوها من ألمانيا على لندن. كما عرف شيئاً عن معسكرات الإعتقال.

كان الفرق بين كل ما تقدم وما وجده في المجلات أسفل السلّم في مرآب فوكسي أشبه بالفرق بين أن يخبرك شخص عن الجراثيم وبين أن تراها من خلال الميكروسكوب وهي حيّة.

هنا إلسي كوخ، وهنا المحارق التي فُتحت أبوابها، وهنا الضباط الذين يرتدون بزّات فرقة الأس أس والمعتقلون ببزّاتهم المخططة. بدت رائحة المجلات القديمة أشبه برائحة الحرائق التي اندلعت في الغابات والتي خرجت عن السيطرة إلى الشرق من سانتو دوناتو، وكان في

مقـدوره الإحساس بالأوراق القديمة وهي تتفتت بين أصابعه فيما كان يقلّبها محاولاً تقبّل فكرة أنهم قاموا بتلك الأفعال حقاً، وأن شخصاً سمح لهـم بالقـيام بتلك الأفعال. بدأ يشعر بصداع في الرأس مع مزيج من الإمـتعاض والإثـارة، وكانت عيناه مشدودتين، ولكنه واصل القراءة. ومن العمود أسفل صورة الجثث المتشابكة في مكان يسمى داتشاو، برز هذا الرقم:

6000000

قـال في نفسه، لا بدّ وأن الكاتب أخطأ بإضافة صفر أو صفرين، فهـذا العدد يبلغ ضعف عدد سكان لوس أنجلوس. لكن في مجلة أخرى (أظهر غلافها امرأة مقيدة بالسلاسل إلى جدار فيما يقترب رجل يرتدي بـزّة نازية منها بوجه عابس حاملاً قضيباً حديدياً في يده)، رأى الرقم مرة أخرى:

6000000

ازداد صـداعه سوءاً، وجف فمه، وسمع من مسافة ما فوكسي وهو يقول بأن عليه الذهاب لتناول وجبة العشاء. سأله تود إن كان يستطيع البقاء فـي المـرآب ومواصـلة القراءة بعد أن يذهب لتناول طعامه. نظر إليه فوكسي نظرة المتحيّر ثم قال: "بالتأكيد". واصل تود القراءة وظهره منحنٍ على الصناديق التي تحتوي على المجلات التي نقلت وقائع الحرب إلى أن اتصلت أمّه وسألت إن كان ينوي العودة إلى المنزل.

الأمر أشبه بإدارة المفتاح في القفل.

أجمعـت المجلات كافة على أن الأخبار سيئة. ولكنها كانت عناوين لقـصص مفصلة في الصفحات الداخلية. وعندما تقلب تلك الصفحات، تجد الكلمات التي تصف سوء الأوضاع محاطة بالإعلانات التجارية التي تروّج للـسكاكين، والأحزمة، والخوذات الألمانية إضافة إلى أشياء أخرى. كانت تلك الإعلانات تروّج للأعلام الألمانية التي تحتوي على الصلبان المعقوفة، وللمـسابقات الـنازية، ولعبة تسمى هجوم البانزر، إضافة إلى دروس في المراسلة، وعروضات تجعلك غنياً ببيع أحذية ذات كعب عالٍ لقصار القامة مـن الرجال. قالت تلك المقالات بأن الأوضاع متردية، لكنّ بدا أن الكثير من الناس لا يبالون بذلك.

مثل الوقوع في الغرام.

لجـل. لا يزال يذكر ذلك اليوم جيداً. ولا يزال يذكر كل شيء فيه؛ روزنامـــة السنة الفائتة الصفراء المعلقة على الجدار الخلفي، وبقعة الزيت علـــى الأرضية الإسمنتية، وطريقة ربط المجلات معاً بواسطة خيط غليظ. لا يزال يذكر كيف أن الصداع كان يزداد سوءاً كلما فكّر في الرقم المذهل 6000000

لا يـزال يذكـر كـل شـــيء: أريد أن أعرف كل ما جرى في تلك الأمـــاكن، كل شيء. وأريد أن أعرف أيهما أصح: الكلمات، أم الإعلانات التي بجانب تلك الكلمات.

كان يتذكر باغز أندرسون أثناء جرّ الصناديق لكي يعيدها إلى مكانها لأســفل الـــسلّم مجـدداً. قال في نفسه كانت على حق، لقد عرفت اهتمامي المفضل.

بقـــي دوســـندر ينظـــر إلى تود فترة طويلة من الوقت. ثم انتقل إلى غـــرفة الجلـــوس وجلس متهالكاً على كرسي هزّاز. ثم عاد ونظر إلى تود مجـــدداً، وهـــو عاجز عن تحليل التعبير الحالم، والقديم بعض الشيء الذي يرتسم على وجه الصبي.

"أجـــل. المجلات هي التي دفعتني إلى الإهتمام بالموضوع، ولكنني اعتقدت بأن الكثير مما جاء فيها ليس أكثر من تفاهات، كما تعرف. ولذلك ذهـــبت إلـــى المكتبة، ووجدت الكثير من المواد الأخرى. حتى أن بعضها كـــان أكثر أناقة. في البداية، لم ترغب أمينة المكتبة التافهة في السماح لي باستعراضـــها لأن تلك المواد كانت في قسم الراشدين، ولكنني قلت لها بأن الأمر يتعلق ببحث مدرسي. إذا كان البحث للمدرسة، فعليهم أن يسمحوا لك بـــالإطلاع علـــيها. لكـــنها اتصلت بوالدي بالرغم من ذلك". ظهرت أمارة الـــسخرية على عيني تود. "بدت كما لو أنها اعتقدت بأن والدي لا يعرف شيئاً عما أقوم به".

"هل كان يعرف؟"

"بالتأكـــيد. يعتقد والدي بأنه ينبغي على الأولاد أن يبدؤوا باستكشاف الحـــياة حالمـــا يمـــتلكون القدرة على ذلك؛ بما فيها من مساوئ وحسنات. عـــندئذ، يكونـــون مهيئـــين لطلبها. وهو يقول بأن الحياة نمر يتعين عليك الإمساك بذنبه، وإذا لم تكن تعرف طبيعة هذا الحيوان، فسيلتهمك".

قال دوسندر: "هذا أمر مخيف".

"تفكر أمي بنفس الطريقة".

بدا دوسندر متعجباً بعد أن نسي لبرهة المكان الذي هو فيه.

قـــال تود: "على كل حال، كانت المواد التي في المكتبة جيدة حقاً. لا بــدّ وأنـــه يـــوجد فـــيها مئات الكتب التي تتحدث عن معسكرات الإعتقال الـــنازية، هـــنا في مكتبة سانتو دوناتو. وينبغي على الكثير من الناس أن يـــتعلّقوا بقـــراءة هـــذه الكتب. صحيح أنها لا تحتوي على عدد مماثل من الـــصور الفوتوغـــرافية مثل تلك الموجودة في المجلات التي يملكها والد فوكـــسي، ولكن المواد الأخرى غنية فعلاً. كانت للكراسي مليئة بالمسامير الكبيـــرة، وكانوا ينتزعون الأسنان الذهبية بواسطة الزرديات، وكان الغاز السام يخرج من مرشات المياه في الحمامات". هزّ تود برأسه وأضاف: "لقد بالغتم في عداوتكم، هل تدرك ذلك؟"

أضـــاف تـــود: "أعددت بحثاً عن هذا الموضوع. هل تعرف التقدير الـــذي حصلت عليه؟ حصلت على تقدير ممتاز. بالطبع كان عليّ الإلتزام بالدقـــة، لأنه يتعين عليك الكتابة عن هذه الأمور بطريقة معينة. يتعين أن تكون حذراً".

ســـأله دوسندر: "هل كنتَ كذلك؟" ثم تناول سيجارة أخرى بيده التي كانت ترتجف.

"أجـــل. فالكـــتب الموجودة في المكتبة تتبع نمطاً معيناً. فالأشخاص الـــذين كتبوها شعروا بالغثيان من الموضوع الذي يكتبون عنه". كان تود عابـــساً، وهو يتصارع مع أفكاره فيما كان يحاول التعبير عنها. إن حقيقة عـــدم وجـــود كلمـــة نبـــرة، وفقاً للمعنى الذي تُستخدم فيه في الكتابة، في مفرداته جعل الأمر أكثر صعوبة. "إنهم جميعاً يكتبون كما لو أنهم عجزوا عـــن النوم فترة طويلة بسبب الموضوع الذي كانوا يكتبون عنه. علينا أن نكـــون حريـــصين علـــى عدم تكرر هذه الأحداث مرّة أخرى. وقد كتبت تقريـــراً عـــن ذلك، وأعتقد بأن معلمتي أعطتني علامة كاملة لأني قرأت المراجع الأصلية من غير أن تفوتني وجبة الغداء". ثم عاد تود إلى الابتسام مرّة أخرى في تعبير عن الفوز.

أخـــذ دوســـندر نفساً عميقاً وهو يدخن. كانت شفته ترتجف قليلاً. ثم ســـعل وهو يخرج الدخان وقال: "أنا بالكاد أستطيع التصديق بأنني أجري

مثل هذه المحادثة". انحنى إلى الأمام، واقترب من تود وقال: "أيها الصبي، هل تعرف معنى كلمة الوجودية؟"

تجاهل تود السؤال وقال: "هل سبق أن التقيت بإلسي كوخ؟"

قـــال دوسندر، وكأنه سمع الاسم لأول مرّة: "إلسي كوخ؟ أجل، سبق أن التقيت بها".

ســـأل تود بلهفة: "هل كانت جميلة؟ أعني..." وبدأ يرسم بيديه ساعة رملية في الهواء.

تساءل دوسندر: "لا بدّ وأنك رأيت صورة فوتوغرافية لها. لا بدّ وأن عاشقاً للنساء مثلك فعل ذلك".

قـــال تود: "حقاً؟ هذا رائع". بدا عابساً، ومتحيراً وضعيفاً لبرهة من الـــوقت، ثم عادت ملامح النصر إليه مجدداً. "لقد رأيتُ صورتها بالتأكيد. ولكنك تعرف نوعية الصور التي تُعرض في هذه الكتب". تحدث كما لو أن دوسندر يملكها كلها. "بالأبيض والأسود، إنها غير واضحة، مجرد لقطات ســـريعة. لم يعرف أحد ممن التقط تلك الصور أنه كان يلتقط صوراً، كما تعرف، للتاريخ. هل كانت ممتلئة الجسم فعلاً؟"

أجـــاب دوسندر باقتضاب: "كانت بدينة، وقصيرة القامة، وذات بشرة بشعة". ثم أطفأ سيجارته في منفضة مليئة بأعقاب السجائر.

بدت على وجه تود علامات الدهشة.

أضـــاف دوســـندر وهـــو ينظر إلى تود: "إنه مجرد حظ. لقد رأيت صـــورتي في مجلة تحكي عن المغامرات العسكرية، وصدف أنك جلست بقربي في الحافلة". وضرب بقبضة يده على ذراع الكرسي ضربة خفيفة.

قـــال تـــود وهـــو ينحني إلى الأمام: "كلا يا سيد دوسندر. فأنا لدي المزيد، بل الكثير".

"حقاً؟" رفع حاجبيه الكثين في إشارة مؤدبة إلى عجزه عن التصديق.

"بالتأكـيد. أردت القول إن الصور التي التُقطت لك والتي أحتفظ بها في سجلّ لقصاصات الصحف ترجع إلى ثلاثين عاماً على الأقل، أعني أنها ترجع إلى العام 1974".

"هل تحتفظ بسجل لقصاصات الصحف؟"

"أجل سيدي. وهو سجل جيد يحتوي على مئات الصور. وسأريك إياه في يوم من الأيام. وستجنّ عندما تراه".

بدا الغضب على وجه دوسندر، ولكنه لم يقل شيئاً.

"لم أكن متأكداً في المرات الأولى التي رأيتك فيها. ثم جاء اليوم الذي صـــعدت فيه إلى الحافلة أثناء هطول المطر. وكنت حينها تعتمر هذه القبعة اللامعة".

قال دوسندر: "تلك القبعة".

"بالتأكـــيد. لديّ صورة تظهر فيها وأنت ترتدي معطفاً مثل المعطف الذي رأيته في المجلات الموجودة في مرآب فوكسي. كما توجد صورة لك وأنت ترتدي معطف الأس أس الكبير في أحد الكتب الموجودة في المكتبة. عـــندما رأيتك في ذلك اليوم، قلت في نفسي: إنه هو بكل تأكيد. إنه كورت دوسندر. ولذلك بدأت بملاحقتك".

"بماذا بدأت؟"

"بملاحقـــتك. أنـــا أطمح لأن أكون تحرّياً خاصاً مثل سام سبايد الذي تحكي عنه الكتب، أو مانيسك الذي تحكي عنه المسلسلات التلفزيونية. على كـــل حال، توخيت الحذر الشديد. فأنا لم أشأ أن تفطن لي. هل ترغب في رؤية بعض من هذه الصور؟"

أخـــرج تـــود ظرفاً بنّياً مطوياً من جيبه. فتح الظرف بعناية. كانت عيـــناه تلمعـــان مـــثل عيني صبي يفكر في ذكرى ميلاده أو الكرسمس أو الألعاب النارية التي سيطلقها في الرابع من يوليو/تموز.

"هل التقطتَ صوراً لي؟"

"يمكـــنك المـــراهنة على ذلك. لديّ هذه الكاميرا الصغيرة، إنها من طـــراز كوداك. إنها رقيقة، ومسطحة، وتتناسب راحة يدك. وبعد أن تعتاد علـــيها، يـــصبح فـــي مقـــدورك التقاط الصور بمجرد الإمساك بها بيدك والتفريق بين أصابعك بحيث لا تحجب العدسة. بعد ذلك تضغط على الزرّ بإبهامـــك". ضـــحك تـــود بتواضع وأضـــاف: "لقد اعتدت على استخدامها، ولكنني التقطت الكثير من الصور لأصابعي. أعتقد بأنه في وسع المرء أن يفعـــل أي شيء إن بذل جهداً كافياً. ومع أن هذا الكلام يبدو سطحياً ولكنه مجرّب".

أصـــبح وجـــه كورت دوسندر شاحب اللون، وبدا عليه التعب، فيما تقلـــص جـــسمه في ثوب الحمام. "هل قمتَ بتظهير تلك الصور عند فنّي مختص بتظهير الصور أيها الصبي؟"

"مــاذا قلت؟" بدا تود مصدوماً ومذهولاً. "كلا. هل تراني غبياً؟ لدى والدي غرفة معتمة. وأنا أقوم بتظهير الصور فيها منذ أن كنت في التاسعة من عمري".

لــم يقل دوسندر شيئاً، ولكنه شعر بالإرتياح بعض الشيء وعاد لون وجهه إلى طبيعته.

قــدّم له تود العديد من الصور التي دلّت حوافّها الخشنة على أنه تم تظهيــرها فــي المنزل. تفحصها دوسندر بهدوء. ظهر في إحدى الصور جالــساً بالقرب من نافذة في الحافلة التي تتوجه إلى وسط المدينة وفي يده نسخة من كتاب كونتيننتال. وظهر في صورة أخرى واقفاً في محطة ديفون أفنــيو متأبطاً مظلته ورأسه منتصباً بزاوية تذكر بديغول في أوج عظمته، وظهــر فــي صورة أخرى واقفاً في الصف لسفل شادر مسرح ماجستك بــصمت وقد برز من بين المراهقين وربات البيوت بيض الوجوه اللواتي فــي مــثل طــوله وقامته. وأخيراً، ظهر في صورة وهو يمعن النظر في صندوق البريد.

قــال تود: "كنت خائفاً من أن تراني وأنا التقط تلك الصورة الأخيرة. كانــت مغامــرة محسوبة. كنت أقف في الجهة المقابلة من الشارع تماماً. ليتني أستطيع شراء كاميرا مينولتا مزودة بعدسة تلسكوبية. يوماً ما..." قال ذلك كما وأنه يرغب في شيء بعيد المنال.

"ما من شك في أنه لديك قصة مكتملة، تحسباً لتوفر الفرصة".

"كنت سأسلك عما إذا كنت ترغب في رؤية كلبي. على كل حال، بعد أن قمــت بإظهــار الــصور، قارنتها بهذه المجموعة من الصور". وسلّم دوســندر ثــلاث صور فوتوغرافية منسوخة سبق له أن رآها مرات عدة. ظهر في الصورة الأولى في مكتبه في معسكر الإعتقال باتين. جرى قص الصورة بحيث لا يظهر فيها شيء سواه والعلم النازي على ساريته بجانب مكتــبه. والصورة الثانية التقطت يوم تطوعه في الخدمة العسكرية. وظهر في الصورة الأخيرة وهو يصافح هاينرخ غلوكس الذي كان خاضعاً لإمرة هيملر فقط.

"كــنت قد توصلت إلى قناعة تامة حينها، ولكنني لم أتأكد من وجود شــق فــي شــفتك العليا بسبب شاربك الغليظ. ولذلك كان عليّ التأكد من الأمر، ولذلك التقطتُ هذه الصورة". ثم سلّمه الورقة الأخيرة في الظرف.

كانت مطوية عدة طيّات. بدت زواياها متآكلة؛ كما يحصل للأوراق عندما تظل فترة طويلة في جيوب الصبيان الصغار الذين لا يجدون نقصاً في الأشياء التي يمكن القيام بها والأماكن التي يمكن الذهاب إليها. كانت نسخة عن ورقة مطلوبين أعدّها الإسرائيليون لكورت دوسندر. أمسك بها دوسندر في يديه، وتمعّن في الجثث التي لم تسكن والتي ترفض أن تظلّ مدفونة.

قال تود وهو يبتسم: "قمت برفع بصمات أصابعك، ثم قارنتها بالبصمات الموجودة في ورقة المطلوبين".

حدّق به دوسندر وفمه مفتوح من الدهشة ثم تمتم بالألمانية بعض الشتائم. "أنت لم تفعل ذلك بالتأكيد".

"بل فعلت ذلك بكل تأكيد. سبق أن أهداني والداي مجموعة أدوات لرفع بصمات الأصابع بمناسبة الكريسمس في السنة الفائتة. إنها مجموعة حقيقية وليست لعبة. تضم المجموعة مسحوق البودرة، وثلاث فراشٍ لثلاثة أنواع مختلفة من السطوح وورقة خاصة لرفع البصمات. يعرف رفاقي أنني ارغب في أن أصبح تحرّياً خاصاً عندما أكبر. بالطبع هم يعتقدون بأنني سأتخلى عن هذا الحلم". اكتفى دوسندر برفض هذه الفكرة، وعبّر عن عدم اهتمامه بعملية رفع البصمات التي قام بها وهزّ كتفيه. "يشرح الكتاب كل شيء عن البصمات الدائرية ونقاط التشابه. إنها تسمى المقارنات. وعليك أن تحصل على ثماني مقارنات لبصمة الأصابع لكي تُقبل دعواك في المحكمة.

على كل حال، دخلتُ فناء منزلك عندما ذهبتَ إلى إحدى دور السينما، ونثرت مسحوق البودرة فوق صندوق البريد ومسكة الباب، ورفعت كافة البصمات التي أمكنني رفعها. كانت لعبة ذكية، أليس كذلك؟"

لم يقل دوسندر شيئاً. كان يمسك بذراعي الكرسي وفمه المفتوح والخالي من الأسنان يرتجف. لم يرق لتود هذا المنظر إذ إنه جعله على وشك البكاء. لكن ذلك بالطبع رد فعل سخيف. ربما تتوقع أيضاً إفلاس شركة الشيفروليه أو توقف ماكدونالدز عن تقديم ساندويتشات الهامبرغر والبدء ببيع الكافيار والكمأة.

قال تود: "حصلت على مجموعتين من بصمات الأصابع. لم تتطابق إحداهما مع أي من البصمات الموجودة في ورقة المطلوبين. ولذلك أعتقد بأنهما تعودان إلى عامل البريد. أما المجموعة الثانية فهي لأصابعك. وقد

وجـدت أكثـر من ثماني مقارنات. في الحقيقة وجدت أربع عشرة مقارنة جيدة". وقال بوجه عابس: "سأشرح لك كيف قمت برفعها".

قـال دوسندر: "أنت وغد حقير". لوهلة، بدت عيناه تنذران بالخطر، مما جعل تود يشعر بالقشعريرة على غرار شعوره عندما دخل الردهة. ثم أسند ظهره إلى الكرسي فجأة وقال: "هل أخبرتَ بذلك أحداً سواي؟"

"لم أخبر أحداً".

"ولا حتى هذا الصديق؟ أعني كوني بيغلر؟"

"أنـت تقصد فوكسي. فوكسي بيغلر. كلا، فهو صبي ثرثار. لم أخبر أحداً، لأنه لا يوجد أحد يمكنني الوثوق به كثيراً".

"مـاذا تريد إذن؟ هل تريد المال؟ أنا لا أملك الكثير منه بكل أسف. كنتُ ثرياً في أميركا الجنوبية، بالرغم من أنه لم يكن لذلك علاقة بنشاطات رومانـسية أو خطرة مثل تجارة المخدرات. كانت توجد شبكة علاقات في البـرازيل والـبارغواي وسـانتو دومينغو، شكل أعضاؤها مجموعة من الفـارّين من الحرب. وقد أصبحت جزءاً من دائرتهم وحققت نجاحات بكل تواضع في ميدان التعدين واستخراج المواد الخام؛ مثل القصدير، والنحاس، والبوكـسايت. ثـم ما لبثت أن هبّت عواصف التغيير. الدعوات القومية، ومعـاداة الأميـركيين. ربما كنت سأتمكن من اجتياز تلك المرحلة بأمان، ولكـن رجال ويزنثال عثروا عليّ. الحظ السيئ لا بدّ وأن يعقبه حظ سيئ أيها الصبي، مثل كلاب تجري وراء عاهرة تحت أشعة الشمس. كادوا أن يمسكوا بي في مناسبتين. سمعتُ مرّة الأوغاد اليهود في غرفة مجاورة".

همـس قائلاً: "لقد شنقوا آيخمان". وضع إحدى يديه على رقبته، أما عيـناه فقد تحولتا إلى عينين مستديرتين مثل عيني صغير ينصت في ممر معتم إلى قصة تثير الرعب، ربما هانسل وغريتل، أو بلوبيرد. "كان رجلاً هـرماً لا يـشكل خطراً على أحد. كان بعيداً عن السياسة، ولكنهم شنقوه بالرغم من ذلك".

أومأ تود برأسه.

"فـي نهايـة المطاف، لجأت إلى الأشخاص الوحيدين الذين يمكنهم مـساعدتي. سـبق أن سـاعدوا أشخاصـاً آخرين، فأنا لم أعد قادراً على مواصلة الفرار أكثر من ذلك".

سأله تود بلهفة: "هل ذهبت إلى أوديسا؟"

أجاب دوسندر بنبرة جافة: "ذهبت إلى الصقلّيين". عاد الشحوب إلى وجـــه تــود مجـــدداً. "عملوا على تدبير أموري، وأعطوني أوراقاً مزيفة وجواز سفر مزوراً. هل ترغب في تناول شراب أيها الصبي؟"

"بالتأكيد. هل يوجد لديك شراب كوكاكولا؟"

"كلا".

"هل يوجد حليب؟"

"أجــل". مـــشى نحو المدخل المقنطر، ودخل المطبخ. أضاء لمبة فلورســـنت وقـــال: "أنا أعيش الآن على عائدات استثماراتي في سوق الأســـهم، وهي الأسهم التي اشتريتها عندما تواصلت الحرب تحت اسم آخـــر، وذلك عبر مصرف في ولاية ماين. لكن الصراف الذي اشتراها من أجلي دخل السجن بتهمة قتل زوجته بعد سنة على شرائه الأسهم... تـــبدو الحياة غريبة في بعض الأحيان أيها الصبي". فتح باب الثلاجة ثم أغلـــق. "لم يعرف الوسطاء الصقليون شيئاً عن تلك الأسهم. وهم الآن منتـــشرون في كل مكان. لكن في تلك الأيام، كانت بوسطن أبعد مكان في الشمال يمكنك أن تجدهم فيه. ولو أنهم عرفوا بشأنها، لكانوا أخذوها منّـــي أيـــضاً. كانوا سيجرّدونني من كل شيء ثم يرسلونني إلى أميركا مجـــرّداً مـــن كـــل شـــيء لكي أعيش هناك على الصدقات والمعونات الغذائية".

ســـمع تود صوت باب خزانة يُفتح، ثم سمع صوت سائل يُصَبّ في كوب.

"اشـــتريت القليل من أسهم شركة جنرال موتورز، والقليل من أسهم أميـــركان تلفـــون أند تلغراف، ومئة وخمسين سهماً تعود لشركة ريفلون، وكانت تلك جميعها خيارات الصراف. كان اسمه دوفريسن؛ لا زلت أذكر اســـمه لأنه يشبه اسمي إلى حدّ ما. يبدو أنه لم يكن بارعاً في قتل زوجته مـــثل بـــراعته في اختيار الأسهم الواعدة. وهذا ليس سوى إثبات على أن كافة الرجال حمير يمكنهم القراءة".

عـــاد دوســـندر إلى الغرفة على وقع خفه المنزلي، وفي يديه كوبان بلاســـتيكيان لونهما أخضر بديا أشبه بالهدايا التي توزّع أحياناً في حفلات افتتاح محطات الوقود. عندما تملأ خزان الوقود في سيارتك، تحصل على واحد منها مجاناً. وما لبث أن قدّم كوباً إلى تود.

"عشت حياة مريحة بالاعتماد على عائدات محفظة الأسهم التي اختارها دوفريسن لي في السنوات الخمس الأولى التي أمضيتها هنا. ولكنني بعت بعد ذلك أسهم دايموند ماتش لكي أشتري هذا المنزل وكوخاً صغيراً لا يبعد كثيراً عن بيغ سور. ثم مرت البلاد في فترة تضخم، وثم بفترة ركود. عندئذٍ، بعت الكوخ، وبعت أسهمي الواحد تلو الآخر، وعاد عليّ بعضها بأرباح خيالية لدرجة أنني تمنيت لو أنني اشتريت المزيد منها. ولكنني اعتقدت بأنني أتمتع بحماية جيدة في النواحي الأخرى. وكما يقول الأميركيون، شراء الأسهم 'مغامرة استثمارية'..." وأصدر صوت صفير من فمه الخالي من الأسنان وبواسطة أصابعه.

لحسن تود بالملل، فهو لم يأتِ إلى هذا المكان لكي يصغي إلى تأوهات دوسندر على ماله أو تحسره على أسهمه. إن فكرة ابتزاز دوسندر لم تخطر ببال تود على الإطلاق. المال؟ ماذا سيصنع به؟ إنه يحصل على مصروفه، وهو يعمل في توزيع الصحف. وإذا فاقت احتياجاتُه المالية مجموعَ مداخيله في أسبوع ما، سيجد دائماً شخصاً بحاجة إلى من يجزّ له الأعشاب التي في فناء داره.

رفع تود كوب الحليب ووضعه على شفتيه، ثم تردد. وما لبثت أن اختفت ابتسامته مرّة أخرى... كانت ابتسامة تنم عن الإعجاب. ولذلك مدّ يده ليعطي الكوب لدوسندر وقال: "اشرب قليلاً منه".

حدّق فيه دوسندر للحظة، ثم تناول الكوب، وشرب منه جرعتين، ثم أعاده إليه، وقال: "لا شهيق بسبب انقطاع النفس، ولا توجد رائحة لوز مرّ. إنه حليب أيها الصبي. حليب من مزارع دايريليا. ويمكنك أن ترى على صندوق الكرتون صورة بقرة ضاحكة".

راقبه تود بحذر لفترة من الوقت، ثم شرب جرعة صغيرة. أجل للطعم طعم الحليب بكل تأكيد، ولكن لسبب ما، لم يعد يشعر بالعطش الشديد. ولهذا وضع الكوب على الطاولة. هزّ دوسندر كتفيه استخفافاً، ورفع كوبه، وشرب منه قليلاً، ثم ضمّ شفتيه بعد ذلك.

سأله تود: "هل هو شراب الشنابس؟"

"إنه البوربون. وهو يعود إلى العصر القديم. إنه طيب المذاق كما أنه رخيص الثمن".

وضع تود يديه على سرواله الجينز.

قال دوسندر: "إذن، إذا قررت أن تخوض 'مغامرة استثمارية'، ينبغي أن تحرص على شراء الأسهم التي لا قيمة لها".

"ماذا قلت؟"

قال دوسندر: "الإبتزاز. أليست هذه التسمية التي يستخدمونها في مانيكس وهاواي فايف أو وبارنبي جونز؟ الإبتزاز، إذا كان ذلك ما..".

ضحك تود ضحكة صبيانية صادقة. هزّ رأسه تعبيراً عن النفي، وحاول أن يتكلم، ولكنه عجز عن ذلك، وبقي يضحك.

قال دوسندر: "الجواب هو النفي". وفجأة أصبح لونه شاحباً، واعتراه خوف فاق الخوف الذي شعر به عندما بدأ تود حديثه. شرب جرعة كبيرة من شرابه. وبدت على وجهه سيماء الألم، ولكنه هزّ كتفيه استخفافاً وقال: "أرى بأن هدفك ليس ابتزاز المال. لكن بالرغم من أنك تضحك، لا زلت أشم رائحة الإبتزاز بطريقة أو بأخرى. ما هو الشيء الذي تريده؟ لماذا جئت إلى هنا، ولزعجت رجلاً طاعناً في السنّ؟ ربما كنتُ نازياً كما سبق أن قلتَ، أو حتى ضابطاً في فرقة الأس أس. لكنني الآن لست سوى رجل عجوز بحاجة إلى دواء لكي يتمكن من إفراغ أمعائه. إذن، ما هو الشيء الذي تريده؟"

عاد تود إلى رزانته، وحدق بدوسندر؛ وفي أسلوب صريح ومنفتح قال: "لماذا، أريد أن اسمع قصتك. هذا كل ما أريده فعلاً".

سأله دوسندر بصوت عالٍ والإرتباك بادٍ عليه: "ما الذي تريد أن تسمعه؟"

انحنى تود إلى الأمام، ونظر إلى موضع ركبتيه، وقال: "بالتأكيد. أريد أن اسمع منك عن فرق الإعدام، وغرف الغاز، والأفران، والأشخاص الذين توجب عليهم أن يحفروا قبورهم بأيديهم ثم يقفوا على حافتها قبل أن يسقطوا فيها، و.." أخرج لسانه من فمه لترطيب شفتيه، وأضاف: "التجارب، والإختبارات وكل شيء آخر".

نظر إليه دوسندر نظرة تنمّ عن عدم اكتراث، كما ينظر طبيب بيطري إلى قطة، ولدت هريرة ثلاثية الرؤوس. قال بنبرة ناعمة: "أنت وحش".

شهق تود، وقال: "بالاستناد إلى الكتب التي قرأتها ولنا أعدّ تقريري، أنت الذي يصح أن يوصف بأنه وحش يا دكتور دوسندر، وليس أنا. أنت

مــن أرســل هؤلاء المساجين إلى الأفران وليس أنا. كان يتم إرسال ألفي ســجين فــي اليوم في باتين قبل مجيئك، وثلاثة آلاف بعده، وثلاثة آلاف وخمــسمائة قبل أن يصل الروس ويمنعوك من مواصلة عمليات الإعدام. وقد وصفك هملر بأنك خبير بالفاعلية، وقلّدك وساماً. وها أنت تصفني الآن بأنني وحش".

قــال دوســندر: "ما تقوله ليس سوى أكاذيب أميركية قذرة". ووضع كــوبه علـــى الطاولة بقوة مما أدى إلى إراقة الشراب على يده والطاولة. وأضاف: "لم أكن أنا من تسبب بتلك المشكلة، ولست أنا من وضع حلاً لها. لقد أصدروا لي الأوامر وقمت بتنفيذها".

اتسعت ابتسامة تود بحيث تحولت إلى ابتسامة غرور.

تمــتم دوســندر: "أنــا أعرف كيف شوّه الأميركيون الحقيقة. ولكنّ الــسياسيين الأميركيين جعلوا الدكتور غوبلز أشبه بطفل يلهو بكتاب مليء بالــصور في صف للحضانة. إنهم يتكلمون عن الأخلاق فيما يلقون النابالم الحارق على الأطفال والنساء الطاعنات في السنّ. كان مقاوموكم المجنّدون يوصــفون بالجبناء، وبسبب رفضهم الإنصياع للأوامر، كان يُزَجّ بهم في السجون أو يُطردون من البلاد. وكان الأشخاص الذين يتظاهرون ضدّ هذه المغامــرة الآسيوية سيئة الحظ التي خاضتها البلاد يُضربون بالعصي في الــشوارع. وكــان الــرئيس يقلّد الأوسمة للجنود الأميركيين الذين يقتلون الأبــرياء، وكانــوا يُــستقبلون بالإستعراضات، ورفع الأعلام بعد طعنهم الأطفــال بالــرماح وإحــراقهم للمستشفيات. كانوا يحصلون على وجبات عشاء، وسيارات تقلّهم إلى وسط المدينة، وتذاكر مجانية لمشاهدة مباريات كــرة القــدم". ثــم رفــع كوبه باتجاه تود، وقال: "وحدهم الخاسرون تتم محاكمــتهم كمجرمي حرب لأنهم قاموا بتنفيذ الأوامر والتعليمات". شرب قليلاً، ثم سعل سعلة أعادت الإحمرار إلى وجنتيه.

تملّــك تــود الغضب على غرار غضبه عندما يناقش والداه الأخبار مــساءً. لم يكن يبالي بالسياسة التي يتحدث عنها دوسندر أكثر من مبالاته بالأسهم التي كانت في حوزته. فهو يعتقد بأن الناس اخترعوا السياسة لكي يتمكنوا من القيام بما يريدون القيام به. الأمر أشبه بما فعله عندما بدأ بلمس شــارون أكيرمان من أسفل ثوبها في السنة الفائتة. قالت شارون بأنه كان أمــراً ســيئاً منه أنه أراد ذلك، بالرغم من أنه استنتج من نبرة صوتها أن

الفكرة أثارتها. ولذلك قال لها بأنه يريد أن يصبح طبيباً عندما يكبر ولذلك سمحت له بذلك. هذه هي السياسة. أراد أن يسمع عن الأطباء الألمان الذين حاولوا تزويج النساء للكلاب، ووضع أطفال توائم في الثلاجات لمعرفة إن كانــوا ســيموتون في الوقت نفسه أم أن بعضهم سيعمّر أكثر من البعض الآخــر، وعــن عــلاج المرضى بواسطة الصدمات الكهربائية، وإجراء العملــيات الجــراحية بدون مخدّر، واغتصاب الجنود الألمان لكافة النساء اللواتـــي وقعــت أعينهم عليهن. وما تبقّى لم يكن أكثر من محاولة للتغطية على الفظاعات بعد وصول الحلفاء ووضعهم حدّاً لتلك العمليات.

"لــو أنّنــي لــم أنفّذ الأوامر، لكنت الآن ميتاً". كان دوسندر يتنفس بــصعوبة، كــان الجزء العلوي من جسده ينتفض وهو على الكرسي، مما جعــل نوابــضه تحدث صريراً. علت سحابة من أثر الشراب فوق رأسه. "كانــت هناك دائماً الجبهة الروسية وقادتنا كانوا مجانين، ولكن هل يمكن للمرء أن يجادل مجانين، وخصوصاً عندما يقف الحظ بجانب أكثرهم جنوناً على الإطلاق. لقد نجا من محاولة الإغتيال العبقرية بأعجوبة، والأشخاص الــذين تآمــروا ضــدّه خُــنقوا بأسلاك البيانو، وتُركوا لكي يموتوا ببطء. ومعاناتهم أثناء وفاتهم مسجلة في أفلام من أجل توعية النخبة".

صاح تود: "أجل. هل شاهدت تلك الأفلام؟"

"أجل، لقد شاهدتها. شاهدنا جميعاً ماذا حصل للأشخاص الذين كانوا غير مستعدين أو غير قادرين على الجري قبل الريح والإنتظار ريثما تهدأ العاصفة. ما فعلناه حينها كان عين الصواب. في ذلك الوقت وذلك المكان، كان ذلك العمل الصائب. وسأفعل ذلك مرة أخرى، ولكن.."

نظر إلى كوبه، فوجده فارغاً.

"... ولكنني لم أشأ التحدث عن هذا الموضوع، أو حتى التفكير فيه. ما قمنا به كان دافعه حبّ البقاء فقط، ولا يوجد شيء جميل في حبّ البقاء. كانــت تراودنــي أحلام.." أخرج ببطء سيجارة من العلبة الموجودة على سطح التلفاز. "أجل، ظلّت تراودني طوال سنين. السواد، وأصوات السواد. محــرّكات الجرّارات، ومحرّكات الجرّافات، أعقاب الطلقات وهي ترتطم بــالأرض المــتجمدة، أو بالجمــاجم البشرية. صوت الصفير، وصفارات الإنــذار، وطلقــات المــسدسات، والصراخ، وأبواب السيارات التي تنقل الماشية وهي تفتح في فترة ما بعد الظهر من أيام الشتاء الباردة.

ثم توقفت أصوات أحلامي، كانت العيون تفتح في الظلام وترمق مثل عيون الحيوانات في غابة مطيرة. لقد عشت طوال عدة سنين على حافة الغابة، وأعتقد بأن هذا هو السبب الذي يجعلني أشمّ رائحة الغابة وأحس بها في أحلامي. عندما أفيق من الحلم، أجد نفسي غارقاً في العرق، وقلبي يرتجف في صدري، ويدي تضغط على فمي لكي تكتم صراخي. كنت أقول في نفسي: الحلم هو الحقيقة. البرازيل، والبارغواي، وكوبا،.. هذه الأماكن هي الحلم. في الحقيقة، أنا لا أزال في باتين. والروس أقرب إليها اليوم منهم في الأمس. ولا يزال البعض منهم يتذكر بأنهم اضطروا في العام 1943 إلى أكل جثث الجنود الألمان المتجمدة لكي يبقوا على قيد الحياة. وهم الآن يتوقون إلى شرب الدم الألماني الحارّ. وقد سرت شائعات أيها الصبي عن قيام بعضهم بذلك عندما اجتازوا الحدود الألمانية، فقطعوا أعناق بعض الأسرى وشربوا من دمائهم. كنت أستيقظ من نومي وأقول في نفسي: يتعين مواصلة العمل ولو لم يتوفر دليل على ما فعلنا هنا لكيلا يضطر العالم إلى تصديق ما لا يرغب في تصديقه. وكنت أقول في نفسي، يتعين مواصلة العمل إذا كنا نريد البقاء".

أصغى تود إلى كلامه بانتباه واهتمام كبيرين. كانت تلك قصة جيدة، ولكنه كان واثقاً من أنه سيستمع إلى ما هو أكثر تشويقاً منها في الأيام القادمة. كل ما كان دوسندر بحاجة إليه هو بعض التشجيع. اللعنة، إنه رجل محظوظ، فهناك الكثير من الرجال في مثل سنّه أصابهم الخرف.

أخذ دوسندر نفساً عميقاً من سيجارته. "وفي مرحلة لاحقة، عندما توقفت تلك الأحلام، مرّت بي أيام اعتقدت فيها بأنني رأيت شخصاً من باتين. وأذكر أنني رأيت واحداً منهم في فترة ما بعد الظهر في ألمانيا الغربية قبل عشر سنين. فقد وقع حادث على طريق سريع مما أدّى إلى توقف حركة المرور في كافة المسارب. انتظرت في سيارتي المورِيس وأنا أستمع إلى الراديو، ريثما تبدأ السيارات بالحركة. نظرت إلى يميني فرأيت سيارة سيمكا قديمة جداً في المسرب التالي وكان الرجل الذي يقودها ينظر إليّ. ربما كان في الخمسين من عمره، ولكنه بدا مريضاً. لاحظت وجود ندبة على خدّه. كان شعره قصيراً أبيض اللون. نظرت إلى الناحية الأخرى. مرّت عدة دقائق وبقيت حركة المرور على حالها. بدأت أختلس النظرات محاولاً التعرف على هوية سائق سيارة السيمكا. ما من مرّة

نظــرت إلــيه إلاّ ووجدتــه ينظر إليّ، بوجهه الجامد مثل الموت، وعينيه الغائرتين. اقتنعت عندئذ بأنه كان في باتين. كان في ذلك الموقع وتمكن من التعرف عليّ".

مــسح دوسندر عينيه بيده، وقال: "حدث ذلك في فصل الشتاء. كان الــرجل يرتدي معطفاً. كنت مقتنعاً بأنني إذا نزلت من سيارتي، وتوجهت نحــوه، وطلبتُ منه أن ينزع معطفه، ويرفع كمّ قميصه، فسأرى رقماً على ذراعه. وأخيراً بدأت السيارات تتحرّك مجدداً. ابتعدتُ عن سيارة السيمكا. ولو أن زحمة السير استمرّت عشر دقائق أخرى، كنت سأنزل من سيارتي ولطلــب مــن ذلك الرجل أن يفعل الأمر نفسه. كنت سأنهال عليه ضرباً، سواء أكان على ذراعه رقم أم لا. كنت سأنهال عليه ضرباً بسبب طريقته في النظر إليّ".

"بعد مرور وقت قصير على تلك الحادثة، غادرت ألمانيا نهائياً".

قال تود: "كنت محظوظاً".

قال دوسندر: "كان الحادث يتكرر في كل مكان، في هافانا، ومكسيكو سـيتي، وروما. أقمت في روما ثلاث سنين كما تعرف. كنت أرى رجلاً ينظــر إليّ وهو يحتسي الكابوتشينو في المقهى... أو امرأة في بهو فندق بــدت أكثــر اهتماماً بي منها بمجلتها... أو نادلاً في مطعم لا يرفع عينيه عنّــي حتــى وهــو يخدم أشخاصاً آخرين. اعتقدت بأن هؤلاء الأشخاص يتفحصونني وأن الحلم سيصبح حقيقة؛ الأصوات، والغابة، والعيون".

"لكــن عــندما قــدمت إلى أميركا، طردت تلك الأفكار من رأسي. وصــرت أذهب إلى دور السينما، وأتناول طعامي خارج المنزل مرّة في الأســبوع، ودائماً في أحد المطاعم التي تعدّ الوجبات السريعة والتي تتميز بالنظافة والإنارة الجيدة بأنوار الفلوريسنت. أنا أحلّ ألغاز الصور المقطّعة وأقــرأ الــروايات -وهي سيئة في غالبيتها- وأشاهد التلفاز. في المساء، أشــرب إلــى أن أشــعر بالنعاس. لم تعد تلك الأحلام تراودني بعد ذلك. وعندما أنتبه إلى شخص وهو يرمقني في السوبرماركت أو في المكتبة أو في متجر لبيع التبغ، أقول في نفسي لا بدّ وأن سبب ذلك أنني أشبه جدّه... أو معلّمــاً قــديماً... أو جاراً في بلدة هجرها قبل عدة سنوات". هزّ رأسه وهــو ينظر إلى تود، وقال: "بغض النظر عما حصل في باتين، فقد حصل مع شخص آخر وليس معي".

"هـذا رائـع. أودّ سماع القصة بأكملها". أغلق دوسندر عينيه، ثم فتحهما ببطء وقال: "أنت لم تفهم، أنا لا أرغب في الحديث عن الموضوع".

"ولكنك ستفعل، وإلاّ فسأخبر الجميع عن حقيقتك".

نظر إليه دوسندر ووجهه ممتقع اللون، وقال: "عرفت بأنني ساكتشف الدافع إلى الإبتزاز عاجلاً أم آجلاً".

قال تود: "أريد اليوم أن اسمع قصة أفران الغاز. وكيف كنت تحرقهم بعد أن يموتوا". بدت ابتسامته واسعة وقوية. "لكن عليك أن تضع أسنانك الإصطناعية قبل مواصلتك الكلام، لأنك عندما تضعها تبدو أجمل". فعل دوسندر ما طُلب منه، وبقي يتحدث مع تود إلى أن حان وقت ذهاب تود إلى منزله لتناول طعام الغداء. وفي كل مرّة سعى فيها دوسندر إلى الإنتقال إلى العموميات، كان تود يعبس في وجهه، ويطرح عليه أسئلة محددة لكي يعيده إلى صلب الموضوع. شرب دوسندر الكثير من الشراب وهو يتحدث. لم يكن يبتسم، بخلاف تود الذي ابتسم كثيراً نيابة عنه.

2

أغسطس/آب 1974

جلسا على شرفة دوسندر تحت سماء صافية. كان تود يرتدي سروالاً من الجينز وسترة خفيفة، وكان دوسندر يرتدي كنزة رمادية فضفاضة وسروالاً كاكي اللون مع حمّالات. قال تود في نفسه بأنهما أشبه بشخصين خرجا من صندوق في متجر جيش الخلاص في وسط البلدة. وكان عازماً على التعليق على زيّ دوسندر في منزله لأنه أفسد بهجته بعض الشيء.

تناول الإثنان ساندويتشين كبيرين من الهامبرغر كان تود قد ابتاعهما ووضعهما في سلّة درّاجته، وقاد الدرّاجة بسرعة كي لا يبردا. في تلك الجلسة، شرب تود شراب الكوكاكولا من قارورة بلاستيكية، فيما شرب دوسندر الشراب من الكوب.

كان صوت الرجل العجوز يعلو وينخفض، وكان يتحدث بنبرة متردّدة تكاد لا تكون مسموعة في بعض الأحيان. بدا الإحمرار على عينيه الزرقاوين، وكانتا ترمشان باستمرار. وربما كان سيعتقد من يراهما بأنهما جدّ يجلس مع حفيده الذي يمارس طقوس الإنتقال من الطفولة إلى سنّ الرشد.

أنهــى دوسندر كلامه بالقول: "هذا كل ما أتذكره من وقائع". وقضم قضمة كبيرة من ساندويتش الهامبرغر، وانسالت صلصة الماكدونلدز على ذقنه.

قال تود بنبرة ناعمة: "يمكنك تقديم أداء أفضل من ذلك".

شرب دوسندر جرعة كبيرة من كوبه، وقال: "كانت بزات المساجين مصنوعة من الورق. وعندما يُتوفى أحد السجناء، تُعطى البزة لسجين آخر لكي يلبسها إذا كانت لا تزال صالحة. في بعض الأحيان، كان من الممكن أن يــرتدي البــزة الواحدة ما يصل إلى أربعين سجيناً. وقد حصلت على الكثير من التنويهات بسبب قدرتي على الاقتصاد في الإنفاق".

"من غلوكس؟"

أجاب: "من هيملر".

"لكــن كان يوجد مصنع للثياب في باتين، وأنت من قال لي ذلك في الأسبوع الماضي. فلماذا لم تسعوا إلى تصنيع البزات فيه؟ كان في مقدور السجناء أن يصنعوا ثيابهم بأنفسهم".

"كان عمل المصنع مقتصراً على تصنيع بزات الجنود الألمان. وفي ما يتعلق بنا..." انخفض صوت دوسندر للحظة، ثم رفعه مجدداً وقال: "لم تكن من مهامنا إخضاع السجناء لبرنامج لإعادة تأهيل".

ابتسم تود ابتسامته العريضة.

"هل هذا كاف لهذا اليوم؟ أرجوك؟ لقد التهب حلقي".

قــال تــود: "إذن، ينبغــي ألاّ تكثر من التدخين". من غير أن تختفي ابتسامته عن وجهه. "أخبرني المزيد عن البزات الرسمية".

"أي بزات؟ هل تقصد بزات السجناء أم عناصر فرقة الأس أس؟"

ابتسم تود، وقال: "أخبرني عن النوعين".

3

سبتمبر/أيلول 1974

كــان تود في المطبخ في منزله، يصنع ساندويتشاً من زبدة الفول الــسوداني والهــلام. ولكي تصل إلى المطبخ، ينبغي أن تصعد خمس درجــات علــى سلّم خشبي لتصل إلى ناحية مرتفعة تلمع فيها الأدوات المــصنوعة مــن الكــروم والفولاذ الذي لا يصدأ. كانت الآلة الكاتبة

الكهـــربائية التي تستعملها أمّه تعمل بشكل مستمر منذ أن عاد تود إلى منــزله من المدرسة. كانت تكتب أطروحة رسالة الماجستير لطالب في سـنة التخرّج. في رأي تود المتواضع، يمكن وصف ذلك الطالب بأنه قـصير الـشعر، ويضع نظارة سميكة، ويشبه مخلوقاً أتى من الفضاء الخارجـي. كانـت الأطروحة تتناول موضوع ذباب الفاكهة في وادي سـاليناس بعـد الحرب العالمية الثانية، أو شيئاً سخيفاً من هذا القبيل. والآن أوقفـت عملهـا على الآلة الكاتبة، وخرجت من الغرفة، ورحبت بتود قائلة: "مرحباً بالصبي تود".

أجاب تود بنبرة لطيفة: "بصبي مونيكا".

كان تود يرى في أمّه امرأة بهية المنظر في سنّ السادسة والثلاثين. فـي الواقـع، كانـت سيدة شقراء، طويلة القامة، ومتناسقة القوام، وكانت ترتدي سروالاً قصيراً أحمر اللون وكنزة زرقاء اللون.

سألته أمّه أثناء صعودها درجات السلّم الذي يؤدي إلى المطبخ: "إذن، كيف قضيت يومك في المدرسة؟"

"كان يومي رائعاً".

"هل ستكون على لائحة الشرف مجدداً؟"

"بالتأكـيد". فـي الواقع، اعتقد بأن مستواه ربما يتراجع قليلاً في هذا الفـصل الأول. فقـد كان يمضي الكثير من وقته مع دوسندر. وعندما لا يكـون بصحبة الألماني العجوز، كان يمضي وقته في التفكير في الأشياء التـي تحدث عنها دوسندر. حتى أنه رأى حلماً أو اثنين عن القصص التي أخبره عنها. ولكن لم تعترضه مشكلات عجز عن التعامل معها.

قالـت وهي تعبث بشعرها الأشقر: "أيها التلميذ الموهوب. كيف كان طعم الساندويتش؟"

أجاب: "كان طعمه رائعاً".

"هل يمكنك أن تصنع لي واحداً وتحضره إلى مكتبي؟"

أجـاب وهـو ينهض: "لا يمكنني ذلك، لأني وعدت السيد دنكر بأن أزوره وأقرأ له لساعة تقريباً".

"ألا زلت تقرأ قصة روبنسون كروزو؟"

أجـاب: "كـلا". وهو يريها ظهر كتاب سميك اشتراه من متجر لبيع الأشياء القديمة مقابل عشرين سنتاً. "توم جونز".

"ستحتاج إلى تمضية السنة الدراسية بأكملها لكي تفرغ من قراءته يا تود. ألا يمكنك شراء نسخة ملخصة عنه على الأقل، كما فعلت عندما اشتريت قصة كروزو؟"

"ربما، ولكنه يريد سماع القصة بكافة تفاصيلها. في الحقيقة، هو من طلب مني ذلك".

نظرت إليه نظرة تعجب للحظة، ثم عانقته. كانت تلك من الحالات النادرة التي أظهرت فيها عاطفتها، وهو ما جعل تود يشعر بشيء من الضيق. "لا بدّ وأنكَ تجد متعة كبيرة تدفعك إلى تمضية هذا القدر الكبير من أوقات فراغك في القراءة له. وأنا ووالدك نعتقد بأنه ينبغي أن يكون ذلك أمراً استثنائياً".

نظر تود إلى الأسفل بتواضع.

أضافت: "وأنت لا تريد إخبار أحد بذلك".

قال تود بابتسامته المتواضعة: "يعتقد الأولاد الذين أرافقهم بأنني غريب الأطوار".

"لا تقل ذلك. أخبرني، هل تعتقد بأن السيد دنكر يرغب في زيارتنا وتناول طعام العشاء معنا في ليلة ما؟"

أجاب تود بطريقة غامضة: "ربما. اسمعي، عليّ أن أذهب بسرعة".

"حسناً، سيكون العشاء جاهزاً عند الساعة السادسة والنصف. لا تنسَ ذلك".

"لن أنسى".

"سيتأخر والدك في عمله، ولذلك سنجلس إلى الطاولة لوحدنا مرّة أخرى".

رمقته وهي تبتسم، آملة بألاّ يوجد في قصة توم جونز ما لا ينبغي عليه قراءته، فهو لا يزال في الثالثة عشرة من عمره. لم تكن تعتقد بأنه يوجد في الكتاب ما تكرهه، ولكنه يعيش في مجتمع تتوفر فيه مجلات مثل بينتهاوس مقابل دولار وربع، كما أنها متوفرة لكل ولد يمكن أن تطال يده رف المجلات، وينتزع واحدة قبل أن يزجره الموظف لكي يعيدها ويخرج في الحال. افترضت بأنه لا يمكن أن يوجد الكثير مما يفسد عقل تود في كتاب عمره مائتا عام، بالرغم من أنها خشيت من أن الرجل العجوز ربما يتوسع في بعض المواضيع قليلاً. وكما كان ريتشارد يحبّ أن يقول

"بالنسبة إلى الطفل، العالم كله بمثابة مختبر". وعليك أن تسمح لهم بإجراء التجارب فيه. وإذا كان هذا الطفل المعني يعيش حياة عائلية صحية ولديه أبوان محبّان، فسيكتسب مزيداً من القوة بتطفله على بعض المواضيع الغريبة.

وها هو الولد الأكثر مثالية يقود درّاجته. قالت في نفسها وهي تصنع ساندويتشاً، لقد أحسنا تربية ولدنا. اللعنة علينا إذا كنا لم نحسن صنعاً.

4

أكتوبر/تشرين الأول 1974

خسر دوسندر بعضاً من وزنه. جلس تود معه في المطبخ، ووضع الكتاب على الطاولة المغطاة بقطعة من القماش الزيتي (حرص تود على شراء دفتر ملاحظات من مصروفه الخاص وقرأ ملخص الكتاب بأكمله تحسباً لاحتمال أن يطرح عليه والده أو والدته أسئلة عنه). كان تود يأكل ساندويتش رينغ دينغ اشتراه من أحد المتاجر. كما اشترى واحداً لدوسندر، ولكنه لم يلمسه، بل اكتفى بالنظر إليه بوجه عابس بين الحين والآخر فيما كان يشرب شرابه. كره تود أن يرى طعاماً طيب المذاق يذهب هدراً. ولذلك فكّر في الإستئذان من دوسندر لتناوله في حال لم يرد أكله.

بدأ تود الجلسة بسؤال دوسندر: "إذن، كيف كنتم تحضرون الغاز إلى باتين". أجاب دوسندر: "باستخدام عربات القطار، وأعني العربات التي كُتب عليها *إمدادات طبية*. كانت تأتي في صناديق طويلة تشبه التوابيت. كان المساجين ينقلون تلك الصناديق من العربات ويكدسونها في المستوصف. وفي وقت لاحق، يقوم رجالنا بتكديسها في حظائر التخزين. كانوا يقومون بذلك ليلاً، وكانت الحظائر خلف الحمامات".

"هل كنتم تستخدمون دائماً زيكلون-بي؟"

"كلا، كنا نحصل بين الحين والآخر على أنواع أخرى من الغاز بقصد إجراء الإختبارات. فقد كانت القيادة العليا مهتمة دائماً برفع كفاءة العملية. ولذلك أرسلوا لنا مرّة غازاً اسمه الرمزي بيغاسوس، وهو من نوع غازات الأعصاب. وأحمد الله أنهم لم يعيدوا الكرّة مرّة أخرى". لاحظ دوسندر أن تود انحنى إلى الأمام مركّزاً نظره، فتوقف فجأة، وأومأ بطريقته المعتادة باستخدام الكوب الذي كان في يده. قال دوسندر: "لم يحقق ذلك الغاز نتائج فعالة. في الواقع، كان مملاً".

لكنه لم يتمكن من خداع تود، في هذه المرّة على الأقل. قال تود: "ماذا كانت النتيجة؟"

"أدى استنشاقهم للغاز إلى وفاتهم؛ هل كنت تعتقد بأنه سيجعلهم يمشون على الماء؟ لقد قتلهم ذلك الغاز، هذا كل شيء".

"أخبرني".

أجاب دوسندر الذي لم يعد في استطاعته إخفاء الخوف الذي يشعر به: "كلا". فهو لم يفكر منذ وقت طويل في غاز البيغاسوس، ربما منذ عشر سنين، أو عشرين سنة. وأضاف: "أنا لن أخبرك بذلك، أنا أرفض ذلك".

كرر تود سؤاله في ما كان يلعق الشوكولاته التي ذابت بين أصابعه. "أخبرني. أخبرني وإلاّ فأنت تعرف ماذا سيحصل".

قال دوسندر في نفسه، أجل. أنا أعرف ماذا سيحصل. أنا أعرف ذلك بالطبع أيها الوحش النتن.

أجاب بتردد: "لقد جعلهم الغاز يرقصون".

"يرقصون؟"

"خرج مثل غاز زيكلون-بي من مرشات المياه. وعندها بدؤوا يقفزون. بعضهم كان يصرخ، ولكن غالبيتهم كانوا يضحكون. ثم بدؤوا بالتقيؤ، و... وإخراج الغائط".

قال تود: "واو. كانوا يلطخون أنفسهم بأنفسهم، أليس كذلك؟" أشار إلى الرينغ دينغ في طبق دوسندر. لقد أنهى طبقه. سأله تود: "هل ترغب في تناول هذا؟"

لم يجب دوسندر. كانت عيناه سارحتين مع ذاكرته، وكان وجهه بارداً، مثل ذلك النصف من الكواكب الذي لا يدور. وكان يشعر في أعماق ذهنه بأكثر توليفات النفور غرابة. هل يمكن أن يكون ذلك حنيناً إلى الماضي؟

"كانوا يتحركون بسرعة في المكان وهم يطلقون صيحات غريبة. أطلق رجالي على غاز البيغاسوس اسم غاز الغناء. وفي النهاية انهاروا جميعاً، وتمددوا على الأرضية على قاذوراتهم. أجل تمددوا على الأرضية الخرسانية وهم يصرخون ويغنّون والدماء تسيل من أنوفهم. ولكنني كذبتُ عليك أيها الصبي، فالغاز لم يقتلهم. والسبب هو أنه لم يكن قوياً بما يكفي أو لأننا لم ننتظر بما فيه الكفاية. أفترض بأن هذا هو السبب. فالرجال

والنساء من أمثال هؤلاء لم يكن في مقدورهم العيش طويلاً. كانت النتيجة ستبدو سيئة في سجلّي لو تم اكتشاف الأمر، ما من شك يساورني في ذلك؛ لأن الأمر كان سيبدو تبديداً للطلقات في الوقت الذي أعلن فيه الفوهرر بأن كل طلقة بمثابة ثروة قومية. ولكنني كنت أثق بهؤلاء الرجال الخمسة. لقد مــرّت بــي أوقات اعتقدت فيها بأنني لن أنسى أبداً أصواتهم، وصراخهم، وضحكهم وهم يغنّون".

قال تود: "أجل، أنا أراهن على ذلك". أنهى دوسندر طبق الرينغ دينغ بقضمتين. عندما كان تود يشتكي في مناسبات نادرة من بقايا الطعام، كانت أمّــه تقــول له، لا تدع شيئاً. "كانت تلك قصة جيدة يا سيد دوسندر. وأنت تنهيها بطريقة جيدة دائماً عندما أكون على وشك أن أذهب".

ابتــسم تــود في وجهه، ووجد دوسندر على وجه لا يصدق بأنه يردّ عليه الإبتسامة؛ بالرغم من أنه لم يكن يرغب في ذلك بكل تأكيد.

5

نوفمبر/تشرين الثاني 1974

كــان ديك بودين، والد تود، يشبه إلى حدٍّ بعيد ممثلاً تلفزيونياً وسينمائياً اســمه لويد بوشنر. كان بودين، وليس بوشنر، رجلاً نحيفاً في الثامنة والثلاثين من عمره يحبّ أن يرتدي قمصان آيفي ليغ والبزات داكنة اللون. وعندما يكون في موقع البناء، يرتدي الكاكي ويعتمر قبعة قاسية لا يزال يحتفظ بها منذ الأيام التــي خــدم فيها في جيش الخلاص، عندما ساعد على تصميم وبناء سدّين في أفــريقيا. وعندما يعمل في مكتبه المنزلي، عادة ما يضع نظارة تنزلق دائماً إلى الأســفل نحــو رأس أنفه، مما يجعله أشبه بعميد إحدى الكلّيات. كان يضع تلك النظارة فيما كان ينقر بشهادة ابنه للفصل الأول على السطح الزجاجي لمكتبه.

"حاز على تقدير جيد جداً في مادّة واحدة، وعلى تقدير جيد في أربع مــوادّ، وعلى تقدير مقبول في مادّة واحدة. تود، بالرغم من أن أمك لم تقل شيئاً، ولكنها مستاءة فعلاً".

نظر تود إلى الأرض دون أن يبتسم. وعندما أقسم والده، لم يكن ذلك أفضل كلام يريد سماعه.

"يا الله، لم يسبق أن حصلتَ على شهادة مثل هذه. حصلتَ على تقدير مقبول في مادّة الجبر للمبتدئين؟ كيف تفسر هذه النتيجة؟"

"أنا لا أعرف يا أبي". نظر إلى ركبتيه على نحو يوحي بالذل.

"نحـــن نظنّ بأنك ربما تمضي الكثير من وقتك مع السيد دنكر بحيث لم تعد تطالع كتبك بما فيه الكفاية. ونحن نرى بأنه من الأفضل أن تقتصر في زياراتك له على أيام عطل نهاية الأسبوع أيها الكسول، إلى أن نعرف ما هي عواقب ذلك على الصعيد الأكاديمي على الأقل".

رفـــع تـــود رأســـه، وفي ثانية واحدة، اعتقد بودين بأنه رأى غضباً مـــستعراً فـــي عينـــي ولده. اتسعت عينا بودين فيما كان يمسك بالشهادة المدرســـية البـــرتقالية اللـــون... ثـــم جاء دور تود في النظر إليه بعينين مفتوحتـــين في تعبير عن عدم سعادته. هل والده غاضب حقاً؟ بالتأكيد لا. ولكنه منزعج الآن، مما يجعل من الصعب عليه معرفة كيفية متابعة النقاش على وجه الدقة. تود ليس مجنوناً، وديك بودين لا يرغب في جعله مجنوناً. كـــان وولـــده صديقين، ولطالما كانا صديقين، وأراد ديك أن تظل العلاقة بيـــنهما على هذا النحو. لم يكن أحدهما يخفي أسراراً عن الآخر (باستثناء أن ديك بودين كان يقيم في بعض الأحيان علاقة مع سكرتيرته، ولكن هذا لـــيس من الأشياء التي تطلع ولداً في الثالثة عشرة من عمره عليها، أليس كـــذلك؟ كما أنه لا يوجد لذلك تبعات على حياته المنزلية وحياته العائلية). كانـــت تلك الطريقة التي ينبغي أن تسير وفقها الأمور، والطريقة التي كان يجـــدر أن تـــسير وفقهـــا الأمـــور في هذا العالم العجيب عندما لا يعاقَب المجرمون.

"أرجـــوك يـــا والدي ألاّ تفعل ذلك. لا تعاقب السيد دنكر على ذنب اقترفتُه. أعني أنه سيكون تائهاً بدوني. سأبلي بلاء حسناً في الفصل القادم. بالنسبة إلى مادّة الجبر، وجدت صعوبة في البدء فيها. ولكنني استعنت ببين ترماين. وبعد أن درسنا معاً على مدى بضعة أيام، بدأت بالاعتياد عليها".

قـــال بودين بعد أن هدأ غضبه: "أعتقد بأنك تمضي الكثير من الوقت معه". كان من الصعب عليه أن يرفض طلباً لتود، أو يخيّب أمله. وتوسله بألاّ يعاقب الرجل العجوز على ذنب اقترفه تود طلب منطقي. فهذا الرجل العجوز يتوق إلى زياراته كثيراً.

قال تود: "السيد ستورمات، معلّم مادّة الجبر، رجل قاسٍ فعلاً. وهناك الكثير من التلاميذ الذين حصلوا على تقدير مقبول. حتى أن ثلاثة تلاميذ أو أربعة حصلوا على تقدير ضعيف".

أومأ بودين برأسه وهو يفكر.

"لــن أذهــب إليه في أيام الأربعاء إلى أن أتمكن من الحصول على تقديــرات أعلى". كان يقرأ عيني والده. أضاف تود: "وبدلاً من أن أتسكع في المدرسة، سأمضي يومي فيها بالدراسة. أعدك بذلك".

"هل تحبّ ذلك الرجل العجوز إلى هذا الحدّ؟"

أجاب تود بصدق: "إنه أهل للحب فعلاً".

"حــسناً، ســنجرّب طــريقتك. ولكنني أريد منك أن تحرز تقدماً في يناير/كانون الثاني، هل تفهمني؟ فأنا أفكر في مستقبلك. ربما تعتقد بأنه لا يــزال من المبكر جداً التفكير في أمر الثانوية العامة، ولكن الحال بخلاف ذلك. فالوقت ليس ببعيد قبل أن تصل إلى تلك المرحلة". فكما أن أمه تحب أن تقول *لا تهدر شيئاً*، يحب بودين أن يقول *الوقت ليس ببعيد*.

قال تود بنبرة حازمة: "موافق يا أبي".

"إذن، افتح تلك الكتب، وابدأ بمراجعتها". ورفع نظارته إلى أعلى فيما كان يربت على كتف تود.

ابتسم تود ابتسامة عريضة ومشرقة، وقال: "في الحال يا أبي".

راقب بودين ابنه وهو يمشي بزهو وقال في نفسه، لو أن تود أصبح مجــنوناً، لكان عرف بذلك. ففي إمكانه قراءة ولده كما لو كان يقرأ كتاباً. ولطالما كان الأمر على هذا النحو.

بعــد أن فــرغ من مهامه الأبوية، انكبّ على دراسة إحدى خرائطه التصميمية.

6

ديسمبر/كانون الأول 1974

بــدا وجه من أجاب على رن تود المتواصل للجرس شاحباً. والشعر الــذي كان غزيراً في يوليو/تموز بدأ ينحسر عن جبينه الناتئ، بعد أن فقد لمعانــه وأصبح متقصفاً. كما أن جسم دوسندر النحيل أصلاً أصبح هزيلاً الآن، بالــرغم مــن اعتقاد تود بأنه ليس هزيلاً مثل أجساد السجناء الذين وُضعوا تحت إشرافه.

كانت اليد اليسرى لتيد خلف ظهره عندما فتح دوسندر الباب. والآن، مدّ تود يده، وسلّم دوسندر رزمة ملفوفة، وصاح قائلاً: "عيد مجيد".

شعر دوسندر بالخوف مما هو موجود في العلبة، ولكنه استلمها من غير أن تبدو عليه أمارات البهجة أو الدهشة. أمسك بها بحذر شديد كما لو كان هناك احتمال بأنها تحتوي على متفجرة. كانت قطرات المطر تتساقط خارج الشرفة، علماً بأن الأمطار لم تتوقف منذ أسبوع تقريباً، ولذلك وضع تود علبته أسفل معطفه. وكانت ملفوفة بورقة وشريط زاهي اللون.

سأله دوسندر بدون حماسة فيما كانا يدخلان المطبخ: "ما هذا؟"

"افتح العلبة وستعرف الجواب".

أخرج تود علبة كوكاكولا من جيب سترته، ووضعها على قطعة القماش الزيتي الحمراء والبيضاء التي تغطي طاولة المطبخ. قال تود بصوت خفيض: "من الأفضل أن ترخي الستائر".

سرعان ما برزت على وجه دوسندر تعابير الشك، وقال: "حقاً؟ لماذا؟"

قال تود مبتسماً: "حسناً، لا يمكن أن نعرف إن كان يوجد شخص في الخارج يراقبنا. أليست هذه الطريقة التي جعلتك تفلت من الإعتقال طوال تلك السنين؟ عبر التأكد من احتمال وجود أشخاص يراقبونك قبل أن يتمكنوا من رؤيتك؟"

أرخى دوسندر ستائر المطبخ. ثم صبّ لنفسه كوباً من الشراب، ثم فتح الرزمة. كان تود قد لفها كما يلف الصبيان غالباً رزم هدايا العيد؛ الصبيان الذين تشغل عقولهم أشياء أكثر أهمية، مثل كرة القدم والهوكي وأفلام الرعب التي يشاهدها أحدهم برفقة شخص آخر. كان يوجد الكثير من الزوايا المتجعدة، والكثير من شقوق الدرز غير المتوازية، والكثير من الأشرطة اللاصقة.

أحسّ دوسندر بقليل من التأثر. وفي وقت لاحق، عندما هدأ روعه بعض الشيء قال في نفسه، كان ينبغي أن أعرف ماذا يوجد في العلبة.

كانت بزّة عسكرية، من النوع الذي كان يستخدمه أفراد فرقة الأس أس، بالإضافة إلى الحذاء عالي الساق. نظر على محتويات العلبة، وقال: "كلا لن أرتديها. هذه هي النهاية أيها الصبي. أفضل أن أموت على أن أرتديها".

قال تود: "تذكر ماذا فعلوه بأيخمان. كان رجلاً هرماً لا يشكل خطراً على أحد. كان بعيداً عن السياسة. أليس هذا ما قلتَه؟ كما أنني أمضيت

فصل الخريف بكامله وأنا أقتصد في مصروفي لكي أشتريها. وقد دفعت ثمانين دولاراً ثمناً لها، بما في ذلك الحذاء عالي الساق. ولنت لم تكن تمانع في ارتدائها في العام 1944. لم يكن لديك أي مانع على الإطلاق".

رفع دوسندر قبضته فوق رأسه وقال: "أيها السافل الصغير". لكن ذلك لم يدفع تود إلى التراجع عن طلبه. قال تود: "هيا، المسني وستكون تلك المرّة الوحيدة التي تلمسني فيها".

أنزل دوسندر يده، وكانت شفتاه ترتجفان. قال وهو يتمتم: "أنت عفريت من جهنم". قال تود أمراً: "ارتدِها".

وضع دوسندر يديه على عقدة رباط ثوب الحمام ثم توقف. كان يتوسل بعينيه وهو ينظر إلى عيني تود. قال: "أرجوك، أنا رجل عجوز. ولا أستطيع تحمل المزيد".

هزّ تود رأسه ببطء ولكن بحزم. كانت عيناه لا تزالان تتلألأن. فقد كان يشعر بمتعة عندما يتوسل دوسندر، على غرار المساجين الذين كانوا يتوسلون في السابق، المساجين في باتين.

ترك دوسندر ثوبه يسقط على الأرضية، ووقف عارياً من الثياب عدا ثيابه الداخلية. بدا صدره غائراً، ويداه هرمتين وهزيلتين. ولكن تود اعتقد بأن البزة العسكرية ستغيّر كل ذلك.

أخرج دوسندر البزة ببطء، وبدأ بارتدائها.

بعد عشر دقائق، وقف في الزيّ الكامل لفرقة الأس أس. كانت القبعة مائلة قليلاً، والكتفان مترهلتين، ولكن علامات الموت كانت بادية بوضوح. كان لدى دوسندر كرامة يائسة -على الأقل في عيني تود- لم تكن لديه في الأيام الغابرة. وعلى الرغم من انهياره، وعلى الرغم من قدميه المتباعدتين، سُرّ تود بما رآه. فلأول مرة، بدا دوسندر على الوجه الذي توقّع تود أن يراه. هل بدا رجلاً طاعناً في السن؟ أجل. وهل بدا مهزوماً؟ بكل تأكيد. ولكن بارتدائه البزة العسكرية مرة أخرى، لم يعد يشبه رجلاً هرماً يمضي آخر سنين حياته في مشاهدة لورنس ويلك على تلفاز قديم مع رقاقة من القصدير ملفوفة حول الهوائي، ولكنه عاد كما كان، كورت دوسندر، وحش باتين الدموي.

شعر دوسندر بالإشمئزاز، والقلق... وبحسّ رقيق متسلل بالراحة. ربما احتقر هذا الإحساس الأخير، معتبراً إياه المؤشر الأكثر وضوحاً على

الهيمنة النفسية التي فرضها هذا الصبي عليه. لقد أصبح أسير الصبي. وفي كل مرّة وجد أنه يستطيع العيش ذليلاً، وفي كل مرة شعر فيها بارتياح بسيط، كانت قوة الصبي تزداد. ولكنه شعر بالإرتياح بالرغم من ذلك. كانت البزة مجرد ثياب وأزرار ومشابك... كان ذلك كله زيفاً. كان السروال مزوداً بسحاب، فيما كان ينبغي أن يكون مزوداً بأزرار، وكانت علامات الرتبة خطأ وغير صحيحة، والخياطة سيئة، والحذاء مصنوع من الجلد الرخيص. لكنها لم تكن أكثر من بزة زائفة، ولم تكن ستودي بحياته، أليس كذلك؟ كلا.

قال تود بصوت عالٍ: "قوّم اعوجاج قبعتك".

رمشت عينا دوسندر وهو ينظر إليه.

"قوّم اعوجاج قبّعتك أيها الجندي".

امتثل دوسندر للأمر، ورفعها بطريقة لا شعورية كما كان يرفعها الضباط الألمان.

"ضمّ هاتين القدمين على بعضهما".

امتثل دوسندر للأمر، فألصق كعبيه ببعضهما محدثاً صوتاً خفيفاً.

"انتباه".

وقف متأهباً بحيث شعر تود لوهلة بالفزع؛ بفزع حقيقي. شعر بأنه أشبه بتلميذ ساحر أحضر مكنسة ولكنه لا يملك القدرة الحقيقية على استعمالها. لم يعد للرجل العجوز الذي كان يعيش بمفرده وجود. لقد عاد دوسندر من جديد.

وما لبث الإحساس بالخوف أن تحوّل إلى إحساس بالقوة.

"استدر".

استدار دوسندر في مكانه. نسي أمر الشراب، وعذاب الشهور الأربعة الأخيرة. سمع كعبيه وهما ينقران الأرض مجدداً فيما كان يواجه الفرن المتسخ. وفيما عدا ذلك، كان في مقدوره رؤية أرضية الإستعراضات المغبرّة في الأكاديمية العسكرية حيث تعلّم حرفة الجندي.

"استدر".

استدار مجدداً، ولكنه لم ينفذ الأمر هذه المرة بطريقة لائقة لأنه فقد توازنه بعض الشيء. كان شعوره الداخلي شبيهاً بشعور رجل يبتسم، فالصبي لم يكن يعرف كافة أسرار الحرفة.

صاح تود: "والآن، امشِ". كانت عيناه متوهجتين.

انهار دوسندر مجدداً وقال: "كلا، أرجوك.."

"امشِ، امشِ، قلت لك امشِ".

بدأ دوسندر يمشي ببطء في المطبخ. استدار يميناً لكي يتجنب الإصطدام بالطاولة، ثم استدار يميناً مرة أخرى فيما كان يقترب من الجدار. كان وجهه مرتفعاً قليلاً وخالياً من أي تعبير، وكانت قدماه تقرعان الأرضية أمامه، وكانت يداه تتحركان في أقواس صغيرة.

عادت صورة المكنسة المتحركة إلى ذهن تود، وعاوده الشعور بالخوف أيضاً. فقد تذكر فجأة بأنه لم يكن يريد من دوسندر الإستمتاع بأي جزء من هذا المشهد، ولأنه كان يريد من دوسندر أن يبدو مضحكاً أكثر مما كان يريد منه أن يبدو ضابطاً حقيقياً. لكن بطريقة ما، وعلى الرغم من كبره في السنّ والأثاث الرخيص الموجود في المطبخ، لم يبدُ مظهره سخيفاً على أقل تقدير. بدا تود مرتعباً. فلأول مرّة، بدت الجثث في الخنادق والمحارق حقيقية بالنسبة إليه. لم تكن الصور الفوتوغرافية للأذرع والأرجل والأجساد المتشابكة تحت المطر في ربيع ألمانيا كما تظهر في أفلام الرعب، وإنما حقيقة مجرّدة، تشير إلى الغباوة، والحقارة والشرّ. لوهلة، بدا أنه يستطيع شمّ رائحة تحلل الجثث. لكنّ هذا الشعور بالخوف أعاد إليه القوة.

صرخ تود: "توقف".

واصل دوسندر السير ببطء بعينين مشدوهتين. ارتفع رأسه أكثر، مما كشف عن حنجرته البارزة، ورفع وجنتيه بطريقة تنمّ عن العجرفة.

شعر تود بالعرق تحت إبطيه. ثم صاح في دوسندر مجدداً: "توقف".

توقف دوسندر وقدمه اليمنى أمامه. بدا وجهه خالياً من أي تعبير. كان يشعر بالإرتباك، إرتباك ألحقه شعور بالهزيمة. لقد انهار دوسندر.

تنهّد تود بصوت مسموع، وشعر بالغضب من نفسه. من هو الأمر هنا على كل حال؟ ولكنه استعاد ثقته بنفسه مجدداً. أنا الآمر هنا، ومن الأفضل ألاّ أنسى ذلك.

عادت الإبتسامة إلى وجه تود مجدداً. "هذا جيد. لكن مع القليل من التمرين، أعتقد بأن أداءك سيتحسن كثيراً".

وقف دوسندر بصمت وهو يلهث.

قال تود: "يمكنك أن تخلع بزتك الآن". وتساءل إن كان يريد من دوسندر أن يرتديها مرّة أخرى.

7

يناير/كانون الثاني 1975

غادر تود المدرسة بعد أن رن جرس الإنصراف، وركب درّاجته، وتوجّه نحو المنتزه. هناك، وجد مقعداً خالياً فجلس بعد أن أخرج من جيبه شهادته المدرسية. نظر حوله ليتأكد من عدم وجود شخص يعرفه، فلم يجد غير اثنين من طلاب الثانوية العامة بالقرب من البركة ومجموعة من السكارى يمررون حقيبة أوراق جيئة وذهاباً. لم يجد في هؤلاء الأشخاص من يزعجه، لذلك بدأ يتفحص شهادته.

اللغة الإنكليزية: جيد؛ التاريخ الأميركي: جيد؛ العلوم: مقبول؛ الإجتماعيات: جيد؛ اللغة الفرنسية: ضعيف؛ الجبر للمبتدئين: ضعيف.

حدّق في هذه التقديرات عاجزاً عن التصديق. كان يعرف بأن تقديراته ستكون سيئة، لكن ما رآه كان كارثياً.

ربما سمع صوتاً داخلياً يقول له، لقد فعلت ذلك عن عمد لأن جزءاً منك يريد التوقف عن هذا الأمر. إنه بحاجة إلى إنهائه قبل أن يحصل أمر سيئ.

أراد أن يطرد تلك الأفكار من رأسه. فلن يحدث شيء يكرهه. فدوسندر يخضع لسيطرته. وهذا الرجل العجوز يعتقد بأن أحد أصدقائه رسالة، ولكنه لم يكن يعرفه. وفي حال أصاب تود مكروه – أي مكروه – فستصل تلك الرسالة إلى الشرطة. كما أن الرجل لم يعد في مقدوره الهرب لكبر سنّه.

قال تود في نفسه: "إنه تحت سيطرتي". ثم ضرب برجله على الأرض. إن حديث المرء مع نفسه عادة سيئة؛ فالأشخاص المجانين يتحدثون إلى أنفسهم. ولكنه التقط هذه العادة في الأسابيع الستة الماضية، ولا يبدو أنه قادر على التخلّي عنها. وقد لاحظ عدداً من الأشخاص وهم ينظرون إليه باستغراب بسببها. ومن بين هؤلاء معلموه، وذلك الأخرق بيرني إفيرسون الذي سأله إن كان به مسّ من الجنون. كاد تود أن يوجّه إليه لكمة إلى فمه، ولكنه عدل عن ذلك. رأى أن حديثه إلى نفسه يجعل الناس يظنون به سوءاً. إن حديثك مع نفسك أمر سيئ، حسناً، ولكن..

قال في نفسه: "والأحلام سيئة أيضاً". ولكنه لم يستطع أن يتمالك نفسه في تلك المرّة.

ما لبثت أحلامه أن تحولت إلى كوابيس كان يرى نفسه فيها مرتدياً البزة العسكرية دائماً، بالرغم من تغيّر نوعها. ففي بعض الأحيان، كان يرى نفسه يرتدي بزة ورقية ويقف في الصف مع مئات من الرجال ضعاف الأجسام، ورائحة الإحتراق تفوح في الهواء، وكان في مقدوره سماع هدير محركات الجرّافات. كان دوسندر يتوجه نحو الصف، ويشير إلى هذا السجين أو ذاك فيُترَكان، فيما يسير الباقون نحو المحارق. كان بعضهم يقاوم ويصارع، ولكن أغلبهم كان يعاني من سوء التغذية، ومن التعب الشديد. ثم يقف دوسندر أمام تود، وينظر في عينيه في لحظة تبعث على الشلل، ثم يضع مظلة فوق رأس تود.

قال دوسندر في أحد الأحلام: "خذوا هذا إلى المختبرات". إنقلبت شفته فكشفت عن أسنانه الإصطناعية. "خذوا هذا الصبي الأميركي".

في حلم آخر، رأى نفسه يرتدي بزة فرقة الأس أس وينتعل حذاءً عالي الساق ثقيلاً يلمع كما لو كان سطحاً عاكساً. كانت أزراره تلمع وهو رافع رأسه، ولكنه كان يقف في وسط شارع سانتو دوناتو والجميع ينظرون إليه. بعضهم كان يشير بإصبعه، والبعض الآخر كان يضحك، فيما بدا آخرون مصدومين، أو غاضبين، أو مهتاجين. في ذلك الحلم، توقفت سيارة قديمة محدثة صوتاً، وخرج منها دوسندر، وحدّق به. بدا أشبه برجل عمره مائتا عام؛ مثل مومياء، بجلده الأصفر.

قال دوسندر بنبرة مخيفة: "أنا أعرفك". نظر من حوله إلى المتفرجين ثم أعاد النظر إلى تود، وقال: "أنت الرجل الذي كان مسؤولاً عن باتين. لينظر الجميع، هذا هو وحش باتين الدموي، الخبير الفعال لدى هيملر. أريد أن افضحك علناً أيها المجرم، أريد أن افضحك أيها الجزّار، يا قاتل الأطفال".

لكنه رآه في حلم آخر يرتدي زي للمساجين المخطط وكان حارسان يَحذوَا كما لو أنهما والداه يقودانه عبر ممر بُنيت جدرانه من للصخور. وضع كل منهما شارة صفراء على يديه رُسمت عليها نجمة داوود. كان يمشي خلفهما كاهن يقرأ من سفر التثنية. نظر تود إلى الخلف، فرأى أن الكاهن هو دوسندر في الزي الأسود لضابط في فرقة الأس أس.

عندما وصلوا إلى نهاية الممر الصخري، فُتح باب مزدوج يؤدي إلى غرفة مثمنة الأضلاع ذات جدران زجاجية، وفي وسطها مشنقة. وخلف الجدران الزجاجية كان يوجد عدد كبير من الرجال والنساء نحلاء الجسم بدون ثياب وهم يراقبون ما يجري بعيون قاتمة وخالية من أي تعبير. وعلى ذراع كل واحد منهم رقم كُتب بالحبر الأزرق.

قال تود في نفسه: "الأمر على ما يرام. لا بأس، فكل شيء تحت السيطرة".

نظر إليه الطالبان اللذان كانا بجانب البركة، وردّ تود عليهما بنظرة شرسة، تنمّ عن التحدّي لهما. وفي النهاية، التفتا نحو الناحية الأخرى. هل كان الصبي يبتسم؟

نهض تود من مكانه، ووضع شهادته المدرسية في جيبه، وركب درّاجته، وتوجّه بها إلى متجر لا يبعد كثيراً عن المكان. اشترى قلماً لمحو آثار الحبر وقلماً رفيع الخط يكتب باللون الأزرق. ثم عاد إلى المنتزه (رحل الطالبان، ولكنّ المجانين بقوا هناك) أدخل تعديلات على التقديرات، فأعطى نفسه تقدير جيد جداً في اللغة الإنكليزية، وتقدير ممتاز في التاريخ الأميركي، وتقدير جيد جداً في العلوم، وتقدير مقبول في اللغة الفرنسية، وتقدير جيد جداً في الجبر للمبتدئين.

قال في نفسه: "لا بأس. هذا سيسكتهم، هذا سيسكتهم. حسناً".

في إحدى الليالي الأخيرة من الشهر، استفاق كورت دوسندر بعد الساعة الثانية، وهو يتصارع مع ثوب الحمام الذي يرتديه، ويلهث ويئنّ في الظلام الذي بدا قريباً ومخيفاً. شعر بأنه يختنق وقد أصيب بالشلل من شدة خوفه. بدا كما لو أن حجراً كبيراً يجثم على صدره، وتساءل إن كان أصيب بنوبة قلبية. تلمّس محيطه في العتمة باحثاً عن المصباح الذي بجانب السرير وكاد أن يسقطه على الأرض أثناء محاولته إنارة الغرفة.

قال في نفسه، أنا في غرفة نومي، وفي سريري، هنا في سانتو دوناتو، في كاليفورنيا، وفي أميركا. أنظر، هذه هي الستائر البنية التي تغطي النافذة نفسها، ورفوف الكتب نفسها المملوءة بالمجلات التي اشتريتها من متجر بيع الكتب في شارع سورين، والبساط الرمادي نفسه، وورق الجدران الأزرق نفسه. لست أعاني من نوبة قلبية، ولا توجد هناك غابة، ولا عيون محدقة.

لكــنّ الــرعب كان لا يزال مسيطراً، وكان قلبه يخفق بشدّة. لقد عــادت الكوابــيس مجدداً. عرف بأن هذا ما كانت ستؤول إليه الأمور عاجلاً أم آجلاً إذا ما تابع الصبي مضايقته. ذلك الصبي الملعون. اعتقد بــأن الرســالة التي كتبها الصبي لكي يحمي نفسه ليست سوى خدعة، وأنهــا خدعــة غيــر متقــنة، لا بدّ وأنه تعلمها من البرامج البوليسية التلفزيونية. فمن يكون هذا الصديق الذي يثق الصبي بأنه لن يفتح مثل هذه الرسالة الخطيرة؟ لا يوجد مثل هذا الصديق. لكنه تمنى لو يستطيع التأكد من الحقيقة.

أغلــق يديــه، اللتين تعانيان من التهاب المفاصل، بطريقة مؤلمة ثم فــتحهما بــبطء. ثــم أمسك بعلبة السجائر الموجودة على الطاولة، وأشعل ســيجارة. كانت الساعة تشير إلى 2:41 صباحاً. لم يعد في مقدوره النوم أكثــر مــن ذلــك هــذه الليلة. استنشق الدخان ثم انتابته نوبة من السعال المتواصــل. لن يكون في مقدوره النوم ما لم ينزل درجات السلّم، ويشرب كأساً أو كأسين، أو ثلاثاً، علماً بأنه بات يكثر من الشرب في الأسابيع الستة الماضــية. لم يعد رجلاً في مقتبل العمر يمكنه شرب تلك الكؤوس الواحدة بعد الأخرى، على غرار ما كان يفعل عندما كان ضابطاً يقضي إجازة في برلين في العام 1939، عندما كانت أحاسيس النصر تملأ الأجواء، وعندما كــان الجمــيع يسمعون صوت الفوهرر في كل مكان، وعندما كانت عيناه المتوهجتان، والآمرتان..

هذا الصبي.. هذا الصبي الملعون!

قــال بصوت عالٍ: "كن صادقاً". لدرجة أن صوته الذي ملأ الغرفة الهادئة جعله يقفز من مكانه قليلاً. لم يعتد التحدث إلى نفسه، ولكنها لم تكن المــرّة الأولــى التي يفعل فيها ذلك. فقد تذكر حديثه مع نفسه في الأسابيع القلــيلة الأخيــرة التي قضاها في باتين، عندما علم بالأخبار وأصبح هزيم الــرعد الروسي في الشرق أشدّ في صباح كل يوم ثم في كل ساعة. كان أمــراً طبيعــياً أن يــتحدث إلى نفسه حينها. فقد كان يعاني من الإجهاد، والأشــخاص الذين يعانون من الإجهاد يفعلون أشياء غريبة غالباً، مثل كزّ الأســنان. كــان هوفمان يطقطق أصابعه ويربت على فخذه، محدثاً إيقاعاً سريعاً معقداً. حتى أن كورت دوسندر كان يحدث نفسه في بعض الأحيان. ولكن الآن، ...

قال بصوت عال: "أنت تعاني من الإجهاد مرّة أخرى". كان متنبّهاً لحقيقة أنه يتكلم باللغة الألمانية هذه المرّة. فهو لم يعد يتكلم اللغة الألمانية منذ عدة سنوات، ولكن هذه اللغة بدت دافئة ومريحة الآن. فهي تبعث في نفسه الطمأنينة، وتُشعره بالراحة.

"أجل، أنت تعاني من الإجهاد والصبي هو السبب. لكن عليك أن تكون صادقاً مع نفسك. فالوقت لا يزال مبكراً جداً هذا الصباح لكي تقول الأكاذيب. أنت لست نادماً تماماً لأنك تتكلم معه. في البداية، كنت خائفاً من أن الصبي لن يكتم السرّ. ففي إمكانه أن يخبر صديقاً، والذي بدروه يمكن أن يخبر صديقاً آخر، ليقوم هذا الأخير بإخبار اثنين. لكن إذا حافظ تود على السرّ كل هذه المدة، فسيكتم السرّ فترة أطول. وفي حال أُلقي القبض عليّ، فسيخسر كتابه الناطق. هل هذا ما أمثّله بالنسبة إليه؟ أنا أعتقد ذلك".

صمت لفترة من الوقت، ولكن سيل أفكاره لم يتوقف. إنه يعيش وحيداً؛ ولن يتمكن أحد من تحسس مقدار الوحدة التي يعيش فيها. حتى أنه مرّت به أوقات فكّر فيها جدّياً بالإقدام على الإنتحار. وقد جعل من نفسه ناسكاً سيئاً، فالأصوات التي يسمعها تصدر عن الراديو، والأشخاص الوحيدون الذين يزورونه هم من الجانب الآخر لمحيطه القذر. إنه رجل مسنّ، ومع أنه يخشى الموت، لكنه أشدّ خشية لأنه رجل مسنّ يعيش بمفرده.

كانت مثانته تباغته أحياناً. فعندما يكون عند منتصف المسافة التي تفصله عن دورة المياه، تظهر بقعة داكنة على سرواله. وفي أيام الطقس الرطب، تبدأ مفاصله بالإرتجاف ثم تتحول إلى مصادر للألم، ولكن أقراص الأسبرين تعمل على تخفيف آلامه. وحتى القيام بأعمال بسيطة مثل أخذ كتاب من الرف أو تحويل القناة التي يستقبل بثها التلفاز بات مصدراً للألم. وأصبح نظره ضعيفاً بحيث صار يُسقط الأشياء على الأرض أحياناً، ويجرح خده وهو يحلق ذقنه، ويصدم رأسه بالجدران أحياناً. إنه يعيش في خوف من التعرض لحادث يؤدي إلى كسر في عظامه من غير أن يستطيع الوصول إلى سماعة الهاتف، وهو يعيش في خوف من احتمال دخول المستشفى بعد تعرّضه لحادث حيث يتمكن طبيب ما من اكتشاف ماضيه الحقيقي بعد أن يرتاب من عدم وجود سجل طبّي للسيد دنكر.

ســاهم الصبي في التخفيف من حدّة بعض من هذه المخاوف. فعندما يأتي الصبي لزيارته، يستعيد معه ذكرياته القديمة. لا تزال الذكريات التي تعـود إلى تلك الأيام حاضرة في ذهنه، ففي استطاعته تذكر عدد لا متناه من الأسماء والأحداث، وحتى الإشارة إلى حال الطقس في أيام معينة. وهو لا يـزال يذكر الجندي هنريد الذي نصب مدفعاً رشاشاً في البرج الشمالي الشرقي ويتذكر كيس الدهن الموجود بين عينيه. كان بعض الجنود يصفونه بـسبب ذلـك بالـرجل ثلاثي العيون أو العملاق القديم. إنه لا يزال يذكر كيـمل، الـذي كان يحتفظ بصورة لعشيقته مجرّدة من الثياب وممدة على أريكة. وهو يذكر أسماء الأطباء والإختبارات التي كانوا يجرونها؛ الحدود القصوى لتحمّل الألم، الموجات الدماغية للرجال والنساء أثناء الإحتضار، والإعاقـة النفـسية، وتأثيرات أنواع الإشعاعات المختلفة، وغيرها كثير، بحيث يصل عددها إلى المئات.

اعـتقد بأنـه يتحدث إلى الصبي كرجل عجوز، ولكنه رأى أنه أوفر حظـاً مـن غالبـية الـرجال الطاعنين في السنّ عديمي الصبر، أو غير المكترثين أو الوقحين في تعاملهم مع الآخرين. فالشخص الذي يستمع إليه مسحور به. فهل الأحلام السيئة ثمن باهظ يدفعه لقاء ذلك؟

سحق سيجارته، وتمدد على سريره، ونظر إلى السقف لفترة وجيزة، ثـم أنزل قدميه على الأرض. اعتقد بأنه والصبي شخصان منفّران، يتغذّى أحدهما على الآخر... يأكل أحدهما الآخر. لكن كيف حال الصبي؟ هل ينام جيداً؟ ربما لا. اعتقد دوسندر لاحقاً بأن الصبي شاحب الوجه، وأنحف مما كان عليه عندما دخل حياته لأول مرّة.

مشى في غرفة النوم وفتح باب الخزانة، وأزاح حمّالات الثياب نحو اليمـين، ومدّ يده إلى المكان المعتم، وأخرج بزة الشاموا. بدت وهي تتدلّى من يده مثل جلد النسر. لمسها بيده الأخرى، ثم ضربها.

بعد مرور وقت طويل، بدأ بارتداء البزة ببطء، من غير أن ينظر في المرآة إلى أن أكمل إحكام أزرارها. ثم نظر في المرآة، وأومأ برأسه. بعد ذلك عاد إلى السرير وتمدد عليه، وأشعل سيجارة أخرى. عندما فرغ منها، أحسّ بالنعاس مجدداً، فأطفأ النور من غير أن يصدق بأن عودته إلى النوم كانت بمثل هذه السهولة. ولكنه خلد إلى النوم بعد خمس دقائق، من غير أن تراوده أحلام هذه المرّة.

8

فبراير/شباط 1975

بعد تناول العشاء، أخرج ديك بودين زجاجة من الشراب الذي اعتقد دوسندر بأنه مريع. لكنه ابتسم بالطبع ابتسامة عريضة، وأثنى على سخاء مضيفه. قدّمت الأم لولدها طبقاً من الشوكولاته المذابة. بدا الصبي هادئاً على نحو غير معتاد بعد أن تناول وجبته. هل كان يشعر بالضيق؟ أجل. لسبب ما، بدا الصبي منزعجاً للغاية.

سُحر ديك ومونيكا بدوسندر منذ اللحظة التي وصل فيها مع الصبي إلى المنزل. وكان تود قد أخبر والديه بأن مرأى دوسندر أكثر فظاعة مما كان عليه حقيقة، لأن ذلك الوصف كان بمثابة التعليل للساعات الطويلة تلك التي زعم بأنه يقضيها معه في القراءة. وقد توخى دوسندر الحرص الشديد في ذلك حتى لا يقع في أي أخطاء.

كان مرتدياً أزهى حلّة لديه، بالرغم من أن تلك الأمسية كانت رطبة، ولم يكن يشعر بآلام مبرحة على نحو غير مألوف بسبب داء التهاب المفاصل؛ باستثناء بعض الومضات الخفيفة. ولسبب سخيف، أراد الصبي منه ألاّ يأخذ مظلته معه، ولكن دوسندر أصرّ على أخذها. بشكل عام، لمضي سهرة مسلّية، بل ومشوّقة. فسواء أكان الشراب فظيعاً أم لا، فهو لم يتناول العشاء في منزل أحد منذ تسع سنين.

تحدث أثناء تناول طعام العشاء عن إيسن موتور وركس، وعن إعادة بناء ألمانيا بعد الحرب–طرح بودين عدة أسئلة ذكية عن هذا الموضوع– وعن المؤلفين الألمان. وسألته مونيكا بودين عن كيفية وصوله إلى أميركا في هذه المرحلة المتقدمة من العمر، فتحدث دوسندر، مستخدماً تعابير الحزن المناسبة، عن وفاة زوجته الخيالية، وهو ما كان سبباً لاستدرار عطف مونيكا.

ثم جاء دور الحديث عن الشراب السيئ، عندما قال ديك بودين: "إذا وجدت أن الأمر شخصي، أرجو منك يا سيد دوسندر ألاّ تجيب... ولكنني لا أستطيع مقاومة سؤالك عما قمت به أثناء الحرب".

انقبض تود بعض الشيء.

ابتسم دوسندر، وتحسس موضع علبة السجائر. كان في مقدوره رؤيتها، ولكن كان من المهم ألاّ يرتكب أدنى هفوة. لكن مونيكا وضعت علبة السجائر في يده.

"أشـــكرك يـــا سيدتي العزيزة. كان الطعام فاخراً. لا بدّ ولنك طاهية ممـــتازة. لـــم تكن زوجتي ستتمكن من إعداد الطعام على نحو أفضل مما فعلت".

شـــكرته مونـــيكا، وبدا عليها الاضطراب، فيما نظر إليها تود نظرة الغاضب.

قال دوسندر: "ليس في الجواب أمر شخصي على الإطلاق". وأشعل ســـيجارته، والـــتفت إلى بودين وقال: "كنت في قوات الإحتياط ابتداء من العام 1943، لأنني كنت قد تخطيت العمر الذي يؤهلني للخدمة في القوات العاملـــة. فـــي تلك الفترة كانت النذر تشير إلى بروز الرايخ الثالث وإلى بروز الرجال المجانين الذين أوجدوه، وإلى رجل مجنون بعينه بالطبع".

أطفـــأ عـــود الثقاب بطريقة هادئة. وأضاف: "شعرنا براحة عظيمة عندما انقلبت الأمور ضدّ هتلر. شعرنا براحة عظيمة بالطبع". وهنا، نظر إلـــى بودين بطريقة جذابة، نظرة رجل إلى رجل، وقال: "كان على المرء ألاّ يعبّر عن هذا الشعور، ليس بصوت مسموع".

قال ديك بودين: "أعتقد بأنني أوافقك الرأي".

أضـــاف دوســـندر بحـــزن: "ليس بصوت مسموع. أذكر في إحدى الأمـــسيات عندما فرغت وأربعة أو خمسة من أصدقائي من العمل وذهبنا على إحدى الحانات. في تلك الفترة، لم يكن يتوفر الكثير من الشراب، لكن صدف في تلك الأمسية أنه كان متوفراً. كنا نعرف بعضنا منذ ما يزيد عن عـــشرين عامـــاً. أشـــار أحد الأصدقاء، وكان يدعى هانز هاسلر، بطريقة عابرة إلى خطأ من أشار على الفوهرر بفتح جبهة ثانية ضدّ الروس. قلت له: يا هانز، أرجوك أن تتنبّه إلى ما تقوله. امتقع لون وجه هانز المسكين وعمـــد إلى تغيير الموضوع بالكامل. لكننا ما لبثنا أن فقدناه بعد ثلاثة أيام، ولـــم أرَه مـــنذ ذلك الحين، ولا أعتقد بأن أحداً من الذين كانوا جالسين إلى الطاولة في تلك الليلة رآه بعد ذلك".

قالـــت مونيكا: "يا للفظاعة. هل ترغب في المزيد من الشراب يا سيد دنكر؟"

ابتـــسم في وجهها، وقال: "كلا شكراً. كانت زوجتي تحفظ مقولة عن أمها وهي أنه يتعين على المرء ألاّ يبالغ في التكريم".

ازداد وجه تود المستاء أصلاً عبوساً.

سأله ديك: "هل تعتقد بأنه أُرسل إلى واحد من تلك المعسكرات، أعني صديقك هيسلر؟"

صحح دوسندر تهجئة الإسم بأدب وقال "هاسلر. أُرسل العديد من الأشخاص إلى هناك. ستكون المعسكرات بمثابة وصمة عار على الشعب الألماني على مدى السنوات الألف القادمة. إنها إرث هتلر الحقيقي".

قال بودين: "أعتقد بأنه حكم قاسٍ". وأشعل غليونه، ونفث من فمه سحابة من الدخان المعطر، وقال: "بالإستناد إلى ما قرأته، لم يكن لدى غالبية الشعب الألماني أدنى فكرة عما يجري. حتى أن السكان المحليين الذين كانوا يعيشون بالقرب من آوشفيتز اعتقدوا بأن الموقع عبارة عن منشأة لتصنيع السجق".

قالت مونيكا: "يا للفظاعة". ورمقت زوجها، وكأنها تريد أن تقول له كُفّ عن هذا الكلام. ثم التفتت إلى دوسندر، وابتسمت وقالت: "أُحبّ رائحة الغليون. ماذا عنك يا سيد دنكر؟"

"أحبها بكل تأكيد".

وفجأة مدّ بودين يده من فوق الطاولة، وربت على كتف ابنه. فقفز تود.

قال بودين: "بنيّ، أنت هادئ على نحو غير عادي، هل تشعر بتوعك؟"

رسم تود على وجهه ابتسامة بدت مقسّمة بين والده ودوسندر، وقال: "أنا بخير. لكن ألا تتذكر أننا سمعنا غالبية هذه القصص في السابق؟"

قالت مونيكا: "يا تود، من الصعب.."

قال دوسندر: "الصبي يتصرف بدون مواربة. إنها خصوصية الصغار التي غالباً ما يتعين على الكبار أن يعلّموا بها، ألا توافقني الرأي يا سيد بودين؟"

ضحك ديك وهو يومئ برأسه.

قال دوسندر: "ربما أتمكن من إقناع تود بالذهاب معي إلى منزلي الآن. وأنا متأكد من أنه يجري دراساته الخاصة".

قالت مونيكا: "تود تلميذ موهوب جداً". ولكنها تحدثت بطريقة شبه تلقائية فيما كانت تنظر إلى تود بطريقة تنمّ عن الحيرة. "كافة تقديراته تتراوح ما بين الممتاز والجيد جداً. ومع أنه حصل على تقدير جيد في مادة اللغة الفرنسية في هذا الفصل الأخير، لكنه وعدني بأنه سيرفع مستواه في اللغة الفرنسية في شهادة مارس/آذار. أليس كذلك يا عزيزي تود؟"

ابتسم تود في وجهها ابتسامة مميزة أخرى، وأومأ برأسه.

قال ديك: "لا داعي لأن تذهب ماشياً. يمكنني أن أوصلك بسيارتي".

قال دوسندر: "أرغب في المشي من أجل استنشاق الهواء النقي وممارسة الرياضة. عليّ أن أصرّ على ذلك... ما لم يكن لدى تود رأي آخر".

قال تود: "كلا، أنا أرغب في المشي أيضاً". وهنا أشرق وجه أمّه وأبيه فيما كانا ينظران إليه.

كانا يقفان في الزاوية التي يقف فيها دوسندر عندما كسر الصمت المطبق. كانت السماء تمطر رذاذاً، ففتح مظلته فوقهما. وبالرغم من ذلك، لم يكن يشعر بآلام التهاب المفاصل. كان ذلك أمراً يثير الدهشة.

قال: "أنت مثل المرض الذي أعاني منه".

قال تود: "ماذا قلت؟"

"لم يقل أي منكما الكثير هذه الليلة. ما الذي أمسك بلسانك أيها الصبي؟ الهرّة أم الغراب؟"

تمتم تود قائلاً: "لا شيء". وما لبثا أن وصلا إلى الشارع الذي يؤدي إلى منزل دوسندر.

قال دوسندر: "ربما يمكنني التخمين. عندما جئت لتصحبني، كنتَ خائفاً من احتمال أن ارتكب خطأ. ولكنك عزمت بالرغم من ذلك على أن نتناول طعام العشاء معاً لأنه لم يعد لديك أعذار تقدمها لوالديك. والآن، أنت تشعر بالحرج لأن الأمور سارت على ما يرام. أليست هذه الحقيقة؟"

قال تود: "من يبالي". وهزّ كتفيه بصمت.

سأله دوسندر: "ما هو الأمر الذي كان سيفسد الجلسة؟ أنا أمارس ألاعيب التصنّع من قبل أن تولد. لقد أبقيتَ الأمر سرّاً مدة طويلة، وأنا أعترف بذلك. وأنا ممتنّ لك كثيراً. لكن هل رأيتني الليلة؟ لقد سحرتهما. لقد سحرتهما".

صاح تود قائلاً: "لم تكن بحاجة إلى أن تقول لهما ذلك!"

وقف دوسندر، ونظر إلى تود.

"أنت تشعر بالإنزعاج من ذلك؟ اعتقدتُ بأن هذا ما كنت تريد منّي أن أقوله أيها الصبي. وهما لن يعترضا بالتأكيد على مواصلة زياراتك *وقراءتك* لي".

قال تود: "أنت تعتبر الكثير من باب المسلّمات. ربما حصلتُ على كـل مـا أريده منك. هل تظن بأنه يوجد من يجبرني على المجيء إلى بيـتك اللـتن ومـراقبتك وأنـت تـشرب الشراب مثل هؤلاء العجائز المعتوهـين الذين يتسكعون عند أرصفة القطارات؟ هل هذا ما تعتقده؟" عـلا صوت تود وبات يتحدث بنبرة هستيرية مهتزّة. "بما أنه لا يوجد مـن يجبرنـي علـى المجـيء إليك، فالأمر يعود إليّ. إذا كنت أريد المجيء، فسأفعل، وإلاّ فلا".

"أخفض صوتك. يمكن أن يسمعنا الناس".

قـال تـود: "من يبالي؟" ثم بدأ بالمشي مجدداً. وفي هذه المرّة، تعمّد المشي بعيداً عن المظلّة.

قـال دوسـندر: "كلا، لا أحد يجبرك على المجيء". ثم أطلق طلقة محسوبة في الظلام فقال: "في الواقع، أنت مرحب بك ببقائك بعيداً. صدّقني أيها الصبي، أنا لا أشعر بوخز في الضمير عندما أشرب لوحدي. لا أشعر بشيء على الإطلاق".

نظر إليه تود باحتقار وقال: "هذا ما تتمنّاه، أليس كذلك؟"

اكتفى دوسندر بالتبسم بدون تعليق.

قـال تـود: "حـسناً، لا تراهن على ذلك". وعندما وصلا إلى الممر الخرساني الذي يؤدي إلى عتبة باب منزل دوسندر، وضع دوسندر يده في جيبه ليخرج المفتاح. شعر بألم في مفاصل أصابعه، ولكنه تلاشى، بالرغم مـن أنه بقي ينتظر. والآن، اعتقد دوسندر بأنه عرف ما الذي كان ينتظره الألم لكي يعاوده: أن يعود بمفرده مرّة أخرى.

قال تود: "سأقول لك شيئاً". بدا عاجزاً عن التنفس بشكل مفاجئ. "لو عرفا بحقيقة أمرك، ولو أنني أخبرتهما بما أعرفه، لكانا بصقا في وجهك، وركلا قفاك المترهلة".

نظـر دوسـندر إلى تود عن قرب في العتمة تحت الرذاذ. بادله تود النظـرة، ولكـن بـشرته بـدت شاحبة، وبدت بشرته أسفل عينيه سوداء وغائرة؛ مثل شخص سهر طويلاً والناس نيام.

قـال دوسـندر: "أنا واثق من أنهما كانا سيكتفيان بالإشمئزاز منّي". بالرغم من أنني أعتقد بأن بودين الأكبر سنّاً ربما سيبقى مشمئزاً مدة تكفي لكي يطرح الأسئلة التي سبق أن طرحها ولده. "لا شيء سوى الإشمئزاز.

لكن كيف سيكون شعورهما حيالك أيها الصبي، إذا قلتُ لهما بأنك تعرفني منذ ثمانية شهور... ولكني لم أقل شيئاً".

حدّق به تود في الظلام من غير أن يتفوه بكلمة.

قال دوسندر باستخفاف: "تعال وزرني إذا كان ذلك يسرّك، والزم بيتك إذا كانت زيارتك لي لا تسرك. عمت مساء أيها الصبي".

مشى في الممرّ نحو الباب الأمامي، وترك تود واقفاً وهو ينظر إليه تحت الرذاذ بفم مفتوح قليلاً.

في صباح اليوم التالي، قالت مونيكا أثناء تناول وجبة الإفطار: "لقد أعجب والدك بالسيد دنكر كثيراً يا تود. قال إنه يذكّره بجدك".

تمتم تود بكلام غير مفهوم. نظرت مونيكا إلى ابنها، وتساءلت إن كان ينام جيداً. فقد بدا وجهه شاحباً. كما أن مستواه الدراسي تراجع على نحو لا يمكن تعليله، فهو لم يسبق أن حصل على تقدير جيد.

"هل أنت على ما يرام هذه الأيام يا تود؟"

نظر إليها مشدوهاً للحظة، ثم رسم ابتسامة على وجهه، وكان يريد بذلك أن يريحها، ويبعث الطمأنينة في نفسها. ظهر على خدّه القليل من أثر الطعام. قال تود: "بالتأكيد".

قالت: "أيها الصبي تود".

فأجابها: "أنا صبي مونيكا". وضحكا معاً.

9

مارس/آذار 1975

قال دوسندر: "كيتي، كيتي، بوس، بوس".

كان يجلس عند عتبة باب منزله الخلفي، وكان يوجد بالقرب من قدمه اليمنى وعاء بلاستيكي وردي اللون. كان الوعاء مليئاً بالحليب والساعة تشير إلى الواحدة والنصف من بعد الظهر في يوم حارّ وضبابي. كانت الحرائق المشتعلة في الغرب تملأ الهواء برائحة خريفية بدت غريبة في هذا الوقت من السنة. إذا كان الصبي ينوي المجيء، فسيصل في غضون ساعة من الآن. ولكن الصبي لم يعد يأتي كل يوم. وبدلاً من ذلك، بات يزوره أربع أو خمس مرّات في الأسبوع. بدأ يدرك حقيقة الأمر شيئاً فشيئاً، وكانت بداهته تقول له إن الصبي يعاني من مشكلات خاصة.

قــال دوسندر: "كيتي، كيتي". كان الهرّ الشارد في الطرف البعيد من فــناء الــدار، جالــساً بالقــرب من سياج المنزل. كان ذكراً، وكانت أذناه ترتفعان في كل مرة يتكلم فيها دوسندر، ولكن من غير أن يبعد عينيه عن الوعاء الوردي المليء بالحليب.

قــال دوســندر في نفسه، ربما كان الصبي يعاني من مصاعب في دراسته، أو ربما كانت تنتابه أحلام سيئة، أو ربما كان يعاني من الأمرين معاً. وهذا الإحتمال الأخير حمله على التبسم.

قــال بصوت ناعم: "كيتي، كيتي". ارتفعت أذنا الهرّ مجدداً، ولكنه لم يتحرك من مكانه، ليس بعد، ولكنه بقي ينظر إلى وعاء الحليب.

كــان دوسندر يعاني من مشكلات خاصة بكل تأكيد. فقد بقي مدة ثلاثة أســابيع أو أربعة وهو يرتدي بزة الأس أس عندما ينوي الذهاب إلى الفراش، كمــا لو كان يرتدي بيجاما غريبة الشكل، إذ بدا له أن البزة أبعدت عنه الأرق والكوابــيس المزعجة. في البداية، كان نومه أشبه بنوم الحطّاب. لكن الأحلام بــدأت تعــاوده شيئاً فشيئاً. وفجأة، أصبحت أسوأ مما كانت عليه في السابق، فصار يرى أحلاماً وهو يركض، وأحلاماً يرى فيها عيوناً. كان يرى في الحلم أنــه يجــري في غابة غير معروفة فيما كانت الأغصان المتشابكة والأوراق السرخــسية الرطبة تصطدم بوجهه، مخلّفة قطرات مثل رحيق النباتات... أو الدم. كان يركض، والعيون المضيئة من حوله تلاحقه دائماً إلى أن وصل إلى فــرجة في الغابة. وفي الظلام، شعر بأنه رأى منحدراً حاداً في الجانب البعيد مــن الفــرجة. وفي أعلى ذلك المنحدر يوجد الموقع باتين، بمبانيه الخرسانية المنخفــضة وساحاته المحاطة بالأسلاك الشائكة المكهربة، فيما تنتصب أبراج المراقبة فيه مثل *بوارج مارتاين الحربية في حرب العوالم*. وفي الوسط تعلو سحابة عظيمة في السماء، وفي الأسفل، توجد أعمدة من الطوب حيث الأفران مليــئة وعلــى وشــك أن تــبدأ عملها فتتوهج في الليل مثل عيون العفاريت المتوحــشة. قالوا للسكان الذين يعيشون في المنطقة بأن سجناء باتين يصنعون الثــياب والــشموع، وصدّق أبناء المحلّة تلك المقولة بالطبع. لكن لا أحد غير السكان الذين يعيشون في محيط آوشفيتز اعتقد بأن المعسكر عبارة عن منشأة لتصنيع السجق.

نظــر خلفه في الحلم فرآهم وهم يخرجون من مخابئهم، أي الموتى، الــيهود، الــذين لم تسكن أرواحهم وهم يقتربون منه فيما الأعداد المكتوبة

باللــون الأزرق تــتوهج علـــى أذرعهم الممدودة المائلة إلى الزرقة، وقد انعكفت أيديهم مثل المخالب، ولم تعد وجوههم خالية من التعبير وإنما مليئة بالكــراهية، ومفعمة بمشاعر الإنتقام والرغبة في القتل. كان الأطفال الذين تعلمــوا المــشي للتو يجرون بجانب أمهاتهم، وكان الأجداد محمولين على أكتاف الشباب. والتعبير المهيمن على كافة الوجوه كان اليأس.

اليأس؟ أجل. لأنه عرف في الأحلام بأنه إذا كان في مقدوره صعود التلّ، فسيصبح في أمان. لكن هنا في الأراضي المنخفضة الرطبة والمليئة بالمــستنقعات، في هذه الغابة حيث النباتات التي تزهر في الليل تفرز الدم بــدلاً من الرحيق، عرف بأنه ليس أكثر من حيوان مطارَد... فريسة. أما فـــي أعلـــى الـــتلّ، فإنه الشخص الذي يسيطر على الأمور. إذا كانت هذه غابـــة، فإن المعسكر في أعلى التلّ عبارة عن حديقة حيوانات تعيش فيها كافـــة الحـــيوانات البـــرّية آمنة في أقفاصها، وهو الحارس الذي يقرر من ينبغي إطعامه منها، ومن يمكنه أن يعيش، ومن ينبغي تسليمه إلى مشرّحي الحـــيوانات الحـــيّة، ومـــن ينبغي تسليمه إلى التاجر الذي سيذبحها ويبيع لحومها.

ســـيبدأ بالجري نحو أعلى التلّ، بالسرعة البطيئة التي نشعر بها في الأحلام. سيشعر في البداية بأيدي الهياكل العظمية وهي تلتفّ حول عنقه، ويـــشعر بأنفـــسها الـــباردة والكريهة، ويشمّ رائحة نتنها، ويسمع صيحات النصر التي تطلقها مثل الطيور فيما تسحبه إلى أسفل ليس فقط بعد أن كان الخلاص قريباً وحسب، بل وفي المتناول أيضاً.

قـــال دوسندر: "كيتي، كيتي. هذا هو الحليب، الحليب اللذيذ". اقترب الهـــرّ مـــنه أخيراً، فاجتاز نصف مسافة فناء الدار، ثم جلس مجدداً، ولكنه كـــان يحرك ذيله بخفّة تعبيراً عن القلق. فهو لم يكن يثق به، كلا. غير أن دوســـندر يعـــرف بأن الهرّ سيشمّ رائحة الحليب ولذلك بدا متفائلاً. سيأتي عاجلاً أو آجلاً.

فـــي باتـــين، لم تكن توجد مشكلة في التهريب. كان بعض السجناء يأتـــون بأغراضهم الثمينة في أكياس الشاموا الصغيرة (وكم مرّة تبيّن بأن تلك الأغراض لم تكن ثمينة على الإطلاق؛ صور فوتوغرافية، خصل من الـــشعر، حلـــيّ مـــزيفة). تذكر دوسندر بأنه كان في حوزة امرأة ألماسة صـــغيرة، مكـــسورة، كمـــا تبين لاحقاً، ولا قيمة لها على الإطلاق؛ ولكن

عائلتها ظلت تحتفظ بها على مدى ستة أجيال، تورثها الأمّ إلى أكبر بناتها سناً (أو هذا ما قالته، ولكنها كانت يهودية، وكل اليهود يكذبون). ابتلعتها قبل دخولها باتين. وعندما خرجت مع برازها، ابتلعتها مجدداً، وواصلت تكرار هذه العملية إلى أن بدأت الألماسة بتقطيع أحشائها وهو ما جعلها تنزف.

كانت تُستخدم حيل أخرى، بالرغم من أن غالبيتها تضمنت استخدام أشياء تافهة مثل مؤونة من التبغ أو شريط لربط الشعر. وفي الغرفة التي كان يستخدمها دوسندر في إجراء عمليات التحقيق، كانت توجد صفيحة ساخنة وطاولة مطبخ مغطاة بقطعة قماش مرقطة باللون الأحمر شديدة الشبه بتلك التي تغطي الطاولة التي في مطبخه. كان يوجد دائماً قِدر من يخنة اللحم وهي تغلي على تلك الصفيحة الساخنة. وعندما كان يُشتبه في وجود أشياء مهرّبة (ومتى لم يكن الحال كذلك؟) كان يتم إحضار فرد من المجموعة إلى تلك الغرفة. كان دوسندر يأمره بالوقوف بجانب الصفيحة الساخنة حيث يتصاعد منها بخار الطعام، ثم يسأله برفق، 'من'. من الذي يخفي ذهباً؟ من الذي يخفي حلياً؟ من الذي لديه تبغ؟ من الذي أعطى المرأة قرص الدواء لرضيعها؟ من؟ لم يكن يعِد السجين بتناول ذلك الطعام، غير أن شذاه كان يرقّق ألسنتهم في النهاية. بالطبع، كانت الهراوة الصغيرة، أو ماسورة البندقية، ستفعل الشيء نفسه، ولكن استخدام اليخنة كان بمثابة طريقة رائعة. أجل.

قال دوسندر: "كيتي، كيتي". انتصبت أذنا الهرّ، واقترب من النهوض، ثم تذكر ركلة قديمة أو ربما عود ثقاب أحرق شاربه، ولذلك عاد وجلس. ولكنه سرعان ما عاد إلى الإقتراب من جديد.

وجد طريقة لاسترضاء كوابيسه. بالمناسبة، لا يحتاج فيها سوى إلى ارتداء بزة الأس أس... ولكن بعد رفعها إلى رتبة أعلى. شعر دوسندر بالسرور من نفسه، وأسف فقط لأنه لم يفطن لهذه الطريقة من قبل. اعتقد بأنه ينبغي عليه أن يشكر الصبي لأنه وجد الطريقة التي تعيد الطمأنينة إلى نفسه، ولأنه أثبت له بأن سرّ التغلب على الرعب القديم لا يكمن في الرفض، وإنما بالتأمل بشيء مثل معانقة صديق بل وبالقيام به. صحيح أنه لم تعد تراوده أحلام مزعجة منذ فترة طويلة قبل زيارة الصبي غير المتوقعة في الصيف الماضي، ولكنه بات يعتقد بأنه توصل إلى طريقة لكي

يتـصالح مـع ماضيه. كان قد أُجبر على التخلّي عن جزء من نفسه، وقد تمكن الآن من استعادته.

قـال دوسندر: "كيتي، كيتي". وارتسمت على وجهه ابتسامة، ابتسامة لطـيفة، ابتـسامة مطمئنة، ابتسامة كافة الرجال الطاعنين في السنّ الذين تمكـنوا بطـريقة ما من اجتياز المراحل القاسية في الحياة، ووصلوا إلى مكـان آمـن، مـن غير أن يصابوا بأذى تقريباً، بعد أن اكتسبوا قليلاً من الحكمة على الأقل.

نهـض الهرّ، وتردد للحظة وجيزة أخيرة، ثم اجتاز المسافة المتبقية من فناء الدار بخطوات رشيقة. صعد درجات السلّم، ورمق دوسندر بنظرة عدم ثقة أخيرة، ثم جلس، وبدأ يشرب الحليب.

قال دوسندر: "حليب لذيذ". فيما كان يضع على يديه قفازين مطاطيين كانـت في حضنه طوال الوقت. "حليب لذيذ للهر اللطيف". كان قد اشترى القفـازين من السوبرماركت، حيث وقف في الصف السريع، فنظرت إليه امـرأة مـسنّة نظرة موافقة، وحتى تأمّل. رأى إعلاناً عن القفازات على شاشـة التلفاز. كانت عالية المرونة لدرجة أنك تستطيع التقاط قطعة نقدية صغيرة وأنت ترتديها.

بـدأ يمسح على ظهر الهرّ، ويتحدث إليه بلطف، وبدأ ظهره يتقوّس تـبعاً لحركات يده. وقبل أن يفرغ الوعاء، أمسك بالهرّ. عندئذ، بدأ ينتفض ويخـدش القفازين المطاطيين. كان جسمه يتحرك جيئة وذهاباً. لم يساور دوسـندر شـك فـي أنـه إذا تمكن من غرز أسنانه أو مخالبه في جلده، فـسيخرج من تلك المعركة فائزاً. كان رجلاً محنّكاً. قال في نفسه، يتطلّب الأمر محنكاً للتعرّف على محنّك آخر.

بإبقائـه الهرّ بعيداً عن جسمه، وبوجهه الذي ارتسمت عليه تكشيرة مؤلمة، دفع دوسندر الباب الخلفي بقدمه، ودخل المطبخ. كان الهرّ يصرخ ويـتلوّى وهـو يخدش القفازين المطاطيين إلى أن أمسك رأسه المتوحش بإبهام دوسندر.

قال له دوسندر مؤنّباً: "كيتي المشاغب". قبل أن يلقيه في الفرن الذي كـان بابه مفتوحاً. أحدثت مخالبه أصواتاً حادّة قبل أن يغلق دوسندر باب الفرن بركبته، وهو ما سبب له ألماً بسبب داء التهاب المفاصل الذي يعاني منه. كان يتنفس بصعوبة، إلى حدّ أنه كاد أن يقع مغشياً عليه. وقف بجانب

الفــرن للحظـــه ورأسه نحو الأسفل. كان فرناً يعمل بواسطة الغاز، وكان نـــادراً ما يستعمله سوى في إعداد وجبات العشاء التي كانت تعرض على شاشة التلفاز وفي قتل القطط الشريدة.

كـــان فـــي مقدوره سماعه وهو يخدش السطوح المعدنية ويموء لكي يخـــرج. رفـــع دوسندر درجة حرارة الفرن إلى ما يزيد عن 500 درجة. كـــان الهر يصرخ مثل صبي صغير، صبي يعاني من آلام مبرحة. وهذه الخاطرة جعلت دوسندر يرسم على وجهه ابتسامة عريضة. كان قلبه يخفق بشدّة، فيما كان الهرّة يخدش ويتلوّى بجنون داخل الفرن من غير أن ينقطع صراخه. وبعد وقت وجيز، بدأت رائحة الحريق تخرج من الفرن وتنتشر في المطبخ.

أخـــرج بقايا الهرّ من الفرن بعد نصف ساعة تقريباً مستخدماً شوكة معدنـــية اشـــتراها بدولارين وثمانين سنتاً من متجر يبعد عن منزله مسافة كيلومتر تقريباً.

ألقـــى بالهر المحمّص في كيس طحين فارغ، وحمل الكيس إلى القبو ذي الأرض التـــرابية. ثم عاد بعد وقت قصير. ثم بدأ يرشّ رذاذاً معطراً بـــرائحة الـــصنوبر الصناعية. فتح كافة النوافذ، وغسل الشوكة المعدنية، وعلّقها على الجدار. ثم جلس ينتظر الصبي ريثما يأتي، من غير أن تختفي الإبتسامة عن وجهه.

جـــاء تود، بعد خمس دقائق من يأس دوسندر من قدومه في فترة ما بعد الظهـــر. كان يرتدي سترة مزينة بألوان المدرسة. كما كان يعتمر قبّعة فريق سان دييغو بادريس لكرة القاعدة، وكان يضع كتبه المدرسية تحت ذراعه.

قـــال وهو يدخل المطبخ، ويفرك أنفه: "يوكا دوكا. ما هذه الرائحة؟ إنها مقززة".

قـــال دوســـندر وهو يشعل سيجارة: "استخدمت الفرن. وأخشى أنني أفسدت عشائي. ولذلك ألقيته في القمامة".

جاء الصبي في يوم آخر من ذلك الشهر في وقت أبكر من المعتاد، وقبل وقت طويل من خروج الطلاب من المدرسة. كان دوسندر يجلس في المطبخ، وهو يشرب شرابه في كوب اختفى لونه الأصلي. كان قد وضع كرسيه الهزاز في المطبخ، فجلس وبدأ يهزّ ويشرب، ويهزّ ويشرب. كان في مزاج رائع. فلم تعـــد تراوده تلك الأحلام المزعجة حتى ما قبل الليلة الأخيرة التي تلت إحراقه

الهرّ. كانت ليلة مرعبة حقاً، ولم يكن في مقدوره إنكار ذلك. رأى في الحلم أنه يُسحب بعد أن وصل إلى منتصف المسافة التي تفصله عن رأس التل، وهناك، بدؤوا يفعلون به أشياء تفوق الوصف قبل أن يستيقظ من نومه. لكنه كان واثقاً بأنه عاد، بعد أن أشبع ضرباً، إلى عالم الأشياء الحقيقية. صار في مقدوره إنهاء أحلامه متى أراد ذلك. ربما لن تكون هرّة كافية هذه المرّة. فهناك دائماً كلاب شاردة. أجل، كلاب شاردة.

دخل تود المطبخ بشكل مفاجئ. بدا وجهه شاحباً ومتوتراً. لقد خسر بعضاً من وزنه، حسب اعتقاد دوسندر. بدت عيناه غريبتين على نحو لم يرق لدوسندر على الإطلاق. قال تود بطريقة مفاجئة تنمّ عن التحدي: "عليك أن تساعدني".

قال دوسندر بهدوء: "حقاً". وخطرت بباله خاطرة مفاجئة. حرص على الإبقاء على تعابير وجهه بدون تغيير عندما رمى تود كتبه بعنف على الطاولة. سقط أحد كتبه على أرضية المطبخ بالقرب من قدم دوسندر.

قال تود: "أجل، أنت محق. من الأفضل أن تصدق ذلك لأن الذنب ذنبك". ظهرت على وجنتيه بقع الغضب الحمراء. "لكن يتوجب عليك أن تساعدني على الخروج من هذا المأزق، لأنني أتحكم بك، وأحبسك في المكان الذي أريدك أن تكون فيه".

قال دوسندر بهدوء: "سأساعدك بكل ما أستطيع". رأى أنه وضع يداً فوق اليد الأخرى أمامه من غير أن يشعر بذلك؛ كما فعل في السابق مرّة. انحنى إلى الأمام وهو جالس على كرسيّه الهزّاز إلى أن أصبحت ذقنه فوق يديه تماماً؛ كما فعل في السابق مرّة. كان وجهه هادئاً وودوداً ومتعجباً، من غير أن تظهر عليه أمارات التفكير. كان في مقدوره تخيّل وجود قدر من اليخنة باللحم على نار هادئة فوق الفرن الذي خلفه. "أخبرني عن المشكلة التي تعاني منها".

قال تود بغضب: "هذه هي مشكلتي اللعينة". وألقى بمجلد على دوسندر، فارتدّ عن صدره وسقط في حضنه. فوجئ دوسندر للحظة بحرارة الغضب التي اشتعلت في تود، وتولّد لديه دافع للنهوض وضربه بظهر يده، ولكنه حافظ على هدوئه. مشكلة الصبي هي شهادته المدرسية، بالرغم من أن المدرسة بدت مصدراً لآلام سخيفة لا تستحق أن يخفيها. وبدلاً من شهادة مدرسية، أو تقرير أداء، كانت تسمى تقرير التقدم الفصلي. أصدر صوت شخير لذلك وفتح التقرير.

سقطت ورقة مطبوعة من المجلد، فوضعها دوسندر جانباً لكي يتفحصها لاحقاً، وركّز انتباهه أولاً على علامات الصبي.

قال دوسندر من غير أن تبدو عليه آثار السعادة: "يبدو أنك وقعت على الصخور أيها الصبي". لم ينجح الصبي سوى في اللغة الإنكليزية والتاريخ الأميركي، فيما كانت سائر تقديراته على المواد الأخرى ضعيف جداً.

قال تود بنبرة حاقدة: "الذنب ليس ذنبي، بل ذنبك. وكل القصص التي تحكيها لي. تنتابني كوابيس عنها، هل تعرف ذلك؟ أنا أجلس، وأفتح كتبي، وأبدأ بالتفكير في كل شيء قلته لي، وكل ما أعرفه بعد ذلك هو أن أمّي تذكرني بأنه آن الأوان للذهاب إلى الفراش. حسناً، الذنب ليس ذنبي. هل تسمعني؟ الذنب ليس ذنبي".

قال دوسندر: "أنا أسمعك جيداً". فيما كان يقرأ ملاحظة مطبوعة أُلصقت بشهادة تود جاء فيها،

السيد والسيدة بودين،

أردنا أن نشير في هذه المذكرة إلى أننا عقدنا اجتماعاً تباحثنا فيه بشأن علامات تود في الفصلين الثاني والثالث. وعلى ضوء العمل الجيد في هذه المدرسة الذي قام به تود سابقاً، فالعلامات الحالية تشير إلى وجود مشكلة معينة ربما تؤثر في أدائه الأكاديمي بطريقة مؤذية. ومثل هذه المشكلة تُحلّ غالباً بالمناقشة الصريحة والمنفتحة.

ينبغي أن نشير إلى أنه بالرغم من أن تود اجتاز نصف العام بنجاح، فقد تؤدي علاماته النهائية إلى رسوبه في بعض الحالات ما لم يتحسن أداؤه بشكل جذري في الفصل الرابع. كما أن المواد التي يرسب فيها ستستوجب مدرسة صيفية لتجنب رسوبه والتسبب بمشكلة كبيرة في جدولة المواد العملية.

كما يتعين علينا أن نشير إلى أن تود سينتقل إلى الكلّية، وأن مستوى أدائه لغاية الآن أدنى بكثير من مستويات القبول في الكلية. كما أنه أدنى من مستوى القدرة الأكاديمية على اجتياز اختبارات 'السات' (إختبار التقييم المدرسي).

أرجو أن تطمئنوا إلى أنني بدأت العمل على تحديد وقت ملائم لكي نلتقي، وفي حالة مثل هذه، كلما كان الوقت أبكر، كلما كان أفضل.

المخلص

إدوارد فرينش

سأله دوسندر: "من يكون إدوارد فرينش؟" وهو يعيد الملاحظة إلى المجلد (كان لا يزال مندهشاً من العشق الأميركي للمصطلحات الطنّانة، لإطلاع الآباء على أن الأداء المدرسي لأبنائهم دون التوقعات). كان خوفه من وقوع كارثة أشدّ من أي وقت مضى، ولكنه رفض الإفصاح عنه. كان سيفعل ذلك قبل سنة، عندما كان على استعداد لنزول كارثة. ولكنه الآن ليس كذلك، وإن يكن ذلك الصبي الملعون قد جلب عليه كارثة على كل حال. "هل هو ناظر المدرسة؟"

"رابر إيد؟ كلا. إنه المستشار التوجيهي".

"المستشار التوجيهي؟ ماذا يعنيه ذلك؟"

قال تود: "يمكنك الإستنتاج". كان في حالة شبه هستيرية. "لقد قرأتَ الملاحظة الملعونة". وبدأ يتنقل بخطوات سريعة في الغرفة، فيما كان يصرخ ويرمق دوسندر بنظرات سريعة. "حسناً، أنا لن أسمح بحدوث ذلك، أنا لن ألتحق بأية مدرسة صيفية. لقد خططت عائلتي للسفر إلى هاواي هذا الصيف وأنا ذاهب معها". ثم أشار إلى الملاحظة التي في المجلد الملقى على الطاولة وقال: "هل تعرف ماذا سيكون ردّ فعل والدي عندما يراها؟"

هزّ دوسندر برأسه.

"سيفجر جام غضبه عليّ. سيستنتج بأنك كنت السبب لأنه لا يوجد أحد سواك، ولأن شيئاً ما لم يتغير. سيبدأ بالتقصي والتطفل وسيلقي اللوم عليّ". وحدّق في دوسندر بازدراء.

"سيبدؤون بمراقبتي. اللعنة، ربما يعرضونني على طبيب، لا أعلم. ومن أين لي أن أعلم؟ ولكنني لن ألتحق بمدرسة صيفية لعينة".

قال دوسندر بهدوء: "أو إلى الإصلاحية".

توقف تود عن الدوران في الغرفة. بدا وجهه واجماً، ووجنتاه وجبهته الشاحبة أصلاً أكثر بياضاً. حدّق في دوسندر، وكان عليه المحاولة مرتين قبل أن يمكنه الكلام. "ماذا قلت؟ ما الذي قلتَه للتو؟"

قال دوسندر بصبر: "يا عزيزي، لقد أصغيت لمدة خمس دقائق إلى تأففك وأنينك. أنت واقع في مشكلة. ربما يُفتضح أمرك. وربما تجد نفسك في ظروف غير ملائمة". لاحظ أنه حاز على الإنتباه الكامل من الصبي، وشرب شربة من كوبه.

مضى دوسندر قائلاً: "يا صغيري، هذا موقف خطير لا ينبغي أن تتبنّاه. كما أنه يشكل خطراً عليّ. فالأذى المحتملَ أشدّ وقعاً عليّ. أنت قلق بسبب شهادتك المدرسية، اللعنة على شهادتك المدرسية". ثم بدأ ينقر على الطاولة وقال: "أنا قلق على حياتي".

لم يجب تود، بل واصل النظر إلى دوسندر بعينيه الواسعتين في نظرة مجنونة.

"لن يقيم الإسرائيليون اعتباراً لحقيقة أنني في السادسة والسبعين من عمري. ولا يزال يوجد الكثير ممن يفضلون عقوبة الإعدام هناك، كما تعرف، وخصوصاً إذا كان الرجل الذي في قفص الإتهام مجرم حرب نازياً ارتبط اسمه بالمعسكرات".

قال تود: "أنت مواطن أميركي، وأميركا لن تسمح لهم بالإمساك بك. لقد قرأت عن هذا الموضوع".

"أنت تقرأ ولكنك لا تصغي. أنا لست مواطناً أميركياً. حصلت على أوراقي من لاكوزا نوسترا. وسيتم ترحيلي، وسيكون عملاء الموساد في انتظاري في أي مكان تهبط طائرتي فيه".

تمتم تود قائلاً: "أتمنى لو يشنقونك. كنت مجنوناً حين تعرفت عليك".

قال دوسندر وهو يبتسم ابتسامة رقيقة: "كلامك صحيح بدون شك. ولكنك تعرفت عليّ. ولذلك يتعين أن نعيش وقتنا الحاضر أيها الصبي، لا أن نتحسّر على أفعال كان يجدر بنا القيام بها. يتعين عليك أن تدرك بأن مصيرك مرتبط بمصيري. فإذا أقدمت على الوشاية بي، هل تعتقد بأني سأتردد في الوشاية بك؟ لقد قضى سبعمائة ألف شخص نحبهم في باتين. بالنسبة إلى العالم، أنا مجرم، ووحش، وحتى جزار. ولكنك شريك في كل ذلك يا صغيري. فأنت تعرف بشأن غريب قدم إلى البلاد بطريقة غير قانونية ولكنك لم تبلّغ عنه. وفي حال ألقي القبض عليّ، سأخبر العالم عنك. وعندما يرفع المراسلون ميكروفوناتهم في وجهي، سيكون اسمك الذي يتكرّر على لساني مرات ومرات. تود بودين، أجل هذا هو اسمه... منذ متى؟ منذ سنة تقريباً. أراد أن يعرف كل شيء، هذا ما قاله".

توقف تود عن التنفس. وبدت بشرته شفافة. ابتسم دوسندر في وجهه وتابع شرب شرابه.

"أعتقد بأنهم سيضعونك في السجن. ربما سيسمونه إصلاحية -لها اسم جميل مثل تقرير التقدم الفصلي- لكن بغض النظر عن التسمية، سيكون هناك قضبان عند النوافذ".

مسح تود شفتيه بلسانه وقال: "سأقول بأنك كاذب. سأقول لهم بأنني اكتشفت الأمر صدفة، وسيصدقونني ويكذبونك. ومن الأفضل أن تتذكر ذلك".

قال دوسندر من غير أن تختفي ابتسامته الرقيقة: "اعتقدت بأنك قلتَ لي بأن والدك سيعرف القصة منك". عاد تود إلى الحديث ببطء، كما يتحدث المرء عندما يحصل الإدراك وصياغة الكلمات في الوقت نفسه. "ربما لا. ربما ليس في هذه المرّة. لكن المسألة ليست مجرّد كسر زجاج نافذة بحجر".

أبقى دوسندر انزعاجه خفياً. فقد اشتبه في أن الصبي محق في اعتقاده؛ فالإحتمالات كثيرة، وقد يتمكن بالطبع من إقناع والده بقصته. ففي النهاية، عندما يواجه الأب بهذه الحقيقة المرّة، ما هو الأمر الذي لن يرغب في الإقتناع به؟

"ربما يصدقونك وربما لا. لكن كيف ستفسر حقيقة ما قلتَه بأنك تقرأ الكتب لي لأن السيد دنكر المسكين شبه أعمى؟ صحيح أن عيني لم تعودا كما كانتا في السابق، ولكن لا يزال في مقدوري قراءة الخطوط الصغيرة بواسطة نظارتي. وفي إمكاني إثبات ذلك".

"سأقول بأنك خدعتني".

"هل ستقول ذلك؟ وما هو السبب الذي ستقول بأنني خدعتك من أجله؟"

"بسبب... بسبب الصداقة. لأنك كنت تعيش وحيداً".

قال دوسندر في نفسه بأن هذا التبرير أقرب ما يكون إلى الحقيقة. سنحت للصبي الفرصة لكي يكشف الحقيقة، ولكنه ممزق أشلاء الآن، مثل معطف بَلي من كثرة الإستعمال. ولو أن طفلاً ألقى مفرقعة في الشارع، فسيقفز هذا الصبي في الهواء ويصرخ كما تصرخ الفتاة.

أضاف دوسندر: "كما أن شهادتك المدرسية ستدعم روايتي. لم تكن قصة روبنسون كروزو التي جعلت علاماتك تتراجع على هذا المستوى المخيف يا صغيري، أليس كذلك؟"

"اخرس، لِمَ لا تبقي فمك مغلقاً؟"

قـــال دوســـندر: "كلا. لن أسكت على هذا الأمر". وأشعل عود ثقاب بحكـــه بـــباب الفـــرن، وأشعل سيجارة، وقال: "لن أسكت حتى أوضح لك الحقيقة البسيطة. إننا معاً في هذا الأمر، إما أن نغرق أو نسبح". ونظر إلى تـــود من خلال سحابة الدخان من غير أن يبتسم وأضاف: "سأغرقك معي أيهـــا الـــصبي. وأنـــا أعدك بذلك. وفي حال كشفت الأمر عن أي شيء، فسأفضح كل شيء. هذا هو وعدي لك".

حدّق به تود بوجه مكفهرّ لكن من غير أن يقول شيئاً.

قـــال دوسندر بهدوء رجل وضع خلفه كل الذكريات البغيض: "والسؤال الآن هو ماذا سنفعل حيال هذا الوضع؟ هل توجد لديك أية أفكار؟"

أخـــرج تـــود قارورة جديدة تحتوي على حبر ماحٍ من جيب سترته وقال: "ستصحح هذه شهادتي المدرسية. وفيما يتعلق بتلك الرسالة الملعونة، لا أدري ماذا عليّ أن أفعل".

نظـــر تـــود إلى القارورة نظرة تنمّ عن الموافقة، فهو سبق أن زوّر شهاداته في سنوات مجده، عندما بلغت حصته من السرقات مستوى خيالياً. كان يزوّر الفواتير التي تعدد غنائم الحرب، وكان يتحقق في كل أسبوع من الصناديق التي تحتوي على أشياء ثمينة، والتي كانت تُرسل إلى برلين في القطـــار فـــي عـــربات خاصة أشبه ما تكون بخزانات ضخمة تسير على عجـــلات. كان يتم إلصاق مغلف بكل من تلك الصناديق يحتوي على بيان مـــصدق بمـــا يـــوجد فيه من محتويات. عدد كبير من الخواتم، والعقود، والقلائـــد الـــضيقة، وكميات كبيرة من الذهب. لكن كان لدوسندر صندوق خاص من الأغراض الثمينة؛ لم تكن ثمينة جداً، ولكنها لم تكن تافهة أيضاً. كـــان يحتوي على أحجار كريمة، والتورمالين، والعقيق، والقليل من اللؤلؤ المـــشوّه، والألمـــاس الصناعي. وعندما يرى شيئاً مرسَلاً إلى برلين يبدو اســـتثماراً جـــيداً، يقوم باستبداله بشيء آخر من صندوقه، ويستخدم الحبر الماحي في تعديل البيان. وأصبح بذلك خبيراً في التزوير... موهبة قُدّر له أن يستفيد منها أكثر من مرّة بعد انتهاء الحرب.

قال لتود: "هذا جيد في ما يتعلق بالشهادة المدرسية".

بـــدأ دوسندر يهز كرسيه مجدداً فيما كان يشرب مشروبه. حمل تود كرســـياً، ووضـــعه بجانـــب الطاولة، وبدأ بإدخال التعديلات على شهادته

المدرسية بعد أن التقطها من الأرضية من غير أن يتفوه بكلمة. لقد كان لهدوء دوسندر الظاهري أثره فيه بحيث بدأ يعمل بصمت ورأسه منحنٍ على الشهادة مثل أي صبي أميركي يريد القيام بعمله بإتقان، مثل بذر حبوب الذرة، أو تحقيق الفوز في دوري كرة القاعدة، أو تزوير علاماته المدرسية.

نظر دوسندر إلى مؤخرة عنق تود، التي بدا عليها الإسمرار قليلاً بين نهاية شعره وأعلى قميصه. بعد ذلك، تحولت عيناه نحو درج المنضدة حيث توجد مجموعة سكاكين المطبخ. بحركة واحدة سريعة، يمكنه أن يقطع النخاع الشوكي، وبذلك يسكت فمه إلى الأبد. ابتسم دوسندر على نحو ينمّ عن الأسف. فهناك أسئلة ستُثار حال اختفاء الصبي. وحتى وإن لم يكن قد استودع رسالة لدى صديقه، فهو غير قادر على تحمّل إجراء تحقيق دقيق. الوضع سيئ للغاية.

قال وهو ينقر على الرسالة: "هذا الرجل الذي يُدعى فرينش، هل يعرف والديك خارج إطار المدرسة؟"

قال تود على نحو يوحي بالإحتقار: "فرينش؟ لا يفكر والداي في الذهاب إلى أي مكان يمكن أن تصله قدماه".

"هل سبق أن التقى بوالديك بصفته المهنية؟ وهل سبق أن اجتمع بهما من قبل؟"

"كلا، فأنا غالباً ما أكون الأول في صفي، لكنّ الوضع اختلف الآن".

قال دوسندر وهو ينظر إلى كوبه الذي أصبح فارغاً تقريباً: "إذن، ما الذي يعرفه عنهما؟ إنه يعرف عنك الكثير. وهو يملك بالتأكيد كافة شهاداتك وفي إمكانه استخدامها بدءاً من المشاجرات التي كنت تتورط فيها في ملعب الحضانة. لكن ما الذي يعرفه عن والديك؟"

وضع تود قلمه وقارورة الحبر الماحي جانباً وقال: "حسناً، إنه يعرف اسميهما بالطبع وعمريهما. وهو يعرف بأننا جميعاً من الميثوديين. صحيح أنك لست مضطراً إلى ذكر ذلك في الإستمارات، ولكن رفاقي يشيرون إلى ذلك في استماراتهم دائماً. نحن لا نرتاد دور العبادة كثيراً، ولكننا نعرف إلى أي طائفة ننتمي. ولا بدّ وأنه يعرف المهنة التي يعمل فيها أبي، وهي مذكورة في الإستمارات أيضاً. وينبغي عليهما ذكر تلك المعلومات في الإستمارات كل عام. وأنا متأكد من ذلك تماماً".

"هل يمكنه أن يعرف إن كانت تقع مشاجرات بين والديك في المنزل؟"

"ما الذي تعنيه بهذا السؤال؟"

شرب دوسندر آخر جرعة من كوبه وقال: "مشاجرات، عراك، قضاء والدك ليلته على الأريكة، وإكثار أمك من الشراب، الحديث عن الطلاق".

قال تود بتذمّر: "لا تحدث أمور مثل هذه على الإطلاق".

"أنا لم أقل بأن هذا ما يحدث بينهما. ولكنني أقوم بعملية تفكير وحسب. لنفترض أن الأمور سارت بشكل سيئ".

اكتفى تود بالنظر إليه بوجه عابس.

أضاف دوسندر: "ستشعر بالقلق عليهما. ستكون في غاية القلق، وستفقد شهيتك، ويصبح نومك متقطعاً. والأسوأ من ذلك أن أداءك المدرسي سيتراجع. أليس كذلك؟ هذا أمر مؤسف بالنسبة إلى الولد عندما تكون الأجواء في منزله مشحونة بالمشكلات".

بدأ الصبي يفهم ما كان العجوز يرمي إليه، وهذا ما بعث السرور في نفس الأخير.

"أجل، إنه لوضع مؤسف أن تترنّح عائلته وهي على شفير الهاوية". ذكر دوسندر العبارة الأخيرة بنبرة عالية وهو يملأ كوباً ثانياً من الشراب. كان الثمل بادياً عليه. "توضح المسلسلات التلفزيونية النهارية الدرامية هذه الحقيقة. إنها مليئة بالمشاهد التي تحكي عن الجفاء، والغيبة بين الناس. والأسوأ من ذلك أنها تصوّر الألم، الألم يا صغيري. وأنت لا تعرف الظروف التي يمرّ فيها والداك. إنهما غارقان في المشكلات لدرجة أنه لا يتوفر لهما الكثير من الوقت لحلّ مشكلات ابنهما. كما أن مشكلاته تبدو تافهة بالمقارنة مع مشكلاتهما، أليس كذلك؟ يوماً ما، بعد أن تلتئم الجروح، ما من شك في أنهما سيتفرّغان لحل مشكلاتك. لكن التنازل الوحيد الذي يمكنهما تقديمه هو إرسال جدّ الصبي لكي يجتمع بالسيد فرينش".

توهجت عينا تود، وقال: "ربما تكون فكرة صائبة، ربما. أجل ربما تنجح.." ثم انتفض فجأة، وقال: "كلا، لن يكون نصيبها النجاح، فأنت لا تشبهني، وراير إيد لن يصدق ذلك".

نهض دوسندر من مقعده، ومشى في المطبخ (وهو يترنح بعض الشيء) وفتح باب القبو، وتناول قارورة من الشراب. ثم انتزع غطاءها،

ومـــلأ كـــوبه، وقال: "من المؤسف أن يقول صبي ذكي مثلك هذا الكلام. فمتـــى كان الأجداد يشبهون أحفادهم؟ أجبني. أنا أبيض الشعر، فهل يوجد في رأسك شعرة بيضاء؟"

اقترب من الطاولة بسرعة مدهشة، وأمسك بشعر تود الأشقر.

صاح تود: "توقف عن ذلك". ولكنه عاد وابتسم.

أضـــاف دوسندر بعد أن عاد وجلس في كرسيه الهزّاز: "إلى جانب ذلـــك، أنت أشقر الشعر وأزرق العينين. وأنا أزرق العينين، وكان شعري أشـــقر اللون قبل أن يغزوه الشيب. في مقدورك إخباري عن قصةِ عائلتك بكاملهـــا، عن عمّاتك وخالاتك، وعن الأشخاص الذين يعمل معهم والدك، وعـــن الهـــوايات التـــي تحبها والدتك. وأنا سأحفظ كل ذلك. وبعد يومين، سأنـــسى كل شيء، فذاكرتي باتت في هذه الأيام مثل كيس من قماش مليء بالمـــاء، ولكنني سأتذكر ما تقول مدة كافية". ثم ابتسم ابتسامة قاسية وقال: "في أيام شبابي، كنت أسبق ويزنثال وأسحب البساط من تحت رِجلي هملر نفـــسه. وإذا كنت لا أستطيع خداع معلّم في مدرسة أهلية أميركية، فسألفّ نفسي بقطعة من القماش وأزحف نحو قبري".

قـــال تود: "ربما". لكن دوسندر لاحظ أن تود وافق على الفكرة، بعد أن بـــدت آثار الارتياح على عينيه. بدأ دوسندر يضحك، فيما كان كرسيه الهـــزاز يتحـــرّك إلى الأمام وإلى الخلف. نظر تود إليه وقد انتابه شعور بالحيرة والقليل من الخوف، ولكن بعد فترة وجيزة، بدأ هو أيضاً بالضحك. اســـتمرّا فـــي الضحك في مطبخ دوسندر بالقرب من النافذة المفتوحة التي كـــان يدخل منها نسيم كاليفورنيا الدافئ، فيما أمال تود كرسيه بحيث بات منتـــصباً علـــى رِجلـــيه الخلفيتين وظهره مستنداً إلى باب الفرن الذي لمع إطاره المطلي بالميناء مع إشعال دوسندر عود الثقاب.

كان رابر إيد فرينش (قال تود لدوسندر بأن الطلاب أطلقوا عليه اسم رابـــر لأنـــه يرتدي دائماً خفاً من المطاط فوق حذائه في الأيام الممطرة) رجـــلاً نحـــيل الجسم يحرص على ارتداء كنزة عند ذهابه إلى المدرسة. وكانت تلك لمسة أراد بها الابتعاد عن الشكليات معتقداً بأن ذلك سيقرّبه من تلامـــذة المدرســـة المـــسؤول عنهم والذين يبلغ عددهم مائة وستة تلاميذ تتـــراوح أعمـــارهم ما بين اثني عشر عاماً وأربعة عشر عاماً. وهو يملك خمـــسة أنواع من الكنزات التي تتراوح ألوانها بين الأزرق والأصفر، من

دون أن يدري بأنه لا يُعرف برابر إيد وحسب، بل وبرجل الكنزات أيضاً. كما كان يُسمى أيام الجامعة بوكر، وكان يشعر بكثير من الإذلال عندما يعرف بأن تلك الحقيقة باتت معروفة.

نادراً ما كان يرتدي ربطات للعنق إذ إنه كان يفضل ارتداء كنزات ذات ياقة عالية. وهو يرتدي هذا النوع من الكنزات منذ منتصف الستينيات، عندما روّج لهـا ديفيد ماكالوم في *ذي مان فروم أنكل*. عندما كان في الجامعة، كان رفاقه يقولون: "ها قد أتى بوكر مرتدياً كنزة أنكل". درس علم النفس التعليمي، وكان يعتبر نفسه المستشار التوجيهي الوحيد الجيد. كان على علاقة جيدة بتلاميذه، وكان يدخل في حوار صريح معهم وكان يتعاطف معهم إذا علا صراخهم. وكان في مقدوره حلّ مشكلاتهم لأنه أدرك ما تعنيه معاناة تلميذ في الثالثة عشرة من عمره من مشكلات تجعله غير قادر على جمع شتات أمره.

المشكلة هي أنه كان يعاني من صعوبة في تذكّر كيف كان حاله عندما كان في الثالثة عشرة من عمره. وقد افترض بأن تلك المشكلات هي الثمن الأقصى الذي يتوجب دفعه على من ترعرع في الخمسينيات، وهو الدخول في عالم الستينيات الجديد ملقباً ببوكر.

الآن، بعد أن قدم جدّ تود بودين إلى مكتب بوكر، وأغلق الباب الزجاجي خلفه. وقف رابر إيد باحترام، ولكنه حرص على ألاّ يستدير حول مكتبه كي يرحّب بالرجل العجوز. كما أنه لم ينسَ أنه ينتعل حذاء رياضياً. فهناك بعض المسنّين الذين لا يفهمون أن الأحذية الرياضية أداة نفسية مساعدة للتلاميذ الذين يعانون من مشكلات مع معلّميهم؛ وهو ما يمكن تفسيره بأن بعض الكبار لا يمكنهم الإستغناء عن المستشار التوجيهي.

قال رابر إيد في نفسه، هذا رجل متأنّق في ثيابه حرص على تسريح شعره الأبيض إلى الخلف، وبزته المؤلفة من ثلاث قطع نظيفة تماماً، وربطة عنقه الرمادية معقودة بدون خطأ. كان يحمل بيده اليسرى مظلة سوداء مطوية (كان الرذاذ الخفيف يهطل في الخارج منذ عطلة نهاية الأسبوع) بطريقة شبه عسكرية.

قال بطريقة تنمّ عن الإحترام بعد أن مدّ يده: "سيد بودين".

قال بودين وهو يصافحه: "تشرفنا". كان رابر إيد حريصاً على عدم الضغط بقوة على أيدي الآباء الذين يزورونه، وتبين له أن العجوز يعاني من داء التهاب المفاصل.

كرر بودين القول: "تشرفنا". وجلس على مقعد، بعد أن رفع سرواله بسحبه إلى الأعلى قليلاً من فوق الركبتين. ثم وضع مظلته بين قدميه واتكأ عليها. بدا أشبه بنسر مسنّ دمث الأخلاق حطّ في مكتب رابر إيد فرينش. اعـتقد إيد بأنه يتحدث بلكنة معينة، ولكنها لم تكن النغمة المرخّمة للطبقة الإنكليـزية الراقية، بل كانت أعرض وأشبه باللكنات الأوروبية. على كل حال، بدا شبيهه بتود قوياً بشكل ملفت، وخصوصاً في الأنف والعينين.

قال رابر إيد بعد أن عاد إلى مقعده: "أنا مسرور لمجيئك، بالرغم من أنه في مثل هذه الحالات، عادة ما تأتي الوالدة أو الوالد."

كانت تلك المغامرة الإفتتاحية بالطبع. لقد علمته السنوات العشر التي قـضاها فـي العمل الإستشاري أنه عندما يأتي العم أو العمة أو الجد إلى الإجتماع، فهذا يعني في العادة أنه توجد مشكلات عائلية؛ وهي المشكلات التي يتبين فيما بعد أنها سبب المشكلة التي يعاني منها التلميذ. بالنسبة إلى رابـر إيـد، كان ذلك باعثاً على الإرتياح. صحيح أن المشكلات المنزلية سـيئة، لكـن بالنـسبة إلى صبي ذكي مثل تود، لا بدّ وأن تجربة تعاطي المخدرات كانت ستلحق ضرراً أكبر.

قـال بـودين محاولاً أن يبدو حزيناً وغاضباً في الوقت نفسه: "أجل بالطـبع. طلـب إليّ ابني وزوجته أن آتي لزيارتك لكي أناقش تلك النتائج المحـزنة معـك يـا سيد فرينش. إن تود صبي رائع، صدقني. والمشكلة المرتبطة بعلاماته المدرسية مشكلة عابرة".

"حـسناً، نأمـل بأن يكون الحال كذلك يا سيد بودين. يمكنك التدخين إذا شئت. من المفترض أن التدخين ممنوع داخل المدرسة، ولكنني لن أخبر أحداً".

"شكراً لك".

أخـرج الـسيد بـودين علبة سجائر من جيبه الداخلي، وأشعل عود الـثقاب بنعل حذائه الأسود. سعل مثلما يسعل رجل طاعن في السنّ عندما يستنشق الدخان لأول مرّة، وأطفأ العود، ووضعه في المنفضة. راقبه رابر إيد وهو يقوم بتلك الطقوس التي بدت رسمية مثل حذاء الرجل العجوز مع ما فيها من سحر واضح.

قال بودين بوجه حزين: "من أين نبدأ؟"

أجـاب رابر إيد بلطف: "حسناً، أستطيع التكهن من وجودك هنا نيابة عن أبوي تيد بأن هناك مشكلة ما كما تعرف".

"أجل، أعتقد بأن الأمر كما تقول. حسناً". ثم اعتدل في جلسته، ورفع ذقنه. رأى رابر إيد في ذلك مسحة بروسية في تكنيّه الذهني، وهو أمر جعله يستحضر كافة ما شاهده من أفلام سينمائية تحكي عن الحرب عندما كان طفلاً.

قال بودين: "يعاني ولدي وزوجته من مشكلات عائلية، بل من مشكلات جدّية في الواقع". كانت عيناه تنظران إلى رابر إيد فيما كان يفتح المجلد الموجود أمامه على سطح المكتب. كان يوجد في المجلّد مجموعة أوراق ولكنها لم تكن كثيرة.

"وأنت تعتقد بأن تلك المشكلات تؤثر في الأداء الأكاديمي لتود؟"

انحنى بودي إلى الأمام ربما مسافة خمسة عشر سنتيمتراً من غير أن يرفع عينيه الزرقاوين عن عيني رابر إيد البنيتين. ساد صمت ثقيل، ثم قال بودين: "الأم مدمنة على الشرب". ثم اعتدل في جلسته.

قال رابر إيد: "فهمت".

أجاب بودين وهو يومئ برأسه بقوة: "أجل. قال لي الصبي بأنه عاد إلى المنزل في مناسبتين ووجدها وقد وضعت رأسها على طاولة المطبخ. إنه يعرف كيفية شعور أبيه حيال مشكلة الإدمان التي تعاني منها أمه، ولذلك وضع عشاءه في الفرن بنفسه في تلك المناسبتين، وأقنعها بشرب ما يكفي من القهوة لكي تستقبل ريتشارد عندما يعود إلى المنزل وهي صاحية".

قال رابر إيد: "هذا أمر سيئ". بالرغم من أنه سمع قصصاً أسوأ بكثير؛ مثل أمهات مدمنات على الهيروين، أو آباء يضربون بناتهم أو أبنائهم. "هل فكرت السيدة بودين في طلب مساعدة من مختص لحلّ مشكلتها؟"

"حاول الصبي إقناعها بأن ذلك هو المسار الأفضل. ولكنها تشعر بخجل شديد فيما أعتقد. لو أنها مُنحت قدراً قليلاً من الوقت..." أومأ بسيجارته بطريقة صنع فيها حلقة من الدخان في الهواء وقال: "أنت تفهم الوضع".

أومأ رابر إيد برأسه، بعد أن أعجب بتلك الإيماءة التي أحدثت تلك الحلقة الدخانية وقال: "أجل بالطبع. إن ابنك... أعني والد تود..."

قال بودين بنبرة قاسية: "ليس بمنأى عن اللوم، فساعات العمل الطويلة، ووجبات الطعام التي لا يتناولها مع العائلة، والأمسيات التي

يُضطرّ فيها إلى مغادرة المنزل فجأة... سأقول لك أمراً يا سيد فرينش، وهو أنه ولدي متزوج من عمله أكثر مما هو متزوج من مونيكا. لقد تربّيت على الإيمان بأن عائلة الرجل تأتي قبل أي شيء آخر. ألا تؤمن بالمبدأ نفسه؟"

أجاب رابر إيد: "بلى". كان والده يعمل حارساً ليلياً في متجر ضخم في لوس أنجلوس وكان لا يراه سوى في أيام عطل نهاية الأسبوع وفي الإجازات الرسمية.

قال بودين: "هذا هو الجانب الآخر للمشكلة".

أومأ رابر إيد برأسه، وفكر للحظة، ثم قال: "وماذا عن ولدك الآخر يا سيد بودين؟" ونظر إلى المجلد وأضاف: "هارولد، عمّ تود".

أجاب بودين بنبرة صادقة: "هاري وديبوراه يقيمان في مينيسوتا الآن. إنه يعمل في كلّية الطبّ. وسيكون الأمر صعباً عليه أن يأتي إلى هنا، ولن يكون من الإنصاف أن أطلب منه فعل ذلك. إن هاري وزوجته يعيشان حياة زوجية سعيدة".

نظر رابر إيد إلى الملف مجدداً للحظة ثم طواه وقال: "فهمت. أنا أقدّر صراحتك يا سيد بودين، وسأكون صريحاً مثلك تماماً".

قال بودين: "شكراً لك".

"لا يمكننا تقديم الكثير لطلابنا في مجال الإستشارات بالقدر الذي نحبّ. يوجد في هذه المدرسة ستة مستشارين، وكل منا مسؤول عن أكثر من مئة طالب. وزميلي الذي بدأ العمل هنا مؤخراً، هيبورن، مسؤول عن مئة وخمسة عشر طالباً. في هذه المرحلة العمرية، وفي هذا المجتمع، كافة الطلاب بحاجة إلى مساعدة".

أطفأ بودين سيجارته بقوة في المنفضة وقال: "بالطبع".

"تواجه مشكلات خطيرة في بعض الأحيان. لكن البيئة المنزلية وتعاطي المخدرات هما المشكلتان الأكثر شيوعاً. لكن تود لا يتعاطى المخدرات أو الكحول أو عقاقير الهلوسة".

"لا قدّر الله".

مضى رابر إيد في كلامه فقال: "في بعض الأحيان، لا يوجد شيء يمكن أن نفعله. وهذا أمر يدعو إلى الإحباط، ولكنه من حقائق الحياة. وعادة ما نتعامل مع مثيري الشغب في الصف، والأولاد المتجهمين،

والكتومـــين، والأولاد الذين يرفضون التجربة. إنهم في الواقع أجسام دافئة تنتظر من النظام المعمول به هنا التشجيع من خلال العلامات، أو الإنتظار فترة طويلة ريثما يمكنهم ترك المدرسة بدون إذن ذويهم والإلتحاق بالجيش أو الحـــصول على وظيفة أو الزواج من عشيقة. أنت تفهمني بالطبع؟ ربما كنت فظاً في كلامي، ولكن هذه هي طريقة العمل هنا".

"أنا أقدّر صراحتك".

"لكن الأمر محزن عندما ترى هذه الماكينة وهي تحطم ولداً مثل تود. كـــان متوسط علاماته اثنين وتسعين في العام الماضي، وهو ما يضعه عند مـــستوى خمـــسة وتـــسعين في المائة وفقاً للمقياس هنا. حتى أن متوسط علاماتـــه فـــي اللغة الإنكليزية أعلى من ذلك. وهو يظهر استعداداً فطرياً للكـــتابة، وهـــذا أمر مميز في جيل من الأطفال يعتقد بأن الثقافة تبدأ أمام شاشـــة الـــتلفاز وتنتهـــي في صالة السينما في الحيّ المجاور. تحدثت إلى المعلمة التي كانت تدرّس مادة الإنشاء في السنة الماضية. قالت إن تود قدّم أروع موضوع رأته طوال عشرين سنة أمضتها في التعليم. كان الموضوع عـــن معسكرات الإبادة الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية. وقد أعطته تقديـــر ممتاز، وهي المرّة الوحيدة التي أعطت فيها هذا التقدير لطالب في مادّة الإنشاء".

قال بودين: "لقد قرأته. إنه موضوع رائع".

"كمـــا أنـــه أظهـــر مقـــدرة غير عادية في العلوم الطبيعية والعلوم الإجتماعـــية؛ ومع أنه لن يكون أحد عباقرة الرياضيات في هذا القرن، فإن المذكرات كافة أشارت إلى امتلاكه قدرات جامعية... حتى هذا العام. هذه هي القصة بمجملها بإيجاز".

"أجل".

"أنـــا أكـــره أن أرى مـــستوى تود وهو يتراجع بهذه الطريقة يا سيد بودين. والمدرسة الصيفية... حسناً، غالباً ما تؤذي صبياً مثل تود أكثر مما تـــنفعه. فحلقـــة الدراسة الثانوية الصيفية أشبه ما تكون بحديقة للحيوانات، علـــى اعتـــبار أنه يوجد فيها كافة القرود والضباع الضاحكة، إضافة إلى مجموعة متممة كاملة من طيور الدودو. عشرة سيئة بالنسبة إلى صبي مثل تود".

"بالتأكيد".

"إذن، دعـــنا نــستخلص النــتائج النهائية. أنا أقترح عقد سلسلة من اللقـــاءات مـــع السيد والسيدة بودين في المركز الإستشاري بوسط المدينة. ســتكون المحادثات سرّية بالطبع. إن الرجل المسؤول هناك، واسمه هاري أكرمان، صديق طيب. وأنا لا أعتقد بأنه ينبغي على تود أن يطلعهما على الفكرة، ولكن أنت من ينبغي عليه أن يفعل ذلك". ثم ابتسم رابر إيد ابتسامة عريــضة وقـــال: "ربمـــا يمكنـــنا إعادة الأمور إلى نصابها بحلول شهر يونيو/حزيران، فالأمر ليس مستحيلاً".

ولكــن بــودين شعر بالخطر من تلك الفكرة فقال: "أعتقد بأنه ربما سيــستاءان من الصبي إن أنا نقلت ذلك الإقتراح الآن. فالوضع دقيق. وقد وعدنـــي الصبي بأنه سيبذل أقصى ما في وسعه في دراسته، وهو متخوف جداً من هذا التراجع الكبير في علاماته". ثم ابتسم ابتسامة رقيقة لم يستطع رابر إيد أن يجد تفسيراً لها وقال: "إنه متخوف أكثر منك".

"ولكن.."

تابـــع بـــودين حديـــثه بسرعة: "كما أنهما سيشعران بالإستياء منّي. فمونيكا ترى أنني شخص فضولي أصلاً. أنا أحاول ألاّ أكون كذلك، ولكنك تـــرى مـــا وصل إليه الحال. إنني أعتقد بأنه من الأفضل أن نترك الأمور على حالها... في الوقت الحالي".

قـــال رابـــر إيـــد لبودين: "أنا أملك خبرة واسعة في هذه المسائل". ووضـــع يديه على ملف تود، ونظر إلى الرجل العجوز نظرة جدّية وقال: "أعـــتقد بـــأن طلب المشورة هو الأمر المتعارف عليه هنا. أنت تفهم بأن اهتمامـــي بالمشكلات الزوجية التي يعاني منها ولدك وزوجته تبدأ وتنتهي بالتأثيـــر الـــذي نراه في تود... وفي الوقت الحالي، أرى أنها خلّفت تأثيراً كبيراً".

قـــال بـــودين: "اسمح لي بالتقدم باقتراح آخر. لديكم كما أعتقد نظام لتحذير الآباء من الأداء الضعيف لأولادهم".

أجـــاب رابـــر إيد بحذر: "أجل. إنها شهادات تفسير التقدم. والأولاد بالطـــبع يسمّونها شهادات الفشل، لأنهم يحصلون عليها فقط في حال تدنّت علامـــاتهم إلـــى ما دون الثمانية والسبعين. وبعبارة أخرى، إننا نعمد إلى إصـــدار شـــهادات تفسير التقدم للأولاد الذين حصلوا على تقدير مقبول أو ضعيف في مادّة معينة".

قـال بـودين: "هـذا أمر جيد. إذن ما أقترحه هو التالي: إذا حصل الـصبي علـى واحـدة من تلك الشهادات... ولو واحدة -ورفع السبابة- فـسأتحدث إلى ولدي وزوجته عن ضرورة التشاور معك. في حال حصل الصبي على إحدى شهادات الفشل في أبريل/نيسان.."

"نحن نصدر هذه الشهادات في مايو/أيار".

"أجل، في حال حصل على واحدة في ذلك الوقت، فأنا أضمن قبولهما باقتـراح طلـب الإستـشارة. إنهما قلقان على صغيرهما يا سيد فرينش، ولكنهما غارقان في مشكلاتهما لدرجة أنهما..."

"فهمت".

"إذن، دعـنا نمـنحهما الوقت الكافي لكي يتمكنا من حل مشكلاتهما، فعلـى المـرء أن يخلّص نفسه بنفسه... هذه هي الطريقة الأميركية، أليس كذلك؟"

أجـاب رابـر إيد بعد لحظة أمضاها في التفكير: "أجل، أعتقد ذلك". وبعد أن ألقى نظرة سريعة على ساعته، والتي أشارت إلى موعد آخر بعد خمس دقائق قال: "سأوافق على ذلك".

نهـض، ونهـض بـودين معه. ثم تصافحا مجدداً، وكان رابر إيد حريـصاً علـى عـدم الضغط على يد العجوز الذي يعاني من التهاب في المفاصل.

"لكن يجدر بي أن أقول لك بأن هناك عدداً ضئيلاً من الطلاب الذين يمكنهم عكس اتجاه الهبوط الذي استمرّ مدة ثمانية أسابيع في غضون أربعة أسابيع من الدراسة فقط. فهناك مقدار كبير من العمل الذي ينبغي القيام به. وأنا أشك في صوابية اقتراحك يا سيد بودين".

رسم بودين على وجهه ابتسامة رقيقة أخرى وقال: "حقاً؟"

كـان هناك أمر أثار قلق رابر إيد في أثناء تلك المقابلة، وقد توصل إلـى تحديـده أثناء تناوله طعام الغداء في الكافتيريا، بعد مرور أكثر من ساعة على مغادرة العجوز وهو يضع مظلته تحت إبطه. فقد تحاور مع جدّ تـود لمدة خمس عشرة دقيقة على الأقل، من غير أن يشير الرجل العجوز إلى حفيده بالإسم.

وصل تود إلى الممر المؤدي إلى منزل دوسندر وهو يلهث، ثم أوقف درّاجـته. كانـت المدرسة قد سمحت للطلاب بالمغادرة قبل خمس عشرة

دقيقة فقط. صعد الدرجات الأمامية في قفزة واحدة، واستخدم مفتاح الباب، ودخل الردهة مسرعاً، وتوجه نحو المطبخ الذي كان مضاءً بأشعة الشمس. كـــان وجهـــه مزيجاً من الإشراقات المتفائلة والسحب المكفهرّة. وقف عند بـــاب المطبخ للحظة وهو يراقب دوسندر الجالس على كرسيه الهزاز وفي يده كوب من الشراب. كان لا يزال بأبهى حلّة، بالرغم من أنه أنزل عقدة ربطة العنق عدة سنتيمترات، ونزع الزرّ الأعلى في قميصه. نظر العجوز إلى تود نظرة خالية من أي تعبير.

وأخير قال تود: "إذن؟"

تـــركه دوســـندر متحيراً بضع لحظات أخرى بدت بالنسبة إلى تود عـــشر سنين، ثم وضع كوبه على الطاولة بالقرب من الزجاجة وقال: "لقد صدّق الأبله كل ما قلته له".

تـــنفس تود الصعداء. لكن قبل أن يأخذ نفساً آخر، أضاف دوسندر: "أراد مـــن والديك الغارقَين في المشكلات أن يحضرا جلسات تشاورية مع أحد أصدقائه في المدينة. وكان مصرّاً على ذلك".

"يا الله، هل... ماذا فعلت؟ وكيف تعاملت مع هذا الإقتراح؟"

أجاب دوسندر: "فكرت بسرعة، مثل الفتاة الصغيرة في قصة ساكي. إن الإختراع العاجل لأحد مواطن القوة لديّ. وقد وعدته بأن يحضر والداك تلك الجلسات في حال حصلت ولو على شهادة فشل واحدة في مايو/أيار".

إمتلأ وجه تود بالدم.

قال بنبرة أقرب ما تكون إلى الصراخ: "ماذا فعلت؟ سبق أن رسبتُ في امتحانين في مادة الجبر وفي امتحان في مادة التاريخ منذ أن بدأت فترة المراقبة". دخل الغرفة وهو شاحب الوجه الآن فيما كان يتصبب عرقاً. "لقد خضعت لامتحان في اللغة الفرنسية، ورسبت فيه أيضاً... أنا أعرف ذلك. وكل ما يمكنني التفكير فيه هو رابر إيد وما إذا تمكنت من تدبّر أمره. لقد تدبرتَ أمره، أليس كذلك". وأنهى كلامه بمرارة قائلاً: "من غير أن أحصل ولـــو علـــى شهادة فشل واحدة؟ على الأرجح سأحصل على خمس أو ستّ شهادات".

قـــال دوسندر: "كان ذلك أفضل ما أمكنني القيام به من غير أن أثير الـــشكوك. فهـــذا الفرينش، بالرغم من حماقته، يقوم بعمله وحسب. والآن، جاء دورك لكي تقوم بعملك".

"ما الذي يعنيه ذلك؟" كان وجه تود بشعاً ومتوتراً، وصوته يرتجف.

"علـيك أن تجتهد في دراستك. وفي الأسابيع الأربعة التالية، ستعمل بجـدّ أكثر مما كنت تفعل طوال حياتك. كما أنك ستذهب إلى معلميك يوم الإثنين وتعتذر إلى كل منهم على أدائك الضعيف لغاية الآن. عليك أن.."

قـال تـود: "هـذا مستحيل. أنت لم تفهم يا رجل. هذا مستحيل. أنا متخلّف مـدة خمـسة أسابيع على الأقل في مادتي العلوم والتاريخ. وفي الجبر، أنا متخلف أكثر من عشرة أسابيع".

قال دوسندر وهو يصب المزيد من الشراب: "بالرغم من ذلك".

صاح تود في وجهه: "أنت تعتقد بأنك ذكي، أليس كذلك؟ حسناً، أنا لا أتلقّـى الأوامـر منك، فالأيام التي كنتَ تصدر الأوامر فيها قد ولّت. هل ستفهم ذلك يوماً؟" ثم خفض صوته بشكل مفاجئ وقال: "أنتَ لست سوى رجل عجوز محطم. وأنا أراهن على أنك تبول في فراشك".

قال دوسندر بهدوء: "أصغِ إليّ أيها المتكبر".

رفع تود رأسه بغضب عند سماعه هذا الوصف.

قـال دوسندر وهو ينتقي عباراته بعناية: "كان أمراً مستحيلاً قبل هذا اليوم، أو بالكاد كنتَ تستطيع فضحي من غير أن تتأذّى بذلك. أنا لا أعتقد بأنك عند المستوى المطلوب في السيطرة على أعصابك، لكن لا داعي إلى الخـوض فـي ذلـك. كان من الممكن أن يكون ذلك مستحيلاً من الناحية التقنـية. ولكن الأمور قد تغيّرت الآن. اليوم، تقمّصتُ دور جدك، فيكتور بـودين. ولـم يساور أحداً أدنى شك في أنني نجحت في ذلك... كيف؟... بتواطـئك معي. وفي حال أردت فضحي الآن أيها الصبي، ستبدو أضعف مـن أي وقت مضى، لأنك أصبحتَ بدون دفاعات. وقد حرصتُ على أن تصبح كذلك هذا اليوم".

"أتمنى لو.."

زأر دوسندر: "أنت تتمنى، أنت تمنى. لا أرغب بسماع أمنياتك، فهي تـصيبني بالمرض. فأمنياتك ليست أكثر من أكوام صغيرة من الزبالة في مـستوعب. كـل ما أريده هو معرفة إن كنتَ تدرك حقيقة الوضع الحرج الذي نحن فيه".

تمتم تود قائلاً: "أنا مدرك للوضع". كان يشدّ قبضته بقوة عندما كان دوسـندر يـصرخ فـي وجه -فهو لم يعتد على سماع الصراخ من أحد.

والآن، فـتح يديـه ولاحظ أنه أصاب راحتيه بجروح. ظن أنه ربما كانت الجـروح أكثـر سوءاً، فقد تعرض في الشهور الأربعة الأخيرة للكثير من النكسات.

"جـيد. إذن، عليك أن تتقدم باعتذارات رقيقة، وتجتهد في دراستك. ستـدرس فـي أوقـات فـراغك في المدرسة، وستدرس خلال الساعات المخصـصة لتـناول الطعـام. وبعد انتهاء دوام المدرسة، ستأتي إلى هنا وتـتابع دراسـتك، وفي أيام عطل نهاية الأسبوع، ستأتي إلى هنا، وتفعل الشيء نفسه".

قال تود بسرعة: "ليس هنا، بل في المنزل".

"كـلا، لأنـك ستتلكأ في منزلك وتمضي وقتك في أحلام اليقظة كما كـنت تفعل دائماً. لكن إذا كنتَ هنا، سأراقبك إذا وجدتُ أن الأمر يستدعي ذلـك. يمكنني أن أحمي مصالحي في هذا الخصوص. يمكنني أن أمتحنك، ويمكنني أن أستمع إلى دروسك".

"لا يمكنك إجباري على المجيء إلى هنا إذا كنتُ لا أريد ذلك".

شـرب دوسندر من كوبه وقال: "هذا صحيح. ولكن في هذه الحالة، ستـستمرّ الأوضـاع على ما كانت عليه، وستفشل. وعندئذ، سيتوقع ذلك المستـشار منّـي أن أفـي بوعدي. وفي حال لم أفعل، فسيتصل بوالديك، وسيكتـشفان بأن السيد دنكر تكرّم وتقمّص شخصية جدك بناء على طلبك. كما سيكتشفان أمر العلامات التي تلاعبتَ بها. وسوف..".

"انتهينا، سآتي إلى هنا".

"أنت هنا أصلاً. إذن، إبدأ بمادّة الجبر".

"هذا محال. إنها فترة بعد الظهر من يوم الجمعة".

قال دوسندر بنبرة لطيفة: "ستدرس في أوقات ما بعد الظهر من الآن فصاعداً. ابدأ بمادّة الجبر".

حدق تود في وجهه؛ للحظة فقط قبل أن يخفض عينيه، ويخرج كتاب الجبر من حقيبته المدرسية. رأى دوسندر جريمة في عيني الصبي. لم تكن جـريمة تخيلية، وإنما جريمة حقيقية. لقد مرّت سنوات منذ أن لاحظ تلك النظرة المعتمة والملتهبة والمتأملة، ولكنها كانت نظرة لا يمكنه أن ينساها. اعـتقد بأنه كان سيرآها في عينيه لو كان في يده مرآة في اليوم الذي نظر فيه إلى مؤخرة عنق الصبي الضعيفة.

قـال فـي نفسه وهو مندهش بعض الشيء، عليّ أن أحمي نفسي. فالمرء يقلل من تقدير الصعاب عندما يكون في خطر.

بقي في كرسيه الهزاز، يشرب ويراقب الصبي وهو يدرس.

كانـت الساعة الخامسة عصراً تقريباً عندما ركب تود درّاجته عائداً إلـى البيت. شعر بأنه منهك، وخائر القوى، ونافد الصبر. ما من مرّة رفع عينـيه فيها عن الصفحات المطبوعة - بدافع من الغيظ، وعدم القدرة على الفهـم، والمجموعات السخيفة، والمجموعات الفرعية، والأزواج المرتبة، والإحداثـيات الديكارتية- إلاّ وتذكر الصوت الحادّ للرجل العجوز. وفيما عـدا ذلك، كان يلزم الصمت... باستثناء شعوره بالغيظ من الصوت الذي يحدثـه خفّـه المنزلي عندما يمشي ومن صوت الكرسي وهو يهتزّ. كان دوسندر يجلس مثل نسر ينتظر ريثما تسلم فريسته الروح. لماذا أوقع نفسه في هذه الورطة؟ وكيف وقع في هذه الورطة أصلاً؟ الوضع يشبه الجحيم. لقـد اسـتوعب بعـض المفاهيم عصر هذا اليوم- مفاهيم متعلقة بنظرية المجموعات التي سببت له قدراً كبيراً من الحيرة قبيل إجازة العيد- ولكنه رأى أنـه يـستحيل استيعاب ما يكفي لكي يحصل في امتحان الجبر التالي على تقدير مقبول.

كانت هناك فترة أربعة أسابيع تفصله عن نهاية العالم.

رأى فـي الزاوية طائراً أزرق اللون جاثماً على الرصيف وهو يفتح مـنقاره ويغلقـه ببطء. كان يسعى بدون جدوى إلى النهوض على رِجليه والتحلـيق بعـيداً. ولكنه مصاب بجرح في أحد جناحيه. افترض تود بأن الإصـابة ناجمة عن سيارة عابرة أصابته ورمته على الرصيف كما ترمي الحصى. بقي تود يرمقه بإحدى عينيه البرّاقتين.

بقـي تود ينظر إليه لفترة طويلة فيما كان يمسك بمقابض درّاجته بدون إحكـام. لقـد تـبدد بعض الدفء الذي كان يشعر به، وأحسّ ببرودة الهواء. افترض بأن أصدقاءه أمضوا فترة ما بعد الظهر في التسكّع في شارع والنوت، وربما مارسوا لعبة الورق. كانت تلك الفترة من السنة التي تبدأ فيها بممارسة لعبة كرة القاعدة. وقد سرت أحاديث عن احتمال تشكيل فريق خاص بهم هذا العـام للمنافسة في الدوري غير الرسمي لكرة القاعدة في المدينة. سيكون تود بالطـبع رامـي الكـرة، فقد كان نجماً في رمي الكرة في دوري الفتيان، وقد أصبح في السنة الفائتة في سنّ يسمح له بالمشاركة في دوري المراهقين.

مـــاذا الآن؟ يتعين عليه أن يخبرهم بأنه لن يتمكن من اللعب. يتعين علـيه أن يقول لهم: يا رفاقي، لقد تورطت مع مجرم الحرب هذا. تمكنت من السيطرة عليه، ثم تبين لي أنه هو الذي يسيطر عليّ. بدأت أرى أحلاماً مسلّية. وقد حصلت على علامات سيئة، ولكنني تلاعبت بشهادتي المدرسية لكـــي لا يعرف أبواي بالأمر. والآن، يتوجب عليّ أن أنكبّ على دروسي لأول مرّة في حياتي. أنا لست خائفاً من العقاب، ولكنني خائف من الذهاب إلـــى الإصـــلاحية. ولهذا السبب لا يمكنني المشاركة في فريقكم هذا العام. ولا بدّ وأنكم تتفهمون السبب.

ارتسمت على وجهه ابتسامة رقيقة، تشبه ابتسامة دوسندر، ولكنها لا تشبه الابتسامة الواسعة التي كانت ترتسم على وجهه سابقاً. لم يكن فيها ما يـشير إلـــى المرح ولا الثقة بالنفس. ولكنها كانت تقول، يا رفاقي، لا بدّ وأنكم تفهمون السبب.

بحـــركة بطيئة، داس بعجلات درّاجته ذلك الطائر الصغير، وسحق عظامـــه الـــرقيقة المجوفة. ثم عاد بدرّاجته إلى الوراء، ثم مشى فيها إلى الأمـــام مـــرّة أخـــرى. كان الطائر لا يزال يختلج. عاد وداس عليه ثانية، فعلقت ريشة بدت عليها آثار للدماء بإطار دولابه الأمامي، وصارت تدور مـــن الأســـفل إلى الأعلى، ومن الأعلى إلى الأسفل. في أثناء ذلك، توقف الطائر عن الحركة ولكن تود استمرّ في الدوس فوق هيكله العظمي المحطم جيـــئة وذهاباً. استمرّ في فعل ذلك قرابة خمس دقائق، من دون أن تختفي عن وجهه تلك الابتسامة الرقيقة.

10

أبريل/نيسان 1975

وقف الرجل العجوز في الجزيرة وسط الطريق، وهو يبتسم، فيما كان دايف كلينغرمان يمشي نحوه لمصافحته. لا يبدو أن النباح المسعور الـــذي يـــصمّ الآذان، ولا روائـــح الفرو والبول، ولا مئات الحيوانات الـــشاردة التـــي تزأر في أقفاصها فيما تتحرك جيئة وذهاباً وتقفز على الـــشباك، شكّلت إزعاجاً له. كانت ابتسامته حلوة وباعثة على الإرتياح. قـــدّم لدايـــف يداً متورمة مصابة بداء التهاب المفاصل بتؤدة، وصافحه كلينغرمان بالطريقة ذاتها.

قــال بصوت مسموع: "مرحباً يا سيد. قرأت في الصحيفة -من غير أن أصدق ما قرأت- أنك تهدي الكلاب بدون مقابل. ربما أسأت الفهم. في الواقع، لا بدّ وأنني أخطأت الفهم".

قال دايف: "كلا، إننا نقوم بتوزيعها. وإذا كنت لا تستطيع اقتناء واحد مــنها، فــسنعدمها فــي غضون ستين يوماً. فهذه هي المهلة التي تمنحها الولاية لنا. يا للعار. ادخل المكتب، فهو أكثر هدوءاً وأزكى رائحة أيضاً".

بعــد أن دخــلا المكــتب، سمع دايف قصة بدت مألوفة (وإن كانت مؤثرة): أرثر دنكر في العقد السابع من عمره. قدم إلى كاليفورنيا بعد وفاة زوجــته. وهــو ليس رجلاً ثرياً، ولكنه يعتني بما يملك بحرص شديد. إنه يعــيش وحيداً بدون أصدقاء سوى صبي يزوره في بيته في بعض الأحيان ويقــرأ له. عندما كان في ألمانيا، اقتنى كلباً جميلاً من فصيلة سان برنار. وهــنا فــي ســانتو دوناتو، لديه منزل مع فناء خارجي واسع. وهذا الفناء محاط بسياج. وقد قرأ في الصحيفة إعلاناً... ويتساءل إذا كان من الممكن أن...

قــال دايف: "حسناً، لا توجد لدينا كلاب من فصيلة برنار لأنه ما إن نحصل عليها حتى يتخاطفها الناس لأنها لطيفة جداً مع الأطفال".

"آه، فهمت. أنا لم أقصد أن.."

"ولكن يوجد لديّ جرو من فصيلة كلب الراعي. ما رأيك به؟"

لمعت عينا السيد دنكر كما لو كان على وشك أن يدمع وقال: "ممتاز. سيكون خياراً ممتازاً".

"يمكــنك الحــصول على الكلب مجاناً، لكن يوجد القليل من التكاليف الأخرى، مثل تكاليف حقن التداوي من مرض الكلَب والإضطراب، وكلفة الحــصول علــى رخصة اقتناء كلب في المدينة، وهي تبلغ في مجموعها عــادة خمسة وعشرين دولاراً بالنسبة إلى معظم الناس، ولكن الولاية تدفع نــصف ذلك المبلغ إذا كنت قد تجاوزت سنّ الخامسة والستين؛ وهذا جزء من برنامج كاليفورنيا للمسنّ الذهبي".

قــال السيد دنكر وهو يضحك: "المسنّ الذهبي.." أحسّ دايف للحظة بقشعريرة الخوف.

"أعتقد بأن الأمر كذلك يا سيدي".

"الأمر منطقي جداً".

"بالتأكيد، نحن نعتقد ذلك. فالكلب نفسه يمكن أن يُباع مقابل مائة وخمسة وعشرين دولاراً في متجر لبيع الكلاب. لكن الناس يذهبون إلى تلك الأماكن بالرغم من ذلك بدلاً من المجيء إلى هنا. وهم يدفعون المال لقاء مجموعة من الأوراق بالطبع، لا لقاء شراء الكلب". هزّ دايف رأسه وأضاف: "لو أنهم يعرفون هذا العدد الكبير من الحيوانات الرائعة التي تهجر كل عام".

"في حال لم تجد لهم بيتاً مناسباً في غضون ستين يوماً، هل ستعدمهم؟"

"أجل، نقوم بقتلهم".

"أنتم تقتلونهم..؟ أنا آسف، فأنا لا أجيد الإنكليزية تماماً".

قال دايف: "إنه قانون الولاية، لأنه لا يمكننا ترك قطعان الكلاب تجول في المدينة".

"بإطلاق النار عليهم؟"

"كلا، بل بواسطة الغاز. وهذه طريقة إنسانية لأنها لا تسبب لهم الإحساس بالألم".

قال السيد دنكر: "نعم، أنا متأكد من أن الكلاب لن تشعر بشيء على الإطلاق".

كان مقعد تود في صف الجبر في الطبقة الرابعة في الصف الثاني. جلس تود هناك محاولاً الجلوس بوجه خالٍ من التعبير فيما كان السيد ستورمان يعيد أوراق الإمتحانات. ولكن أظافره المثلّمة عادت إلى الضغط على راحتي يديه مجدداً، وكان جسمه بأكمله يتصبب عرقاً.

لا تتفاءل كثيراً. لا تتصرف كشخص أبله ملعون. ما من طريقة كانت ستمكنك من النجاح في الإمتحان. وأنت تعرف بأنك لم تنجح في الإمتحان.

بالرغم من هذا الكلام، لم يكن في مقدوره التخلّي عن أمله المجنون. فهذا هو أول امتحان في مادّة الجبر في الأسابيع التي بدا فيها كتاب الجبر مكتوباً بلغة غير اللغة اليونانية. كان متأكداً بحكم التوتر (التوتر؟ كلا، إنه الرعب) الذي يشعر به أنه لم ينجح في الإمتحان. ولكن ربما... حسناً، لو أن معلّم الجبر كان أي شخص سوى ستورمان الذي لديه قفل يال في قلبه...

أمـــر نفسه: "توقف عن ذلك". ولوهلة، لوهلة مرعبة، كان متأكداً من أنـــه صرخ وهو ينطق بهذه الكلمات في الصف. *لقد رسبت في الإمتحان، وأنت تعرف ذلك، ولا يوجد شيء في العالم يمكن أن يغيّر هذه الحقيقة.*

سلّمه ستورمان ورقة الإمتحان ومضى في طريقه. أحنى تود رأسه، ونظـــر إلـــى الطاولة. لوهلة، اعتقد بأنه لا يملك القوة الكافية لفتح الورقة ليعــرف النتيجة. في النهاية، فتح الورقة فجأة بحيث تمزقت في يده. علق لسانه في أعلى فمه فيما كان يحدق بها. وبدا أن قلبه توقف للحظة.

كُـــتب الـــرقم 83 في دائرة في أعلى الورقة، وأسفل هذا الرقم كُتب تقدير جيد. وأسفل التقدير، كتبت العبارة الموجزة التالية: تحسن جيدا! أعتقد بأنني مــرتاح إلى النتيجة ضعف ارتياحك. راجع أخطاءك بتؤدة. فهناك ثلاثة منها على الأقل أخطاء في العد وليست أخطاء في الفهم.

بـــدأ يشعر بخفقان قلبه مجدداً، وظهرت عليه أمارات الإرتياح، لكن مخاوفه لم تبرد؛ كانت مستعرة، ومعقدة، وغريبة. أغمض عينيه، ولم يعد يـــسمع ضـــجيج الـــصف الناتج عن مناقشة الطلاب لنتائج الإمتحان، وبدأ المعـــركة التي يقرّرها الطلاب سلفاً والتي يبحثون فيها عن علامة إضافية هنا أو هناك. شعر تود بالإحمرار خلف عينيه، فقد كان يشعر بالنبض في عروقه فيما كان الدم يتدفق على إيقاع نبضات قلبه. في تلك اللحظة، شعر بأنـــه يكره دوسندر أكثر من أي وقت مضى. قبض أصابع يديه، وتمنى لو تطبقان على رقبة دوسندر.

يـــوجد في غرفة نوم ديك ومونيكا بودين سريران مزدوجان، تفصل بيـــنهما منـــصة المصباح الليلي التي يوجد فوقها مصباح تيفاني. والغرفة مصنوعة من الخشب الأحمر، وجدرانها مزدانة برفوف مليئة بالكتب. كما يـــوجد في الغرفة، بين مسندين عاجيين للكتب (على شكل فيلين يقفان على قائمتيهما الخلفيتين) تلفاز من نوع سوني. كان ديك يشاهد جوني كارسون وقـــد وضع سمّاعتين في أذنيه، فيما كانت مونيكا تقرأ كتاباً جديداً لمايكل كريشتون استعارته من نادي الكتب في ذلك اليوم.

وضعت المؤشرة (التي كُتب عليها، هذا هو الموضع الذي خلدت إلى النوم عنده) في الكتاب، وأقفلته، وقالت: "ديك؟"

سحب السماعتين من أذنيه، وقال: "ماذا تريدين؟"

"هل تعتقد بأن تود على ما يرام؟"

نظــر إلــيها للحظــة بــوجه عابس، ثم هزّ رأسه قليلاً وقال باللغة الفرنسية: "لست أدري يا عزيزتي". بدت العبارة الفرنسية أشبه بنكتة. كان والــده قــد أرســل إليه مبلغ مائتي دولار لكي يستعين بمدرّس خصوصي عــندما رسب في مادة اللغة الفرنسية. ولكنه حصل على مونيكا دارو، بعد أن انتقى اسمها بطريقة عشوائية من البطاقات المعلّقة على لوحة البلاغات الخاصة بالنقابة. ومع مجيء الكرسمس، كانت تضع الخاتم الذي أهداها إياه في إصبعها... وتمكن بصعوبة من الحصول على تقدير جيد في الفرنسية.

"حسناً... لقد خسر بعضاً من وزنه".

قــال ديك: "يبدو هزيلاً بكل تأكيد". ثم وضع السماعتين في حضنه، فأصدرتا صوت صفير. "إنه في طور النمو يا مونيكا".

سألت مونيكا بقلق: "في هذه المرحلة المبكرة؟"

ضحك وقال: "أجل. عندما كنت مراهقاً، ازداد طول جسمي أكثر من خمسة عشر سنتيمتراً؛ كنت قزماً في سنّ الثانية عشرة وأصبحت كتلة من العــضلات الجميلة كما ترين الآن. قالت أمّي إنه كان في مقدورها سماع عظامي ليلاً وهي تنمو عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري".

بعــد أن أغمــض عينــيه قالت مونيكا: "ديك، تنتابه أحلام مزعجة أيضاً".

تمتم قائلاً: "كوابيس؟"

"أجــل، تنتابه كوابيس. وقد سمعته وهو يتأوّه وهو نائم في مناسبتين أو ثــلاث عندما كنت ذاهبة إلى دورة المياه ليلاً. لم أشأ إيقاظه. كان ذلك ردّ فعل سخيف، ولكنّ جدّتي اعتادت على القول إنه يمكن أن يصاب المرء بالجنون في حال أيقظته فيما ينتابه حلم مزعج".

"كانت بولندية، أليس كذلك؟"

أجل، كانت بولندية".

قال: "أنت تعرفين ما أعنيه بقولي هذا".

قالت مونيكا: "أنت تعرف بأن استخدامي خزان المرحاض في دورة المياه يوقظك من نومك".

"إذن لا تستخدمي خزان المرحاض".

"ديك، أنت رجل قذر".

اكتفى ديك بالتنهد.

"عندما أدخل غرفة نومه، أجده يتصبب عرقاً في بعض الأحيان. كما لاحظت أنه يحتلم".

نظر إليها في الظلام وقال: "أراهن على ذلك".

"مــاذا قلــت؟ هذا تصرف سيئ منك أيضاً. كما أنه لا يزال في سنّ الثالثة عشرة".

"ســيبلغ سنّ الرابعة عشرة في الشهر القادم. إذن هو لم يعد صغيراً. ربما كان مبكراً في النضج، ولكنه ليس صغيراً".

"أربعــة عــشر أو خمــسة عشر عاماً، لا أتذكر على وجه التحديد. ولكنني أذكر أنني استيقظت بعد أن اعتقدت أنني متّ ودخلت الجنّة".

"لكنك كنت أكبر سناً من تود الآن".

"تنتاب المرءَ هذه الأمور عندما يكون صغيراً. لا بدّ وأن الحليب هو الـسبب، أو الفلوريد. هل تعرفين بأنه توجد مناديل ورقية في كافة الغرف المخصــصة للفتيات في المدرسة التي بنيناها في جاكسون بارك في السنة الفائتة؟ كم كان عمركِ عندما بلغتِ؟"

أجابــت: "لا أذكر كم كان عمري حينها. ولكن كل ما أعرفه هو أن الأحلام التي تراود تود لا تبدو مثل حلم مات فيه ومضى إلى الجنّة".

"هل سألتِه عن هذا الأمر؟"

"ســألته مرّة، قبل حوالى ستة أسابيع، عندما كنتَ تلعب الغولف مع إيرني جاكوبس المخيف".

"يــريد إيرني جاكوبس المخيف أن يجعلني شريكاً كاملاً في العام 1977، فــي حــال لم يمت من جرّاء علاقته بتلك السكرتيرة قبل ذلك الحــين. كمــا أنــه يعطينــي راتبي دائماً. ما الذي قاله تود رداً على سؤالك؟"

"أجاب بأنه لا يتذكر. ولكنني عرفت من تعابير وجهه أنه يتذكر".

"مونيكا، أنا لا أتذكر كل ما حصل لي في أيام شبابي، ولكنني أتذكر أمــراً واحداً وهو أن الإحتلام لم يكن تجربة ممتعة دائماً. في الواقع، يمكن أن تكون مزعجة".

"وكيف يمكن أن تكون كذلك؟"

"بــسبب الــشعور بالذنب. ربما يكون شعوراً يرجع إلى أيام الطفولة عــندما قــيل لــه بوضوح تام بأن التبوّل في السرير أمر سيئ. ولا تنسي

القضايا المرتبطة بالجنس. فمن يدري ما الذي يسبب تلك الأحلام. إذا كان الولد لا يرغب بالتحدث عن مشكلاته، فلا تجبريه على ذلك".

"لقد بذلنا كل ما في وسعنا في تربيته وفي عدم ترك تلك الأحاسيس بالذنب التي لا داعي لها تنتابه".

"لا يمكنكِ الفرار منها. فهو يأتي بها إلى المنزل من المدرسة مثل عدوى نزلة البرد التي كان يلتقطها عندما كان في الصف الأول، أو من أصدقائه أو من أسلوب معلّميه في التطرّق إلى بعض المواضيع. وعلى الأرجح أنه التقطها من والدي أيضاً".

"ديك بودين، والدك لا يمكن أن.."

"لكنه قال له ذلك، على غرار ما حكته لكِ جدتك البولندية عن أن إيقاظ شخص ما وهو يعاني من كابوس يمكن أن يؤدي به إلى الجنون. كما قال لي إنه ينبغي عليّ أن أمسح المرحاض العام دائماً قبل أن أجلس عليه لكي لا ألتقط جراثيم الآخرين. أعتقد بأن تلك طريقته في الإشارة إلى مرض السفلس. وأنا أراهن بأن جدتك قالت لكِ ذلك أيضاً".

قالت: "كلا، ولكنها أمّي التي قالت لي ذلك. قالت لي بأنه ينبغي عليّ استخدام خزان المرحاض دائماً. ولهذا السبب أنا أستعمل دورة المياه في الطابق الأرضي".

قال ديك: "ولكنني لا أزال أستيقظ من سماع صوته".

"ماذا؟"

"لا شيء".

في هذا الوقت، كان على وشك الخلود إلى النوم عندما تلفظت باسمه مجدداً.

سألها بنبرة قوية: "ماذا؟"

"أنت لا تفترض بأن... لا بأس. نم يا عزيزي".

"كلا، تابعي كلامكِ. لقد استيقظت مجدداً. أنتِ لا تفترضين ماذا؟"

"إنه الرجل العجوز السيد دنكر. ألا تعتقد بأن تود يكثر من زيارته؟ ربما هو من يملأ رأس تود بالكثير من هذه القصص".

قال ديك: "قصص الرعب الحقيقية".

قالت: "كانت تلك مجرد فكرة. أنا آسفة على إزعاجك".

وضع يده على كتفها وقال: "سأقول لكِ شيئاً يا عزيزتي". ثم توقف

للحظة للتفكير في كيفية اختيار كلماته وأضاف: "أنا أشعر بالقلق على تود في بعض الأحيان أيضاً. ولكنني لست قلقاً من الأشياء التي تجعلكِ تشعرين بالقلق. لكن الشعور بالقلق يبقى شعوراً بالقلق، أليس كذلك؟"

سألته: "ما هو السبب الذي يدعوك إلى الشعور بالقلق؟"

"حسناً، نشأت في بيئة تختلف بدرجة كبيرة عن بيئته التي نشأ فيها. كان والدي يملك متجراً. وكان لديه سجل يحتفظ فيه بكافة أسماء الأشخاص الذين يدينون له بالأموال، ومقادير تلك الأموال. هل تعرفين ماذا كان يسمّيه؟"

أجابت: "كلا". نادراً ما كان ديك يحدثها عن أيام طفولته. ولطالما اعتقدت بأن السبب يرجع إلى أنها لم تكن سعيدة. وهذا ما دفعها إلى الإصغاء الآن.

"كان يسمّيه دفتر اليد اليسرى. قال إن يده اليمنى هي تجارته، ولكن ينبغي ألاّ تعرف اليدُ اليمنى ما تقوم به اليد اليسرى. وقال إنه في حال عرفت، فعلى أرجح أنها ستمسك بالساطور وتقطع اليد اليسرى".

"لم يسبق أن أخبرتني بذلك".

"حسناً، لم أكن أحب الرجل العجوز في السنين الأولى لزواجنا، والحقيقة هي أنني لا أزال أبغضه. فأنا لم أكن أفهم لماذا كان يتوجب عليّ ارتداء سروال مستعمل فيما كان في مقدور السيدة مازورسكي شراء اللحم بواسطة بطاقة الإئتمان بعد أن تحكي القصة نفسها عن أن زوجها سيعود إلى العمل في الأسبوع المقبل. إن العمل الوحيد الذي كان يقوم به بيل مازورسكي اللعين هو الإمساك بزجاجة عطر المسك لكي لا تفلت من بين يديه.

كل ما أردته في تلك الأيام هو مغادرة المكان والإبتعاد عن حياة والدي العجوز، ولذلكِ اجتهدت لكي أحصل على تقديرات ممتازة، ومارست رياضات لم أكن أحبها وحصلت على منحة دراسية. وحرصت على أن أبقى في فئة العشرة في المائة الأوائل في صفي لأن دفتر اليد اليسرى الوحيد الذي كانت تحتفظ به الكلّيات في تلك الأيام كان مخصصاً للجنود الذين شاركوا في الحرب. كان والدي يرسل لي المال اللازم لكي أشتري كتبي، ولكن المبلغ الوحيد من المال الذي طلبته منه لغير هذا السبب سببه أنني رسبت في مادة اللغة الفرنسية. وعندها التقيت بكِ.

وعرفت فيما بعد من السيد هاليك بأن والدي وضع ورقة حجز على سيارته لكي يجمع مبلغ المائتي دولار.

أنا الآن متزوج منكِ، وقد أنجبنا تود. لطالما اعتقدت بأنه ولد ذكي، وسعيت إلى التأكد من توفر كل ما يحتاج إليه، وكل ما يمكن أن يساعده على النمو ليصبح رجلاً رائعاً. كنت أضحك من القصة المأثورة التي تتحدث عن رجل يريد من ابنه أن يكون أفضل منه، ولكن كلما تقدمتُ في السن، كلما تبين لي أن هذه القصة ليست مضحكة، وأنها أقرب ما تكون إلى الصحة. لم أشأ أن يُضطرّ تود إلى ارتداء الألبسة المستعملة لأن زوجة أحدهم تشتري الهامبرغر بواسطة بطاقة اعتماد. هل تفهمينني؟"

أجابت بهدوء: "أجل بالطبع".

"إذن، قبل عشر سنين تقريباً، أي قبل أن يملّ الرجل العجوز من الشجار ويتقاعد عن العمل، أصيب بنوبة قلبية خفيفة. أُدخل المستشفى ولبث فيها عشرة أيام. وقام أبناء الحيّ بتسديد فاتورة المستشفى. لم أصدق ذلك. كما أبقوا المتجر مفتوحاً أيضاً. وأقنعت فيونا كاستلينو أربعة أو خمسة من أصدقائها العاطلين عن العمل بتولّي إدارة المتجر بالتناوب. وعندما عاد الرجل العجوز، وجد أن الدفاتر متوازنة حتى أقرب سنت".

قالت مونيكا: "هذا مدهش".

"هل تعلمين ماذا قال لي؟ أبي العجوز؟ قال بأنه كان يخشى على الدوام من التقدم في السنّ، وإلحاق الأذى بنفسه، والحاجة إلى دخول المستشفى، وعدم القدرة على تأمين المال الكافي لتغطية احتياجاته، ومن الموت. قال لي أيضاً بأنه لم يعد يشعر بالخوف بعد أن أصيب بالنوبة القلبية، ورأى أنه بات في إمكانه مواجهه الموت وهو راضٍ. سألته هل تعني أنك ستموت وأنت سعيد يا أبي؟ فأجاب كلا، لا أعتقد بأنّ أحداً يمكن أن يموت وهو سعيد يا ديكي. كان يناديني دائماً باسم ديكي، ولا يزال، وهذا أمر آخر أعتقد بأني لن أقدر على تقبّله. قال إنه لا يعتقد بأنه يمكن لأي شخص أن يسعد بالموت، ولكن يمكنك أن تموت وأنت راضٍ. وقد تأثرتُ بتلك العبارة كثيراً".

بقي صامتاً بعد ذلك لفترة طويلة.

"في السنوات الخمس أو الست الأخيرة، كنت قادراً على فهم الرجل العجوز أكثر. ربما لأنه يعيش في سان ريمو بعيداً عنّي. وبدأت أفكر في

أن دفتر اليد اليسرى ليس فكرة على هذا القدر من السوء. هنا بدأت أشعر بالقلق على تود. أردت أن أقول له بأنه يوجد في الحياة ما هو أهم بكثير من قدرتي على اصطحابه إلى هاواي وقضاء شهر هناك أو شرائي سراويل لا تفوح منها رائحة النفتالين التي عادة ما تفوح من الثياب المستعملة. لم أتمكن من التوصل إلى طريقة لإخباره بذلك. ولكني أعتقد بأنه يفهم هذه الحقائق، وهذا أمر يريحني كثيراً".

"هل تقصد قراءته للسيد دنكر؟"

"أجل. فهو لا يجني شيئاً من ذلك لأن دنكر لا يستطيع أن يدفع له ثمناً مقابل قراءته له. فهو رجل عجوز يبعد آلاف الكيلومترات عن أي صديق أو قريب ربما لا يزال على قيد الحياة، وهو الرجل الذي يجسد كل ما خشيه والدي".

"لم يسبق أن فكرتُ في هذا الأمر بهذه الطريقة".

"هل لاحظتِ التعابير التي ترتسم على وجه تود عندما تحدثينه عن ذلك الرجل العجوز؟"

"إنه يلتزم بالصمت المطبق".

قال ديك: "بالتأكيد، إذ إن لسانه ينعقد ويشعر بالإحراج، كما لو كان يقوم بعمل شائن، على غرار ما كان يحصل لوالدي دائماً عندما كان أحدهم يسعى إلى شكره لأنه رضي بأن يبيعه بالتقسيط. إننا بمثابة اليد اليمنى لتود، وهذا كل شيء. أنا وأنتِ والباقون؛ العائلة، ورحلات التزلج على الثلج في تاهو، والتلفاز الملون في غرفته. فهذه جميعها بمثابة يده اليمنى. وهو لا يريد منا أن نعرف ما تنوي يده اليسرى أن تفعله".

"إذن، أنت لا تعتقد بأنه يرى دنكر كثيراً".

"يا عزيزتي، انظري إلى مستوى أدائه في المدرسة. إذا كان يشهد تراجعاً، سأكون أول من يقول له هذا يكفي. ستكون علاماته الموضوع الأول الذي سيثير مشكلة. وبالمناسبة، كيف أصبح أداؤه الآن؟"

"إنه يقوم بعمل رائع كما كان في السابق، بعد ذلك التراجع الإستثنائي".

"إذن عمّ نتحدث الآن؟ اسمعي. يتوجب عليّ الذهاب لحضور مؤتمر عند الساعة التاسعة يا عزيزتي. وإذا لم أنم الآن، فسأنام هناك".

قالت وهي تتلّله: "بالتأكيد. نم يا عزيزي". ثم قبلته وقالت: "أنا أحبك".

أجابها: "وأنا أحبكِ أيضاً". وأغمض عينيه وقال: "سيكون كل شيء على ما يرام يا مونيكا. لا داعي إلى المبالغة في القلق".

"أنا مدركة لذلك. عمت مساءً". وأغمضت عينيها.

قال دوسندر: "توقف عن النظر إلى خارج النافذة. لا يوجد في الخارج شيء يهمك".

نظر إليه تود بوجه متجهّم. كان كتاب التاريخ مفتوحاً على الطاولة عند الصفحة التي ظهرت فيها صورة لتيدي روزفلت وهو يمتطي جواداً. كان الكوبيون التعساء يحاولون الإبتعاد عن طريق الجواد الذي يمتطيه تيدي. ارتسمت على وجه تيدي ابتسامة أميركية عريضة، ابتسامة رجل عرف طريقه. ولكن تود بودين لم يكن يبتسم.

سأله تود: "أنت تحب أن تكون مراقب عمال ظالماً أليس كذلك؟"

أجاب دوسندر: "أحب أن أكون رجلاً حراً. اُدرس".

"عليك اللعنة".

"لو كنت صبياً، لكنت غسلت فمي بالماء والصابون لتفوّهي بهذه العبارة".

"لم يعد الزمان كما كان".

شرب دوسندر شربة من شرابه وقال: "حقاً؟ اُدرس".

حدق تود في دوسندر وقال: "أنت لست سوى دمية. هل تعرف ذلك؟"

"اُدرس".

أقفل تود الكتاب وقال: "اخرس". وهو ما أحدث صوتاً في مطبخ دوسندر. "أنا لن أتمكن من تحسين مستواي على كل حال. ليس في هذه المهلة الوجيزة التي تسبق الإمتحان. فلا يزال يتعين عليّ قراءة خمسين صفحة قبل أن أصل إلى الفصل الذي يتحدث عن الحرب العالمية الأولى. سأحتفظ ببعض قصاصات الغش للإستعانة بها في الإمتحان".

قال دوسندر بنبرة حادّة: "لن تفعل أمراً كهذا".

"ولِمَ لا؟ من الذي سيمنعني؟ أنت؟"

"أيها الصبي، لا زلت تعاني من صعوبة في فهم المخاطر التي تحيط بنا. هل تعتقد بأني أجد متعة في إجبارك على مطالعة كتبك؟" ثم رفع صوته، وتحدث بلهجة آمرة فقال: "هل تعتقد أنني أجد متعة في الإستماع إلى نوبات غضبك الحمقاء، وأقسامك الصبيانية؟"

صاح تود: "حسناً، أنت تحب ذلك".

"مـــاذا ستعتقد أنه سيحلّ بك في حال أمسكوا بك وأنت تستعين بتلك القصاصات؟ من الذي سيُخبَر أولاً؟"

نظر تود إلى يديه اللتين بدت عليهما آثار أظافره ولم يقل شيئاً.

"من؟"

"أنت تعرف. إنه رابر إيد. وبعده أبواي فيما أعتقد".

أومـــأ دوسندر برأسه وقال: "وأنا أعتقد ذلك أيضاً. اُدرس وضع ما كنتَ ستكتبه في قصاصات الغش في رأسك حيث ينبغي أن يكون".

قـــال تـــود: "أنـــا أكرهك. أنا أكرهك فعلاً". ولكنه فتح كتابه مجدداً، ورأى تيدي روزفلت كما لو كان ينظر إليه فيما كان يدخل القرن العشرين حـــاملاً سـيفه فـــي يده، والكوبيون يتراجعون أمامه؛ ربما أمام ابتسامته الأميركية القوية.

عاد دوسندر إلى هزّ مقعده مجدداً، ولمسك بالكوب الذي يحتوي على الشراب وقال بنبرة لطيفة: "هذا صبي جيد".

احتلم تود للمرّة الأولى في آخر ليلة من شهر أبريل/نيسان، واستيقظ علـــى صـــوت المطر الذي كان يهمس من خلال أوراق وأغصان الشجرة المنتصبة قبالة نافذة غرفته.

رأى فـــي ذلـــك الحلم أنه في أحد مختبرات معسكر باتين. كان يقف عـــند الطرف البعيد من طاولة طويلة ومنخفضة. كانت هناك فتاة صغيرة رائعة الجمال مقيدة بالطاولة. وكان دوسندر يساعده بلباس الجزار الأبيض. وما لبث أن أشار بيده بقصد تشغيل معدات المراقبة.

اســـتيقظ على صوت المطر. كان مستلقياً على جنبه في عتمة الليل، وكـــان قلبه يخفق بسرعة. رأى بللاً في ثيابه الداخلية فانتابه الذعر بعد أن اعتقد بأنه ينزف... ثم أدرك حقيقة ذلك السائل، وشعر بما يشبه الغثيان.

قـــبض على يديه. كان مشهد السائل مثيراً للإشمئزاز، ولكنه لم يكن في يده حيلة، مثل قضمة غير متوقعة من حبة فاكهة استوائية أدرك عندها (في وقت متأخر جداً) أن طعمها حلو لأنها عفنة.

كانت هناك طريقة واحدة لكي يستعيد نفسه مجدداً.

علـــيه أن يقتل دوسندر، لأنها الطريقة الوحيدة للخلاص. لقد انتهت اللعبة، وانتهى وقت القصة، وبات الأمر يتعلق بالبقاء.

همس في الظلام فيما كان المطر ينهمر في الخارج: "اقتله وينتهي كل شيء". كان للهمس أثر في إضفاء مسحة من الحقيقة على تلك العبارة.

كان دوسندر يحتفظ دائماً بثلاثة أو أربعة أخماس مخزونه من الشراب في رف فوق سلّم القبو شديد الميل. ولذلك، يتوجب عليه أن يفتح الباب وينزل درجتين، ثم ينحني ويضع يده على الرف، ويمسك بزجاجة جديدة من عنقها مستخدماً اليد الأخرى. لم تكن أرضية القبو مغطاة بطبقة من الاسمنت، ولكن الأوساخ كانت كثيرة فيها، وكان دوسندر - بكفاءة ميكانيكية جعلت تود يعتقد الآن بأنها كفاءة بروسية أكثر منها كفاءة ألمانية - يرشها بالزيت مرة كل شهرين لمنع الحشرات من التكاثر في الأوساخ. بإسمنت أو بدونه، يمكن كسر عظامه الهرمة بسهولة. والرجال الهرمون معرضون للحوادث. وسيُظهر التشريح الجنائي أن السيد دنكر كان ثملاً عندما سقط.

ماذا حدث يا تود؟

لم يفتح الباب، ولذلك استعملت المفتاح الذي أعطاني إياه. فهو ينام في بعض الأحيان. دخلت المطبخ ورأيت باب القبو مفتوحاً. نزلت السلّم ووجدته...

ثم بكيت بالطبع.

ستنجح الخطة. سيعود الوضع كما كان مرّة أخرى.

بقي تود لوقت طويل مستيقظاً في الظلام، وهو ينصت إلى هزيم الرعد غرباً فوق المحيط الهادئ، وينصت إلى الصوت الخفي للمطر. اعتقد بأنه سيبقى مستيقظاً طوال الساعات المتبقية من الليل، وهو يفكر في المسألة المرّة تلو المرّة. ولكنه خلد إلى النوم بعيد لحظات، ونام بدون أن تراوده أحلام وهو يضع راحته تحت خدّه. ثم استيقظ صبيحة الواحد من مايو/أيار وهو يشعر بالراحة الكاملة وذلك لأول مرّة منذ أشهر عديدة.

11

مايو/أيار 1975

بالنسبة إلى تود، كان يوم الجمعة ذلك أطول يوم في حياته. كان يحضر الحصة تلو الحصة من غير أن يسمع شيئاً منتظراً الدقائق الخمس الأخيرة منها عندما يُخرج المعلّم مجموعته الصغيرة من شهادات الفشل ويوزعها على الطلاب. وكان كلما اقترب معلّم من طاولة تود حاملاً

رزمته من شهادات الفشل، كانت القشعريرة تسري في بدنه. وعندما يبتعد من غير أن يتوقف عنده، كان يشعر بموجات الدوار والهستيريا.

كانـــت مادّة الجبر الأسوأ من بين سائر المواد. اقترب ستورمان... وتـــردد... وبعد أن بات تود مقتنعاً بأنه سيمضي في طريقه، وضع شهادة فشل على طاولة تود. نظر إليها تود ببرودة، وبدون مشاعر على الإطلاق. قال في نفسه، حسناً، هذه هي النتيجة. نقطة، لعبة، مجموعة، مباراة. ما لم يفكر دوسندر بحيلة أخرى، ستظل الشكوك تراودني.

قلب تود شهادة الفشل بدون الكثير من اهتمام ليرى إلى أي حدّ تخلف عـــن مستوى جيد. لا بدّ وأنه كان قريباً من الوصول إليه، ولكنه كان واثقاً مـــن أن ســـوني ستورمان لن يمنح أحداً فرصة. رأى أن الخانات المقابلة للعلامـــات فارغة؛ سواء الخانات الخاصة بالتقديرات أو الخانات الخاصة بالعلامات.

عاد الدوار إليه مجدداً، وبشكل أكثر حدّة الآن وهو يزأر في رأسه، وهو مـــا جعلـــه يشعر كما لو كان بالوناً مليئاً بغاز الهيليوم. أمسك بطرفي الطاولة بكـــل مـــا لديه من قوة فيما سيطرت على عقله فكرة واحدة: مقاومة الإغماء، مقاومـــة الإغمـــاء. وشيئاً فشيئاً، مرّت موجات الدوار بسلام، ثم كان عليه أن يقاوم إغراء اللحاق بستورمان، وحمله على الاستدارة، ليفقأ عينيه بواسطة قلم رصـــاص حادّ يحمله في يده. ولكن وجهه بقي سالماً، والأمارة الوحيدة على حدوث شيء في الداخل هي تشنّج عضلي خفيف في جفني عينيه.

صـــرفت المدرســـة التلاميذ بعد خمس عشرة دقيقة. مشى تود ببطء حـــول المبنى قاصداً درّاجته، منحني الرأس، ويداه في جيبيه، وكتبه أسفل ذراعـــه اليمنـــى، مـــن غيـــر أن ينتبه إلى الطلاب الذين كانوا يركضون ويـــصرخون. ألقى بالكتب في سلّة الدرّاجة، ونزع القفل، وركب الدرّاجة وتوجّه إلى منزل دوسندر.

قال في نفسه، اليوم هو يومك أيها الرجل العجوز.

قال دوسندر وهو يصب الشراب في كوبه لحظة دخول تود المطبخ: "إذن، عاد المتهم من قفص الإتهام. ماذا قالوا لك أيها المسجين؟" كان يرتدي رداء الحمـــام وجـــوارب صوفية طويلة. اعتقد تود بأن جوارب مثل هذه ســـتجعله ينزلق على الأرض بسهولة. ونظر إلى زجاجة الشراب. لم تكن تبعد عن متناوله أكثر من مسافة ثلاث أصابع.

قـال تود: "لم أحصل على تقديرات مقبول، أو ضعيف، كما لم أحصل علـى شـهادات فـشل. ولكن لا يزال يتعين عليّ تعديل بعض العلامات في يونـيو/حزيران، وربما تعديل متوسط بعض العلامات. وفي إمكاني الحصول على تقدير ممتاز وجيد جداً في كافة المواد إذا واظبت على العمل الجاد".

قـال دوسندر: "ستفعل ذلك حتماً. وسنحرص على أن تفعل ذلك". ثم شـرب شـربة من كوبه وقال: "إنها نتيجة تستدعي الإحتفال". كان صوته خافتاً بعض الشيء بحيث بالكاد كان مسموعاً، ولكن تود عرف بأن الرجل العجوز ثمل كما كان دائماً. أجل، سيكون اليوم يومه.

ولكنه كان هادئ الأعصاب.

قال لدوسندر: "احتفل أيها الحقير".

قـال دوسندر متجاهلاً تلك العبارة: "أخشى أن الساعي لم يصل بعد حـاملاً السمك الأبيض والكمأة. لم يعد في الإمكان الإعتماد على المساعدة فـي هـذه الأيام. ما رأيك لو نشرب بعض المشروب ونتناول البسكويت الجاف أثناء انتظارنا؟"

قال تود: "حسناً".

نهـض دوسـندر (اصطدمت إحدى ركبتيه بالطاولة مما جعله يشعر بـالألم) وتوجه نحو الثلاجة. أخرج بعض الجبن، وأخرج سكيناً من الدرج وطبقاً من الخزانة، وعلبة من البسكويت الجاف من صندوق الخبز.

قـال لـتود فيما كان يضع الجبن والبسكويت الجاف على الطاولة: "جميعها محقونة بالحمض البروسي". وابتسم فتبين لتود أنه لا يضع أسنانه الإصطناعية. ولكن تود ردّ بابتسامة مماثلة بالرغم من ذلك.

تساءل دوسندر: "أنت هادئ على نحو غير طبيعي اليوم. توقعت أن تقفز حال دخولك ردهة المنزل". وملأ كوبه بالشراب، وشرب منه شربة، ثم ضمّ شفتيه.

قال تود: "أعتقد بأنني لا زلت مخدراً". وتناول قطعة من البسكويت. لـم يعـد يمتنع عن تناول طعام دوسندر منذ مدة طويلة، فقد كان دوسندر يعتقد بأن تود أودع رسالة لدى أحد أصدقائه؛ لكن لم تكن توجد أية رسالة بالطـبع. صحيح أن لديه أصدقاء، ولكنه لا يولي أياً منهم الكثير من الثقة. اعـتقد تود بأن الشك ربما يساور دوسندر، ولكنه علم بأنه لن يجرؤ على إخضاع تخمينه لاختبار شديد مثل ارتكاب جريمة قتل.

سأله دوسندر وهو يشرب آخر جرعة: "ما هو الموضوع الذي سنتحدث عنه اليوم؟ سأعفيك هذا اليوم من الدراسة، فما رأيك؟" عندما يشرب دوسندر، تثقل لكنته، وهي اللكنة التي بات تود يكرهها. ولكنه لم يعد يرى فيها بأساً الآن، ولا في أي شيء آخر. أحس ببرودة الأعصاب. نظر إلى يديه، وهما اليدان اللتان ستدفعان دوسندر، فبدتا كما كانتا دائماً. لم تظهر عليهما علامات الرجفة، بل كانتا باردتين.

قال تود: "لا يهم. اختر الموضوع الذي تريده".

"ما رأيك في الحديث عن الصابون الخاص الذي صنعناه؟ أو في تجاربنا على الشذوذ القسري؟ أم أنك ترغب في سماع قصة هروبي من برلين بعد أن انتابني ما يكفي من الجنون لكي أرجع إليها؟ كانت تلك قصة مشوقة".

قال تود: "تحدث عن أي شيء". راقب دوسندر وهو يتفحص الزجاجة الفارغة. نهض دوسندر حاملاً الزجاجة في يده، وتوجه نحو سلّة المهملات، وألقاها فيها.

قال دوسندر: "كلا، لن أخبرك عن أي من هذه القصص، لأنه لا يبدو أنك في مزاجٍ جيد". وقف بالقرب من سلّة المهملات للحظة، ثم مشى في المطبخ متوجهاً نحو باب القبو. كان جارباه الصوفيان يهمسان على أرضية المطبخ. قال دوسندر: "أعتقد أنني سأخبرك بدلاً من ذلك عن قصة رجل عجوز كان يشعر بالخوف".

فتح دوسندر باب القبو. أدار ظهره الآن للطاولة، فنهض تود بهدوء.

مضى دوسندر فقال: "كان خائفاً من صبي صغير أصبح صديقه بطريقة ما. كان ولداً ذكياً، وكانت أمّه تصفه *بالتلميذ الموهوب*، وقد اكتشف الرجلُ العجوز أنه تلميذ موهوب فعلاً... ولكن ليس على النحو الذي كانت تراه أمّه".

ضغط دوسندر على المفتاح الكهربائي القديم المثبت على الجدار، محاولاً تشغيله بإصبعه التي ترتجف. مشى تود، كما لو كان يتزلّج على أرضية المطبخ متجنباً الدوس على الأمكنة التي يمكن أن تحدث صوتاً. فقد أصبح يألف مطبخ دوسندر بقدر ما يألف المطبخ في منزل والديه، وربما أكثر.

قال دوسندر: "في البداية، لم يكن الصبي صديقاً للرجل العجوز". تمكن من تشغيل المفتاح الكهربائي أخيراً، ووضع قدمه على الدرجة

الأولـــى بحرص رجل ثمل محنّك. "في البداية، كان الرجل العجوز يكنّ له كــرهاً عمــيقاً. ثم بدأ يستمتع بصحبته، بالرغم من أنه كان لا يزال يوجد عنــصر كــراهية فــي العلاقة بينهما". كان ينظر إلى الرف وهو يمسك بالدرابزين في الوقت نفسه. مشى تود خلفه وهو يحسب فرص نجاح دفعة واحــدة تـبعد دوســندر عن الدرابزين. ولكنه قرر الانتظار ريثما ينحني دوسندر إلى الأمام.

"يعــود جــزء مــن إحــساس الــرجل العجوز بالمتعة إلى إحساسه بالمــساواة. فكمــا ترى، بات كل من الصبي والرجل العجوز يمسك برقبة الآخر. عرف كل منهما أمراً يريد من الآخر أن يبقيه سرّاً. ثم بدا واضحاً بالنــسبة إلـــى الرجل العجوز أن الأمور بدأت تتغيّر. أجل، كانت سيطرة الــصبي تضعف؛ جزئياً أو كلّياً تبعاً لدرجة شعوره باليأس، ودرجة ذكائه. بــدا للرجل العجوز في إحدى الليالي الطويلة التي عجز فيها عن النوم أنه ربمــا يكون من الأفضل بالنسبة إليه لو يملك دليل إدانة جديداً للصبي، من أجل سلامته الخاصة".

أبعد دوسندر يده عن الدرابزين الآن، وانحنى فوق درجات سلّم القبو شــديد الإنحــدار، ولكــن تود بقي في مكانه. كانت عظامه الباردة تذوب، وحلــت محلهــا فــورة من الغضب والإرباك. وفيما كان دوسندر يمسك بزجاجته الجديدة، تبين لتود بأن لدى هذا الرجل العجوز القبو الأكثر إثارة للإشــمئزاز في البلدة، بزيت أو بدونه. كانت تفوه منه رائحة كما لو كان يوجد شخص ميت فيه.

"ولذلك، نهض الرجل العجوز من فراشه على الفور. فما الذي يعنيه النوم بالنــسبة إلى رجل عجوز؟ إنه يعني القليل. ثم جلس إلى طاولته الصغيرة وهو يفكــر فـــي كيفية إيقاع الصبي الذكي بالجرائم التي كان يهدده بها. وتعجب من الجهد الشاق الذي بذله الصبي لكي يعود إلى مستواه الجيد السابق في المدرسة، وعلــم بأنه كيف وأين ومتى عاد إلى مستواه السابق، فإنه لن يعود بحاجة إلى بقاء الرجل العجوز حياً، وأنه إذا مات الرجل العجوز، فسيصبح حرّاً".

التفت الآن وهو يضع زجاجة جديدة من الشراب بالقرب من عنقه.

قـــال دوسندر: "لقد سمعتك منذ اللحظة التي دفعت فيها كرسيك إلى الخلــف ووقفت على قدميك. أنت لست هادئاً كما كنتُ أتخيل أيها الصبي. في هذه اللحظة على الأقل".

لم يقل تود شيئاً.

قـال دوسندر مستفهماً وهو يعود إلى المطبخ بعد أن أغلق باب القبو بقـوة خلفـه: "إذن، لقد كتب الرجل العجوز كل شيء، أليس كذلك؟ كتب القصة كاملة من أولها إلى آخرها. وعندما انتهى أخيراً، كان الوقت يؤذن ببـزوغ الفجر وكانت يده ترتجف بسبب داء التهاب المفاصل، ولكنه شعر بأنـه في مزاج جيد لأول مرّة منذ عدة أسابيع. لقد شعر بالأمان. عاد إلى سريره، ونام حتى منتصف الظهيرة. في الواقع، لو أنه نام فترة أطول من ذلك، كان سيفتقد إلى مكانه المفضل؛ المستشفى العام".

عـاد إلى كرسيه الهزاز الآن. جلس، وأخرج مدية جيب قديمة ذات قبضة عاجية صفراء، وبدأ بقطع الشريط اللاصق الذي يحيط بالسدادة في أعلى زجاجة الشراب.

"فـي الـيوم التالـي، ارتدى الرجل العجوز أبهى حلّة، وذهب إلى المـصرف حيث يوجد لديه حساب صغير للإدخار وحساب جار. وهناك، تحـدث إلـى أحـد المسؤولين في المصرف والذي كان قادراً على تقديم إجابـات مرضـية عن كافة الأسئلة التي طرحها الرجل العجوز. استأجر صندوقاً لإيداع الأمانات. شرح المسؤول للرجل العجوز بأنه يوجد مفتاحان للـصندوق، أحـدهما في حوزته والآخر في حوزة المصرف. ولكي يُفتح الـصندوق، ينبغـي اسـتخدام كِلا المفتاحين. فلا يوجد أحد سوى الرجل العجـوز يمكـن أن يستخدم مفتاحه بدون رسالة موثّقة وموقّعة من الرجل العجوز نفسه تسمح بذلك، مع استثناء واحد".

ابتـسم دوسـندر بـوجهه الخالـي من الأسنان في وجه تود بودين الشاحب.

قال دوسندر: "الإستثناء قائم في حال وفاة صاحب الصندوق". كان لا يزال ينظر بابتسامته السابقة إلى تود. أعاد دوسندر مدية الجيب إلى جيب ردائه، وفتح زجاجته، وصبّ بعضاً من الشراب في كوبه.

سأله تود بصوت أجش: "ماذا سيحدث عندئذٍ؟"

"عندئذٍ، يُفتح الصندوق في حضور مسؤول من المصرف وممثل عن مصلحة جباية الضرائب. ويتمّ توثيق ما في الصندوق من محتويات. وفي هـذه الحالة لا يوجد سوى مستند يتألف من اثنتي عشرة صفحة. أوراق لا تطالها الضريبة... ولكنها هامة جداً".

اقتــربت أصـــابع يــدي تود من بعضها وتشابكت. قال تود بصوت مذهــول: "لا يمكـــنك أن تفعــل ذلك". كان صوته كصوت شخص لاحظ شخصاً آخر يمشي على السقف. "لا يمكنك فعل ذلك".

قال دوسندر بلطف: "يا صغيري، لقد فعلتُ ذلك".

"ولكننـــي... أنـــا.. وأنـــت.." ارتفع صوت تود معبراً عن ألم: "أنت طــاعن في السنّ. ألا تعرف بأنك رجل طاعن في السنّ؟ يمكن أن تموت. يمكن أن تموت في أية لحظة".

نهض دوسندر، وتوجه نحو خزانة في المطبخ، وأخرج كوباً زجاجياً صــغيراً. كــان يــوجد في الكوب آثار الهلام. رُسمت على حافة الكوب رســومات كــرتونية تعرّف عليها تود على الفور؛ فريد وويلما فلينستون، وبارنـــي وبيتي روبل، وبيبلز وبام-بام. لقد ترعرع وهو يشاهدها. راقب دوســندر وهـــو يمسح آثار الهلام بمنشفة. راقبه وهو يضع الكوب أمامه. وراقبه وهو يصب الشراب فيه.

تمتم تود قائلاً: "لماذا وضعت هذا الشراب في الكوب. فأنا لا أشرب. فالشراب لشخص حقير مثلك".

"ارفـــع كـــوبك أيها الصبي. إنها مناسبة خاصة. ستشرب في هذا اليوم".

نظر تود إليه لفترة طويلة، ثم أمسك بالكوب. ولامس دوسندر بكوبه الرخيص المصنوع من السيراميك بذكاء كوبَ تود.

"ســـأقترح نخباً أيها الصبي؛ نخب العمر المديد. العمر المديد لكلينا!"

شـــرب شـــربة ثـــم بدأ يضحك. هزّ كرسيه إلى الأمام وإلى الخلف بحيث لامست قدماه أرضية المطبخ فيما كان يضحك. لم يسبق أن رآه تود شبيهاً بالنـــسر كمـــا هـــو الآن، نـــسر في رداء الحمام، وحش يقتات على جيف الحيوانات القذرة.

قال تود بصوت منخفض: "أنا أكرهك". ثم بدأ دوسندر بالسعال بسبب الــضحك، وأصـــبح وجهـــه قاتم اللون. بدا كما لو أنه يسعل، ويضحك، ويختـــنق في الوقت نفسه. نهض تود الذي انتابه الخوف من مقعده، وربت على ظهر دوسندر إلى أن هدأت نوبة السعال.

قال دوسندر: "شكراً جزيلاً، اشرب مشروبك. سيعود عليك بالنفع".

شرب تود، فوجد أن مذاقه أشبه بدواء قديم بارد أشعل ناراً في حلقه.

قال تود وهو يعيد الكوب إلى مكانه باستخفاف: "لا يمكنني أن أصدق بأنــك تــشرب هذه القذارة طوال اليوم. من الأفضل أن تقلع عن الشرب. أنصحك بالإقلاع عن الشرب والتدخين".

قال دوسندر: "أشكر اهتمامك المؤثر بصحتي". وأخرج علبة السجائر من الجيب نفسه الذي وضع فيه المدية، وأضاف: "وأنا متخوف بالمثل على صــحتك أيها الصبي. فأنا أقرأ كل يوم الأخبار التي تنشرها الصحف عن راكب درّاجة قضى نحبه عند تقاطع للحافلات. ينبغي عليك أن تتخلّى عن قيادة الدرّاجة. ينبغي عليك أن تمشي، أو تركب الحافلة مثلي".

انفجر تود في وجهه بالقول: "لِمَ لا تعظ نفسك؟"

قــال دوسندر وهو يصبّ الشراب ويضحك مجدداً: "أيها الصبي، كل واحد منا يعظ الآخر، ألا تدرك ذلك؟"

فــي أحــد أيــام الأسبوع التالي، كان تود جالساً على رصيف عديم الازدحــام في محطة للقطارات. كان يلهو بالنفايات المعدنية المنتشرة بين الأعشاب الضارّة التي تحيط بسكة الحديد.

سأل نفسه، ما هو السبب الذي يجعله يتراجع عن قتله؟

بمــا أنــه صبي منطقي، فالجواب المنطقي يتبادر إلى ذهنه أولاً. لا يــوجد سبب على الإطلاق. فدوسندر سيموت عاجلاً أم آجلاً. وبالنظر إلى عــادات دوسندر، على الأرجح أن يكون موته عاجلاً. وسواء أقتل الرجل العجــوز أم مات من جرّاء تعرّضه لنوبة قلبية في الحمام، سيكون مصيره المــوت علــى كــل حــال. لكنه سيتشرّف على الأقل بخنق رقبة الرجل العجوز.

كانت عبارة *عاجلاً أم آجلاً* تتحدى تفكيره المنطقي.

قــال تــود فــي نفسه، ربما سيموت لاحقاً، سواء أكان يدخن أم لا، وســواء أكان يشرب أم لا، لأنه عجوز لعين شديد البأس. فقد استطاع أن يعمّر فترة طويلة، لذلك، ربما سيموت لاحقاً.

سمع صوت شخير فنهض على قدميه بسرعة. أنصت قليلاً، وما لبث أن سمع ذلك الصوت مجدداً.

توقــف، وهــو على وشك أن يبدأ بالجري، ولكنه لم يسمع الصوت مجــدداً. كان يوجد على مسافة تسعمائة متر طريق سريع يتألف من ثمانية مــسارب تعتــرض الأفــق بــين هذه الأعشاب، وقطع الخردة، والمباني

المهجورة، والأسياج الحديدية الصدئة، والأرصفة المهترئة التي يعلوها الصدأ. كانت نوافذ السيارات المارّة في الطريق السريع تلمع تحت أشعة الشمس مثل خنافس غريبة ذات أجنحة قاسية. كان الطريق مؤلف من ثمانية مسارب، لكن لا يوجد شيء هنا سوى تود، والقليل من العصافير... وذلك الشيء الذي أصدر صوت الشخير.

انحنى بحذر شديد، واضعاً يديه على ركبتيه، ثم بدأ يتقدم نحو المنصة. رأى سكيراً ممداً بين الأعشاب الصفراء والعلب الفارغة والزجاجات القديمة الوسخة. كان من المستحيل تحديد عمره بدقّة، ولكن تود قدّر بأن عمره يتراوح بين الثلاثين والأربعين سنة. كان يرتدي قميصاً مخططاً بدت عليه آثار قيئ جاف، وسروالاً أخضر اللون بقياس أكبر بكثير من قياسه، وينتعل حذاء جلدياً رمادي اللون كثير التشققات. كانت التشققات أشبه بأفواه متألمة. وبدت رائحته بالنسبة إلى تود مثل رائحة قبو دوسندر.

فتح هذا الرجل الثمل عينيه الحمراوين ببطء، ونظر إلى تود نظرة تعجّب. في هذه اللحظة، فكّر تود بالسكين التي يحتفظ بها في جيبه. كان قد اشتراها من متجر يبيع الأدوات الرياضية في ريدونو لبينتش قبل عام تقريباً. تذكر ما قاله الموظف الذي باعه السكين: "لا يمكنك الحصول على سكين أفضل من هذه أيها الصغير؛ سكين مثل هذه يمكن أن تنقذ حياتك في يوم من الأيام. ونحن نبيع خمسمائة منها كل عام".

وضع يديه في جيبه، وأمسك بالسكين. تذكر دوسندر وهو يفتح الزجاجة بواسطة المدية، وينزع السدادة عنها.

مسح الرجل الثمل شفتيه بيده ثم مساحهما بلسانه الذي أكسبه النيكوتين لوناً دائماً كئيباً أصفر. قال الرجل: "هل تملك عشرة سنتات أيها الصغير؟"

نظر إليه تود بتعجّب.

"يتعين عليّ الذهاب إلى لوس أنجلوس، وأنا بحاجة إلى عشرة سنتات إضافية لكي أستقلّ الحافلة. لديّ موعد هناك، لدي فرصة للحصول على عمل. ولا بد وأن طفلاً لطيفاً مثلك يملك عشرة سنتات. وربما كنت تملك خمسة وعشرين سنتاً".

أجل سيدي، يمكنك تنظيف سمكة بواسطة سكين مثل هذه... اللعنة، يمكنك تنظيف سمكة مارلين لعينة بواسطتها إذا احتجت إلى فعل ذلك. إننا

نبيع خمسمائة من هذه السكاكين كل عام. إنها تباع في كافة المتاجر التي تبيع الأدوات الرياضية، وفي حال قررت أن تستخدمها في تنظيف ثمل عجوز وقذر، لا يمكن أن يكتشف أحد أنك أنت من فعل ذلك. لن يتوصل أحد إلى اكتشاف ذلك بالتأكيد.

انخفض صوت الرجل الثمل، وأصبح خافتاً وأقرب إلى صوت الهمس. أخرج تود يده من جيبه. لم يكن يعرف مقدار النقود التي أخرجها منه، ولكنه أعطاها لذلك الرجل وغادر المكان.

12

يونيو/حزيران 1975

دخل تود بودين الذي أصبح الآن في الرابعة عشرة من عمره فناء منزل دوسندر راكباً درّاجته، والتي ما لبث أن أوقفها بالقرب من عتبة الباب. رأى صحيفة لوس أنجلوس تايمز ملقاة على الدرجة الأولى فالتقطها. نظر إلى زرّ الجرس، ووجد أن اللوحتين اللتين تحملان نقوشاً جميلة تقول، أرثر دنكر، لا نستقبل جامعي التبرّعات، ولا البائعين المتجوّلين، ولا مندوبي المبيعات، لا تزالان في مكانهما. لم يعد بحاجة إلى الضغط على زرّ الجرس الآن بالطبع، فهو يملك مفتاح المنزل.

في مكان قريب من الباب، سمع صوت جزّ أعشاب. كان في مقدوره أن ينصح الرجل العجوز بالبحث عن صبي يمكنه جزّ تلك الأعشاب. بات دوسندر ينسى أشياء مثل هذه في معظم الأحيان الآن. ربما كان ذلك من أمارات الخرف، وربما كان سبب ذلك التأثير الذي يخلّفه الشراب في دماغه. كانت تلك فكرة سديدة بالنسبة إلى صبي في الرابعة عشرة من عمره، ولكن مثل هذه الأفكار لم تعد تخطر ببال تود في المناسبات وحسب، فقد باتت تراوده الكثير من الأفكار السديدة في هذه الأيام، علماً بأن غالبيتها لم تكن رائعة جداً.

دخل تود المنزل. أحسّ بقشعريرة الرعب المعتادة التي تسري في بدنه كلما دخل المطبخ، ورأى دوسندر غارقاً في كرسيه الهزاز، والكوب على الطاولة، وإلى جانبه زجاجة نصف فارغة من الشراب. كان يوجد في غطاء مرطبان للمايونيز سيجارة احترقت بالكامل إلى جانب العديد من أعقاب السجائر الأخرى. لاحظ أن فم دوسندر كان مفتوحاً ووجهه أصفر،

ويديــه الكبيــرتين تتدلــيان فوق ذراعي كرسيه الهزاز. لا يبدو أنه كان يتنفس.

قال بنبرة فيها شيء من القسوة: "دوسندر. انهض وابتهج، دوسندر".

شــعر بموجة عارمة من الراحة عندما انتفض الرجل العجوز، وفتح عينيه، واعتدل أخيراً.

"هل هذا أنت؟ أليس الوقت مبكراً جداً؟"

أجــاب تــود: "ســمحوا لــنا بالخروج باكراً لأنه اليوم الأخير في المدرســة". وأشار إلى بقايا السجائر في غطاء المرطبان وقال: "سيحترق منزلك يوماً ما ويصبح مثل هذه بسبب التدخين".

قال دوسندر باستخفاف: "ربما". ثم بدأ يتحسس علبة السجائر وأخرج واحدة (تدحرجت على الطاولة وكادت أن تسقط قبل أن يتمكن من الإمساك بهــا) وقــام بإشــعالها. تلا ذلك نوبة من السعال، وهو ما جعل تود ينظر باشــمئزاز. عندما يبدأ الرجل العجوز بالتدخين، كان يتوقع منه أحياناً أن يــبدأ بالبــصاق علــى الطاولة، وإخراج قطع من أغشية رئتيه... وربما الإبتسام بسبب ذلك.

ثــم هدأت نوبة السعال بما يكفي لكي يقول دوسندر: "ما هذا الشيء الذي تحمله في يدك؟"

"شهادتي المدرسية".

أمسك بها دوسندر، وفتحها، وأبعدها عن عينيه مسافة ذراع لكي يتمكن من قراءتها. "اللغة الإنكليزية... ممتاز؛ التاريخ الأميركي... ممتاز؛ العلوم... جــيد جــداً. إجتماعيات... ممتاز؛ اللغة الفرنسية... جيد. الجبر... جيد". ثم وضــع الشهادة على الطاولة وقال: "هذا رائع. لقد نجونا أيها الصبي. هل أنت بحاجة إلى تغيير أي من هذه المعدلات التي في العمود الأخير؟"

"أجــل، معــدل اللغة الفرنسية ومعدل الجبر، لكنني لست بحاجة إلى إضــافة أكثــر من ثماني أو تسع علامات على الأكثر. لا أعتقد بأن أمرنا سينكشف، أعتقد بأنني أدين بهذا الأمر لك. صحيح أنني لست فخوراً بذلك، ولكنها الحقيقة. ولذلك أريد أن أشكرك".

قال دوسندر: "يا له من كلام مؤثر". وبدأ يسعل مجدداً.

قال تود: "أعتقد بأنني لن أكثر من زيارتك من الآن فصاعداً". فتوقف دوسندر عن السعال فجأة.

قال بنبرة مؤدبة: "حقاً؟"

أجـــاب تود: "أجل. إننا ذاهبون إلى هاواي لقضاء إجازة مدتها شهر تبدأ في الخامس والعشرين من يونيو/حزيران. وفي سبتمبر/أيلول، سأذهب إلى المدرسة في وسط المدينة، وسأستخدم الحافلة من أجل ذلك".

قال دوسندر: "أجل، إنه القلق". وراقب ذبابة وهي تمشي فوق الغطاء القماشـــي الزيتـــي المنقوش بمربعات حمراء وبيضاء اللون: "لقد أمضيت خمـــسة وعـــشرين عاماً في هذا البلد وأنا أشعر بالقلق. ولكننا توصلنا إلى الحـــل... ألـــيس كذلك؟" وابتسم بفم خالٍ من الأسنان فنظر تود إلى أسفل وتحـــسس أثـــر حركة التنفس على معدته. الرعب، الكراهية، والرغبة في فعل شيء بغيض جداً لدرجة أنه لن يمكن التفكير فيه سوى في الأحلام.

قال تود: "اسمع، أنا أخطط للإلتحاق بالكلّية، في حال لم تكن تعرف. أعـــرف أن لا يـــزال الـــوقت مبكـــراً للحديث عن ذلك، ولكنني أفكر في مستقبلي. حتى أنني أعرف الحقل الدراسي الذي أريد أن أتخصص فيه، إنه التاريخ".

"هذا أمر مثير للإعجاب. إن من لا يتعلم من الماضي،..."

قال تود: "أوه، توقف".

ســـكت دوسندر في إيماءة ودية. فقد عرف أن الصبي لم ينتهِ منه... ليس بعد. جلس وهو قابض يديه فيما كان يراقبه.

قال تود فجأة: "يمكنني استعادة الرسالة من صديقي. هل تعرف ذلك؟ يمكنني أن أدعك تقرأها، ثم تراقبني وأنا أحرقها. إذا.."

"إذا تخلصت من مستند معين موجود في صندوق حفظ الأمانات".

"حـــسناً... أجل". تنهد دوسندر تنهداً طويلاً حزيناً وقال: "يا صغيري. أنت لا زلت لا تفهم الوضع. أنت لم تفهمه منذ البداية. ربما لأنك لست سوى صـــبي، ولكن ذلك ليس السبب الوحيد... حتى عندما بدأت زياراتك لي، كنتَ صـــبياً كبيراً. كلا، فالسبب الحقيقي كان ولا يزال ثقتك الأميركية المخيفة في نفسك التي لا تسمح لك بالتفكير في العواقب المحتملة لما تقوم به... وهذا ما لا يسمح لك بمعرفتها حتى في الوقت الحالي".

بدأ تود بالكلام، ورفع دوسندر يده بعناد.

"كـــلا، لا تعارضـــني. إنها الحقيقة. اذهب إذا شئت. غادر منزلك، وارحـــل من هنا، ولا تعد مرّة أخرى. هل في استطاعتي منعك من ذلك؟

كـــلا. بالطبع لا أستطيع ذلك. استمتع بوقتك في هاواي فيما أجلس أنا في هـــذا المطبخ الحار الذي تفوح منه رائحة الزيت، وأنتظر لكي أعرف إن كـــان القلق سيتسبب في قتل رجال الشرطة وإحراق مبانيهم القذرة مجدداً هذا العام. لا يمكنني منعك مثلما أنني لا أستطيع وقف تقدمي في العمر ولو يوماً واحداً".

نظـــر إلى تود من غير أن يبعد ناظريه عنه، وهو ما حمل تود على النظر بعيداً.

"في أعماق نفسي، أشعر بأنني لا أحبك. فقد فرضتَ نفسك عليّ. أنت ضـــيف بـــدون دعـــوة في منزلي. لقد عملت على فتح سراديب كان من الأفـــضل لـــو بقيت مقفلة، لأنني اكتشفت بأن أصحاب بعضها دُفنوا وهم أحـــياء، وأن قلـــة مـــن هؤلاء لا يزالون يتنفسون. وأنت نفسك وقعت في الـــشرك، لكن هل أشفق عليك بسبب ذلك؟ لقد صنعتَ سريرك، هل ينبغي أن أشفق عليك لأنك لا تنام جيداً فيه؟ كلا... أنا لا أشفق عليك. ولذلك، لا تحـــاول اســـتنفاد صبري عبر سؤالي شرح هذا الأمر مرتين. في وسعنا اســـترجاع مـــستنداتنا وإتلافها هنا في هذا المطبخ. ولكن الأمر لن ينتهي بالـــرغم من ذلك. في الواقع، لن نصبح في حال أفضل مما نحن عليه في هذه اللحظة".

"أنا لا أفهمك".

"أنا أعرف ذلك، والسبب هو أنك لم تدرس عواقب ما أطلقتَ حركته. أصـــغ إليّ أيها الصبي. إذا أحرقنا رسائلنا هنا، في غطاء المرطبان الذي علـــى الطاولـــة، مـــن أين لي أن أعرف بأنك لا تحتفظ بنسخة أخرى؟ أو نـــسختين؟ أو ثـــلاث؟ يـــوجد في المكتبة ماكينة نسخ. وفي مقابل خمسة ســـنتات، يمكن لأي كان أن يصنع نسخة. وفي مقابل دولار، يمكنك تعليق نـــسخة عـــن الإعـــلان الذي نُشر عنّي عند كل زاوية شارع وعلى امتداد عـــشرين منـــزلاً. ثلاثـــة كيلومترات من الإعلانات أيها الصبي! فكّر في الأمـــر. هـــل يمكنك أن تقول لي كيف يمكنني التأكد من أنك لم تفعل هذا الأمر؟"

"أنا... حسناً، أنا... "أدرك تود أنه يتعثر في الكلام ولذلك اضطر إلى إغـــلاق فمه. وفجأة، شعر بالحرارة تسري في جلده، وبدون سبب معيّن، تذكر أمراً وقع عندما كان في السابعة أو الثامنة من عمره. فقد كان يزحف

مـع صـديق له في أنبوب يمرّ أسفل الطريق القديم خارج البلدة. لم يجد صـديقه النحيل مشكلة في ذلك... ولكن تود علق في الأنبوب. أدرك فجأة أنـه يـوجد متـر من الصخور والأتربة فوق رأسه. وعندما مرت شاحنة فـوقه، اهتزت الأرض، وجعلت الأنبوب يهتزّ في ذبذبات متدنية صامتة، وهـو مـا دفعه إلى الصراخ والصراع بطريقة حمقاء لكي يدفع نفسه إلى الأمـام مستعيناً برجليه، وهو يصرخ طالباً النجدة. وفي النهاية، تمكن من تحريك نفسه مجدداً. وعندما خرج من الأنبوب، سقط مغشياً عليه.

لقد قام دوسندر للتو بتكرار ذلك المشهد بطريقة لم يسبق أن خطرت بباله. كان في استطاعته الشعور بمزيد من الحرارة وهي تسري في جلده، وقال في نفسه: لن أصرخ.

"مـن أيـن لك أن تعرف أنني لم أصنع نسختين عن المستندات التي أودعـتها فـي صندوق حفظ الأمانات... وأنني أحرقتُ واحدة، واحتفظت بالأخرى هناك؟"

أنا في مأزق، كما كان الحال عندما دخلتُ الأنبوب حينها. لكن ما هو السبب الذي تريد الصراخ الآن من أجله؟

زادت وتيـرة خفقـات قلـبه، وشعر بالعرق وهو يتصبب من يديه ومؤخـرة عنقه. تذكر كيف كان حاله في ذلك الأنبوب، تذكر رائحة المياه الآسـنة، وإحـساسه ببرودة المعدن المضلع البارد، وكيف اهتزّ كل شيء عندما مرّت الشاحنة فوقه، وتذكر كيف كانت دموعه حارّة ويائسة.

"وحتـى لو وُجد طرف ثالث محايد يمكننا اللجوء إليه، ستظل هناك شكوك دائماً. المشكلة غير قابلة للحل أيها الصبي. صدقني".

شـعر أنه في مأزق، كما كان عندما علق في الأنبوب، وأنه لا توجد وسيلة للخروج منه.

شـعر بأن العالم تحول إلى اللون الرمادي. قال في نفسه لن أصرخ، لن أقع مغشياً عليّ، ولذلك أجبر نفسه على العودة إلى الواقع مجدداً.

شـرب دوسندر شربة كبيرة من كوبه، ونظر إلى تود من فوق حافة الكوب.

"الآن سـأخبرك عـن أمـرين. الأمر الأول هو أنه في حال افتضح دورك في هذه القضية، ستكون عقوبتك خفيفة. حتى أنه من المحتمل –كلا بـل على الأرجح– أن شيئاً لن يخرج من هذه الأوراق على الإطلاق. لقد

أفزعتك مرّة بالحديث عن الإصلاحية، وذلك عندما شعرتُ بالخوف الشديد مـن أن تنهار وتقول كل شيء. لكن هل صدقتَ ذلك؟ كلا، استخدمتُ هذه الحيلة كما يستخدم الوالد *الغول* ليجبر ولده على الرجوع إلى المنزل باكراً. أنـا لا أعتقد بأنهم سيرسلونك إلى هناك، ليس في هذا البلد الذي يضربون فيه القتلة على ظهور أيديهم ثم يطلقونهم في الشوارع ليقتلوا مجدداً بعد أن يمـضوا سـنتين وهم يشاهدون التلفاز الملوّن في السجن. ولكن في الوقت نفـسه، إن مجـرّد دخـولك الـسجن يمكن أن يقضي على حياتك. فهناك الـسجلات... وأحاديـث الناس. إنهم يتحدثون دائماً. ومثلُ هذه الفضيحة المثيـرة للإهـتمام لا يُسمح بأن يطويها النسيان، بل يتم حفظها كما يُحفظ الـشراب الفرنـسي المعتق. مع مرور السنوات بالطبع، يكبر ذنبك معك. وسيصبح صمتك أشدّ ضرراً. وفي حال عُرفت الحقيقة اليوم، سيقول الناس *ولكنه مجرّد طفل*... لا يعرف ماذا يفعل، بعكسي أنا. يا لك من طفل كبير. لكـن ما عساهم يقولون أيها الصبي إذا اكتُشف أمري، إضافة إلى افتضاح أنـك تعرفنـي منذ العام 1974، ولكنك لذتَ بالصمت، وأنت لا تزال في المدرسـة الثانوية؟ سيكون الأمر سيئاً. وفي حال اكتُشف الأمر وأنت في الجامعة، ستكون العواقب كارثية. وفي حال اكتُشف الأمر وأنت شاب يافع دخـل مـيدان العمـل للتو... ستقع معركة ملحمية. هل فهمت هذا الأمر الأول؟"

لاذ تود بالصمت، ولكن دوسندر ارتاح لذلك، وأومأ برأسه.

أضـاف وهـو لا يـزال يومئ برأسه: "أما الأمر الثاني هو أنني لا أصدق بأنك كتبتَ رسالة".

حـاول تـود أن يخفي أي تعابير يمكن أن تظهر على وجهه، ولكنه كان شديد الخوف من أن تتسع عيناه من هول الصدمة. كان دوسندر يرمقه عـن كثب. أدرك تود فجأة أنه سبق لهذا الرجل العجوز أن استجوب مئات وربمـا الآلاف مـن الأشخاص. كان رجلاً خبيراً. وشعر تود كما لو أن جمجمـته تحولت إلى كرة من الزجاج وأن كل شيء فيها يومض بأحرف كبيرة.

"سـألتُ نفـسي من يكون ذلك الشخص الذي تثق به كثيراً. من هم أصدقاؤك... ومن هم الأشخاص الذين تصاحبهم؟ إلى من يدين هذا الصبي المغرور والذي يتمتع برباطة الجأش بالولاء؟ الجواب هو لا يوجد أحد".

لمعت عينا دوسندر. ومضى يقول: "درست شخصيتك مرات كثيرة وحسبت المخاطر. أنا أعرفك، وأعرف الكثير عن شخصيتك؛ ولكنني لا أعرف كل شيء عنها لأنه لا يمكن لإنسان أن يعرف كل ما هو موجود في قلب إنسان آخر؛ ولكنني أعرف القليل عما تقوم به وعمن تراهم خارج هذا المنزل. لذلك قلت في نفسي *يا دوسندر، هناك احتمال بأن تكون مخطئاً. فبعد كل هذه السنوات، هل ترغب في أن يُلقى القبض عليك أو حتى تقتل لأنك أسأت الحكم على صبي*؟ ربما كنتُ سأجازف لو كنتُ أصغر سناً؛ فالمجازفة أمر جيد، والإحتمال أمر بعيد. إنه أمر شديد الغرابة بالنسبة لي كما تعرف؛ كلما تقدم المرء في السنّ، كلما قلّت أهمية الأشياء التي سيخسرها في المسائل التي تتعلق الحياة والموت، ولكنه يصبح بالرغم من ذلك أكثر تحفظاً".

نظر بإمعان إلى وجه تود وأضاف: "لا يوجد لدي شيء يمكن أن أضيفه. ويمكنك الذهاب الآن متى أردت. ولكن ما يجدر بي أن أقوله هو أنه في حين كنت لأشك في وجود رسالتك، لم أشك في وجود رسالتي. إن المستند الذي وصفته لك موجود. وفي حال مت اليوم... أو في الغد... سيُذاع كل شيء، كل شيء".

قال تود: "عندئذٍ، لا يبقى لدي شيء أقوله". ضحك بصوت خافت وقال: "هل تدرك ذلك؟"

"بل يوجد لديك ما تقوله. ستمرّ السنوات، وفيما تمرّ، ستضعف سيطرتك عليّ شيئاً فشيئاً، لأنه بغض النظر عن مدى أهمية حياتي وحرّيتي بالنسبة لي، سيصبح الأميركيون – أجل، والإسرائيليون – أقل اهتماماً بانتزاعهما منّي".

"حقاً؟ لماذا إذن لم يطلقوا سراح ذلك الرجل الذي يسمى رودلف هس؟"

أجاب دوسندر: "لو كان الأميركيون من احتجزه– الأميركيون الذين يطلقون سراح القتلة بعد أن يضربوهم على ظهور أيديهم– لكانوا أطلقوا سراحه. فهل سيسمح الأميركيون للإسرائيليين بتسلّم رجل في الثمانين من عمره لكي يتمكنوا من شنقه كما شنقوا آيخمان؟ أنا لا أعتقد ذلك. ليس في بلد تُنشر فيه الصور الفوتوغرافية لرجال الإطفاء وهم ينقذون القطط الصغيرة العالقة على الأشجار على الصفحات الرئيسية في صحفهم التي

توزّع في المدن. كلا، ستضعف سيطرتك عليّ حتى عندما تصبح سيطرتي علـيك أقوى. لا يوجد وضع يبقى جامداً. وسيأتي وقت - إذا عشت لفترة طويلة- عندما أقرر بأن ما تعرفه لم يعد هاماً. وعندئذ، سأتلف ذلك المستند".

قـال تود: "ولكن هناك الكثير من الأمور التي يمكن أن تحصل معك قبل ذلك، مثل التعرض للحوادث، أو الإصابة بالمرض.."

هزّ دوسندر كتفيه استخفافاً وقال: "سيكون هناك ماء إذا شاء الله ذلك، وسنكتـشف مكان وجوده إذا شاء الله ذلك، وسنشرب منه إذا شاء الله ذلك. إن تحديد الأمور التي تحصل لا يرجع إلينا".

نظر تود إلى الرجل العجوز لفترة طويلة؛ وطويلة جداً. كانت توجد ثغـرات في حجج دوسندر؛ لا بدّ وأن هناك عيوباً. لا بد وأنه توجد طريقة للخروج، أو كوة نجاة لكليهما أو لتود وحده. اهتزت معرفته بالسنوات التي تنتظـره خلـف عينيه بطريقة ما. كان يشعر بوجودها، وهي تنتظر ريثما تولّد كأمر واقع.

فكّـر فـي شخصية كرتونية يوجد منجل معلّق فوق رأسها. بحلول الوقت الذي يتخرّج فيه من الكلية، يصبح دوسندر في الواحدة والثمانين من عمره، ولن تكون تلك النهاية. وبحلول الوقت الذي يحصل فيه على شهادة الـبكالوريوس، يكون دوسندر في سنّ الخامسة والثمانين، وسيشعر بالرغم مـن ذلـك بأنه ليس طاعناً في السن، وسيكمل أطروحة الماجستير عندما يصبح دوسندر في سنّ السابعة والثمانين... وربما سيظل دوسندر يفتقد إلى الشعور بالأمان.

قال تود بنبرة حازمة: "كلا. لا يمكنني الموافقة على ما تقوله".

قـال دوسندر بنبرة لطيفة: "يا صغيري.." لأول مرّة، سمع تود ذلك الـنداء مـع إحساس بالرعب من اللكنة الخفيفة التي ميزت نطقه بالحرف الأول منه. ".. يا صغيري.. يتعين عليك ذلك".

حدّق به تود، وشعر بأن لسانه قد انتفخ وتضخم في فمه بحيث بدا أنه مـلأ حلقه وخنقه. وما لبث أن غادر المنزل. راقبه دوسندر بوجه خال من أي تعبيـر. وبعد أن أوصد الباب ولم يعد يسمع وقع أقدام الصبي، وأدرك بأنه ركب درّاجته، أشعل سيجارة. لم يكن يوجد بالطبع صندوق إيداع، ولم يكن يوجد مستند. ولكن الصبي آمن بوجودهما إيماناً مطلقاً. لقد أصبح في أمان. لقد انتهى كل شيء.

لكن الحقيقة هي أنه لم ينتهِ كل شيء.

في تلك الليلة، رأى الإثنان في أحلامهما جرائم قتل، واستيقظ كلاهما مع شعور مختلط بالرعب والنشوة.

استيقظ تود محتلماً كالعادة. ولكن دوسندر، الذي أصبح أكبر سناً من أن يمرّ بمثل هذه التجارب، ارتدى بزّة الأس أس ثم عاد إلى النوم مجدداً في انتظار تراجعِ وتيرة خفقات قلبه. كانت البزّة سيئة الصنع وقد بدت عليها آثار البِلى أصلاً.

وصل دوسندر في حلمه إلى المعسكر الموجود في قمة التلّ في نهاية المطاف. فُتِحت البوابة العريضة أمامه، ثم أُغلقت حال دخوله المعسكر. كانت البوابة والسياج الذي يحيط بالمعسكر مكهربين، وكان مطاردوه العراة نحلاء الجسم يلقون بأنفسهم على السياج في موجات متتالية. سخر دوسندر منهم فيما كان يتحرك جيئة وذهاباً، وقد أبرز صدره ورفع قبعته بالزاوية المناسبة. كانت رائحة الجلد المحترق تملأ الهواء الأسود، واستيقظ وهو يفكر في المصابيح التي صنعت بأشكال تحاكي وجوه البشر وفي الليل الذي يسعى فيه مصاصو الدماء وراء الشعلة الزرقاء.

قبل يومين من الموعد المقرر لسفر عائلة بودين إلى هاواي، عاد تود إلى رصيف القطارات المهجور حيث كان الأسلاف فيما مضى يركبون القطارات قديماً متوجهين إلى سان فرانسيسكو، وسياتل، ولاس فيغاس، فيما كان المسافرون الأكبر سناً يتوجهون إلى لوس أنجلوس.

وصل إلى الرصيف قبيل الغسق. وعندما وصل إلى منعطف في الطريق على مسافة تسعمائة متر عن الرصيف، كانت السيارات التي تسير على الطرق السريع قد أضاءت أنوارها. لم ينسَ وضع سكين أسفل حزامه بعد أن لفها بمنشفة قديمة. كان قد اشترى هذه السكين من متجر يبيع ما لديه من سلع بأسعار مخفضة، وكان من فئة المتاجر الكبيرة التي تحيط بها عدة مئات من الأمتار المربعة من مواقف السيارات.

نظر إلى الرصيف حيث سبق أن رأى ذلك الرجل الثمل في الشهر الماضي. كانت الأفكار تراوده الواحدة بعد الأخرى، لكن من غير أن يتمكن من الوصول إلى استنتاج. في تلك اللحظة، بدا كل شيء بالنسبة إليه ظلالاً متدرجة من السواد.

مـــا رآه كـــان الرجل الثمل نفسه أو رجلاً غيره، فالأشخاص الذين ينتمون إلى هذه الفئة من الناس يبدون متشابهين إلى حدٍّ بعيد.

قال تود: "مرحباً، مرحباً! هل تريد بعض المال؟"

الـــتفت الـــرجل الثمل نحو مصدر الصوت وهو يمسح عينيه. رأى ابتـــسامة تود العريضة والمشرقة فردّ عليها بابتسامة. وبعد لحظة وجيزة، رفـــع الـــسكين، وطعـــن بها الرجل الثمل في وجنته. تطاير الدم. كان في مقـــدور تـــود رؤية شفرة السكين في الفم المفتوح للرجل الثمل... ثم علق رأس الـــسكين للحظة في الطرف الأيسر لشفتي الرجل، وهو ما أدى إلى فـــتح فمه كما لو كان يبتسم ابتسامة عريضة مجنونة. ثم أصبحت السكين الشيء الذي يبتسم. ثم بدأ ينحت رأس الرجل الثمل مثل يقطينة الشكر.

طعـــن تـــود الرجل الثمل سبعاً وثلاثين طعنة. الطعنة الأولى جعلت وجهه يبتسم. وبعد الطعنة الرابعة، توقف الرجل الثمل عن الصراخ. وبعد الطعنة السادسة، توقف عن محاولة الابتعاد عن تود. وبعد ذلك، زحف تود نحوه، وأنهى العملية.

أثـــناء عودته إلى المنزل، ألقى السكين في النهر. لاحظ أن سرواله ملطخ بالدماء، فوضعه في الغسالة حال وصوله، وغسله على درجة حرارة منخفـــضة. وبعد أن أخرجه من الغسالة، لاحظ أن آثار تلك البقع لا تزال بادية، ولكنه لم يشعر بالقلق بسبب ذلك. فقد اعتقد بأنها ستختفي مع مرور الوقت. في اليوم التالي وجد أنه بالكاد يستطيع أن يرفع ذراعه اليمنى حتى مستوى كتفه. قال لوالده بأنه لا بد وأنها مصابة بالتشنج عقب مشاجرة مع الأولاد في المنتزه.

قال ديك بودين وهو يمسح على شعر تود: "ستتحسن في هاواي". وهذا ما حصل فعلاً. وعقب عودة العائلة إلى المنزل، عادت كما كانت في السابق.

13

يوليو/تموز مجدداً

كان دوسندر، الذي ارتدى إحدى بزاته الثلاث (وإن لم تكن الأجمل)، واقفاً في موقف الحافلات في انتظار مجيء الحافلة الأخيرة لذلك اليوم لكي تقلّه إلى منزله. كانت الساعة تشير إلى 10:45 من بعد الظهر. شاهد فيلماً كومـــيدياً حـــيث أمـــضى وقتاً مسلياً جداً. فقد أصبح في مزاج معتدل منذ

استلامه البريد الصباحي. وصلته بطاقة بريدية من الصبي على شكل صورة فوتوغرافية ملونة لامعة لشاطئ الواي كيكي وقد ظهرت الفنادق الشاهقة بيضاء اللون في الخلفية. كما وجد على الوجه الآخر للبطاقة الرسالة التالية:

عزيزي السيد دنكر،

أنا أسبح كل يوم. وقد تمكن والدي من اصطياد سمكة كبيرة، فيما لا تزال أمّي تقرأ كتابها. وفي الغد، سنذهب لرؤية أحد البراكين. وسأحرص على ألاّ أقع فيه. آمل بأن تكون في صحة جيدة.

اعتنِ بصحتك

تود

كان لا يزال مبتسماً عندما لامست يدٌ مرفقه.

"سيدي؟"

"أجل؟"

التفت بحذر –حتى في سانتو دوناتو، لم يكن أمراً غير المألوف التعرض للمجرمين– ثم أرجع رأسه إلى الخلف اشمئزازاً من الرائحة. بدت مزيجاً من رائحة الجعة ورائحة النفَس الكريهة والعرق الجاف، وربما الماسترول. كان رجلاً ثملاً يرتدي سروالاً فضفاضاً وقميصاً وينتعل حذاء مهترئاً. وبدا وجهه أشبه بوجوه الأموات."هل تملك خمسة سنتات إضافية أيها السيد؟ يتعين عليّ الذهاب إلى لوس أنجلوس. ربما تسنح لي فرصة للحصول على عمل. وأنا بحاجة إلى عشرة سنتات إضافية لكي أستقلّ الحافلة المتوجهة إلى هناك. وأنا لم أكن لأسأل لو لم تكن تتوفر فرصة كبيرة لي هناك".

بدأ دوسندر يعبس، ولكن ما لبث أن استعاد وجهه ابتسامته.

"هل ترغب في شراء قسيمة للسفر بالحافلة فعلاً؟"

ابتسم الرجل الثمل، من غير أن يفهم المراد من السؤال.

قال دوسندر: "إذا ذهبت بالحافلة التي ستأخذني إلى منزلي. يمكنني أن أقدم لك شراباً، ووجبة طعام، وفرصة للإستحمام، وسريراً للنوم. وكل ما أطلبه بالمقابل هو التحدث قليلاً. فأنا رجل عجوز يعيش بمفرده. وأنا أرحب بالرفقة كثيراً في بعض الأحيان".

أصبحت ابتسامة الرجل الثمل أكثر إشراقاً بعد أن فهم الوضع.

ردّ دوسندر على تلك الإبتسامة بابتسامة مهذبة وقال: "أريد منك أن تجلس في الحافلة بعيداً عني، لأن رائحتك كريهة".

قال الرجل الثمل مدافعاً عن كرامته: "إذن، أنت تخشى أن أوسخ لك المكان".

"تعال معي. ستصل الحافة في غضون دقيقة. انزل من الحافلة في المحطة التي تلي المحطة التي أنزل فيها، ثم عد ماشياً مسافة شارعين، وستجدني في انتظارك عند الزاوية. وفي الصباح، أعطيك ما يمكنني من نقود. ربما أعطيك دولارين".

قال السكير: "أو ربما خمسة دولارات". لقد نسي الإعتزاز بكرامته.

قال دوسندر باستعجال: "ربما، ربما". سمع هدير الحافلة وهي تقترب. وضع في يد الرجل ربع دولار، وهو ثمن قسيمة الحافلة ثم ابتعد عنه بضع خطوات من دون أن ينظر إلى الوراء.

وقف السكير وهو لا يدري ماذا عليه أن يفعل. كان لا يزال واقفاً وهو ينظر بوجه عابس إلى ربع الدولار عندما ركب العجوز الحافلة من غير أن ينظر إلى الوراء. بدأ السكير بالمشي مبتعداً عن باب الحافة، ولكنه عكس اتجاهه في اللحظة الأخيرة، وركب الحافلة قبيل إغلاقها أبوابها. وضع ربع الدولار في صندوق التعرفة، وشعر كما لو أنه وضع مائة دولار. مرّ بجانب دوسندر، واكتفى بإلقاء نظرة خاطفة عليه قبل أن يجلس في المؤخرة. شعر بالدوخة فنام قليلاً. وعندما استيقظ وجد أن الرجل العجوز قد اختفى. نزل من الحافلة عند الموقف التالي من غير أن يعرف إن كان ذلك هو الموقف الصحيح، ولكنه لم يكن يبالي.

عاد أدراجه مسافة شارعين إلى أن رأى رجلاً يقف أسفل عمود الإنارة. كان ذلك الرجل العجوز نفسه، وكان يراقبه فيما كان يقترب منه.

شعر السكير للحظة بقشعريرة الخوف، وبالرغبة في مغادرة المكان ونسيان المسألة برمتها.

لكن الرجل العجوز أمسك بذراعه... دُهش السكير من قوة قبضة هذا الرجل العجوز.

قال الرجل العجوز: "حسناً، أنا في غاية السعادة لأنك أتيت. لا يبعد منزلي كثيراً عن هذا المكان".

قال السكير فيما كان يمشي منقاداً وراء الرجل العجوز: "ربما عشرة دولارات".

وافقــه الــرجل العجــوز بالقول: "ربما عشرة دولارات". ثم ضحك وقال: "من يدري؟"

14

قــدم تود لزيارة دوسندر خمس مرّات في الفترة الممتدة بين عودته من هاواي في صيف العام 1975 والرحلة التي سافر فيها والداه إلى روما.

تميزت تلك الزيارات بأجوائها الممتعة والخالية من التوتر إذ إنه تبين للإثنــين أن فـــي مقــدورهما تمضية الوقت بطريقة أكثر حضارية. وباتا يــتحدثان أثــناء صــمتهما أكثر مما كانا يتحدثان بواسطة الكلمات، وكان حديــثهما سيُشعر عميلاً من مكتب التحقيقات الفيدرالي بالنعاس ويغرقه في ســبات عميق. قال تود للرجل العجوز بأنه تعرّف على فتاة اسمها أنجيلا فارو. لم يكن متيماً بها، ولكنها كانت ابنة إحدى صديقات أمّه. وقال الرجل العجــوز لتود بأنه يجدل البُسط كل يوم لأنه قرأ بأن مثل هذا النشاط مفيد فـــي التخفيف من داء التهاب المفاصل. وعرض على تود بضع عينات من عمله والتي أعجب بها تود كثيراً.

لقد كبر الصبي بعض الشيء أليس كذلك؟ (حسناً، لقد ازداد طوله بضعة ســنتيمترات). هل أقلع دوسندر عن التدخين؟ (كلا، ولكنه اضطرّ إلى التقليل مــن عدد السجائر التي يشربها لأنها باتت تسبب له نوبات من السعال الشديد الآن). كــيف جــرت الأمــور في المدرسة؟ (فيها القليل من التحدي بالتأكيد، ولكــنها رائعــة. فقــد حصل تود على تقديرات تراوحت جميعها بين الممتاز والجيد جداً، وخضع للإمتحانات النهائية التي تجريها الولاية حيث كان قد أعدّ مــشروعاً علمياً حول استخدام الطاقة الشمسية، وهو يفكر الآن في التخصص في علم الإنسان بدلاً من التاريخ عندما يلتحق بالكلّية). من الذي يجزّ الأعشاب في فناء دوسندر هذا العام؟ (إنه راندي تشامبرز الذي يسكن في الشارع نفسه؛ صبي طيب ولكنه بدين وثقيل الحركة).

فـــي ذلك العام، وضع دوسندر حداً لحياة ثلاثة سكارى في مطبخه. فقــد ذهــب إلـــى موقف الحافلات في وسط المدينة حوالى عشرين مرّة، وعرض تقديم عشاء، وتوفير الحمام والسرير لسبعة أشخاص، حيث رُفض

عرضه مرتين، ومضى السكير في طريقه في مناسبتين بعد احتفاظه بربع الدولار الذي أعطاه إياه الرجل العجوز كثمن لقسيمة الحافلة. وبعد قليل من التفكير، توصل إلى طريقة للتغلب على هذه المشكلة وذلك بأن اشترى مجموعة كامل من القسائم مقابل دولارين وخمسين سنتاً، وهو ثمن جيد مقابل خمس عشرة رحلة، كما أنها غير صالحة للتبديل في متاجر بيع المشروبات.

لاحظ دوسندر في الأيام الحارّة مؤخراً تصاعد روائح مزعجة من قبوه. فهو يبقي النوافذ والأبواب محكمة الإغلاق في هذه الأيام.

وجد تود بودين سكيراً نائماً في أنبوب لتصريف المياه خلف عقار خالٍ على طريق سيناجا. وكان ذلك في ديسمبر/كانون الأول أثناء عطلة الكرسمس. وقف هناك لبعض الوقت، واضعاً يديه في جيبيه، وهو ينظر إلى السكير الذي كان يرتجف. لقد ذهب إلى ذلك العقار ستّ مرات على مدى خمسة أسابيع، وكان يرتدي دائماً سترة خفيفة أغلق زمامها المنزلق حتى منتصفه لكي يخفي المطرقة التي يدسها خلف حزامه. وفي النهاية، اقترب من ذلك السكير - أو من سكير آخر - في الأول من مارس/آذار. بدأ بضربه بالرأس المسطح للمطرقة، وفي لحظة معينة (لا يتذكر الوقت بالتحديد)، إنهال عليه ضرباً بالرأس المستدق للمطرقة وطمس معالم وجه الرجل السكير.

بالنسبة إلى كورت دوسندر، السكارى هم حثالة البشر، وأدوات للتسلية، فهم يجعلونه يشعر بأنه على قيد الحياة. فقد بدأ يشعر بأن تلك السنوات التي أمضاها في سانتو دوناتو -السنوات التي سبقت وقوف الصبي عند عتبة بابه بعينيه الكبيرتين الزرقاوين وابتسامته الإميركية العريضة- جعلته أكبر سناً مما هو فعلاً. كان قد تجاوز منتصف الستينيات من عمره عندما قدم إلى المكان، وقد بات الآن يشعر بأنه أصغر سناً من ذلك بكثير.

لا بدّ وأن فكرة التوبة إلى الله قد راودت تود أولاً. فبعد أن طعن ذلك الرجل الثمل في محطة القطار، توقع أن تزداد الكوابيس التي تنتابه؛ إلى درجة دفعه إلى الجنون. وتوقع أن تضرب به موجات الذنب الذي يصيب بالشلل، والتي ربما تفضي إلى اعتراف صريح أو الإقدام على الإنتحار. لكن بدلاً من هذا وذاك، سافر إلى هاواي برفقة أبويه، واستمتع بأفضل

عطلة في حياته.

بدأ مرحلة الدراسة الثانوية في شهر سبتمبر/أيلول الأخير وهو يشعر بالـتجدد والإنتعاش على نحو غريب، كما لو كان شخصاً مختلفاً سكن في تـود بـودين. فالأشياء التي لم تكن تثير فيه أي انطباع منذ سنين طفولته الأولـى - أشـعة الـشمس التي تسطع بعد بزوغ الفجر مباشرة، ومشهد المحـيط مـن فيش بيار، ومشهد الناس وهم يهرعون إلى الشوارع لحظة الغـسق عندما تضاء أنوار الشوارع - أضحت أشياء تترك أثراً في ذهنه علـى شـكل سلـسلة مـن الأحجار الكريمة الزاهية، في صور في غاية الوضوح كما لو أنها طُليت بالكهرباء. لقد تذوق الحياة بلسانه كقطعة حلوى ذابت بين أسنانه.

عـادت إلـيه الكوابـيس مجـدداً بعد أن رأى ذلك الرجل الثمل في الأنـبوب وقبل أن يقدم على قتله. لكن في معظم تلك الكوابيس، كان يرى الرجل الثمل الذي طعنه حتى الموت في باحة القطارات المهجورة. عندما يعود إلى المنزل، يصيح قائلاً، مرحباً يا مونيكا الصغيرة! لكن تلك الفرحة ماتـت بعد أن رأى الرجل الثمل الميت في الركن المرتفع الذي يتناول فيه طعام الفطور. كان يجلس إلى طاولة الجزار مرتدياً قميصاً وسروالاً تفوح مـنهما رائحة تثير الغثيان، وقد تطاير الدم على الأرضية المكسوة بالبلاط اللامـع، ويـدأ يجف على المناضد المصنوعة من الفولاذ الذي لا يصدأ. كانـت هـناك آثار لبصمات أصابع دموية على الخزانات المصنوعة من شجر الصنوبر الطبيعي.

رأى رسالة معلقة على لوح الإعلانات بالقرب من الثلاجة كتبتها أمّه قالـت له فيها: يا تود، لقد ذهبت إلى المتجر. وسأعود عند الساعة 3:30. لقـد وقفت عقارب الساعة عند 3:20 والرجل الثمل ميت هناك في الركن المنعـزل مـثل رفـات رجل مرعب يرشح من قبو في متجر لبيع القطع المـستعملة، والدم منتشر في كل مكان. بدأ تود بتنظيف آثاره، وذلك بمسح كل سطح مكشوف فيما كان يصرخ في وجه الرجل الثمل القتيل طالباً منه أن يرحل ويتركه وشأنه، ولكن الرجل الثمل بقي ممدداً هناك مثل الأموات، ووجهه موجهاً نحو السقف، فيما كانت سيول الدماء تتدفق من الجراح التي خلّفـتها الطعـنات في جلده القذر. أخرج تود الممسحة من الخزانة، وبدأ يمـسح الأرضية جيئة وذهاباً كالمجنون، وهو يرى أنه ما من شيء يمكن

أن يــزيل الــدماء، وإنما يخفف من آثارها، وينشرها في المكان، ولكنه لم يــستطع أن يتوقف بالرغم من ذلك. وعندما سمع صوت سيارة أمّه وهي تــدخل ممرّ السيارات، أدرك بأن الرجل الثمل لم يكن سوى دوسندر. كان يــستيقظ من تلك الأحلام وهو يلهث ويتصبب عرقاً، وهو يمسك بشرشف سريره بإحكام.

لكــنه وجــد الرجل الثمل أخيراً في الأنبوب أسفل الطريق مجدداً – الــرجل الثمل نفسه أو رجلٌ آخر – فانهال عليه ضرباً بالمطرقة، ولم تعد تــراوده تلك الأحلام. اعتقد بأنه ربما يحتاج إلى القتل مجدداً، وربما أكثر مــن مــرّة. كــان الأمر في غاية السوء، لكن زمن صلاحيتهم كمخلوقات بــشرية قد انتهى، باستثناء صلاحيتهم بالنسبة إلى تود بالطبع. وتود، على غــرار كــل شــخص عــرفه، كان يفصّل نمط حياته وحسب بما يتناسب واحتياجاته الخاصة مع تقدمه في السنّ. حقاً، لم يكن يختلف في شيء عن أي شــخص آخر. فعليك أن تشقّ طريقك الخاص في هذا العالم، وإذا كنت تأمل في النجاح، فعليك أن تقوم بذلك بمفردك.

15

فــي خريف سنته الدراسية ما قبل الأخيرة، لعب تود في فريق أسُود ســانتو دوناتو. وفي الربع الثاني من ذلك العام، وهو الربع الذي انتهى في أواخر يناير/كانون الثاني 1977، فاز في مسابقة المقالات الوطنية للرابطة الأميــركية. كانت تلك المسابقة مفتوحة أمام كافة طلاب المدارس الثانوية العامة الذين يدرسون التاريخ الأميركي. كانت مقالة تود بعنوان *مسؤولية أميركــي*. وخلال موسم كرة القاعدة في ذلك العام، كان الرامي الأول في المدرســة، حــيث فاز بأربع كرات ولم يخسر أي كرة. كان معدل ضربه للكــرة 0.361. وفي حفل توزيع الجوائز الذي جرى في يوليو/حزيران، أُطلــق عليه لقب *رياضي السنة* حيث قدّم له المدرّب هاينز لوحة تذكارية (إنــه المــدرّب الذي اختلى به وطلب منه المواظبة على حضور جلسات الــتدريب "لأن أيــاً مــن هــؤلاء الزنوج لا يمكنه إسقاط الكرة في مسار مقــوس"). وقــد انهمرت دموع مونيكا عندما اتصل بها تود من المدرسة وقال لها بأنه فاز بالجائزة. وبقي والده ديك بودين يتبختر في مكتبه طوال أســبوعين عقب الإحتفال، محاولاً عدم التباهي. في ذلك الصيف، استأجر

كوخاً في البيغ سور، ونزل فيه مدة أسبوعين. وخلال السنة ذاتها، قتل تود أربعة منبوذين، اثنان بطعنات السكين، واثنان بالضرب بالهراوة. وقد اعتاد على ارتداء سروالين في ما بات يسميه رحلات الصيد. كان يستقل حافلات المدينة في بعض الأحيان بحثاً عن أماكن محتملة. لكن أفضل مكانين عثر عليهما كانا إرسالية سانتو دوناتو للمعوزين في شارع دوغلاس، وناحية قريبة من مركز جيش الخلاص في إيوسليد. كان يمشي ببطء في الأحياء الواقعة في هاتين المنطقتين في انتظار أن يستجديه أحدهم. وعندما يقترب منه رجل سكير، يقول له تود إنه يريد أن يشرب زجاجة من الشراب. وفي حال اقتنع السكير، يقول تود له إنه سيشاركه الزجاجة وأنه يعرف المكان الذي ينبغي الذهاب إليه. ولكنه كان مكاناً مختلفاً في كل مرّة بالطبع. وفي أثناء ذلك، كان يقاوم رغبة قوية تحثه على العودة إما إلى باحة القطارات المهجورة أو إلى الأنبوب خلف الأرض المهجورة على طريق سيناغا، لأن العودة إلى مسرح جريمة سابق تصرّف غير حكيم.

خلال السنة نفسها، قلل دوسندر من استهلاكه للسجائر، ولكنه بقي يشرب الشراب ويشاهد التلفزيون. وأصبحت زيارات تود له متباعدة، غير أن محادثاتهما أضحت أقل إمتاعاً. في الواقع كانا يبتعدان عن بعضهما. احتفل دوسندر بذكرى ميلاده التاسعة والسبعين في ذلك العام، وهو العام نفسه الذي أصبح فيه تود في سنّ السادسة عشرة. أشار دوسندر إلى أن السنة السادسة عشرة هي أفضل سنة في حياة الشاب اليافع، وأن السنة الواحدة والأربعين هي أفضل سنة في حياة رجل في منتصف العمر، وأن السنة التاسعة والسبعين هي أفضل سنة في حياة الرجل الطاعن في السنّ. أومأ تود برأسه بأدب. كان دوسندر ثملاً وكان يثرثر بطريقة جعلت تود يشعر بالضيق على نحو غير معتاد.

قتل دوسندر اثنين من السكارى في السنة الدراسية 1976-1977 لتود. بدا الثاني منهما أكثر حيوية مما كان يوحي به مظهره. وحتى عندما حمله دوسندر على الإفراط في الشرب، كان يترنح في المطبخ والسكين مغروزة في أسفل عنقه، فيما كان الدم يتدفق على مقدمة قميصه وعلى الأرضية. أعاد ذلك السكير اكتشاف الردهة الأمامية بعد تلقّيه طعنتين في المطبخ، وكاد أن يتمكن من الفرار من المنزل.

وقف دوسندر في المطبخ، وفتح عينيه وهو لا يكاد يصدق ما يرى،

فـيما كـان السكير يزحف وهو يلهث نحو الباب، ويترنح في الردهة من جانب لآخر. ولم يزُل الشلل الذي أصاب دوسندر إلاّ بعد أن وصل السكير إلى باب المنزل. عندئذٍ، اندفع نحو الدولاب، وأخرج الشوكة التي يستعين بهـا في طهو قطع اللحم، وركض نحو الردهة وهو يمسك بالشوكة أمامه وطعن بها ظهر السكير.

وقـف دوسندر فوقه وهو يلهث. كانت دقات قلبه تتسارع على نحو مخـيف... مـثل دقات قلب ذلك الذي راح ضحية نوبة قلبية في البرنامج التلفزيونـي، *الطوارئ*، والذي استمتع بمشاهدته مساء يوم السبت. ولكنها تـراجعت أخيراً وعادت إلى إيقاعها المعتاد وأدرك بأن كل شيء سيكون على ما يرام.

كان هناك الكثير من آثار الدماء التي ينبغي التخلص منها. حدث ذلك قـبل أربعـة أشهر، ولم يقدم ذلك العرض منذ ذلك الحين لأحد في موقف الحـافلات. فقد انتابه الرعب من الأسلوب غير المتقن الذي اتّبعه في قتل السكير الأخيـر... ولكنه عندما تذكّر كيف تمكن من معالجة الأمور في اللحظـة الأخيـرة، شـعر بالفخر. ففي النهاية، لم يتمكن السكير أبداً من الوصول إلى الباب، وهذا هو الشيء المهم.

16

فـي خـريف العـام 1977، وخلال الربع الأول من سنته الدراسية الأخيـرة، انضمّ تود إلى فريق رايفل كلوب. وبحلول شهر يونيو/حزيران 1978، كـان قـد أصـبح مؤهلاً للعب دور الرامي، وفاز بخمس كرات وخسر واحدة في موسم كرة القاعدة (جاءت الخسارة نتيجة خطأين وجولة فـي الملعـب لم تحقق شيئاً)، وحقق ثالث أعلى معدل علامات في تاريخ المدرسـة. تقـدم بطلـب للإلـتحاق ببيركلـي فقُبل على الفور. وبحلول أبريل/نيسان، أدرك بأنه إما أنه سيكون الطالب الذي يلقي كلمة الوداع في حفـل التخرّج أو الطالب الذي سيلقي خطاب الترحاب ليلة التخرّج، ولكنه كان يتوق بشدة إلى إلقاء كلمة الوداع.

انتابت تود نزوة غريبة خلال النصف الأخير من سنته الأخيرة؛ نزوة بـدت مـرعبة بالنسبة إليه بقدر ما بدت غير منطقية. بدا أنه يسيطر بقوة وحـزم علـيها، وأنهـا كانت مريحة على أقل تقدير، ولكنها كانت فكرة

مـــرعبة. فقد بدأ يشقّ طريقه في حياته، وبات في استطاعته حلّ مشكلاته. كانـــت حـــياته تشبه إلى حدٍّ بعيد مطبخ أمّه الزاهي والمشرق، حيث كافة الـــسطوح مكسوة بالكروم، أو الفورمايكا، أو الفولاذ الذي لا يصدأ؛ مكان يعمـــل فـــيه كل شيء عندما تضغط على الأزرار. كان يوجد في المطبخ خـــزانات داكـــنة اللـــون بالطبع، ولكن كان في الإمكان تخزين الكثير من الأشياء فيها وكانت أبوابها مقفلة على الدوام.

تذكّرته هذه النزوة الجديدة بالحلم الذي رأى فيه أنه كان عائداً إلى البـــيت ليكتشف وجود السكير القتيل والغارق في الدماء في مطبخ أمه النظـــيف والمضاء جيداً. كان الدخيل الغارق في الدماء يترنح ويمشي بخطـــى متـــثاقلة فـــيما كان يبحث عن مكان ليموت فيه بطريقة بارزة للعيان...

كان يوجد على مسافة ألف متر من منزل بودين طريق سريع بثمانية مسارب. وكان يوجد منحدر حادّ وكثير الأشجار يطلّ عليه. كما كان يوجد غطـــاء كثـــيف مـــن الأشجار على هذا المنحدر. أهداه والده بندقية مزودة بمـــنظار مـــن نوع وينشستر يوم الكرسمس. وفي ساعة الإزدحام، عندما تـــصطف الـــسيارات فـــي كافة المسارب الثمانية، كان يختار موقعاً على المنحدر، و... لماذا؟ لأنه يمكنه بسهولة أن...

يفعل ماذا؟

يقتل نفسه؟

يدمّر كل شيء عمل من أجله طوال سنواته الأخيرة الأربع؟

ماذا تقول؟

كلا سيدي، كلا سيدتي، هذا محال.

الهدف، كما يقولون، هو الضحك.

كان ذلك هو الهدف بالتأكيد... ولكن النزوة ظلت تراوده.

فـــي أحـــد أيـــام السبت، وقبل أسابيع قليلة على تخرّجه من الثانوية العامـــة، وضـــع تـــود بندقيته في علبتها بعد إفراغ مخزنها من الطلقات. ووضـــع العلـــبة في المقعد الخلفي لسيارة والده التي اشتراها حديثاً؛ سيارة بـــورش مـــستعملة. ثم توجّه بالسيارة نحو المكان الذي ينحدر فيه الطريق بقـــوة نحو الطريق السريع. وكان والداه قد استقلاّ السيارة العائلية وتوجها نحـــو لوس أنجلوس لقضاء يوم عطلة نهاية الأسبوع. سيُجري ديك، الذي

أصبح الآن شريكاً كاملاً، مناقشات مع مجموعة حياة للتباحث بشأن بناء فندق رينو جديد.

تسارعت دقات قلب تود، وجف حلقه فيما كان يشق طريقه نحو المنحدر والعلبة التي تحتوي على البندقية في يده. وصل إلى شجرة مقطوعة وجلس خلفها. ثم فتح العلبة، ووضعها على الجذع الأملس للشجرة الميتة. كان يوجد على الجذع غصن بشكل زاوية، وهو ما وفر متكأ جيداً لماسورة البندقية. أسند كعب البندقية إلى كتفه الأيمن، ونظر في المنظار.

تردد صدى صوت في عقله يقول، أحمق! أيها الصبي، هذا عمل أحمق. فلو رآك شخص ما، لن تكون مسألة تتعلق بما إذا كانت البندقية محشوة أم لا، بل ستقع في الكثير من المشكلات، وربما ينتهي بك الأمر إلى مواجهة معتوه يطلق النار عليك.

كان ذلك في منتصف ساعات الصباح، وكانت حركة السير يوم السبت خفيفة. صوب البندقية نحو نافذة نصف مفتوحة في سيارة كانت تقودها امرأة. وضع شعرة التعامد على صدغها، وأطلق النار.

همس قائلاً: "بوم". فيما اختفت سيارة التويوتا أسفل المجاز السفلي على مسافة ألف متر من المنحدر حيث كان يجلس تود. ثم جاء دور رجل يقود شاحنة خفيفة من نوع سوبارو برات. كان هذا الرجل ملتحياً ويعتمر قبعة فرق سان دييغو بادريس لكرة القاعدة.

همس تود قائلاً: "أنت... أنت جرذ قذر". ثم أطلق النار من بندقيته مجدداً.

أطلق النار على خمسة أشخاص، ثم وضع البندقية في علبتها وتوجه نحو أعلى المنحدر، وانحنى قليلاً لكي لا يراه أحد، ثم وضع العلبة في المقعد الخلفي لسيارة البورش، ثم قادها متوجهاً إلى منزله.

17

كان الرجل الثمل يرتدي كنزة بالية مخيفة لدرجة أنها بدت غير طبيعية هنا في جنوب كاليفورنيا. كما كان يرتدي سروالاً من الجينز مخرقاً عند الركبتين، بحيث بدا جلده الأبيض كثير الشعر والجروح. رفع كوب الهلام؛ الذي رُسمت عليه شخصيات فريد وويلما فلينستون، وبارني وبيتي وهم يرقصون حول حافة الكوب على شكل زخارف منمقة. رفع

كوبه ولامس كوب دوسندر، ثم ضم شفتيه للمرّة الأخيرة في هذا العالم.

"سيدي، كان ذلك بمثابة الدواء الشافي. وأنا لا أجد مانعاً من قول ذلك".

وافقه دوسندر القول، وكان يقف خلفه: "أنا أستمتع دائماً بالشرب في المساء". ثم طعنه في رقبته. بدا صوت تمزق الغضروف أشبه بنقر عصا الطبل. سقط كوب الهلام من يد الرجل الثمل على الطاولة، وانزلق نحو حافتها في حركة عززت الوهم بأن الشخصيات الكرتونية كانت ترقص.

رفع السكير رأسه إلى أعلى، وحاول أن يصرخ، ولكن لم يخرج من حنجرته غير صوت خافت. اتسعت عيناه، واتسعت... ثم سقط رأسه على القماش الزيتي المنقوش بالمربعات الحمراء والبيضاء الذي يغطي طاولة مطبخ دوسندر. ابتعد فكه الأسفل عن فكه الأعلى كما لو كان يبتسم نصف ابتسامة.

أخرج دوسندر السكين من رقبة الضحية –وكان عليه أن يستخدم كلتا يديه في القيام بذلك– وتوجه نحو المغسلة. كان الحوض مليئاً بالمياه الساخنة، وأطباق العشاء المتسخة. اختفت السكين أسفل بقايا الطعام الطافية مثل طائرة صغيرة مقاتلة انقضت، واختفت بين السحب.

عاد إلى الطاولة مجدداً، وتوقف للحظة، وأسند يده إلى كتف السكير القتيل فيما انتابته نوبة من السعال الشديد. أخرج منديله من جيبه الخلفي وبصق البلغم الأصفر فيه. فقد عاد إلى الإكثار من التدخين مؤخراً، وكان يقوم بذلك دائماً عندما يفكر في ارتكاب جريمة قتل أخرى. لكن الأحداث سارت بسلاسة هذه المرّة، بسلاسة فعلاً. فقد كان خائفاً من تكرار ما حدث في المرّة السابقة.

الآن، رأى أنه إذا أسرع في طمس معالم جريمته، سيتمكن من مشاهدة النصف الثاني من لورنس ويلك.

اندفع من المطبخ مسرعاً نحو باب القبو، وأضاء النور. ثم عاد إلى حوض المغسلة، وأخرج رزمة من أكياس القمامة البلاستيكية الخضراء من الخزانة. فتح أحد هذه الأكياس فيما كان يتوجه نحو السكير القتيل. كانت بقع الدماء منتشرة على القماش الزيتي في كافة الإتجاهات. ووجدت آثار لبقع الدماء على بساط المطبخ وعلى الكرسي أيضاً، ولكن كان في استطاعته تنظيفها.

أمسك دوسندر بالسكير من شعره ورفع رأسه إلى أعلى. قام ذلك

بكل سهولة، وبعد لحظة، مال جسد السكير إلى الخلف، مثل رجل يريد غسل رأسه بالشامبو قبل الحلاقة. عندئذ، وضع دوسندر كيس القمامة فوق رأس السكير وكتفيه وذراعيه وصولاً إلى مرفقيه. كان ذلك أقصى ما يمكنه تغطيته بواسطة هذا الكيس. وبعد ذلك نزع الحزام عن وسط السكير ولفه حول كيس القمامة على مسافة خمسة سنتيمترات تقريباً فوق المرفقين وثبت إبزيمه. سقط سروال القتيل على الأرض ورسم ما يشبه شارة النصر على الأرضية فيما كان دوسندر يجرّه من حزامه نحو باب القبو. خرج شيء أبيض من الكيس البلاستيكي وسقط على الأرض. التقط دوسندر الجزء الذي سقط من فك القتيل ودسه في جيبه الأمامي.

وضع رأس القتيل عند الدرجة الثانية من سلّم القبو، وصعد دوسندر على الجثة، وركلها ثلاث ركلات، فانزلقت إلى أسفل السلّم. عند منتصف المسافة، انقلبت قدما القتيل إلى الوراء، وأصبحتا فوق رأسه مما جعل الجثة تتدحرج مثل شخص يقوم بحركات رياضية. ثم سقط على بطنه على أرضية القبو.

نزل دوسندر السلّم، واستدار حول الجثة، واقترب من منضدة أدواته. كان يوجد إلى اليسار من المنضدة رفش، ومِدَمّة ومجرفة مستندة إلى الحائط بشكل رائع. أمسك دوسندر بالرفش. إن ممارسة القليل من الرياضة نشاط جيد بالنسبة إلى رجل عجوز. كما أنها تضفي عليه شعوراً بالشباب.

كانت الرائحة في القبو نتنة، ولكنها لم تسبب له أي إزعاج، علماً بأنه يرش الكلس في المكان مرّة كل شهر (ومرة كل ثلاثة أيام بعد أن "يفرغ" من أحد السكارى). كما أنه وضع مروحة ووجهها نحو أعلى السلّم لمنع الرائحة من النفاذ إلى المنزل في الأيام الحارّة التي لا نسيم فيها. تذكر أن جوزيف كرامر كان يعجبه القول بأن الموتى لا يتكلمون، ولكننا نسمعهم بأنوفنا.

اختار دوسندر بقعة في الركن الشمالي من القبو وشرع في العمل. كانت أبعاد القبر: سبعون سنتيمتراً بمائة وثمانين سنتيمتراً. وصل إلى عمق ستين سنتيمتراً أي إلى منتصف المسافة الكافية عندما شعر بألم في صدره مثل طلقة بندقية. نصب ظهره فيما كانت عيناه تتوهجان. وما لبث أن وصل الألم إلى ذراعه... ألم لا يُحتمل، كما لو كانت هناك يد غير مرئية

تقــبض على كافة الأوعية الدموية وتسحبها. راقب الرفش وهو يسقط إلى الخلــف، وشعر بأن ركبتيه قد انثنتا. لوهلة مرعبة، شعر بأنه سيسقط في القبر الذي حفره بنفسه.

بطــريقة مــا، تراجع إلى الخلف مسافة ثلاث خطوات، وجلس على منضدة العمل محدثاً صوتاً. وما لبث أن ظهرت على وجهه تعابير الدهشة الخــرقاء -كان في مقدوره الإحساس بها- واعتقد بأنه يشبه أحد الممثلين الكوميديين في الأفلام الصامتة بعد أن يرتطم بباب يتأرجح أو يدوس على بطن بقرة. وضع رأسه بين ركبتيه وهو يلهث.

انقضت ثلاثون دقيقة. خف الألم قليلاً، ولكنه لم يعتقد أنه سيتمكن من الوقوف على قدميه. لأول مرة، فهم كافة الحقائق المتعلقة بالتقدم في السنّ التــي لم يكن يلقي لها بالاً حتى هذه الساعة. شعر بالرعب لدرجة أنه كاد يــتأوّه منه، فقد دنا الموت منه في قبو منزله الرطب والكريه الرائحة. لقد لمسه من طرف ثوبه. ربما يعود إليه في وقت لاحق، ولكنه لن يموت هنا، ليس في هذا المكان إذا كان في مقدوره ذلك.

نهض على قدميه، فيما كانت يداه لا تزالان على صدره كما لو كان يريد جمع شتات جسمه الهش معاً. ترنّح وهو يسير في الفسحة بين منضدة العمل والسلّم. تعثّرت قدمه بقدم السكير الممدد على الأرض ما جعله يجثو علــى ركبتــيه ويصدر صوتاً خافتاً. شعر بوخز الألم في صدره مجدداً، فنظر إلى السلّم؛ شديد الإنحدار. كان مؤلفاً من اثنتي عشرة درجة. وكانت فتحة النور في الأعلى تبدو وكأنها على مسافة بعيدة.

مــشى دوسندر نحو السلّم بخطى متثاقلة. لقد استغرق الأمر عشرين دقــيقة لكــي يــصل إلى بساط أرضية المطبخ. وفيما كان يصعد درجات الــسلّم، كــاد الألم يعاوده مرتين. وفي كلتا الحالتين، انتظر دوسندر وهو مغمــض العينــين ليتبين ما سيحصل، وهو مدرك بأنه في حال عاد الألم بالقــوة التي شعر بها عندما كان في الأسفل، فسيموت على الأرجح. ولكن الألم تلاشى في كلتا الحالتين مجدداً.

زحف على أرضية المطبخ متوجهاً نحو الطاولة، وكان حريصاً على تجــنّب تلطــيخ ثيابه ببرك الدم الذي بدأ يتخثّر. أمسك بزجاجة الشراب، وشــرب منها قليلاً، وأغمض عينيه. أحس بأن الإنقباض الذي بصدره قد خف قليلاً، وتلاشى الألم أكثر. وبعد خمس دقائق أخرى، توجه ببطء نحو

الردهة. كان الهاتف على طاولة صغيرة هناك.

كانـت الساعة تشير إلى التاسعة والربع عندما رنّ الهاتف في منزل بـودين. وهـناك، كـان تـود يجلس القرفصاء على الأريكة وهو يكتب ملاحظـات استعداداً للإمتحان النهائي في علم المثلثات. وجد صعوبة في اسـتيعاب هـذه المادّة، على غرار كافة فروع الرياضيات الأخرى. وكان والـده يجلس في الغرفة وهو يراجع دفتر شيكاته وقد وضع في حضنة آلة حاسـبة صـغيرة وقد ارتسمت على وجهه تعابير الدهشة. وكانت مونيكا، الأقـرب إلى سماعة الهاتف، تشاهد فيلماً لجايمس بوند سبق أن سجله تود قبل ليلتين.

رفعـت الـسماعة وقالت: "مرحباً؟" ظهر على وجهها العبوس وهي تعطي السماعة لتود. "إنه السيد دنكر. يبدو أنه مبتهج أو مستاء لسبب ما".

قفز قلب تود إلى حلقه. سمع دوسندر يقول: "تعال إلى هنا في الحال أيها الصبي. أنا أعاني من نوبة قلبية، أعتقد بأنها نوبة قلبية قوية".

بـدا صـوت دوسندر خشناً. أجاب تود: "حسناً". وهو يحاول أن يجمع أفكاره المتطايرة. "هذا أمر مشوق، حسناً. ولكن الوقت متأخر وأنا أدرس.."

قـال دوسندر بصوت أجش أشبه ما يكون بالنباح: "أنا أدرك بأنك لا تـستطيع الكـلام، ولكـن فـي إمكانك الإصغاء. أنا لا أستطيع الإتصال بالإسـعاف أو الإتصال بالرقم 222 أيها الصبي... ليس في الوقت الحالي علـى الأقـل. أنا في حالة فوضى هنا، وأنا بحاجة إلى المساعدة... وهذا يعني أنك بحاجة إلى مساعدة".

"حـسناً،... بعـد أن عبّرت عن مرادك بهذه الطريقة..." وصل عدد خفقـات قلـبه إلى مائة وعشرين خفقة في الدقيقة، ولكن وجهه بقي هادئاً وصافياً. ألم يكن يتوقع أن يصادف مثل هذه الليلة؟ أجل بكل تأكيد.

قـال دوسـندر: "أخبر والديك بأنه وصلتني رسالة، رسالة هامة في الواقع. أنت تفهم ما أريد بالطبع؟"

قال تود: "أجل، حسناً".

"سنرى أيها الصبي. سنرى مقدار قدرتك على التحمل".

قـال تـود: "بالتأكيد". اكتشف فجأة أن أمّه تراقبه بدلاً من أن تشاهد الفيلم، فرسم ابتسامة على وجهه، وقال: "وداعاً".

أقفل تود السماعة فيما كان دوسندر يحاول أن يقول له أمراً آخر.

قــال تــود لوالديه بينما كان ينظر إلى أمّه: "أريد الذهاب إلى منزل السيد دنكر". كانت تعابير القلق لا تزال مرسومة على وجهها. "هل تريدان منّي أن أشتري لكما شيئاً من المتجر؟"

أجاب ديك: "أريد فرشاة لتنظيف الغليون".

قالــت مونيك: "هذا مملّ جداً. تود، هل السيد دنكر.. السيد دنكر لا يعاني من مشكلة أليس كذلك يا تود؟ بدا صوته غريباً بعض الشيء".

قــال تود: "أعتقد بأنه بخير". ارتدى سترته، وأقفل زمامها المنزلق. "ولكــنه كــان متشوقاً لسبب ما. لقد وصلته رسالة من قريب له يعيش في هامبورغ أو دوسلدورف أو أية مدينة أخرى. فهو لم يسمع شيئاً عن أقاربه منذ سنوات عدة، وقد وصلته تلك الرسالة الآن، ولكن نظره أضعف من أن يتمكن من قراءتها بنفسه".

قــال ديــك: "حسناً، اذهب يا تود. اذهب إلى هناك وهدّئ من روع الرجل".

قالت مونيكا: "اعتقدتُ بأنه يوجد لديه شخص يقرأ له. صبي جديد".

أجــاب تود: "هذا صحيح". شعر فجأة بأنه يكره أمّه، ويكره بداهتها التي رآها في عينيها. "ربما لم يكن ذلك الصبي في المنزل، أو ربما لم يكن في استطاعته المجيء في هذه الساعة المتأخرة من الليل".

"حسناً، اذهب، لكن كن حذراً".

"سأفعل. هل تريدين منّي أن أشتري لكِ شيئاً من المتجر؟"

"كــلا. كيف تجري استعداداتك للإمتحان النهائي في حساب التفاضل والتكامل؟"

قال تود: "بل حساب المثلثات. الأمور تسير بشكل جيد حسبما أعتقد. كنت على وشك الإنتهاء من هذه المادّة الليلة". كانت تلك كذبة كبيرة.

سأله ديك: "هل تريد الذهاب في سيارة البورش؟"

"كــلا، بل سأركب درّاجتي". أراد بضع دقائق إضافية لتجميع أفكاره والــسيطرة علــى عواطفه؛ أو محاولة القيام بذلك على الأقل. ففي حالته الحاضرة، على الأرجح سيصطدم بعمود الهاتف لو كان يقود السيارة.

قالــت مونيكا: "اربط قطعة من القماش اللاصق العاكس للنور حول ركبتك، وبلّغ السيد دنكر تحياتنا".

"حسناً".

كان الشك لا يزال في عيني أمّه، ولكنه بات أقل وضوحاً الآن. قبل تـود أمّه من بعيد، وذهب إلى المرآب حيث يركن الدرّاجة؛ درّاجة سباق مـن صـنع إيطالي بدلاً من تلك الدرّاجة القديمة. كان قلبه لا يزال يخفق بـشدة، وشـعر برغبة شديدة في أخذ بندقيته وإطلاق النار على والديه ثم الذهاب إلى المنحدر الذي يطلّ على الطريق السريع. لم يعد يساوره القلق بشأن دوسندر، ولم يعد يرى أحلاماً مزعجة، ولم يعد يرى رجالاً سكارى. سيستمرّ في إفراغ الطلقات الواحدة تلو الأخرى، مع الاحتفاظ بطلقة واحدة أخيرة تحسباً للطوارئ.

سـيطر على عواطفه في النهاية، وركب درّاجته متوجهاً إلى منزل دوسـندر، فـيما كانت قطعة القماش اللاصق تتحرك إلى أعلى وإلى أسفل فوق ركبته مباشرة، وشعره الطويل الأشقر يتطاير إلى الخلف.

صاح تود: "يالله".

وقف عند باب المطبخ. كان دوسندر يضع رأسه عند مرفقيه، وكوب الـشاي بيـنهما، وقد ظهرت على جبينه قطرات كبيرة من العرق. لكن لم يكـن دوسندر الذي نظر إليه تود، بل كان ينظر إلى الدم. بدا أن بقع الدم منتشرة في كل مكان؛ كان هناك بقع كبيرة من الدماء على الطاولة، وعلى الكرسي الفارغ، وعلى الأرضية.

صاح تود بعد أن تحركت قدماه المتجمدتان أخيراً: "هل أنت تنزف؟" بـدا بالنسبة إليه أنه بقي واقفاً عند عتبة الباب مدة ألف سنة. قال في نفسه هـذه هي النهاية. هذه هي النهاية المطلقة لكل شيء. بدأ البالون بالإرتفاع فـي السماء. حرص تود على ألاّ يدوس على بقع الدم. "اعتقدتُ بأنكَ قلت بأنك تعرّضت لنوبة قلبية".

تمتم دوسندر قائلاً: "الدم ليس دمي".

توقف تود وقال: "ماذا؟ ماذا تقول؟"

"انزل درجات سلّم القبو، وستعرف ماذا حصل".

سأله تود: "ما هذا؟" ثم خطرت بباله فكرة رهيبة.

"لا تـضيّع وقتـنا أيها الصبي. أعتقد بأنك لن تُفاجأ بما ستراه أسفل الـسلّم. وأعـتقد بـأن لديك تجربة في هذه المسائل مثل تلك التي في قبو منزلي. إنها تجربة عملية ومباشرة".

نظر تود إليه بضع لحظات، وهو لا يكاد يصدق الكلام الذي يسمعه؛

ثم نزل سلّم القبو، وكان ينزل بالخطوة الواحدة درجتين. عندما نظر لأول مـرّة من خلال النور الأصفر الضعيف في القبو، اعتقد بأن دوسندر ألقى بكـيس مـن القمامـة فـي المكـان. ثم رأى الرجلين البارزتين، واليدين المتسختين على جانبي الكيس الذي شدّ حوله حزام.

قـال تود: "يا الله". مرة بعد أخرى، ولكن لم يعد يتلفظ بتلك الكلمات بقوة؛ كانت تخرج من فمه كما لو أنه يهمس بها.

ضغط بظهر يده اليمنى على شفتين كانتا جافتين مثل ورقة المنفرة. أغمـض عينـيه للحظة... وعندما فتحهما مجدداً، شعر أخيراً بأنه استعاد السيطرة على نفسه.

بدأ تود يتحرك في المكان.

رأى قبـضة الرفش بارزة من حفرة قليلة العمق في الزاوية البعيدة وأدرك علـى الفور ما كان يقوم به دوسندر عندما أصيب بنوبة قلبية. وفي بـرهة وجيـزة، عرف مصدر تلك الرائحة الكريهة؛ رائحة أشبه برائحة حبات الطماطم العفنة. سبق أن شمّ تلك الرائحة من قبل، ولكنها كانت أقل قـوة فـي المطبخ، كما أنه لم يعد يأتي إلى المكان مرّات كثيرة في السنين القليلة الماضية. والآن، فهم بالضبط ما كانت تعنيه تلك الرائحة، وكان عليه أن يعانـي مرات كثيرة من صعوبة في البلع. نطق بسلسلة من الأصوات المكتومة باليد التي ضغط بها على فمه وأنفه.

شيئاً فشيئاً، استعاد السيطرة على نفسه مجدداً.

أمسك برجلي السكير وسحب جثته نحو حافة الحفرة، ثم أنزلهما على الأرض، ومـسح عرق جبينه بذراعه اليسرى، ووقف بدون حراك للحظة، وهو يعاني من صعوبة في التفكير أكثر من أي وقت مضى.

ثـم أمـسك بالرفش، وبدأ بتعميق الحفرة. وعندما وصل إلى عمق متر ونصف، خرج من الحفرة ودفع الجثة فيها بقدمه، ووقف على حافة القبر وهو ينظـر إلـى أسـفل. رأى سروال جينز ممزقاً، ويدين متسختين. كان رجلاً سكيراً. الأمر المثير للسخرية هو أن المشهد يكاد يكون مضحكاً لدرجة أن من يراه يمكن أن يصرخ وهو يضحك. صعد السلم، ودخل المطبخ.

نظر تود إلى دوسندر، وسأله: "كيف أصبحت؟"

"سأكون على ما يرام. هل تولّيت أمر الجثة؟"

"أنا أعمل على ذلك، هل تستطيع أن تصبر؟"

"أسرع، فالرائحة لا تزال تفوح في المكان".

قال تود: "أودّ لو أجد مجموعة من الخنازير وأجعلك طعاماً لها". ثم عاد إلى القبو قبل أن يتمكن دوسندر من الردّ.

كـان على وشك أن يفرغ من إخفاء السكير تحت التراب عندما بدأ يفكر في أن في الأمر خطأً ما. حدق في القبر، وأمسك بالرفش بيد واحدة. كانت رِجلا السكير لا تزالان بارزتين بعض الشيء من القبر وكذلك أعلى قدميه. كان في إحداهما حذاء بالٍ، وفي الأخرى جارب رياضي قذر ربما كان أبيض اللون عندما كان تافت رئيساً للبلاد.

مـشى تـود مسرعاً نحو السلّم، وألقى نظرة على محيطه. بدأ يشعر بـصداع في رأسه وهو يحاول الخروج من القبو. عثر على الحذاء الآخر على مسافة متر ونصف، فالتقطه، وعاد إلى القبر، وألقاه فيه. ثم بدأ يضع التراب على السكير مجدداً. غطى الحذاء، والرّجلين وكل شيء.

بعـد أن أعـيدت القذارة إلى الحفرة، ضرب بمغرفة الرفش الطبقة العلوية عدة مرات لكي يدكّ التراب. ثم أمسك بالمدمّة، وأجراها على سطح القبـر محاولاً إخفاء حقيقة أن التراب نبش مؤخراً. لكن بدون جدوى، لأنه بدون تمويه جيد، فإن أي حفرة نُبشت حديثاً ثم مُلئت من جديد ستبدو دائماً مـثل حفـرة نبـشت حديثاً ثم رُدمت. لكن لم يكن يوجد سبب يدعو أحداً لاسـتطلاع هذا المكان، أليس كذلك؟ من الأفضل أن يأمل ودوسندر بعدم حصول ذلك.

صـعد تود السلّم، وبدأ يشعر بالغثيان. كانت يدا دوسندر متباعدتين ورأسـه مائلاً إلى الطاولة، وكانت عيناه مغمضتين، وقد أصبح جفنا عينيه باللون الأرجواني مثل لون زهرة النجمة.

صـاح تود: "دوسندر!" شعر بمذاق حار، حادّ في فمه؛ مذاق للخوف الممزوج بالأدرينالين والدم المتدفق الحارّ. "إياك أن تموت وأنت تستند إليّ أيها العجوز الحقير!"

قال دوسندر من غير أن يفتح عينيه: "أخفض صوتك. ستدفع بكل من يسكن هذا الحيّ إلى المجيء إلينا".

"أيـن تـوجد أدوات التنظيف؟ ليستول... توم جوب... أي شيء من هذا القبيل. كما أنني بحاجة إلى بضع قطع من القماش".

"ستجد كل ما تحتاج إليه أسفل حوض المغسلة".

بحلول ذلك الوقت، جف الكثير من بقع الدم. رفع دوسندر رأسه، وراقب تود وهو يدبّ على أرضية المطبخ، وهو يفرك بقع الدم التي على أرضية المطبخ وقطرات الدم التي انسالت على أرجل الكرسي الذي كان يجلس عليه السكير. كان الصبي يضمّ شفتيه، ويعضّ عليهما كما يعض الحصان على الشكيمة. وفي النهاية، فرغ من تنظيف آثار الدم. وكانت رائحة مواد التنظيف القوية تملأ الغرفة.

قال دوسندر: "توجد علبة تحتوي على قطع من القماش أسفل السلّم. ضع قطع القماش الملوثة بالدم في الأسفل، ولا تنسَ أن تغسل يديك".

"أنا في غنى عن نصائحك. لقد أقحمتني في هذه الورطة".

"حقاً؟ أعتقد بأنك قمت بالعمل على الوجه المطلوب". بدت لوهلة نبرة تهكمية في صوت دوسندر، وما لبث أن اتخذ وجهه شكلاً جديداً عندما قال: "أسرع".

تولّى تود أمر قطع القماش، ثم أسرع عائداً إلى القبو مجدداً للمرة الأخيرة. بدا عصبي المزاج لفترة وجيزة، أطفأ النور، وأغلق الباب. توجه إلى المغسلة، ورفع كمّي قميصه، وغسل يديه بالماء الحارّ، ثم غمر يديه بالماء المتجمع في الحوض... وأمسك بالسكين التي استعملها دوسندر.

قال تود بنبرة حادّة: "أودّ أن أقطع حنجرتك بهذه السكين".

"أجل، ثم تجعلني طعاماً للخنازير. لا يساورني أدنى شك في ذلك".

غسل تود السكين، وجففها، ثم وضعها جانباً. ثم غسل الأطباق التي كانت في الحوض بسرعة، وأفرغ الماء، ومسح الحوض. نظر إلى الساعة فيما كان يجفف يديه فرأى أنها تشير إلى العاشرة والثلث.

توجه نحو الردهة، وأمسك بسماعة الهاتف، ونظر إليها نظرة تأمل. كانت فكرة أنه نسي شيئاً– شيئاً مثل حذاء السكير– تؤرقه. ماذا؟ إذا لم يشعر بصداع، سيكون قادراً على التخلص منه. إنه الصداع الشديد، فليس من عادته نسيان الأشياء، كما أنه كان خائفاً.

اتصل بالرقم 222، وبعد أن رنّ الهاتف مرّة واحدة، سمع صوتاً يقول "هذا هو المركز الطبي في سانتو دوناتو. هل تعاني من مشكلة صحية؟"

"اسمي تود بودي، وأنا في المنزل رقم 963 في شارع كليرمونت. وأنا بحاجة إلى سيارة إسعاف".

"ما هي المشكلة يا بني؟"

"إنــه صديقي السيد دن..". ضمّ شفتيه بقوة حبست الدم فيهما، وشعر بالـضياع للحظة، ثم غرق في موجات الألم التي كانت تنبعث من رأسه. دوسندر. كاد أن يعطي المركز الطبي الإسم الحقيقي لدوسندر.

أجاب المركز: "اهدأ يا بني. خذ الأمور بروية وستكون على ما يرام".

قال تود: "أعتقد بأن صديقي السيد دوسندر أصيب بنوبة قلبية".

"هل لك أن تصف أعراض الحالة التي يشكو منها؟"

بـدأ تـود يـصف حالته، ولكن للمركز الطبي وجد أنه سمع ما فيه الكفايـة عندما وصف تود الألم في الصدر وأنه انتقل إلى الذراع اليسرى. قـال العامل هناك لتود بأن سيارة الإسعاف ستصل في غضون عشر إلى عشرين دقيقة، اعتماداً على زحمة السير. أعاد تود السماعة، ومسح عينيه براحتي يديه.

ناداه دوسندر بصوت ضعيف: "هل اتصلت بالمركز؟"

صـاح تـود: "أجـل. أجل لقد اتصلت به، أجل، اللعنة، أجل. أغلق فمـك". ضـغط على عينيه بقوة أكبر، مما جعله يتخيل رؤية ومضات من النور تلاها نور أحمر زاهٍ. تمالك نفسك يا تود. هدئ من روعك.

فـتح عينـيه، وأمسك بسماعة الهاتف مجدداً. الآن حان وقت الجزء الصعب. آن الأوان لكي يتصل بالمنزل.

أجابـت مونـيكا بصوتها الناعم والمهذب: "مرحباً؟" للحظة -لحظة واحدة فقط- تخيل أنه يقحم فوهة بندقيته في فمها، ويضغط الزناد.

"ماما، أنا تود. أريد أن أتكلم مع والدي، أسرعي".

لـم يعـد يـنادي أمه على هذا النحو. لكنه عرف بأنها ستلتقط تلك الإشارة بسرعة خاطفة، وهذا ما حصل فعلاً.

"ما الأمر؟ هل تعاني من مشكلة يا تود؟"

"دعيني أتحدث إليه وحسب".

"لكن ماذا..؟"

أصـدرت سماعة الهاتف صوتاً، وما لبث أن سمع صوت أمه وهي تقول لوالده شيئاً. عندئذ استعدّ تود.

"إنــه الـسيد دوسندر يا أبي؟ أعتقد بأنه... يعاني من نوبة قلبية. أنا متأكد من ذلك".

"يـا الله". ضعف صوت والده لفترة وجيزة، ثم سمعه تود وهو يخبر

مونيكا بما سمع، ثم عاد، وتحدث عبر الهاتف مجدداً: "هل لا زال على قيد الحياة؟ أجبني إذا كان في مقدورك معرفة ذلك".

"لا يزال على قيد الحياة وواعياً أيضاً".

"حسناً. حمداً لله على ذلك. أطلب سيارة إسعاف".

"لقد فعلت ذلك للتو".

"هل طلبت الرقم 222؟"

"أجل".

"أنت صبي ذكي. ما مدى سوء حالته، هل يمكنك معرفة ذلك؟"

"لست أدري يا أبي. قالوا إن سيارة الإسعاف ستصل في غضون مدة وجيزة، ولكنني... خائف. هل يمكنك المجيء والإنتظار معي؟"

"سآتي في الحال. أمهلني أربع دقائق".

كـــان في مقدور تود سماع أمه وهي تقول شيئاً آخر فيما كان والده يقفل الخط. أعاد تود السماعة إلى مكانها.

أربع دقائق.

بقي أربع دقائق للقيام بكل الأعمال التي لم يفرغ منها بعد. بقي أربع دقائق لكي يتذكر أي شيء ربما نسيه. لكن هل نسي شيئاً؟ ربما كان توتر أعصابه هو السبب. يا الله. تمنى لو أنه لم يتصل بوالده. ولكنه كان العمل البديهـــي الذي ينبغي القيام به، أليس كذلك؟ بالتأكيد. هل يوجد عمل بديهي ولم يقم به؟ شيء مثل؟

تذكـــر أمـــراً فجأة، فهرع إلى المطبخ. كان دوسندر يسند رأسه إلى الطاولة، وعيناه شبه مغمضتين، وهو في حال من الكسل.

صـــاح تـــود: "دوســـندر". هـــز كتفه بعنف، فتأوه الرجل العجوز. "استيقظ، استيقظ أيها العجوز المقرف".

"ماذا حصل؟ هل وصلت سيارة الإسعاف؟"

"الرســـالة! سيـــصل والـــدي فـــي أي لحظة. أين توجد الرسالة اللعينة؟"

"أي رسالة؟"

"طلبت مني أن أخبرهما بأنه وصلتك رسالة هامة. قلت لهما... قلت لهما بأنها وصلتك من ألمانيا. يا الله". ووضع يديه في شعره.

رفـــع دوســـندر رأســـه بصعوبة وقال: "رسالة". بدا الإصفرار على

وجنتـيه المجعدتين، وعلت الزرقة شفتيه. "إنها من ويلي فيما أعتقد. ويلي فرانكل... عزيزي... عزيزي فرانكل".

نظـر تود إلى ساعته، ووجد أنه انقضت دقيقتان منذ أن أقفل سماعة الهاتـف. صـحيح أن والده لن يتمكن من الوصول إلى منزل دوسندر في غـضون أربع دقائق، ولكنه يستطيع قيادة البورش بسرعة عالية. السرّ في الـسرعة. كـل شيء يتحرك بسرعة عالية جداً. شعر بأنه لا يزال يوجد شيء؛ خطب ما، ولكنه لم يكن يملك الوقت للتوقف والتفكير.

"أجل، حسناً، كنتُ أقرأ لك الرسالة، وشعرتَ بالإثارة، وأُصبتَ بنوبة قلبية. جيد. والآن، أين تلك الرسالة؟"

نظر إليه دوسندر نظرة خالية من الإنتباه.

"الرسالة، أين هي؟"

ســأله دوسندر وقد بدت على وجهه الدهشة: "أي رسالة؟" شعر تود بحكة في يديه تدفعه إلى خنق هذا الوحش العجوز السكير.

"الرسالة التي كنت أقرأها لك! الرسالة التي وصلتك من ويلي، ويلي ماذا؟"

نظر كل منهما إلى الطاولة كما لو كان يتوقع أن يجدها هناك.

أجاب دوسندر أخيراً: "في الطابق العلوي. ابحث في الخزانة، الدرج الثالث. عليك أن تستخدم القوة لكي تفتحه. يوجد صندوق خشبي صغير في أسـفل الـدولاب. اخلعه. فقد أضعت المفتاح منذ زمن طويل. وستجد فيه بـضع رسـائل قديمة جداً وصلتني من أحد أصدقائي. إنها بدون توقيع أو تاريخ، كما أنها مكتوبة باللغة الألمانية. عليك أن تسرع".

صـاح تود "هل جُننت؟ أنا لا أتكلم الألمانية! فكيف سأقرأ لك رسالة كُتبت باللغة الألمانية، أيها العجوز البليد؟"

ردّ دوسندر بملل: "ولماذا يكتب لي ويلي باللغة الإنكليزية؟ إذا قرأت لـي الرسـالة بالألمانية، فسأفهم محتواها حتى وإن لم تفهمه أنت. بالطبع ستكون تهجئتك لكلماتها فظيعة، ولكنني سأتمكن من.."

كـان دوسـندر على حق؛ على حق مرة أخرى. لم ينتظر تود لكي يسمع المزيد. فحتى بعد إصابته بنوبة قلبية، كان الرجل العجوز يتقدم عليه بخطوة. أسرع تود إلى الردهة التي تؤدي إلى السلّم، وتوقف مدة كافية عند الـباب الأمامـي لكي يتأكد من أن والده لم يصل بسيارته البورش بعد. لم

يجد أثراً للسيارة، ولكن ساعة تود أشارت إلى مدى تأزم الأمور، فقد مرت خمس دقائق الآن.

صعد بكل خطوة درجتين، واندفع نحو غرفة نوم دوسندر. لم يسبق أن دخل الغرفة من قبل، حتى أنه لم يشعر بالفضول لكي يفعل ذلك، وبقي يتفحص للحظة هذا المكان غير المألوف. ثم رأى الخزانة. جثا على ركبتيه أمامها ومدّ يده إلى الدرج الثالث وسحبه، ولكنه علق في منتصف المسافة.

همس قائلاً: "عليك اللعنة". كان وجهه شاحباً باستثناء بقع داكنة حمراء بلون الدم على وجنتيه وفي عينيه اللتين بدتا معتمتين مثل سحب العواصف التي تهبّ في الأطلسي. "عليك اللعنة أيها الشيء. اخرج". سحب بشدّة لدرجة أنه خلع الدرج من مكانه، وسقط في حضنه. توزعت جوارب دوسندر، وثيابه الداخلية ومناديله في أرجاء الغرفة. دس يده في الأشياء التي كانت لا تزال في الدرج، وأخرج صندوقاً خشبياً يبلغ طول أضلاعه حوالى عشرين سنتيمتراً وارتفاعه حوالى سبعة سنتيمترات. حاول أن يرفع الغطاء، ولكنه لم يفلح. فقد كان مقفلاً، كما وصفه دوسندر تماماً. لن يتم أي شيء مجاناً هذه الليلة.

أعاد قطع الثياب المتناثرة إلى الدرج، وحاول أن يعيده إلى مكانه، ولكنه علق مجدداً. عمل تود على تحريره بتحريكه إلى الأمام تارة وإلى الخلف تارة أخرى، فيما كان العرق يتصبب من جبينه. وفي النهاية، تمكن من إعادته إلى مكانه. ثم نهض وفي يده الصندوق. كم مضى من الوقت لغاية الآن؟

كان سرير دوسندر مزوداً بقوائم، فوضع تود قفل الصندوق أسفل إحدى هذه القوائم وركله برِجله فسرت موجة من الألم في رِجله ووصلت إلى يديه ومرفقيه. نظر إلى القفل فوجد أنه انبعج قليلاً ولكنه بقي مقفلاً. أعادة الكرة وركله بقوة أكبر هذه المرّة من غير أن يأبه للألم. في هذه المرّة، طارت قطعة خشبية من قائمة السرير، ولكن الصندوق بقي مقفلاً. ضحك تود بصوت خافت، ونقل الصندوق إلى الجانب الآخر من السرير. رفع الصندوق فوق رأسه، وضربه بحافة السرير بكل ما أوتي من عزم، فانخلع القفل.

وفيما كان يرفع غطاء الصندوق، ومض النور من خلال نافذة دوسندر. تحسس محتويات الصندوق، فوجد بطاقات بريدية، وعلبة معدنية

صـــغيرة، وصـــورة مطوية لامرأة حسناء، ومحفظة جيب، ومجموعة من بطاقـــات الهـــوية، وغطـــاء جلدياً فارغاً لجواز سفر. وفي الأسفل، وجد مجموعة من الرسائل.

ازداد وهج النور أكثر، وسمع الآن الصوت المميز لمحرك البورش. ارتفع صوته شيئاً فشيئاً ثم توقف المحرك.

أمـــسك تـــود بـــثلاث صفحات كُتب عليها بالألمانية على الوجهين، وخرج مسرعاً من الغرفة مجدداً. كان على وشك نزول السلّم عندما تذكر أنـــه تـــرك الـــصندوق الخشبي على سرير دوسندر. عاد مسرعاً، وأمسك بالصندوق وفتح الدرج الثالث. تبين أنه علق في مكانه مجدداً، لكنه أصدر هذه المرّة صوتاً حاداً سببه احتكاك الخشب ببعضه.

تناهى إلى سمعه من الخارج صوت سقاطة مكبح الطوارئ، وصوت الباب الجانبي وهو يُفتح، وصوته عند إغلاقه.

كـــان فـــي مقدور تود سماع نفسه وهو يئنّ. وضع الصندوق في الدرج العالق، ونهض، وركل الدرج برجله فعاد إلى مكانه. نظر بعينيه اللتـــين كانـــتا ترمـــشان إلـــى الدرج للحظة، ثم غادر الغرفة مسرعاً مـــتوجهاً نحو الردهة. وصل إلى منتصف السلّم عندما سمع وقع أقدام والده السريعة في ممر دوسندر. عندئذٍ، وثب ونزل على الأرضية بدون أن يحـــدث صـــوتاً وتوجه بسرعة نحو المطبخ، وصفحات الرسالة في يده.

قُرع الباب، وسمع صوتاً يقول: "تود، هذا أنا".

كما سمع صوت صفارة سيارة الإسعاف من على مسافة بعيدة أيضاً. أما دوسندر فقد عاد إلى حالة من شبه الوعي مجدداً.

صاح تود: "أنا قادم يا والدي".

وضـــع صـــفحات الرسالة مبعثرة على الطاولة لكي تبدو كما لو أنه رماها على عجل، ثم توجه نحو الردهة، وفتح لوالده الباب.

سأله ديك بودين: "أين هو؟" فيما كان ينظر خلف تود.

"إنه في المطبخ".

قـــال والده: "لقد قمت بكل ما يتوجب عليك على الوجه المطلوب يا تود". وعانقه بطريقة خشنة ومحرجة.

قـــال تود بتواضع: "آمل أنني تذكرت كل شيء". ثم مشى خلف أبيه

في الردهة، ودخلا المطبخ.

في غمرة العجلة لإخراج دوسندر من المنزل، لم ينتبه أحد تقريباً للرسالة. لكن ديك أمسك بها لفترة وجيزة ثم أعادها عندما دخل الفريق الطبي حاملاً النقالة. تبع تود ووالده سيارة الإسعاف، ووافق الطبيب الذي بدأ بفحص دوسندر على تفسير تود لما حصل بدون أن يطرح أي سؤال. ففي النهاية كان السيد دنكر في الثمانين من عمره، وعاداته التي يتبعها في حياته لم تكن مثالية. كما أثنى الطبيب على تود بسبب سرعة تفكيره وتصرفه. شكر تود الطبيبَ بصوت ضعيف ثم سأل والده إن كان في مقدورهما العودة إلى المنزل.

في طريق العودة، أعاد ديك الحديث عن مدى اعتزازه بولده. لكن بالكاد استطاع تود سماعه، فقد عاد إلى التفكير ببندقيته مجدداً.

18

كان ذلك اليوم نفسه الذي كسر فيه موريس هيزل ظهره.

لم يكن موريس ينوي أن يكسر ظهره، بل كل ما كان يريده هو تثبيت زاوية مزراب مياه الأمطار الموجود في الجانب الغربي لمنزله. كانت إصابته بكسر في ظهره أبعد ما تكون عن خاطره، فقد عانى من آلام كثيرة في حياته بدونه. تُوفيت زوجته الأولى وهي لا تزال في سنّ الخامسة والعشرين، كما تُوفيت ابنتاه أيضاً. وتُوفي شقيقه كذلك في حادث سير مأساوي وقع في مكان لا يبعد كثيراً عن ديزني لاند سنة 1971. وقارب موريس نفسه سنّ الستين، وهو يعاني من نوع من داء التهاب المفاصل يزداد سوءاً في مرحلة مبكرة وبسرعة. كما ظهرت الثآليل على كلتا يديه، وبدا أنها تعاود الظهور حالما ينتهي الطبيب من إحراقها. كما كان يعاني من صداع نصفي في الرأس، وفي السنوات الأخيرة، بات جاره روغان يطلق عليه لقب *موريس القط*. وكان موريس يسأل زوجته الثانية ليديا عن حقيقة ردّ فعل روغان لو أطلق عليه لقب *روغان البواسير*.

كانت ليديا تجيبه في تلك المناسبات: "توقف عن ذلك يا موريس. أنت لا تتحمل المزاح، ولم يسبق لك أن تحملت مزاحاً من أحد. وأنا أتعجب في بعض الأحيان كيف أنني تزوجت من رجل لا يتمتع بأدنى حسّ من الفكاهة على الإطلاق". وأضافت: "سنذهب إلى لاس فيغاس". وهي تتحدث إلى

المطبخ الفارغ كما لو كان يوجد فيه متفرّجون لا يمكن لغيرها رؤيتهم. "وسنقوم بزيارة بودي هاكيت".

إلى جانب داء التهاب المفاصل، والثآليل، والصداع النصفي، يعاني موريس من ليديا التي أصبحت كثيرة التذمر في السنين الخمس الأخيرة... منذ أن أجرت عملية استئصال الرحم. ولذلك فهو يمرّ في الكثير من الأحزان، ويعاني من الكثير من المشكلات بدون ذلك الكسر في ظهره.

صاحت ليديا: "موريس". وهي تتوجه نحو الباب الخلفي وتمسح وتنظف يديها بمنشفة: "موريس، انزل عن السلّم حالاً".

"ماذا؟" والتفت لكي يراها. كان يقف على الدرجة الأخيرة من السلم المصنوع من الألمينيوم. كان يوجد ملصق أصفر زاهي اللون على هذه الدرجة يقول "خطر! ربما يختلّ توازنك قبل صعودك إليها؟ كان موريس يلبس مئزر النجار الذي يتميز بجيبين واسعين. كان أحد هذين الجيبين مليئاً بالمسامير، فيما كان الجيب الآخر مليئاً بمسامير مزدوجة كبيرة الحجم. كانت الأرضية أسفل السلّم غير مستوية بعض الشيء، وكان يترنّح قليلاً كلما تحرّك موريس عليه. أحس بألم الصداع النصفي وهو يقول بتبرّم: "ماذا قلت؟"

"قلتُ لك انزل عن السلّم قبل أن تكسر ظهرك".

"كدت أنتهي من عملي".

"أنت تهتزّ على السلّم كما لو كنت في قارب يا موريس. انزل في الحال".

قال بغضب: "سأنزل عندما أفرغ من عملي. دعيني وشأني".

عادت وقالت بنبرة حزينة: "ستكسر ظهرك". وعادت إلى المنزل ثانية.

بعد عشر دقائق، وفيما كان يدقّ المسمار الأخير في مزراب مياه الأمطار، اختلّ توازن السلّم، وسمع مواء هرة، ثم سمع نباحاً قوياً.

التفت فاهتزّ السلّم بعنف. وفي نفس اللحظة، قفزت الهرّة -كان اسمها لوفر بوي- نحو ركن المرآب، وتطاير فروها فيما كانت عيناها الخضراوان تتوهجان. كان كلب روغان يسعى خلفها ولسانه يتدلّى خارج فمه فيما كان يجرّ وثاقه خلفه.

ركضت الهرّة نحو أسفل السلّم، ولحق بها الكلب.

صاح موريس: "انتبه، انتبه أيها الكلب الأحمق".

اهتــزّ السلّم عندما لامسه الكلب بجنبه، وانقلب وانقلب معه موريس وصـــاح صيحة فزع. تطايرت المسامير من مئزره، وسقط على الأرضية الخرســانية وأحسّ بألم لا يطاق في ظهره. لم يسمع صوت عظامه وهي تُكسر بقدر ما أحس بوخز الألم. وما لبث أن أعتم المكان من حوله للحظة.

عــندما استعاد وعيه، وجد أنه لا يزال ممداً على الأرضية فوق مهد مـــن المـــسامير، ورأى لـــيديا منحنية فوقه وهي تبكي. كما حضر روغان أيضاً، وبدا وجهه أبيض مثل الكفن.

قالت له ليديا: "لقد حذرتك. طلبت منك النزول عن ذلك السلّم. والآن، أُنظر إلى ما حدث".

لـــم يجـــد موريس أي رغبة في النظر. لكن موجة من الألم الخانق والـــنابض أحاطـــت بوســـطه مثل الحزام، وهو ما اعتبره أمراً سيئاً. لكن الأســـوأ منه أنه لم يعد يحسّ بشيء أسفل وسطه؛ لم يعد يحسّ بشيء على الإطلاق.

قال بصوت مبحوح: "انتحبي لاحقاً. اتصلي بالطبيب الآن".

قال روغان: "سأقوم بذلك". وهرع إلى منزله.

قال موريس: "ليديا". ومسح شفتيه.

"ماذا تريد؟ ماذا تريد يا موريس؟" انحنت فوقه والدموع تنساب على وجنتيها. بدا المنظر بالنسبة إليه مؤثراً، لكن الخوف زاد من حدّة الألم.

"ليديا، لقد عاودني الصداع النصفي".

"يا عزيزي المسكين، ولكنني قلت لك.."

"عاودني الصداع لأن كلب روغان بقي ينبح طوال الليل، ومنعني من الـــنوم. والـــيوم، يلاحـــق كلبه هرتي ويوقعني عن السلّم. وأنا أعتقد أنني أصبت بكسر في ظهري".

صرخت ليديا فاهتزّ رأس موريس من شدّة صوتها.

قال: "ليديا". ومسح شفتيه مجدداً.

"ماذا تريد يا عزيزي؟"

"ساورني شك منذ عدة سنين. والآن أصبحت متأكداً".

"عمّ تتحدث يا عزيزي؟"

"لا شيء". وما لبث أن غاب عن الوعي.

نقلــوه إلــى ســانتو دوناتو وقال له الطبيب هناك بأنه لن يتمكن من المــشي ثانية. في ذلك الوقت، كان وسطه قد لُفَّ بالجبس، وأُخذت عينات من دمه وبوله. وفحص الطبيب كيميلمان عيني موريس، ونقر على ركبتيه بمطــرقة خفــيفة مــصنوعة مــن المطاط؛ ولكن لم تحدث رجله حركة انعكاســية. وعند كل فحص، كانت ليديا تراقب والدموع تنهمر من عينيها، فيما كانت تبلل منديلاً بعد آخر. حرصت ليديا، التي تعيش في بيتها كما لو أنهــا متزوجة من عملها، على التزود بما أمكنها من المناديل تحسباً لنوبة طــويلة من البكاء. وكانت قد اتصلت بأمها التي قالت لها إنها ستحضر في غضون فترة وجيزة ("هذا أمر رائع يا ليديا". بالرغم من أنه إذا كان يوجد شيء على وجه الأرض يشمئز منه موريس، فهو والدة ليديا). كما اتصلت بالحاخــام الذي قال إنه سيحضر في غضون فترة وجيزة أيضاً ("هذا أمر رائع يا ليديا". بالرغم من أن قدمه لم تطأ الكنيس منذ خمس سنين ولم يكن يعــرف اسم ذلك الحاخام). واتصلت أيضاً بصاحب عملها، والذي بالرغم مــن أنــه لــم يكن في استطاعته المجيء في وقت مبكر، إلاّ أنه عبّر عن عمــيق تعاطفــه وتعازيه ("هذا أمر رائع يا ليديا". بالرغم من أنه إذا كان يــوجد من يضاهي والدة ليديا، فهو فرانك هاسكل الذي يمضغ السيجار). وفــي الــنهاية، أعطــوا موريس قرص فاليوم مهدئاً، وأخرجوا ليديا من الغرفة. وبعد وقت قصير، غاب موريس عن الوعي؛ لم يعد يشعر بالقلق، ولا بالــصداع النــصفي، لم يعد يشعر بشيء على الإطلاق. لقد خطرت بباله فكــرة أخيــرة قــبل أن يغيب عن الوعي مفادها أنهم إذا استمرّوا في إعطائه أقراصاً زرقاء اللون مثل هذا القرص، فسيرتقي السلّم ويكسر ظهره مجدداً.

عــندما أفاق – أو عندما استعاد وعيه، إذ إن الأمر بدا أشبه بذلك – كــان الفجــر قــد انــبلج وكانت المستشفى هادئة. شعر بالهدوء... والــسكينة. فلم يعد يشعر بالألم، وأحس بأن بدنه مقيد وأنه بدون وزن. كــان ســريره محاطــاً بأداة غريبة الشكل تشبه قفص السنجاب؛ شيء مصنوع من قضبان فولاذية لا تصدأ، وأسلاك مشدودة، وبكرات. رأى أن رجلــيه مرفوعتان بواسطة كابلات متصلة بالأداة الغريبة. وبدا أن ظهره مقوس فوق شيء ما، ولكنه لم يستطع التأكد من ماهيّته؛ فقد كان يستطيع الرؤية بزاوية محدودة.

رفــع ذراعــه بصعوبة – شعر بألم في موضع ما من جسده، ولكنه

كــان خفيفاً جداً – وقبض أصابعه فيما كان ينظر إليها. لم يجد أمراً غير عــادي فــي يديه، كما لم يلحظ أمراً غير عادي في ذراعيه أيضاً. ولكنه لاحــظ بأنـــه لا يجــسّ بشيء أسفل خصره، ما المشكلة في ذلك؟ فهناك أشخاص في مختلف أنحاء العالم يعانون من شلل كلّي. كما يوجد أشخاص مــصابون بالبرص، وأشخاص يموتون من جرّاء مرض السفلس. وهناك بعــض الأشخاص الذين يمشون في ممر الركاب لركوب طائرة ستتحطم. كلا، هذا ليس بالأمر الجيد، لكن يوجد ما هو أكثر سوءاً في العالم.

كما كان يوجد في يوم من الأيام، أشياء أسوأ بكثير في هذا العالم.

رفع ذراعه اليسرى. بدت أنها تطفو، أو أنها تحررت من جسده أمام عينـــيه؛ ذراع هــزيلة لرجل عجوز ضمرت عضلاته. كان يرتدي سترة العمليات، ولكن أكمامها كانت قصيرة بحيث كان لا يزال في مقدوره قراءة الأرقـــام المكــتوبة علـــى ذراعه والموشومة بالحبر الأزرق الباهت، س 499965214. هذا هو أسوأ ما كان يعاني منه، أجل، هذا الرقم أسوأ من سقوطه عن السلّم وإصابة ظهره بكسر وإقامته في مستشفى نظيفة ومعقمة في العاصمة وإعطائه قرصاً من الفاليوم يضمن له التخلص من مشكلاته.

كانــت تــوجد حمامـــات، وكانت الأسوأ من نوعها. تُوفيت زوجته الأولـــى، روث، في أحد الحمامات القذرة. ففيها تحولت خنادق للمياه إلى قــبور؛ فــي مقــدوره إغماض عينيه ورؤية الرجال بالرغم من ذلك وهم يصطفون على امتداد حواف الخنادق، ولا يزال في مقدوره سماع أصوات طلقـــات البــنادق، ولا يــزال يتذكر كيف انقلبوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض مــثل دمـــى سيئة الصنع. كانت توجد محارق، وكانت الأسوأ من نــوعها أيــضاً، وهي المحارق التي ملأت الهواء بسيل مستمرّ من روائح الــيهود الــذين احتــرقوا مــثل مشاعل لا يمكن لأحد أن يراها. الوجوه المصعوقة بالرعب للأصدقاء القدامى والأقارب... وجوه ذابت مثل شموع تــسيل، وجوه بدت أنها تذوب أمام أعينهم؛ فيما كانت تزداد رقّة. ثم جاء الــيوم الذي ذهبوا فيه. إلى أين؟ أين تذهب شعلة المشعل عندما تنفخ فيها الريح الباردة؟ إلى الجنّة. أنوار في الظلام، وشموع في الرياح.

أجــل هــناك مـــا هو أسوأ من تعرّض ظهرك للكسر، وموريس لم يخامــره شــك في ذلك. نزلت دمعة من عينه، وسالت ببطء بجانب رأسه ووصــلت إلـــى أذنـــه. قــرع جرس خارج غرفته بصوت خافت. جاءت

ممرضة تنتعل حذاء أبيض مصنوعاً من القماش. كان الباب مفتوحاً جزئياً، وفي الجانب البعيد من جدار الممر في الخارج، قرأ عبارة العناية المركزة.

حدثت جلبة في الغرفة؛ تغيير شراشف الأسرّة.

بحرص شديد، التفت موريس برأسه صوب اليمين بعيداً عن الباب، فرأى طاولة صغيرة بجانبه عليها إبريق ماء. وإلى جانب الطاولة، رأى سريراً آخر، وفي ذلك السرير، رأى رجلاً ممدداً بدا أكبر سناً وأشدّ مرضاً مما اعتقد موريس. لم يكن مربوطاً بدولاب ضخم لتمرين العضلات كما هو حال موريس، ولكن كان يوجد مصل بجانب سريره ومنضدة مراقبة عند قدميه. بدت بشرة الرجل غائرة وشاحبة، وجافة وميتة. كان جفناه الرقيقان يلمعان، وفي أنفه الكبير، رأى موريس الأوعية المتفجرة لرجل بقي يثمل طوال حياته.

صرف موريس نظره عنه، ثم عاد ونظر إليه. بعد أن عاد ضوء الفجر، وبدأت المستشفى تصحو، انتابه أغرب شعور بأنه يعرف رفيقه في الغرفة. هل يمكن أن يكون ذلك صحيحاً؟ بدا أن سنّ الرجل يتراوح بين الخامسة والسبعين والثمانين. لم يصدق موريس أنه يعرف شخصاً في هذه السن؛ باستثناء والدة ليديا، وكان موريس المرتعب يرى في بعض الأحيان أنه أكبر سناً من سفينكس، تلك المرأة التي تشبهه إلى حدٍّ بعيد.

ربما كان شخصاً عرفه في الماضي، وربما قبل أن يهاجر إلى أميركا، قد يكون ذلك صحيحاً وقد لا يكون. لكن لماذا شعر فجأة بأن للأمر أهمية؟ لماذا استعاد ذكريات المعسكر، ذكريات بالذات هذه الليلة، في حين أنه يحاول دائماً إبقاءها دفينة؛ وقد نجح في ذلك مرات كثيرة؟

أطلق صيحة فجأة كما لو أنه دخل بيتاً مسكوناً توجد فيه جثث غير ساكنة وأرواح قديمة تمشي. هل يمكن أن يحدث ذلك، حتى في هذا المكان والزمان وفي هذه المستشفى النظيفة، وبعد مرور ثلاثين عاماً على انقضاء تلك الأوقات القاتمة؟

صرف نظره بعيداً عن الرجل العجوز، وسرعان ما بدأ يشعر بالنعاس مجدداً.

إنها خاطرة تجول في ذهنك تقول إن هذا الرجل يبدو مألوفاً. هذا عقلك الذي يحاول أن يسلّيك بأفضل طريقة ممكنة، يسلّيك كما كان يفعل دائماً..

لكنه لم يكن ليفكر في ذلك. بل إنه لن يسمح لنفسه بأن يُفكّر في

ذلك.

بعد أن غرق في سبات عميق، تذكر أنه تباهى أمام روث (لكن ليس أمام ليديا أبداً، لأن التباهي أمامها لم يكن يجدي نفعاً. فهي ليست روث التي كانت تبتسم في وجهه ابتسامة رقيقة): أنا لا أنسى وجهاً رأيته يوماً. هذه هي الفرصة لمعرفة إذا كان حالي لا يزال كذلك. فإذا كان يعرف ذلك الرجل الممدد في السرير في وقت من الأوقات، ربما يستطيع أن يتذكر المكان... والزمان.

قال موريس في نفسه قبل أن ينام، ربما تعرفت عليه عندما كنت في المعسكر.

19

وقع الاختيار على تود لكي يكون الطالب المرحّب بصفه، ربما بسبب أدائه الضعيف في الإمتحان النهائي في مادّة علم المثلثات والذي كان يستعد له في الليلة التي أصيب فيها دوسندر بنوبة قلبية. أدت تلك النتيجة إلى تراجع علامته إلى 89، أي أقل بعلامة واحدة من تقدير جيد جداً.

بعد مرور أسبوع على تخرّجه، ذهبت العائلة بودين لزيارة السيد دنكر في مستشفى سانتو دوناتو العام. شعر تود بالملل طوال الدقائق الخمس عشرة التي لمضاها والداه في قول العبارات المبتذلة وعبارات الشكر والسؤال عن الأحوال، وشعر بامتنان عظيم عندما حصل على استراحة بعد أن سأله الرجل الممدد في السرير الآخر إن كان يستطيع الإقتراب منه للحظة.

قال الرجل بطريقة تبريرية: "ستعذرني". كان جسمه مطوقاً بالجبس، ولسبب ما وُصل بنظام فوقي من البكرات والأسلاك. "أنا أُدعى موريس هيزل، وأنا مصاب بكسر في ظهري".

قال تود بأسى: "حالتك سيئة جداً".

أجاب: "أجل، إنها سيئة جداً، هذا الصبي موهوب بالقدرة على الفهم السريع".

بدأ تود يعتذر، ولكن هيزل رفع يده، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة. بدا وجهه شاحباً ومتعباً، مثل وجه أي رجل عجوز في المستشفى يواجه حياة حافلة بالتغيرات الماثلة أمامه؛ القليل منها سيكون

نحو الأفضل بالطبع. رأى تود أنه ودوسندر في هذه الناحية متشابهان.

قــال موريس: "أنت لست بحاجة إلى الإجابة عن تعليق وقح. فأنت شخص غريب، وهل يحتاج الغريب إلى التورّط في مشكلاتي؟"

قال تود: "لا يعيش رجل في جزيرة بمفرده". فضحك موريس.

"صبي ذكي. هل حالة صديقك هناك سيئة جداً؟"

"حسناً، يقول الأطباء بأن حالته لا بأس بها بالنظر إلى كبر سنّه، فهو في الثمانين من عمره".

دُهش موريس، وقال: "حقاً؟ إنه لا يتكلم معي كثيراً كما تعرف. لكني أســتطيع الاستنتاج من طريقته في الحديث أنه أجنبي حائز على الجنسية، مثلي. فأنا بولندي كما تعرف. أعني أن جذوري بولندية. أنا من رادوم".

سأل تود بأدب: "حقاً؟"

"أجــل هــل تعــرف ماذا يسمون فتحة الدخول البرتقالية اللون في رادوم؟"

أجاب تود وهو يبتسم: "كلا".

قـــال مـــوريس وهــو يضحك: "فتحة هاوارد جونسون". ضحك تود أيــضاً. لكــن دوسندر نظر إليهما وهو مندهش وعابس بعض الشيء. ثم قالت مونيكا شيئاً، فعاد دوسندر إلى الإلتفات إليها مجدداً.

"هل صديقك أجنبي حائز على الجنسية؟"

أجــاب تــود: "أجــل، إنه من بلدة إيسن في ألمانيا. هل تعرف تلك البلدة؟"

أجاب موريس: "كلا، ولكن ذهبت إلى ألمانيا مرّة واحدة. وأنا أتساءل إن كان قد شارك في تلك الحرب".

أجــاب تــود وهو يحاول أن يصرف عينيه: "في الحقيقة، لا يمكنني الجزم بذلك".

"حقــاً؟ لا بأس إذن. لقد مضى زمن طويل على تلك الحرب. بعد أن تنقــضي ثــلاث سنوات أخرى، سيكون هناك أشخاص في هذا البلد ممــن وُلــدوا بعد انتهاء الحرب يمنحهم الدستور حقّ الترشح للرئاسة. بالنــسبة إليهم، لا يوجد فرق بين معجزة دنكرك ومسيرة هنيبعل بفيلته في جبال الألب".

سأله تود: "هل عشت في زمن الحرب؟"

"أعتقد بأنني عشت فيها. لا بد وأنك صبي طيب لأنك تزور رجلاً عجوزاً مثل هذا... رجلان عجوزان، إذا أخذتني بعين الإعتبار".

ابتسم تود بتواضع.

قال تود: "آمل بأن تتحسن سريعاً".

أومأ موريس برأسه، وابتسم، وأغمض عينيه. عاد تود إلى سرير دوسندر حيث كان والداه يهمّان بالمغادرة؛ بقي والده ينظر إلى ساعته وهو منزعج من تأخر الوقت.

بعد يومين، عاد تود إلى المستشفى بمفرده. في هذه المرة، كان موريس هيزل، المسوّر بالجبس، غارقاً في سبات عميق في السرير الآخر.

قال دوسندر بهدوء: "أحسنتَ صنعاً. هل عدت إلى المنزل بعد الحادثة؟"

"أجل، وأحرقت تلك الرسالة اللعينة. أنا لا أعتقد بأنه يوجد شخص يمكن أن يهتم كثيراً لأمر تلك الرسالة، ولكنني كنت خائفاً..." هزّ كتفيه من غير أن يتمكن من معرفة إن كان دوسندر قد شعر بالخوف ولو ظاهرياً من تلك الرسالة؛ بالخوف من أن شخصاً يتقن الألمانية ربما يدخل منزله، شخصاً سيلاحظ أن موضوع تلك الرسالة يعود إلى عشر أو ربما عشرين سنة خلت.

قال دوسندر:"عندما تزورني في المرة القادمة، هرّب لي شيئاً لأشربه. أنا لا أعبث بالسجائر، ولكن.."

قال تود بصراحة: "لن أزورك مجدداً. ليس بعد الآن. لقد وصلنا إلى النهاية. لقد افترقنا".

وضع دوسندر يديه على صدره، وابتسم وقال: "لقد افترقنا". لم تكن ابتسامة رقيقة، ولكنها كانت أقرب ما تكون إلى ابتسامته المعتادة. "أعتقد بأن ذلك مكتوب في البطاقات. فهي تقول بأنهم سيسمحون لي بالخروج من هذه المقبرة في الأسبوع القادم... أو هذا ما وعدوني به. يقول الطبيب بأنه لا يزال أمامي سنوات معدودة. سألته كم يبلغ عدد تلك السنوات، ولكنه اكتفى بالضحك. وأنا أعتقد بأنه أراد القول إنني لن أعيش أكثر من ثلاث سنوات، وربما سنتين. لكن ربما لا يزال في مقدوري أن أقدم له مفاجأة".

بقي تود جالساً من غير أن يقول شيئاً.

"لكنني سأخبرك سراً أيها الصبي، لقد فقدت الأمل تقريباً برؤية مطلع

القرن الجديد".

قال تود وهو ينظر إلى دوسندر: "أريد أن أسألك عن أمر. وهذا هو سبب مجيئي اليوم. أريد أن أسألك عن شيء قلتَه مرّة".

نظر تود إلى الرجل الممدد في السرير الآخر ثم اقترب بكرسيه أكثر من سرير دوسندر. كان في مقدوره شمّ رائحة دوسندر، مثل رائحة غرفة الفراعنة في المتحف.

"تفضل بالسؤال".

"عندما هممت بدفن ذلك السكير، قلتَ شيئاً عن تجربة مشابهة مررتُ بها، تجربة مباشرة. ما الذي عنيتَه بقولك هذا؟"

كبـرت ابتسامة دوسندر قليلاً وقال: "أنا أطالع الصحف أيها الصبي. فالـرجال الكـبار في السنّ يطالعون الصحف دائماً، لكن ليس كما يطالعها الـشباب. مـن المعلـوم أن الحمقـى يتجمعون عند نهايات مدارج هبوط الطائرات في أميركا الجنوبية عندما تهب الرياح المتعامدة بطريقة غادرة، هـل تعـرف ذلك؟ هذه هي طريقة الرجل العجوز في مطالعة الصحف. قـرأت قـبل شـهر قصة في صحيفة تصدر يوم الأحد. لم تتصدر القصة الـصفحة الأولـى، لأنـه لا يوجد أحد يأبه بأمر السكارى والمدمنين على الكحـول لكـي تـتحدث عنهم الصحيفة في صفحتها الأولى، ولكنها كانت القـصة الرئيـسية في صفحة المقالات الخاصة. 'هل يوجد شخص يطارد المعـوزين خلـسة فـي سـانتو دوناتو؟' كان ذلك عنوان القصة. عبارة صـريحة. إنهـا الـصحافة الصفراء التي تروي القصص المثيرة. وأنتم الأميركيون تشتهرون بها".

قبض تود على يديه، مخفياً بذلك أظافر الجزار. تود لا يقرأ الصحف التـي تـصدر يوم الأحد، لأن لديه من الأعمال ما هو أجدى لكي يصرف وقـته فـيها. كان بالطبع يطالع الصحف كل يوم وعلى مدى أسبوع على الأقـل عقـب كل مغامرة من مغامراته الصغيرة، ولم يسبق أن تجاوزت قصة أي من ضحاياه الصفحة الثالثة. لكن فكرة أن شخصاً كان يربط بين المواضيع من وراء ظهره أثارت غضبه.

"أشارت القصة إلى وقوع عدة جرائم، جرائم وحشية للغاية. طعنات بالـسكين، ضربات بالهراوة، وصفها الكاتب بوحشية *من هم دون البشر*، ولكـنك تعـرف المراسلين. أقرّ كاتب هذه القصة الباعثة على الأسى بأن

معدل الوفيات مرتفع في أوساط عاثري الحظ، وأن سانتو دوناتو نالت أكثر من نصيبها من الفقر على مرّ السنين. ففي أية سنة، لا يقضي كافة هؤلاء الـــرجال نحـــبهم بطـــريقة طبيعية، أو بسبب عاداتهم السيئة. فهناك جرائم تُرتكب في حقهم باستمرار. لكن في أغلب الحالات، يكون القاتل أحد رفاق القتـــيل، والدافـــع لا يـــتعدى أن يكون مشاجرة أثناء لعب الورق أو على زجاجة من شراب مسكر. وعادة ما يكون القاتل سعيداً بالإعتراف لأن قلبه ممتلئ ندماً.

غيـــر أنه لم يتم التوصل إلى حلّ لغز حوادث القتل الأخيرة. والذي ينذر بالشرّ أكثر، بالنسبة إلى كاتب القصص المثيرة هذا، هو ارتفاع معدل اخـــتفاء هـــؤلاء الأشخاص في السنوات القليلة الماضية. ويقرّ مجدداً بأن هـــؤلاء الـــرجال ليـــسوا أكثر من متشرّدين. فهم يأتون ويرحلون، ولكن بعـــضهم رحل من غير أن يقبض شيكات الصدقات أو شيكات يوم العمل التـــي توزع يوم الجمعة فقط. ويتساءل الكاتب، هل يمكن أن يكون بعض هـــؤلاء قُـــتل علـــى يد قاتل السكارى، أعني الضحايا الذين لم يتم العثور عليهم؟"

لوّح دومسدر يده في الهواء كما لو كان يريد استبعاد هذا الإحتمال.

"هذه دغدغة بالطبع، يريد بها بثّ القليل من الرعب في نفوس الناس صباح يوم الأحد. إنه يسميها قصص البعبع القديمة المبتذلة بالرغم من أنها لا تـــزال مفيدة؛ قاتل كليفلاند تورسو، وزودياك، السيد إكس الغامض الذي قتل بلاك داليا، وسبرينغ هيل جاك. قصص تافهة، ولكنها تجعلني أفكر. ما الذي تبقّى لرجل عجوز لكي يفعله عندما لا يأتي الأصدقاء القدامى لزيارته سوى التفكير؟"

هزّ تود بكتفيه استخفافاً.

"قلـــت فـــي نفـــسي لو رغبت في مساعدة هذا الرفيق الصحافي، وهـــو أمـــر غيـــر وارد بالتأكيد، لكنت شرحت له ملابسات بعض من حـــالات الإختفاء تلك. فليست كافة الجثث وُجدت مطعونة أو تعرّضت للـــضرب بالهراوة؛ ليس كلها. ولكن هذا الواقع يصح في بعض حالات الإخـــتفاء. والسبب هو أن بعضاً من المتشرّدين الذين اختفوا موجودون في قبو منزلي".

سأله تود بصوت منخفض: "كم عدد الأشخاص الذين دفنتَهم هناك؟"

أجـــاب دوســـندر بهـــدوء: "ستة، إذا أخذنا في الحسبان الرجل الذي ساعدتني على التخلّص منه، الرجل السادس".

قال تود: "أنت رجل معتوه فعلاً". أصبحت بشرته أسفل عينيه بيضاء لامعة. "في مرحلة معينة، لتلفتَ عجلاتك الأربع".

لتلفـتُ عجلاتـــي الأربع. ما هذه العبارة الساحرة! ربما كنتَ على حق! لكنني حينها قلت في نفسي، سترغب هذه الصحيفة السخيفة في تحميل جـــرائم القـــتل وحـــالات الإختفاء تلك إلى الشخص نفسه؛ قاتل السكارى الإفتراضي. لكني لا أعتقد بأن ذلك سيحدث على الإطلاق".

"ثم قلت في نفسي، هل أعرف شخصاً ربما يكون المجرم الذي يقوم بـــتلك الأفعـــال؟ شخصاً يعاني من توتر شديد كما كنتُ أعاني في السنين القليلة الأخيرة؟ شخصاً يسمع أيضاً الأشباح القديمة وهي تعبث بسلاسلها؟ والجواب هو نعم. أنا أعرفك أيها الصبي".

"أنا لم أقتل أحداً".

الصورة التي ظهرت في القصة لم تكن صورة السكارى؛ فهم ليسوا مـــن جنس البشر على الإطلاق. الصورة كانت صورته وهو منحنٍ خلف الـــشجرة الميـــتة وهو يحدق في منظار بندقيته، وشعرة التعامد مثبتة على صـــدغ الرجل ذي اللحية الكثة، الرجل الذي كان يقود الشاحنة الخفيفة من نوع برات.

وافقه دوسندر بطريقة حبّية بالقول: "ربما لا، ولكنك تمالكت أعصابك بطـــريقة ملفتة في تلك الليلة. أعتقد بأنك عبّرت عن دهشتك بالغضب لأنك تـــورّطتَ في هذا الوضع الخطر بسبب مرض رجل عجوز. هل أنا على خطأ؟"

أجاب تود: "كلا، أنت لست على خطأ. لقد شعرت بالغضب منك ولا أزال. قمـــت بالتستر عليك لأنك تحتفظ بشيء في صندوق إيداع يمكن أن يدمر حياتي".

"كلا، أنا لم أفعل".

"ماذا تقول؟ ما الذي تتحدث عنه؟"

"كانـــت خدعة أشبه برسالتك التي تركتها عند صديق. أنت لم تكتب أيـــة رســـالة، ولـــم يكن لديك مثل هذا الصديق، وأنا لم أكتب حرفاً واحداً عن... زمالتنا، إذا سمحتَ لي بأن أصف علاقتنا على هذا النحو؟ أنا الآن

أضع أوراقي على الطاولة. لقد أنقذتَ حياتي. لا يهمني أنك تصرفت على ذلـك النحو لكي تحمي نفسك. أنا لا يمكنني إلحاق الأذية بك أيها الصبي. وسأقول لك أمراً بصراحة، لقد نظرت إلى الموت في وجهه وقد أفزعني، ولكن ليس بالقدر الذي كنت أتوقعه. لا يوجد مستند. والأمر أشبه بما قلتَ: لقد افترقنا".

ابتسم تود ثم ضم شفتيه، ولمع بريق ساخر ومرتعش في عينيه.

قال: "سيد دوسندر، أتمنى لو كنت أستطيع تصديق ما قلته".

عـندما حلّ المساء، مشى تود نحو المنحدر الذي يطلّ على الطريق العـام، وتـوجّه نحو الشجرة الميتة، وجلس عليها. كانت الشمس قد غابت للـتو. كانـت أمـسية دافئة، وكانت أضواء السيارات تخترق الغسق في سلاسل صفراء طويلة.

لا يوجد مستند.

لـم يـدرك مدى استحالة إصلاح الوضع بأكمله إلى أن تحدث إلى دوسندر. اقترح دوسندر على تود أن يبحث في المنزل عن مفتاح لصندوق إيداع، وإذا لم يجد شيئاً، يكون ذلك برهاناً على عدم وجود صندوق إيداع، وبالتالـي يكون برهاناً على عدم وجود مستند. لكن مثل هذا المفتاح يمكن إخفـاؤه في أي مكان؛ يمكن وضعه في علبة معدنية ثم دفنه تحت التراب، ويمكـن وضـعه خلـف لوح بعد استبداله، وربما ذهب بالحافلة إلى سان ديـيغو، ووضع المفتاح خلف إحدى الصخور في الجدار المزخرف الذي يحـيط بمحمـيّة الدببـة. وذهـب تود إلى حدّ الإعتقاد بأن دوسندر رمى المفتاح. ولِمَ لا؟ فهو كان بحاجة إلى الصندوق لمرّة واحدة فقط، لكي يضع المستند المكتوب فيه. وفي حال تُوفي، فسيقوم شخص آخر باستخراجه.

أومـأ دوسندر برأسه معبّراً عن إحساسه بالتردد، ولكن بعد أن فكّر للحظـة، أشار إلى اقتراح آخر. عندما يستعيد عافيته بما يسمح له بالعودة إلـى المنزل، سيطلب من الصبي الإتصال بكل مصرف في سانتو دوناتو. وسـيقول لكـل مسؤول مصرفي بأنه يتصل نيابة عن جده، جده المسكين الـذي أصـابه الخرف في السنتين الأخيرتين، وقد أضاع مفتاح صندوق الإيـداع. والأسـوأ من ذلك أنه لم يعد يتذكر اسم المصرف الذي استأجر صـندوق إيـداع فـيه. فهل يمكنهم التحقق من ملفاتهم بحثاً عن اسم أرثر دنكـر، بدون اسم الأب؟ وعندما يتحقق من كافة المصارف الموجودة في

البلدة،...

عـاد تـود إلى هزّ رأسه مجدداً. فقصة مثل هذه لا بدّ وأنها ستثير الـشكوك، لأنهـا قصة مكشوفة. وعلى الأرجح سيشتبهون بوجود خديعة وعـندئذٍ سيتـصلون بالـشرطة. وحتـى إن صـدّق كل مسؤول في تلك المصارف القصة، فهذا لن يجدي نفعاً. فعلى افتراض أنه لم يكن يوجد في المـصارف التـي يقـارب عددها التسعين في سانتو دوناتو صندوق باسم دنكر، فهذا لا يعني أن دوسندر لم يستأجر صندوقاً في سان دييغو، أو لوس أنجلوس أو في أي مدينة بينهما.

وفي النهاية أذعن دوسندر.

"أنـت تملك كافة الإجابات أيها الصبي. كل الإجابات باستثناء إجابة واحـدة. فمـا الذي سأجنيه من الكذب عليك؟ لقد اختلقتُ تلك القصة لكي أحمي نفسي منك؛ هذا هو الدافع. والآن أنا أحاول إيضاح حقيقة الأمر. ما هي الفائدة المحتملة التي تراها في ذلك؟"

نهض دوسندر بمشقة بالإعتماد على أحد مرفقيه.

"وعلى ذكر الفوائد، لماذا سأحتاج إلى مستند في هذه المرحلة أصلاً؟ ففـي وسعي أن أدمر حياتك وأنا راقد في سرير المستشفى لو كان هذا ما أريـده. يمكننـي أن أفـتح فمي أمام أول طبيب يزورني، فهم جميعاً من اليهود، وسيعرفون من أكون، أو على الأقل ماذا كنت. لكن ما السبب الذي يدعوني إلى فعل ذلك؟ أنت طالب لامع، وأمامك مستقبل زاهر... ما لم تقم بأعمال طائشة مع هؤلاء السكارى".

تجمّد وجه تود وقال: "قلت لك.."

"أنـا أعرف. لم يسبق لك أن سمعتَ عنهم، وأنت لم تلمس شعرة من رؤوسـهم. حـسناً، هـذا جـيد. وبـناء على ذلك، لن أعود إلى فتح هذا الموضـوع مرة أخرى. ولكن قل لي يا صبي، ما السبب الذي يدفعني إلى الكذب في هذه المسألة؟ فقد افترقنا كما تقول. ولكنني سأقول لك شيئاً وهو أننا يمكننا الإفتراق فقط عندما يمكن لكل منا أن يثق بالآخر".

كان تود، الذي يجلس الآن خلف الشجرة الميتة على المنحدر المطلّ علـى الطريق السريع، ينظر إلى الأضواء التي ترسم خطوطاً تختفي عند اللانهاية مثل رصاصات خطية. لقد أدرك تماماً ما الذي يخشاه.

تحـدث دوسـندر عن الثقة، وهذا ما أثار الخوف في نفسه. كما أن

فكرة تحول دوسندر إلى شعلة كراهية صغيرة ولكنها قوية في أعماق قلبه جعلته خائفاً أيضاً.

إنها كراهية تود بودين الذي كان تلميذاً موهوباً تنتظره حياة مشرقة.

غير أن أكثر ما يخشاه تود هو رفض دوسندر مناداته باسمه الحقيقي.

يـا تـود، مـا الخطب في ذلك، حتى بالنسبة إلى ألماني عجوز معظم الأسـنان التي في فمه اصطناعية؟ إن اسم تود يتألف من مقطع لفظي واحد، وبالتالـي فـإن لفظه سهل. وما عليك سوى أن تضع لسانك في سقف فمك، وتخفض أسنانك قليلاً، ثم تحرك لسانك، فتنطق بالإسم. لكن دوسندر دأب على مناداته بالصبي، كما لو أنه شخص مجهول. أجل، هذا هو الوصف الدقيق له، إنه شخص مجهول، مجهول مثل رقم تسلسلي في معسكر اعتقال.

ربما كان دوسندر يقول الحقيقة. لا أقول ربما، بل على الأرجح. لكن هـناك تلـك المخاوف، وأسوأها رفض دوسندر استخدام اسمه. ووجد أن كافـة هـذه المخاوف تنبع من عدم قدرته على اتخاذ قرار صعب ونهائي. كمـا أن هـناك حقـيقة محزنة وهي أنه بعد أربع سنين قضاها في زيارة دوسـندر، لا يـزال يجهل ما يدور في رأس الرجل العجوز. ربما لم يكن ذلك التلميذ الموهوب في النهاية.

كانـت السيارات تمرّ من أمامه الواحدة تلو الأخرى. وكانت أصابعه تـتوق إلـى الإمـساك بالبندقية. كم كان عدد الأشخاص الذين يمكنه النيل منهم؟ ثلاثة؟ ستة؟ أو حتى عشرة؟

كان يقوم بحركات خفيفة متواصلة تعبّر عن مدى إحساسه بالقلق.

وحدها وفاة دوسندر يمكن أن تكشف عن الحقيقة النهائية، يوماً ما في غـضون الـسنين الخمس التالية، وربما قبل ذلك. ربما يأتي هذا اليوم في غـضون ثلاث إلى خمس سنين... يبدو الأمر كما لو أنه حكم بالسجن. يا تود بودين، حكمت عليك المحكمة بقضاء ما بين ثلاث وخمس سنين بجرم مزاملة مجرم حرب معروف. ثلاث إلى خمس سنين من الأحلام المزعجة والعرق البارد.

سـيخرّ دوسـندر ميتاً بكل ببساطة إن عاجلاً أو آجلاً، ثم تبدأ بعدها فتـرة الإنـتظار، والشعور بتقلّص في المعدة في كل مرّة يرنّ فيها جرس الهاتف أو يقرع جرس الباب.

اشـتاقت أصابعه للإمساك بالبندقية، ولكن تود قبضها وأبعدها عنها.

شعر بألم فظيع ولكنه نفّس عنه من خلال سيل لا ينتهي من الأفكار.

نجح في ذلك لفترة وجيزة على الأقل.

20

بالنسبة إلى موريس هيزل، كان يوم الأحد يوماً حافلاً بالمعجزات. فقد فاز أتلانتا برايفز، فريقه المفضل في كرة القاعدة، على فريق سنسيناتي ريدز بسبع نقاط مقابل نقطة واحدة، وبثماني نقاط مقابل لا شيء. وليديا التي تتباهى بأنها تعتني بنفسها دائماً والتي ترفع شعارها المفضل درهم *وقاية خير من قنطار علاج*، انزلقت على أرضية المطبخ الرطبة في بيت صديقتها جانيت، وكادت تكسر وركها. وهي الآن راقدة في سرير منزلها. لم تكن الحادثة خطيرة على الإطلاق، والحمد لله على ذلك، ولكن ذلك يعني أنها لن تتمكن من زيارته لمدة لا تقل عن يومين، وربما أربعة أيام.

أربعة أيام بدون ليديا. أربعة أيام كانت ستعيد على مسامعه فيها كيف أنها حذرته من الصعود على ذلك السلّم، وكيف أنه تشبث برأيه، ورفض النزول عند رأيها. أربعة أيام لن يحتاج فيها إلى الإصغاء إليها وهي تقول له بأنها كانت تقول لروغان دائماً بأن كلبه سيسبب لهما الأسى إذا ما استمرّ في ملاحقة لوفر بوي بهذه الطريقة. أربعة أيام لن تسأله فيها ليديا إن كان لا يشعر بالسعادة الآن لأنها أصرّت على إرسال استمارة التأمين تلك، لأنها لو لم تفعل ذلك، لكانا في طريقهما الآن إلى ملجأ للفقراء. أربعة أيام لن تقول له ليديا فيها بأن العديد من الأشخاص يعيشون حياة طبيعية – تقريباً على أي حال – بالرغم من أنهم يعانون من شلل نصفي. لماذا؟ لأن كل متحف وصالة عرض في المدينة مجهزة بمنحدرات للكراسي المدولبة إضافة إلى السلالم، حتى أنه توجد لهم حافلات خاصة. وبعد تلك الملاحظة، ستبتسم ليديا بشجاعة ثم تغرق في الدموع لا محالة.

ما لبث موريس أن غرق في سبات عميق في وقت لاحق من بعد ظهر ذلك اليوم.

عندما استيقظ من قيلولته، وجد أن الساعة تشير إلى الخامسة والنصف من بعد الظهر. كان شريكه في الغرفة نائماً. بالرغم من أنه لم يعرف أن اسمه دنكر، فقد كان متأكداً من أنه عرف الرجلِ في وقت من الأوقات. سبق أن طرح على دنكر أسئلة مرة أو مرتين، ولكن كان هناك

شـــيء يمنعه من مواصلة الحوار شبه التافه مع ذلك الرجل؛ حالة الطقس، الهزة الأرضية الأخيرة، الهزة الأرضية التالية.

قـــال مـــوريس في نفسه بأن سبب إحجامه عن مواصلة الحديث أنه يدفعـــه إلى الدخول في لعبة ذهنية. وعندما تكون ملبساً بالجبس من كتفيك إلى وركيك، تصبح الألعاب الذهنية يسيرة. وإذا كنت تخوض مباراة ذهنية قصيرة، لن تحتاج إلى تمضية الكثير من الوقت في التفكير في النتائج.

إذا أراد دخـــول صلب الموضوع مباشرة وطرح السؤال على دنكر، علـــى الأرجـــح أن تصل المباراة الذهنية إلى نتيجة سريعة وغير حاسمة. ســـيتكلمان عن ماضيهما وعن التجارب المشتركة التي عايشاها؛ رحلة في قطـــار، نزهة في قارب، أو حتى قضاء مدة في معسكر. ربما دخل دنكر إلى باتين، فقد دخل الكثير من اليهود الألمان ذلك المعسكر.

من ناحية أخرى، قالت له إحدى الممرضات بأن دنكر على الأرجح سيخرج من المستشفى، ويعود إلى منزله في غضون أسبوع أو أسبوعين. وإذا لم يتوصل موريس إلى معرفة هويته بحلول ذلك الوقت، سيعلن ذهنياً أنـــه خـــسر المباراة، ويطرح على الرجل السؤال المباشر التالي: يراودني شعور بأني أعرفك..

اعتـــرف بيـــنه وبين نفسه بأنه لكن يكون لديه شيء آخر يضيفه إلى ذلـــك. هـــناك شيء في أحاسيسه، شيء ما يحس به في أعماق نفسه جعله يفكـــر فـــي قـــصة كف القرد، حيث تحققت كافة الأمنيات نتيجة لانعطاف مشؤوم في القدر. فالزوجان الكبيران اللذان امتلكا هذا الكف تمنّيا الحصول علـــى مائة دولار، وحصلا على ذلك المبلغ لكن كهدية مواساة عندما قُتل ولـــدهما الوحيد في حادث مشؤوم في طاحونة. ثم تمنّت الأم أن يعود ابنها إليها، فسمعا وقع أقدام في الممر المؤدي إلى منزلهما بعد فترة قصيرة، ثم ســـمعا قرع الباب. نزلت الأم المجنونة من شدة فرحها السلّم بسرعة لكي تفتح الباب لابنها الوحيد. أما الأب المجنون، فقد بحث في الظلام عن الكف الجاف إلى أن وجده أخيراً، وتمنّى أن يموت ابنه مجدداً. فتحت الأم الباب بعد ذلك بلحظة ولم تجد شيئاً سوى دوامة الريح المسائية.

بطـــريقة ما، شعر موريس بأنه ربما كان يعرف المكان الذي تعرف فـــيه على دنكر، ولكن معرفته كانت أشبه بابن الزوجين الكبيرين في تلك القصة؛ عاد من القبر، لكن ليس على الوجه الذي كان في ذاكرة أمّه، ولكنه

عـاد مرتعباً من سقوطه في الماكينة الدوّارة. شعر بأنه ربما كان لمعرفته بدنكر علاقة باللاوعي، يقرع الباب بين تلك الناحية من عقله وناحية الفهم والإعتـراف المنطقـي، شيء يطلب الإذن بالدخول... فيما تبحث الناحية الأخرى في ذهنه بجنون عن كف القرد، أو ما يناظرها من الناحية النفسية، عن تعويذة تمحو تلك المعرفة إلى الأبد.

نظر الآن إلى دنكر بوجه عابس.

دنكر، دنكر، في أي مكان تعرفت عليك يا دنكر؟ هل حدث ذلك في باتين؟ وهل هذا هو السبب الذي يفسر عدم رغبتي في معرفة المكان؟ لكن بالتأكيد، لا حاجة باثنين نجيا من رعب مشترك إلى أن يشعرا بالخوف من بعضهما، ما لم يكن بالطبع،...

ازداد وجهه عبوساً عندما شعر بأنه على وشك أن يعرف، لكن فجأة، شـعر بوخـز خفيف في قدميه، أفقده تركيزه، وعكّر عليه مزاجه. كانت قـدماه تتخزانه كما ينخزهما الخدر عندما تعود الدورة الدموية إليهما كما كانـت قبل أن تنام عليهما. كان في مقدوره الجلوس، وفرك قدميه إلى أن يزول ذلك الشعور. كان في مقدوره..

اتسعت عينا موريس.

لقـد ظل ممدداً بدون حراك لفترة طويلة، ونسي ليديا، ونسي دنكر، ونسي باتين، ونسي كل شيء عدا الوخز الذي يشعر به في قدميه. أجل في كلـتا قدمـيه، ولكنه كان أقوى في القدم اليمنى. عندما تشعر بذلك الوخز، تقول بأن قدمي خلدت إلى النوم.

لكن ما تريد قوله في الحقيقة بالطبع هو أن قدمي استيقظت.

بحث موريس عن زرّ المناداة. وضغط عليه المرّة تلو المرّة إلى أن جاءت الممرضة.

حاولـت الممرضـة أن تتجاهله؛ فلديها مرضى آخرون يحتاجون إلى رعايـتها. والطبيب الذي يعالجه لم يكن في المبنى، وهي لم تشأ أن تتصل به وهو في منزله. والطبيب كيميلمان معروف بأنه عصبي المزاج... وخصوصاً عـندما يتلقـى اتـصالاً وهو في منزله. لكن موريس لم يكن ليسمح لها بأن تـتجاهله. كـان رجلاً هادئاً، ولكن بات مستعداً الآن لإحداث ما هو أكثر من جلبة، بات على استعداد للمشاجرة إذا تطلب الأمر ذلك. فقد فاز فريق البريفز بمباراتين، وليديا ممدة في الفراش بسبب وجع في وركها، ولكن الأخبار الجيدة

تأتي في مجموعة من ثلاثة أخبار، والجميع يعرف ذلك.

أخيـراً، جاءت الممرضة بصحبة طبيب مقيم. كان شاباً يافعاً اسمه تمبنـيل. سحب الطبيب تمبنيل سكيناً سويسرية من جيب سرواله الأبيض، وأخرج مفك البراغي، ومرّره على أصابع قدم موريس اليمنى وصولاً إلى الكعبـين. لـم تقتل قدمه، ولكن أصابعها تحركت؛ كانت حركة واضحة لا يمكن لأحد أن يغفل عنها، فانهمرت دموع موريس.

جلس تمبنيل، الذي شعر بدوار، بجانبه على السرير، وربت على يده.

قـال: (ربما بالإستناد إلى ثروته من التجارب العملية التي تمتد ربما لـستة أشهر) "مثل هذه الأشياء تحدث بين الحين والآخر. لا يمكن للطبيب أن يتوقع حدوثها، ولكنها تحدث. ومن الواضح أن هذا ما حدث لك".

أومأ موريس برأسه، وهو يبكي.

"مـن الواضح أنك لم تُصَب بشلل كامل". كان تمبنيل لا يزال يربت علـى يده. "لكنني لن أحاول التكهن إذا كنت ستسترجع عافيتك بقدر بسيط، أو جـزئياً، أو كلّياً. كما أشك في قدرة الطبيب كيميلمان على التكهن بذلك أيضاً. لكنني أظن بأنك ستحتاج إلى الكثير من العلاج الفيزيائي، وليس كل هـذا العـلاج ممـتعاً. ولكنه سيكون أكثر امتاعاً من... كما تعرف". قال مورس الغارق في دموعه: "أجل، أنا أعرف. الحمد لله".

قـال تمبنـيل: "سأحرص على إطلاع الطبيب كيميلمان على الأمر". وربت على يد موريس للمرّة الأخيرة، ثم نهض من مكانه.

سـأله مـوريس: "هل يمكنك الإتصال بزوجتي؟" إذا وضعنا البكاء ورجفة اليدين جانباً، شعر بشيء حيالها. ربما كان ذلك الحب، أو عاطفة لا علاقة لها بإحساسه بإمكانية الإمساك بشخص ما من رقبته.

"أجل، سأحرص على القيام بذلك. أيتها الممرضة، هل يمكنكِ..؟"

قالت الممرضة: "بالطبع". وبالكاد استطاع تمبنيل إخفاء ابتسامته.

قـال مـوريس: "أشكرك". ومسح دموعه بمنديل ورقي كان موجوداً على الطاولة الصغيرة. "أشكرك جزيل الشكر".

ذهـب تمبنيل. لكن في مرحلة معينة من تلك المناقشة، استيقظ دنكر. فكّـر مـوريس في الإعتذار بسبب كل هذا الضجيج، أو بسبب دموعه، ثم قرر بأن الإعتذار ليس ضرورياً.

قال السيد دنكر: "عليّ أن أهنئك".

قـــال مـــوريس: "ســنرى". لكن على غرار تمبنيل، لم يستطع إخفاء ابتسامته. "سنرى".

أجاب دنكر بطريقة غامضة: "بطريقة ما، تتحسن الأمور أحياناً". ثم قـــام بتشغيل التلفاز بواسطة جهاز التحكم عن بُعد. كانت الساعة تشير إلى الـــسادسة إلاّ ربعاً. شاهدا برنامج هي هاو، ثم نشرة الأخبار المسائية. كان بيلي كارتر يفكر في العمل في تجارة الجعة. وأظهر استطلاع أجراه معهد غالـــوب أنـــه فـــي حـــال أجريت الإنتخابات الآن، يوجد أربعة مرشحين جمهوريين يمكنهم هزيمة جيمي شقيق بيلي. كما تحدثت النشرة عن وقوع حوادث عرقية أعقبت مقتل طفل أسود في ميامي. "ليلة عنف" كما وصفها مذيـــع النشرة. وفي مكان قريب، عُثر على رجل مجهول الهوية في بستان للفاكهـــة بالقرب من الطريق السريع 46، وتبين أنه قُتل من جرّاء تعرّضه لطعنات بالسكين والضرب بالهراوة.

اتـــصلت لـــيديا قبـــيل الساعة السادسة والنصف مباشرة. كان الطبيب كيملمان قد اتصل بها، وبناء على تقرير الطبيب المقيم، عبّر عن تفاؤل حذر. بالمقابل، كانت ليديا سعيدة لكن بحذر، وقالت بأنها ستأتي في اليوم التالي حتى وإن كـــان ذلك سيؤدي إلى موتها. قال لها موريس بأنه يحبها. في هذه الليلة، أحـــب الجمـــيع: ليديا، والطبيب تمبنيل بتسريحة شعره المميزة، والسيد دنكر، وحتى الفتاة الصغيرة التي أحضرت طعام العشاء عندما أقفل السماعة.

كـــان العشاء مؤلفاً من الهامبرغر، والبطاطا المهروسة، وخليط من الجـــزر والبازيلاء، وأطباق صغيرة من الأيس كريم كحلوى. قدمت فيليس لـــه الطعام، وكانت فتاة شقراء خجولة ربما في العشرين من عمرها. كما كانت تحمل أخباراً سعيدة؛ لقد حصل عشيقها على وظيفة مبرمج حواسيب في شركة آي بي أم، وتقدم منها بطلب للزواج بطريقة رسمية.

عبّر السيد دنكر، الذي كان يظهر سحراً معيناً تستجيب له كافة الفتيات، عن سعادته الكبيرة وقال: "حقاً، يا له من أمر مدهش. ينبغي عليكِ أن تجلسي وتخبرينا القصة بأكملها. أخبرينا عن كل شيء، ولا تنقصي شيئاً".

احمـــرّ وجه فيليس، وابتسمت، وقالت إنها لا تستطيع فعل ذلك. "لا يزال يتعين عليّ الذهاب إلى باقي الغرف في الجناح "باء" ثم الجناح "جيم" بعد ذلك. كما أن الساعة تشير إلى السادسة والنصف!"

"إذن ســـتخبريننا القـــصة مـــساء يـــوم غد بالتأكيد. إننا نصرّ على

سماعها... أليس كذلك يا سيد هيزل؟"

رد موريس بالقول: "أجل بالتأكيد". ولكن عقله كان على مسافة أميال.

(ينبغي عليك أن تجلسي وتخبرينا القصة بأكملها).

تلفظ بتلك الكلمات بنبرة مازحة. سبق أن سمع هذه الكلمات من قبل، وهذا ما لا يساوره شك فيه. لكن هل كان دنكر ذلك الشخص الذي تلفظ بها؟ هل كان هو ذلك الشخص فعلاً؟

(أخبرينا عن كل شيء).

إنه صوت رجل من أبناء المدينة. رجل مثقف. لكن كانت هناك نبرة تهديد في صوته. يد فولاذية في قفاز مخملي. أجل.

لكن أين؟

(أخبرينا عن كل شيء، ولا تنقصي شيئاً).

(باتين؟)

نظر موريس إلى عشائه، وكان السيد دنكر قد بدأ بتناول عشائه. فقد ارتفعت معنوياته كثيراً إثر حديثه مع فيليس؛ على غرار ما حدث عندما قدم الصبي الأشقر الصغير لزيارته.

قال دنكر: "إنها فتاة لطيفة". تلفظ تلك الكلمات بصعوبة بسبب حبات الجزر والبازيلاء التي كانت تملأ فمه.

"أجل.."

(ينبغي عليك أن تجلسي).

"أنت تعني فيليس... إنها".

(أخبرينا عن كل شيء).

"إنها لطيفة جداً".

(أخبرينا عن كل شيء، ولا تنقصي شيئاً).

أعاد النظر إلى عشائه، وتذكر فجأة كيف كان يقضي وقته في المعسكر. في البداية، كان في مقدورك قتل جرذ من أجل الحصول على اللحم، بغض النظر عن اليرقات التي فيه أو تلوكه باللون الأخضر بسبب العفن. ولكن بعد فترة، يختفي الإحساس بالجوع المجنون، ويضمر بطنك مثل صخرة رمادية صغيرة. وتشعر حينها بأنك لن تجوع مرّة أخرى.

("أخبرني عن كل شيء يا صديقي، ولا تنقص شيئاً. عليك أن تجلس

وتخبرنا عن كل شيء").

الطبق الرئيسي في الصينية البلاستيكية التي تقدمها المستشفى لموريس كان الهامبرغر. لماذا دعاه ذلك إلى التفكير فجأة بلحم الحمل لا بلحم الضأن؟ غالباً ما يكون لحم الضأن قاسياً. والأشخاص الذين فقدوا أسنانهم لن يعجبهم لحم الضأن. كلا، ما يفكر به الآن هو يخنة شهية الرائحة من لحم الحمل، كثيرة المرق والخضار. الخضار الطرية طيبة المذاق. لِمَ التفكير في يخنة مصنوعة من لحم الحمل؟ لماذا، ما لم..

فتح الباب، ودخلت ليديا بوجهها الوردي وابتسامتها المشرقة. كانت تمسك بعكازٍ من الألمينيوم وهي تمشي مثل تشستير صديق المارشال ديلون. وخلفها كانت إيما روغان السعيدة جداً. قالت: "موريس".

نظر إليها السيد دنكر، فسقطت الشوكة من يده. أطلق اللعنات بصوت خافت. إلتقط الشوكة عن الأرض وهو يشعر بالخوف.

قالت ليديا والفرحة تغمرها: "إنه خبر رائع! لقد اتصلتُ بإيما وسألتها إن كان في مقدورنا زيارتك هذه الليلة بدلاً من الغد. فأنا أحمل عكازي. قلت لها: إيم، لا يمكنني تحمّل هذا الألم عن موريس، أي نوع من الزوجات أنا؟ هذا ما قلته لها، أليس كذلك يا إيما؟"

أومأت إيما روغان رأسها بغضب، ربما لأنها تذكرت أن كلبها تسبب بجزء من هذه المشلكة على الأقل.

قالت ليديا وهي تخلع معطفها فيما بدا أنها زيارة طويلة: "ولذلك اتصلت بالمستشفى، فقالت الموظفة بأن وقت الزيارات قد انقضى، ولكن في حالتي يمكن أن يكون هناك استثناءات شريطة ألاّ نمكث طويلاً لأننا ربما نتسبب بالإزعاج للسيد دنكر. نحن لا نسبب لك أي إزعاج، أليس كذلك يا سيد دنكر؟"

أجاب السيد دنكر بإذعان: "كلا يا سيدتي العزيزة".

"اجلسي يا إيما، خذي كرسي دنكر، فهو لا يستعمله. وأنت يا موريس، توقف عن تناول الآيس كريم، فأنت تلوث ثيابك مثل طفل صغير. لكن لا بأس بذلك. دعني لأطعمك إياه. غوغو غاغا، افتح فمك... فوق أسنانك، فوق لثتك... اُنظر، لقد وصلت إلى المعدة. كلا لا تقل شيئاً، الماما تعرف ما هو الأفضل لك. انظري إليه يا إيما، بالكاد يوجد شعر في رأسه وأنا لا أتعجب من ذلك بعد أن اعتقدت بأنه لن يتمكن من المشي

ثانية. إنها رحمة الله. قلتُ لك إن السلّم يتمايل. قلت لك موريس، *انزل عن السلّم قبل أن..*"

أطعمته الآيس كريم، وبقيت تثرثر مدة ساعة، ثم غادرت بعد ذلك، وهي تعتمد على العكاز فيما كانت ليما تمسك بذراعها الأخرى. كانت ذكريات بخنة لحم الضأن والأصوات التي يتردد صداها عبر كل تلك السنين آخر شيء يخطر ببال موريس هيزل. فقد كان منهكاً. والقول بأنه كان يوماً حافلاً، وصف لطيف لما حدث فيه. وما لبث أن خلد موريس إلى النوم.

استيقظ بين الساعة الثالثة والرابعة صباحاً وهو يحبس صراخه في فمه.

الآن عرف من يكون الرجل. عرف بالضبط زمان ومكان تعرّفه على الرجل الذي يرقد في السرير الآخر، باستثناء أن اسمه لم يكن دنكر حينها.

استيقظ من أسوأ كابوس رآه طوال حياته. قدّم أحدهم له وليديا كف قرد، وتمنّيا الحصول على مال. وبطريقة ما، ظهر صبي من الإتحاد الغربي يرتدي بزّة شبيبة بهتلر في الغرفة معهما. سلّم الصبيُ موريس برقية جاء فيها: نأسف لإبلاغك بأن ابنتيك تُوفيتا- معسكر الإعتقال في باتين- نتقدم بعميق أسفنا على هذه الخاتمة- فيما يلي رسالة من الوصايا العشر- ستخبرك بكل شيء ولا تنقص شيئاً- نرجو أن تقبل شيكاً بمبلغ 100 مارك ألماني منودعه في مصرفك غداً- التوقيع المستشار أدولف هتلر.

صدر صوت نحيب فظيع من ليديا. بالرغم من أنها لم ترَ ابنتي موريس، فقد أملت في أن يعيدهما كفُ القرد إلى الحياة مرّة ثانية. غرقت الغرفة في الظلام، وفجأة، سُمع صوت وقع أقدام تترنّح في الخارج.

جثا موريس على يديه وركبتيه في عتمة فاحت فيها فجأة رائحة الدخان، والغاز، والموت. كان يبحث عن الكف. بقي لديه أمنية واحدة. إذا كان في مقدوره العثور على الكف، فسيتمنّى أن ينتهي هذا الحلم المرعب. وبذلك لن يرى ابنتيه النحيلتين مثل فزّاعتين، ولن يرى عيونهما الغائرة، وأرقامهما المحترقة على جلد أذرعهما العارية.

هناك من يقرع الباب.

فـي ذلـك الكابـوس، بات يبحث عن الكف كالمسعور، لكن بدون جدوى. بدا أنه ابتعد عنه مسافة سنوات. ثم فُتح الباب خلفه. قال في نفسه كـلا، لـن أنظر. سأغمض عينيّ، وسأقتلعهما بيديّ إن احتجتُ إلى ذلك، ولكنني لن أنظر.

ولكـنه نظــر. كــان عليه أن ينظر. في ذلك الحلم، بدا كما لو أن ذراعين هائلتي الحجم أمسكتا برأسه، وهزتاه بعنف.

لـم تكـن ابنتاه من وقف أمام الباب، بل كان دنكر. لكنه كان أصغر سـناً بكثير، دنكر الذي ارتدى بزّة فرقة الأس أس النازية واعتمر القلنسوة التــي تحمــل شارة الموت في جانبها. كانت أزرارها تلمع بلا شفقة، بينما كان حذاؤه العالي الساق يطلق بريق الموت.

كــان يحمــل بين ذراعيه قدراً ضخمة تحتوي على يخنة لحم الحمل وهي تغلي ببطء.

ابتـسم دنكــر فــي الظــلام ابتسامة رقيقة، وقال: "عليك أن تجلس وتخبرني عن كل شيء؛ كما يتحدث الصديق إلى صديقه. سمعنا بأن هناك مــن يخبــئ ذهــباً، ويخزن التبغ. يتعين عليك عدم الإستهانة بذكائنا عبر الإدعاء بأنك لا تعرف شيئاً. أنت تعرف كل شيء. ولذلك أخبرني عن كل شيء، ولا تنقص شيئاً".

فــي الظــلام الذي كانت تعبق فيه رائحة اليخنة التي تثير الجنون، أخبــرهم عــن كل شيء. وتحولت معدته، التي كانت مثل صخرة رمادية صغيرة، إلى نمر يتضوّر جوعاً. خرجت الكلمات من فمه بدون إرادة منه. خرجت الكلمات من فمه في مزيج من الحقيقة والكذب.

لقد أخفى بروديين خاتم أمّه بين فخذيه.

("عليك أن تجلس").

تحدث لازلو وهيرمان دورسكي عن برج الحراس الثالث!

("وتخبرنا عن كل شيء").

لــدى زوج راكيل تاننبوم بعض التبغ، وقد أعطاه للحارس الذي تبدأ نــوبة حراســته بعد زيكيرت؛ الحارس الذي يسمونه آكل القاذورات لأنه يــنظف أنفه بإصبعه دائماً ثم يضعها في فمه. لقد أعطى تاننبوم تبغاً لآكل القاذورات لكي لا ينتزع أقراط اللؤلؤ من أذني زوجته.

(كلامــك خالٍ من أي منطق على الإطلاق، فقد خلطت بين قصتين

مختلفتين، ولكن لا بأس بذلك. فنحن نفضل أن تخلط بين قصتين على أن تغفل واحدة بالكامل. يتعين عليك ألاّ تنقص شيئاً").

هناك شخص ينادي باسم ولده الميت لكي يحصل على حصتين!

(أخبرني عن اسمه").

أنا لا أعرف اسمه، ولكنني أستطيع أن أشير إليه أمامك، أرجوك، أجل، أستطيع أن أشير إليه، سأفعل، سأفعل، سأفعل.

(أخبرنا عن كل شيء تعرفه").

ثم استعاد وعيه مع صرخة في فمه كما لو أنها جذوة من النار.

نظر وهو يرتجف إلى الرجل النائم في السرير الآخر. ووجد أنه يحدق على وجه الخصوص في فمه المتجعد والغائر. نمر هرم بدون أسنان. فيل قديم ضارٍ فقد ناباً فيما كان الناب الآخر يهتز في مغرزه. وحشٌ خرف.

همس موريس هيزل: "يا الله". لم يكن يستطيع سماع صوته أحد سواه. سالت الدموع على خديه، ووصلت إلى أذنيه. "يا الله، الرجل الذي قتل زوجتي وابنتي ينام في غرفة واحدة معي. يا الله، إنه هنا معي في هذه الغرفة".

صارت دموعه تنهمر بغزارة الآن؛ دموع الغضب والرعب الحارقة.

ظل يرتجف وهو ينتظر الصباح، ولكن بدا الصباح بعيداً.

21

في اليوم التالي، يوم الإثنين، استيقظ تود عند الساعة السادسة صباحاً، وتوجه إلى المطبخ، وبدأ بإعداد وجبة الفطور عندما دخل والده المطبخ وهو لا يزال في ثياب النوم.

حالف تود الحظ عندما حصل على وظيفة صيفية في مؤسسة تعمل في تزيين الحدائق خارج باسادينا. كانت تلك مسافة بعيدة في الأوضاع العادية حتى وإن رضي أحد والديه بإعارته سيارته في ذلك الصيف (ولم يكن أي منهما على استعداد لذلك)، ولكن والده كان يعمل في موقع بناء لا يبعد كثيراً عن مكان عمل تود، وكان في استطاعته اصطحاب تود إلى موقف للحافلات وهو في طريقه إلى عمله ثم العودة إلى نفس المكان ليصطحب ولده إلى المنزل. لم يشعر تود بالإرتياح لهذه الفكرة، فهو لا

يحبّ العودة من عمله إلى المنزل مع والده، وهو يكره بالتأكيد الذهاب معه إلـــى العمل في الصباح. فقد كانت أوقات الصباح التي يشعر فيها بأنه عارٍ مـــن الثـــياب، عندما يكون الجدار بين ما كان في السابق وما قد يكون في المستقبل أرق ما يمكن. وأسوأ من ذلك، الفترة التي تلي الأحلام المزعجة، فهـــو حتـــى وإن لم يرَ أحلاماً في الليل، فلقد كان يمرّ بأوقات سيئة. وفي صباح أحد الأيام، أدرك فجأة وهو في حالة من الرعب أنه يفكر بجدّية في فتح حقيبة والده، وانتزاع مفتاح سيارة البورش وقيادتها صباحاً.

"هل تريد تناول بيضة أخرى يا تود-أو؟"

"كـــلا، أشكرك يا أبي". تناول ديك بودين البيض المقلي. كيف يمكن لأحـــد أن يـــستطيب مذاق البيض المقلي؟ ففي إمكانه وضعه على المشواة فينضج في غضون دقيقتين.

أزاح طبقه من البيض المخفوق جانباً، وبالكاد تناول منه شيئاً.

خـــارج المنـــزل، سُمع صوت الصحيفة الصباحية وهي تسقط على الأرض. أنهـــى والـــده إعـــداد طعامه. رفعه عن النار، وعاد إلى الطاولة وقال: "ألا تشعر بالجوع هذا الصباح يا تود-أو؟"

نادني بهذا الإسم مرّة ثانية وسأغرز سكيناً في أنفك اللعين يا أبي-أو.

"أعتقد بأنك فقدتَ شهيتك".

ابتسم ديك في وجه ابنه. كان يوجد أثر لمعجون الحلاقة بالقرب من أذن الصبي اليمنى. "أعتقد بأن بيتي *ترَاسك* أفقدتكَ شهيتك".

أجـــل، ربمـــا كانت هي السبب. وابتسم *ابتسامة خفيفة ما لبثت أن اخـــتفت عندما نزل والده السلّم لكي يلتقط الصحيفة. هل ساحرّك مشاعرك إذا قلت لك بأنها فتاة فاتنة يا أبي-أو؟ ما هو رأيك لو قلت: "بالمناسبة، هل تعـــرف بـــأن ابنة صديقك راي ترَاسك واحدة من أفجر الفتيات في سانتو دونانـــو؟ وما عليك سوى تقديم شراب الكوكاكولا لها لتصبح ملكاً لك في تلك الليلة". أعتقد بأن هذا سيحرّك مشاعرك يا أبي-أو، فهذا شيء يعطيك دفعة قوية لتبدأ يومك.*

طرد تلك الأفكار من رأسه وهو يعلم بأنها لن تلبث أن تعود.

عـــاد والـــده حـــاملاً الصحيفة. ألقى تود نظرة خاطفة على العنوان الرئيسي فيها: يقول الخبراء، مكوك الفضاء لا يمكنه التحليق.

جلس ديك، وقال: "بيتي فتاة حسناء، وهي تذكّرني بأمك عندما التقيت

بها أول مرّة".

"حقاً؟"

"إنهــا فــتاة جميلة... صغيرة... نضرة". مرح ديك بودين بخاطره للحظــة ثــم عاد مجدداً، وركّز ناظريه على ابنه. "لا أقصد بذلك القول إن أمّك لــم تعد كما كانت. لكن في ذلك السنّ، من المؤكد أن تملك الفتاة... وهجاً". وهزّ كتفيه وفتح الصحيفة، وقال: "هذه هي الحياة".

إنها عاهرة في الصميم. وربما هذا السبب الذي يجعلها تتوهج.

"أنــت تعاملها بطريقة لائقة، أليس كذلك يا تود-أو؟" كان والده يلقي نظرته السريعة المعتادة على الصحيفة وهو يبحث عن صفحة الرياضة.

"الأمور تسير على ما يرام يا أبي".

(إذا لم يتوقف عن الخوض في ذلك حالاً، فسأفعل شيئاً، سأصرخ، أو سأرمي فنجان القهوة في وجهه. سأفعل أي شيء).

قــال ديــك: "يعتقد راي بأنك صبي طيب". وصل أخيراً إلى صفحة الرياضة، فانشغل في القراءة تماماً. وساد المطبخَ صمت رائع.

لا تــزال بيتي ترابسك تلاحقه منذ المرّة الأولى التي خرجا فيها معاً. فقد اصــطحبها إلى ساحة العشاق بعد أن شاهدا فيلماً سينمائياً لأنه عرف بأن هذا هــو العمــل المتوقّع منهما، وهناك يمكنهما فعل ما يشاءان ثم يخبر كل منهما أصدقاءه بما فعل البارحة. يمكن أن ترفع بصرها إلى أعلى وتشرح كيف أنها قاومت تحرّشاته بشدة؛ الصبيان مزعجون حقاً. وستوافقها صديقاتها الرأي ثم يجــتمعن فــي غرفة الفتيات ويقمن بكل ما اعتدن على القيام به هناك؛ وضع مساحيق التجميل، التدخين، وأي شيء آخر.

وفي ما يتعلق بالشاب... حسناً، عليك أن تعرف بنفسك. كان عليه أن يحصل على فرصة ثانية ويسعى إلى الحصول على ثالثة، لأن الأمر يتعلق بالسمعة. لم يكن تود يأبه لاكتساب سمعة الفحولة، فهو يريد فقط أن يكون شخصاً عادياً. لكن أصدقاءه يتساءلون إن كان على ما يرام.

كــان يــصطحب الفتــيات إلــى جاينز هيل، ويتبادل معهنّ أطراف الحديث، ثم يعيدهنّ إلى منازلهنّ. لم يكن يأبه لما قد يقال في غرفة الفتيات في اليوم التالي. لم يكن يأبه لأي شخص يعتقد بأن تود يمكن أن يكون أي شيء سوى أنه طبيعي، باستثناء.. باستثناء بيتي ترابسك.

لكن إذا سأله شخص لماذا هجرتها، فسيقول له بأنه اكتفى منها. لكن

مـــاذا لو نفت ذلك؟ كم مرة ينبغي أن يمضي السهرة معها لكي يكون ذلك كافياً؟

كـــان على علم بأنه يحوّل مشكلة ثانوية إلى مشكلة كبيرة. ووجد أن الجــواب يكمـــن في الكلّية، فهي توفر له عذراً لا يمكن التشكيك فيه لكي يهجر بيتي. لكنّ شهر سبتمبر/أيلول بدا بعيداً جداً.

قال له والده: "حسناً، أريد أن أهنئك يا بنيّ!"

"ماذا قلت؟" ونظر إلى غرفته.

"لقــد رفعـــتَ اسم مدرستك عالياً". وظهرت على وجه والده ابتسامة العز والمتعة.

"هـــل الأمـــر كذلك؟" بالكاد عرف الموضوع الذي كان والده يتحدث عـــنه، ووجـــد أن عليه التفكير في معنى تلك الكلمات. "أجل، لقد ذكر لي المـــدرّب هاينـــز شـــيئاً عن هذا الأمر عند نهاية العام. قال إنه سيرشّحني ويرشّح بيلي ديلونز للعب في فريق ساوثرن كال أول ستارز".

"حسناً، لا يبدو أنك تأثرت بذلك".

"لا زلت أحاول".

(من يأبه لهذا الأمر؟)

وبعد جهد جهيد، تمكن من التبسم وقال: "هل يمكنني قراءة المقالة؟"

أعطـــاه والـــده الـــصحيفة وقام عن الكرسي وقال: "سأذهب لإيقاظ مونيكا، لأنه يجدر بها أن تعرف الخبر قبل أن نغادر المنزل".

يا الله، لا يمكنني مواجهتهما معاً هذا الصباح.

"إيـــاك أن تفعـــل ذلك. فأنت تعرف بأنها لن تستطيع النوم ثانية إذا أيقظتها. سنترك لها الصحيفة على الطاولة".

"أجل، أعتقد بأننا نستطيع القيام بذلك. أنت صبي ذكي يا تود". وربت على ظهر ولده فأغمض تود عينيه. وفي نفس الوقت، هزّ كتفيه في حركة جعلت أباه يضحك. فتح تود عينيه مجدداً ونظر إلى الصحيفة.

جاء في العنوان، أربعة صبية يُرشّحون للعب في فريق ساوثرن كال أول ســـتارز. وأسفل العنوان، ظهرت صور الصبية ببزات النادي؛ ملتقط الكرة، واللاعب المدافع في الجناح الأيسر من فاير فيو هاي، ورامي الكرة الأعسر من ماونتفورد، وظهر تود في أقصى اليمين بابتسامة كبيرة للعالم من أسفل قبعة فريقه. قرأ المقالة وعرف أن بيلي ديلونز وصل إلى الدرجة

الثانية. كان هذا الخبر على الأقل سبباً يشعره بالسعادة لأنه يمكن لديلونز المجاهرة بأنه ميثودي إلى أن يسقط لسانه، إذا كان ذلك يشعره بمزاج جيد، ولكنه لم يكن ليخدع تود. فهو يعرف تماماً من يكون بيلي ديلونز. ربما يجدر به تقديمه إلى بيتي تراسك، فهي بيضاء أيضاً. وقد راودت تود تلك الفكرة منذ فترة طويلة، وعزم على ذلك في الليلة الماضية. إن عائلة تراسك تبحث عن البيض. وربما كان ذلك السبب الذي جعله عاجزاً عن الإستمرار في علاقته معها. فالأمر في غاية البساطة: فقد عرف قلبُه الفارق بينهما قبل أن يعرفه عقله. فمن يكون هؤلاء الذين يسمّون أنفسهم عائلة تراسك؟

"أهنئك مجدداً يا بني".

رفع رأسه إلى أعلى ورأى أولاً يد والده ممدودة، ثم وجهه الذي ارتسمت عليه ابتسامة مجنونة.

صديقك الذي من عائلة تراسك يهودي! وهو يصيح في وجه والده. ولهذا السبب أصيبت بالعجز أمام ابنته الفاجرة مساء البارحة. هذا هو السبب. وفي أعقاب ذلك، يرتفع الصوت البارد الذي يُسمع في بعض الأحيان في لحظات مثل هذه من أعماق نفسك، كما لو كان يقول لك:

تمالك نفسك الآن

من خلف البوابات الفولاذية. أمسك بيد والده وصافحه، وابتسم ابتسامة بريئة في وجه والده وقال: "أشكرك يا والدي".

تركا الصحيفة مفتوحة عند الصفحة التي وردت فيها المقالة مع ملاحظة لمونيكا أصرّ ديك على أن يكتبها تود ويوقّع تحتها، ابنك النجم، تود..

22

ذهب إيد فرينش، أو "بوكر" فرينش، أو سنيكر بيت والرجل إيد المجنون، وأيضاً رابر إيد فرينش، إلى بلدة ساحلية صغيرة اسمها سان ريمو من أجل حضور مؤتمر للمستشارين التوجيهيين. كان الأمر مضيعة للوقت – فقد اتفق كافة المستشارين التوجيهيين على ألاّ يتفقوا على شيء– وقد شعر بالسأم من سماع التقارير، والمشاركة في الحلقات الدراسية، وفترات المناقشة بعد أن أكمل يومه الأول. وفي منتصف اليوم الثاني، اكتشف بأنه سئم من سان ريمو أيضاً ومن صفاتها، فهي صغيرة، وجميلة،

وساحلية، وإن تكن صفتها الرئيسية أنها صغيرة. إذا وضعنا وجهات النظر الجميلة وأشجار الخشب الأحمر جانباً، لم يكن يتوفر في سان ريمو صالة سينما أو نادٍ للبولينغ، وإيد لم يشأ الذهاب إلى الحانة الوحيدة في المكان، لأن موقف السيارات فيها قذر ومليء بالشاحنات الصغيرة والتي تحمل في غالبيتها ملصقات لريغان على صداماتها وأبوابها الخلفية. لم يكن يخشى الركوب في إحداها، ولكنه لم يكن يريد تمضية الأمسية وهو ينظر إلى الرجال الذين يعتمرون قبعات رعاة البقر ويستمعون إلى لوريتا لين بوضع النقود في صندوق الموسيقى.

ثم جاء اليوم الثالث لمؤتمر استمرّ أربعة أيام طويلة على نحو لا يصدَّق. كان لا يزال في الغرفة رقم 217 في فندق هوليداي إن، فيما بقيت زوجته وابنته في المنزل الذي تعطل فيه جهاز التلفاز، وتصاعدت فيه الروائح الكريهة من دورة المياه. كان يوجد في فناء المنزل حوض للسباحة، ولكن مرض الأكزيما كان مستفحلاً في فصل الصيف. بدا جلده من الذقن إلى الكعبين كما لو كان مصاباً بالبرص. كان لا يزال أمامه ساعة قبل بدء ورشة العمل التالية، وكان موضوعها كيفية التعامل مع الأطفال الذين يتأتئون، أو يعانون من شق حلقي في سقف الحلق. تناول غداءه في المطعم الذي لا يوجد غيره في سان ريمو، ولم يشعر برغبة في أخذ قيلولة، وكان يُعرض على شاشة التلفاز إعادة لبرنامج بيويتشد.

بدأ يتصفح دليل الهاتف على غير هدى، وهو بالكاد يعرف ماذا كان يفعل، ويتساءل إن كان يعرف أي شخص مولع بالقرى الصغيرة، أو الجميلة، أو الساحلية لكي يعيش في سان ريمو. وافترض بأن هذا ما سيلجأ إليه في النهاية كافة الأشخاص المتململين الذين ينزلون في فنادق الهوليداي إن في مختلف أنحاء العالم؛ البحث عن صديق أو قريب قديم من أجل الإتصال به عبر الهاتف. البرامج التي يمكن مشاهدتها هي بيويتشد أو شرح الكتاب المقدس. وفي حال التقيت بشخص، ماذا عساك تقول له؟ "فرانك، كيف حالك؟ وبالمناسبة، أي الصفات أعجبتك في هذه البلدة، كونها صغيرة، أم جميلة أم ساحلية؟" أجل. قدّم لذلك الرجل سيجاراً، وأشعله.

لكن فيما كان ممدداً على السرير وهو يُقلّب الصفحات الصفراء والأعمدة الموجودة فيها، اكتشف بأنه يعرف شخصاً يقيم في سان ريمو. هل كان مندوب مبيعات يبيع الكتب؟ أم أحد أقارب سوندرا؟ أم لاعب بوكر

منذ أيام الدراسة في الجامعة؟ هل هو قريب لأحد الأصدقاء؟ ولكنه لم يستطع تحديد من يكون ذلك الشخص بدقة أكثر من ذلك.

بقي يقلّب الصفحات بإبهامه إلى أن شعر بالنعاس في النهاية، ولذلك اعتدل في جلسته، واستيقظ مجدداً.

لماذا يعيدون عرض قصص ويمزي على محطة بي بي أس مؤخراً؛ غيوم الشهود، ينبغي التشهير بالجريمة، الخياطون التسعة.

"ساندي، شكل هذا الوجه خطأ. وهو يضع في فمه أسناناً اصطناعية".

"أف". أجابت سوندرا بطريقة مرحة من الأريكة التي كانت ممددة عليها. "أنت تشعر بالغيرة منه لأنه في غاية الوسامة".

غنّت نورما في غرفة الجلوس وهي في ثياب النوم، "إنها غيرة الأب، إنها غيرة الأب".

قال لها إيد وهو يحدق بها: "كان يجدر بكِ الذهاب إلى فراشكِ قبل ساعة من الآن. وإذا بقيت ألاحظ وجودكِ هنا، فعلى الأرجح أن أتذكر بأنكِ لستِ موجودة هناك".

شعرت نورما الصغيرة بالإرتباك للحظة، فيما عاد إيد إلى الحديث مع سوندرا.

"عدتُ بالذاكرة إلى ثلاث أو أربع سنين مضت، وتذكرت ولداً اسمه تود بودين، وكيف أن جدّه جاء إلى المدرسة لكي يجتمع بي. والآن، أجد أن ذلك الرجل يشبه ويمزي، ويمزي العجوز، غير أني لا أجد عيباً في شكل هذا الوجه.."

قالت نورما الصغيرة وهي تغنّي: "ويمزي، بيمزي، ديمزي، جيمزي، ويمزي، بيمزي،.."

قالت سوندرا: "اصمتا. أعتقد بأنه أجمل رجل في العالم". يا لها من امرأة تثير الغضب.

لكن ألم يتقاعد جدّ تود بودين في سان ريمو؟ بالتأكيد، فهذا هو المكتوب في الإستمارات. كان تود واحداً من ألمع الصبيان في المدرسة في ذلك العام. وفجأة، تراجعت علاماته بشكل ملفت. قدم الرجل العجوز إلى مكتب إيد، وقصّ عليه قصة مألوفة عن المشكلات العائلية، وأقنعه بأن يترك الوضع على حاله لفترة من الوقت ليرى إن كان سيتحسن من تلقاء

نفـسه. لكـن وجهة نظر إيد كانت بأن هذه الخطة لن تنجح، ولكن الرجل العجوز بدا مقنعاً (وهو أمر ربما كان فيه شبيهاً بويمزي)، ووافق إيد على إعطـاء تـود مهلة إلى أن يحصل على شهادة الفشل التالية، ولكنه توعد الـصبي بالمحاسـبة الشديدة إذا لم يجتز تلك المرحلة. رأى إيد أن الرجل العجـوز كان محقاً في النهاية وأنه نجح في الضغط على الصبي. لم يكن من النوع الذي يبدو أنه يستطيع القيام بذلك وحسب، بل وكان يجد متعة في القـيام بـذلك أيـضاً. لكن قبل يومين، رأى صورة تود في الصحيفة. لقد التحق بفريق ساوثرن كال أول ستارز، وهذه مأثرة لا ينبغي الإستهانة بها بالنظـر إلى الصبية الخمسمائة الذين يجري ترشيحهم في فصل الربيع من كل عام. واعتقد بأنه لن يتمكن من تذكر اسم جدّه لو لم يرَ تلك الصورة.

بدأ يقلّب الصفحات البيضاء بشكل هادف الآن، وصار يمرر إصبعه علـى الأعمـدة التي فيها، إلى أن وصل إلى الإسم. فيكتور بودين، 403 ريـدج لاين. اتصل إيد بالرقم ورن جرس الهاتف عدة مرّات في الطرف الآخر. كان على وشك أن يقفل سماعة الهاتف عندما أجاب الرجل العجوز قائلاً: "مرحباً؟"

"مرحباً يا سيد بودين. أنا إيد فرينش من ثانوية سانتو دوناتو العامة".

قـال كلمـة واحـدة بأدب ولم يزد عليها: "أجل؟" لم يعرف الرجل العجـوز الـشخصَ الـذي يتكلم معه. حسناً، القصة تعود إلى ثلاث سنين مضت، وما من شك في أنه ينسى ما يصادفه من أمور بين الحين والآخر.

"هل تتذكرني سيدي؟"

"هـل يجدر بي ذلك؟" بدا صوت بودين حذراً، وهو ما حمل إيد على التبـسم. الرجل العجوز كثير النسيان، ولكنه لا يريد أن يعرف الجميع إن كان في استطاعته التغلّب على مشكلته. فهذا كان حال جدّه عندما بدأ سمعه يضعف.

"كـنت المستـشار التوجيهي لحفيدك تود في المدرسة الثانوية. وقد اتصلتُ بك لكي أهنئك على نجاح تود".

قال الرجل العجوز على الفور: "تود! أجل لقد قام بعمل رائع بالتأكيد، ألـيس كذلك؟ لقد حصل على المرتبة الثانية في صفه! والفتاة التي تقدمت عليه التحقت بكلّية إدارة الأعمال". إشتمّ من صوت الرجل العجوز شيئاً من الإحـتقار. "إتـصل بي ولدي ديك وعرض عليّ حضور حفلة تخرّج تود،

ولكنني أستخدم الكرسي المدولب الآن. لقد كسرت وركي في يناير/كانون الثاني الفائت، ولم أشأ حضور الحفل وأنا في الكرسي المدولب. لكنّ صورته وهو في حفل التخرّج معلّقة على الجدار عندي في الردهة. إن والدّي تود فخوران به، وأنا أيضاً بالطبع".

قال إيد: "أجل، أعتقد بأننا ساعدنا على حلّ مشكلته". كان يبتسم وهو يتحدث، ولكن مع شيء من الحيرة، فبطريقة ما، بدا حديث جدّ تود مختلفاً. لكن مضى على تلك الحادثة زمن طويل بالطبع.

"مشكلة؟ أية مشكلة؟"

"ألا تذكر المناقشة التي دارت بيننا عندما كان تود يعاني من مشكلات في دراسته؟ أعني عندما كان في الصف التاسع".

قال الرجل العجوز ببطء: "أنا لا أفهم شيئاً مما تقوله. لم أكن لأذهب إلى المدرسة لأعالج مشكلة ابن ريتشارد، لأن ذلك كان سيسبب مشكلة أصلاً. وأنت لا تعرف حجم المشكلة التي يمكن أن أتسبب بها إذا قمت بذلك. أنت مخطئ أيها الشاب".

"ولكن.."

"هناك خطأ ما. لا بدّ وأنك خلطت بيني وبين جدّ تلميذ آخر".

بدا إيد مصعوقاً. فهذه إحدى المرات القليلة التي يعجز فيها عن قول كلمة واحدة. إذا كان هناك التباس، فهو ليس الطرف الذي وقع فيه بدون شك.

قال بودين بحذر: "حسناً، كان لطفاً منك أنك اتصلت يا سيد.."

تحرّك لسان إيد وقال: "أنا موجود في البلدة يا سيد بودين للمشاركة في مؤتمر للمستشارين التوجيهيين. ستنتهي أعمال المؤتمر غداً عند الساعة العاشرة صباحاً تقريباً بعد قراءة التقرير الأخير. هل يمكنني المجيء..." وعاد إلى دليل الهاتف مجدداً وقال "إلى ريدج لاين لزيارتك لبضع دقائق؟"

"ما هو سبب الزيارة؟"

"مجرّد فضول. لقد عادت الأمور إلى سابق عهدها الآن. ولكن قبل ثلاث سنين، تراجعت علامات تود بدرجة خطيرة لدرجة أنني بعثت برسالة إلى أهله مرفقة بشهادة علاماته طلبت فيها الإجتماع مع أحد والديه، أو كليهما. ولكنّ جدّه هو من قدم لزيارتي، رجل لطيف جداً اسمه فيكتور بودين".

"لكن سبق أن قلت لك بأني..."

"أجل أنا أعرف. إنها الحيلة المعتادة. لقد تحدثت إلى شخص ادّعى بأنه جدّ تود. أعتقد بأنه لم يعد ذلك مهماً الآن، ولكن أريد أن أراك لكي يطمئنّ قلبي، ولن آخذ من وقتك سوى دقائق معدودة. ولن يستغرق الأمر أكثر من ذلك، لأن عائلتي تتوقع عودتي مساء".

قال بودين بنبرة حزينة: "الوقت هو كل ما أملكه. سأمكث في المنزل طوال اليوم، وأنا أرحب بزيارتك".

شكره إيد، وودّعه، وأقفل سماعة الهاتف. جلس عند طرف السرير وهو يحدق في الهاتف. وبعد فترة، نهض وأخرج علبة السجائر من جيب معطفه الذي كان على الكرسي وقال في نفسه، ينبغي أن أذهب. فهناك ورشة عمل، وإذا لم أحضر فسيفتقدونني. أشعل سيجارة بواسطة عود ثقاب أخرجه من علبة رُسم عليها فندق الهوليداي إن، وألقى بالعود المحترق في المنفضة. ثم مشى نحو نافذة الغرفة ونظر إلى الفناء الذي يحيط بالفندق.

قال لبودين بأن الأمر لم يعد مهماً الآن، ولكن الأمر يهمه شخصياً. فهو لم يعتد على الوقوع ضحية احتيال أحد الصبية الذين يشرف عليهم، غير أن هذا الخبر غير المتوقع أزعجه. افترض من الناحية التقنية أنه ربما كان يتحدث إلى رجل عجوز مصاب بالخرف، ولكن لم يبد أن لعاب فيكتور بودين يسيل على لحيته. كما أنه لم يكن يتحدث بالطريقة نفسها.

هل خدعه تود بودين؟

من الناحية النظرية، وجد أن ذلك أمر ممكن، وخصوصاً بالنسبة إلى صبي ذكي مثل تود. كان في مقدوره خداع أي شخص كان، لكن ليس إيد فرينش. كان في مقدوره تزوير توقيع أبيه أو أمه في شهادات الفشل التي كان يحصل عليها خلال الفترة التي تراجع أداؤه المدرسي فيها. وهناك الكثير من الأولاد الذين اكتشفوا قدرة فطرية على التزوير بعد أن حصلوا على بطاقات فشل. كان في مقدوره استخدام الحبر الماحي في تعديل علامات شهادتي الفصلين الثاني والثالث، ثم يعيدها إلى ما كانت عليه لكي لا يلاحظ مربّي الصف أي شيء مريب في حال نظر في الشهادة. يمكن لأي شخص أن يلاحظ الإستخدام المزدوج للحبر الماحي في حال أمعن النظر، ولكن عادة ما يكون مربّي الصف مسؤولاً عن ستين تلميذاً كمعدل، وسيكون سعيداً إذا استطاع مناداة كافة الأسماء قبل قرع الجرس الأول، ناهيك عن إمعان النظر في الشهادات التي استلمها للتأكد من عدم التلاعب

فيها.

بالنسبة لتقدير تود المدرسي النهائي، لم يكن بحاجة إلى التلاعب في أكثر من ثلاث نقاط في المعدل العام؛ على اعتبار أن أداءه تراجع في فترتين من أصل اثنتي عشرة فترة. وعلاماته الأخرى كانت مرتفعة بما يكفي للتعويض عن الفارق. وما هي نسبة الآباء الذين يزورون المدرسة للإطلاع على سجلات الطلاب التي تعدها وزارة التعليم في كاليفورنيا؟ وخصوصاً إذا كانوا ذوي تلاميذ لامعين مثل تود بودين.

بدت خطوط العبوس على جبهة إيد فرينش الملساء عادة.

لم يعد ذلك مهماً الآن. كانت عبارة عبّرت عن الحقيقة تماماً. فقد كان أداء تود المدرسي في الثانوية العامة مثالاً يُحتذى، كما أنه لا سبيل إلى تزوير معدل يبلغ 94 في المئة. قالت المقالة أن الصبي سيلتحق ببيركلي، وافترض إيد بأن عائلته فخورة به؛ وهو أمر تستحقه. لقد اتضح لإيد أكثر من أي وقت مضى أن هناك وجهاً شرّيراً للحياة الأميركية، شيئاً من الإنتهازية، وتدوير الزوايا، وسهولة تعاطي المخدرات، والجنس، والتراجع المستمرّ في المستوى الأخلاقي كل عام. وهذا يعني أنه عندما يبرز الولد بالرغم من ذلك، فمن حقّ والديه أن يفخرا به.

لم يعد ذلك مهماً الآن. لكن ماذا عن جدّه. بقي هذا السؤال يؤرقه. هل ذهب تود بودين إلى الفرع المحلّي لنقابة الممثلين السينمائيين وعلّق رسالة على لوحة الإعلانات هناك؟ شابّ يعاني من تراجع في علاماته المدرسية بحاجة إلى رجل عجوز، ويفضل أن يتراوح عمره بين السبعين والثمانين، لكي يمثل دور جدّه. قيمة العمولة مساوية لما هو معمول به في النقابة. هذا محال. ومن يكون هذا الرجل البالغ الذي يتورّط في مثل هذا المخطط المجنون، ولأي سبب؟

لم يكن إيد فرينش، أو بوكر، أو رابر أيد يعرف الجواب. وبما أن الأمر لم يعد مهماً الآن، فقد أطفأ سيجارته، وذهب إلى ورشة العمل، ولكنه لم يستطع نسيان الموضوع.

في اليوم التالي، ذهب بالسيارة إلى ريدج لاين وأجرى حديثاً مطولاً مع فيكتور بودين. تحدثا عن أنواع العنب، وعن تجارة الخضار بالتجزئة وكيف أن سلاسل المتاجر الضخمة تدفع صغار التجار إلى الإفلاس، وتباحثا في الجو السياسي السائد في جنوب كاليفورنيا. عرض السيد بودين

على إيد كأساً من الشراب ووافق إيد مع الإمتنان الشديد. شعر بأنه بحاجة على كوب من الشراب، حتى وإن كانت الساعة لا تزال العاشرة والأربعين دقـيقة صباحاً. بدا فيكتور بودين شبيهاً ببيتر ويمزي بقدر ما تشبه البندقية الرشاشــةُ الهراوةَ. كما لم يلحظ تلك اللكنة الأجنبية في حديثه، وكان سميناً جداً، في حين أن الرجل الذي ادّعى بأنه جدّ تود كان نحيل الجسم.

قــال إيد للسيد بودين وهو يهمّ بالمغادرة: "سأقدّر صنيعك إذا لم تأتِ على ذكر الحادثة أمام السيد أو السيدة بودين. فقد يكون هناك تفسير منطقي تمامــاً لكل ذلك... وحتى إن لم يكن يوجد لذلك تفسير، فقد أصبح شيئاً من الماضي على كل حال".

قال بودين وهو يرفع كوبه تحت أشعة الشمس، ويتأمل بإعجاب لونه القوي الداكن: "في بعض الأحيان، لا يمكن نسيان الماضي بسهولة. فلماذا إذاً يدرس الناس التاريخ؟"

ابتسم إيد بتكلّف ولم يقل شيئاً.

"لكننــي لــن أكــون مــصدر إزعاج لك. فأنا لا أتدخل في شؤون ريتــشارد، وتود صبي طيب. إنه الطالب المرحّب في صفه... لا بد وأنه صبي طيب. ألست على صواب؟"

قال إيد بصدق: "مثل المطر". ثم سأله تناول كوب آخر.

23

لــم يــنم دوســندر بــشكل مريح إذْ إنه رقد في خندق من الأحلام المزعجة.

كانــوا يحطمون السياج، كان هناك الآلاف وربما الملايين منهم. لقد خــرجوا من الغابة، ورموا بأنفسهم على الأسلاك الشائكة المكهربة لدرجة أنــه مــال إلــى الداخل الآن على نحو ينذر بالخطر. لقد انقطعت بعض الأســلاك المجدولــة، وســقطت علــى أرض الإستعراضات وهي تطلق شــرارات زرقــاء. لكن لم تكن هناك نهاية لسيلهم الزاحف. كان الفوهرر مجــنوناً كمــا ادّعــى رومل لو فكر في إمكانية التوصل لحل نهائي لهذه المشكلة. كان هناك المليارات منهم، لقد ملؤوا الكون، وهم جميعاً يلاحقونه.

"أيها الرجل العجوز استيقظ، أيها الرجل العجوز. استيقظ يا دوسندر، استيقظ أيها الرجل العجوز".

اعــتقد في البداية أن الصوت نابع من الحلم. فلقد سمع العبارة باللغة

الألمانية، لذا لا بد وأن تكون نابعة من حلمه. ولهذا السبب بدا الصوت مثيراً للرعب بالطبع. إذا استيقظ، فسوف يتخلّص منه، ولذلك زحف على سريره إلى أعلى... كان الرجل جالساً على كرسي وُضع ظهره قبالة السرير؛ رجل حقيقي. قال الزائر: "استيقظ أيها الرجل العجوز. كان الزائر صغير السن؛ لم يتجاوز الثلاثين من عمره. كانت عيناه قاتمتي اللون تلمعان خلف نظارة ذات إطار فولاذي. كان شعره البنّي طويلاً. لوهلة، اعتقد دوسندر بأن الصبي جاءه متنكراً. ولكن الزائر لم يكن الصبي، إذ إنه كان يرتدي سترة زرقاء قديمة الطراز لا تناسب الجو الحارّ في كاليفورنيا. لاحظ وجود زرّ فضي صغير في طيّة صدر سترته. الفضة هي الفلز الذي تستخدمه في قتل مصاصي الدماء والمستذئبين. كانت نجمة يهودية.

سأله دوسندر باللغة الألمانية: "هل تتحدث إليّ؟"

"هل يوجد في المكان أحد غيرك؟ رفيقك الذي كان في الغرفة قد ذهب".

"هيزل؟ أجل، لقد عاد إلى منزله البارحة".

"هل أنت مستيقظ الآن؟"

"بالطبع. لكن من الواضح أنك خلطت بيني وبين شخص آخر. أنا أدعى أرثر دنكر. ربما دخلت الغرفة الخطأ".

"أنا أدعى ويسكوف، وأنت تدعى كورت دوسندر".

أراد دوسندر أن يبلل شفتيه بلسانه ولكنه لم يفعل. ربما كان ذلك جزءاً من الحلم؛ مرحلة جديدة ليس أكثر. *أحضر لي سكيراً وسكيناً لتقطيع اللحم يا صاحب النجمة اليهودية، وسأجعلك تتبخر مثل الدخان.*

قال للرجل الشاب: "أنا لا أعرف شخصاً باسم دوسندر. أنا لا أفهمك. هل يجدر بي مناداة الممرضة؟"

قال ويسكوف: "أنت تفهم ما أقوله". تحول عن مكانه قليلاً، وأمسك بخصلة من الشعر تتدلّى على جبهته. بددت هذه الإيماءة الأمل الأخير لدى دوسندر.

قال ويسكوف: "هيزل". وأشار إلى السرير الفارغ.

"هيزل، دوسندر، ويسكوف. هذه الأسماء لا تعني شيئاً بالنسبة لي".

قال ويسكوف: "سقط هيزل عن السلّم فيما كان يحاول تثبيت مزراب جديد في جانب منزله. وأصيب بكسر في ظهره من جرّاء ذلك. يا للأسف. لكن تلك ليست المأساة الوحيدة في حياته، فقد كان سجيناً في

باتين، حيث فقد زوجته وابنتيه. باتين، ذلك المعسكر الذي كنتَ مسؤولاً عنه".

قال دوسندر: "أعتقد بأنك مجنون. اسمي آرثر دنكر. ولقد جئت على هذه البلاد بعد أن تُوفيت زوجتي. وقبل ذلك، كنت.."

قـال ويسكوف وهو يرفع يده: "أغنني عن سماع قصتك. إنه لم ينسَ وجهك. هذا الوجه الذي أراه".

أخـرج ويـسكوف صورة فوتوغرافية، ووضعها قبالة وجه دوسندر مـثل ساحر يقوم بخدعة. كانت إحدى الصور التي عرضها الصبي عليه قبل سنين خلت. دوسندر في سنين شبابه وهو يرتدي قبّعة فرقة الأس أس الأنيقة بشكل مائل، فيما كان يجلس خلف مكتبه.

تحـدث دوسـندر ببطء، لكن باللغة الإنكليزية الآن، وبحرص شديد، "كـنت عـاملاً ميكانيكـياً في أحد المصانع أثناء الحرب. ووظيفتي كانت الإشـراف علـى تـصنيع أعمـدة القـيادة وآليات توجيه القدرة الخاصة بالمـركبات المـصفحة والشاحنات. وساعدتُ في وقت لاحق في تصنيع دبابـات تايغـر. وتم استدعاء وحدتي الإحتياطية أثناء معركة برلين حيث قاتلت بشرف، ولكن لوقت وجيز. وبعد انتهاء الحرب، عملتُ في إيسن في وحدة مينشلر لتصنيع المحركات إلى أن.."

".. إلـى أن وجدت أنه من الضروري الهجرة إلى أميركا الجنوبية، مستعيناً بالذهب الذي حصلت عليه من أسنان اليهود والفضة التي حصلت علـيها مـن حليّ اليهود وحسابك المصرفي في سويسرا. عاد السيد هيزل إلـى المنـزل رجـلاً سعيداً. لكن مرّت به لحظة كئيبة عندما استيقظ في الظـلام وعـرف الشخص الذي يشاركه الغرفة. ولكنه يشعر بحال أفضل الـيوم. إنه يشعر بأن الله ابتلاه بكسر في ظهره ليكون أداة مفيدة في إلقاء القبض على أحد أشهر جزّاري البشر على مرّ التاريخ".

تحدث دوسندر ببطء، وحرص على اختيار ألفاظه بعناية.

"كنت عاملاً ميكانيكياً في أحد المصانع أثناء الحرب.."

"لِمَ لا تنسى هذه القصة؟ فأوراقك لن تصمد أمام الفحص الدقيق. أنا أعرف الحقيقة وكذلك أنت. لقد افتضح أمرك".

"ووظيفتي كانت الإشراف على تصنيع.."

"الجـثث! بطـريقة أو بأخرى، ستكون في تل أبيب قبل مطلع السنة

الجديدة. والسلطات هنا تتعاون معنا هذه المرّة يا دوسندر. فالأميركيون يريدون أن نكون سعداء، وأنت أحد الأشياء التي ستجعلنا سعداء".

".. تصنيع أعمدة القيادة وآليات توجيه القدرة الخاصة بالمركبات المصفحة والشاحنات. وساعدتُ في وقت لاحق في تصنيع دبابات تايغر".

"لماذا تصرّ على أن تكون مملاً؟ لماذا تصرّ على الإسترسال في القصة؟"

"وتم استدعاء وحدتي الإحتياطية.."

"حسناً إذن، سنزورك مرّة أخرى، وفي وقت قريب جداً".

نهض ويسكوف، وغادر الغرفة. تمايل ظلّه للحظة على الجدار ثم اختفى هو أيضاً. أغمض دوسندر عينيه، وتساءل إن كان ويسكوف يقول الحقيقة بشأن التعاون الأميركي. قبل ثلاث سنوات، عندما كان النفط شحيحاً في أميركا، لم يكن ليصدق ذلك، لكن الثورة الحالية التي تشهدها إيران ربما تزيد من الدعم الأميركي لإسرائيل. والأمر محتمل. لكن هل لذلك أهمية تذكر؟ بطريقة أو بأخرى، قانونية كانت أم غير قانونية، سيتمكن ويسكوف وزملاؤه من إلقاء القبض عليه. فهم يتميزون بالتشدد عندما يتعلق الأمر بالنازيين، وفي موضوع المعسكرات، يتصرفون كالمجانين.

كان يرتجف من رأسه حتى أخمص قدميه، ولكنه عرف ما يتعين عليه القيام به الآن.

24

كانت السجلات المدرسية للتلاميذ الذين اجتازوا مرحلة الثانوية في سانتو دوناتو في مستودع قديم في الطرف الشمالي. لم يكن ذلك المستودع يبعد كثيراً عن باحة القطارات المهجورة. كان مكاناً مظلماً يتردد فيه الصدى، وتفوح منه رائحة الشمع والدهان.

وصل إيد فرينش إلى المستودع عند الساعة الرابعة تقريباً من بعد الظهر برفقة نورما. سمح لهما البواب بالدخول وقال لإيد بأن ما يبحث عنه موجود في الطابق الرابع، وأشار إلى مصعد كان يحدث صوتاً كلما تحرك وهو ما أثار الخوف في نفس نورما فلاذت بالصمت.

استعادت ثقتها بنفسها عندما وصلت إلى الطابق الرابع، وبدأت تختال

بين الصناديق والملفات المكدسة فيما كان إيد يبحث عن الملفات التي تحتوي على الشهادات المدرسية التي تعود إلى العام 1975 إلى أن عثر عليها أخيراً. سحب الصندوق الثاني وبدأ بالحرف "باء"، بورك، بوستويك، بوزويل، بودين، تود. أخرج الشهادة وتوجه نحو إحدى النوافذ المرتفعة التي علاها الغبار.

خاطب ابنته بالقول: "توقفي عن اللعب يا عزيزتي".

"لماذا يا أبي؟"

"لأن الأقزام سينالون منكِ". ورفع شهادة تود إلى الضوء.

اتضح له على الفور وجود تلاعب. لقد قام بطريقة دقيقة وشبه احترافية بتزوير شهادته المدرسية.

تمتم إيد فرينش قائلاً: "يا الله".

غنت نورما بطرب: "أقزام، أقزام، أقزام". وواصلت الرقص بين أكوام الصناديق والملفات.

25

مشى دوسندر بتؤدة متوجهاً نحو الممر في المستشفى. كان يشعر بشيء من الألم في رجليه وهو يمشي في ثوب الحمام الأزرق الذي وضعه فوق إزار المستشفى. كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة مساءً، وكانت الممرضات يتبادلن مراكزهنّ. ستكون نصف الساعة التالية مرحلة تشهد إرباكاً. فقد لاحظ حدوث هذا الإرباك عندما يحين وقت تبديل المراكز، لأنه وقت تبادل الملاحظات، والشائعات، واحتساء القهوة في مقر الممرضات الذي كان في الجهة المقابلة لسبيل الشرب.

كل ما كان بحاجة إليه هو تجاوز سبيل الشرب. لكن الردهة كانت تطل على الطريق الذي ينوي اجتيازه، والتي ذكرته في هذه الساعة بدقائق الإنتظار الطويلة في محطة القطارات قبل تحرك قطار الركاب. كان المصابون يتريضون في المكان ببطء جيئة وذهاباً. إرتدى بعضهم ثوب الحمام مثله، فيما ارتدى آخرون إزار المستشفى. كان صوت الموسيقى المتقطعة يصدر من عشرات أجهزة الراديو الصغيرة المنتشرة في الغرف المختلفة. كان الزوار يأتون ويذهبون. وسمع صوت رجل وهو يضحك في إحدى الغرف، وبدا أن هناك رجلاً آخر يبكي في الردهة. ورأى طبيباً

يمشي وعيناه مركزتان على رواية كان يقرأها.

تــوجه دوســندر نحو سبيل الشرب، شرب بعض الماء، ومسح فمه بيده، ونظر إلى الباب المغلّق في الطرف الآخر من الردهة. كان هذا الباب مقفــلاً على الدوام؛ من الناحية النظرية على الأقل. لكنه لاحظ من الناحية العملــية أنه كان يُفتح في بعض الأحيان بدون رقيب. وغالباً ما يحدث ذلك فــي نــصف الــساعة التي تسودها الفوضى عندما يجري تبديل المراكز وعندما تتجمع الممرضات عند الزاوية. لاحظ دوسندر كل ذلك بعين مدرّبة ويقظــة لــرجل بقي هارباً لفترة طويلة جداً من الزمن. كان يتمنّى فقط أن يــرى الــباب بدون حراسة في الأسبوع التالي، وكان يرصد الفترات التي يمكنه أن يتسلل فيها؛ لو سنحت له الفرصة. ولكنه لم يكن يستطيع الإنتظار أسـبوعاً آخر، صحيح أن وضعه كمستذنب مقيم ربما لا يُعرف في الأيام القلـيلة التالية، ولكن ربما يُفتضح أمره غداً، وهو لا يجرؤ على الإنتظار، لأنه في حال اكتُشف أمره فسيخضع للمراقبة باستمرار.

شرب شربة أخرى من الماء ومسح فمه مجدداً، ونظر في الإتجاهين، ثــم تقدم بمشية عادية نحو الردهة، وفتح الباب، ودخل غرفة العقاقير. إذا صــدف أن المــرأة المــسؤولة كانــت خلف مكتبها، فسينتحل صفة السيد دوســندر قصير النظر. *أنا آسف جداً يا سيدتي، اعتقدت بأنها دورة المياه. يا له من تصرّف أخرق.*

ولكن غرفة العقاقير كانت فارغة. جال بنظره على الرف العلوي في جهة اليسار فلم يرَ شيئاً سوى قطرات العين وقطرات الأذن. وعلى الرف الثانــي، وجــد الملَيّــنات، والتحامــيل. وعلى الرف الثالث، رأى عقاري السيكونال والفيرونال. وضع قارورة من عقار السيكونال في جيب ردائه، ثم عــاد إلــى الباب، وغادر الغرفة من دون أن ينظر حوله، ورسم ابتسامة محيرة على وجهه. لم تكن تلك الغرفة دورة المياه بالتأكيد، أليس كذلك؟ ها هي دورة المياه، إنها بالقرب من سبيل الشرب. كان ذلك تصرفاً غبياً منّي.

تــوجّه نحو الباب الذي كُتب عليه "الرجال"، ودخل وغسل يديه، ثم عــاد نحــو الردهة، وتوجه نحو الغرفة شبه الخاصة التي أصبحت خاصة بالكامــل مــنذ رحــيل الــسيد هيزل الشهير. كان يوجد على الطاولة بين السريرين كوب زجاجي وإبريق بلاستيكي مليء بالمياه. لكن المؤسف هو أنــه لم يكن يوجد شراب. فعلاً، من العار أن يحصل ذلك. لكن الأقراص

ستجعله يغيب عن الوعي وإن حاولوا غسل معدته.

قال بابتسامة باردة: "مرحباً يا هيزل". وصب لنفسه كوباً من الماء. بعد كل تلك السنين من القفز على الظلال، ورؤية الوجوه التي تبدو مألوفة على المقاعد في المنتزهات أو في المطاعم أو في محطات الحافلات، تعرف عليه أخيراً رجل لم يخطر بباله أنه سيراه أبداً. كان الأمر مضحكاً. وضع ثلاثة أقراص في فمه، وابتلعها مستعيناً بجرعة ماء. ثم وضع في فمه ثلاثة أقرص أخرى، ثم ثلاثة أقراص أخرى. كان في مقدوره رؤية رجلين كبيرين في السنّ يجلسان إلى طاولة ويلعبان الورق. كان أحدهما مصاباً بالفتاق كما عرف دوسندر. لكن ماذا عن الشخص الآخر؟ هل يعاني من وجود حصى في الكُلية؟ أو من الحصاة الصفراوية؟ أو من ورم معين؟ أو من التهاب في البروستات؟ إنها القصص المرعبة للسنّ المتقدمة.

أعاد ملء كوب الماء، ولكنه لم يتناول مزيداً من الأقراص. هناك العديد من العوامل التي يمكن أن تحبط مخططه، فقد يتقيأ الأقراص التي ابتلعها، وسيتكفلون بإخراج ما تبقى منها. لم يكن ينوي قتل نفسه عبثاً.

قال دوسندر وقد ساوره الشعور بالنعاس، مُت. إنها كلمة مناسبة، لكن الأميركيين يقولون عبارات أخرى: أنا لا آبه لهذا الأمر، اخرج، ضعها حيث لا تشرق الشمس، المال يتكلم، لا أحد يمشي. يا لها من عبارات اصطلاحية مدهشة.

يظنّون بأنهم تمكنوا من الإمساك به، ولكنه سيموت أمام أعينهم.

وجد نفسه يتمنى، من بين كافة الأشياء المخيفة، لو يستطيع كتابة رسالة للصبي. تمنى لو كان يستطيع أن ينصحه بتوخي الحذر الشديد، وأن يصغي إلى رجل عجوز تجاوز حدوده أخيراً. تمنى لو كان يستطيع أن يقول للصبي بأنه يحترمه، حتى وإن لم يكن يحبّه، وأن التحدث إليه كان أفضل من الاسترسال وراء أفكاره الخاصة. لكن أي رسالة، مهما كانت بريئة، ربما ستثير الشكوك حول الصبي، ودوسندر لا يرغب في ذلك. سيعاني مدة شهر أو شهرين وهو ينتظر قدوم عميل حكومي ليطرح عليه أسئلة عن مستند معين عُثر عليه في صندوق إيداع أمانات استأجره شخص اسمه كورت دوسندر، والذي يُعرف باسم آرثر دنكر... لكن بعد مرور فترة من الوقت، سيدرك الصبي بأنه كان يقول له الحقيقة. لا حاجة إلى

المساس بالصبي بسببه، طالما أنه حرص على حماية نفسه.

مدّ دوسندر يده مسافة بدت بالنسبة إليه مسافة أميال، وأمسك بكوب المياه، وتناول ثلاثة أقراص أخرى. ثم أعاد الكوب، وأغمض عينيه. لم يسبق أن شعر بمثل هذا النعاس من قبل، واعتقد بأن نومه سيستمرّ لفترة طويلة وسيجد فيه الراحة أخيراً.

ما لم تراوده تلك الأحلام. لكن هذه الخاطرة صعقته. أحلام؟ لا أريد رؤية تلك الأحلام. ليس في نومي الأبدي، ليس بعد ضياع كل فرصة للإستيقاظ من النوم. كلا..

وبعد أن انتابه ذعر مفاجئ، كافح من أجل البقاء صاحياً. رأى الأيدي وهي تمتدّ بشوق من أجل الإمساك به، تلك الأيدي وأصابعها العطشى.

(كلا!)

بدأ سبيل أفكاره في عتمة الليل التي تزداد سواداً، وكان يغرق في النوم أكثر وأكثر، إلى حيث توجد تلك الأحلام.

عرفت المستشفى بأمر الجرعة الزائدة عند الساعة 1:35 من بعد منتصف الليل، وأعلن عن وفاته بعد مرور خمس عشرة دقيقة على ذلك. كانت الممرضة المناوبة صغيرة السنّ وكانت شديدة التأثر بلباقة الرجل العجوز التي تثير السخرية بعض الشيء. انهمرت دموعها. كانت كاثوليكية، ولم تستطع فهم السبب الذي قد يجعل رجلاً عجوزاً رقيقاً، بدأت حالته الصحية تتحسن، يرغب في القيام بمثل هذا العمل وتخليد روحه في النار.

26

في يوم السبت، لا ينهض أحد في منزل عائلة بودين قبل الساعة التاسعة صباحاً على الأقل. وفي صباح ذلك اليوم، عند الساعة التاسعة والنصف كان تود ووالده يقرأان، وهما جالسان إلى الطاولة، فيما كانت مونيكا، التي لا تستيقظ باكراً، تقدم لهما طعام الإفطار الذي تألف من البيض المخفوق، والعصير، والقهوة بدون أن تتكلم كما لو أنها لا تزال تعيش أحلامها.

كان تود يقرأ غلاف رواية عن الخيال العلمي، وكان ديك مشغولاً بقراءة مجلة أركتكتشور دايجست عندما سُمع صوت وقع الصحيفة وهي تسقط على الأرض قبالة الباب.

"هل تريدني أن أحضرها يا أبي؟

"بل أنا من سيقوم بذلك".

أحضر ديك الصحيفة، وبدأ يشرب قهوته، ثم بدأ بالسعال عندما نظر إلى الصفحة الأولى.

سألته مونيكا وهي تتوجه إليه بسرعة: "ديك، ما الأمر؟"

سعل ديك، وأخرج القهوة التي دخلت في الأنبوب الخطأ، ونظر إليه تــود من فوق الصحيفة نظرة تعجّب فيما كانت مونيكا تربت على ظهره. وعند النوبة الثالثة، نظرت إلى العنوان الرئيسي في الصحيفة، وتجمدت في مكانها. اتسعت عيناها إلى أن بدا أنهما ستسقطان على الطاولة.

تمكن ديك من القول بصوت مخنوق: "يا الله".

بــدأت مونــيكا بالحديث: "أليس هذا... لا يمكنني أن أصدق..". ثم توقفت، ونظرت إلى تود وقالت: "يا عزيزي..."

كان والده ينظر إليه أيضاً.

بعد أن شعر بنذر الخطر، استدار تود من حول الطاولة وقال: "ما الأمر؟"

قال ديك: "إنه السيد دنكر". كانت تلك العبارة الوحيدة التي تمكن من التلفظ بها.

قــرأ تود العنوان الرئيسي وأدرك حقيقة ما حصل. جاء في العنوان، نــازي فارّ يقدم على الإنتحار في مستشفى سانتو دوناتو. وأسفل العنوان، ظهرت صورتان فوتوغرافيتان جنباً إلى جنب سبق أن رآهما تود من قبل. ظهــر آرثــر دنكر في الأولى أصغر سناً بمقدار ست سنين وأكثر نشاطاً. عــرف تود أن هذه الصورة التقطها مصوّر هيبي في أحد الشوارع، وأن الرجل العجوز اشتراها منه فقط لكي يتأكد من عدم وقوعها في يد شخص آخر بالصدفة. وفي الصورة الثانية، ظهر ضابط من فرقة الأس أس اسمه كورت دوسندر وهو جالس خلف مكتبه في باتين، وهو يعتمر قبّعة مائلة.

إذا كانوا قد حصلوا على الصورة التي التقطها المصور الهيبي، فهذا يعني أنهم فتشوا منزله.

قــرأ تــود المقالـــة فيما كان يفكر كالمجنون، ناهيك عن تفكيره في الــسكارى. لكـــن لن يطول الأمر قبل أن تكتشف الجثث، وعندما يحصل ذلك، ستصبح القصة عالمية. قائد باتين لم يفقد لمسته السحرية. الرعب في قبو نازي لم يتوقف عن سفك الدماء.

ترنح تود وهو واقف على قدميه. ومن مكان بعيد، سمع والدته وهي

تصرخ: "أمسكه يا ديك، سيُغمى عليه".

بقـيت كلمة الإغماء، الإغماء، الإغماء تردد نفسها مرّة بعد أخرى. شعر بذراعي والده وهما تمسكان به، وبعد ذلك، لم يعد يشعر بشيء لفترة وجيزة ولم يعد يسمع شيئاً على الإطلاق.

27

كــان إيد يتناول طعامه عندما فتح الصحيفة. سعل، ثم أصدر صوتاً غريباً، وأخرج الطعام من فمه فسقط على الطاولة.

قالــت ســوندرا فرينش وقد استبدّ بها القلق: "إيدي، هل أنت على ما يرام؟"

قالــت نورما الصغيرة بطريقتها المرحة: "أبي يسعل، أبي يسعل". ثم انــضمت إلــى أمّهــا فــي التــربيت على ظهر إيد. بالكاد شعر إيد بتلك الضربات. كان لا يزال يحدق في الصحيفة.

سألته سوندرا مجدداً: "ما الأمر يا إيدي؟"

صـــاح إيد: "هذا هو، هذا هو". فيما كان يشير بإصبعه إلى الصحيفة بقوة بحيث مزق قسماً منها.

"هذا هو الرجل".

"ما الذي تتحدث عنه؟"

"إنه جد تود بودين".

"ماذا تقول؟ مجرم الحرب هذا؟ إيدي، هذا جنون".

"ولكنه هو. يا الله، إنه هو".

نظــرت سوندرا إلى الصورة لفترة طويلة وقالت: "إنه لا يشبه بيتر ميمزي على الإطلاق".

28

جلــس تــود، الشاحب الوجه مثل زجاج النافذة، على أريكة بين أمّه وأبيه. وأمامهما كان يقف تحرٍّ مهذب من الشرطة اسمه ريتشلر. كان والد تــود قــد طرح فكرة الإتصال بالشرطة، ولكن تود قام بذلك بنفسه. أنهى ســرده لإفادتــه. لــم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً. كان يتحدث بطريقة آلية أثارت الرعب في نفس مونيكا. كان يبلغ من العمر سبعة عشر عاماً، ولكنه

كـان لا يزال صبياً من وجوه عدة. وكانت الحادثة ستخلّف أثراً في نفسه إلى الأبد.

"كـنت أقـرأ له روايات مثل توم جونز، وطاحونة الأليلف الناعمة. كانـت تلـك الرواية التي تبعث على السأم. لم أعتقد أبداً أننا سنتمكن من إكمال قراءتها. كما قرأت له بعض القصص من تأليف هاوثورن؛ أذكر أنه أحـبّ علـى وجـه الخـصوص الوجه الحجري الكبير وغودمان براون الـصغير. بدأنا بأوراق بيكويك، ولكنها لم تعجبه. قال إنه في مقدور ديكنز أن يكون فكاهياً فقط عندما يكون جاداً وأن بيكويك كانت قصة مرحة. هكذا وصفها، مرحة. ولكننا قضينا وقتاً مسلياً في قراءة توم جونز، وكلانا أعجب بها".

قال ريتشلر: "هل حدث ذلك قبل ثلاث سنوات؟"

"أجـل. كـنت أزوره باستمرار متى سنحت لي الفرصة، لكن عندما أصبحت في الثانوية العامة، بتنا نستخدم الحافلات... وعمل بعض الصبية علـى تشكيل فريق لكرة القاعدة... وزادت فروضي المنزلية، كما تعرف، وازدادت الحياة تعقيداً".

"أي أنه بات يتسنّى لك وقت أقل".

"وقـت أقل، أجل. كانت الدراسة في الثانوية العامة أصعب بكثير... لأن المرء بحاجة إلى تقديرات تؤهله للإلتحاق بالكلّية المناسبة".

قالت مونيكا بطريقة شبه آلية: "ولكن تود تلميذ موهوب جداً. لقد حاز على شرف إلقاء خطاب الترحاب، ونحن فخورون جداً به".

قـال ريتشلر بابتسامة دافئة: "أراهن أنكم كذلك. لديّ ولدان في فير فيو وجلّ ما يمكنهما فعله هو المحافظة على لياقتهما البدنية". ثم التفت إلى تـود وسـأله: "هـل قـرأت له مزيداً من الكتب بعد انتقالك إلى المرحلة الثانوية؟"

"كلا، ولكنني كنت أقرأ له الصحيفة بين الحين والآخر. كنت أزوره، وكـان يسألني عن العناوين الرئيسية. كان مهتماً بفضيحة ولترغيت وكان يـرغب دائمـاً في الإطلاع على أخبار سوق الأسهم، وكانت تلك الصفحة تثير جنونه، أنا آسف يا أمّي".

ربتت مونيكا على يده.

"لا أدري سبب اهتمامه بسوق الأسهم، ولكنه كان مهتماً بها".

قال ريتشلر: "كان يملك القليل من الأسهم، وكان يجني المال من الإتجار بها. كما كان يحتفظ بخمس بطاقات هوية مختلفة. كان رجلاً كتوماً. حسناً".

قال تود: "أعتقد بأنه كان يحتفظ بشهادات أسهمه في صندوق إيداع أمانات في أحد المصارف".

رفع ريتشلر حاجبيه وقال: "عفواً؟"

قال تود: "أسهمه". وهنا، لوماً والده، الذي بدا متحيراً، برأسه أمام ريتشلر.

قال ريتشلر: "وجدنا شهادات أسهمه، ولم يكن لديه سوى القليل منها، في درج أسفل سريره، على جانب صورة فوتوغرافية له باسم دنكر. هل استأجر صندوق إيداع أمانات يا بني؟ هل سبق أن أتى على ذكر ذلك؟"

فكّر تود، ثم هزّ رأسه مجيباً بالنفي. "اعتقدت بأن هذا هو المكان الذي أودع فيه شهادات أسهمه. لست أدري. هذه القصة... كما تعرف... صدمتني". هزّ رأسه تعبيراً عن حيرة بدت صادقة تماماً. كان محتاراً فعلاً. لكن شيئاً فشيئاً، بدأت تظهر عليه آثار غريزة المحافظة على النفس. شعر بيقظة متزايدة وعلامات الثقة بالنفس. إذا كان دوسندر قد استأجر صندوق إيداع أمانات ووضع فيه بوليصة التأمين، أليس من المحتمل أنه نقل شهادات أسهمه المتبقية إلى هناك؟ إضافة إلى تلك الصورة الفوتوغرافية؟

قال ريتشلر: "إننا نتعاون مع الإسرائيليين في هذه القضية، وإن بطريقة غير رسمية. وسأكون ممتناً جداً لعدم إشارتك إلى ذلك في حال قررت رؤية أي من الصحافيين. إنهم محترفون فعلاً، وهناك رجل اسمه ويسكوف يرغب في التحدث إليك غداً يا تود. هذا إذا لم يكن لديك أو لدى والديك أي مانع".

قال تود: "لا بأس بذلك". ولكنه شعر بالخوف من فكرة التعرّض للملاحقة من قبل المطاردين الذين بقوا يلاحقون دوسندر نصف حياته. كان دوسندر يكنّ احتراماً لهم، وعرف تود بأنه سيفعل خيراً إذا تذكّر ذلك.

"يا سيد ويا سيدة بودين، هل لديكم أي اعتراضات على رؤية السيد ويسكوف لتود؟"

قال ديك بودين: "لا مانع لدينا إذا لم يكن لدى تود مانع. لكنني أرغب

في حضور اللقاء. سبق أن قرأت عن عملاء الموساد.."

ابتسم ريتشلر وأجاب: "ويسكوف لا ينتمي إلى جهاز الموساد، إنه عميل خاص على حدّ وصف الإسرائيليين. في الواقع، إنه يدرّس الأدب اليديشي وقواعد النحو الإنكليزي. كما أنه ألف روايتين".

لوّح ديك بيده تعبيراً عن الرفض وقال: "بغض النظر عمن يكون، أنا لن أسمح له بمضايقة تود. فاستناداً إلى ما قرأته، يمكن أن يتحلّى هؤلاء الأشخاص بالقليل جداً من الإحترافية. ربما كان شخصاً لا اعتراض عليه، ولكنني أريد منك ومن ويسكوف أن تتذكرا بأن تود حاول أن يساعد ذلك الرجل الذي قضى حياته متنكراً، من غير أن يكون على علم بذلك".

قال تود بابتسامة ضعيفة: "لا بأس بذلك يا أبي".

قال ريتشلر: "أريد أن أساعدكم بقدر ما أستطيع. وأنا أقدّر إحساسك بالقلق يا سيد بودين، وأعتقد بأنك ستجد أن ويسكوف رجل لطيف وغير ملحاح. لقد انتهيت من طرح أسئلتي، ولكنني سأنصح لك أمراً وهو أن الإسرائيليين هم الأكثر اهتماماً بالموضوع. فقد كان تود برفقة دوسندر عندما أصيب بنوبة قلبية قادته إلى المستشفى.."

قال تود: "طلب مني المجيء لزيارته وقراءة رسالة له".

انحنى ريتشلر إلى الأمام، ووضع مرفقيه على ركبتيه فيما لامست ربطة عنقه الأرض وقال: "نحن نعرف ذلك. والإسرائيليون يرغبون في معرفة فحوى تلك الرسالة. كان دوسندر سمكة كبيرة، ولكنه لم يكن السمكة الأخيرة في البحيرة؛ أو هذا ما يقوله سام ويسكوف، وأنا أصدّقه. إنهم يعتقدون بأنه ربما كان دوسندر يعرف الكثير عن الأسماك الأخرى. لا يزال غالبية هؤلاء النازيين يعيشون في أميركا اللاتينية، لكن ربما يوجد آخرون في العديد من البلدان... بما في ذلك الولايات المتحدة. هل تعرف بأنهم اعتقلوا رجلاً كان برتبة أنتركومندان عندما كان يخدم في بوخنفالد وذلك في ردهة فندق في تل أبيب؟"

قالت مونيكا وقد اتسعت عيناها: "حقاً؟"

أومأ ريتشلر برأسه وقال: "أجل. حدث ذلك قبل سنتين. الفكرة هي أن الإسرائيليين يعتقدون بأن الرسالة التي طلب دوسندر من تود أن يقرأها ربما أرسلتها سمكة أخرى. ربما كان ذلك الشخص يقيم هنا، وربما كانوا

مخطئين. ولكنهم يريدون التأكد على أي حال".

قال تود، الذي كان قد عاد إلى منزل دوسندر وأحرق الرسالة: "كنت أودّ أن أساعدك -أو أساعد هذا الشخص الذي يسمى ويسكوف- أيها الملازم ريتشلر، ولكن الرسالة كانت مكتوبة باللغة الألمانية، وقد وجدت صعوبة كبيرة في قراءتها. شعرت بأنني أتصرّف كالأحمق. كان السيد دنكر... دوسندر... يزداد تلهفاً وكان يطلب مني تهجئة الكلمات التي لم يفهمها بسبب سوء التهجئة كما تعرف. ولكنني أعتقد بأنه فهم فحوى تلك الرسالة جيداً. وأذكر أنه ضحك وقال: 'أجل، أجل، هذا هو العمل الذي تتقنه، أليس كذلك؟' ثم قال شيئاً بالألمانية. حدث ذلك قبل دقيقتين أو ثلاث دقائق من إصابته بالنوبة القلبية. كان ذلك شيئاً يشبه عبارة دامكوف التي أعتقد بأنها تعني غبي في اللغة الألمانية".

نظر إلى ريتشلر بعين الشك من غير أن يظهر سروره على قوله تلك الكذبة.

أومأ ريتشلر برأسه وقال: "أجل، نحن نعرف بأن الرسالة مكتوبة باللغة الألمانية. فالطبيب الذي عالجه سمع تلك القصة منك وأكّدها. لكن الرسالة نفسها يا تود... هل تعرف ماذا حصل لها؟"

قال تود في نفسه، ها قد وصلنا.

"أعتقد بأنها كانت لا تزال على الطاولة عندما حضرت سيارة الإسعاف. ثم غادرنا المنزل جميعاً. وأنا لا أستطيع الإدلاء بشهادة في المحكمة بخصوصها، ولكن.."

قال ديك: "أعتقد بأنه كانت توجد رسالة على الطاولة. وأنا أمسكتها بنفسي، ونظرت إليها. لقد وصلت عبر البريد الجوي كما أعتقد، ولكنني لم الاحظ أنها مكتوبة بالألمانية".

قال ريتشلر: "إذن، لا بدّ وأنها لا تزال هناك. وهذا ما لم نستطع فهمه".

قال ديك: "ألم تجدوها في المكان؟ أعني ألم تكن موجودة هناك؟"

"كلا، لم تكن موجودة عندما دخلنا المنزل".

قالت مونيكا: "ربما اقتحم شخص المنزل".

قال ريتشلر: "لن يكون لأحد بحاجة إلى خلع الباب لكي يدخل. ففي غمرة الإرتباك لإخراجه من المكان، أوصد الباب من غير إقفاله. ودوسندر نفسه لم يفكر في الطلب من أحد أن يقفل الباب كما هو واضح. ومفتاح

الباب كان لا يزال في جيب سرواله عندما تُوفي. وهذا يعني أن المنزل لم يكــن محكم الإغلاق في الفترة الممتدة ما بين إخراج الفريق الطبّي له من المنــزل وقدومــنا إلــى المنزل هذا الصباح عند الساعة الثانية والنصف صباحاً وتطويقنا للمكان".

قال ديك: "حسناً، ها قد وصلنا إلى حائط مسدود".

قــال تــود: "كلا، أنا أعرف ما يحيّر الملازم ريتشلر. لماذا يعرض ســارق عــن ســرقة أي شيء عدا الرسالة؟ وخصوصاً إذا كانت مكتوبة بالألمانــية؟ فهــذا أمر غير منطقي. فالسيد دنكر لم يكن يملك الكثير مما يغــري بالسرقة، غير أن شخصاً يقتحم المكان يمكن أن يجد شيئاً أهم من ذلك.."

قال ريتشلر: "لقد فهمتَ المشكلة. حسناً. هذا ليس بالأمر السيئ".

قالــت مونيكا: "كان تود يحب أن يكون تحرياً عندما يكبر". ومسحتْ علــى شعره. لكن بعد أن كبر، لم تعد تلك الفكرة تروق له، وإن كان يبدو الآن أنــه لا يمانع في لعب دور التحرّي. يا الله، إنها تكره أن تراه شاحب الوجه. "أعتقد بأنه غيّر رأيه الآن واختار دراسة التاريخ".

قــال ريتشلر: "التاريخ تخصص جيد. وفي مقدورك إجراء تحقيقات تاريخية. هل قرأتَ جوزفين تاي؟"

"كلا سيدي".

"الأمر لا يهم. كنت أتمنّى لو كان لدى أولادي طموح أكبر من رؤية فريق أنجلز يفوز على البينات (Peanut) هذا العام".

رسم تود على وجهه ابتسامة خفيفة ولم يقل شيئاً.

أصــبح ريتــشلر جــدّياً الآن وقال: "وعلى كل حال، سأخبرك عن النظــرية التي نعمل على التحقق منها. نحن نعتقد بأنه يوجد شخص، على الأرجح أنه يقيم هنا في سانتو دوناتو، عرف حقيقة دوسلدر".

سأل ديك: "حقّاً؟"

"أجل، شخص عرف الحقيقة. ربما يكون نازياً هارباً آخر. أنا أعرف بــأن الأمر أشبه بالقضايا التي يبحثها روبرت لودلوم، لكن من كان يعتقد بأنــه كــان يوجد نازي هارب في ضاحية صغيرة هادئة مثل هذه؟ ونحن نعــتقد بأنه عندما نُقل دوسلدر إلى المستشفى، دخل السيد إكس إلى المنزل وحصل على الرسالة التي تدينه. وهذا ما يفسر كميات الرماد الكبيرة التي

تطفو في نظام الصرف الصحي هناك".

قال تود: "ولكن ذلك ليس تفسيراً منطقياً أيضاً".

"ولِمَ لا يا تود؟"

"حسناً، لو كان السيد دنك... لو كان دوسندر يعرف شخصاً قديماً منذ زمـــن المعـــسكرات، أو مجرد شخص قديم نازي، فلماذا كلّف نفسه عناء الإتـــصال بـــي لكي أقرأ له تلك الرسالة؟ أعني لو سمعتَه وهو يصحح لي قراءتي لتلك الرسالة... فعلى الأقل، كان في مقدور ذلك النازي القديم الذي تتحدث عنه أن يقرأ ما هو مكتوب باللغة الألمانية".

"هـــذه نقطة جيدة، باستثناء أنه ربما يكون ذلك الرفيق الآخر يستعمل كرسياً مدولباً، أو كفيف البصر. وبالإستناد إلى ما نعرفه، ربما يكون ذلك الشخص بورمان نفسه، وهو لا يجرؤ حتى على الظهور".

قـــال تود: "إن الأشخاص كفيفي البصر أو الذين يستخدمون الكراسي المدولبة لا يقدرون على الوصول إلى الأماكن التي تخبأ فيها الرسائل".

نظر إليه رتشلر نظرة إعجاب مجدداً وقال: "هذا صحيح. لكنّ رجلاً كفـــيف البـــصر يمكنه أن يسرق رسالة حتى وإن كان لا يستطيع قراءتها. وربما يســـتأجر شخصاً لكي يفعل ذلك".

اعـــتقد تـــود بـــأن المسألة قد حُسمت فأومأ برأسه. ولكنه هزّ كتفيه اســـتخفافاً في الوقت نفسه لكي يعبّر عن استبعاده لتلك الفكرة. فقد تجاوز رتشلر بكثير روبرت لودلوم في ذلك. لكن مدى بُعد هذه القصة عن الواقع ليس مهماً، أليس كذلك؟ كلا. ما يهم هو أن رتشلر لا يزال يحوم حوله... كمـــا أن ويمسكوف يحوم حول المكان أيضاً. هذه الرسالة، الرسالة اللعينة، إنهـــا الفكرة الحمقاء التي اقترحها دوسندر! وفجأة، تذكّر بندقيته الموجودة على الرف في المرآب البارد والمعتم. ولكنه صرف تفكيره عنها بسرعة. ولحس بالرطوبة في راحتي يديه.

سأل رتشلر: "هل كان لدوسندر أصدقاء تعرفهم؟"

"أصـــدقاء؟ كلا. كانت تأتي سيدة إلى المنزل لكي تقوم بأعمال التنظيف، ولكـــنها رحلت وهو لم يكلّف نفسه عناء البحث عن أخرى. ولكنه استخدم في فـــصل الصيف ولداً لكي يجزّ له الأعشاب في فناء داره، ولكنني لا أعتقد بأنه استعان بخدماته هذه السنة. فالأعشاب طويلة هناك، أليس كذلك؟"

"أجـــل. لقد طرقنا الكثير من الأبواب، ولا يبدو أنه استخدم أحداً. هل

كان يتلقّى مكالمات هاتفية؟"

أجــاب تــود بطريقة عفوية "بالتأكيد". هنا بدا بصيص ضوء، فتحة هــروب محــتملة وآمنة نسبياً. في الواقع، كان هاتف دوسندر يرنّ خمس مرّات على الأكثر، أو هذا ما كان يحدث في الوقت الذي تعرّف عليه تود؛ مــندوبو مبــيعات، مؤسسة تجري استطلاعاً للرأي تسأل عن الطعام الذي يتــناوله على مائدة الفطور، والباقي محاولات اتصال خاطئة. كما أنه كان يستعمل الهاتف عندما يكون مريضاً فقط... كما فعل أخيراً، يا ليت روحه تتعفن في الجحيم. "كان يتلقّى مكالمة أو مكالمتين كل أسبوع".

ســارع رتــشلر إلى السؤال: "هل كان يتكلم باللغة الألمانية في تلك المناسبات؟" بدت الفكرة مثيرة للإهتمام.

أجاب تود، بحذر: "كلا". لم يعجبه شعور رتشلر بالإثارة. هناك خطأ مــا في الأمر، هناك أمر خطير. كان متأكداً من ذلك. فجأة، بات على تود أن يجتهد لكي يمنع نفسه من الإفصاح عما في مكنون نفسه بإفراز العرق. "لــم يكن يتحدث كثيراً أصلاً. وأذكر أنه قال في بعض تلك المناسبات 'إن الصبي الذي يقرأ لي موجود عندي الآن. سأتصل بك لاحقاً'".

قال رتشلر بعد أن وضع راحتي يديه على فخذيه: "أراهن على ذلك. أراهــن بــراتب أســبوعين بأنه الشخص المطلوب". أقفل دفتر ملاحظاته بــسرعة (رأى تــود أنه لم يقم بما هو أكثر من تدوين ملاحظات سريعة) ونهــض علــى قدميه وقال: "أريد أن أشكركم أنتم الثلاثة على وقتكم الذي منحــتموه لــي. وأودّ أن أشــكر تود بوجه خاص. أنا أعرف بأن المسألة بــرمتها كانــت بمثابة صدمة بالنسبة إليكم، ولكن سننتهي من حلّها قريباً. ســنقوم بتفتــيش المنزل وقلبه رأساً على عقب هذا المساء؛ من القبو إلى العلّية، ثم إلى القبو مجدداً. وسنحضر معنا كافة فرقنا الخاصة. وربما نجد أثراً لرفيق دوسندر الذي كان يحادثه عبر الهاتف".

قال تود: "آمل بأن تتمكنوا من ذلك".

صــافح رتــشلر الجمــيع ورحل. سأل ديك ابنه إن كان يرغب في الخروج وممارسة لعبة البادمنتون إلى أن يحين موعد طعام الغداء. فأجابه تــود بأنــه لا يجــد رغبة في لعبِ البادمنتون ولا في تناول طعام الغداء، وصــعد الــسلّم ورأســه منحنٍ إلى أسفل وكتفاه منحنيتان. تبادل الوالدان نظــرات الــتعاطف المــشوبة بالحيرة. وتمدد تود على سريره وحدّق في

السقف، وعاد إلى التفكير في بندقيته. كان يرى الأمر واضحاً مثل الشمس.

عندما اصطحب الملازمُ رتشلر المحققَ ويسكوف لتناول طعام الغداء في مطعم لا يبعد كثيراً عن منزل بودين، سأله الأخير: "إذن، ما هو رأيك؟"

أجاب رتشلر: "أعتقد بأن للصبي علاقة بالأمر بطريقة ما، وبدرجة ما. ولكنه بدا هادئ الأعصاب. أعتقد بأنك لو صببتَ الماء الحارّ في فمه، فسيبصقه قطعاً من الثلج. حاولت أن أوقعه في الزلل عدة مرّات، لكنني لم أحصل على شيء يمكن أن أستخدمه في المحكمة. ولو ضغطتُ أكثر من ذلك، ربما سيتمكن محامٍ ذكي من إنقاذه من الورطة. أردت القول بأن المحكمة ستنظر إليه على أنه حدث؛ صبي لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره. وبطريقة ما، أعتقد بأنه لا يعد صغيراً في الواقع منذ أن بلغ سنّ الثامنة. إنه شخص مخيف، وأشبه ما يكون برجل". ثم وضع سيجارة في فمه وضحك وقال: "أعني أنه شخص مخيف جداً".

"ما هي الزلات التي وقع فيها؟"

"المكالمات الهاتفية. هذه هي الزلّة الرئيسية. فعندما طرحت عليه الفكرة، لاحظت البريق في عينيه كما لو كانتا كرتين فولاذيتين". ثم انعطف رتشلر بسيارته الشيفروليه نحو المنحدر الذي يؤدي إلى الطريق السريع، حيث يوجد على مسافة مائتي متر في الجهة اليمنى المنحدر والشجرة الميتة التي كان تود قد أطلق منها النار على السيارات المارّة صباح أحد أيام السبت منذ زمن ليس ببعيد.

"إنه يقول في نفسه *هذا الشرطي مجنون إذا كان يظن أنه كان لدى دوسندر صديق نازي في هذه البلدة، ولكن إذا كان يعتقد ذلك فعلاً، سأكون بعيداً عن الشبهة*. ولذلك قال أجل، كان دوسندر يتلقى مكالمة أو مكالمتين كل أسبوع. هذا أمر غامض للغاية. *لا أستطيع التحدث إليك الآن يا زيد خمسة، سأتصل بك لاحقاً*، أو أي شيء من هذا القبيل. لكن هاتف دوسندر كان *هادئاً* على نحو ملفت خلال السنوات السبع الأخيرة. لم يكن يتلقى أي مكالمات على الإطلاق، ولم يكن يتلقى أي مكالمات خارجية أيضاً. لم يكن يتلقى سوى مكالمة أو مكالمتين كل أسبوع".

"وماذا أيضاً؟"

"قفز على الفور إلى استنتاج مفاده أن الرسالة اختفت بدون أي

تفسير. كان يعرف بأن ذلك هو الحلقة الوحيدة الضائعة لأنه هو الشخص الذي عاد وأخذ الرسالة".

أطفأ رتشلر سيجارته في المنفضة وقال: "نحن نعتقد بأن الرسالة كانت مجرّد خدعة. ونحن نعتقد بأن دوسندر أصيب بنوبة قلبية بينما كان يحاول دفن تلك الجثة... آخر الجثث التي دفنها في القبو. كانت هناك أوساخ على حذائه وعلى أطراف قميصه، ولذلك فإن هذا افتراض جيد. وهذا يعني أنه اتصل بالصبي بعد إصابته بالنوبة القلبية، وليس قبلها. فقد زحف وهو يصعد السلم، ثم اتصل بالصبي. غادر الصبي المنزل -كما كان يفعل دائماً- واختلق قصة الرسالة في تلك اللحظة. لم تكن فكرة جيدة، ولكنها لم تكن سيئة أيضاً... بالنظر إلى الظروف التي مرّ بها. ذهب إلى هناك وتخلّص من الفوضى التي أحدثها دوسندر بناء على طلب الأخير. ثم شعر بأنه في ورطة، وسيارة الإسعاف في طريقها إلى المنزل، ووالده أيضاً، وهو بحاجة إلى تلك الرسالة لتلفيق عذر، فصعد إلى الطابق العلوي وكسر ذلك الصندوق.."

سأله ويسكوف وهو يشعل لنفسه سيجارة: "هل أنت متأكد من ذلك؟" كانت بدون فلتر، وبدت رائحتها بالنسبة إلى رتشلر مثل رائحة براز الخيل. لا عجب إذن أن الإمبراطورية البريطانية سقطت إذا كان أبناؤها يدخنون هذا النوع من السجائر.

أجاب رتشلر: "أجل لقد تأكدنا من تلك المعلومات. فبصمات الأصابع الموجودة على الصندوق تطابقت مع تلك الموجودة في سجلاته المدرسية. ولكن بصماته موجودة في كل مكان داخل المنزل!"

قال ويسكوف: "لكنك تستطيع إرباكه إذا واجهته بكافة هذه الحقائق".

"اسمع، أنت لا تعرف هذا الصبي. عندما قلت لك بأنه بارد الأعصاب، كنت أعني ما أقوله. سيجيبني بأن دوسندر طلب منه إحضار الصندوق مرّة أو مرّتين لكي يضع فيه شيئاً أو يأخذ منه شيئاً".

"وماذا عن بصماته الموجود على عصا الرفش؟"

"سيجيب بأنه اعتاد على زرع الزهور في فناء المنزل". أراد رتشلر تدخين سيجارة، ولكنه وجد أن علبته كانت فارغة. عرض عليه ويسكوف واحدة. ولكن رتشلر بدأ بالسعال ما إن بدأ بتدخينها وقال: "مذاقها سيئ مثل رائحتها".

ردّ ويسكوف وهو يبتسم: "مثل ساندويتشات الهامبرغر التي تناولناها

على الغداء البارحة. ساندويتشات ماكدونلدز".

قال رتشلر وهو يضحك: "بيغ ماك. حسناً، إذن، فالتلقيح الثقافي لا ينجح دائماً". وما لبثت ابتسامته أن اختفت.

"يبدو بريئاً، هل تعرف ذلك؟"

"أجل".

"إنه ليس مجرماً حدثاً من فسكو يصل شعره إلى قفاه، ويضع السلاسل على حذائه عالي الساق".

حدّق ويسكوف في السيارات التي تسير من حولهما وقال: "كلا". شعر بالسعادة لأنه ليس الشخص الذي يقود السيارة. "إنه مجرّد صبي، صبي أبيض وابن عائلة محترمة. وأنا أجد صعوبة في تصديق أن..."

"كنت أعتقد بأنكم تهيئونهم لاستعمال البنادق والقنابل لدى بلوغهم سنّ الثامنة عشرة، أعني في إسرائيل".

"أجل. ولكنه كان في الرابعة عشرة من عمره عندما بدأت القصة. فلماذا يتورّط صبي في الرابعة عشرة من عمره في علاقة مع رجل مثل دوسندر؟ حاولت مراراً أن أفهم السبب ولكن بدون جدوى".

قال رتشلر: "يمكنني أن أعرف كيف بدأت هذه العلاقة". وألقى بالسيجارة من النافذة، فلقد كانت تسبب له صداعاً.

"ربما، في حال كانت هناك علاقة، كانت مجرّد ضربة حظ. مصادفة. في اعتقادي، توجد مصادفة بيضاء كما توجد مصادفة سوداء".

قال رتشلر بكآبة: "أنا لا أفهم ما الذي تتحدث عنه. كل ما أعرفه هو أن هذا الصبي أكثر إخافة من أفعى تحت صخرة".

"ما أريد قوله هو أمر في غاية البساطة. سيكون أي صبي آخر في غاية السعادة بإخبار والديه، أو الشرطة بما يعرف، كأن يقول مثلاً *لقد تعرّفت على رجل مطلوب. وهو يعيش في منزل هذا عنوانه. أجل، أنا متأكد مما أقوله*. وبعد ذلك يدع السلطات تتولّى الأمر. هل تشعر بأنني جانبتُ الصواب؟"

"كلا، لا يمكنني قول ذلك. فالصبي سيصبح محلّ شهرة لبضعة أيام. ومعظم الفتية يرغبون في ذلك، كأن تُنشر صورهم على صفحات الجرائد، أو تُجرى معهم مقابلات في النشرات الإخبارية المسائية، أو حتى الإحتفاء بهم في المدرسة ومنحهم جائزة حسن المواطنة". ثم ضحك رتشلر وقال:

"اللعنة، على الأرجح أن يظهر الولد في برنامج ريل بيبول".
"ماذا يعني هذا البرنامج؟"
قال رتشلر: "الأمر لا يهم". كان عليه أن يرفع صوته قليلاً لأنه كانت تمر شاحنتان ذات عشر عجلات على جانبي النوفا. نظر ويسكوف بعصبية إلـى الشاحنة الأولى ثم إلى الشاحنة الثانية وقال: "أنت لا تريد أن تعرف، ولكـنك محقٌ في أن هذا الوصف ينطبق على غالبية الأولاد. وأشدد على غالبية الأولاد".
أضـاف ويسكوف: "لكن ليس هذا الصبي. فقد استطاع هذا الصبي، ربمـا بضربة حظ، أن يخترق حجاب دوسندر. ولكنه بدلاً من الذهاب إلى والديه أو إلى السلطات... ذهب إلى دوسندر. لماذا؟ أنت تقول بأنك لا تهتم لمعـرفة الـسبب، ولكنني أعتقد بأنك مهتم بمعرفته. أعتقد بأن هذا السؤال يؤرقك بقدر ما يؤرقني".
قال رتشلر: "لم يكن السبب محاولة الإبتزاز، وأنا متأكد من ذلك. فقد كان في مقدوره الحصول على كل ما يرغب الأولاد الآخرون في الحصول علـيه. فقد شاهدت سيارة رياضية في المرآب، ناهيك عن البندقية المعلقة علـى الجـدار. وحتى لو أراد ابتزاز دوسندر لمجرّد الإستمتاع بذلك، فقد كان دوسندر عصياً على الإبتزاز من الناحية العملية، لأنه إذا استثنينا تلك الأسهم القليلة، لم يكن يملك قِدراً يبول فيه".
"مـا مـدى تأكـدك مـن أن الصبي لا يعرف بأننا عثرنا على تلك الجثث؟"
"أنـا مـتأكد من ذلك. ربما سأعود لزيارته مساء هذا اليوم، ولأفاجئه بالأمـر. يبدو أن تلك أفضل فرصة متوفرة لدينا حالياً". ثم ضرب رتشلر المقـود بيده ضربة خفيفة وقال: "لو أن الأمر انكشف ولو قبل يوم واحد، كنت سأحاول الحصول على مذكرة تفتيش".
"وماذا عن الثياب التي كان يرتديها الصبي في تلك الليلة؟"
"أجـل. إذا اسـتطعنا العثور على عينات من التربة العالقة في ثيابه وتطابقت مع الأوساخ التي في قبو دوسندر، أعتقد عندها بأننا سنتمكن من كـسر شوكته. لكن على الأرجح أن الثياب التي كان يرتديها في تلك الليلة غُسلت ستَّ مرّات منذ ذلك الحين".
"وماذا عن السكارى الموتى الآخرين؟ أعني السكارى الذين لا يزال

قسم الشرطة لديكم يعثر على جثثهم في المدينة؟"

"هــذه المــسألة من اختصاص دان بوزمان، وأنا لا أعتقد بوجود أي صلة بين القضيتين. فدوسندر لم يكن قوياً كفاية... وما ينبغي الإشارة إليه هــو أنه كان يستخدم حيلة بسيطة نجحت فعلاً. كان يعدهم بتقديم الشراب والطعام، ويصطحبهم إلى منزله في حافلة المدينة -حافلة المدينة اللعينة!- ويقضي عليهم في مطبخه".

قال ويسكوف بهدوء: "ليس دوسندر الشخصَ الذي أفكر فيه".

قــال رتشلر: "ما الذي تعنيه بكلامك هذا". ثم أقفل فمه فجأة. سادت لحظــة طــويلة مــن الصمت لم يكن يقطعها سوى طنين حركة السير من حولهما. ثم قال رتشلر بهدوء: "يا رجل، أعطني فرصة.."

"بوصــفي عميلاً أعمل لصالح حكومتي، أنا مهتم فقط ببودين بسبب المعلــومات التــي ربما يعرفها عن معارف دوسندر المتبقّين من النازيين. ولكنني بوصفي إنساناً، أصبحت أكثر اهتماماً بالصبي نفسه. أودّ أن أعرف دوافعــه. أودّ أن أعرف السبب الذي حمله على التصرف على هذا النحو. وفــيما أحــاول الإجابة عن هذا السؤال لكي أشبع فضولاً ذاتياً، أجد نفسي أكثر ميلاً إلى السؤال عن الأشياء الأخرى التي لا نعرفها".

"ولكن.."

"ســألت نفسي إن كنت أعتقد بأن الفظاعات التي شارك فيها دوسندر شــكّلت الأســاس لبعض الجاذبية بينه وبين تود. قلت في نفسي إنها فكرة مجــنونة. فالأعمال التي ارتُكبت في تلك المعسكرات لا تزال قوية التأثير بمــا يكفي لإصابة المرء بالغثيان. هذه هي حقيقة شعوري، بالرغم من أن القــريب الوحــيد الذي عرفت أنه كان في تلك المعسكرات هو جدّي، وقد قــضى نحــبه فيها. لكن ربما يوجد شيء في الأعمال التي قام بها الألمان يحــرّك مخيلة فتاكة فينا، شيء يفتح سراديب الذاكرة. ربما يأتي جزء من خوفــنا وإحــساسنا بالفزع من معرفة دفينة تجعلنا، في ظل مجموعة من الظروف المناسبة -أو غير المناسبة- على استعداد لبناء مثل تلك الأماكن وملــئها بالأشخاص. إنها المصادفة السوداء. ربما كنا نعرف بأنه في ظل مجمــوعة مــن الظــروف المناســبة، ســتكون الأشياء التي تعيش داخل الــسراديب ســعيدة بالزحف والخروج منها. لكن ما حقيقة هذه الظروف؟ وجــود زعــيم مجــنون لديه خصلة شعر أمامية وشاربان يلمعان بدهان

الأحذية، والناس يصيحون باسمه في كل مكان؟ أم وجود عفاريت حمر، أو شياطين، أو تنّين يطير بجناحيه القذرَين؟"

قال رتشلر: "لست أدري".

قال ويسكوف: "أعتقد بأنهم في غالبيتهم يشبهون المحاسبين العاديين. رجال مفكرون يستخدمون الرسومات التخطيطية ومخططات السريان والآلات الحاسبة الإلكترونية، وجميعها جاهزة لرفع معدلات القتل إلى أقصى حدّ بحيث يمكنهم في المرّة القادمة قتل عشرين أو ثلاثين مليوناً من البشر بدلاً من قتل ستة ملايين. وربما كان بعضهم يشبه تود بودين".

قال رتشلر: "أنت مفزع مثله".

لومأ ويسكوف برأسه وقال: "إنه موضوع مفزع، أن نعثر على هؤلاء الرجال والحيوانات القتلى في قبو دوسندر... الأمر مفزع أليس كذلك؟ هل فكرتَ يوماً بأنه ربما بدأت رحلة هذا الصبي باهتمام بسيط بما حدث في تلك المخيمات؟ إهتمام لا يختلف كثيراً عن اهتمام الصبية الذين يجمعون القطع النقدية أو الطوابع أو الذين يحبّون قراءة قصص المجرمين في الغرب الموحش؟ وأنه ذهب إلى دوسندر للحصول على المعلومات من مصدرها مباشرة؟"

قال رتشلر بطريقة آلية: "يا رجل، في هذه المرحلة، يمكنني تصديق أي شيء".

29

ترك الرجل القصير، الذي دخل غرفة تجميع العناصر، وراءه رائحة كريهة. كانت تفوح منه رائحة شبيهة برائحة الموز المتعفن أو الرائحة المتصاعدة من شاحنة جمع النفايات في نهاية صباح حافل. كان يرتدي سروالاً مخططاً مهترئاً، وكنزة رمادية ممزقة، وسترة تحمية زرقاء باهتة اللون شبه مفتوحة. وكان يعتمر قبّعة مزعجة للغاية.

صاح الرقيب المناوب: "يا الله، اخرج من هنا. أنت لستَ موقوفاً، أقسم بالله على ذلك يا هاب. اخرج من هنا، أريد أن أتنفس من جديد".

"أريد التحدث إلى الملازم بوزمان".

"لقد تُوفي. حدث ذلك البارحة. ونحن مفجوعون بذلك. ولذلك، اخرج

ودعنا ننتحب بسلام".

قال هاب بصوت أعلى: "أريد التحدث إلى الملازم بوزمان". تصاعدت من فمه رائحة شبيهة بخليط من البيتزا، والهولز بطعم النعناع، والشراب الفرنسي الأحمر.

"عليه أن يذهب إلى سيام للتحقيق في قضية هناك يا هاب. ولذلك، لِمَ لا تخرج من هنا؟ اذهب إلى مكان ما وتناول بعض الطعام".

"أريد التحدث إلى الملازم بوزمان، وأنا لن أرحل إلى أن أفعل ذلك".

خرج الرقيب المناوب من الغرفة، ثم عاد بعد خمس دقائق بصحبة بوزمان النحيف، والمحدودب الظهر قليلاً والبالغ من العمر خمسين عاماً.

توسل الرقيب المناوب قائلاً: "خذه إلى مكتبك يا دان. ألن يكون ذلك عملاً جيداً؟"

قال بوزمان: "تعال معي يا هاب". وفي غضون دقيقة أصبحا داخل مقصورة ثلاثية الجدران هي مكتب بوزمان. فتح بوزمان بحذر نافذته الوحيدة، وقام بتشغيل المروحة قبل أن يجلس وقال: "هل ترغب أن أساعدك بشيء يا هاب؟"

"ألا زلتَ تعمل على تلك الجرائم أيها الملازم بوزمان؟"

"أتقصد المنبوذين؟ أجل، أعتقد بأنها لا تزال قضيتي".

"حسناً، أنا أعرف من الذي قتلهم".

سأله بوزمان: "هل تعني ما تقوله يا هاب؟" كان منهمكاً في إشعال غليونه. نادراً ما كان يدخن الغليون، لكن لا المروحة ولا النافذة المفتوحة كانتا كافيتين للتخلص من رائحة هاب. واعتقد بوزمان بأن الدهان سيبدأ بالتشقق والسقوط. جلس وأخذ نفساً عميقاً.

"أنت تذكر ما قلته لك عن أن بولي كان يتحدث إلى شخص قبل يوم من العثور عليه مقطعاً في ذلك الأنبوب. هل تتذكر أنني أخبرتك بذلك أيها الملازم بوزمان؟"

"لا زلت أذكر ذلك". هناك العديد من السكارى الذين يتسكعون حول جيش الخلاص ومطبخ الحساء الذي يقع في مكان ليس ببعيد وقد أخبروه قصة مشابهة عن اثنين من المنبوذين الذين قتلوا، تشارلز "سوني" براكيت وبيتر "بولي" سميث. رأوا شاباً يتسكع في الجوار. تحدث الشاب إلى سوني وبولي. لا يعرف أحد على وجه التحديد إذا كان بولي قد ذهب برفقة ذلك

الشخص، ولكنّ هاب واثنين آخرَين ادّعوا بأنهم رأوا بولي سميث ذاهباً معه. اعتقدوا بأن "الشخص" لم يبلغ سنّ الرشد، وأنه عبّر عن رغبته في تقديم زجاجة من الشراب. وادّعى سكارى آخرون بأنهم رأوا "شخصاً" يحمل الأوصاف ذاتها في الجوار. كان وصفهم لهذا *الشخص* دقيقاً، من المحتم أن تقبل به المحكمة، على اعتبار أنه مُستقىً من مصادر لا مجال للشكّ فيها. شاب، أشقر الشعر وأبيض البشرة. ما هي الأوصاف الأخرى التي تحتاج إليها لكي تقوم بعملية اعتقال؟

قال هاب: "حسناً، كنت في المنتزه في الليلة الماضية، وصدف أنه كان لديّ هذه الرزمة من الصحف القديمة.."

"يوجد قانون يعاقب على التشرّد في هذه المدينة يا هاب".

قال هاب بصدق: "كنتُ أعمل على جمعها وحسب. الناس يتخلصون من تلك الصحف بطريقة بشعة جداً. لكن مضى على صدور بعض من تلك الصحف أسبوع واحد".

قال بوزمان: "وماذا بعد يا هاب؟" تذكّر أنه جائع وأنه عليه تناول طعام الغداء. ولكن وقت تناوله بدا بعيداً جداً الآن.

"حسناً، عندما استيقظتُ من نومي، وجدت أن إحدى الصحف طارت، وسقطت على وجهي، ووجدت أنني أنظر مباشرة إلى صورة ذلك الشخص. هذا هو الشخص، هذه هي صورته".

سحب هاب ورقة صفراء مجعدة من جيب سترته وفتحها أمامه. انحنى بوزمان لرؤيتها، وبدا مهتماً الآن. وضع هاب الورقة على طاولته لكي يتسنّى له قراءة العنوان الرئيسي في الصحيفة: أربعة صبية يُرشحون للعب في فريق ساوثرن كال أول ستارز. وظهرت أسفل العنوان أربع صور فوتوغرافية.

"من هو ذلك الشخص يا هاب؟"

وضع هاب إصبعه الوسخة على الصورة التي في أقصى اليمين. "هذا هو. جاء في المقالة أن اسمه تود بودين".

رفع بوزمان رأسه، ونظر إلى هاب وهو يتساءل كم هو عدد عقول الأشخاص من أمثال هاب التي لم توضع في المقلاة بعد ولا تزال تعمل بعد مرور عشرين عاماً على قليها في صلصة تغلي مصنوعة من الشراب الرخيص والمتبّل بأنواع البهار المختلفة.

"هل أنت متأكد يا هاب؟ إنه يعتمر قبّعة فريق لكرة القاعدة في هذه

الصورة. وأنا لا أستطيع أن أتبين إن كان شعره أشقر أم لا".

قال هاب: "إنها الإبتسامة. هذه هي طريقته في التبسّم. كان يبتسم في وجــه بولــي عندما ذهبا معاً. وأنا لن أنسى تلك الإبتسامة ولو بعد مليون عام. إنه هو. إنه الشخص الذي تبحث عنه".

بالكــاد ســمع بــوزمان العبارة الأخيرة، فقد كان يُفكّر، وكان يُفكّر بعمــق. تــود بودين. هناك أمر مألوف جداً يتعلق بهذا الاسم، أمر أزعجه أكثــر مــن فكرة أن بطلاً في ثانوية عامة محلّية ربما يتسكع في المنطقة ويقــتل السكارى. اعتقد بأنه سمع بالاسم هذا الصباح أثناء محادثة، فظهر على وجهه العبوس وهو يحاول أن يتذكر مكان إجراء تلك المحادثة.

ذهــب هاب فيما كان بوزمان لا يزال يحاول تذكر الاسم عندما دخل مكتــبه رتشلر وويسكوف... وكان صوتهما وهما يطلبان القهوة في الغرفة هو الذي أنعش ذاكرته.

قال الملازم بوزمان: "يا الله". ونهض على الفور.

عــرض كــل مــن ديك ومونيكا إلغاء خططهما لقضاء فترة ما بعد الظهــر للــبقاء فــي المنزل مع تود. فلقد كانت مونيكا تنوي الذهاب إلى السوق، وكان ديك يريد لعب الغولف مع بعض رجال الأعمال. ولكنه قال لهمــا بأنــه يفضل البقاء لوحده. فكّر في تنظيف بندقيته وإعادة النظر في المسألة برمّتها، ومحاولة التوصل إلى حل.

قــال ديــك: "تود". وتبين له فجأة أنه لا يوجد لديه شيء آخر يقوله. افتــرض بأنه لو كان أبوه حياً، لنصحه باللجوء إلى الصلاة. ولكن الأجيال تغيّرت وعائلة بودين لم تعد كثيرة التديّن في هذه الأيام. وأنهى ما بدأه لأن تود كان لا يزال ينظر إليه بالقول: "في بعض الأحيان، تحدث هذه الأمور. حاول ألاّ تدع تلك الحادثة تؤثر عليك".

قال تود: "سيكون الأمر على ما يرام".

بعــد أن رحل والداه، أمسك ببعض قطع القماش الصغيرة وقارورة زيت ووضعها على المقعد بجانب الأزهار. ثم ذهب إلى المرآب، وأمسك بالبندقــية وعاد إلى المقعد، وبدأ بتفكيكها فيما كانت رائحة الأزهار تعطر الجــو. نظــف بندقيته بالكامل وهو يدندن أثناء ذلك ويصفر. ثم أعاد جمع البندقــية مجــدداً. يمكــن لتود أن يقوم بهذه العملية بمثل تلك السهولة في الظلام أيضاً. سرح فكره، وعندما عاد إلى التركيز بعد خمس دقائق، لاحظ

أنه قام بتلقيم البندقية. لم ترق له فكرة إطلاق النار على هدف، ليس اليوم، ولكنه لقّم البندقية بالرغم من ذلك. وقال في نفسه بأنه لا يعرف السبب.

بالتأكيد إنك تعرف السبب يا تود الصغير. لقد حان الوقت.

وفي هذا الوقت، دخلت سيارة الساب الصفراء اللامعة فناء المنزل. كان شكل الرجل الذي نزل منها مألوفاً على نحو غامض لتود، ولكنه لم يرَ الحذاء الرياضي إلاّ بعد أن أغلق باب السيارة، وبدأ الرجل بالمشي نحوه؛ حذاء منخفض الساق، وأزرق اللون. كان الذي نزل من السيارة رابر إيد فرينش.

"مرحباً يا تود. لقد مرّ وقت طويل ولم أرك".

أسند تود بندقيته إلى جانب المقعد، وابتسم ابتسامة عريضة وقال: "مرحباً يا سيد إيد. ما الذي تفعله في الجانب البرّي من البلدة؟"

"هل والداك موجودان في المنزل؟"

"كلا. هل ترغب في التحدث إليهما بخصوص أمر معين؟"

أجاب تود بعد توقف طويل: "كلا. أعتقد بأنه لا يوجد سبب معين. وأعتقد بأنه من الأفضل لو اختلينا معاً لنتحدث قليلاً. لكي نبدأ، على كل حال. ربما تكون قادراً على تقديم تفسير معقول لكل ما أنوي الحديث بشأنه، رغم أنني أشك في صحته".

وضع إيد يده في جيب سرواله وأخرج قصاصة من صحيفة. عرف تود ما جاء فيها حتى قبل أن يسلّمها رابر إيد له. للمرة الثانية في هذا اليوم، أعاد النظر إلى صورة دوسندر. كانت الصورة التي التقطها مصور في الشارع محاطة بدائرة رُسمت بالحبر الأسود. كان معنى ذلك في غاية الوضوح بالنسبة إلى تود. لقد تعرّف فرينش على جد تود، وهو الآن يريد إخبار كل شخص في العالم عنه. يريد إذاعة الخبر. إنه رابر إيد العجوز بكلامه المنمّق وحذائه الرياضي المميز.

ستكون الشرطة مهتمة جداً بتود -ولكنها مهتمة به أصلاً- وتود يعرف ذلك الآن. بدأ إحساسه بهبوط معنوياته بعد مرور ثلاثين دقيقة تقريباً على رحيل رتشلر. بدا كما لو أنه يركب بالوناً مليئاً بغاز السعادة. ثم اخترق سهم فولاذي بارد البالون، وهو الآن يهبط بشكل مستمرّ.

المكالمات الهاتفية، هذه هي المشكلة الحقيقية، ورتشلر يعرف ذلك بكل تأكيد. كان يريد بالحديث عنها دفع تود إلى المصيدة. إنه يتلقى مكالمة واحدة أو مكالمتين في الأسبوع. دعهم يبحثون في كافة أنحاء كاليفورنيا

الجنوبية عن النازيين السابقين الهرمين، ولا بأس بذلك، ما لم يسمع قصة مختلفة تماماً من شركة ما بيل. لم يكن تود يعرف إن كان في مقدور شركة الهاتف تحديد عدد المكالمات الهاتفية التي كان يجريها أو يتلقاها... ولكن النظرة التي بدت في عيني رتشلر...

ثم هناك موضوع الرسالة. لقد قال لرتشلر عن غير قصد بأن المنزل لم يتعرّض للسرقة، وما من شك في أن رتشلر يعتقد بأن الطريقة الوحيدة لكي يعرف تود ذلك هي في عودته إلى منزل دوسندر... وهذا ما قام به فعلاً، ليس مرة واحدة، بل ثلاث مرات. المرة الأولى عندما حصل على الرسالة، ولكنه ذهب إلى المنزل في مناسبتين بعد ذلك بحثاً عن أي شيء يمكن أن يكون سبباً لإدانته. لم يجد شيئاً، حتى أن بزة الأس أس قد اختفت. ولا بدّ أن دوسندر تخلص منها خلال السنين الأربع الأخيرة.

ثم تأتي مشكلة الجثث، ورتشلر لم يأتِ أبداً على ذكرها.

في البداية، اعتقد تود أن هذا أمر جيد. دعهم يبحثون عن ذلك النازي المزعوم فترة أطول لكي يتسنّى له التغلّب على هذا الصداع الذي يعاني منه رأسه؛ ناهيك عن إحكام قصته. ولا داعي إلى الخوف من الأوساخ التي علقت في ثيابه أثناء دفنه للجثة، فقد تولّى أمر تنظيفها في الليلة ذاتها. وضعها تحت المياه الجارية بنفسه، لأنه كان يعلم بأنه ربما يموت دوسندر في تلك الليلة، وينكشف أمر كل شيء بعد ذلك. لا يمكنك أن تكون شديد الحرص، كما كان دوسندر نفسه سيقول له.

شيئاً فشيئاً، بدأ يدرك بأن الأمور ليست في صالحه. فقد ارتفعت حرارة الجو، والطقس الحارّ يجعل رائحة القبو سيئة. فأثناء زيارته الأخيرة لمنزل دوسندر، لاحظ وجود رائحة كريهة. ولا بدّ وأن الرائحة أثارت انتباه رجال الشرطة، ولا بدّ وأنهم اقتفوا أثرها وصولاً إلى مصدرها. إذن، لماذا امتنع رتشلر عن الإشارة إلى هذه المعلومة؟ هل كان يريد العودة إليها في وقت لاحق؟ هل كان يريد بذلك تحضير مفاجأة بسيطة له؟ وإذا كان رتشلر يخطط لمفاجآت قذرة، فهذا يعني أمراً واحداً وهو أنه يشتبه في أمر معين.

نظر تود من فوق قصاصة الورقة، ورأى أن إيد التفت بوجهه بعيداً عنه. كان ينظر إلى الشارع، بالرغم من أنه لم يكن يوجد نشاط كبير هناك. يمكن لرتشلر أن يشكّ، ولكن الشكّ هو أقصى ما يستطيع القيام به،

مـا لـم يتوفر لديه دليل ملموس يربط تود بالرجل العجوز. وهذا بالضبط الدليل الذي يمكن أن يوفره رابر إيد فرينش.

رجـل تافـه ينتعل حذاءً رياضياً تافهاً. مثل هذا الرجل التافه بالكاد يستحق البقاء على قيد الحياة. وما لبث تود أن لمس بيده ماسورة البندقية.

أجـل، كان رابر إيد حلقة الوصل التي يبحثون عنها. لن يتمكنوا أبداً من إثبات أن تود كان شريكاً في إحدى الجرائم التي ارتكبها دوسندر. لكن مع شهادة رابر إيد، يمكنهم إثبات جرم التآمر. وهل سينتهي الأمر عند هذا الحد؟ كلا بالتأكيد. سيحصلون على صورته الفوتوغرافية التي التُقطت أثناء حفـل التخـرّج ويعرضـونها علـى الـناس في المنطقة التي توجد فيها الإرسالية. هذا عمل طويل، ولكن لا يسع رتشلر سوى القيام به.

وماذا بعد؟ المحكمة ستأتي بعد ذلك.

سيستخدم والده مجموعة من المحامين المدهشين بالطبع، والمحامون سينقذونه من المأزق الذي هو فيه بالطبع. فهناك الكثير من الأدلة الظرفية، وسـيترك انطباعاً محبذاً جداً لدى هيئة المحلّفين. ولكن حينها، تكون حياته قد دُمرت على أي حال، تماماً كما قال دوسندر. سيُنشَر الخبر في صفحات الجرائد، خبر نبش القبور وانتشال الجثث نصف المتحللة في قبو دوسندر.

قال إيد فجأة وهو يلتفت إلى تود: "الرجل الذي يظهر في الصورة هو الرجل الذي جاء إلى مكتبي عندما كنتَ في الصف التاسع. ادّعى أنه جدك. والآن، تبين أنه مجرم حرب مطلوب".

قـال تود: "هذا صحيح". امتقع لون وجهه، وأصبح شبيهاً بوجه دمية في متجر كبير. واختفت علامات الصحّة، والحياة، والحيوية منه. وكل ما تبقى هو فراغ مخيف.

سأله إيد: "كيف حصل ذلك؟" ربما كان يريد بهذا السؤال توجيه اتهام صـاعق، ولكـنه طرحه بحزن وتكلّف بعض الشيء. "كيف حصل ذلك يا تود؟"

أجاب تود: "مشكلة قادت إلى مشكلة أخرى". وأمسك ببندقيته. "هذا ما حـصل فعـلاً. مشكلة واحدة... تلتها مشكلة أخرى". وضغط على مزلاج الأمـان بإبهامـه ووجّـه البندقية نحو رابر إيد وقال: "بقدر ما يبدو الأمر مستغرباً، هذا ما حصل فعلاً".

قال إيد وقد اتسعت عيناه: "تود". وخطا خطوة إلى الوراء. "تود، أنت

لا تريد أن... أرجوك يا تود. يمكننا بحث هذه المسألة. يمكننا بح.."

قـال تود: "يمكنك أن تبحث المسألة مع الألماني اللعين في الجحيم". وضغط على الزناد.

تـبدد صـدى العيار الناري في هدوء فترة ما بعد الظهر الخالية من النـسمات. سـقط جسم إيد فرينش على سيارة الساب. لامست إحدى يديه الأرض خلفـه، وانتـزعت الأخـرى مساحة الزجاج الأمامي. حدق فيها بارتـباك فـيما كـان الدم يجري على فتحة كنزته الزرقاء، ثم هوى على الأرض وهو ينظر إلى تود.

همس إيد: "تورما".

قال تود: "حسناً. الرأي رأيك أيها البطل". وأطلق النار على رابر إيد مجدداً فاختفى نصف رأسه في رذاذ من الدم والعظام.

الـتفت إيد، وبدأ يزحف نحو باب مقعد السائق فيما كان يتلفظ باسم ابنته المـرة تلو المرة في صوت مخنوق يضعف شيئاً فشيئاً. ثم أطلق تود عليه الـنار، مصوباً بندقيته هذه المرّة نحو قاعدة عموده الفقري فسقط إيد على الأرض. تحركت قدماه قليلاً على الحصى، ثم سكنت حركتهما بعد ذلك.

قـال تـود فـي نفـسه، إنه بالفعل مستشار عنيد، ولكنه عجز عن الضحك. في تلك اللحظة، سرت موجة ألم حادّ في رأسه كما لو أن معول ثلج غُرز فيه، ثم أغمض عينيه.

عـندما فتح عينيه مجدداً، شعر بأنه أصبح في وضع أفضل حالاً مما كـان علـيه منذ شهور، وربما أفضل مما كان عليه منذ سنين. أصبح كل شـيء على ما يرام، وعاد كل شيء إلى ما كان عليه، فاختفى الإصفرار من وجهه، وعاد نوع من الجمال البرّي إليه.

عـاد إلى المرآب، وأخذ كافة الطلقات التي وجدها هناك، والتي زاد عددها عن أربعمائة طلقة، ووضعها في حقيبة الظهر القديمة وحملها على كـتفه. وعندما عاد إلى أشعة الشمس، ابتسم بحماسة، ورقصت عيناه، كما يبتـسم الصبية في ذكرى ميلادهم، وفي يوم الكرمس، وفي يوم الإستقلال. كانـت ابتـسامة من يطلق الأسهم النارية، ويعيش في الأكواخ في أعالي الأشـجار فـي البرّية، ويطلق الإشارات السرّية، ويذهب إلى أماكن اللقاء الـسرّية، ويشارك في الأفراح بعد مباراة كبيرة انتهت بالفوز عندما يُحمل اللاعـبون من الملعب إلى وسط البلدة على أكتاف الجماهير المبتهجة. إنها

ابتسامة للنشوة التي يشعر بها الصبية الصغار الذاهبون إلى الحرب وهم يعتمرون خوذات من أوعية الفحم.

صرخ بقوة في السماء الزرقاء العالية: "أنا ملك العالم!". ورفع بندقيته بيديه الإثنتين فوق رأسه للحظة. ثم حملها بيده اليمنى، وتوجّه إلى المكان الذي يعلو الطريق السريع حيث الأرض منبسطة والشجرة الميتة التي ستوفر له الغطاء.

انقضت خمس ساعات، وحل الظلام تقريباً قبل أن ينالوا منه.

الفصل الثالث

السقوط من البراءة

الجثة

1

إن الحـــديث عن أكثر الأشياء أهمية هو أصعب أنواع الحديث. إنها الأشـــياء التي تشعر بالخجل منها، لأن الكلمات تقلل من أهميتها؛ فالكلمات تقلّــص حجـــم الأشـــياء التي يبدو أن لا حدود لها عندما تكون في رأسك فتصبح بحجم شيء حي عندما تخرج منه. لكنها أكبر حجماً من ذلك، أليس كـــذلك؟ كما أن أكثر الأشياء أهمية يكمن قريباً جداً من الموضع الذي قلبك مدفـــون فـــيه، مثل العلامات التي تدلّ على مكان الكنز الذي يريد أعداؤك ســـرقته. وربما تكشف عن أشياء تكون كلفتها أن ينظر الناس إليك بطريقة مضحكة وحسب، من غير أن يفهموا شيئاً مما قلتَه على الإطلاق، أو لماذا اعـــتقدت أنه من المهم جداً الكشف عنه بما يشبه الصراخ وأنت تبوح به. فـــي اعـــتقادي، أسوأ الحالات جميعها، عندما يبقى السرّ محتجَزاً لا بسبب الحاجة إلى من يقوله وإنما بسبب الحاجة إلى من يفهمه.

كـــنت في الثانية عشرة من عمري وعلى وشك أن أصبح في الثالثة عشرة عندما رأيت لأول مرة إنساناً ميتاً. حدث ذلك سنة 1960، منذ زمن بعـــيد جـــداً... بالـــرغم من أنه يبدو لي في بعض الأحيان أن تلك الواقعة حـــدثت منذ زمن ليس ببعيد، وخصوصاً في الليل عندما أستيقظ بعد رؤية أحلام مزعجة عندما يتساقط البرَد على عينيّ المفتوحتين.

2

كـــنا نمـــتلك عليّة في أعلى شجرة دردار كبيرة تمتّد أغصانها فوق عقـــار فارغ في كاسل روك. هناك شركة متنقلة في ذلك العقار اليوم، كما أن الـــشجرة قُطعت. إنه التقدم. كان العقار أشبه بنادٍ اجتماعي بالرغم من أنه لم يكن له اسم. كنا خمسة أشخاص دائمين، وربما ستة، كما كان يوجد بعـــض الأشخاص الذين يأتون بين الحين والآخر. كنا نسمح لهم بالصعود إذا كنا نلعب الورق واحتجنا إلى لاعبين جدد. في العادة كانت اللعبة بلاك

جـــاك، وكنا نلعب على قطع النقود الصغيرة، وكانت قطعة الخمسة سنتات هي الحدّ الأقصى للمراهنة، بالرغم من أن تيدي كان الشخص الوحيد الذي توفر لديه من الجنون ما يكفي لكي يراهن بهذا المبلغ.

كانـــت جوانب العليّة عبارة عن ألواح خشبية حصلنا عليها من مكبّ الأخـــشاب بالقـــرب من عنبر شركة ماكي لامبر وبيلدينغ سابلاي؛ وكانت الكـــسرات تبـــرز منها، كما كانت مليئة بالثقوب التي قمنا بسدّها بالمناديل الورقـــية. أما السقف فكان عبارة عن لوح معدني متموج حصلنا عليه من مكـــب الخـــردة. كنا نتلفّت طوال الوقت لأنه كان من المفترض أن يكون الكلـــب الحـــارس في الخارج وحشاً حقيقياً يأكل الأطفال. عثرنا على باب مـــزوّد بشريط منخلي في اليوم نفسه، وكان يمنع الذباب من دخول العليّة، ولكنه كان صدئاً للغاية. فأياً كان الوقت الذي تنظر فيه إلى ذلك الباب، كان المنظر يبدو كما لو أنه حان وقت الغروب.

إلـــى جانـــب لعـــب الورق، كان النادي مكاناً جيداً لتدخين السجائر، والنظر إلى صور الفتيات. كانت توجد حوالى خمس منافض رسمت عليها صـــورة الجمـــل، ومجموعة من الفيَش البلاستيكية الخاصة بلعبة البوكر، ومجمـــوعة ضـــخمة من مجلات ماستر ديتكتف القديمة التي كنا نستخدم أوراقهـــا عـــندما لا نجـــد أوراقـــاً أخرى. كما صنعنا حجيرة سرّية أسفل الأرضـــية بأبعـــاد 30 سم × 25 سم لإخفاء كافة هذه الأشياء في الحالات الـــنادرة عندما يقرر والد أحد الرفاق إعادة ابنه إلى المنزل. وعندما ينهمر المطـــر، يـــصبح الجلـــوس فـــي النادي أشبه بالجلوس في طبل فولاذي جامايكي... لكن السماء لم تمطر في ذلك الصيف.

ساد المنطقة مناخ هو الأكثر جفافاً وحرارة منذ العام 1907؛ أو هذا مـــا قالـــته الـــصحف، وفي يوم الجمعة الذي سبق يوم العمال وبدء السنة الدراســـية الجديـــدة، بـــدت الزهور الصفراء في الحقول والخنادق بجانب الطـــرقات الخلفـــية جافـــة وعليلة. وما من بستان أنتج غلّة في ذلك العام، بالـــرغم من أن المعارض الكبيرة التي تروّج للمعلبات في كاسل روك ريد أنـــد وايت كانت لا تزال موجودة لجمع الغبار. لم يكن يوجد شيء لدى أي كان لكي يعرضه في ذلك الصيف، باستثناء الهندباء البرّية.

صـــعدت أنا وتيدي وكريس إلى الكوخ في يوم الجمعة، وتحسّر كل مـــنّا لأن العودة إلى المدرسة باتت قريبة جداً، ولعبنا الورق، وتبادلنا سرد

نكـات مندوبي المبيعات المتجولين القديمة نفسها ونكات الفرنسيين. كيف تعـرف إذا كـان يـوجد رجل فرنسي في فناء دارك؟ حسناً، عندما تكون العلب في مستوعب النفايات فارغة وعندما تحيل كلبتك. كان تيدي يحاول الظهـور بمظهر شخص أسيء إليه، ولكنه كان الأول في قول النكات حال سماعه لها، باستثناء أنه يستبدل الإشارة إلى رجل فرنسي برجل بولندي.

كانت شجرة الدردار شجرة ظليلة، ولكننا خلعنا قمصاننا لكي لا تبتلّ بالعرق وتفسد رائحتها. لعبنا أسخف لعبة ورق تمّ اختراعها، ولكن حرارة الطقس كانت مرتفعة بما يكفي لكي تمنعنا من التفكير في لعبة أكثر تعقيداً. وكـنا قد شكلنا فريقاً رائعاً لكرة القاعدة لغاية منتصف أغسطس/آب عندما رحل العديد من أعضائه. لقد كان صيفاً حارّاً جداً.

جـاء دوري، وبـدأت أجمـع أوراق البستوني. بدأت بثلاثة عشر، ولكنني حصلت على ثمانية. نقر كريس، وسحبتُ ورقة، ولكنني لم أحصل على ورقة مفيدة.

قـال كـريس: "تـسعة وعـشرون". ووضع على الأرضية أوراق الديناري.

قال تيدي وهو ينظر باشمئزاز: "إثنان وعشرون".

وضعتُ أوراقي على الطاولة من غير أن أكشف عنها.

بالـرغم من النظارة التي يضعها تيدي على عينيه والزرّ الذي بلون الجلد الذي يضعه في أذنه دائماً، لم يكن في مقدوره الرؤية جيداً وغالباً ما كـان يسيء فهم ما يقوله الآخرون له. عندما نلعب كرة القاعدة، كنا نطلب مـنه الوقوف عند السياج دائماً وكان كريس يلعب في الجناح الأيسر وكان بيلـي غرير يلعب في الجناح الأيمن. كنا نأمل بألاّ يتمكن أحد من ضرب الكـرة بعـيداً لأن تيدي كان يسعى وراءها، سواء تمكن من رؤيتها أم لا. كـان يلـتقط الكـرة بين الحين والآخر، ومرّة ركض مقدار دورة كاملة، واصـطدم بالسياج القريب من العليّة. تمدد هناك على ظهره وبقي مغمض العينـين مـدة خمس دقائق فانتابني الذعر بسبب ذلك. ثم استيقظ، ومشى وأنفـه ينزف فيما ظهرت بقعة وردية كبيرة على جبهته، وحاول الإدعاء بأن ضرب الكرة كان مخالفاً للقواعد.

كان نظره ضعيفاً بطبيعته، لكن لم يكن يوجد شيء طبيعي في ما حـصل لأذنـيه. فعندما كان من الرائج قص المرء لشعره بحيث تبرز

أثناه مثل مقبض الإبريق، كان تيدي أول شخص في كاسل روك يقص شــعره قــصة البيتلز؛ قبل أربع سنين من سماع الناس في أميركا عن فــريق البيتلز. وكان يغطي أذنيه دائماً لأنهما كانتا تشبهان قطعتين من الشمع الدافئ.

عــندما بلغ سنّ الثامنة، غضب والده في أحد الأيام لأنه كسر طبقاً. حــدث ذلــك عــندما كانت أمّه تعمل في مصنع لصنع الأحذية في ساوث بارس، وبحلول الوقت الذي عرفت به ما حدث. كان كل شيء قد انتهى.

أمــسك والــده به، ومشى نحو الفرن الذي يعمل على الحطب خلف المطبخ وألصق رأسه بأحد الأطباق المعدنية للفرن، وأبقى رأسه على هذا الحال عشر دقائق تقريباً. ثم أمسك بشعر رأسه وألصق الجانب الآخر. ثم اتــصل بــوحدة الطوارئ المركزية العامة في ماين وطلب منهم المجيء لإســعاف الــصبي. ثم أقفل سماعة الهاتف، وتوجه نحو الخزانة، وأخرج مــسدسه، وجلــس لمشاهدة البرامج التلفزيونية بعد أن وضع المسدس بين ركبتــيه. وعــندما جاءت السيدة بورروز من البيت المجاور لتسأل إن كان تــيدي بخيــر -لأنها سمعت صراخه- صوّب والد تيدي مسدسه نحوها. خــرجت السيدة بورروز من منزل دوشامب بسرعة الضوء تقريباً واتصلت بالــشرطة. وعــندما وصلت سيارة الإسعاف، أدخلهم السيد دوشامب إلى المنــزل ثــم خــرج نحو الشرفة الخلفية للحراسة فيما كان تيدي يُنقل إلى سيارة الإسعاف بواسطة نقالة.

قــال والد تيدي للممرضين بأن ضباط الجيش قالوا إن المنطقة آمنة فــيما كــان القناصــة الألمــان لا زالوا منتشرين في كل مكان. سأله أحد الممرضين إذا كان يستطيع لزوم الصمت. ابتسم والد تيدي بقوة، وقال إنه ســيلزم الــصمت إلى أن يصبح تاجر ثلاجات فريجيدير، إذا كان هذا ما ينبغــي عملــه. وجّه الممرض له التحية فردّ عليه والد تيدي بمثلها. وبعد مــرور بــضع دقائق على رحيل سيارة الإسعاف، وصلت شرطة الولاية، وأعفت نورمان دوشامب من مهمته.

كـــان يقوم بأفعال غريبة مثل إطلاق النار على القطط، وإشعال النار فـــي صـــناديق البريد طوال عام كامل. وبعد العمل الفظيع الذي قام به في حــق ولــده، جرى استجوابه بسرعة، وأُرسل إلى توغاز، وهي مستشفى قدامـــى المحاربين. وتوغاز هي المكان الذي ينبغي أن تذهب إليه إذا كنت

مــن القسم الثامن. كان والد تيدي قد غزا شاطئ النورماندي، وهذه كانت طــريقة تــيدي في وصف تلك العملية. كان فخوراً بوالده على الرغم مما فعله به، وكان يزوره كل أسبوع برفقة أمه.

كـــان أكثر الرفاق الذين كنّا نلعب معهم غباءً، كما أنه كان مجنوناً. فكان ينتهز أكثر الفرص التي يمكنك أن تتصورها جنوناً، ليقوم بأفعال مثل الــركض أمـــام الــشاحنات على الطريق 196، وكان السائقون يتجنبون الإصــطدام به بالتوقف قبل مسافة سنتيمترات قليلة. الله يعلم عدد الأزمات القلبــية التي تسبب بها، وكان يضحك فيما كان الهواء المندفع تحت تأثير ســرعة الــشاحنة يحــدث أمواجاً على ثيابه. كانت أفعاله تخيفنا لأنه كان ضعيف النظر، سواء أكان يضع نظارته أم لا. وبدا أن المسألة مجرّد وقت قــبل أن تصدمه إحدى تلك الشاحنات. كما أنه عليك أن تتحلّى بالحذر إذا أردت إخافته لأنه يمكن أن يفعل أي شيء تحت تأثير الخوف.

كـــان تــيدي يخلــط أوراق اللعب بطريقته الخرقاء المعهودة عندما ســمعتُ قــصة الجريمة، وذلك عندما سمعنا شخصاً يصعد بسرعة السلّم المثبّت بجذع الشجرة.

صاح كريس: "من الذي على السلّم؟"

"فيرن". بدا مثاراً وعاجزاً عن التنفس.

توجهت نحو الباب، وسحبت المزلاج، وما لبث أن دخل فيرن تيسيو النادي، وهو أحد الأعضاء المنتظمين. كان بدنه يتصبب عرقاً وكان أشعث الــشعر علماً بأنه عادة ما يسرّحه على طريقة تسريحة شعر محبوبه مغنّي الروك أند رول، بوبي ريدل.

قال وهو يلهث: "اصبروا حتى تسمعوا ما سأقوله لكم".

سألته: "ما الخبر الذي تريد أن تُسمعنا إياه؟"

"دعوني التقط أنفاسي أولاً. لقد أتيتكم جرياً على الأقدام من منزلي".

قال تيدي هو يلوّح بيده: "لقد ركضتَ كل هذه المسافة من منزلك لكي تقول لنا أنا آسف".

قال فيرن: "أنزل يدك اللعينة يا رجل".

ســـأله كــريس وهو عاجز عن التصديق: "هل هربتَ من منزلك؟ يا رجـــل، أنت مجنون". كان منزل فيرن في شارع غراند ستريت الذي يبعد عن المكان مسافة ثلاثة كيلومترات.

قال فيرن: "الأمر يستحق ذلك. يا الله، أنتم لن تصدقوا ما سأقوله لكم. وأنا أعني ما أقول". مسح جبهته ليثبت لنا أنه صادق فيما يقوله.

سأله كريس: "حسناً، ما الأمر؟"

"هـل يمكـنكم قضاء هذه الليلة في الخيمة خارج بيوتكم؟" كان فيرن ينظـر إليـنا بشوق ولهفة. بدت عيناه مثل حبتي زبيب غائرتين في دوائر مظلمـة مـن العـرق. "أعني، إذا كنتم تستطيعون أن تخبروا ذويكم بأنكم تريدون قضاء الليلة في خيمة ننصبها في فناء منزلي".

قـال كريس وهو يلتقط يده الجديدة وينظر إليها: "أجل أعتقد بأن في مقدورنا ذلك. ولكن والدي شديد نوعاً ما كما تعرف".

قـال فيـرن: "عليك أن تفعل ذلك. فأنت لن تصدق ما سأقوله لك يا غوردي".

"ربما".

كنت قادراً على القيام بكل هذه الأمور؛ في الواقع، كنت الصبي غير المرئـي طـوال ذلك الصيف. ففي شهر أبريل/نيسان، قُتل شقيقي الأكبر، دينيس، في حادث سيارة. حدث ذلك في فورت بيننغ بولاية جورجيا حيث كان يخضع لدورة تدريبية أولية. كان متوجهاً برفقة شخص لتبديل المراكز عـندما اصـطدمت شاحنة عسكرية بجانب الأبواب من الجيب الذي كانا يـستقلانه. قُتل دينيس على الفور، في حين دخل رفيقه في غيبوبة منذ ذلك الحـين. كـان دينيس سيبلغ الثانية والعشرين في ذلك الأسبوع، حتى أنني اشتريت له بطاقة لذكرى ميلاده للإحتفال بهذه المناسبة.

بكيتُ عندما سمعت بالخبر، وبكيت أكثر عندما كنت في الجنازة، ولم أكـن أسـتطيع تصديق أن دينيس قد رحل، وأن الشخص الذي اعتاد على تخويفـي بعنكبوت من المطاط إلى أن أبكي، أو يقبّلني عندما أسقط على الأرض وتنـزف ركبتاي فيهمس في أذني ويقول: "توقف عن البكاء الآن أيهـا الـصغير!" يمكـن أن يمـوت. آذتني وأفزعتني حقيقة أنه يمكن أن يموت... لكن يبدو أن الحادث أفجع والديّ. بالنسبة لي، بالكاد كان دينيس أكثر من معرفة، فقد كان يكبرني بعشر سنين، إذا كنت تستطيع أن تتصور ذلـك، وكـان لديه أصدقاؤه وزملاؤه في المدرسة. كنا نجلس إلى الطاولة نفـسها طوال عدة سنوات، وكنت أرى فيه صديقاً لي في بعض الأحيان، وكنت أراه معذّبي في أحيان أخرى، ولكن كان في معظم الأوقات مثل أي

شـخص آخـر. عـندما تُوفي، كان قد غاب عنّا مدة سنة كاملة باستثناء الفترات التي أمضى إجازاته فيها عندنا. لم يكن يوجد شبه بيننا، وقد تطلب الأمر زمناً طويلاً لكي أدرك بأن معظم الدموع التي ذرفتها كانت من أجل أمّي وأبي.

سـأله تـيدي: "إذن، ما هو هذا الخبر الذي تبكي وتنحب من أجله يا فيرنو؟"

تـناول كـل مـن تيدي وكريس سيجارة، فيما انحنيتُ لألتقط مجلّة التحقيقات الجنائية.

قـال فيرن تيسيو: "هل تودّون رؤية جثة هامدة؟" فتوقف الجميع عن الحركة.

3

سـمعنا الخبـر عبر الراديو بالطبع. أحضرنا هذا الراديو، وهو من نـوع فـيلكو، مـن مكب النفايات، وكان يعمل طوال الوقت، وكنا نضبط المـوجة على محطة تبثّ الأغاني. وعندما يحين وقت نشرة الأخبار، في العـادة كـنا نسكته. كانت النشرات الإخبارية حافلة بالقصص التي تتحدث عـن كنيدي ونيكسون وكويمو وماتسو وأزمة الصواريخ والحال الذي آل إلـيه كاسـترو. ولكننا كنا نتابع باهتمام قصة راي براور لأنه كان صبياً مثلنا.

كان من تشامبرلين، وهي بلدة تبعد ستين كيلومتراً تقريباً إلى الشرق مـن كاسـل روك. كـان راي براور قد غادر منزله حاملاً قدراً لالتقاط المنبـيات، وذلـك قـبل ثلاثة أيام من مجيء فيرن إلى العليّة بعد أن قطع مـسافة ثلاثـة كيلومترات جرياً. عندما حلّ الظلام من غير أن يعود إلى منـزله، اتصلت عائلة براور بشريف المقاطعة لتبدأ عملية بحث بعد ذلك؛ فتـشوا أولاً في محيط منزل الصبي ثم توسعت دائرة التفتيش لتشمل بلدات موتـون ودورهـام وباونـال. شارك الجميع في عمليات التفتيش: رجال الـشرطة، والمعاونـون، وحرّاس المناطق المحمية، والمتطوعون. لكن لم يعثر على الصبي بعد مضي ثلاثة أيام على بدء عمليات التفتيش. كان في مقـدورك التكهن، وأنت تسمع الأخبار عبر الراديو، بأنهم لن يتمكنوا من العثور على ذلك الصبي المسكين حياً. في النهاية، لم تفضِ عمليات التفتيش

إلـــى شـــيء. ربمـــا سقط في حفرة أو غرق في جدول مياه. وربما سيجد عظامـــه أحـــد الصيادين بعد عشر سنين من الآن. وكان رجال التفتيش قد بحثوا في البرك المنتشرة في تشامبرلين وخزان المياه في موتون.

لا شيء مثل ذلك يمكن أن يحدث في ماين الجنوبية الغربية في هذه الأيـــام، لأن معظـــم المناطق باتت مأهولة بالسكان، والمجتمعات السكانية المحـــيطة بـــبورتلاند وليويستون قد انتشرت مثل مجسّات حبّار ضخم. لا تـــزال الغابـــات موجودة، وهي تزداد كثافة كلما توجهتَ غرباً نحو الجبال البيـــضاء، لكنك إذا استطعتَ أن تبقي رأسك منخفضاً هذه الأيام مدة تكفي لمشي ثمانية كيلومترات في اتجاه واحد، ستصل بدون أدنى شك إلى طريق معبّدة تسير في الإتجاهين. لكن في العام 1960، كانت المنطقة الواقعة بين تـــشامبرلين وكاسل روك غير مأهولة بالسكان، وكان يوجد فيها أماكن لم تـــصلها أيدي الحطابين منذ ما قبلَ الحرب العالمية الثانية. في تلك الأيام، كـــان لا يزال من الممكن أن تمشي في الغابات، وتضلّ الطريق، وتموت فيها.

4

كـــان فيرن تيسيو أسفل شرفة منزله في ذلك الصباح وهو يحفر في الأرض.

أدركـــنا جميعاً على الفور ما كان يقوم به، ولكن ربما يجدر بي أن أشرح لك الأمر بسرعة. كان تيدي دوشامب صبياً غبياً، ولكن فيرن تيسيو لـــم يكـــن ليمضي شيئاً من وقته في القراءة أيضاً. وكان شقيقه بيلي أكثر غـــباء منه، كما سترى بعد قليل. لكن دعني أخبرك أولاً عن السبب الذي كان فيرن يحفر في الأرض من أجله.

عـــندما كـــان في سنّ الثامنة قبل أربع سنين، دفن فيرن جرّة مليئة بقطع النقود الصغيرة أسفل الشرفة الأمامية الطويلة. كان فيرن يطلق على الحيّـــز المعـــتم أســـفل الشرفة اسم *الكهف*. وكان يمارس لعبة أشبه بلعبة القرصان، حيث كانت القطع النقدية بمثابة الكنز؛ لا يمكنك، في حال كنتَ تلعـــب لعبة القرصان مع فيرن، أن تسمّيه كنزاً. إذن، قام بدفن جرّة النقود عمـــيقاً فـــي الأرض، ثـــم ردم الحفرة، وغطاها بالأوساخ وبعض أوراق الأشـــجار الميتة التي تجمعت في المكان على مدى السنين. ورسم خريطة

لـذلك الكنـز، ووضعها في غرفته مع باقي أغراضه التافهة. وما لبث أن نـسي المـسألة برمتها بعد شهر تقريباً. وبعد أن وجد أنه بحاجة إلى نقود للذهاب إلى السينما أو شراء شيء ما، تذكر أمر النقود، وذهب إلى غرفته ليحـضر خـريطته. ولكـنّ والدته كانت قد نظفت الغرفة مرتين أو ثلاث مـرات مـنذ ذلك الحين، وجمعت كل الأوراق المدرسية القديمة، ولفافات الحلـوى، والمجـلات الكوميدية، وكتب النكات وأحرقتها في الموقد لكي تشعل فيه النار في صباح أحد الأيام. وتصاعدت خريطة الكنز التي رسمها فيرن من مدخنة المطبخ.

أو هذا ما اعتقده.

حاول العثور على البقعة التي دفن كنزه فيها بالإعتماد على ذاكرته، ولكـن الحـظ لم يحالفه. ثم حاول في الجهة اليمنى واليسرى للبقعة، لكن بدون جدوى. ثم تخلّى عن المحاولة بقية ذلك اليوم، ولكنه استأنف المحاولة مـن جديـد ولا يزال على هذا الحال منذ ذلك الحين. أربع سنين يا رجل، أربع سنين. لا يدري المرء أيضحك أم يبكي.

تحـولت المسألة إلى شكل من أشكال الهوس لديه. تمتد شرفة منزل العائلـة بطـول المنزل، أي حوالى اثني عشر متراً ويبلغ عرضها حوالى المترين. حفر تقريباً كل سنتيمتر من تلك الناحية مرتين وربما ثلاث مرات من غير أن يعثر على قطعه النقدية. ثم بدأ عدد تلك القطع يكبر في ذهنه. فعـندما أضاع كنزه لأول مرّة، قال لكريس ولي بأن ما في الجرّة من قطع نقديـة يعادل ثلاثة دولارات. وبعد مرور عام، رفع ذلك المبلغ إلى خمسة دولارات، ومؤخـراً بلـغ عشرة دولارات أو أكثر قليلاً أو أقل قليلاً، تبعاً لمدى إفلاسه.

حاولـنا أن نقول له عدة مرات ما بدا واضحاً بالنسبة إلينا؛ أن بيلي عـرف بأمر الجرّة وحفر بنفسه، وأخرجها. لكن فيرن رفض تصديق هذا الأمـر، بالـرغم من أنه يكره بيلي كما يكره الهندوس السيخ. وربما كان سيـصوت بسعادة لصالح إنزال عقوبة الإعدام بشقيقه لسرقته معروضات المتاجـر لـو سـنحت له الفرصة. إلاّ أنه رفض طرح السؤال على بيلي بطـريقة مباشرة. ربما خشي من أن يضحك بيلي عليه ويقول: بالطبع لقد أخـرجت النقود أيها الغبي، ووجدت مبلغاً يعادل عشرين دولاراً من القطع النقدية في تلك الجرّة، وأنفقت كل سنت منها. وبدلاً من ذلك، استمرّ فيرن

فـي الحفـر متـى انتعشت آماله (ومتى كان بيلي بعيداً عن المكان). كان يخـرج مـن أسـفل الشرفة دائماً بسروال جينز وسخ، وشعر كث ويدين فارغتين. كنا نستفزّه بسبب ذلك في بعض الأحيان، وأطلقنا عليه لقب بيني -بيني تيسيو. وأعتقد بأنه صعد سلّم النادي حاملاً أخباره بأسرع ما يمكنه لا ليخبـرنا بما لديه وحسب، بل وليثبت لنا أنه كانت هناك فائدة من بحثه عن نقوده.

اسـتيقظ صباحاً قبل أي شخص آخر، وتناول الكورنفليكس، وذهب إلى ممر السيارات في فناء منزله، وبدأ يلقي كرة السلة نحو طوق حديدي مثـبّت في أعلى المرآب. لم يكن لديه الكثير ليفعله، لم يكن يوجد شخص آخر لكي يلعب معه لعبة الأشباح أو أي شيء آخر. لذلك قرر البحث عن الكنـز مـرّة أخرى. كان أسفل الشرفة عندما أُغلق الباب فوقه. تجمّد في مكانه لكي لا يحدث صوتاً. فإذا تبين أنه والده، فسيخرج من أسفل الشرفة، وإذا كـان ذلك الشخص هو بيلي، فسيلبث في مكانه إلى أن ينصرف بيلي وصديقه تشارلي هوغان.

سـمع وقـع أقـدام شخصين على الشرفة، ثم سمع صوت تشارلي هوغان نفسه وهو يصرخ مثل الأطفال: "يا الله. بيلي، ماذا سنفعل؟"

قـال فيرن بأن مجرد سماعه لتشارلي هوغان وهو يتحدث على ذلك النحو - تشارلي الذي كان واحداً من أكثر الأولاد صلابة في البلدة- جعله يرفع أذنيه. ففي النهاية، تشارلي يعاشر أيس ميريل وآيبول تشامبرز، وإذا كنت تريد أن تتسكع مع قطين مثل هذين، ينبغي أن تكون صلباً.

قال بيلي: "لن نفعل شيئاً. هذا كل ما ينبغي أن نفعله، لا شيء".

قال تشارلي: "ينبغي أن نفعل شيئاً". ثم جلسا على الشرفة بالقرب من المكان الذي كان فيرن يحفر فيه. "ألم ترَه؟"

جـازف فيرن، واقترب أكثر من المكان الذي يجلسان فيه واللعاب يسيل مـن فمـه. في تلك اللحظة، اعتقد بأنه ربما كان بيلي وتشارلي ثملين وصدما شخـصاً فـي الـبلدة. حرص فيرن على ألاّ يطأ على الأوراق القديمة أثناء اقتـرابه. فلو اكتشف الإثنان أنه قابع أسفل الشرفة وأنه سمع الحديث الذي دار بينهما، يمكنك أن تضع ما سيتبقى منه في علبة لحفظ طعام الكلاب. قال بيلي تيـسيو: "الأمـر لا يعنينا. والصبي مات ولذلك فإن الأمر لا يعنيه أيضاً. من سيأبه إذا تمكنوا من العثور عليه يوماً؟ أنا لا آبه لذلك البتة".

قال تشارلي: "كان ذاك الصبي الذي يتحدثون عنه على المحطات الإذاعية. إنه بروكر أو براور أو فلاورز أو أي اسم آخر. لا بدّ وأن القطار اللعين اصطدم به".

قال بيلي: "أجل". ثم سمع صوت حك عود ثقاب ما لبث أن سقط على الممر، ثم تصاعدت رائحة دخان السجائر. "لا بدّ وأن ذلك ما حدث فعلاً".

لم ينفوها بمزيد من الكلمات، ولكن فيرن شعر بأمواج الخجل العاطفي وهي تشعّ من تشارلي هوغان.

قال بيلي بعد فترة من الصمت: "حسناً، الفتيات لم يرين الجثة. وهذا أمر جيد". ثم استنتج من الصوت الذي سمعه أنه ربت على ظهر تشارلي. "وإلاّ لكان افتضح الأمر من هنا إلى بورتلاند. ولكننا غادرنا المكان بسرعة. هل تعتقد بأنهنّ شعرن بوجود خطب ما؟"

قال تشارلي: "كلا، فماري لا تحب النزول إلى طريق باك هارلو خلف المقبرة على كل حال. فهي تخاف من الأشباح". ثم عاد إلى الصراخ كما يفعل الأطفال: "يا الله، أتمنى لو أننا لم نسرق تلك السيارة البارحة! واكتفينا بالذهاب لحضور العرض كما سبق أن خططنا".

ذهب تشارلي وبيلي برفقة فتاتين، الأولى اسمها ماري دوتري والأخرى تدعى بيفرلي توماس. أنت لم تشاهد المناظر القبيحة خارج عرض كرنفالي: البثور، والشوارب. كان الأربعة -وربما الستة أو الثمانية في حال رافقهم فازي براكوفيتش أو آيس ميريل مع صديقتيهما- يعمدون إلى سرقة إحدى السيارات من مرآب ليويستون والتنزه بها في المناطق الريفية بعد أن يشتروا ثلاث زجاجات من الشراب وثلاثة صناديق من جعة الزنجبيل. وكانوا يركنون السيارة في موقف الفتيات في مكان ما في كاسل فيو أو هارلو أو شيلوه ويمضون سهرتهم هناك. وبعد ذلك يتخلصون من السيارة في مكان قريب من البلدة. متع رخيصة في بيت القرود، كما كان يطيب لكريس القول في بعض الأحيان. لم يسبق أن ضُبطوا متلبّسين، ولكن فيرن بقي يأمل بحدوث ذلك يوماً. فقد آمن بفكرة زيارة بيلي في أيام الآحاد بعد أن يدخل الإصلاحية.

قال بيلي: "لو أننا أخبرنا رجال الشرطة، فبالتأكيد كانوا سيودون معرفة كيف استطعنا مغادرة هارلو. فنحن لا نملك سيارة. ولذلك، من الأفضل أن نكتم أفواهنا. وبهذه الطريقة لن يمكنهم المساس بنا".

قال تشارلي: "يمكننا إجراء مكالمة بدون ذكر أسمائنا".

قال بيلي: "إنهم يتعقبون أثر المكالمات الهاتفية".

قال تشارلي بنبرة حزينة: "أجل أنت محق. يا الله، أتمنّى لو أن أيس كان معنا. كنا سنقول للشرطة بأننا كنا في سيارته".

"حسناً، لكنه لم يكن معنا".

تنهّد تشارلي وقال: "أجل، أعتقد بأنك محق". رأى فيرن عقب سيجارة وهو يسقط على الممر. "كان علينا أن نمشي ونقضي حاجتنا عند السكة الحديدية، أليس كذلك؟ ولم نكن نستطيع السير في الإتجاه الآخر، أليس كذلك؟ كان ذلك الصبي اللعين ممداً هناك، كما تعرف. هل رأيت ابن العاهرة يا بيلي؟"

قال بيلي: "لقد رأيته". ورأى فيرن عقب سيجارة ثانياً ينضم إلى الأول على الممر. "لنذهب لرؤية إن كان أيس قد استيقظ".

"هل ستخبره بالأمر؟"

"إننا لن نخبر أحداً يا تشارلي".

"لو أننا لم نسرق سيارة الدودج اللعينة تلك".

"أقفل فمك واتبعني".

سمع وقع أقدامهما وحفيف سروالي الجينز على درجات السلّم فيما بقي فيرن بدون حراك وهو جاثٍ على يديه وركبتيه. بالتأكيد، لو أن شقيقه رآه أسفل الشرفة، لكان سحبه من تحتها وأشبعه ضرباً؛ كان سيتلقى الركلات منه ومن تشارلي هوغان بالقدر الذي يحلو لهما. ولكنهما واصلا السير بعيداً عن المكان. وعندما تأكد فيرن من رحيلهما، خرج من أسفل الشرفة وجاءنا مهرولاً.

5

قلت لفيرن: "أنت محظوظ فعلاً. كانا سيقتلانك".

قال تيدي: "أنا أعرف كيفية الوصول إلى الطريق باك هارلو. إنها طريق تصل إلى نهاية مسدودة عند النهر. كنا نصطاد السمك هناك".

لوما كريس برأسه وقال: "كان يوجد جسر في ما مضى، إلى أن حدث طوفان. حدث ذلك منذ زمن بعيد. والآن لم يعد هناك سوى السكة الحديدية".

سـأل كـريس: "هـل يمكـن لصبي أن يمشي كل هذه المسافة من تشامبرلين إلى هارلو؟ فهذه مسافة تبلغ ثلاثين أو خمسين كيلومتراً".

"أعـتقد ذلـك. أنا أرجح بأنه وصل إلى السكة الحديدة وسار عليها وقطـع تلـك المـسافة. ربما اعتقد بأنها ستوصله إلى مخرج، لو أن في استطاعته التلويح لقطار إن احتاج إلى ذلك. ولكنني أعتقد بأن السكة تسير علـيها قطارات الشحن الآن، ولم يعد يوجد الكثير منها الآن. كان عليه أن يقطـع المسافة مشياً على الأقدام وصولاً إلى كاسل روك للوصول إلى برّ الأمـان. وبعـد أن حـلّ الظلام، لا بدّ وأن قطاراً كان يسير على السكة فصدمه".

ضـم كريس يديه، وأصدر صوتاً مزعجاً. فقد بدا على تيدي، الذي يتقن تقليد الكثير من الأصوات، السرور على نحو غامض. شعرت بشيء من الانزعاج عندما تخيلت كيف أن الصبي في مكان يبعد كثيراً عن منزله وقـد تملّكه الخوف، ولكنه واصل السير على سكة الحديد، وعلى الأرجح أنـه كان يسير على العارضات الخشبية لكي لا يصطدم بأغصان الأشجار التي تمتد فوق السكة. وربما سار في العبّارات أسفل سكة الحديد. ثم وصل القطـار. ربما حمل الضوءُ الأمامي للقطار ذلك الصبي إلى إغلاق عينيه إلى أن تأخر الوقت جداً لكي يتمكن من القفز بعيداً عن السكة. أو ربما كان ممـدداً على السكة عندما وصل القطار. وفي كلتا الحالتين، وصل كريس إلى النتيجة نفسها: لقد مات الصبي.

سألنا فيرن: "إذن، هل ترغبون في الذهاب لرؤية الجثة؟" كان يتلفّت مثل صبي يريد الذهاب إلى دورة المياه.

نظـرنا إليه جميعاً لفترة طويلة من الوقت من دون أن نقول شيئاً. ثم ألقـى كـريس أوراقه على الأرضية وقال: "بالتأكيد، وسأراهنك على أي شيء بأن صورنا ستظهر على صفحات الجرائد".

سأله فيرن: "ماذا تقول؟"

قال تيدي بابتسامته الحمقاء: "حقاً؟"

أجابـه كـريس وهـو ينحني على الطاولة النتنة: "انظر، في إمكاننا العثور على الجثة والتبليغ عنها، وستتحدث عنا وسائل الإعلام!"

مـن الواضـح أن الخـوف اعتـرى فيرن فقال: "أنا لن أفعل ذلك. سيعرف بيلي كيف عرفت الخبر، وسينهال عليّ ضرباً".

قلت له: "كلا، لن يفعل ذلك لأننا سنكون الأشخاص الذين عثروا على ذلك الصبي، وليس بيلي وتشارلي هوغان في سيارة مسروقة. وبالتالي لن يكونا بحاجة إلى القلق من أي شيء بعد ذلك. وعلى الأرجح أن يعلّقوا ميدالية على رقبتك يا بيني".

ابتسم فيرن، وأظهر أسنانه البشعة وقال: "حقاً؟" كانت ابتسامة مربكة، كما لو أنه اعتقد بأن شقيقه بيلي سيُسرّ بذلك. "هل تعتقد ذلك حقاً؟"

ابتسم تيدي أيضاً، ثم عبس وقال: "أوه".

سأله فيرن: "ماذا خطر ببالك؟" شعر بالإرتباك مجدداً بسبب خوفه من أن اعتراضاً أساسياً على الفكرة خطر ببال تيدي...

قال تيدي: "يا رفاقي، إذا عثرنا على الجثة في ساوث هارلو غداً، سيدركون بأننا لم نمضِ تلك الليلة في الخيمة في فناء دار فيرن".

قال كريس: "هذا صحيح. سيعرفون بأننا ذهبنا للبحث عن ذلك الصبي".

قلت: "كلا، لن يعتقدوا ذلك". كنت متشوقاً وخائفاً في الوقت نفسه لأنني عرفت بأن في مقدورنا القيام بذلك وعدم تحمّل أي تبعية. لكن هذا الخليط من العواطف جعلني أشعر بحرارة الإثارة وبرد الخوف. خلطتُ أوراق اللعب لكي أحرك يديَ. كانت ممارسة لعبة الكريبيدج كل ما تعلّمته من شقيقي الأكبر دينيس. وكان رفاقي يحسدونني على طريقة خلطي للأوراق، واعتقد بأن كل شخص أعرفه سألني أن أعلمه كيفية القيام بذلك... الجميع باستثناء كريس. وأعتقد بأن كريس وحده الذي يعرف بأن عرض هذا الأمر يعني التخلّي عن شيء من ذكرى دينيس، وأنا لا أملك الكثير من الذكريات المتعلّقة به لكي أتحمل نسيانها.

قلت: "سنقول لهم بأننا مللنا من البقاء في الخيمة في فناء دار فيرن لأنه سبق أن فعلنا ذلك مرات كثيرة. ولذلك قررنا الذهاب في نزهة والوصول إلى خط السكة الحديدية، ونصب الخيمة داخل الغابة. وأراهن بأننا لن نُضرب بالسياط على ذلك لأن الجميع سيشعر بالإثارة بسبب ما توصلنا إليه".

قال كريس: "سيحبسني والدي على كل حال". ثم هزّ رأسه بتجهم وقال: "اللعنة، الأمر يستحق الحبس".

قال تيدي وهو ينهض: "حسناً". كان لا يزال يبتسم مثل المجنون، ويوشك على الضحك في أي لحظة. "لنجتمع سوية في منزل فيرن بعد الغداء. لكن ماذا سنقول لهم بشأن العشاء؟"

قال كريس: "يمكنني أنا وأنت وغوردي أن نقول إننا تناولنا طعام العشاء في منزل فيرن".

قال فيرن: "وسأقول لأمّي بأنني سأتناول طعام العشاء في منزل كريس".

كانت الخطة ستنجح ما لم يحدث أمر طارئ لا نملك السيطرة عليه أو ما لم يجتمع آباؤنا معاً. كما أنه لم يكن يوجد في منزل فيرن ولا كريس هاتف. في تلك الأيام، كان هناك الكثير من العائلات التي تعتبر الهاتف من الكماليات، وخصوصاً الفقيرة منها. ولم يكن أي من عائلاتنا ينتمي إلى الطبقة العليا في المجتمع.

كان والدي متقاعداً، وكان والد فيرن يعمل في طاحونة وكان لا يزال يقود سيارة ديسوتو من طراز 1952. وكانت والدة تيدي تملك منزلاً في شارع دانبيري وكانت تؤجر غرفاً من منزلها متى أمكنها ذلك، ولكن لم يكن لديها أي مستأجرين في ذلك الصيف واللافتة التي تقول غرفة مفروشة للإيجار لا تزال معلقة على نافذة غرفة الجلوس منذ شهر يونيو/حزيران. ووالد كريس ميال إلى البخل دائماً، وكان مدمناً على الشراب ويحصل على إعاشة بين الحين والآخر، ويمضي معظم وقته في التسكع في سوكيز تافيرن مع جونيور ميريل، والد أيس ميريل العجوز، ومجموعة من المسنّين.

لم يكن كريس يتحدث كثيراً عن والده، ولكننا عرفنا بأنه يكرهه كما يكره السمّ. فقد كانت علامات الضرب تظهر عليه كل أسبوعين تقريباً، مثل آثار كدمات على وجهه ورقبته، أو تورّم في إحدى عينيه وتلوكه بلون الغروب. في أحد الأيام، جاء إلى المدرسة وقد وضع ضمادة كبيرة على مؤخرة رأسه. وفي أيام أخرى لم يكن يأتي إلى المدرسة أصلاً. وكانت أمّه تدّعي بأنه مريض لأنه لم يكن يجرؤ على مغادرة المنزل. كان كريس ولداً ذكياً، ذكياً فعلاً، ولكنه كان ينتحل الأعذار كثيراً للتغيّب عن المدرسة. وكان السيد هاليبورتون، المسؤول عن الغياب، يأتي إلى منزل كريس دائماً بسيارته الشيفروليه القديمة السوداء التي وضع على زجاجها الأمامي ملصقاً يقول لا نحمل الركاب. وفي حال تغيب كريس عن المدرسة ورآه بيرتي (كما كنا نسميه؛ من غير أن يسمعنا بالطبع)، كان يرسله إلى المدرسة ويحرص على حجزه مدة أسبوع. لكن إذا تبين لبيرتي أن كريس لزم منزله لأن أباه أشبعه

ضـــرباً، فسيذهب من غير أن يتفوه بكلمة. ولم يخطر ببالي أن أشكك في هذه المجموعة من الأولويات إلاّ بعد عشرين عاماً على ذلك.

في السنة الماضية، مُنع كريس من المجيء إلى المدرسة مدة ثلاثة أيام. فقـد اختفى المال العائد من بيع الحليب عندما كان دور كريس في لعب دور مـراقب الغـرفة وجمع المال. وبما أنه كان من عائلة تشامبرز التي لا تملك حـساباً فـي المصرف، كان عليه أن يتغيب عن المدرسة بالرغم من أنه كان يحلـف دائمـاً بأنه لم يسرق ذلك المال. تلك كانت المرة التي أدخل فيها السيد تـشامبرز ولده كريس المستشفى ليبيت فيها ليلة. فعندما سمع بأن كريس مُنع مـن المجـيء إلى الصف مدة ثلاثة أيام، كسر أنفه ومعصمه الأيمن. ينتمي كـريس إلى عائلة حقيرة. حسناً، اعتقد الجميع... بمن فيهم كريس نفسه، بأنه سيكون رجلاً سيئاً عندما يكبر. وأشقاؤه حققوا ما كانت تأمله البلدة منهم تماماً. فـشقيقه الأكبر فرانك هرب من المنزل عندما بلغ سنّ السابعة عشرة، والتحق بالبحرية، وانتهى به الأمر إلى قضاء مدة طويلة في سجن بورتسماوث بعد أن أدين بتهمة الإغتصاب والقيام بأعمال إجرامية. وشقيق فيرن الأصغر منه سناً، واســمه ريتشارد (كانت عينه اليمنى تثير الضحك، ولهذا السبب، كان الجميع يلقبونه بأيبول)، ترك المدرسة وهو في الصف العاشر، وصار يتسكع بصحبة تشارلي وبيلي تيسيو والمجرمين الأحداث الآخرين.

قلت لكريس: "أعتقد بأن الخطة ستنجح. لكن ماذا عن جون ومارتي؟" كان جون ومارتي عضوين آخرَين في عصابتنا.

أجاب كريس: "لا يزالان خارج البلدة. وهما لن يعودا قبل الإثنين".

"أوه، هذا أمر مؤسف".

سأل فيرن بشيء من الإرتباك: "إذن، هل نحن جاهزون؟" فهو لم يشأ أن تخرج المحادثة عن إطارها المرسوم ولو لدقيقة واحدة.

قال كريس: "أعتقد بأننا كذلك. من يرغب في لعب الورق؟"

لم يجد أي منا رغبة في ذلك، فقد كنا أكثر إثارة من أن نجلس ونلعب الـورق. لذلك نزلنا سلّم الكوخ، وتسلقنا السياج، ووصلنا إلى العقار الخالي وخـضنا مـباراة في كرة القاعدة لبعض الوقت، ولكننا لم نجد متعة فيها أيـضاً. فكل ما كان في مقدورنا التفكير فيه هو الصبي براور الذي صدمه قطار، وكيف أننا عازمون على رؤيته، أو رؤية ما تبقى منه. وعند الساعة العاشرة تقريباً، عاد كل واحد منّا إلى منزله لإخبار والديه.

وصلت إلى المنزل عند الساعة الحادية عشرة إلاّ ربعاً، بعد أن توقفت في أحد المتاجر لشراء مجلّة. كنت أقوم بذلك بين الحين والآخر لرؤية إن كان يوجد شيء جديد يتعلق بجون دي ماكدونالدز. كان في حوزتي ربع دولار، وقلت في نفسي إذا وجدت المجلة فسأشتريها. ولكنني لم أجد سوى الأعداد القديمة منها، وسبق أن قرأتها عدة مرّات.

عندما وصلت إلى المنزل، وجدت أن السيارة لم تكن في الجوار، وتذكرت أن أمّي ذهبت برفقة صديقاتها لحضور حفل موسيقي في بوسطن. إنها تهوى حضور الحفلات الموسيقية، ولِمَ لا؟ فقد توفي ولدها الوحيد وكان عليها أن تشغل نفسها بشيء لكي تنسى ذلك الحادث. أعتقد بأن في الأمر مرارة، وأعتقد بأنك لو كنت هنا، لفهمت لماذا أشعر على هذا النحو.

رأيت والدي خارج المنزل وهو يروي مزروعاته في حديقته المخرّبة. وإذا لم تستطع استنتاج ذلك من النظر إلى وجهه المتجهم، ففي إمكانك التوصل إلى هذه النتيجة بالنظر إلى الحديقة نفسها. كانت التربة رمادية وخفيفة الحبيبات. كل شيء في الحديقة كان ميتاً باستثناء الذرة التي لم تكن تنمو إلى حدٍّ يجعلها صالحة للأكل. قال والدي بأنه لا يعرف كيف يروي مزروعاته، فهو لم يكن أباً للطبيعة ولا لسواها. كان يكثر من ريّ بقعة معينة لدرجة إغراق النباتات التي فيها. وفي الصف التالي، كانت النباتات تموت من العطش. لم يستطع يوماً أن يتوصل إلى حلّ وسط، ولكنه لم يكن يتحدث عن هذا الأمر كثيراً. فقد فقد ابناً في أبريل/نيسان وفقَد حديقة في أغسطس/آب. إذاً لم يكن يريد التحدث بشأن أي منهما، هذا شأنه. لكن ما يزعجني هو أنه تخلّى عن الكلام عن أي شيء آخر. وفي رأيي، هذه مبالغة في تطبيق الديمقراطية.

قلت له: "مرحباً أبي". ووقفت بجانبه. عرضت عليه المجلة التي اشتريتها من المتجر. قلت له: "هل تريد قراءة هذه المجلة؟"

"أهلاً يا غوردن، كلا شكراً". وبقي يرش الماء على الأرض الرمادية التي لا أمل يرتجى منها.

"هل تمانع إذا قضيت الليلة في الخيمة في فناء دار فيرن برفقة بعض الأصحاب؟"

"أي أصحاب؟"

"فيرن، وتيدي دوشامب، وربما كريس".

توقعت أن يبدأ حديثه عن كريس؛ ويشرح كيف أن كريس رفيق سيئ المعشر، تفاحة عفنة في أسفل الصندوق، لص، ومجرم حدث.

ولكنه تنهّد وقال: "أعتقد بأني لا أرى بأساً في ذلك".

"هذا رائع، شكراً".

إلتفت لكي أدخل المنزل، وأتحقق من البرنامج الذي يُعرض على التلفاز ولكنه أوقفني بالقول: "هل هؤلاء الأشخاص هم الوحيدون الذين ستقضي ليلتك برفقتهم يا غوردن؟"

عدت إلى النظر إليه وأنا على أهبة الإستعداد للدخول في جدال، ولكنه لم يجد رغبة في الجدال في صباح ذلك اليوم. ربما كان الحال سيصبح أفضل لو وجد رغبة في ذلك. كانت كتفاه مترهلتين ووجهه شاحباً فيما كان ينظر إلى حديقته الميتة وليس إليّ. لاحظت أمراً غير طبيعي يلمع في عينيه ربما كان دمعاً.

"يا أبي، إنهم أصحاب طيبون.."

"بالطبع إنهم كذلك. الأول لص، والآخران أحمقان. إنها رفقة جيدة لولدي".

قلت له: "فيرن تيسيو ليس أحمق". لكن كان من الصعب عليّ المجادلة بشأن تيدي.

قال والدي: "إنه في الثانية عشرة من عمره ولا يزال في الصف الخامس. ولقد قضى ذلك الوقت في النوم. وعندما تصل صحيفة الأحد في الصباح، سيحتاج إلى ساعة ونصف لكي يقرأ صفحات التسلية".

أغاظني سماع ذلك لأنني أعتقد بأنه لم يكن منصفاً. كان يحكم على فيرن على غرار حكمه على كافة أصدقائي. كان مخطئاً في حقهم. فعندما يصف كريس بأنه لص، كنت أشعر بحرارة الإحمرار في وجهي لأنه لا يعرف شيئاً عن كريس. أردت أن أقول له ذلك، لكنني عرفت بأنني في حال أغظته فسيبقيني داخل المنزل. في الواقع، لم يكن والدي رجلاً مجنوناً على كل حال، باستثناء المناسبات التي يجلس فيها إلى طاولة العشاء في بعض الأحيان، حيث كان يصيح بصوت عالٍ لدرجة تفقد الجميع شهيتهم لتناول الطعام. لكنه بدا حزيناً ومتعباً ومنهكاً. كان

فـي الثالـثة والستين من عمره، أي أنه كان كبيرا بما يكفي لكي يكون جدّي.

كانـت أمّي في الخامسة والخمسين؛ لكنها ليست صبية أيضاً. عندما اقتـرنت بوالدي، حاولا بناء عائلة على الفور. ولكنها عانت من الإجهاض بعـد أن حملت طفلها الأول. ثم عانت من الإجهاض مرتين بعد ذلك وقال لهـا الطبـيب إنهـا لن تتمكن من إكمال مدة حمل كاملة. عرفت كل هذه المعلومات من مصادرها مباشرة، متى حاول أي منهما إعطائي محاضرة. فقد أرادا منّي الإعتقاد بأنني وصلت إلى هذه الدنيا كهبة من الله، ولكنني لم أكـن أقـدّر حظـي العظـيم لأن أمّي حملت بي عندما بلغت سنّ الثانية والأربعـين. لـم أكن أقدّر حظي العظيم، ولم أكن أقدّر آلامها وتضحياتها الكبيرة أيضاً.

بعد مرور خمس سنين على قول الطبيب بأنها لن تحمل ثانية، حملت بدينـيس. وقد لبث في بطنها مدة ثمانية شهور ثم اضطرت إلى ولادته قبل الأوان. عـندما وُلد، كان وزنه حوالى أربعة كيلوغرامات. واعتاد والدي علـى القـول إنها لو حملت بدينيس مدى الحمل الكاملة، لوصل وزنه إلى ثمانـية كيلوغـرامات. وفي إثر ذلك قال الطبيب: "حسناً، الطبيعة تخدعنا أحياناً، ولكنه سيكون الطفل الوحيد الذي تحملين به. لحمدي الله لأنه رزقكِ بـه، واقنعي بقدرك". وبعد عشر سنين، حملت أمّي بي. وأنا لم أمضِ مدةَ الحمـل كاملة في بطنها وحسب، بل إن الطبيب احتاج إلى عملية جراحية لإخراجـي. هل سبق أن سمعت عن عائلة لعينة مثل هذه؟ كان شقيقي الوحيد يلعب في دوري كرة القاعدة قبل أن أستغني عن استعمال الحفاظات.

بالنسبة إلى أمّي وأبي، هبة واحدة من الله كانت كافية. لا أقول بأنهما عاملانـي بطـريقة سيئة، وهما بالتأكيد لم يكونا يضربانني، ولكنني كنت مفاجـأة كبيرة، وأعتقد بأنك عندما تصبح في سنّ الأربعين لا تعود منصفاً فـي تعاطـيك مع المفاجآت كما كنت وأنت لا تزال في العشرين. بعد أن ولدتني أمي، أجرت العملية التي كانت رفيقاتها يشرن إليها *بالحل المؤقت*. أعـتقد بأنهـا أرادت التأكد بنسبة مائة في المائة من أنها لن تحمل مجدداً. وعـندما دخلـت الكلّية، وجدت بأنني تغلبت على الكثير من التكهنات عدا التكهن بشأن ولادتي... بالرغم من أنني أعتقد بأن والدي ساورته الشكوك عندما رأى صديقي فيرن يخرج من بطن أمّه في غضون عشر دقائق.

هــذا الأمر يتعلق بمعاناة المرء من الإهمال: لم أتأكد من أنني أعاني مــن هــذه المشكلة إلاّ بعد أن قمت بفرض المطالعة في المدرسة الثانوية عـندما قرأت رواية اسمها الرجل الخفي. فعندما وافقت على قراءة الكتاب للآنسة هاردي، اعتقدت بأنه قصة من نوع الخيال العلمي. وعندما تبين لي أنهــا قــصة مختلفة تماماً، حاولت أن أرجعها إلى الآنسة هاردي، ولكنها رفــضت ذلــك. وانتهى بي الأمر إلى الشعور بالسعادة فعلاً. فهذا الرجل الخفــي يتحدث عن رجل أسود لم يكن يلاحظه أحد إلاّ عندما يخلع ثيابه. كان الناس ينظرون من خلاله. وعندما يتحدث، لم يكن أحد يجيبه. إنه أشبه بــشبح أسود. وما إن بدأت بقراءة الكتاب حتى التهمته كما ألتهم ساندويتش الماكدونالدز لأن ذلك القط رالف إليسون كان يكتب عنّي. فعندما نجلس إلى مائــدة العــشاء، كــنت أقول: "ناولوني بعض الزبدة". وكان والدي يقول: "دينـــي، هل أنت واثق من أن الجيش هو المؤسسة التي تنوي بناء مستقبلك فــيها؟" وكنت أقول: "ليناولني أحد منكم الزبدة؟" وكانت أمّي تسأل ديني إن كان يريد منها أن تشتري له كنزه من نوع بيندلتون عند تخفيض الأسعار، وكنت أضطر في النهاية إلى إحضار الزبدة بنفسي. أردت في إحدى الليالي عــندما كنت في التاسعة من عمري أن أعرف ماذا سيحصل فقلت: "أرجو أن تناولوني حبات البطاطا اللعينة تلك". فقالت أمّي: "ديني، اتصلت أونتي غرايس اليوم، وسألت عن أحوالك وأحوال غوردن".

عــشية تخــرّج دينــيس مع مرتبة الشرف من مدرسة كاسل روك الــثانوية، تظاهرت بالمرض ولزمت المنزل. وطلبت من رويس، الشقيق الأكبــر لستيف دارابونت أن يشتري لي زجاجة وايلد آيرش روز وشربت نصفها، وتقيأت ما شربته في منتصف الليل بعد أن رقدت في سريري.

في وضع عائلي مثل هذا، يُفترض بك أحد أمرين، إما أن تكره أخاك الأكبر أو تعشقه بدون حدود؛ أو هذا ما يعلمونك إياه في الفلسفة في الكلية على الأقل. هذا هراء، أليس كذلك؟ لكن على حسب علمي، لم أشعر حيال دينــيس بأي من الأمرين. فنادراً ما كنا نتجادل، ولم يحدث أن تقاتلنا يوماً، لأن ذلــك ســيكون تــصرفاً سخيفاً منّا. فهل يمكنك أن تتصور صبياً في الــرابعة عشرة من عمره يبحث عن شيء لكي يضرب به أخاه البالغ من العمر أربع سنوات؟ كما أن إعجاب والديه به كان أكبر من أن يكلّفاه عبء رعايــة شقيقه الصغير، ولذلك فهو لم يكن يشعر بالإستياء منّي كما يستاء

الكبار من أشقائهم الصغار. وعندما كان يصحبني معه إلى مكان ما، كان يفعل ذلك بإرادة كاملة منه، وكانت تلك أكثر المناسبات التي يمكنني أن أتذكرها سعادة.

"مرحباً يا لوشانس، كيف تجد الأمر؟"

"من الأفضل أن تحفظا لسانكما أنت وأخي الصغير، يا دايفيس، وإلاّ فسأنهال عليكما ضرباً".

وقفا بقربي للحظة طويلة على نحو لا يصدّق.

"مرحباً أيها الصغير. هل هذا الشخص أخوك الكبير؟"

لومأت برأسي خجلاً.

"إنه أخرق فعلاً، أليس كذلك أيها الصغير؟"

لومأت برأسي وكذلك فعل الجميع. ثم صفق ديليس بيديه مرتين بقوة وقال: "تعال معي".

ذهب كل واحد إلى موضعه، وشرعوا في تبادل الكرة فيما بينهم.

"اذهب إلى هناك واجلس على المقعد يا غوردي. والزم الهدوء، ولا تزعج أحداً".

توجهت نحو المقعد، وجلست كما طلب منّي. أنا صبي مؤدب، وأشعر بأنني صغير جداً تحت سحب الصيف الحلوة تلك. جلست أراقب أخي وهو يرمي الكرة ولم أزعج أحداً.

لكنني لم أسعد بالكثير من هذه المناسبات.

كان يقرأ لي في بعض الأحيان قصة لكي أنام، وكنت أعتبرها أروع من القصص التي كانت تقرأها لي أمّي. وكما قلت لك سابقاً، علّمني لعبة الكريبدج وكيف أخلط الأوراق. أعرف أن هذا ليس بالكثير، لكن في هذا العالم، عليك أن تُحصّل ما تستطيع الحصول عليه، أليس كذلك؟

بعد أن كبرت، حلّ محلّ إحساسي بالحبّ تجاه دينيس إحساس بالخوف. وعندما تُوفي، كنت مصدوماً إلى حدٍّ ما وحزيناً بعض الشيء. لكن دعني أشرح لك الأمر بهذه الطريقة. كنت حزيناً لموتديني بقدر حزني لموت دان بلوكر عندما سمعت عبر الراديو بأنه قد مات. كنت أرى هذا بقدر ما كنت أرى ذاك.

دُفن في تابوت مقفل بعد تغطيته بالعلم الأميركي (أخذوا العلم قبل إنزال التابوت في الحفرة ليصل إلى قعرها أخيراً، وقاموا بطيّه –العلم لا

التابوت– وأعطوه لأمّي). أصيب والداي بحالة من الإنهيار، ولم تكن مدة الأربعة شهور التالية كافية لكي يتغلب السيد والسيدة دومبتي على مصابهما. بقيت غرفة أخي على حالها. كانت أعلام البطولات المثلثة الشكل لا تزال معلقة على جدرانه، وكانت صور الفتيات اللواتي كان يخرج معهنّ لا تزال ملصقة بالمرآة حيث كان يقف فترات طويلة تبدو وكأنها ساعات وهو يسرّح شعره مثل تسريحة ألفيس. كانت رزمة مجلات تروز أند سبورتس لا تزال على مكتبه، وبدا تاريخها يزداد قدماً مع توالي الأيام. الأمر يشبه ما نراه في الأفلام العاطفية التي تعلق بالذاكرة. ولكن الأمر لم يكن عاطفياً بالنسبة لي، بل كان فظيعاً. ولذلك، أنا لا أدخل غرفة دينيس ما لم أضطر إلى ذلك لأنني أتوقع دائماً أن أجده خلف الباب، أو تحت السرير، أو داخل الخزانة. وأكثر ما كنت أتخيله هو أن أراه داخل الخزانة. وفي حال أرسلتني أمّي لكي آتي بألبوم البطاقات البريدية الخاص بدينيس، كنت أتخيل أن الباب سيفتح ببطء فيما أقف متجمّداً في مكاني من شدّة الخوف. كنت أتخيله ممتقع الوجه وعليه الكثير من آثار الدماء في الظلام، وقد بدا أثر الإصطدام على صدغه، والدم الجاف على قميصه. كنت أتخيل ذراعيه وهما ترتفعان، ويديه اللتين تنزفان وقد قبضهما مثل مخلبين، وهو يصيح: *كان من المفترض أن تكون أنت يا غوردن. كان من المفترض أن تكون أنت.*

7

ستاد سيتي. بقلم غوردن لوشانس. نُشرت في الأصل على صفحات مجلّة غرينسبان الفصلية. الإصدار رقم 45، خريف العام 1970. تم الإقتباس بعد أخذ الإذن.

مارس/آذار

يقف تشيكو أمام النافذة، واضعاً يداً فوق اليد الأخرى، ومرفقاه على الحافة التي تفصل لوح الزجاج العلوي عن لوح الزجاج السفلي. كان عارياً، وهو ينظر إلى الخارج، وقد بدا أثر نفَسه على الزجاج. كان الجانب الأيمن من لوح الزجاج السفلي مكسوراً، وقد استُبدل بقطعة من الورق المقوى.

تشيكو".

لم يلتفت للنداء. لم تتحدث بعد ذلك. كان في مقدوره أن يرى انعكاس صـورتها علـى اللـوح الزجاجي وهي جالسة في سريره، وقد ارتفعت البطانـيات إلى أعلى فيما يبدو أنه تحدٍّ لقانون الجاذبية. ومساحيق التجميل التي استعملتها لطخت الجلد أسفل عينيها.

نظـر تـشيكو إلى ما وراء انعكاس صورتها خارج المنزل. كانت الـسماء تمطـر، وندف الثلج تذوب لتكشف الأرض العارية أسفلها. رأى العـشب الميت الذي نما في السنة الماضية، ولعبة بلاستيكية -لعبة بيلي- وأداة جـرف صـدئة. ورأى سيارة الدودج التي يملكها شقيقه جوني، وقد أصبحت عجلاتها الفارغة من الهواء مثل الدعامات، وسمع أحدث الأغنيات مـن ترانزسـتور جوني القديم. سنغادر المكان بسرعة يا تشيكو، هذا ما سـيقوله جوني. سنأكل كل شيء على الطريق من غايتس فالز إلى كاسل روك. انتظر إلى أن نحضر لها هيرست شيفتر!

هـناك الطريق السريعة خلف سيارة الدودج، إنها الطريق 14 التي تـصل بين بورتلاند ونيوهامشير في الجنوب، وبين كندا في الشمال. قال تشيكو للوح الزجاجي: "ستاد سيتي". فيما كان يدخن سيجارة.

"ماذا قلت؟"

"لا شيء يا عزيزتي".

"تـشيكو؟" بدا صوتها ينمّ عن الحيرة. عليه أن يستبدل الشراشف قبل أن يعود جوني.

"أنا أسمعك".

"أنا أحبك يا تشيكو".

"لا بأس".

قال تشيكو في نفسه، يا لكِ من عاهرة لعينة، وسخة.

قال فجأة: "إننا في غرفة جوني".

"من؟"

"إنه شقيقي".

"أين هو الآن؟"

قال تشيكو: "إنه في الجيش". ولكن جوني لم يكن في الجيش، بل كان يعمـل في الصيف الماضي في محل أوكسفورد بلاينز سبيدواي. خرجت إحـدى الـسيارات عـن السيطرة، وانزلقت على الطريق في اتجاه حفرة

تـصليح الـسيارات، حيث كان جوني يعمل على تبديل الإطارات الخلفية لـسيارة شـيفروليه. صـاح بعض الأشخاص قائلين انتبه، ولكن جوني لم يسمعهم. أحد الأشخاص الذين صاحوا كان شقيقه تشيكو.

سألته: "ألا تشعر بالبرد؟"

"كلا. حسناً، أشعر بشيء من البرد في قدمي".

فجـأة، قال في نفسه: "حسناً، كل ما حصل لجوني سيحصل لك، إن عـاجلاً أو آجـلاً". تخـيل ما حدث من جديد: إنزلاق سيارة الموستانغ ثم اصـطدامها بجوني. تذكر رؤية القطع المطاطية وهي تتطاير من إطارات الموسـتانغ. اصطدمت السيارة بجوني بالرغم من أنه حاول الوقوف على قدميه. ثم تصاعد اللهب.

حسناً، كان من الممكن أن يقع الحادث بطريقة أبطأ. ولذلك، عاد إلى التفكيـر في جدّه، الروائح التي يشمها الناس في المستشفيات، والممرضات الصغيرات. هل الموت في المستشفى أفضل؟

كـان جـسمه يـرتجف من البرد وهو يفكر. لمس ميداليته الفضية الصغيرة المعلقة في عقد يلتفّ حول عنقه. تشيكو ليس كاثوليكياً، وبالتأكيد لـيس مكسيكياً. اسمه الحقيقي إدوارد ماي، وأصدقاؤه يسمونه تشيكو لأن شعره أسود ولأنه يدهنه بالكريم.

عـاد إلـى التدخـين والنظر من خلال النافذة فيما نهضت الفتاة من السرير وتقدمت نحوه بسرعة، من غير أن تحدث صوتاً، ربما لأنها كانت خائفة من أن يلتفت وينظر إليها.

قالت: "هل تحبني يا تشيكو؟"

قال بطريقة عفوية: "يمكنكِ المراهنة على ذلك".

وقفـا ينظران إلى المطر، وشاهدا سيارة أولدزموبيل حديثة تمر في الشارع 14 وترش الماء على جانبيه.

قال تشيكو: "ستاد سيتي".

"ماذا قلت؟"

"ذاك الشخص، إنه ذاهب إلى ستاد سيتي، في سيارته الحديثة".

"ما الأمر؟"

التفت إليها وقال: "جاين؟"

"أنا أسمعك".

قال: "حسناً، إننا صديقان". وتعمّد النظر إليها، فشعرت بالخجل.

كانت قطرات المطر تحدث أصواتاً عند سقوطها على السقف، والنافذة، ولوح الورق المقوّى الذي وُضع محلّ اللوح الزجاجي المكسور في الجزء الأسفل من النافذة. ضغط بيده على صدره فيما كان يبحث عن لحظة مثل زعيم سيلقي خطبة في مدرج روماني. كانت يده باردة، فأنزلها إلى الأسفل.

قال لها: "افتحي عينيكِ. إننا صديقان".

فتحت عينيها ونظرت إليه. بدت عيناها بنفسجيتين الآن. كانت مياه المطر التي تجري على النافذة تصنع أشكالاً متموجة على وجهها. والصوت الوحيد المسموع هو صوت ساعة التنبيه الموجودة على طاولة فوق مجموعة من مجلات سبايدرمان. قال لها: "علينا أن نذهب، لأن والدي وفيرجينيا سيأتيان في أي لحظة".

نظرت إلى ساعتها، وجلست. أشعل سيجارة في حين توجهت نحو الردهة برشاقة. كانت فتاة طويلة - في الواقع، كانت أكثر طولاً منه - وكان عليها أن تخفض رأسها قليلاً لكي تدخل دورة المياه. وجد تشيكو سرواله أسفل السرير فوضعه في كيس الثياب المتسخة، وأخرج من الخزانة سروالاً نظيفاً. ارتدى ثيابه، ومشى نحو السرير، وكاد أن يسقط بسبب بلل أصاب الأرض لأن الورق المقوّى لم يكن يمنع دخول الماء بالكامل. نظر في الغرفة، التي كانت غرفة جوني إلى حين وفاته (تساءل مع شيء من الإنزعاج لماذا قلتَ لها إنه في الجيش؟) كانت الجدران رقيقة بما يسمح له بسماع صوت والده وصوت فيرجينيا ليلاً. وكانت الأرضية مائلة قليلاً ولذلك كان الباب يبقى مفتوحاً فقط في حال وضعت شيئاً يبقيه مفتوحاً؛ وفي حال نسيت، سيقفل حالما تدير له ظهرك. وعلى الجدار البعيد علِّق ملصق لأحد الأفلام من إيزي رايدر. كانت الغرفة أكثر نشاطاً عندما كان جوني يعيش هنا. وتشيكو لا يعرف كيف كان ذلك أو لماذا، ولكنها الحقيقة. ولكنه يعرف شيئاً آخر، إنه يعرف بأن الغرفة تروّعه في الليل في بعض الأحيان. فهو يعتقد أحياناً بأن باب الخزانة سيُفتح وأن جوني سيقف عنده ويقول بصوت منخفض: اخرج من غرفتي يا تشيكو. وإذا لمست سيارتي الدودج، فسأقتلك. هل تفهم؟

وعندها، كان تشيكو يقول في نفسه، لقد فهمت.

بقي واقفاً للحظة بدون حراك وهو ينظر إلى السرير، فسارع إلى وضع البطانية عليه بخطوة سريعة واحدة. ارتدى سرواله، وأدخل قدميه في الحذاء، وارتدى كنزة. وبدأ يسرّح شعره أمام المرآة وما لبثت أن انضمت إليه. بدت أنيقة. ثم عادت، ونظرت إلى السرير، وأضافت لمساتها إلى البطانية بدلاً من مجرّد وضعها على السرير بدون ترتيب.

قال تشيكو: "هذا عمل جيد".

ضحكت، ورفعت شعرها خلف أذنيها في إيماءة مؤثرة.

قال لها: "لنذهب".

توجها نحو الردهة، وتوقفت جاين أمام صورة فوتوغرافية موضوعة فوق التلفاز لوالده وفيرجينيا، وجوني وهو في سنّ المدرسة الثانوية، وتشيكو وهو في سنّ المدرسة الإعدادية، والرضيع بيلي؛ كان جوني يحمل بيلي في الصورة. ارتسمت على وجوه الجميع ابتسامة جامدة... باستثناء فيرجينيا التي بدا وجهها هدئاً وغامضاً. تذكر تشيكو أن الصورة التُقطت بعد مرور أقل من شهر على زواجه من تلك العاهرة.

"هل هما والداك؟"

أجاب تشيكو: "هذا والدي، وهذه زوجة أبي فيرجينيا. تعالي الآن".

سألته جاين وهي تحمل معطفها، وتعطي تشيكو سترته الجلدية: "هل لا زالت تحتفظ بجمالها؟"

قال تشيكو: "أعتقد بأن أبي يراها جميلة".

خرجا من المنزل، ووقفا تحت السقيفة. كان المكان رطباً وتعصف فيه التيارات الهوائية؛ إذ كان الهواء يتسلل من خلال الشقوق التي بين ألواح جدرانها. كانت هناك مجموعة من الإطارات القديمة، ودرّاجة جوني التي ورثها تشيكو عندما كان في العاشرة من عمره والتي أصبحت في حال يُرثى لها، وكومة من المجلات البوليسية، وزجاجات بيبسي صالحة للإرجاع، ومحرك سيارة، وصندوق مليء بالكتب، ولوحة قديمة لحصان يقف على عشب أخضر.

ساعدها تشكيو على تلمّس طريقها والخروج من تحت السقيفة. كانت سيارة تشكيو ذات الأبواب الأربعة تقف في ممر السيارات. كانت من طراز بويك، وكان لونها باهتاً وبقع الصدأ تنتشر على بدنها. وكان فرش المقعد الأمامي مغطى بلحاف بنّي، وكان يوجد ملصق على حاجب الشمس

فــي المقعد بجانب السائق مكتوب عليه أريده كل يوم. كان المقعد الخلفي متسخاً، وقال في نفسه بأنه سينظفه بعد أن يتوقف المطر، وربما يضعه في سيارة الدودج، وربما لن يفعل ذلك.

أدار المفتاح، وبعد وقت طويل، دار المحرك.

سألته: "هل البطارية سبب ذلك؟"

"إنــه المطــر". تقدم نحو الطريق، وشغّل مساحات الزجاج الأمامي، وتوقف للحظة لينظر إلى المنزل. كان مطلياً بلون أزرق باهت منفر. كانت الــسقيفة بــارزة عــنه في زاوية مزدوجة المفصل ومغطاة بألواح خشبية متداخلة ومشبعة بالقار.

عــلا صــوت الراديو، فأسكته تشيكو على الفور. بدأ يشعر بصداع فترة ما بعد الظهر خلف جبهته. شاهد امرأة في الطريق فلوح لها بيده.

"من هذه؟"

"إنها سالي موريسون".

"إنها سيدة حسناء".

أمــسك بــسيجارة وقال: "لقد تزوجت مرتين وحصلت على الطلاق مرتين".

"تبدو صغيرة السن".

"إنها كذلك".

"هل سبق أن..."

"كــلا، ربمــا شقيقي ولكن ليس أنا، ولكنني معجب بها. لقد حصلت على نفقة الطلاق وهي لا تبالي بما يقوله الناس عنها".

بــدا وكأنها رحلة طويلة بالسيارة. لاحظ أن جاين هادئة وغارقة في التفكيــر، والصوت الوحيد المسموع كان صوت مساحات الزجاج الأمامي للــسيارة، وصوت العجلات عندما تسقط في الحفر المنتشرة على الطريق، ويطلو على إثرها بخار الماء.

عبر أولورن ووصل إلى مينوت أفنيو. بدت الطريق ذات المسارب الأربعــة خالــية تقــريباً، وكانــت المنازل حولها قريبة من بعضها. وفي الطريق، شاهدا صبياً صغيراً يرتدي معطفاً أصفر اللون، وهو يمشي على ممر المشاة، وهو يسعى إلى تجنب الدوس في الحفر.

قال تشيكو: "امشِ يا رجل".

سألته جاين: "ماذا قلت؟"

"لا شيء يا عزيزتي، عودي إلى النوم".

ضحكت من غير أن تتكلم.

انعطف تشيكو نحو ممر السيارات الخاص لبعض المنازل، وأوقف السيارة من غير أن يطفئ محركها.

قالت جاين: "تعال معي وسأطعمك بعض الحلوى".

هزّ رأسه تعبيراً عن الرفض وقال: "عليّ العودة".

"أعرف ذلك". ونظرت إليه وقالت: "أشكرك لأنك جعلت هذا اليوم أسعد أيام حياتي".

ابتسم فجأة، وأشرق وجهه. كان الأمر أشبه بالسحر. "سأراكِ يوم الإثنين يا جاوني جاين. لا زلنا صديقين، أليس كذلك؟"

قالت: "أنت تعرف بأننا لا زلنا كذلك".

نزلت من السيارة بسرعة، وركضت تحت المطر نحو الباب الخلفي لمنزلها، ثم اختفت بعد ثوانٍ. توقف تشيكو لبرهة وجيزة ليشعل سيجارة ثم خرج من الممر. توقف المحرك، وبدا أن بادئ الحركة سيدور إلى الأبد قبل أن يدور المحرك. كانت رحلة العودة إلى المنزل طويلة.

عندما وصل إلى المنزل، وجد أن سيارة والده العائلية متوقفة في الممر. أوقف سيارته بجانبها، وأوقف المحرك. بقي جالساً لفترة داخل السيارة بصمت وهو يصغي إلى صوت المطر. بدا كما لو أنه داخل طبل معدني.

داخل المنزل، كان بيلي يشاهد برنامجاً تلفزيونياً. وعندما دخل تشيكو، قفز بيلي بنشاط وقال: "إيدي، يا إيدي، هل تعرف ما قاله العم بيت؟ قال إنه استطاع مع رفاقه إغراق غواصة ألمانية في الحرب. هل ستصحبني معك إلى العرض يوم السبت القادم؟"

قال تشيكو بابتسامة: "كلا لن أفعل. ربما أغيّر رأيي إذا قبّلتَ حذائي كل ليلة قبل تناول طعام العشاء على مدى أسبوع كامل". وأمسك بشعر بيلي. فصاح بيلي في وجهه وركله برجله.

قال سام ماي وهو يدخل الغرفة: "توقف عن ذلك الآن. توقفا عن ذلك أنتما الإثنان. فأنتما تعرفان كيفية شعور أمكما حيال الأفعال العنيفة في المنزل". أرخى ربطة عنقه، وفكّ زرّ الرقبة في قميصه. كان قد وضع

بعض السجق الأحمر في طبق على الطاولة بعد أن وضعه في الخبز الأبيض، وأضاف القليل من الخردل القديم عليه. "أين كنت يا إيدي؟"

"في منزل جاين".

سُمع صوت مياه المرحاض في دورة المياه. إنها فيرجينيا. تساءل تشيكو لوهلة إن كانت قد سقطت شعرات من رأس جاين في المغسلة، أو ما إذا تركت أحمر الشفاه أو دبوس شعر.

قال والده: "كان يجدر بك المجيء معنا لزيارة عمك بيت وخالتك آن". تناول طعامه في ثلاث لقم سريعة. "أنت تتصرف كما لو كنت شخصاً غريباً يا إيدي، وأنا أكره ذلك. فلا يحق لك ذلك طالما أننا نوفر لك المنامة والطعام".

قال تشيكو: "قليل من المنامة وقليل من الطعام".

رفع سام رأسه بسرعة بعد أن تملكه الشعور بالإهانة أولاً، ثم بالغضب. عندما يتكلم، يمكن لتشيكو أن يرى أسنانه التي اصفر لونها بسبب الخردل. شعر بالإشمئزاز على نحو غامض. "أنت لم تكبر بعد".

هز تشيكو كتفيه استخفافاً، وأمسك بقطعة خبز، ووضع عليها الكاتشاب، وقال: "سأغادر المنزل في غضون ثلاثة شهور على كل حال".

"ما هذا الذي تتكلم عنه؟"

"سأصلح سيارة جوني، وأرحل إلى كاليفورنيا، وأبحث عن عمل هناك".

"حقاً؟" إنه رجل كبير، ولكن تشيكو يعتقد بأنه أصبح أصغر سناً الآن بعد أن تزوج من فيرجينيا، وأصغر أيضاً بعد أن تُوفي جوني. تخيل نفسه وهو يقول لجاين: ربما شقيقي ولكن ليس أنا. "لن تتمكن من الذهاب بتلك السيارة إلى أبعد من كاسل روك، فما بالك بكاليفورنيا".

"هل تظن ذلك فعلاً؟ راقبني وأنا أزيل الغبار عنها".

بقي والده ينظر إليه للحظة، ثم رماه باللقمة التي كانت في يده، فأصابت تشيكو في صدره، ونشرتْ الخردل على كنزته وعلى الكرسي.

"أعد هذا الكلام ثانية، وسأحطم أنفك أيها الأحمق".

التقط تشيكو اللقمة، ونظر إليها. لقمة حمراء قذرة، يعلوها الخردل. رمى تشيكو اللقمة على والده، فنهض سام وقد احمرّ وجهه، وانتفخت أوداجه. علقت رجله بشريط التلفاز، فوقع على الأرض. كان بيلي ينظر

إلـيهما وهو واقف في ممر المطبخ. كان قد أحضر لنفسه طبقاً من السجق والـبازيلاء، ولكـن الطبق مال وانسكبت الصلصة على الأرضية. اتسعت عينا بيلي، وارتجفت شفتاه.

قـال له والده: "أنت توفر لهم أفضل تربية، وبعد أن يكبروا، يردّون الجميل بالبصاق عليك. هكذا تسير الأمور". ثم هوى على كرسيه، وأخرج مـن فمه لقمة لم يستطع ابتلاعها، ووضعها في قبضة يده. الأمر الذي لا يـصدق هـو أنه عاد وأكلها. وفي نفس الوقت، رأى تشيكو أن والده بدأ بالبكاء. بعد *أن يكبروا، يردّون الجميل بالبصاق عليك. هكذا تسير الأمور.*

"إذن، لماذا تزوجت منها؟" لو أنك لم تتزوج منها لكان جوني لا يزال حياً الآن.

صاح سام ماي وهو يبكي: "هذا ليس من شأنك، إنه شأني".

صـاح تشيكو: "حقاً؟ هل الأمر كذلك؟ علينا فقط أن نعيش معها، أنا وبيلي، علينا أن نعيش معها. راقبها وهي تدمّرك وأنت لا تدري".

قـال والده بعد أن انخفض صوته فجأة على نحو ينذر بالشرّ: "ماذا تقـول؟" تحـولت اللقمـة التـي كانت في قبضة يده إلى قطعة من العظم الأحمر: "ما هو الأمر الذي تعرفه أنت ولا أعرفه أنا؟"

قال: "أنت لا تعرف شيئاً".

قال له والده: "عليك أن تتوقف عن هذا الكلام الآن وإلاّ فسوف أنهال علـيك ضـرباً يا تشيكو". عندما يتلفظ باسمه، فهذا يعني أنه غاضب أشدّ الغضب.

الـتفت تـشيكو، ورأى فيرجينيا واقفة في الجانب الآخر من الغرفة وهـي تسوّي تنورتها، وتنظر إليه بعينين بنّيتين واسعتين وهادئتين. كانت عيـناها جميلتـين، لكن كل ما عدا ذلك لم يكن بمثل جمالهما. شعر تشيكو بكراهيته لها.

أخيـراً، بـدا كل هذا الصراخ عبئاً لم يعد في استطاعة بيلي تحمّله، فألقـى طـبق الـسجق والبازيلاء، وغطى وجهه بيديه. تناثرت محتويات الطبق على حذائه وعلى البساط.

تقدم سام خطوة إلى الأمام ثم توقف عندما أومأ تشيكو إيماءة غليظة كمـا لو كان يريد أن يقول: أجل، تقدم، دعنا ننهي المسألة، لماذا انتظرت كـل هـذا الوقت؟ بقيا واقفين مثل تمثالين إلى أن نطقت فيرجينيا، بصوت

مـــنخفض، وهادئ مثل عينيها البنيتين: "هل اصطحبتَ فتاة إلى غرفتك يا إيـــد؟ أنـــت تعرف كيف أشعر أنا ووالدك حيال هذا العمل". ثم استدركت قائلة: "لقد نسيَت منديلها".

حدّق بها وهو عاجز عن التعبير عن حقيقة شعوره حيالها، كيف أنها قذرة، وتطعن في الظهر، وكيف أنها تتسلل من وراء أوتار باطن ركبتيك.

قالت عيناها البنّيتان الهادئتان، يمكنك أذيّتي إذا أحببت. أنا أعرف ما الـــذي كان يجري قبل أن يموت، ولكن هناك طريقة واحدة لكي تتمكن من إيذائـــي، أليس كذلك يا تشيكو؟ وعندها فقط يمكن لأبيك أن يصدقك. وإذا صدقك، فسيخرّ ميتاً.

إنـــضمّ والـــده إلى هذا الحوار مثل الدبّ وقال: "هل كنت تعبث في منزلي أيها السافل الصغير؟"

قالـــت فيـــرجينيا بهدوء: "انتبه إلى التعابير التي تستخدمها رجاء يا سام".

"هـــل هذا هو سبب عدم رغبتك في الذهاب معنا؟ لكي تتمكن من.. لكي تتمكن من.."

أجـــاب تـــشيكو: "قلها. لا تدعها تقولها نيابة عنك. قلها، قل ما تريد قوله".

قال: "اخرج من هنا. ولا تعد إلاّ بعد أن تعتذر إلى أمك وإليّ".

صـــاح تشيكو: "إياك، إياك أن تصف هذه العاهرة بأنها أمّي. سأقتلك إذا قلت ذلك".

صـــاح بيلـــي: "توقف يا إيدي". خرجت تلك الكلمات مكتومة بيديه اللتـــين كانـــتا لا تزال تغطيان وجهه: "توقف عن الصراخ في وجه أبي. توقف أرجوك".

لـــم تتحـــرك فيرجينيا خطوة واحدة بعيداً عن الباب، وظلت عيناها الهادئتان تركزان على تشيكو.

تـــراجع ســـام خطوة إلى الوراء، وجثا على ركبتيه، واصطدم بحافة كرســـيه. ثم جلس على الكرسي، ووضع وجهه على ذراعه التي يكسوها الشعر، وقال: "لا أستطيع حتى أن أنظر إليك، وأنت تتلفظ بهذه الكلمات يا إيدي. أنت تجعلني أشعر بحزن شديد".

"هي التي تجعلك تشعر بالحزن الشديد. لِمَ لا تعترف بذلك؟"

بقي صامتاً من غير أن ينظر إلى تشيكو. تحسس قطعة السجق الأخرى الملفوفة بالخبز في الطبق، وتحسس الطاولة بحثاً عن الخردل. ولجهش بيلي بالبكاء.

قالت فيرجينيا بنبرة لطيفة: "الصبي لا يعرف معنى ما يقوله يا سام. فالأمر صعب عليه وهو في هذه السن".

مسحت الدموع عن عينيه، وانتهى الأمر. حسناً.

التفت، وتوجه نحو الباب الذي يؤدي إلى السقيفة أولاً ثم إلى الخارج. فتح الباب، ثم نظر إلى فيرجينيا. ردت عليه بنظرة هادئة عندما تلفظ باسمها.

"ما الأمر يا إيد؟"

"الشراشف متسخة".

اعتقد بأنه رأى بريقاً في عينيها، لكن ذلك ما كان يتمناه على الأرجح. "اذهب الآن أرجوك يا إيد، فأنت تخيف بيلي".

غادر المنزل. لكن محرك البويك أبى أن يعمل. فكّر في الذهاب مشياً تحت المطر، ولكن المحرك عمل أخيراً. أشعل سيجارة، وتوجه نحو الطريق 14. أخيراً وصل إلى الطريق التي تصل إلى غايتس فول. ألقى نظرة أخيرة على سيارة الدودج التي كانت لأخيه جوني، ثم واصل سيره.

كان من الممكن أن يعمل جوني في وظيفة ثابتة في مؤسسة غيتس ميلز أند ويفينغ، ولكن في الدوام الليلي فقط. قال لتشيكو بأنه لا يمانع العمل ليلاً، ولأن الراتب أفضل من الراتب الذي يُدفع في شركة بلاينز. لكن ما يعنيه عمل والده في النهار وعمله في الليل أنه (جوني) سيمكث في المنزل معها، لوحده أو مع تشيكو في الغرفة المجاورة... علماً بأن الجدران رقيقة. *قال جوني، لا يمكنني التوقف وهي لن تسمح لي بالمحاولة. أجل، أنا أعرف ما الذي سيسببه ذلك له. ولكنها... ولكنها لم تكن للتوقف عن التطفل عليّ، وأنت تعرف ماذا أقصد، فقد رأيتَها. صحيح أن بيلي أصغر من أن يفهم، ولكنك رأيتها...*

أجل، لقد رآها. ذهب جوني لكي يعمل في شركة بلاينز، وقال لوالده بأن ذلك سيمكنه من الحصول على قطع غيار لسيارة الدودج بسعر مخفض. وهكذا وقع الحادث عندما كان يستبدل إطار إحدى السيارات عندما انزلقت سيارة الموستانغ واصطدمت به. وبذلك تكون زوجة أبيه قد قتلت شقيقه. تذكّر

كيف أنه رأى جوني يطير من المكان الذي يعمل فيه عندما صدمته سيارة الموستانغ، وعصرته بينها وبين سيارة الشيفروليه، وكيف اشتعلت فيهما النيران بعد ذلك، وتذكر رائحة البنزين القوية التي كانت تفوح في المكان...

ضغط تشيكو على المكابح بكلتا قدميه، أوقف سيارته ذات الأبواب الأربعة على جانب الطريق المبتلّة. انحنى على المقعد، وفتح باب السيارة الأيمن، وتقيأ على الوحل والثلج. لكن هذا المنظر حمله على التقيؤ مجدداً. ثم عاد فجلس. مرّت سيارة مسرعة بجانبه، كانت سيارة فورد حديثة بيضاء اللون، فألقت سيلاً من الماء الوسخ والوحل على سيارته.

قال تشيكو: "ستاد سيتي". تذوّق طعم القيء العالق على شفتيه وفي حلقه. لم يجد رغبة في تدخين سيجارة. سيفكر دائماً في الأمر كله، وفي الغد، سيتوفر ما يكفي من الوقت لاتخاذ مزيد من القرارات. عاد إلى الطريق 14 وانطلق مسرعاً.

8

إنها ميلودراما مؤثرة، أليس كذلك؟

شهد العالم قصة واحدة أو اثنتين أفضل من هذه، أنا أعرف ذلك؛ بل مائة ألف أو مائتي ألف قصة أفضل من هذه. ومن الأفضل أن تُكتب عبارة نتاج ورشة عمل كتابة للطلبة الجامعيين على كل صفحة منها... لأن هذا هو الوصف الدقيق لها، لدرجة معينة على الأقل. تبدو أنها مستخرَج مؤلم ومستخرج جامعي بالنسبة لي في الوقت الحالي. فالأسلوب مشابه لأسلوب همينغواي، والفكرة مشابهة لأفكار فولكنير. هل يمكن أن يوجد شيء أكثر جدّية؟ وحتى الإدعاءات التي فيها لا يمكن أن تخفي حقيقة أنها قصة فاضحة إلى حدٍّ بعيد كتبها شاب يفتقر إلى الخبرة إلى حدٍّ بعيد (عندما كتبتُ قصة ستاد سيتي، كنت في السرير بين فتاتين حيث قذفت على إحداهما في وقت مبكر؛ على نحو لا يشبه ما فعله تشيكو في القصة السابقة). إنه ميل تجاه النساء يتجاوز العدائية لدرجة أنه يكاد يصل إلى التقزز؛ اثنتان من النساء في "ستاد سيتي" عاهرتان، والثالثة فتاة بسيطة تقول عبارات مثل "أنا أحبك يا تشيكو"، و"تعال، أريد أن أقدم لك بعض الحلوى". ومن ناحية أخرى، كان تشيكو بطلاً يتباهى برجولته بالتدخين. إنه عمل قام به شاب يفتقر إلى الأمن بقدر ما يفتقر إلى الخبرة.

بالرغم مما تقدم، كانت أول قصة أكتبها وأشعر بأنها قصتي؛ القصة الأولــى التــي شعرت بأنها مكتملة، بعد خمس سنوات من المحاولة. إنها القــصة الأولــى التي ربما لا تزال صالحة للنشر، حتى بعد التخلص من بعــض المشاهد التي فيها. قصة بشعة ولكنها حيّة. وحتى عندما أقرأها في هذه الأيام، أجد نفسي أتبسّم، لأنه في إمكاني رؤية الوجه الحقيقي لغوردن لوشانس وهو يتربص خلف خطوط الطباعة، غوردن لوشانس الأصغر سناً من الشخص الذي يعيش ويكتب الآن، شخص أكثر مثالية بالتأكيد من أعظم روائــي يفضل أن يراجع عقوده على أن يراجع كتبه، ولكن ليس صغيراً مثل ذلك الشخص الذي ذهب مع رفاقه في ذلك اليوم لرؤية جثة طفل ميت اســمه راي براور. إنه شخص مثل غوردن لوشانس في منتصف المسافة في عملية فقدان البريق.

كلا، لا يمكن اعتبارها قصة في غاية الروعة، فلقد كان مؤلفها كثير الإنــشغال بالإستماع إلى الأصوات الأخرى لدرجة أنه لم يسمع الأصوات التي تصدر من الداخل. ولكنها كانت المرة الأولى التي أستخدم فيها المكان الذي أعرفه والأشياء التي أشعر بها في قطعة من الخيال. وهناك نوع من النــشوة المــريعة في رؤية الأشياء التي ظلت تؤرقني لعدة سنوات وهي تعــاود الظهور في شكل جديد، شكل تمكنت من فرض سيطرتي عليه. لقد مــرّت سنوات منذ أن خطرت ببالي تلك الفكرة الصبيانية التي تحكي عن وجود شخص اسمه ديني في الخزانة التي في غرفته، لدرجة أنني اعتقدت بــصدق بأنــي نسيتها. لكنها لا تزال موجودة في "ستاد سيتي"، ولم يطرأ عليها سوى تغيير طفيف... ولكنها تحت السيطرة.

قاومتُ الرغبة في إدخال تغييرات كبيرة عليها، أو إعادة كتابتها بنية اختصارها؛ كانت رغبة قوية فعلاً لأنني أجد القصة محرجة الآن. لكن لا تزال توجد فيها لمحات تعجبني، وأشياء سيضعف سحرها بالتغييرات التي يفكر في إدخالها لانشاس بعد أن كبر سنّه، وغزا الشيب مفرقه. إنها أشياء مــثل صورة الظلال على كنزة جوني البيضاء أو تموجات قطرات المطر على جسده، والتي أجد من الأفضل أن تبقى كما هي.

كمــا أنهــا القصة الأولى التي لم أتحدث فيها عن أمّي وأبي. فهناك الكثير من الحديث عن ديني فيها، والكثير عن كاسل روك. والأهم من ذلك كله هو أن فيها الكثير من الحياة التي كانت سائدة في العام 1960.

كانــت غرفتــي في الطابق الثاني، ولا بدّ وأن درجة الحرارة بلغت تــسعين درجــة فهــرنهايت على الأقل، وبلغت مائة وعشر درجات بعد الظهر، حتى بعد أن فتحت كافة النوافذ. شعرت بالسعادة فعلاً لأنني لم أنم فــي تلك الليلة، لأن فكرة الذهاب إلى المكان الذي عزمنا على الذهاب إليه جعلتني متشوقاً. قمت بلفّ بطانيتين وربطهما باستخدام حزام قديم. وجمعت كــل مــا كان في حوزتي من مال ووجدت أن المبلغ يساوي ستة وثمانين سنتاً. عندئذٍ شعرت بأنني جاهز للذهاب.

نزلتُ السلّم الخلفي لأتجنب الإلتقاء بوالدي أمام المنزل، لكن لم يكن هــناك داعٍ للقلــق، فقد كان لا يزال يسقي الحديقة بمرشة المياه، ويصنع أقواس قزح لا فائدة منها في الهواء لكي يستمتع بمشاهدتها.

مــشيت في الطريق سومر، ومررت في عقار خالٍ إلى أن وصلت إلــى كاربــاين؛ حــيث توجد مكاتب كاسل روك كال اليوم. ومن هناك، تــوجهت إلى العلية. وفي الطريق توقفت سيارة وخرج منها كريس. كان يحمــل حقيبة الكشافة القديمة في يد وبطانيتين ملفوفتين ومربوطتين بحزام رداء الحمام، في اليد الأخرى.

قــال: "شــكراً لــك يا سيد". وأسرع لملاقاتي فيما واصلت السيارة سيرها. كانت قارورة المياه تتدلّى من عنقه وأسفل ذراعه، وكانت تصطدم بوركه وهو يعدو. وكانت عيناه تلمعان.

"غوردي، هل ترغب في رؤية الشيء الذي أحمله معي؟"

"بالتأكيد. ما هو هذا الشيء؟"

"تعــال معــي أولاً". وأشــار إلى حيّز ضيّق بين مطعم بوينت داينر وصيدلية كاسل روك.

"ما الأمر يا كريس؟"

"قلت لك تعال معي".

ركــض في الزقاق، وبعد لحظة وجيزة ركضت خلفه. كان المبنيان علــى خطــين يلتقيان بدلاً من أن يكونا على خطين متوازيين، ولذلك كان الــزقاق يقــل اتساعاً كلما سرنا إلى الأمام. مشينا بين أكوام من الصحف القديمة التافهة، ومشينا فوق أكوام من زجاجات الجعة والمشروبات الغازية

الفارغـــة. تجـــاوز كريس البلو بوينت ووضع بطانيته على الأرض. كان يوجد ثماني أو تسع علب في المكان وكانت رائحتها تثير الإشمئزاز.

"تمهّل يا كريس، أعطني فرصة".

قال كريس على سجيته: "أعطني يدك".

"كلا، أنا صادق في ما أقول، أنا على وشك أن.."

تقطعت الكلمات في فمي، ونسيت أمر رائحة النفايات الكريهة. وضع كـريس حقيبته على الأرض، وفتحها وأدخل يده فيها. والآن ظهر في يده مسدس ضخم مع قبضة خشبية قوية.

سألني كريس مبتسماً: "هل تريد أن تكون لون رانيجر أم سيسكو كيد؟"

"من أين حصلت على هذا الشيء؟"

"لقد أخذته خلسة من مكتب أبي. إنه من عيار خمسة وأربعين".

قلـت: "أجـل، يمكنني استنتاج ذلك". بالرغم من أنه من الممكن أن يكـون عياره 0.38 أو 0.357؛ علماً بأن المسدس الوحيد الذي رأيته في كافة مجلات جون دي ماكدونلدز وإيد ماكباينز عن قرب هو المسدس الذي يحملـه الـشرطي بانــرمان... ومع أن كافة الأطفال طلبوا منه أن يخرج مـسدسه من قِرابه، إلاّ أن بانرمان لم يوافق على ذلك. "يا رجل، سيشبعك أبوك ضرباً عندما يكتشف الأمر. وأنت تقول بأن فيه مسحة من القسوة".

رقـصت عينـاه، وقـال: "لن يكتشف شيئاً. فهو مستلقٍ هو ورفاقه في هاريـسون بين ست أو ثماني زجاجات من الشراب، ولن يعودوا قبل أسبوع". وضـم شفتيه. كان الشخص الوحيد في عصابتنا الذي لا يشرب الشراب أبداً، حتـى وإن تظاهر بالعكس. قال إنه لا يريد أن يكبر ويصبح سكيراً مثل أبيه. أسرّ لي مرّة -حدث ذلك بعد أن أحضر التوأمان ديسباين صندوقاً من الشراب بعـد أن اختلساه من والدهما وبدأ الجميع بإغاظة كريس لأنه رفض أن يشرب معهـم- بأنـه يخاف من الشرب. وقال إن والده لم يعد يستطيع إبعاد فمه عن الـزجاجة بعـد الآن، وأن شقيقه الأكبر كان ثملاً عندما اغتصب تلك الفتاة. وسألني عن فرص إبعاد الزجاجة عن فمه بعد أن يضعها فيه. ربما تعتقد بأن الأمر مسل، صبي يبلغ من العمر اثني عشر عاماً يرى أنه ربما يصبح مدمناً علـى الكحـول. لكن الأمر غير مسلّ بالنسبة إلى كريس، لم يكن مسلّياً على الإطلاق. كان يفكر في ذلك الإحتمال كثيراً.

"هل أحضرت بعض الطلقات؟"

"أحـــضرت تسع طلقات؛ وهي كل ما كان موجوداً في العلبة. سيعتقد والدي بأنه استعملها في إطلاق النار على العلب الفارغة وهو ثمل".

"هل المسدس ملقم؟"

"كلا، هل تظن أنني مخبول؟"

أمـــسكت بالمـــسدس أخيراً. أعجبني الإحساس بثقل وزنه في يدي. تخيلت أنني ستيف كارلا من الفرقة السابعة والثمانين الذي يلاحق هيكلر أو يؤمن التغطية للعمدة أو لكلينغ أثناء اقتحامهما شقة أحد المجرمين. تنهّدتُ، وضغطتُ على الزناد.

ارتدّ المسدس في يدي، وخرج لسان من النار من فوهته. شعرت أن معصمي قد كُسر وأن قلبي قفز إلى فمي، وعلق هناك، وهو يرتجف. ظهر ثقـــب كبيـــر فـــي السطح المعدني المتموّج لمستوعب النفايات؛ كان عملاً إجرامياً حقيراً.

صرخت: "يا الله".

بـــدأ كريس بالضحك كالمجانين؛ في متعة حقيقية أو رعب هستيري. "لقد قمتَ بذلك، لقد فعلت ذلك. يا غوردي لقد قمت بذلك". ثم صرخ قائلاً: "أيها الناس، إن غوردي لوشانس يطلق النار على كاسل روك".

صرخت، وأمسكت بقميصه وقلت: "اخرس، لنغادر هذا المكان".

فـــيما كـــنا نـــركض، فُتح الباب الخلفي للبلو بوينت، وخرجت منه فرانـــسين توبر برداء النادلة الحريري الأبيض وقالت: "من فعل ذلك؟ من الذي يطلق الرصاص في هذا المكان؟"

ركضنا كالمجانين، وتجاوزنا الصيدلية والإمبوريوم غالوريوم، وهو متجـــر يبـــيع التحف وقطع الخردة والكتب رخيصة الثمن. تسلّقنا السياج، ووصلنا أخيراً إلى شارع كوران. ألقيت المسدس في اتجاه كريس فيما كنا نـــركض. كان غارقاً في الضحك، ولكنه التقط المسدس، وتمكن بطريقة ما من وضعه على وسطه. وبعد أن وصلنا إلى شارع كارباين، أكملنا سيرنا مشياً لكي لا نثير الشبهات. كان كريس لا يزال يضحك كالأبله.

"يا رجل، لو رأيت وجهها. يا رجل، كان مشهداً لا يُنسى. كان الأمر متعة حقيقية". هزّ رأسه، وانفجر بالضحك.

"كـــنتَ تعرف بأنه ملقّم، أليس كذلك؟ أيها الأبله، أنا في مشكلة الآن. فقد رأتني".

"هـذا هـراء، لقـد اعـتقدتْ بأنه صوت مفرقعة نارية. كما أنها لا تـستطيع أن تـرى شيئاً أبعد من أنفها، وأنت تعرف ذلك. فهي تعتقد بأن وضع النظارة سيشوّه وجهها الجميل". ثم عاد إلى الضحك ثانية.

"حسناً، أنا لا آبه لما حصل. كانت تلك خدعة حقيرة منك يا كريس، كانت خدعة حقيرة فعلاً".

وضع يده على كتفي وقال: "هيا يا غوردن، أنا لم أعرف أن المسدس كـان ملقّماً. أقسم بالله بأني وضعته في يدك على الحال الذي كان عليه في مكـتب أبـي. وهـو يحرص على إفراغ الطلقة التي في بيت النار دائماً. ولذلك لا بدّ وأنه كان غارقاً في السكر عندما وضع المسدس في مكتبه آخر مرّة".

"أتريد أن تقول بأنك لم تلقّم المسدس؟"

"كلا سيدي".

"أتقسم بالله على ذلك؟"

"أقسم بالله على ذلك".

لكنـنا عـندما عدنا إلى العقار الخالي حيث توجد عليّتنا، رأينا فيرن وتيدي جالسَين على بطانيلتهما في انتظار مجيئنا؛ عندئذٍ بدأ بالضحك ثانية. قصّ عليهم القصة كلها. وبعد أن فرغ الجميع من الضحك، سأله تيدي عن سبب اعتقاده بأنهم بحاجة إلى مسدس.

أجـاب كريس: "لا يوجد سبب باستثناء أننا قد نواجه دبّاً أو شيئاً من هذا القبيل. وإلى جانب ذلك، من المخيف النوم ليلياً في الغابة".

أومأ الجميع برؤوسهم عند سماعهم ذلك. كان كريس الشخص الأكبر والأقوى في عصابتنا وكان في مقدوره التملّص دائماً بذكر حجج مثل هذه. ومن ناحية أخرى، كان تيدي سينهار حتى وإن ألمح إلى خوفه من الظلام.

سأل تيدي: "هل نصبت خيمتك في الحديقة يا فيرن؟"

"أجـل، وأضـأت فـيها مصباحين لكي نبدو وكأننا فيها عندما يهبط الليل".

قلـت: "هذا تصرّف ذكي". وربتُّ على ظهر فيرن. بالنسبة إليه، هذا يعني أنه يفكر، ولذلك ابتسم واحمرّ خجلاً.

قال تيدي: "لنذهب إذن. هيا، فالساعة بلغت الثانية عشرة أصلاً".

نهض كريس وتجمّعنا حوله.

قـــال: "سنمشي في حقل بيمان، ونواصل سيرنا خلف متجر تيكساكو الــذي يبيع الأثاث. ثم نتوجه إلى سكة الحديد، ونكمل سيرنا عليها إلى أن نصل إلى هارلو".

سأله تيدي: "كم تبلغ تلك المسافة؟"

هزّ كريس كتفيه استخفافاً وقال: "هارلو بلدة كبيرة، وسنسير مسافة لا تقل عن ثلاثين كيلومتراً. هل يوجد لديك مانع يا غوردي؟"

"أجل، ربما كانت المسافة خمسة وأربعين كيلومتراً".

"حتـــى وإن كانـــت كذلك، سنصل إلى المكان غداً بعد الظهر، إذا لم يعترِ الجبن أياً منّا".

قال تيدي على الفور: "لا يوجد جبناء بيننا".

نظرنا كل واحد منّا إلى الآخر للحظة.

قال فيرن: "مياو". وضحكنا جميعاً.

قال كريس: "هيا بنا يا رفاق". ووضع حقيبته على ظهره.

مشينا في العقار الخالي معاً، وكان كريس يتقدمنا ببضع خطوات.

10

بعـــد أن عبـــرنا حقـــل بـــيمان، وتسلّقنا التلّ الملتهب، ووصلنا إلى الطـــريقين غريت ساوثرن ووسترن ماين، خلعنا قمصاننا وربطناها حول خـــصورنا. كنا نتصبب عرقاً. وبعد أن وصلنا إلى أعلى التلّ، نظرنا إلى الطريقين اللتين ننوي التوجّه إليهما.

لـــا لـــن أنسى تلك اللحظة، مهما تقدم بي العمر. فقد كنت الشخص الوحـــيد الـــذي يضع ساعة في يده؛ ساعة تايمكس رخيصة الثمن حصلت عليها كمكافأة لأنني بعت كلوفرين براند سلايف في السنة التي قبلها. كانت عقاربها تشير إلى وقت الظهيرة، وكانت الشمس تسطع على المجاز الجاف الخالـــي مـــن الظلال أمامنا بحرارتها الملتهبة. كان في مقدورك الإحساس بأثر حرارة الشمس تحت جمجمتك وهي تقلي دماغك.

امـــتدت خلفـــنا كاسل روك على امتداد التل الذي يُعرف بكاسل فيو والـــذي يحيط بها بمناظره الخضراء وأرضه المشاع. وأسفل النهر كاسل، بمكنك أن ترى طاحونة غزل الصوف وهي تنفث دخانها في السماء بلون الحديد وترمي مخلفاتها في المياه. كان جولي فورنتشر بارن على يسارنا،

وأمامنا كانت سكة الحديد وهي تلمع تحت أشعة الشمس. كانت تسير بموازاة نهر كاسل الذي يجري على يسارنا. وعن يميننا كان يوجد عقار مليء بالأشجار الخفيضة (أصبح طريقاً للدراجات النارية اليوم؛ حيث يتجمع السائقون كل يوم أحد عند الساعة الثانية من بعد الظهر). وأمامنا، لنتصب برج مائي مهجور في الأفق بمنظره الصدئ والمخيف إلى حدٍّ ما.

وقفنا هناك للحظة، ثم قال كريس بتبرّم: "هيا بنا، ولنواصل سيرنا".

مشينا بجانب سكة الحديد على الأرض الرمادية، وكنا نثير الغبار خلفنا مع كل خطوة نخطوها. وسرعان ما اتسخت أحذيتنا الرياضية وجواربنا من أثر الغبار. بدأ فيرن بالغناء، ولكنه سرعان ما توقف، الأمر الذي كان بمثابة استراحة لآذاننا. كان تيدي وكريس الوحيدين اللذَين أحضرا معهما قينة ماء، وكنا نلحّ عليهما بشدة لكي نروي ظمأنا.

قلت: "يمكننا إعادة ملء القنينتين من صنبور البئر. فقد قال لي أبي بأن مياه البئر صالحة للشرب، وهو بعمق ستين متراً".

قال كريس، الذي كان يلعب دور قائد الفصيلة القاسي: "حسناً، سيكون مكاناً جيداً لنستريح فيه مدة خمس دقائق على كل حال".

سأل تيدي فجأة: "وماذا عن الطعام. أراهن بأن أحداً لم يحضر معه طعاماً نأكله. وأنا لم أحضر شيئاً معي".

توقف كريس وقال: "اللعنة، أنا لم أحضر طعاماً أيضاً. وماذا عنك يا غوردي؟"

حركت رأسي يمنة ويسرة تعبيراً عن النفي، متسائلاً كيف يمكن أن أكون على هذا القدر من الغباء.

"وأنت يا فيرن؟"

أجاب فيرن: "أنا آسف".

قلت: "حسناً، دعونا نحصي المال الذي في حوزتنا". نزعت قميصي الذي كان يحيط بخصري، ووضعته على الأرض، وأفرغت مبلغ ست وثمانين سنتاً عليه. لمعت القطع المعدنية بفعل أشعة الشمس. وألقى كريس دولاراً بالياً وسنتين. وألقى تيدي قطعتين من فئة ربع دولار وقطعتين من فئة خمسة سنتات، وألقى فيرن سبعة سنتات.

قلت لدينا دولاران وسبعة وثلاثين سنتاً. إنه مبلغ لا بأس به. يوجد متجر عند نهاية تلك الطريق التي تؤدي إلى البئر. ويتعين على أحدنا

الذهاب إليه وشراء بعض ساندويتشات الهامبرغر والمشروبات الغازية فيما يستريح الآخرون".

سأل فيرن: "من الذي سيذهب؟"

"سنبحث في الأمر عندما نصل إلى البئر. هيا بنا".

وضعت النقود في جيب سروالي، ووضعت قميصي على خصري ثانية وفجأة صاح كريس: "القطار".

وضعت يدي على السكة لكي أشعر بحركة القطار، بالرغم من أنني لم أستطع سماع صوته. كانت السكة تهتزّ بعنف. وتخيلت للحظة أنني أمسك القطار بيدي.

صاح فيرن: "لنصطف بجانب الطريق". وقفز نحو الجانب الآخر بخطوة مجنون واحدة. كان فيرن مجنوناً بقفزه على الحصى. لحق به كريس. وفي هذا الوقت، بدا صوت القطار مسموعاً الآن، واعتقدت بأنه سيمرّ بقربنا متجهاً نحو ليويستون. وبدلاً من القفز، استدار تيدي نحو الإتجاه الذي كان القطار قادماً منه. لمعت نظارته تحت أشعة الشمس، وانسدل شعره الطويل فوق جبهته في خيوط مشبعة بالعرق.

قلت له: "تحرك يا تيدي".

"كلا، ولكنني سأتفاداه". نظر إليّ، فرأيت عينيه المكبّرتين تتوهجان بالإثارة. قال: "سأراوغ القطار، هل تفهم؟"

"أنت مجنون، هل تريد أن تلقى حتفك؟"

قفز تيدي على عارضة خشبية في وسط السكة، ووقف على رجل واحدة، وبالكاد استطاع المحافظة على توازنه.

وقفت مذهولاً للحظة، وأنا عاجز عن تخيل مدى غباء هذا الشخص. ثم أمسكت به، وسحبته إلى الخلف فيما كان يقاوم ويحتجّ، ثم دفعته إلى جانب السكة. ثم قفزت خلفه، تمكن تيدي من الإمساك بي وأنا في الهواء. ولكنني استطعت أن أوجه ضربة إلى صدره بركبتي وألقي به على الأرض. ثم أمسك بي تيدي من رقبتي فتدحرجنا على المنحدر بجانب السكة فيما كان كل منا يوجّه الضربات إلى الآخر. ووقف كريس وفيرن يحدقان بنا وقد هالهما ما كان يجري بيننا.

كان تيدي يصرخ في وجهي ويقول: "يا ابن العاهرة، لا ترمي بثقلك عليّ. سأقتلك".

إلتقطت أنفاسي، ووقفت على قدميّ، وتراجعت عندما اقترب تيدي منّي ورفعت يديّ إلى أعلى لكي أتفادى اللكمات، وقد انتابني مزيج من الرغبة في الضحك والخوف. لم يكن تيدي من النوع الذي يمكن العبث معه عندما تنتابه إحدى نوباته الجنونية. فقد كان في مقدوره أن يطيح بصبي ضخم وهو في تلك الحالة، وبعد أن يكسر الصبي ذراعيه، يشرع تيدي في مهاجمته.

"تيدي، يمكنك مراوغة أي شيء تريده بعد أن نرى ما نحن ذاهبون لرؤيته. لكن حتى ذلك الحين ينبغي ألاّ يرانا أحد". كاد الشجار أن يتحول إلى قتال عنيف لو لم يمسك كريس وفيرن بنا ويبعداننا عن بعضنا.

مرّ القطار فوقنا مطلقاً سحابة من الدخان فيما كانت عجلات عرباته تطلق أصواتاً مثل الهدير. إنهال الحصى علينا وتوقفنا عن المشاجرة... إلى أن تمكنا من سماع بعضنا على الأقل.

كان عراكاً بسيطاً. وعندما مرّت العربة الأخيرة قال تيدي: "سأقتله". وحاول التفلّت، من قبضة كريس، ولكن كريس بقي ممسكاً به.

قال كريس بهدوء: "اهدأ يا تيدي". وظلّ يكرر هذه العبارة إلى أن توقف تيدي عن المقاومة، ووقف في مكانه. مالت نظارته، وتدلّت سماعة أذنه على صدره قريباً من البطارية التي وضعها في جيب سرواله.

عندما توقف عن الحركة كلياً، إلتفت كريس نحوي وقال: "لماذا تشاجرت معه يا غوردن؟"

"أراد أن يراوغ القطار. اعتقدت بأن المهندس سيراه ويبلّغ عنه. عندئذ، يمكن أن يرسلوا رجل شرطة للبحث عنّا".

قال تيدي: "سيكون مشغولاً في ملء دولابه بأصابع الشوكولاته". لقد خفّ غضبه، وهدأت العاصفة.

قال فيرن: "كان غوردي يحاول فعل الصواب. هيا، تصالحا".

وافق كريس على ذلك وقال: "تصالحا".

قلت: "أجل". ومددت يدي وقلت: "هل تصالحنا يا تيدي؟"

قال لي: "كان في إمكاني مراوغته وأنت تعرف ذلك".

قلت: "أجل". بالرغم من أنني لم أصدق ما أقوله. "كنت أعرف ذلك".

"إذن تصالحنا".

أمره كريس قائلاً: "صافحه يا رجل".

ضـــرب يـــدي ضربة قوية براحة يده ثم رفع راحة يده إلى أعلى، ففعلت الأمر نفسه.

قال تيدي: "هذا هو لوشانس الجبان".

قلت: "مياو".

قال فيرن: "هيا بنا يا رفاق".

11

وصـــلنا إلى البئر عند الساعة الواحدة والنصف تقريباً، وسار فيرن أمامـــنا فيما كنا ننزل المنحدر متوجهين إلى الأسفل. وصرنا نقفز من فوق بـــرك المـــياه التـــي تسرّبت من العبّارة. وبعد وقت قليل، رأينا خلف تلك المنطقة الموحشة أثر حافة البئر المبنية من الطوب الرملي.

كان يحيط بالبئر سياج يبلغ ارتفاعه مترين. ورأينا لافتات تفصل بين الواحدة والأخرى مسافة ستة أمتار تقول:

بئر كاسل روك

الدوام من الساعة 4 وحتى 8 مساءً

لا توجد خدمة أيام الإثنين

يُمنع منعاً باتاً تجاوز حدود العقار

تسلّقنا السياج، ثم قفزنا إلى داخل العقار، يتقدمنا تيدي وفيرن فيما كنا نسير نحو البئر التي كان يمكن استخراج الماء منها بواسطة مضخة قديمة. وجـــدنا صـــفيحة معدنـــية مليئة بالماء بالقرب من مقبض المضخة. أكبر خطيـــئة يمكن أن يرتكبها المرء عندما ينسى ملء الصفيحة للشخص الذي يقـــف خلفه. كانت الصفيحة مزودة بمقبض معدني مثبت على شكل زاوية، وهـــو ما جعلها أشبه بطائر يحاول أن يطير بجناح واحد. كانت الصفيحة خـــضراء اللـــون فـــي يوم من الأيام، ولكن طلاءها بهت لونه بفعل آلاف الأيدي التي أمسكت بالمقبض منذ العام 1940.

لا تـــزال البئر تشكل واحدة من أقوى ذكرياتي في كاسل روك. فهي تذكّرنـي دائماً بالرسامين السرياليين عندما أفكر فيها؛ إنهم الأشخاص الذين يرســـمون دائماً صور وجوه بين جذوع الأشجار أو غرف النوم التي تعود إلـــى العـــصر الفكـــتوري وسط الصحراء أو صورة المحركات البخارية

القادمة من الأمكنة البعيدة. بالنسبة إلى عيني طفل، لا شيء في بئر كاسل روك بدا أنه ينتمي إلى ذلك المكان.

دخلنا عقار البئر من الخلف. وفي حال دخلته من الجهة الأمامية، ستجد طريقاً عريضة متسخة تمرّ من البوابة وتتسع في الخارج لتتحول إلى باحة نصف دائرية تمت تسويتها لتكون أرضاً ينزل فيها العمال، ثم تنتهي الطريق فجأة عند حافة مكبّ النفايات. كانت المضخة (التي وقف تيدي وفيرن عندها وهما يتشاجران حول من ينبغي أن يضخ الماء منها) خلف هذه البقعة الواسعة. ربما كانت بعمق خمسة وعشرين متراً مُلئت بكافة الأشياء الأميركية التي يمكن أن تُفرّغ، أو تبلى أو لا يعاد استعمالها مجدداً. كان يوجد الكثير من هذه الأشياء لدرجة أن عينيّ تألمتا من مجرّد النظر إليها؛ أو ربما كان دماغك الذي يتأذّى، لأنه لن يستطيع اتخاذ قرار بشأن الموضع الذي ينبغي أن تتوقف عيناك عنده. وبعد ذلك، ستتوقف عيناك أو يتم توقيفهما بشيء لا ينتمي إلى المكان مثل تلك الحاجبات أو غرفة الجلوس التي في الصحراء. كان يوجد هيكل سرير نحاسي ممدد تحت أشعة الشمس، ولعبة لفتاة صغيرة بدت مندهشة لأنها كانت في حضنها كما لو أنها ولدتها. وكان يوجد أيضاً سيارة ستيود باكر مقلوبة وكانت مقدمتها المصنوعة من الكروم الذي يلمع تحت أشعة الشمس مثل صاروخ باك روجرز. وكانت هناك إحدى زجاجات المياه الضخمة من النوع الذي يوضع في المباني المكتبية وقد تحولت بفعل شمس الصيف إلى ياقوت أصفر حارّ ومتوهج.

كان يوجد الكثير من مظاهر الحياة البريّة في المكان أيضاً، بالرغم من أنها لم تكن من النوع الذي تراه في أفلام الطبيعة لوالت ديزني أو في حدائق الحيوانات المروّضة حيث يمكنك أن تربت على ظهور الحيوانات. كما كان هذا المكان هو الذي تأتي إليه كلاب البلدة الشاردة لتتناول طعامها عندما لا تجد علب نفايات لترميها على الأرض أو غزلاناً لتجري خلفها. كانت حيوانات بائسة وبشعة ومدجّنة، وكانت تتقاتل بسبب لقمة طعام أو كومة من بقايا لحم الدجاج التي تصاعدت رائحتها بفعل الشمس.

لكن هذه الكلاب لم تكن تهاجم ميلو بريسمان، حارس المكب، لأنه كان له مرافق اسمه شوبر جالس عند قدمه دائماً. كان شوبر أكثر الكلاب وحشية وأقل الكلاب التي يمكن أن تراها في كاسل روك؛ إلى أن تحول

كوجو، كلب جو كامبر إلى حيوان مسعور بعد عشرين عاماً. كان أشرس حيوان في منطقة شعاعها ستون كيلومتراً (أو هذا ما سمعناه)، وبشعاً بما يكفي لكي يوقف ساعة حائط. كان الأولاد يتبادلون همساً الحديث عن أساطير تحكي عن وحشية شوبر. قال البعض إن نصفه كلب راعٍ ألماني، وقال البعض بأنه من نوع بوكسر، وادّعى صبي من كاسل فيو يحمل الاسم التعيس هاري هور بأن شوبر كان من فصيلة دوبرمان تم استئصال أوتاره الصوتية بواسطة الجراحة لكي لا تسمع صوته عندما يهاجمك. وهناك أولاد ادّعوا بأن شوبر كلب ذئبي أيرلندي كان ميلو بريسمان يطعمه مزيجاً خاصاً من اللحم ودم الدجاج. وهؤلاء أنفسهم ادّعوا بأن ميلو لا يجرؤ على إخراجه من بيته ما لم يضع على رأسه غطاء كما يفعل الصياد الذي يستخدم الصقر.

أكثر القصص شيوعاً تحكي عن أن بريسمان درّب شوبر لا على الهجوم وحسب، بل وعلى الإمساك بأعضاء معينة من جسم الإنسان. وبالتالي، ربما يسمع صبي عاثر الحظ يُزعم بأنه تسلّق سياج البئر لاستخراج الكنز الثمين صوت ميلو وهو يصيح، "شوبر! هاجم! اليد!"، ليعضّ شوبر بعد ذلك على تلك اليد، ويمزق جلدها ويقطع أوتارها، ويطحن عظامها بين فكّيه اللذين يسيل منهما اللعاب، إلى أن يأمره ميلو بتركها. وسرت شائعات بأنه يمكن لشوبر انتزاع الأذن، أو العين، أو القدم، أو الرِّجل... أما ميلو نفسه فكان كثيراً ما يُشاهد بين الناس وبالتالي كان الناس يبالغون في احترامه. كان عاملاً لا يتمتع بكثير من الذكاء ويحاول أن يدعم راتبه المحدود بإصلاح المعدات التي يرميها الناس وبيعها في البلدة.

لم يظهر ما يدل على وجود ميلو أو كلبه اليوم.

راقبت وكريس صديقنا فيرن وهو يملأ الصفيحة بالماء فيما كان تيدي يحرّك يد المضخة كالمسعور. وأخيراً، كوفئ بفيض من الماء النقي. وما هي إلاّ لحظات حتى وضع الإثنان رأسيهما تحت الماء، وكان تيدي يضخ الماء بسرعة كيلومتر في الدقيقة.

قلت بصوت هادئ: "تيدي شخص مجنون".

قال كريس مسلّماً بذلك كحقيقة واقعة: "أجل. وأراهن على أنه لن يعمّر بحيث يصل عمره إلى ضعف ما هو الآن. لديه من الجنون ما يكفي

لإغـــرائه بمـــراوغة الشاحنة كما يفعل في العادة. وهو لا يستطيع أن يرى شيئاً، بنظارته أو بدونها".

"هل تتذكر تلك الحادثة التي وقعت على الشجرة؟"

"أجل".

كان تيدي وكريس يتسلقان في السنة التي قبلها شجرة صنوبر كبيرة خلـــف منزلي. وعندما وصلا قريباً من أعلاها قال كريس بأنه لم يعد في اســـتطاعته الصعود أكثر لأن كافة الأغصان هناك أصابها العفن. ارتسمت علـــى وجه تيدي تلك النظرة المجنونة العنيدة واستمرّ في الصعود إلى أن صـــار فـــي مقـــدوره ملامسة أعلى الشجرة. ما من شيء يمكن أن يقوله كـــريس كـــان سيقنع تيدي بالعدول عما يريده. ولذلك واصل الصعود إلى أعلى، ووصل إلى أعلى موضع في الشجرة فعلاً؛ تذكر أن وزنه لا يتعدى ثلاثـــين كيلوغـــراماً. وقف هناك ممسكاً بأعلى غصن فيها بيد وهو يصيح قـــائلاً بأنه ملك العالم أو شيئاً سخيفاً من هذا القبيل، ثم سُمع صوت قرقعة مـــن ذلك الغصن الذي كان يقف عليه ليبدأ سقوطاً عمودياً. وما حدث بعد ذلـــك كان من الأشياء التي تجعلك تؤمن بالقدر. فقد مدّ كريس يده، في ردّ فعل غريزي، وأمسك بقدر ملء يده بشعر تيدي دوشامب. وعلى الرغم من أن رســـغه تـــورّم وبقي عاجزاً عن استعمال يديه اليمنى طوال أسبوعين تقـــريباً، بقـــي كريس ممسكاً بشعره إلى أن تمكن تيدي، الذي كان يصيح ويلعـــن، من وضع قدمه على غصن حيّ ثخين بما يكفي لكي يحمل وزنه. ولـــولا قبـــضة كـــريس المحكمة، لانقلب وحطم أغصان الشجرة وهو في طريقه إلى أسفل جذعها قاطعاً مسافة ثلاثة أمتار ونصف. وعندما نزلا عن الشجرة، بدا وجه كريس رمادياً وكاد أن يتقيأ في ردّ فعل على الذعر الذي أصـــيب به. وأراد تيدي أن يدخل معه في عراك لأنه أمسك بشعره لو لم أكن حاضراً ولصلح بينهما.

قال كريس: "أحلم بتلك التجربة بين الحين والآخر". ونظر إليّ بعينين عاجـــزتين وقال: "فيما عدا هذا الحلم الذي ينتابني، أجد أنني أفتقده دائماً. ولا زلت أتذكر إمسكي بشعره وصراخه وهو يسقط. إنه لأمر غريب أليس كذلك؟"

وافقته على ذلك بالقول: "إنه غريب فعلاً". وتبادلنا النظرات للحظة، ورأينا بعض المظاهر الصادقة التي تجعلنا صديقين. ثم صرف نظره بعيداً

مـــرة أخـــرى وراقـــب تـــيدي وفيرن وهما يرشان بعضهما بالماء وهما يصرخان ويضحكان ويتبادلان التهم بالجبن.

قلت: "أجل، ولكنك لا تفتقده. كريس تشامبرز لا يفتقد أحداً".

صاح فيرن: "اقتربا واحصلا على حصتيكما من الماء قبل أن ترجع إلى البئر".

قال كريس: "سأسابقك".

"في هذا الجوّ الحارّ؟ لا بدّ أنك جُننت".

قال وهو لا يزال يبتسم: "هيا بنا. انطلق عندما أشير لك بذلك".

"حسناً".

"انطلق".

تـــسابقنا، فحفـــر حذاءانا الرياضيان الأرض الوسخة التي تيبّست بفعل أشـــعة الشمس، وحتى كل منا جذعه أمام رجلي سرواله الأزرق الطائر. كان الجوّ خانقاً، وكان فيرن في جانب كريس وكان تيدي في جانبي وهما يشيران إلينـــا بإشـــارات تهكمـــية. توقفنا عن الجري بعد أن غرقنا في الضحك وسط رائحـــة الغبار التي عمّت المكان، ورمى كريس صفيحة الماء إلى فيرن. وبعد أن ملأها، توجهت وكريس نحو المضخة، وبدأ كريس بضخ الماء لي أولاً، ثم فعلـــت أنا الشيء نفسه. أزال الماءُ البارد عنّا الوسخ والحرارة، وجعلنا نشعر كمـــا لـــو أننا في شهر يناير/كانون الثاني. ثم أعدت ملء الصفيحة، وتوجهنا جمـــيعاً للجلوس في ظل الشجرة الوحيدة في المكان، والتي كان يبلغ ارتفاعها اثني عشر متراً. بدت الشجرة مائلة نحو الغرب قليلاً، كما لو كانت تريد التقاط جذورها كما تفعل سيدة مسنّة عندما ترفع تنورتها لتخرج مسرعة من المكان. قال فيرن: "إننا نقضي وقتاً ممتعاً فعلاً". لم يكن يقصد بذلك القول إننا نتصرف كمـــا يحلو لنا، أو نغش رفاقنا، أو نتريض في التلال وصولاً إلى قضبان سكة الحديـــد ونحن في طريقنا إلى هارلو وحسب، فبالإضافة إلى ذلك، كان هناك الكثيـــر، وجميعنا عرفـ ذلك. كل شيء كان متوفراً حولنا. عرفنا بالضبط من نكون وإلى أين نحن ذاهبون. كان الأمر عظيماً.

بقيـــنا جالـــسين أسفل الشجرة فترة من الوقت، ونحن نرمي الأحجار كما كنا نفعل دائماً.

كان تيدي أول من لاحظ أن ظل الشجر ازداد طولاً وسألني عن الوقت. نظرت إلى ساعتي، وفوجئت عندما أشارت عقاربها إلى أنها الثانية والربع.

قـال فيـرن: "يـا رجل. ينبغي على أحدنا الذهاب إلى المتجر لكي يشتري لنا طعاماً. يبدأ العمل بضخ البئر عند الساعة الرابعة، وأنا لا أريد أن نكون في هذا المكان عندما يأتي ميلو وكلبه إلى هنا".

حتـى تيدي وافقه على ما قاله. لم يكن يخاف من ميلو الذي يبلغ من العمـر أربعـين عاماً على الأقل، ولكن كل صبي في كاسل روك يرتجف خوفاً عندما يُذكر اسم كلبه شوبر.

قـال فيـرن: "ينبغي على أحد منّا الذهاب لشراء المؤن. هيا نقترع لنعرف من الذي سيذهب".

أعطيت كل واحد منهم قطعة نقدية وقلت: "حسناً، ليرمِ كل واحد منكم قطعته النقدية".

لمـع بريق القطع النقدية الأربع تحت أشعة الشمس، والتقطتها أربع أيـدٍ وهـي لا تزال في الهواء. غطى كل واحد منّا قطعته النقدية بعد أن وضعها على رسغه. وفجأة، تخيلت أن كريس يقول *لا زلت أتذكر إمساكي بشعره وصراخه وهو يسقط. إنه لأمر غريب أليس كذلك؟*

وقعـت القرعة عليّ. لم أشعر بالأسى لأنني سأذهب لشراء الطعام. فقد أخذت قسطاً من الراحة ولم أجد مانعاً في الذهاب إلى فلوريدا ماركت.

قلت لتيدي: "لا تسمّني باسم أي من حيوانات أمك الأليفة".

"يا لك من أحمق يا لوشانس".

قال كريس: "اذهب يا غوردي، وسننتظرك عند قضبان سكة الحديد".

قلت: "من الأفضل لكم ألاّ تذهبوا بدوني أيها الرفاق".

ضـحك فيـرن، وقـال: "سيكون ذهابنا بدونك أشبه بذهابنا حاملين شراب سليتز بدلاً من بودويزر يا غوردي".

"أقفل فمك".

لـم يعـد لديّ أصدقاء بعد ذلك الحين مثل الأصدقاء الذين استمتعت برفقتهم عندما كنت في الثانية عشرة من عمري. ما هو رأيك؟

12

عـندما أحـدثك عـن الصيف، ستخطر ببالك مجموعة خاصة من الـصور الشخـصية التي تختلف عن مجموعة الصور التي تخطر ببالي، وهـذا أمـر لا بـأس به. لكن بالنسبة لي، الصيف يعني دائماً المشي في

الطريق التي تؤدي إلى فلوريدا ماركت وجيبي مليء بالنقود، في ظل درجة حرارة تتجاوز التسعين فهرنهايت. عندما اسمع هذه الكلمة، أستحضر صورة قضبان سكة الحديد التي تملكها شركة جي أس أند دبليو أم التي تبدو بيضاء تحت أشعة الشمس بحيث إنك ستظل تراها بعد أن تغمض عينيك، وإنما باللون الأزرق بدلاً من اللون الأبيض.

لكن لي ذكريات تعود إلى ذلك الصيف عدا عن الرحلة التي قمنا بها على ضفاف النهر لرؤية راي براور، بالرغم من أنها كانت الحدث الأكبر. فأنا لا أزال أتذكر فليتوودس وهو يغنّي عد *إليّ بهدوء*، وروبن لوك وهو يغنّي *عزيزتي سوزي*، وليتل أنتوني وهو يغني عدت *جرياً إلى منزلي*. هل كانت تلك أشهر الأغنيات في صيف العام 1960؟ نعم ولا، لكن في الغالب نعم. أعتقد بأن ذكرياتي تمتد طوال العام 1960 وأن الصيف في ذلك العام امتدّ لعدة سنوات من غير أن يتأثر بصخب الأصوات: أصوات لاعبي الكريكت، وهدير الماكينات الشقبية، وصوت الدرّاجة الهوائية لصبي عائد إلى منزله لتناول عشائه المؤلف من قطع من اللحم البارد والشاي المثلّج، وصوت بودي نوكس في تكساس وهو يغنّي *تعالي معي وكوني رفيقتي في الحفلة*، وصوت المعلّق على مباريات كرة القاعدة وهو يختلط بالأصوات ورائحة العشب المجزوز حديثاً. لا زلت أذكر كل ذلك بكل وضوح. لقد أصبحت لعبة كرة القاعدة هامة بالنسبة لي في السنين القليلة الأخيرة منذ أن عرفت بأن لاعبي كرة القاعدة من لحم ودم مثلي تماماً. امتلكت هذه المعرفة عندما انقلبت سيارة روي كامبانيلا ونشرت الصحف أخباره على صفحاتها الأولى: لقد انتهى مستقبله الرياضي؛ سيمضي بقية حياته جالساً على كرسي مدولب. خطر ذلك ببالي عندما سمعت الأخبار السقيمة نفسها وأنا أطبع على الآلة الكاتبة صباح أحد الأيام قبل سنتين من الآن، عندما قال مذيع في إحدى المحطات الإذاعية بأن ترومان مونسون لقي حتفه فيما كان يحاول الهبوط بطائرته.

كانت هناك أفلام سينمائية تجدر مشاهدتها، أفلام تحكي قصص الخيال العلمي مثل كورغ الذي لعب دور البطولة فيه ريتشارد إيفان، وأفلام رعاة البقر التي لعب دور البطولة فيها ادي مورفي (شاهد تيدي كل فيلم لعب فيه ادي مورفي دوراً وذلك ثلاث مرّات على الأقل) والأفلام الحربية التي لعب دور البطولة فيها جون واين. كانت هناك الألعاب، وعدد لا

يُحـــصى مـــن وجـــبات الطعـــام، والعمل في جزّ الأعشاب، والجري في الحقول، ولعب التنس برمي الكرة على الجدار. وأنا أجلس الآن فيما أحاول النظـــر من خلال لوحة مفاتيح الحاسوب لاستحضار ذلك الوقت، وذكريات ذلـــك الـــصيف الحلوة والمرّة، ولكاد أتحسس ذلك الصبي النحيل المتقرّح واسمع تلك الأصوات. لكن الذي يخلّد تلك الذكرى وذلك الوقت هو غوردن لانشاس الذي يجري على تلك الطريق قاصداً فلوريدا ماركت وجيبه مليء بالنقود وعرقه يتصبب وصولاً إلى أسفل ظهره.

اشـــتريت كـــيلو ونصفاً من الهامبرغر وبعضاً من خبز الهامبرغر، ولربع زجاجات كوكاكولا ومفتاحاً لفتح تلك الزجاجات. أحضر لي صاحب المتجـــر، واسمه جورج دوسيت، قطع اللحم، ثم انحنى على صندوقه. كان يـــضع عـــوداً لـــنكش الاسنان في فمه، وارتسم تحت الكنزة البيضاء التي يرتديها بطن ضخم جعلها تبدو أشبه بشراع نفخته الرياح القوية. وقف عند الـــصندوق فـــيما كنت أتبضع حاجياتي للتأكد من أنني لن أسرق شيئاً. ولم يتفوّه بكلمة إلى أن وضع الهامبرغر على الميزان.

"أنا أعرفك. أنت شقيق ديني لانشانس، أليس كذلك؟" انتقل عود نكش الأســـنان مـــن زاوية فمه إلى الزاوية الأخرى. ثم مدّ يده خلف الصندوق، وأمسك بزجاجة من الصودا وحركها بقوة.

"أجل سيدي، ولكن دِيني..."

"أجل، أنا أعرف. إنه خبر مؤسف أيها الصبي. يقول الكتاب المقدس، عـــندما تـــصل *إلى منتصف العمر، نكون قد اقتربنا من الموت*. أنت تشبه دينـــي تماماً، هل سبق أن أشار أحدهم إلى ذلك؟ تبدو صورة طبق الأصل عنه".

قلت بنبرة كئيبة: "أجل، إنهم يقولون ذلك في بعض الأحيان".

"لا زلـــت أذكـــر السنة التي لعب فيها في موقع ظهير الوسط. على الأرجـــح أنك أصغر سناً من أن تستطيع تذكّر ذلك". كان ينظر إلى شيء فوق رأسي، من خلال شبك الباب نحو الحرارة الملتهبة، كما لو كان ينظر إلى أخي.

"لا زلت أذكر ذلك يا سيد دوسيت".

"مـــاذا قلـــت أيهـــا الـــصغير؟" كانـــت عيناه لا تزالان غارقتين في الذكريات. تحرّك عود نكش الأسنان قليلاً بين شفتيه.

"أنت تضع إصبعك على ذلك الميزان".

"مـــاذا قلـــت؟" نظـــر إلى أسفل بذهول إلى الموضع الذي ضغط فيه بإصـــبعه علـــى الميناء الأبيض. ولو لأنني لم أتحرك بعيداً عنه عندما بدأ للحـــديث عن دينيس، لم أكن سأرى إصبعه المخبأ خلف قطع اللحم. "لماذا وقـــع ذلك الحادث. أعتقد بأنني أفكر في شقيقك كثيراً". عندما رفع إصبعه عن الميزان، عادت الإبرة بمقدار ست أونصات. وضع قطعة لحم إضافية، ثم لفَّ الكميّة بالورق الشفاف.

قـــال: "حـــسناً، دعـــنا نحصي ما هو موجود هنا. كيلو ونصف من الهامبرغـــر، ويبلغ ثمنها دولاراً وخمسة وأربعين سنتاً. وخبز الهامبرغر، ويـــبلغ ثمنه سبعة وعشرين سنتاً، وأربع زجاجات كوكا كولا، ويبلغ ثمنها أربعـــين سنتاً. مفتاح واحد ثمنه سنتان. والمبلغ الإجمالي يساوي..." جمع تلك الأرقام على الكيس الذي يريد أن يضع مشترياتي فيه وقال: "دولاران وتسعة وعشرون سنتاً".

قلت: "ثلاثة عشر سنتاً".

رفع رأسه ببطء شديد، ونظر إليّ بوجه عابس وقال: "ماذا قلت؟"

"دولاران وثلاثة عشر سنتاً. لقد أخطأت في جمع الأرقام".

"أيها الصبي، أنت.."

قلت: "لقد ارتكبت خطأ في جمع الأرقام. في البداية، وضعت إصبعك علـــى الميـــزان، ثم زدت في ثمن المشتريات يا سيد دوسيت. كنت أودّ أن أضـــيف بعض الحاجيات إلى طلبي، ولكنني أعتقد بأني لم أعد أرغب في ذلك". ووضعت مبلغ الدولارين وثلاثة عشر سنتاً أمامه.

نظـــر إلـــى المـــال، ثم نظر إليّ. بدا عابساً أكثر من ذي قبل، فقد أصبحت الخطوط التي على وجهه أكثر عمقاً. قال بصوت منخفض كما لو كان يقول سراً: "من تكون أيها الصبي؟ هل تحسب نفسك ذكياً؟"

قلـــت: "كلا سيدي، ولكنك لن تتمكن من خداعي من غير أن أكتشف أمرك. ماذا ستقول أمك إذا عرفت أنك تخدع الأطفال الصغار؟"

وضـــع مـــشترياتي في الكيس بعنف في حركات سريعة، مما جعل زجاجات الكوكاكولا تصطدم ببعضها. ثم وضع الكيس في يدي بعنف من غيـــر أن يبالي إن كان سيفلت منّي ويسقط على الأرض. كان وجهه داكن البشرة يحتدم غيظاً، وبقي عابساً كما كان. قال: "حسناً أيها الصبي. والآن

كـــل ما عليك أن تفعله هو الخروج من متجري. وفي حال رأيتك هنا مرّة أخرى، فسألقي بك في الشارع. أيها المتحذلق الصغير".

قلـــت: "لن آتي إلى هنا مرّة أخرى". فتحت الباب، وغادرت المتجر. شـــعرت بلهـــيب حرارة فترة ما بعد الظهر. كان طريقي مكسواً باللونين الأخضر والبنّي ومفروشاً بالضوء الصامت. "كما لن يشتري منك أحد من أصدقائي. أعتقد بأن عددهم يبلغ الخمسين تقريباً".

صاح جورج دوسيت: "لم يكن أخوك أقلّ تحذلقاً".

صـــحت: "عليك اللعنة". وأطلقت ساقيّ للريح فيما كان يصيح قائلاً: "إذا أتيت إلى هنا ثانية، فسأشبعك ضرباً أيها الحقير الصغير".

واصـــلت الجـــري إلـــى أن صعدت التلّ الأول، وقد تملّكني الخوف والرغبة في أن أضحك على نفسي، كان قلبي يخفق بشدّة كما لو كان على وشك أن يخرج من صدري. ثم أكملت طريقي في مشي سريع، فيما كنت ألتفت إلى الوراء بين الحين والآخر لكي أتأكد من أنه لم يلحق بي بسيارته أو بشيء آخر.

تبـــين لـــي أنه لم يغادر متجره، وسرعان ما وصلت إلى بوابة عقار البئر. وضعت الكيس داخل قميصي، وتسلقت البوابة، وقفزت على الجانب الآخـــر. كنت في منتصف المسافة عندما رأيت شيئاً أكرهه؛ رأيت سيارة مـــيلو التـــي مـــن نوع بريسمان بويك متوقفة خلف البئر. إذا رآني ميلو، فسأصاب بأذى كبير. ومع أنني لم ألحظ ما يشير إلى وجوده أو وجود كلبه شوبر سيئ السمعة، فقد لاحظت أن السياج خلف البئر بعيدٌ جداً. تمنيت لو أننـــي كـــنت خارج العقار، ولكني كنت قد مشيت مسافة كبيرة فيه وهو ما جعلني أتخلّى عن فكرة الرجوع من حيث أتيت. إذا رآني ميلو وأنا أتسلق الـــسياج، فعلى الأرجح أنني سأعود إلى المنزل وأنا مثخن بالجراح. ولكن تلك الخاطرة لم تخفني بقدر خوفي من أن يصرخ ميلو في شوبر آمراً إيّاه بالهجوم عليّ.

بـــدأت اســـمع صوت موسيقى مرعبة في رأسي. واصلت وضع القدم أمام القدم الأخرى، محاولاً أن أبدو طبيعياً، ومحاولاً التصرف كما لـــو أننـــي لـــم أقصد المجيء إلى هذا المكان فيما كان كيس مشترياتي منـــتفخاً تحـــت قميصي، وتوجهت إلى السياج الذي بين البئر وقضبان سكة الحديد.

كانــت تفــصلني عن السياج مسافة خمسة عشر متراً تقريباً، وبدأت أفكــر فـــي أن كل شيء سيكون على ما يرام عندما سمعت صراخ ميلو: "هاي، هاي، أنت أيها الصبي! اخرج من هنا".

العمــل الذكي الذي كان يجدر القيام به هو موافقة ذلك الشخص على رأيــه والعــودة مـــن حيث أتيت، لكن بحلول ذلك الوقت، أصبحت متوتر الأعصاب لدرجة أنني بدلاً من أن أقوم بالعمل الذكي، ركضت نحو السياج بكل قوتي فيما كان حذائي يثير الغبار خلفي. ظهر فيرن، وتيدي، وكريس في الجانب الآخر من السياج ونظروا إليّ بقلق من خلال فتحات السياج.

صـــاح مـــيلو: "عد إلى هنا. عد إلى هنا وإلاّ أطلقت كلبي عليك أيها اللعين".

لـــم أجد في كلامه ما يشير بالضبط إلى عقلانية أو مصالحة، فزدت سرعتي وتوجهت نحو السياج، فيما كانت يداي تتسابقان وكيس البقالة البنّي يحـــتك بجلـــدي. بـــدأ تيدي يضحك بطريقته المجنونة مثل مزمار في فم مجنون.

صاح فيرن: "هيا غوردي، هيا".

صاح ميلو: "اهجم عليه يا شوبر. نل من الصبي".

ألقيت الكيس من فوق السياج، وأزاح فيرن تيدي من طريقه لكي يلتقطه. كـــنت أســـتطيع سماع شوبر من خلفي وهو يهزّ الأرض وينبح بدون توقف. قفــزت على السياج فبلغت منتصفه بقفزة واحدة؛ لم أفكر في الأمر، ولم أنظر إلى أسفل لأرى المكان الذي ربما أنزل فيه. لكن الشيء الذي كنت أسقط عليه كان تيدي الذي كان يضحك كالمجنون. سقطت نظارته على الأرض، وسالت الدموع من عينيه. نزلت على الأرض على بُعد بضعة سنتيمترات عن يساره. فـــي تلك اللحظة، ألقى شوبر قائمتيه الأماميتين على السياج خلفي ونبح نباحاً كـــان مزيجاً من الألم وخيبة الأمل. التفتُّ وأنا أضع يدي على ركبتي العارية، وشاهدت لأول مرّة شوبر الشهير؛ وتلقيت درسي الأول في الفرق الشاسع بين الأســـطورة والواقـــع. فبدلاً من أن أرى كلباً حارساً للجحيم، عيناه حمراوان ومتوحـــشتان، وأســـنانه بارزة من فمه مثل أنابيب مستقيمة بارزة من سيارة عتـــيقة، كـــنت أنظـــر إلى كلب هجين متوسط الحجم اكتسى باللونين الأسود والأبـــيض. كـــان ينبح ويقفز بدون جدوى، وكان يقف على قائمتيه الخلفيتين محاولاً صعود السياج.

بـدأ تـيدي يتبختر أمام السياج، وهو يعبث بنظارته بيد، ويثير حنق شوبر باليد الأخرى.

قـال تـيدي داعـياً الكلب: "إلحق حذائي يا شوبي، إلحق حذائي أيها الحقير".

بذل شوبر كل ما يستطيع لتلبية دعوة تيدي. لم يحصل على شيء يخفف آلامـه، بـل تلقّى ضربة على أنفه. عندئذٍ بدأ ينبح كالمجنون ولعابه يسيل من فمه. واصل تيدي حركاته الإستفزازية من وراء السياج، وواصل شوبر القفز علـيه مـن غير أن يصل إلى شيء سوى المزيد من الأذية لأنفه الذي أصبح ينزف الآن. استمرّ تيدي في تقديم النصائح إليه ومناداته باسمه الصغير شوبي، فـيما كان كريس وفيرن جالسين وقد علا صوتهما بالضحك بحيث لم يكن في مقدورهما فعل شيء سوى إطلاق النكات المبتذلة.

هـنا جاء دور ميلو بريسمان، الذي كان يرتدي بزّة العمل الملطخة بالعرق ويعتمر قبعة فريق نيويورك جايانتس لكرة القاعدة وقد فتح فمه في تعبير عن الغضب.

صـاح مـيلو: "اسمعوني، أنتم أيها الصبيان، توقفوا عن إغاظة ذلك الكلب. هل تسمعونني؟ توقفوا في الحال".

صاح تيدي: "اهجم عليه يا شوبي". فيما كان يتحرك في الجانب الذي نحـن فيه من السياج مثل بروسي مجنون يستعرض جنوده. "تعال واهجم عليّ. اهجم عليّ".

جـنّ جنون شوبر، وأنا أعني ذلك فعلاً. بدأ يركض في دائرة كبيرة وهـو يقفـز، وينـبح، ويثيـر سحباً من الغبار الجاف. دار ثلاث مرّات، واستجمع شجاعته، ثم هاجم السياج. لا بدّ وأنه كان يجري بسرعة خمسين كيلومتـراً في الساعة عندما اصطدم بالسياج؛ برزت أسنانه من بين شفتيه ومالت أذناه إلى الخلف. نتج عن حركة السياج بأكمله صوت موسيقي ظل يتـردد بين دعاماته. صدر صوت نباح مخنوق من شوبر، وأغمض عينيه عـندما ارتدّ إلى الوراء، وسقط على ظهره بقوة أثارت الغبار حوله. بقي ممـدداً علـى الأرض لفترة ثم زحف إلى الخلف فيما كان لسانه يتدلّى من الجانب الأيسر لفمه.

في هذه اللحظة، اندفع ميلو نفسه بغضب. بدا مظهره الخارجي قاتماً علـى نحـو مخيف؛ حتى أن فروة رأسه بدت أرجوانية اللون عند مفرق

شـعره. كـنت لا أزال جالساً على الأرض الوسخة، وقد أصيبت ركبتاي بالجـراح، وكان قلبي لا يزال يخفق بقوة. اعتقدت بأن ميلو نموذج بشري لشوبر.

صـاح ميلو: "أنا أعرفك. أنت تيدي دوشامب! أنا أعرفكم جميعاً. يا سوني، سأشبعك ضرباً لأنك أغظت كلبي".

ردّ عليه تيدي بالقول: "تودّ أن نرك تفعل ذلك. أريد أن أراك وأنت تتسلّق السياج وتمسك بي أيها الحقير".

"ماذا قلت؟ بماذا نعتّني؟"

صاح تيدي بنبرة تنمّ عن سعادته: "حقير. دلو من الشحم، هيا تقدم". كان يقفز وهو قابض يديه، وقطرات العرق تتطاير من شعره: "سأعلّمك كيف تأمر كلبك الغبي بالهجوم على الناس. هيا أريد أن أراك وأنت تحاول ذلك".

"أيها الصغير الحقير، سأحرص على إيصال دعوة إلى أمك لكي تمثل أمام القاضي في المحكمة بسبب ما فعلته لكلبي".

توقـف تـيدي عن القفز، وقال بصوت أجش: "بماذا نعتّني؟" اتسعت عيناه وتحول لون جلده إلى اللون القاتم.

أطلـق مـيلو على تيدي نعوتاً كثيرة، فقال: "والدك رجل معتوه فاق جـنونه جنون الجرذان، وجنون قط طويل الذيل في غرفة مليئة بالكراسي الهـزّازة. معـتوه. فـلا عجـب أنـك تتصرف على هذا النحو، بطريقة مجنونة.."

صـاح تـيدي: "إذا عـدت إلى وصف والدي بالمعتوه مرّة أخرى، فسأقتلك أيها الحقير".

قـال ميلو: "إنه معتوه. إنك ابن رجل معتوه يقيم في القسم الثامن في مستشفى المجانين. وهو لا يزال يحتفظ بألعابه في العلّية".

كـان فيـرن وكريس غارقين في الضحك. وربما أدركا مدى جدّية الوضع وأرادا إقناع تيدي بالتوقف عن تلك الحركات، لكن عندما قال تيدي لمـيلو بأنه حقير، عادا إلى الضحك الهستيري مجدداً. ولكن كريس سارع إلى القول: "توقفوا جميعاً. توقفوا رجاءً".

كان شوبر يرسم دوائر حول ميلو. بدا أشبه بملاكم خاسر بعد مرور عـشر ثـوانٍ على إنهاء الحكم المباراة معلناً فوز الملاكم الآخر بالضربة القاضـية الفنّـية. في هذه الأثناء، واصل تيدي وميلو مناقشتهما بشأن والد

تـيدي، ولقفـين وجهاً لوجه يفصل بينهما سياج كان ميلو أكبر سناً وأكثر بدانة من أن يتمكن من تسلّقه.

"إيــاك أن تــتفوه بعبارة أخرى عن أبي. فقد شارك والدي في إنزال النورماندي أيها الحقير".

"أجـل، حـسناً، وأين هو الآن، أيها البشع الصغير؟ إنه في توغاس أليس كذلك؟ إنه في توغاس لأنه معتوه".

قــال تـيدي: "حسناً، لم أعد أستطيع الصبر أكثر من ذلك. هذه هي النهاية. سأقتلك". وألقى بنفسه على السياج، وبدأ بتسلّقه.

قــال مـيلو فـيما كان يبتسم وينتظر: "اصعد وحاول أن تقتلني أيها الحقير الصغير".

صـحت قـائلاً: "كلا". نهضت على قدميّ، وأمسكت بسروال تيدي، وسـحبته إلى الأسفل. ترنّحنا، وسقطنا على الأرض. ولكني بقيت ممسكاً بتيدي بذراعيّ من الوسط.

صـاح تيدي: "دعني أصعد. دعني أصعد يا غوردي. لا أحد يجرؤ على الحديث عن أبي بهذه الطريقة. دعني أصعد".

همـست في أذنه: "هذا بالضبط ما يريد منك أن تفعله. يريد منك أن تتسلّق السياج وتقفز إلى الداخل لكي يأخذك إلى الشرطة".

التفت تيدي إليّ وقال: "ماذا قلت؟"

قــال مـيلو: "لا تـستمع إلـى ما يقوله لك صاحب الفم الذكي". اقتـرب ميلو من السياج مجدداً قابضاً يديه وقال: "دعه يخوض معاركه بنفسه".

قلت: "بالتأكيد، فأنت تزيده وزناً بمقدار مائتي كيلوغرام".

قــال مـيلو: "أنــا أعرفك أيضاً. اسمك لوشانس". وأشار إلى فيرن وكـريس اللــذين نهـضا أخيراً وكانا لا يزالان يتنفسان بسرعة من كثرة الضحك. "أنتما كريس تشامبرز وأحد أبناء تيسيو الأغبياء. سأقوم بالإتصال بآبائكم، باستثناء ذلك المعتوه الذي يقيم في توغاس. سيتم إرسال كل واحد منكم إلى الإصلاحية. أنتم مجرمون أحداث".

وقــف علــى قدميه وهو يتنفس بشدة، وعيناه شبه مغمضتين في انــتظار أن يبكــي أحــدنا أو يقول أنا آسف أو يسلّمه تيدي ليجعل منه طعاماً لشوبر.

اكتفى فيرن بالنظر إلى السماء، فيما قال تيدي: "هيا يا غوردي، دعنا نغادر هذا المكان قبل أن أتقيأ".

"انتظر ريثما أحضر لك الشرطي".

قلــت له: "سمعنا النعوت التي أطلقتَها على والده. إننا جميعاً شهود. وأنت حرّضت كلبك لكي يهجم عليّ. وهذا عمل مخالف للقانون".

بــدا علــى مــيلو الإنزعاج وقال: "لقد دخلت عقاراً يُحظر عليك دخوله".

"أجل، ولكن البئر ملكية عامة".

"لقد تسلّقتَ السياج".

"فعلــت ذلك بالتأكيد بعد أغريت كلبك بالهجوم عليّ". قلت ذلك وأنا آمــل بــألاّ يتذكر أني تسلّقت البوابة أيضاً لدخول العقار. "ماذا كنت تعتقد بأنني فاعـل؟ أن أكتفــي بالوقوف وأدعه يمزقني أشلاءً؟ هيا يا رفاق، لنذهب. فالمكان مقرف هنا".

وعدنا ميلو بصوت خشن مرتجف: "الإصلاحية، الإصلاحية لكم أيها الأشرار".

قال كريس وهو ينظر إلى الخلف ونحن نبتعد عن المكان: "لا يمكنني الإنتظار ريثما أتمكن من إخبار الشرطة بأنك وصفت أحد قدامى المحاربين بأنه معتوه. ماذا كنت تفعل أثناء الحرب يا سيد بريسمان؟"

"هذا ليس من شأنك. لقد آذيتم كلبي".

أكملنا سيرنا إلى أن عدنا إلى طريق سكة الحديد مجدداً.

صاح ميلو: "عودوا إلى هنا". ولكن صوته بات أضعف الآن وبدا أنه لم يعد يكترث بما حدث.

نظرت إلى الخلف عندما وصلنا إلى طريق سكة الحديد. كان ميلو لا يزال واقفاً هناك خلف السياج، رجل ضخم يعتمر قبّعة يرتديها لاعبو كــرة القاعــدة وكلبه جالس بجانبه. كانت أصابعه معقوفة حول أسلاك السياج وهو يصيح. وعندئذٍ شعرت بالأسى حياله؛ بدا أكبر شخص في الــصف الــثالث فــي العالَم، محتجَزاً داخل ملعب بطريق الخطأ، وهو يــصيح فــي شــخص ويطلب إخراجه من المكان. بقي يصيح لفترة ثم توقــف عن ذلك أو أننا لم نعد نسمع صوته. ولم نرَ أو نسمع شيئاً عن ميلو بريسمان وشوبر في ذلك اليوم.

13

دار بيننا حوار ناقشنا فيه كيف أننا أثبتنا أننا لسنا مجموعة أخرى من الأولاد الجبناء. شرحتُ لهم كيف أن صاحب متجر فلوريدا ماركت حاول أن يغشنا، ثم ساد صمت كئيب فيما غرقنا في تفكير عميق.

من جهتي، كنت أفكر في أنه ربما كان يوجد شيء في تلك المشاجرة فــي النهاية، شيء لا يمكن أن يكون أسوأ. في الواقع، قلت في نفسي بأنه ربمــا يكون من الأفضل أن أواصل ورفاقي السير وأن أعفيهم من الحديث عــن ولــد مدفون في مقبرة كاسل فيو وولد في إصلاحية ساوث ويندهام للصبيان. لم يساورني شك في أن ميلو سيذهب إلى مركز الشرطة. شكلت تلــك الحادثة فترة كئيبة في ذلك اليوم. كما كانت هناك فكرة كئيبة أخرى تجــول في خاطري؛ فكرة أن ما حدث لم يكن مزحة على الإطلاق، وأننا نستحق ربما هذا الحظ السيئ. وربما كان ذلك تحذيراً لنا من الله لكي نعود إلــى منازلــنا. فماذا كنا ننوي أن نفعل على كل حال، ألسنا ذاهبين لرؤية صبي قضى نحبه لأن قطار شحن صدمه؟

ولكن هذا ما كنا نقوم به، ولم يكن أحد منا يريد العدول عن ذلك.

كــدنا نــصل إلى المنصة التي تحمل القضبان التي تمرّ فوق النهر عــندما انهمــرت دمــوع تيدي. بدا كما لو أن موجة مدّية داخلية عظيمة اجــتاحت مجمــوعة ســدود عقلية صُممت بعناية. تضاعفت تنهداته مثل اللكمات. ثم دخل في نوبة بكاء على شكل اندفاعات عنيفة وقاسية.

لــم يعرف أي منا ماذا عليه أن يفعل. فهو لم يكن يبكي مثل شخص تعــرض لــضربة فــي الرأس في مباراة لكرة القدم أو سقط عن درّاجته. واصلنا المشي قليلاً ونحن ننظر إليه بعد أن وضعنا أيدينا في جيوبنا.

قــال فيرن بصوت رقيق جداً: "يا رجل.." نظرت وكريس إلى فيرن الــذي واصل كلامه فقال: "يا رجل". كان جيداً في بدء الحديث، ولكنه لم يستطع متابعة ما بدأه.

انحنــى تيدي إلى الأمام على العارضات الخشبية، ووضع يده على عينيه.

أخيــراً، عندما خفت دموعه قليلاً، بدأ كريس بالكلام. كان الشخص الأكثر صلابة في عصابتنا (قلت في نفسي بأنه ربما كان أكثر صلابة من

جامــي غالانــت)، ولكــنه كان الشخص الذي يصنع السلام، وكانت لديه طــريقته الخاصة في التوصل إليه. رأيته وهو يجلس بجانب صبي صغير أصيب بجرح في ركبته، صبي لم يكن يعرف ماذا حلّ به. أقنعه بالحديث عــن أمــر ما –عن سيرك شراين الذي سيصل إلى البلدة أو عن برنامج هاكل بيري هاوند التلفزيوني– إلى أن نسي الصبي أنه مصاب بجرح. كان كريس ماهراً في هذا الأمر. كان صلباً بما يكفي لكي يكون ماهراً في ذلك.

"اسمع يا تيدي، لا تلتفت إلى ما قاله ذلك الحقير السمين عن والدك؟ أنا أعني ما أقول. فهذا لن يغيّر في الواقع شيئاً، أليس كذلك؟"

هــزّ تيدي رأسه بعنف. بقي تيدي على حاله. فسماعه لهذا الكلام بهذه الصراحة وهو الكلام الذي يفكر فيه في بعض الأحيان عندما يستيقظ وهو في السرير على ضوء القمر، كلام لا بدّ وأنه فكر فيه بطريقته البطيئة والمتقطعة محاولاً الخروج باستنتاج منطقي منه والإقتناع بأن والده ليس معتوهاً... لا بدّ وأن ذلك كان يسبب له قلقاً كبيراً. ولكن شيئاً لم يتغير على الإطلاق.

قــال كريس: "يبقى صحيحاً أن والدك شارك في إنزال النورماندي، أليس ذلك؟" ولمسك بيد تيدي، وربت عليها.

لوما تيدي برأسه بقوة وهو يبكي. وكان المخاط يسيل من أنفه.

"هل تظن بأن ذلك السمين شارك في إنزال النورماندي؟"

هزّ تيدي رأسه بعنف وقال: "كلا".

"هل تعتقد بأنه يعرفك؟"

"كلا ولكن..."

"أو يعرف أباك؟ هل هو أحد أصدقاء أبيك؟"

"كــلا". كان خائفاً ومضطرباً، ويتنفس بوتيرة متسارعة. رفع شعره عــن أذنيه وكان في مقدوري رؤية ذلك الزر البلاستيكي البنّي الدائري في أذنه اليمنى. كان شكل السماعة التي في أذنه أكثر قبولاً من شكل أذنه، إذا فهمت ما أعنيه.

قال كريس بهدوء: "لا يوجد شيء أسهل من الحديث".

لوما تيدي برأسه من غير أن ينظر إلى أعلى.

"ومهما حصل بينك وبين والدك، فالحديث لن يغيّر فيه شيئاً".

كان تيدي يحرك رأسه بدون معنى، فهو لم يكن متأكداً من أن الكلام الــذي يسمعه صحيح. هناك أمر أعاد تعريف ألمه، وأعاد تعريفه بعبارات

شـــائعة تـسبب صــدمة. ينبغي فحص (المعتوه الموجود في القسم الثامن اللعين) لاحقاً. في الليالي التي يفرّ فيها النوم من عينيه.

ربــت كريس على ظهره، وقال: "كان يقصد إغاظتك يا رجل. كان يقــصد إغاظــتك لكي تتسلق ذلك السياج، وأنت تعرف ذلك. إنه لا يعرف شــيئاً عن أبيك، إنه لا يعرف شيئاً على الإطلاق، وما قاله كان عبارة عن كــلام سمعه من بعض السكارى في ميلو تايغر. إنه مجرد شخص سافل. أليس كذلك؟"

خــف بكـــاء تـيدي، ومسح عينيه، ثم نهض على قدميه، وقال: "أنا بخيــر". بــدا أن صــــوته أقـــنعه بذلك أيضاً. "أجل أنا بخير". أعاد وضع نظارتـــه، التي كانت تزيّن وجهه العاري. ضحك قليلاً، ومسح شفته العليا بذراعه العارية وقال: "كنت أبكي مثل طفل ملعون، أليس كذلك؟"

قــال فيرن بتبرّم: "كلا يا رجل. لو أن شخصاً تحدث بكلام نابٍ عن والدي..."

قال تيدي فجأة وبعجرفة: "كنتُ سأقتله. أليس كذلك يا كريس؟"

أجاب كريس بنبرة ودّية: "أجل". وربت على ظهر تيدي.

"أليس كذلك يا غوردي؟"

قلت: "بالتأكيد". تساءلت كيف يمكن لتيدي أن يهتم لأمر والده إلى هذا الحدّ في حين كاد والده يقتله، وكيف أنني لا آبه بطريقة أو بأخرى لوالدي، علمـــاً بأنه، وعلى حسب علمي، لم يسبق أن لمسني بسوء منذ أن كنت في سنّ الثالثة.

مــــشينا مـــسافة مائتـــي متر على قضبان سكة الحديد، ثم قال تيدي بصوت هادئ: "إذا أفسدتُ عليكم وقتكم الممتع فأنا آسف. أعتقد بأنه حصل الكثير من الأمور التافهة عند ذلك السياج".

قال فيرن فجأة: "أنا لست متأكداً من أننا نريد قضاء وقت طيّب".

نظر كريس إليه وقال: "هل تريد القول بأنك تنوي العودة يا رجل؟"

فكّــر فيــرن وقال: "كلا. لكن الذهاب لرؤية صبي ميت ليس بالأمر الممــتع. أعنـــي أنه يمكن أن يعتريني الخوف بسبب ذلك، إذا فهمت ماذا عنيته بكلامي هذا".

لم يقل أحد شيئاً، فواصل فيرن حديثه قائلاً: "أعني أنني أرى كوابيس في بعض الأحيان. هل تذكرون يا رفاق ذلك اليوم عندما ترك داني نوتون

تلك الرزمة القديمة من الكتب المسلّية التي تتحدث عن مصاصي الدماء وأشخاص تُقطع أعضاؤهم، وعن أشياء من هذا القبيل؟ كنت أستيقظ في منتصف حلم أرى فيه شخصاً معلّقاً في منزل ووجهه أخضر، أو شخصاً أسفل السرير في حال مددتُ يدي خارجه، وأن ذلك الشخص سيمسك بي.."

أومأنا برؤوسنا جميعاً. فجميعنا مرّ بهذا النوع من الكوابيس. كنت سأضحك حينها لو أنك قلتَ لي بأنني كنت سأراهن في أحد الأيام غير البعيدة عن أيام طفولتي بمليون دولار مقابل التخلص من كافة تلك المخاوف الصبيانية والتعرّق الليلي.

"أنا لا أجرؤ على قول شيء لأن شقيقي، حسناً، أنتم تعرفون أن بيلي... كان سيذيع الخبر... ويهزّ بكتفيه استخفافاً. ولذلك لن أخشى من النظر إلى ذلك الصبي إذا ما كان في حالة سيئة.."

ابتلعت ريقي، ونظرت إلى كريس. كان يرمق فيرن، ويومئ برأسه طالباً منه مواصلة السير.

عاد فيرن وقال: "إذا كان في حالة سيئة فعلاً، فستراودني كوابيس بشأنه وسأستيقظ في منتصف الليل معتقداً بأن جسده مقطع أسفل سريري وهو غارق في بركة من الدماء".

صاح تيدي: "يا الله، يا لها من قصة نوم مخيفة".

قال فيرن: "حسناً، أنا لا أستطيع التغلب على هذا الأمر. ولكنني أشعر بأنه يتوجب عليّ رؤيته، حتى وإن كانت ستنتابني أحلام مزعجة. لكن ربما لا ينبغي أن يكون ذلك وقتاً ممتعاً".

قال كريس بصوت رقيق: "أجل، ربما لا ينبغي أن يكون ذلك".

قال فيرن: "أنتم لن تتفوهوا بكلمة أمام الأشخاص الآخرين، أليس كذلك؟ أنا لا أتحدث عن الكوابيس، فالجميع يعانون منها؛ مثل الإستيقاظ من النوم والإعتقاد بأنه ربما يوجد شيء أسفل السرير. فأنا أكبر من أن أفكّر في البعبع".

اتفقنا جميعاً على ألاّ نصارح أحداً، وساد صمت مطبق ثانية. كانت الساعة لا تزال الثالثة إلاّ ربعاً، ولكننا شعرنا بارتياح عظيم. كان الطقس حارّاً جداً ونهارنا حافلاً جداً بالأحداث. ونحن لم نصل إلى هارلو بعد. وعلينا أن نمشي بسرعة إذا كنا ننوي قطع مسافة طويلة قبل أن يحلّ الظلام.

مـــررنا بتقاطع لسكة الحديد، ورأينا لافتة على عمود طويل وصدئ، وتوقف الجميع لقطع نتف من الصدأ العالق بسارية العلم الفولاذية. وقرابة الـساعة الثالث والنصف، وصلنا إلى نهر كاسل ومنصة جي أس أند دبليو أم التي تمرّ فوقه.

14

كـــان عـرض النهر يزيد عن المئة يارد في ذلك الموضع في العام 1960. كــنت آتي لزيارة المكان منذ ذلك الحين، ووجدت أن عرضه قلّ بعض الشيء خلال السنين التي تلت ذلك اليوم. لكن يوجد دائماً من يستخدم النهـــر، محـــاولاً الإستفادة منه في تشغيل الطواحين. لقد بنيت الكثير من الـــسدود التـــي خففت من سرعة جريانه كثيراً. لكن في تلك الأيام، لم يكن يـــوجد ســـوى ثلاثة سدود على طول مجرى النهر بين نيوهامشير ووسط مـــاين. كان استخدام النهر مشاعاً حينها، وكان يفيض في فصل الربيع كل ثـــلاث سنوات فيغمر ضفافه والطريق 136 عند مفترق الطرق هارلو أو دانفرز أو عند الإثنين معاً.

الآن، فـــي نهايـــة أكثر فصول الصيف التي شهدتها ماين جفافاً منذ الكـــساد الكبيـــر، كان لا يزال مجرى النهر عريضاً. ومن حيث أقف في جانـــب كاسل روك، بدت الغابة في جانب هارلو منطقة مختلفة تماماً. فقد كانـــت أشـــجار الـــصنوبر والتـــنوب هناك تبدو زرقاء اللون بسبب سديم الحـــرارة في فترة ما بعد الظهر. كانت قضبان سكة الحديد تمرّ فوق النهر على ارتفاع خمسة عشر قدماً، وكانت تحملها مجموعة من الأعمدة الخشبية المطلـــية بالقـــار والروافد المتصالبة. كانت المياه ضحلة لدرجة أنك كنت تـــستطيع النظر إلى الأسفل وترى سطوح المكعبات الإسمنتية التي زُرعت على عمق ثلاثين قدماً في قاع النهر لدعم المنصة.

كانـــت المنـــصة في حدّ ذاتها منشأة بسيطة حيث تمتدّ قضبان سكة الحديد على امتداد منصة خشبية طويلة وضيقة بأبعاد 2 × 4. وكان يوجد فجـــوة يبلغ اتساعها عشرة سنتيمترات بين كل زوج من هذه الروافد حيث يمكـــنك النظر منها إلى الماء. وعلى الجانبين، كانت هناك مسافة لا تزيد عـــن خمسة وأربعين سنتيمتراً بين قضيب السكة وحافة المنصة. وفي حال وصـــل القطـــار، يتوفـــر حيّـــز كاف للخروج عن سكته. لكن الريح التي

سيـسببها مـرور قطار الشحن بسرعة ستدفعك بالتأكيد إلى السقوط، وإلى موت أكيد على تلك المكعبات الاسمنتية المنتشرة أسفل المياه الضحلة.

نظـرنا إلى المنصة، وشعرنا جميعاً بالخوف وهو يتسلل إلى قلوبنا. كـان ذلـك الخـوف ممزوجاً بالإثارة التي سببها الجرأة، شيء يمكن أن تتباهـى به حتى بعد عدة أسابيع من عودتك إلى منزلك... في حال عدت إلى المنزل. كان ذلك البريق الغريب يتسلل إلى عيني تيدي، واعتقدت بأنه لا يـرى منـصة القطار وإنما يرى شاطئاً رملياً طويلاً وألف دبابة إنزال تـركب الأمـواج المـزبدة، وعشرة آلاف جندي وهم يهاجمون للشاطئ، ويـصارعون من أجل إخراج أحذيتهم من الرمال. كانت توجد لفائف من الأسلاك الشائكة، وقنابل يدوية تُلقى على الحصون الصغيرة وعلى المدافع الرشاشة.

كـنا نقف بجانب قضبان السكة حيث كانت حواف السكة تميل بعيداً فـي اتجـاه حافة النهر؛ وحيث تنتهي الطريق وتبدأ المنصة. وبالنظر إلى أسـفل، كـان في مقدوري رؤية الموضع الذي يزداد عنده ميل الإنحدار، ورؤيـة القليل من أشجار التنوب ذات الجذور المكشوفة والتي برزت من خـلال الشقوق التي أحدثتها في الصخور. بدت وكأنها تنظر إلى انعكاس خيالها على المياه الجارية..

فـي ذلك الموضع، بدا نهر كاسل نظيفاً. وبالرغم من أن مياه النهر كانـت صـافية هنا بما يكفي لرؤية قاع النهر لم أجد سمكاً يقفز، عليك أن تـسير مـسافة خمسة عشر كيلومتراً إضافية في اتجاه منبع النهر نحو نيو هامـشير لكـي ترى السمك في نهر كاسل. وحتى على بعد خمسة عشر كيلومتراً لم يكن يوجد سمك، وكان في مقدورك رؤية رغوة المواد الوسخة علـى جانبي النهر وهي تتجمع حول الصخور؛ كان لون تلك الرغوة بلون العـاج القـديم. كمـا لم تكن رائحة النهر زكية أيضاً، إذ إنها كانت أشبه بـرائحة سـلّة غسيل مليئة بالمناشف العفنة. كانت اليعاسيب منتشرة على سـطح المـاء لأنـه لم يكن يوجد سمك للترويت لكي يأكلها. اللعنة، حتى السمكات الفضية لم تكن موجودة.

قال كريس بنبرة رقيقة: "يا رجل".

قـال تيدي بطريقته المتعجرفة الصاخبة: "هيا بنا. لنذهب". كان على وشك الخروج من المنصة وهو يسير بين الحاجزين الحديديين المشعّين.

قـــال فيـــرن بنبـــرة تنمّ عن القلق: "هل يعرف أي منكم متى سيأتي القطار التالي؟"

هزّ كل واحد منّا كتفيه استخفافاً.

قلت: "هناك جسر الطريق 136..."

صـــــاح تـــيدي: "هـــيا، أعطني فرصة. هذا يعني السير مسافة سبعة كيلومتــــرات مع مجرى النهر على هذه الضفة، ثم سبعة كيلومترات أخرى علـــى الضفة الأخرى... أي أننا سنسير إلى أن يحلّ الظلام! إذا استخدمنا المنصة، ففي إمكاننا بلوغ المكان نفسه في غضون عشر دقائق!"

قـــال فيـــرن: "لكن إذا جاء القطار، لن نجد مكاناً نسير فيه". لم يكن ينظر إلى تيدي بل كان ينظر إلى أسفل حيث تتدفق مياه النهر بسرعة.

قال تيدي: "اللعنة، لا يوجد قطار آخر". تأرجح على الحافة، وأمسك بإحدى الدعامات الخشبية بين الحاجزين. لم يمل جسمه إلى الخارج كثيراً، لكـــن بالكـــاد لامس حذاؤه الأرض؛ غير أن فكرة القيام بالأمر نفسه فوق وســـط النهر مع احتمال السقوط من ارتفاع خمسة عشر متراً والقطار يمر فـــوق رأسي، قطار على الأرجح سيطلق بعض الشرارات الجميلة الحارّة على شعري وأسفل رقبتي... جعلتني لا أشعر بأني ملك هذا اليوم.

قـــال تـــيدي: "أتريدون أن تروا مدى سهولة الأمر؟" قفز على سكة القطار، ومد يديه، وعاد وتسلّق المنحدر خلفنا.

سأل كريس: "أتريد أن تقول لي بأنك ستبقى معلّقاً في حال مرّ بقربك قطـــار يـــضم مائتـــي عربة؟ أتريد أن تبقى على هذا الحال ما بين خمس وعشر دقائق؟"

صاح تيدي: "أنت جبان".

قال كريس: "كلا، أنا أسأل فقط عما تنوي القيام به". ثم ابتسم وقال: "اهدأ يا رجل".

قـــال تيدي كما لو كان ينهق: "اسلك الطريق الإلتفافية إذا شئت. من سيأبه لذلك؟ سأنتظر وآخذ قيلولة عندما أكون في انتظارك".

قال بنبرة مترددة: "لقد مرّ قطار واحد أصلاً. وعلى الأرجح ألاّ يسير علـــى السكة أكثر من قطار واحد أو اثنين في اليوم عبر هارلو. انظر إلى هـــنا". ركلت الأعشاب التي نمت بين العارضات الخشبية بحذائي. لم يكن يوجد أعشاب على سكة القطار التي تمتدّ بين كاسل روك ولويستون.

قال تيدي بنبرة منتصرة: "انظر هناك".

أضفت: "لكن لا يزال هناك احتمال بأن يمرّ قطار آخر".

قال كريس: "أجل". كان ينظر إليّ فقط، وكانت عيناه تبرقان. "هل تجرؤ على القيام بذلك يا لوشانس؟"

"ابدأ أنت أولاً".

قال كريس: "حسناً". ثم نظر إلى تيدي وفيرن وقال: "هل يوجد جبناء بيننا؟"

صاح تيدي: "كلا".

بلع فيرن ريقه، ثم عاد وبلعه ثانية، وقال بصوت منخفض جداً: "كلا". وابتسم ابتسامة ضعيفة ومخيفة.

قال كريس: "حسناً". ولكننا ترددنا للحظة، وحتى تيدي تردد فيما كان ينظر بقلق إلى سكة الحديد. انحنيت، وأمسكت بأحد قضبان السكة بقوة من غير أن أبالي بأنها حارّة بما يكفي لكي تحرق راحة يدي. لم ألحظ أي ارتجاجات فيها.

قلت: "حسناً". بالرغم من أنني شعرت بخوف شديد.

صعدنا إلى المنصة الواحد تلو الآخر، فصعد كريس أولاً، ثم تيدي، ثم فيرن، ثم سرت في المؤخرة لأنني قلت بأن من يجرؤ على القيام بذلك أولاً يمشي أولاً. مشينا على العارضات بين قضبان السكة، وكان علينا أن ننظر إلى مواضع أقدامنا سواء أكنا نخشى الإرتفاعات أم لا. تكفي زلّة قدم واحدة لكي تنتهي بكاحل مكسور.

ابتعدت عن الطريق الترابية، وكانت كل خطوة إلى الأمام تزيد من حتمية قرارنا... وتجعله أكثر شبهاً بقرار انتحاري غبي. توقفت لكي أنظر إلى الأسفل، وعندها رأيت الصخور وقد تباعدت لكي تفسح الطريق أمام جريان المياه أسفل منّي. كان كريس وتيدي قد سبقانا بمسافة بعيدة، وكادا أن يتجاوزا منتصف المنصة، وكان فيرن يمشي ببطء خلفهما فيما كان ينظر إلى قدميه باستمرار. بدا أشبه بامرأة عجوز رفعت تنّورتها، وأبقت رأسها إلى أسفل. حنى ظهره، وبسط يديه لكي يحافظ على توازنه. نظرت إلى الخلف فوجدت أنها مسافة طويلة. ولذلك بات لزاماً عليّ أن أواصل السير الآن لأن القطار ربما يأتي وحسب، لأنه إذا عدتُ أدراجي فسأُنعت بالجبان طوال حياتي.

لذلك عدت إلى المشي مرة أخرى. وبعد أن نظرت إلى العدد اللانهائي من العارضات الخشبية، مع نظرة إلى المياه الجارية بين كل عارضتين، بدأت أشعر بالدوار وانعدام التوجيه. كان عقلي يؤكد لي في كل مرّة أرفع فيها قدمي أنها ستكون قفزة في الهواء، بالرغم من أنه كان في مقدوري رؤية أن الحال ليس كذلك.

أصبحت شديد الإنتباه إلى الأصوات التي في داخلي والأصوات التي تأتيني من الخارج، مثل أوركسترا تعزف موسيقى جنونية. فخفقات قلبي المنتظمة، ونبض الدم في أذنيّ الذي كان أشبه بطبل تقرعه أغصان الأشجار، وصرير أوتار رجليّ الذي بدا أشبه بأوتار كمان يعزف عليه عازف بطريقة مزعجة، أضف إلى ذلك خرير الماء، وحفيف أوراق أشجار الخرنوب، وصياح طائر القرقف، ونباح كلب ربما كان شوبر. لقد كانت رائحة عفن نهر كاسل قوية. كانت عضلات فخذيّ الطويلة ترتجف، وبقيت أفكر إن كنت سأصبح أكثر أمناً (وأسرع مشياً ربما) لو جثوت على ركبتيّ ويديّ، وأكملت طريقي على هذا النحو. ولكنني لم أكن لأفعل ذلك؛ لم يكن أي منا سيفعل ذلك. فإذا كنا قد تعلمنا شيئاً من الأفلام السينمائية التي نشاهدها في أمسيات أيام السبت في جيم، فهي حقيقة أن الخاسرين فقط هم الذين يزحفون. كانت تلك إحدى المعتقدات الرئيسية لهوليوود. فالأشخاص الطيبون يمشون ورؤوسهم مرفوعة، وإذا كانت أوتارك تصرّ مثل أوتار كمان مشدودة للغاية لأن هرمون الأدرينالين يسري في بدنك، وإذا كانت عضلات فخذيك ترتجف لأجل السبب نفسه، فعليك ألاّ تهتم بما سيحصل.

كان عليّ أن أتوقف في منتصف المنصة، وأنظر إلى السماء لبرهة من الوقت، لأن ذلك الإحساس بالدوار ازداد سوءاً. رأيت عارضات خيالية؛ بدت أنها تحلّق أمام أنفي مباشرة. ثم اختفت بعد ذلك وتنبّهت إلى أنني كنت أصطدم بفيرن الذي كان يسير ببطء شديد. أما كريس وتيدي فقد أوشكا على اجتياز المنصة.

بالرغم من أنني قرأت سبعة كتب تحكي عن أشخاص يمكنهم القيام بأشياء غريبة جداً مثل قراءة الأفكار والتكهن بالمستقبل، فقد كنت متأكداً من النهاية بعد أن وضعت يدي على السكة التي في يساري ووجدت أنها تهتزّ. كانت تهتزّ بقوة لدرجة أنني أحسست كما لو كنت أمسك بمجموعة من الأفاعي المعدنية القاتلة.

هل سمعت العبارة التي تقول: *لقد تحوّلت أمعاؤه إلى مياه*؟ أنا أعرف مـا الذي تعنيه تلك العبارة؛ أنا أعرف ما تعنيه بالضبط. ربما كانت أكثر العـبارات المبتذلة دقة. كنت أشعر بالرعب، وحتى بالرعب الشديد منذ أن سـمعت تلـك العـبارة، ولكن لم يسبق أن شعرت بمثل ذلك الرعب الذي شـعرت به في تلك اللحظة وأنا أمسك بالقضيب المعدني الحارّ. بدا لوهلة أن كافة وظائفي الجسدية أسفل حلقي قد أصيبت بالشلل، وغرقت في حالة مـن الإغماء الداخلي. جرى خيط رفيع من البول بلا انقطاع على الجانب الداخلي لفخذي، وانفتح فمي. لم أفتحه، بل انفتح من تلقاء نفسه بعد أن نزل فكّـي مـثل بـويب أفقي أزيلت مفاصله فجأة. التصق لساني بسقف فمي، وتجمّـدت عـضلاتي، كان ذلك أسوأ ما عانيت منه، فقد أصيبت وظائف جـسمي بحالة من الشلل، ولكن عضلاتي تيبست بحيث لم أعد أقوى على الحـراك. سـيطر علـيّ هـذا الشعور للحظة وحسب، لكنها بدت وكأنها ستستمرّ إلى الأبد.

زادت كثافة كافة مدخلاتي الاستشعارية، كما لو حدثت زيادة فجائية فـي التـيار الكهربائـي الذي يتدفق في دماغي بحيث بات يدير كل شيء بطاقـة مائتـين وعـشرين فولت بعد أن كان يدور بمئة وعشرة. كان في مقـدوري سماع طائرة وهي تحلّق في السماء في مكان قريب منّي. تمنّيت لو كنت راكباً على متنها، على مقعد بالقرب من إحدى النوافذ مع كوب من شراب الكوكاكولا في يدي فيما أنظر إلى الأسفل إلى مجرى نهر يلمع ولا أعـرف اسـمه. كـان في مقدوري رؤية فتات الحديد وفتات الصخر بين العارضـات الخشبية التي كنت أسير عليها. كنت أنظر بطرف عيني إلى قـضبان سكة الحديد نفسها التي علقت يدي بها وهي تهتزّ بجنون. وصلت اهتزازات القضبان الحديدية إلى يدي بحيث ظلّت تهتزّ حتى عندما رفعتها فـيما كانت ترسل موجات عصبية الواحدة تلو الأخرى، فتنخز يداً أو قدماً كانت نائمة فتوقظها. كان في استطاعتي تذوّق طعم لعابي، وفجأة، تجمدت الكهـرباء والحموضـة في لثتي. والأسوأ من ذلك، والأكثر رعباً، أنني لم أكن اسمع صوت القطار، ولم أعرف إن كان قادماً من أمامي أم من خلفي، أو مدى قربه منّي. كان قطاراً غير مرئي لم يعلن عن قدومه أحد، باستثناء القضبان التي كانت تهتزّ. كانت تلك العلامة الوحيدة التي تعلن عن وصوله الوشـيك. وارتـسمت صورة الصبي راي براور الذي سقط في حفرة في

مكــان مــا أشبه ما تكون بكيس مفتوح للغسيل أمام عينيّ. سنلحق به، أو ألحق به أنا وفيرن على الأقل. لقد جئنا بأنفسنا إلى جنازتينا.

كانــت تلك الخاطرة الأخيرة التي أزالت الشلل وأطلقت ساقيّ للريح. علــى الأرجح أنني بدوت مثل رافعة سيارة بالنسبة إلى أي شخص ينظر إلــيّ، ولكنني شعرت مثل صبي يسير بحركة بطيئة أسفل الماء، صبي لا يتحــرك فــي مكعب من الهواء يبلغ ارتفاعه مترين، وإنما في مكعب من المياه يبلغ ارتفاعه مائتي متر، في سرعة بطيئة جداً وهمّة ثقيلة على نحو مرعب فيما المياه تجري في اتجاه معاكس.

ولكننــي اســتطعت في نهاية الأمر الوصول إلى السطح. صرخت: "جاء القطار".

اختفت آخر آثار الشلل وبدأت أركض. نظر فيرن خلفه. لقد شوّهت المفاجأة وجهه بطريقة كوميدية للغاية. رآني وأنا أركض بأقصى سرعتي، وأتــرنّح بــين عارضــة وأخرى، فعرف أني لم أكن أمزح. عندئذٍ بدأ هو الآخر بالجري.

كان في مقدوري رؤية كريس من بعيد وهو يقفز عن المنصة إلى برّ الأمان فأحسست بكراهيتي له مثل كراهيتي لعصارة ورقة خضراء مرّة في شــهر أبــريل/نيسان. أصبح في أمان. ذلك اللعين أصبح في أمان. راقبته وهو يجثو على ركبته ويضع يده على السكة.

كــادت قدمي اليسرى أن تنزلق عن العارضة، ولكنّي بسطت يديّ، وتمكنت من استعادة توازني ومواصلة الجري. والآن، أصبحت خلف فيرن مباشــرة. كــنا قد تجاوزنا نقطة الوسط عندما سمعت صوت القطار لأول مــرّة. كــان قادماً من ورائنا، من جانب كاسل روك. كان صوت هديره منخفــضاً، ثم بدأ يعلو شيئاً فشيئاً فسمعت صوت المحرك، ثم علا صوت العجلات التي كانت تدور بقوة على السكة.

صاح فيرن: "اللعنة".

صــحت وأنــا أنخــزه بإصــبعي مــن الخلــف: "أركــض أيها المخنث".

"لا أستطيع. سأسقط عن المنصة".

"أسرع".

"اللعنة".

ولكــنه زاد مــن سرعته فتطاير قميصه خلفه. كان في مقدوري رؤية العرق وهو يتقاطر من كتفيه ليشكل قطرات صغيرة. وكان في مقدوري رؤية مؤخــرة عــنقه فيما كانت عضلاته تنقبض وتنبسط وتنقبض وتنبسط. برز عمــوده الفقري على شكل عقد، وكان لكل عقدة ظل خاص على شكل هلال؛ كان في مقدوري رؤية تقارب المسافات التي تفصل بين تلك العقد كلما اقتربت من رقبته. كان لا يزال يحمل حقيبته وكنت لا أزال أحمل حقيبتي. كان فيرن يقفــز علــى العارضات عندما كادت قدمه تزلّ عن إحداها، ولكنه انحنى إلى الأمام باسطاً ذراعيه. عدت فنخزته من جديد لكي أحثه على مواصلة الجري.

"يا غوردي، لم يعد في مقدوري الحراك. اللعنة".

"أســرع أيها الخمول". صرخت بصوت عالٍ، لكن هل وجدت متعة في ذلك؟

أجل؛ بطريقة معينة تجلب الدمار إلى النفس، خبرتُها عندما كنت في أحد الأيام ثملاً للغاية. كنت أدفع فيرن تيسيو مثل راعي ماشية يسوق بقرة رثعــة علــى نحو ملفت إلى السوق. وربما كان يستمتع بخوفه بالطريقة ذاتها، فكان يصرخ مثل البقرة، ويخور، ويعرق. كان قفصه الصدري يعلو وينخفض مثل منفاخ حداد يعمل بوتيرة سريعة، وكان يواصل الخطى وهو يتمايل يمنة ويسرة.

أصــبح صــوت القطار عالياً جداً الآن، حيث اختلط صوت محركه بهدير عجلاته. أطلق صفارته مع اجتيازه نقطة التقاطع حيث توقفنا للرسم على سارية الإشارات. وجدت أخيراً حارس الجحيم، سواء أعجبني أم لا. انتظرت ريثما تهتزّ المنصة تحت قدميّ. قلت في نفسي، عندما يحدث ذلك، فذلك يعني أن القطار أصبح خلفنا مباشرة.

"أسرع يا فيرن، أسرع".

"يا الله".

دوّى الــبوق الكهربائــي للقطــار فجأة في الهواء إلى جانب صوت انفجـــار طويل وقوي، مما جعل كل ما سبق أن رأيته في الأفلام السينمائية أو فــي الكــتب الفكاهــية أو في أحلام اليقظة يتبخر، لتعرف بأن كلاً من الأبطال والجبناء يُسمع صوتهم عندما يكون الموت في إثرهم.

فــي تلــك المرحلة، أصبح كريس أسفل منا من جهة اليمين، وتبدي خلفــه فــيما كانت نظارته تلمع تحت أشعة الشمس، وكانا يصرخان بكلمة

واحدة وكانت تلك الكلمة *اقفز!* ولكن المنصة بدأت تهتزّ مع صعود القطار عليها. عندئذٍ قفزنا.

سقطَ فيرن على التراب والحصى، وسقطتُ أنا خلفه مباشرة، بل كدت أسقط فوقه. لم أرَ ذلك القطار، كما لم أعرف إن كان المهندس الذي يعمل فيه قد رآنا؛ وعندما أشرت إلى إمكانية أنه لم يرنّا أمام كريس بعد بضع سنين، قال: "إنهم لا يطلقون صفارة القطار على هذا النحو من أجل التسلية يا غوردي". لكن من الممكن أن يكون هذا ما حصل فعلاً، ربما أطلق الصفارة بدون سبب معين. في تلك اللحظة، لم يكن للتفاصيل الدقيقة أهمية. وضعت يديّ على أذنيّ، ووضعت وجهي في التراب الحارّ فيما كان قطار الشحن يمرّ فوقنا، والحديد يحتك بالحديد، والهواء ينفخ فينا. لم أجد دافعاً للنظر إليه. كان قطار شحن طويلاً، ولكنني لم أنظر إليه على الإطلاق. وقبل أن يعبر المنصة بالكامل، أحسست بيد دافئة على رقبتي فعرفت أنه كريس.

عندما رحل القطار –عندما تأكدت تماماً من أنه رحل– رفعت رأسي مثل جندي يخرج من جحر الثعلب غداة انتهاء يوم طويل من القصف المدفعي. كان فيرن لا يزال غارقاً في التراب وهو يرتجف. جلس كريس متربعاً بيننا وقد وضع يداً على رقبة فيرن التي كانت ترشح عرقاً ويداً على رقبتي.

عندما اعتدل فيرن في جلسته أخيراً، وبلل شفتيه بطريقة لا إرادية. قال كريس: "ما رأيكما في شرب زجاجات الكوكاكولا؟ هل يريد أحد منكم مشاركتي؟"

عبّرنا جميعاً عن رغبتنا في الانضمام إليه.

15

بعد أن مشينا نصف كيلومتر تقريباً عند طرف هارلو، اختفت سكة الحديد في الغابة. كانت الأرض الكثيفة بالأشجار تنحدر إلى الأسفل نحو أرض مليئة بالمستنقعات. كانت مليئة بحشرات البعوض التي كانت بحجم الطائرات المقاتلة، ولكن الجو كان هادئاً وممتعاً.

جلسنا في الظل لكي نشرب الكوكاكولا. وضعت وفيرن قميصينا على أكتافنا لحمايتها من البعوض، ولكن كريس وتيدي جلسا عاريين حتى

خصريهما، بهدوء وبرودة أعصاب مثل رجلين من الأسكيمو في بيت مصنوع من الثلج. لم يكد يمضي على جلوسنا خمس دقائق حتى توجه فيرن نحو الأشجار ليقضي حاجته، وهو ما أطلق سيلاً من النكات والصراخ عندما عاد.

"لقد أخافك القطار كثيراً، أليس كذلك يا فيرن؟"

قال فيرن: "كلا. كنت أنوي قضاء حاجتي على كل حال، كما تعرفون".

صاح كريس وتيدي بتعجب: "يا فيرن؟"

"صدقوني يا رفاق. إنني أقول لكم الحقيقة".

سأله تيدي: "إذن أنت لا تمانع إذا فحصنا سروالك، أليس كذلك؟" فيما كان فيرن يضحك.

ثم التفت كريس إليّ وقال: "هل أخافك القطار يا غوردي؟"

قلت: "كلا". وشربت جرعة من الكوكاكولا.

"لم يخفك كثيراً أيها العفريت". ووجه لكمة خفيفة إلى كتفي.

"أنا أقول الصدق. لم أشعر بالخوف على الإطلاق".

"حقاً؟ ألم تشعر بالخوف؟" كان تيدي ينظر إليّ نظرة فاحصة.

"كلا. لكنني شعرت بأني مصاب بالشلل".

أثار هذا التعليق سرور الجميع، حتى فيرن، وضحكنا جميعاً. ثم استلقينا على ظهورنا وتوقفنا عن المزاح، واكتفينا بشرب الكوكاكولا ولزوم الصمت. أحسست بالدفء، والنشاط، والطمأنينة. لم تراودني أي أفكار مزعجة. شعرت بأنني حيّ وكنت مسروراً بذلك. بدا كل شيء لطيفاً معي، ومع أنني لم أستطع التعبير عن ذلك بصوت مسموع، لكنني لم آبه لذلك؛ ربما كان الشعور بالإلفة شيئاً أردت أن أخصّ به نفسي.

أعتقد بأنني بدأت أفهم في ذلك اليوم ما يجعل الرجال شجعاناً. لقد دفعت عشرين دولاراً لمشاهدة محاولة إيفيل كنيفيل القفز فوق نهر كانيون قبل بضع سنين عندما امتلأ قلب زوجتي رعباً. قالت لي بأنه لو وُلدت رومانياً لكنت أتناول العنب الآن وأشاهد الأسود وهي تقطع أشلاء البشر. كانت زوجتي مخطئة بالرغم من أنني وجدت صعوبة في شرح السبب (أعتقد بأنها حسبتني أريد إغاظتها). لم أدفع مبلغ العشرين دولاراً لأشاهد رجلاً وهو يموت أثناء القفز من ضفة إلى أخرى، بالرغم من أنني كنت متأكداً من أن هذا ما كان سيحصل بالضبط. ذهبت إلى هناك بسبب الظلال

التـي توجد دائماً خلف عيوننا، ولأن بروس سبرينغستين غنّى للظلام في إحدى أغنياته. وأعتقد بأن كل شخص يرغب في تحدّي الظلام.

قال كريس فجأة وهو يجلس: "هاي، قل لنا تلك الحكاية".

سألته بالرغم من أنني عرفت ماذا يقصد: "أي حكاية؟"

لطالما شعرت بالضيق عندما تتركز الأحاديث حول قصصي، بالرغم مـن أنهـا كانت تستحوذ على إعجابهم؛ إن الرغبة في سرد القصص، أو حتـى الـرغبة فـي كتابتها مسألة خاصة جداً، وهي أشبه بالرغبة في أن يـصبح المرء تحرّياً أو ميكانيكياً في سباقات السرعة. كان ريتشي جينير، وهو صبي ظل يرافقنا إلى أن رحلت عائلته إلى نبراسكا في العام 1959، أول شـخص عرف بأنني أريد أن أكون كاتباً عندما أكبر، وأنني أريد أن أقـوم بـذلك كوظـيفة بدوام كامل. كنا جالسَين في غرفتي نتبادل الحديث عـندما رأى مجموعة من الصفحات التي كُتب عليها بخط اليد لأسفل الكتب الفكاهـية فـي علـبة داخل خزانتي. سألني ريتشي: "ما هذا؟" أجبته: "لا شـيء". وحاولـت أن أعـيدها إلـى مكانهـا. لكـن ريتشي أمسك بتلك الـصفحات... ويتعين عليّ الإعتراف بأنني لم أحاول جاهداً انتزاعها منه. أردت أن يقرأها، ولكن راودتني في الوقت نفسه رغبة معاكسة؛ هذا مزيج مـزعج مـن الإعتزاز والخجل لا يزال يراودني كلما طلب شخص إلقاء نظرة على أعمالي. إن الكتابة في حدّ ذاتها تتم في السرّ، كما لو كان المرء يـرتكب خطيئة؛ أعرف صديقاً كان يكتب القصص على واجهات محلات بـيع الكـتب وواجهـات المتاجر المتنوعية، ولكنه رجل شبه مجنون مفعم بالجـرأة، وهو من نوع الرجال الذين ترغب في مرافقتهم في حال سقطت على الأرض إثر تعرّضك لنوبة قلبية في مدينة لا تعرف فيها أحداً سواه.

جلس ريتشي عند طرف سريري طوال فترة ما بعد الظهر وهو يقرأ الصفحات التي كتبتها، والتي بدت متأثرة إلى حدّ بعيد بالكتب الفكاهية التي كانت قد جعلت فيرن يعاني من الكوابيس. وعندما انتهى من قراءتها، نظر إلـيّ نظرة جديدة وغريبة جعلتني أشعر بأنني شخص فريد من نوعه، كما لـو كـان مجبراً على إعادة تقييم شخصيتي. قال ريتشي: "أنت بارع في الكـتابة. لِـمَ لا تعرض ما كتبته على كريس؟" قلت له إنني لا أريد ذلك، لأنـي أريد أن يبقى الأمر سرّاً. سألني ريتشي: "لماذا؟ فأنا أجدها ممتعة، وأنت لا تبدو غريب الأطوار فيها. أعني أنك لا تكتب شعراً".

لكنني حملته على التعهد بألاّ يخبر أحداً عن قصصي، ولكنه نكث بوعده بالطبع وتملّكت الجميعَ رغبةٌ في قراءة ما كتبتُه، وهي أعمال تناولت في معظمها قصص أشخاص أحرقوا وهم أحياء أو تحكي عن معتوه خرج من بين الأموات وذبح أعضاء هيئة المحلّفين الذين أدانوه في ثماني طرق مشوّقة، أو تحكي عن مجنون قطّع أوصال العديد من الناس قبل أن يتمكن البطل، واسمه كورت كانون، من *تحويل هذا المجرم الذي هو دون البشر إلى قطع صغيرة بعد أن أطلق عليه سيلاً من الطلقات من مدفعه الرشاش.*

في قصصي، يوجد دائماً طلقات، وليس رصاصات.

بغرض إحداث تغيير في أسلوب كتابتي، كتبت قصصاً عن لي ديو، وهي بلدة في فرنسا أرادت فرقة من الأميركيين المنهكين استعادتها من النازيين في العام 1942 (كتبت تلك القصص قبل سنتين من معرفة أن الحلفاء لم ينزلوا على شواطئ فرنسا إلاّ في العام 1944). قاموا بعدة محاولات لاستعادتها، فكانوا يقاتلون في الشوارع. كانت سلسلة من أربعين قصة تقريباً كتبتها للقراء الذين تتراوح أعمارهم بين التاسعة والرابعة عشرة. ثارت ثائرة تيدي عندما قرأ قصص لي ديو، وأعتقد بأني كتبت القصص العشر الأخيرة له؛ بحلول ذلك الوقت، كان قد استبدّ بي السأم من لي ديو ومن الكتابة عن أشياء مثل مون ديو وشيرشي لي بوش! وفيرمي لي بورتي! في لي ديو، كان الفلاحون الفرنسيون يزدرون دائماً الجنود الأميركيين! ولكن تيدي كان يتجاوز تلك الصفحات وهو ينظر بعينين واسعتين وقد أشبع حاجباه بالعرق وبدت التجاعيد على وجهه. كانت هناك أوقات تخيلت فيها أني اسمع طلقات بنادق البراونينغ الألمانية التي تبرّد بالهواء وهدير المدافع المضادّة للطائرات من عيار 88 ملم وهي توجّه طلقاتها نحو جمجمته. كانت طريقته الصاخبة في المطالبة بالمزيد من قصص لي ديو ممتعة ومرعبة في آنٍ معاً.

اليوم، أصبحت الكتابة عملي الذي تفرغت له، وقلّت المتعة التي أجدها فيها بعض الشيء، وبات ينتابني المزيد من الشعور بالذنب المصحوب بالمتعة المصحوبة بالصور السريرية للتلقيح الصناعي: أنا أكتب وفقاً للقواعد والتشريعات التي نص عليها عقدي مع الناشر. وما يثير الرعب في نفسي هو مقدار الأذى الذي بات يسببه ذلك في هذه الأيام. بالعودة إلى الأيام السابقة،

كنت أشعر بالإشمئزاز أحياناً من مدى إحساسي بالمتعة وأنا أكتب. وفي هذه الأيام، صرت أنظر في بعض الأحيان إلى آلتي الكاتبة وأتساءل متى ستفرغ من الكلمات الجيدة. لا أريد أن يحصل ذلك. وأعتقد أنني أستطيع المحافظة على رباطة جأشي طالما أنه لا يزال في جعبتي كلمات جيدة.

سأل فيرن بتبرّم: "ما هذه القصة؟ إنها ليست قصة رعب. أليس كذلك يا غوردي؟ أعتقد بأنني لا أرغب في سماع المزيد من قصص الرعب. فأنا لست مستعداً لذلك يا رجل".

قال كريس: "كلا، إنها ليست قصة رعب، بل هي قصة ممتعة فعلاً. قصة بذيئة ولكن مضحكة. هيا يا غوردي. أخبرنا قصتك".

سأل تيدي: "هل تدور أحداثها حول لي ديو؟"

قال كريس: "كلا، إنها لا تحكي عن لي ديو أيها المخبول ولكنها تحكي عن مسابقة في أكل الفطائر".

قلت: "هاي، أنا لم أكتبها بعد".

"أجل، لكن في استطاعتك أن ترويها لنا".

"هل ترغبون في سماعها فعلاً؟"

قال تيدي: "بالتأكيد أيها الرئيس".

"حسناً، إنها تتحدث عن بلدة خيالية اسمها غريتنا، في ماين".

قال فيرن هو يبتسم: "غريتنا؟ ما هذا الاسم؟ لا يوجد في ماين بلدة اسمها غريتنا".

قال كريس: "أقفل فمك أيها الأحمق. لقد قال لك للتو بأنها بلدة خيالية، أليس كذلك؟"

"أجل، ولكن اسم غريتنا يبدو سخيفاً.."

قال كريس: "هناك الكثير من البلدات التي تحمل أسماء سخيفة. فما رأيك ببلدة ألفريد في ماين؟ أو ساكو في ماين؟ أو كاسل روك اللعينة؟ لا توجد قلعة فيها. إن معظم البلدات تحمل أسماء سخيفة. وأنت لا تأبه لذلك لأنك اعتدت على أسمائها. أليس كذلك يا غوردي؟"

قلت: "بالتأكيد". لكنني اعتقدت بيني وبين نفسي أن فيرن على حق؛ كان غريتنا اسماً سخيفاً لكي يُطلق على بلدة. لكنني لم أستطع التفكير في اسم آخر. "إذن على كل حال، إنهم يحتفلون بذكرى أيام الرواد السنوية، تماماً كما هو الحال في كاسل روك.."

قال فيرن بنبرة جادّة: "أجل، أيام الرواد. إنها ذكرى لا تُنسى".

صاح تيدي: "هل تستطيع أن تصمت وتدعه يكمل القصة؟"

أغمض فيرن عينيه وقال: "بالتأكيد".

قال كريس: "أكمل يا غوردي".

"إنها قصة ليس فيها..."

قال تيدي: "كلا إننا لا نتوقع الكثير من أبله مثلك، لكن نريدك أن تقصها علينا على كل حال".

بلعت ريقي وقلت: "كانت ذكرى أيام الرواد. وفي الليلة الأخيرة أقاموا ثلاث مناسبات كبيرة. صنعوا عجينة البيض للأطفال الصغار، وأقاموا سباقاً شارك فيه ثمانية أو تسعة أولاد، قفزوا وأرجلهم في الأكياس، ثم أقاموا مسابقة أكل أكبر كمية من الفطائر. وكانت الشخصية الرئيسية في القصة ذلك الولد السمين الذي لا يحبه أحد والذي يسمى دايفي هوغان".

قال فيرن: "مثل شقيق تشارلي هوغان لو كان لديه واحد". ثم تراجع إلى الخلف عندما وجّه كريس لكمة إليه.

"كان ذلك الصبي في مثل عمرنا، ولكنه كان بديناً. كان وزنه حوالى تسعين كيلوغراماً، وكان يُضرب ويُطرد دائماً. وبدلاً من أن يطلق عليه الأولاد اسم دايفي، كانوا يسمونه لارد هوغان، وكانوا يطردونه كلما سنحت لهم الفرصة".

أومأ كل واحد منهم برأسه باحترام، مظهرين تعاطفهم مع لارد، بالرغم من أنه لو ظهر هذا الشخص في كاسل روك، كنا سنضايقه جميعاً.

"لذلك قرر الإنتقام لنفسه لأنه لم يعد يتحمل أكثر من ذلك كما تعرفون. كان في مسابقة تناول الفطائر، ولكنها كانت المناسبة الأخيرة أثناء أيام الرواد وكان للجميع يطمح إلى الفوز فيها. وكان الفائز سيحصل على خمسة دولارات".

قال تيدي: "إذن فاز بالمسابقة، وأشار بإصبعه إلى الجميع أليس كذلك أيها الرئيس؟"

قال كريس: "كلا، ما حصل كان أفضل من ذلك. فلماذا لا تقفل فمك وتصغي إلى ما يقوله".

"قــال لارد آس في نفسه، خمسة دولارات مبلغ كبير. إذا تذكر أحد أي شــيء علــى الإطلاق في غضون أسبوعين، فسيتذكرون أن الخنزير هــوغان اللعــين تفــوق على الجميع في الأكل. حسناً، لنذهب إلى منزله، وسنطلق عليه اسم باي آس بدلاً من لارد آس".

هزّ الجميع رؤوسهم، تعبيراً عن الموافقة على أن دليفي هوغان كان حراً مفكراً. بدأت أهيئ نفسي لكي أقص قصتي.

"لكن الجميع توقعوا منه المشاركة في المسابقة، كما تعرفون. وكذلك أمه وأبوه توقعا منه ذلك. لا تنسوا أنهما صرفا مبلغ الخمسة دولارات عليه أصلاً".

قال كريس: "أجل، هذا صحيح".

"إذن، إنه يفكر في الأمر الآن ووجد أنه يكره الفكرة كلها، لأن الخطأ لا يرجع إليه لكونه بديناً. انظر، إنه يعاني من مرض في غدته اللعينة.."

قــال فيــرن بتلهف: "لدي ابنة عم تعاني من الأمر نفسه، وهي تزن أكثــر من مائة وخمسين كيلوغراماً. وقد عُزي الأمر إلى الغدة الدرقية أو شيء من هذا القبيل. إنها أشبه بديك رومي في يوم الشكر.."

قــال كــريس بعــنف: "هل يمكنك أن تقفل فمك؟ أنا أحذرك للمرة الأخيــرة". كان قد أكمل شرب الكوكاكولا، وقلب الزجاجة الخضراء رأساً على عقب، ولوّح بها في وجه فيرن.

"أجل، أنا آسف. أكمل قصتك يا غوردي".

ابتــسمت لأنني لم أكن أبالي بمقاطعات فيرن، ولكنني لم أستطع أن أقول ذلك لكريس الذي عيّن نفسه حارساً للفنّ.

"لــذلك أعــاد التفكيــر فــي المسألة قبل أسبوع من المسابقة. وفي المدرســة، كــان الأولاد يقتــربون منه ويقولون: هاي لارد آس كم عدد الفطائــر التــي تنوي أن تأكلها؟ هل تنوي أن تأكل عشر فطائر؟ عشرين؟ ثمانــين؟ وكان لارد آس يردّ عليهم بالقول: من أين لي أن أعرف. فأنا لا أعــرف نــوع الفطائر التي سيقدمونها. كما ترون، هناك اهتمام كبير بهذه المــسابقة لأن الــبطل هو هذا الولد الضخم الذي يُدعى بيل ترانيور. وهذا التــرانيور ليس بديناً. في الواقع، كان نحيلاً جداً، ولكن في مقدوره التهام الفطائر بسرعة فائقة. وفي السنة الماضية، تمكن من التهام ست فطائر في غضون خمس دقائق".

سأل تيدي الذي بدا مصدوماً: "ست فطائر كاملة؟"

"أجل. وكان لارد آس أصغر الأولاد المشاركين في المسابقة سناً".

صاح كريس: "هيا يا لارد آس، التهم تلك الفطائر اللعينة".

قال كريس: "أخبرهم عن الأشخاص الآخرين المشاركين فيها".

"حسناً. إلى جانب لارد آس هوغان وبيل ترلينور، كان هناك كالفين سبير، أسرع شخص في البلدة؛ وكان يدير متجراً لبيع الحلي".

قال فيرن وهو يضحك بصوت منخفض: "حليّ غريبتنا". لكن كريس نظر إليه نظرة تحذير.

"وكان هناك شخص يعدّ برامج موسيقية في محطة إذاعية في لويستون. لم يكن بديناً، وإنما كثير اللحم كما تعرفون. وآخر شخص كان يدعى هوبيرت غريبتنا الثالث، وكان ناظر المدرسة التي يدرس فيها لارد آس هوغان".

سأل تيدي: "كان يتحدّى ناظر مدرسته في الأكل؟" رقص كريس بمرح وقال: "أليس ذلك رائعاً؟ أكمل يا غوردي".

استحوذت القصة على عقولهم، كانوا منحنين إلى الأمام. شعرت بأني أملك قوة مُسكرة. رميت زجاجة الكولا الفارغة نحو الأشجار، ورجعت إلى الوراء قليلاً لكي أعتدل في جلستي. أذكر أني سمعت صوت طائر القرقف مجدداً قادماً من بين الأشجار، ولكنه بدا أنه قادم من بعيد الآن.

قلت: "ولذلك توصل إلى الفكرة التالية. أعظم فكرة انتقام يمكن أن تخطر ببال صغير. ستأتي الليلة العظيمة؛ التي تعلن عن انتهاء أيام الرواد، حيث تأتي مسابقة أكل الفطائر قبل إطلاق الأسهم النارية مباشرة. أقفل الشارع الرئيسي في غريبتنا لإفساح المجال أمام الناس لكي يتنقلوا مشياً على الأقدام فيها، وكانت توجد منصة كبيرة في الشارع. كانت الرايات معلقة فوقها وقد اجتمع حشد غفير أمامها. كما كان يوجد مصور فوتوغرافي من الصحيفة لالتقاط صور للفائز الذي سيضع على وجهه عناقيد من العنبيات لأنه تبين أن الفطائر ستكون محشوة بالعنبيات في تلك المسابقة. نسيت أن أخبركم بأنه كان يتوجب على المتسابقين أن يأكلوا فطائرهم وأيديهم مربوطة خلف ظهورهم. وعلى هذه الهيئة اقتربوا من المنصة..."

انتقام لارد آس، بقلم غوردن لوشانس. نُشرت القصة في الأصل في مجلـــة كافلييـــر في مارس/آذار 1975. جرى الإقتباس منها بعد الحصول على إذن بذلك.

اقتـــربوا مـــن المنصة الواحد تلو الآخر، ووقفوا خلف طاولة طويلة مغطـــاة بقمـــاش من الكتان. كانت الطاولة مليئة برزم الفطائر التي كانت مـــصفوفة عـــند حافـــة الطاولة. وُضعت فوق هذه الرزم عقود دائرية من اللمـــبات بقوة 100 واط، وكانت الفراشات والحشرات الليلية تحوم حولها. وفـــوق المنـــصة وتحت الأنوار الكاشفة، وُضعت لافتة طويلة كُتب عليها: مـــسابقة غـــريتنا في تناول الفطائر للعام 1960. وعلى جانبي هذه اللافتة عُلقـــت مكبرات صوت تعمل بواسطة البطاريات كانت تقدمة من محلات تشاك داي في ذا غرايت داي للأجهزة الكهربائية. كان بيل ترافيس، البطل السابق، ابن عم تشاك.

مع اعتلاء كل متسابق المنصة، كان يتم توثيق يديه خلف ظهره وحلّ أزرار قميـــصه، مثل سيدني كارتون وهو في طريقه إلى المقصلة، وكان العمـــدة شـــارابونو الذي وضع ربطة عنق بيضاء كبيرة على رقبته يذيع اســـمه بواسطة مكبرات الصوت. قوبل كالفين سبير فقط بالتصفيق. وعلى الـــرغم من بطنه الضخم، الذي كان بحجم برميل مياه سعته عشرون لتراً، اعتُبر خاسراً بعد أن حل ثانياً أمام الصبي هوغان.

وبعـــد ســـبير، أذيع اسم بوب كورمبير. كان بوب يعمل مقدماً لأحد البرامج الموسيقية المشهورة في فترة بعد الظهر على أثير محطة ولام في لويستون. قوبل بالقليل من الصراخ من الفتيات المراهقات اللواتي كنّ بين الحـــضور. كانت الفتيات يعتقدن بأنه شاب ظريف. اقترب من المنصة بعد كورنييـــر ناظـــرُ مدرســـة غريتنا الإعدادية جون ويغينز. قوبل بالتصفيق الحارّ من قسم المسنّين من الحضور؛ وبالقليل من صيحات الإستهجان من أعـــضاء متفرقين من الجسم الطالبي. تمكن ويغينز من التبسم والنظر إلى الجمهور بوجه عابس في الوقت نفسه.

بعـــد ذلك، أذاع العمدة شارابونو اسم لارد آس. وقال: "مشارك جديد فـــي مسابقة غريت غريتنا السنوية لأكل الفطائر، ولكنه مشارك نتوقع منه

الكثير في المستقبل... السيد الصغير دافيد هوغان". قوبل لارد آس بموجة عارمة من التصفيق فيما كان العمدة يربط المريلة حول رقبته.

سُمع صوت القليل من الضحكات المكبوتة، ووقع أقدام تجري، وظهرت ظلال لم يقدر، ولم يرغب، أحد في معرفة أصحابها، وسُمعت ضحكات عالية، وشـوهد بعـض الحكـام وهم عابسون (أبرز تلك الوجوه العابسة كان وجه هيزونير شارابونو، وهو الشخصية الأوسع نفوذاً في المسابقة). حتى أن أحداً لـم ينتبه إلى لارد آس. وابتسامته اللطيفة التي بللت شفتيه الغليظتين وقضماته الكبيرة لم تغيّرا رأي الجمهور فيما كان العمدة العابس يضع مريلته حول رقبته وينصحه بعدم الإكتراث بالمعتوهين المنتشرين بين الحضور (كما لو كان لدى العمدة أدنى فكرة عن الآلام التي عانى منها لارد آس من المعتوهين الوحوش والتي سيظل يعاني منها طوال حياته مثل دبابة تايغر نازية). كان نفَس العمدة دافئاً تتصاعد منه رائحة الشراب.

آخر المتسابقين اعتلاءً للمنصة المزينة بالأعلام أثار أكبر موجة من التـصفيق وأطـولها زمناً. إنه بيل ترافيس الأسطوري الشره والذي يبلغ طـوله مائـة وخمـسة وتسعين سنتيمتراً. كان ترافيس يعمل ميكانيكياً في محطـة أموكـو للوقود بالقرب من رصيف القطار. وكان أحد المرشحين للفوز في المسابقة، إذا كان يوجد مرشح أصلاً.

من الأمور المعروفة في البلدة أن الفوز بمسابقة أكل الفطائر لم يكن يعني الفوز بخمسة دولارات وحسب؛ على الأقل بالنسبة إلى بيل ترافيس. وهـناك سببان لذلك. الأول هو أن الناس سيزورون المحطة لتقديم التهاني لبيل بعد أن يفوز في المسابقة، وسيملأ كل منهم خزان سيارته بالوقود. كما أنـه كان سيتم حجز حجرتي المرآب على مدى شهر كامل بعد المسابقة، لأن الـزبائن سـيأتون إلـى المحطـة من أجل استبدال الكواتم أو تشحيم العجـلات، وسيجلـسون على الكراسي المصطفة بجانب الحائط ويحتسون شـراب الكوكاكولا وغيره من الماكينة ويملؤون خزانات سياراتهم بالوقود ويتحدثون إلى بيل عن المسابقة فيما يقوم بتغيير شمعات الإشعال أو يبحث عن ثقوب في عوادم السيارات. كان بيل على استعداد للحديث دائماً، وهذا هو أحد الأسباب التي جعلته محبوباً في غريتنا.

كـان هناك خلاف في البلدة حول ما إذا كان جيري مالينغ، صاحب المحطـة، قـد عرض على بيل مكافأة سخية على الأعمال الإضافية التي

جلبها للمحطة إثر فوزه في المرّة الماضية، أو زاد راتبه نتيجة لذلك. لكن بغض النظر عن نوع المكافأة، ما من شك في أن ترافيس بذل جهداً فاق جهود الآخرين. كان يملك مزرعة جميلة تضم منزلاً من طابقين يطل على شارع ساباتوس، وكان بعض الناس يشيرون إليه بأنه *المنزل الذي بنته الفطائر*. كان في ذلك الكلام الكثير من المبالغة على الأرجح، ولكن كان لبيل رأي آخر؛ وهو ما يقودنا إلى السبب الثاني الذي جعل ترافيس يرى في الفوز في المسابقة ما هو أكثر من الفوز بخمسة دولارات.

كانت مسابقة أكل الفطائر مناسبة حامية للمراهنات في غربتنا. ربما جاء غالبية الناس لأجل الضحك، ولكن يوجد قسم لا يستهان به جاء من أجل المراهنة على ماله. كان المراهنون يراقبون المتسابقين ويناقشون أوضاعهم بمثل حماسة من يراقبون الفحول الأصيلة ويناقشون أحوالها في سباقات الخيل. كان المراهنون يقتربون من أقارب المتسابقين، وأصدقائهم وحتى معارفهم. وكانوا يتطفلون من أجل الحصول على أية تفاصيل تتعلق بعادات المتسابقين في الأكل. كان يدور الكثير من النقاشات على الدوام بشأن الفطيرة الرسمية للعام الذي ستجرى فيه المسابقة؛ كان يُنظر إلى فطيرة التفاح على أنها وجبة ثقيلة، وإلى فطيرة المشمش على أنها وجبة خفيفة (بالرغم من أنه كان على المتسابق أن يلجأ إلى الهرولة على مدى يوم أو يومين بعد تناول ثلاثة أو أربعة أطباق من فطائر المشمش). في تلك السنة، اعتُبرت فطيرة العنبيات طبقاً متوسطاً. وكان المراهنون بالطبع مهتمين بوجه خاص بشهية الرجل الذي ينوون المراهنة عليه لأطباق العنبيات. ما مدى حبّه لهذا الطبق؟ وهل يفضل مربى العنبيات على العنبيات المحفوظة؟ وهل يُعرف عنه وضع العنبيات في وجبة الحبوب على مائدة الفطور؟ أم أنه يلتزم بالموز والكريما فقط؟

كما جرى التداول بأسئلة أخرى لفترة من الوقت. فهل المتسابق سريع في الأكل في البداية ولكنه يزداد بطأً مع مرور الوقت، أم أنه بطيء في البداية ولكنه يزداد سرعة، أم أنه يحافظ على سرعة ثابتة في الأكل؟ كم يبلغ عدد حبات السجق التي يمكنه تناولها أثناء مشاهدته لمباراة في ملعب سان دوم لكرة القاعدة؟ هل هو من المدمنين على شرب الجعة، وإذا كان الحال كذلك، كم يبلغ عدد الزجاجات التي يشربها عادة كل مساء؟ هل

يتجشأ أثناء تناول الطعام؟ الإعتقاد الذي كان سائداً هو أنه من الصعب التغلب على المدى الطويل على الذي يتجشأ كثيراً.

كان يجري تمحيص كافة هذه المعلومات وغيرها، ثم توضع الرهانات. لا أعرف مقدار المال الذي تتبادله الأيدي خلال الأسبوع الذي يلي ليلة الفطائر، لكنك إذا صوبت بندقية إلى رأسي وأجبرتني على التخمين، سأقول بأن المبلغ يقترب من الألف دولار؛ يبدو هذا الرقم تافهاً على الأرجح، ولكنه كان يعتبر مبلغاً ضخماً يتم تداوله في بلدة صغيرة قبل خمسة عشر عاماً.

بما أن المتسابق كان صادقاً وبما أنه يتعين الالتزام بمدة عشر دقائق، لم يعترض أحد على متسابق يراهن على نفسه، وهذا ما كان يقوم به بيل ترافيس كل عام. ودار حديث، فيما كان يومئ برأسه ويبتسم إلى الجمهور في تلك الليلة من صيف العام 1960، بأنه راهن بمبلغ كبير من المال على نفسه مجدداً، وأن أفضل ما استطاع القيام به في ذلك العام هو المراهنة بنسبة واحد إلى خمسة. إذا كنت لا تعرف شيئاً عن المراهنات، دعني أشرح لك الأمر بهذه الطريقة: كان عليه أن يراهن بمبلغ مائتين وخمسين دولاراً لكي يفوز بخمسين دولاراً. وهذه ليست صفقة جيدة في النهاية، ولكنها كانت ثمن النجاح؛ وفيما كان يقف على المنصة، وهو يتلقى الترحاب ويبتسم بسهولة، لم يكن يبدو أنه كان قلقاً كثيراً بسبب ذلك.

قال العمدة شارابونو: "والبطل الذي يدافع عن لقبه هو بطل غريتنا نفسه، بيل ترافيس".

قوبل بيل بالتصفيق الحار.

"ما هو المبلغ الذي تنوي المراهنة عليه هذه الليلة يا بيل؟"

"سأراهن بمبلغ عشرة دولارات".

"لقد راهنتُ بمبلغ طائل من المال عليك يا بيل، فلا تخذلني يا بني".

أومأ بيل برأسه، وابتسم بكل تواضع، وترك للعمدة مهمة ربط المريلة حول عنقه. ثم جلس في أقصى الطرف الأيمن من الطاولة، بالقرب من المكان الذي سيقف فيه العمدة خلال المسابقة. إصطف من اليسار إلى اليمين بعد ذلك بيل ترافيس، ودافيد *لارد آس* هوغان، وبوب كورميير، والناظر جون ويغينز، وكالفين سبير الذي جلس على كرسي بدون ذراعين في أقصى اليسار.

أذاع العمدة شارابونو اسم سيلفيا دودج التي كانت أكثر شهرة في هذه المسابقة من بيل ترافيس نفسه. كانت رئيسة غريتنا لايديز أوغزيلياري منذ عـدة سـنوات وهـي التـي أشرفت على خبز الفطائر لهذه السنة، حيث أخـضعت كـلاً منها لمعاييرها الصارمة الخاصة بالجودة والتي تضمنت وزنها على موازين في فريدوم ماركت؛ للتأكد من أن وزن الفطائر لا يزيد أو ينقص عن أونصة واحدة عن الوزن المطلوب.

ابتسمت سيلفيا ابتسامة ملكية للحشد، وكان شعرها الأشقر يتلألأ تحت الأضـواء الكاشفة. ألقت كلمة موجزة تحدثت فيها عن سعادتها بإقبال جمع غفيـر مـن أبناء البلدة للاحتفال بالرواد الأسلاف، وهم الأشخاص الذين جعلـوا من هذا مكاناً رائعاً، لا على المستوى المحلّي حيث سيرأس العمدة شارابونو الجمهوريين المحلّيين في مجلس البلدية مجدداً في نوفمبر/تشرين الثاني وحسب، بل وعلى المستوى الوطني مع استلام فريق نيكسون ولودج شعلة الحرّية من الجنرال العظيم والمحبوب ويرفعها عالياً.

صـاح كالفـين سبير، فتعالى الضحك وحتى التصفيق. كانت سيلفيا دودج، التي تعرف تماماً بأن كالفين ديموقراطي وكاثوليكي (كان يمكن لأي مـن هاتـين الـصفتين أن تكـون متلازمة مع صفة المسامحة، لكن ليس الـصفتان معاً)، قادرة على إظهار احمرار وجهها خجلاً والظهور بمظهر الغاضـب فـي نفـس الوقت. بلعت ريقها، ورحّبت بكل صبي وفتاة في الحـضور، وطلـبت منهم أن يرفعوا العلم الأميركي عالياً دائماً في أيديهم وقلـوبهم، وأن يتذكّروا بأن التدخين عادة قذرة وشرّيرة تسبب لهم السعال. هـزّ الأولاد الـذين كانـوا يشاركون في الحفل والذين كانوا يحملون في غالبيـتهم ميداليات السلام ويدخنون ليس السجائر وإنما الحشيشة، أرجلهم في انتظار بدء المسابقة.

صـاح شـخص في مؤخر الحضور: "القليل من الكلام، والكثير من الأكل". وعلا صوت الجمهور بالتصفيق؛ كان التصفيق نابعاً من القلب هذه المرّة.

قـام العمـدة شارابونو بتسليم سيلفيا ساعة توقيت وصفارة فضية اللـون، لكـي تـستخدمها لـدى انتهاء فترة العشر دقائق التي يقضيها المتـسابق فـي التهام الفطائر. وبعد ذلك، يتراجع العمدة شارابونو إلى الوراء ويرفع يد الفائز.

علا صوت هيزونير في الشارع الرئيسي في البلدة: "هل أنتم مستعدون؟"

أشار المتسابقون الخمسة إلى أنهم مستعدون.

أراد هيزونير التأكيد على الجواب فقال: "هل أنتم جاهزون؟"

صاح المتسابقون بأعلى صوتهم قائلين بأنهم مستعدون. وفي آخر الشارع، أطلق صبي بعض الأسهم النارية.

رفع العمدة شارابونو يده الغليظة ثم أنزلها وقال: "باشروا".

انقضّت الرؤوس الخمسة على أطباق الفطائر الخمسة. كان الصوت أشبه بوقع خمس أقدام غاصت في الوحل. وارتفعت الأنوف المبللة لاستنشاق الهواء اللطيف، ثم بدأ الجمهور والمراهنون بالتصفيق لمن راهنوا عليهم. وما إن تم الفراغ من أول فطيرة حتى أدرك معظم الحاضرين بأن أمراً مزعجاً في طور الإختمار.

كان لارد آس هوغان، وهو صاحب رهان خاسر بنسبة سبعة إلى واحد بسبب صغر سنه وقلّة خبرته، يأكل مثل صبي مسكون. كان فمه يعمل مثل ماكينة (كانت المسابقة تشترط الإقتصار على أكل الطبقة العلوية من الفطيرة وليس الطبقة السفلية)، وعندما اختفت تلك الطبقة، سُمع صوت ابتلاعها وهو يخرج من بين شفتيه. كان أشبه بصوت مكنسة كهربائية صناعية تعمل. ثم اختفى رأسه بأكمله في طبق الفطيرة. وما لبث أن رفعه لمدة خمس عشرة ثانية للإشارة إلى أنه فرغ منه. كان خدّاه وجبهته ملطخين بصلصة العنبيات، وبدا أشبه بوجه إضافي في حفل شعبي. فرغ من تناول الطبق؛ قبل أن ينهي بيل ترافيس الأسطورة نصف طبق الفطيرة الأول.

تعالى صوت التصفيق عندما فحص العمدة الطبق الذي تناوله لارد آس وأعلن عن أنه نظيف بما فيه الكفاية. وضع طبقاً ثانياً أمام لارد آس الذي التهم طبق فطيرة مطابقاً للمواصفات في أربعين ثانية فقط. كان ذلك رقماً قياسياً في تاريخ المسابقة.

انقضّ على الفطيرة الثانية بنهم أكبر، وبدا رأسه غارقاً في حشوة العنبيات، ونظر إليه بيل ترافيس نظرة قلقة عندما طلب إحضار طبق ثانٍ. وكما قال لأصدقائه في وقت لاحق، شعر بأنه في منافسة حقيقية لأول مرّة منذ العام 1957، عندما التهم جورج غلماش ثلاث فطائر في أربع دقائق، ثم سقط مغشياً عليه. قال بأنه تساءل إن كان يواجه صبياً أم عفريتاً، وأنه فكّر في المال الذي راهن عليه وضاعف جهوده بسبب ذلك.

لكن إذا ضاعف ترافيس جهوده مرتين، فقد ضاعفها لارد آس ثلاث مــرات. تطايــرت حشوة العنبيات من طبق الثاني، ولطخت قطعة القماش التي تغطي الطاولة من حوله، فأصبحت أشبه بلوحة لجاكسون بولوك. بدت آثــار العنبــيات على شعره، وعلى مريلته، وعلى جبهته، كما لو أنه، في محنة التركيز، بدأ جبينه يرشح عنبيات.

صـــاح: "لقد انتهيت". ورفع رأسه عن طبقه الثاني قبل أن يتمكن بيل ترافيس من التهام حتى الطبقة العلوية من فطيرته الثانية.

تمتم هيزونير قائلاً: "يحسن بك أن تبطئ سرعتك يا بني". كان العمدة قد راهن بمبلغ عشرة دولارات على بيل ترافيس. "عليك أن تأكل على مهل إذا كنت تنوي الصمود حتى النهاية".

بــدا كمــا لو أن لارد آس لم يسمع ما قيل له، فمزق فطيرته الثالثة بسرعة مجنونة، بحيث كان فكه يتحرك بسرعة البرق. ثم..

لكـــن يتعين عليّ قطع القصة لبرهة وجيزة لأخبركم بأنه كانت هناك زجاجــة فارغــة فــي خــزانة الأدوية في منزل لارد آس هوغان. كانت الــزجاجة في السابق شبه مليئة بزيت أصفر اللون ربما كان السائل الأكثر ضرراً في العالم. أفرغ لارد آس الزجاجة بنفسه وشرب كل قطرة فيها ثم لعق حافتها، وبدأ فمه يتلوّى، وبطنه يقرقر بينما كان عقله مشحوناً بخواطر الإنتقام.

فيما كان يجْهز على فطيرته الثالثة (لم يكن كالفين سبير، الأخير كما كـــان متوقعاً، قد فرغ بعد من فطيرته الأولى)، بدأ لارد آس يتعمد تعذيب نفـــسه بخيالات مروّعة. لم يعد يأكل الطبقة العلوية من الفطيرة، بل صار يأكل الفطيرة كلها.

أنهى فطيرته الثالثة، وطلب الحصول على الرابعة. أصبح يتقدم الآن علـــى بـــيل ترافيس الأسطورة بمقدار فطيرة كاملة. وبدأ الجمهور، الذي أحس بأن بطلاً جديداً وغير متوقع في طور التكوين، بالتصفيق له بحرارة.

لكن لم يكن لدى لارد آس أمل ولا نية في الفوز. فهو لم يكن ليستمرّ على هذه الوتيرة في الأكل ولو كانت حياة أمّه هي الثمن. وإلى جانب ذلك، كان الفوز بالنسبة إليه الخسارةَ بعينها، وكل ما كان يسعى إليه هو الإنتقام. كـــان بطـــنه يقرقـــر بسبب الزيت الذي شربه، وكان حلقه يفتح ويقفل بلا هـــوادة. أنهـــى فطيـــرته الرابعة وطلب الحصول على الخامسة، الفطيرة

الأخيرة. غمس رأسه في الطبق، وانتزع الطبقة العلوية، والتهم حشوة العنبيات ولكنها سالت على قميصه. بدا فجأة أن محتويات معدته أصبح لها وزن. مضغ الطبقة العلوية وابتلعها، واستنشق معها حشوة العنبيات.

وفجأة، باتت لحظة الإنتقام في متناول يده. فقد ثارت معدته، التي حُمّلت بما يفوق قدرتها على التحمّل. فقد انقبضت مثل يد قوية مغلفة بقفاز مطاطي أملس. لقد انفتح حلقه.

رفع لارد آس رأسه.

ابتسم في وجه بيل ترافيس بأسنان زرقاء. ثم أفرغ ما في معدته من طعام.

خرج الطعام من فمه دافئاً يتصاعد منه البخار، وغطى بيل ترافيس. وصرخت النساء اللواتي كنّ بين الحضور. انحنى كالفين سبير، الذي كان يراقب هذا الحدث غير المعلَن عنه، وقد ارتسم الذهول على وجهه، إلى الطاولة كما لو كان يريد أن يشرح للجمهور المتسع ما الذي يحدث، ولفرغ ما في معدته على رأس مارغريت شارابونو، زوجة العمدة التي صرخت ورجعت إلى الخلف، فيما كانت تمس شعرها بدون جدوى، والذي أصبح مغطى الآن بمزيج من حشوة العنبيات، والبازيلاء المخبوزة، والسجق المهضوم جزئياً (وهذا الأخير كان عشاء كال سبير). التفتت إلى صديقتها المخلصة ماريا لافين، وتقيأت على سترتها المصنوعة من جلد الغزال.

أطلق بيل ترافيس كمية كبيرة -بدت فائقة الشحنة- من القيء على الصفين الأولين من صفوف المتفرجين، وكان وجهه المصعوق يقول، يا رجل، أنا عاجز عن تصديق أنني أفعل ذلك.

بدوره، تقيّأ شاك داي – الذي تلقّى حصة سخية من الهدية المفاجئة التي وزعها بيل ترافيس – ما في بطنه ثم نظر إليه بعينين مشدوهتين، وهو يعلم تمام العلم أن هذا الشيء لن يزول عن جلد الشامو الذي يرتديه.

فتح جون ويتينز، ناظر مدرسة غريتنا الإعدادية، فمه أزرق اللون وقال على سبيل التوبيخ: "حقاً، كما يليق برجل هذا أصله ووضعه، لقد فعلها في طبقه الخاص".

فتح هيزونير شارابونو، الذي وجد نفسه فجأة برأس ما بدا أنه أشبه بجناح المسمومين في مستشفى منه بمسابقة تناول الفطائر، فمه ليعلن إلغاء المسابقة فيما كان يتقيأ على الميكروفون.

صاحت سيلفيا دودج: "أنقذنا يا الله". وما لبث أن خرج عشاؤها -محار مقلي، وسلطة الكرنب، والذرة والزبدة والسكر وكعكة الشوكولاته- من مخرج الطوارئ، وتطاير على ظهر سترة العمدة، فيما سقطت على الأرض.

انحنـــى لارد آس هوغان، الذي أصبح الآن في ذروة نشوته، بسعادة أمـــام الجمهور. توزع القيء في كل مكان، وتفرّق الحاضرون في دوائر وهم يضعون أيديهم على رقابهم ويصدرون أصواتاً ضعيفة. وركض كلب صغير، واعتلى خشبة المسرح، وصار ينبح كالمجنون، وتقيأ رجل يرتدي ســروال جينـــز وقميصاً حريرياً عليه، وكاد أن يغرقه. وأصدرت السيدة بروكواي، زوجة الراعي الميثودي، صوت جشاء مزعج تبعه فيض غزير مـــن لحم البقر المشوي والمتحلل والبطاطا المهروسة وفطائر التفاح. بدت الفطائـــر كما لو أنها كانت جيدة عندما دخلت معدتها. وقرر جيري مالينغ مغـــادرة بيت المجانين هذا على الفور. مشى حوالى خمسة عشر متراً قبل أن يتعثـــر بعـــربة طفل صغير ليدرك أنه سقط في بركة من عصارة الكبد الحـــارّة. وتقيأت الآنسة نورمان، التي كانت تدرّس أساسيات اللغة اللاتينية والإنكليزية في ثانوية غريتنا الموحّدة، على حقيبتها.

راقب لارد آس هوغان كل ما كان يحدث بوجه كبير هادئ، بعد أن اســتعادت معدته، وضعها الطبيعي فجأة بفضل دواء دافئ ربما لن يعرفه أبـــداً؛ كـــان ذلـــك الـــدواء شـــعوراً مطلقاً بالرضى التام. وقف، وسحب الميكروفون الذي كان في يد العمدة شارابونو بهدوء، وقال...

17

"أنا أعلن انتهاء المباراة بالتعادل". ثم وضع الميكروفون على الأرض ومـــشى خلـــف المنصة، متوجهاً إلى منزله مباشرة. كانت أمّة ساهرة في المنـــزل، لأنهـــا لم تستطع تدبير حاضنة لشقيقة لارد آس الصغيرة والتي كانـــت لا تـــزال في الثانية من عمرها. وما إن دخل المنزل وقد علا ثيابه القـــيء وعصارة الفطائر والمريلة لا تزال مربوطة حول عنقه، حتى قالت أمّـــه: "دايفـــي، هـــل فزت في المسابقة؟" ولكنه لم يتفوه بكلمة، بل اكتفى بصعود السلّم قاصداً غرفته. ثم أقفل الباب وتمدد على السرير.

وبعـــد ذلك شربتُ الجرعة الأخيرة من زجاجة كريس، وألقيتها نحو الأشجار.

قال تيدي: "هذا رائع، وماذا حصل بعد ذلك؟"

"لا أدري".

سأل تيدي: "ماذا تعني بقولك لا أدري؟"

"أعنـــي أن هذه هي النهاية. عندما لا تدري ماذا سيحصل بعد ذلك، تكون تلك النهاية".

صـــاح فيـــرن: "ماذا تقول؟" ارتسمت على وجهه علامات الإستياء، والشك. "ما هذا الهراء؟ كيف سارت الأمور بعد ذلك؟"

قال كريس بصبر: "عليك أن تستخدم مخيلتك".

قال فيرن بغضب: "كلا أنا لن أفعل. هو الذي يُفترض به أن يستخدم مخيلته، لأنه هو من اختلق هذه القصة اللعينة".

قـــال تـــيدي: "أجل، ماذا حصل للهرة؟ هيا يا غوردي، أخبرنا ماذا حصل".

"أعتقد بأن والده كان يحضر مسابقة تناول الفطائر. وعندما عاد إلى المنزل، أشبع لارد آس ضرباً".

قال كريس: "أجل، أراهن على أن هذا ما حصل".

قلت: "وبات الأولاد يطلقون عليه لقب لارد آس. ولهذا السبب لم أشأ أن أخبركم بذلك".

قال تيدي: "كان في مقدورك القول إنه أطلق النار على والده، ثم ولّى هارباً وانضمّ إلى تكساس رانجرز. ما رأيك بذلك؟"

تبادلتُ وكريس النظرات. رفع كريس إحدى كتفيه في حركة تنمّ عن الإستهزاء.

قلت: "أعتقد ذلك".

"هاي، هل لديك أية قصص جديدة عن لي ديو يا غوردي؟"

"لـــيس الآن. ربمـــا أفكـــر في واحدة لاحقاً". لم أشأ أن أزعج تيدي، ولكنني لم أكن مهتماً بما يدور في لي ديو أيضاً. "أنا آسف".

قـــال تيدي: "كلا، كانت قصة جيدة، كانت جيدة إلى أن وصلت إلى النهاية".

وافقه فيرن على ما قاله، وأضاف: "ولكن تيدي محق في تعليقه على نهاية القصة. كانت نهايتها مفاجئة نوعاً ما".

تنهدتُ، وقلت: "أجل".

نهض كريس، وقال: "لنمشِ قليلاً". كان نور الشمس لا يزال ساطعاً، والسماء زرقاء اللون، ولكن ظلال أجسامنا ازدادت طولاً. أذكر وأنا طفل أن أيـــام سبتمبر/أيلول كانت تنتهي بسرعة خاطفة لدرجة أنني كنت أفاجأ بـــذلك؛ كمـــا لـــو أن شيئاً في داخلي يتوقع أن تظل السنة كلها مثل شهر يونيو/حزيران، حيث يطول النهار ولا تغيب الشمس إلاّ في ساعة متأخرة جداً. "كم الساعة الآن يا غوردي؟"

نظـــرت إلى ساعتي، وفوجئت عندما وجدت أن الساعة قد تجاوزت الخامسة.

قـــال تـــيدي: "أجل، لنذهب. لكن لننصب خيمتنا قبل أن يحلّ الظلام لكـــي نتمكن من جلب الحطب والأشياء التي نحتاج إليها. كما بدأت أشعر بالجوع أيضاً".

وعـــده كـــريس بالقـــول: "عـــند الساعة السادسة والنصف. هل أنتم موافقون؟"

وافـــق الجمـــيع، وعدنا إلى المشي مجدداً لكن على الحصى بدلاً من السير على القضبان الحديدية. وبعد وقت وجيز، أصبح النهر بعيداً عنا في الخلـــف بحيث لم يعد في مقدورنا سماع صوته. وبدأت حشرات البعوض تحـــوم حولـــنا. قتلت واحدة شعرت بها تخزني في عنقي. كان يتقدمنا في المـــسير فيـــرن وتيدي وهما يتحدثان عن التجارة بالكتب الفكاهية. وكان كريس يسير بجانبي وقد وضع يديه في جيبيه ووضع قميصه على وسطه وفوق ركبتيه مثل المئزر.

قال: "لدي بعض السجائر التي اختلستها من قميص أبي. سيجارة لكل فرد منّا بعد أن نتناول وجبة العشاء".

"حقاً أيها الرئيس؟"

قـــال كريس: "ذلك الوقت الذي تكون السيجارة فيه أطيب مذاقاً، أي بعد العشاء".

"أجل".

مشينا بصمت لفترة من الوقت.

قـــال كـــريس فجـــأة: "كانت قصة رائعة فعلاً. ولكنهم أغبى من أن يفهموا مغزاها".

"كلا، لا يوجد فيها الكثير من التشويق، وإنما بعض المشاهد المتكررة".

"هذا ما نقوله دائماً. لا تقل لي ذلك الكلام التافه الذي لا تصدقه. هل ستكتبها؟ أعني القصة؟"

"علـــى الأرجـــح أنني سأفعل ذلك، لكن ليس في وقت قريب. فأنا لا أستطيع كتابة القصص بعد أن أقصها".

"ماذا قال فيرن؟ عن أن النهاية مفاجئة؟"

"هل تصدق ذلك؟"

قال كريس: "بالتأكيد". ثم علا صوتنا بالضحك.

سكت لفترة ثم قال: "لقد ثارا في وجهك كما تفور فقاعات الهواء في المشروبات الغازية".

تعجبـت مـــن تلك الملاحظة بالرغم من أنني فهمت ماذا كان يرمي إليه.

"إنهـــا القـــصص. يبدو كما لو أنك تستطيع سرد مليون قصة وتظل أجمل القصص بالرغم من ذلك. ستكون كاتباً عظيماً يوماً ما يا غوردي".

"كلا، أنا لا أعتقد ذلك".

"أجـــل، ستكون كذلك. وربما ستكتب عنّا في حال فرغت جعبتك من الأفكار".

ســادت فتـــرة أخرى من الصمت، ثم سألني فجأة: "هل أنت مستعد للعودة إلى المدرسة؟"

رفعـــت كتفيّ استخفافاً. من هو التلميذ الذي استعدّ لها يوماً؟ فأنت تـــشعر بالقلـــيل من الإثارة عندما تفكر في العودة إليها، لكي تتسنّى لك فرصــــة رؤيـــة أصدقائك. ينتابك بعض الفضول بشأن المعلمين الجدد وكـــيف ســـتكون علاقتك بهم. وبطريقة مسلّية، يمكن أن تشعر بالإثارة عندما تفكر في تلك الصفوف المملّة لأنه مع اقتراب عطلة الصيف من نهايتها، تشعر بما يكفي من السأم أحياناً لكي تصدق أنه في إمكانك تعلّم شـــيء ما. ولكن الضجر في الصيف لا يعني شيئاً أمام أوقات الضجر فـــي المدرســـة والتـــي تمـــرّ بها مع نهاية الأسبوع الثاني، ومع بداية الأســـبوع الثالث، وأنت تنكبّ على الدراسة بجدّ: هل يمكنك أن تمازح أستاذك وهو يكتب على اللوح عنوان *الصادرات الرئيسية لدول أميركا الجنوبيـــة*؟ كم هو عدد الأصوات الجميلة الحادّة التي يمكنك أن تحدثها على السطح المصقول لطاولتك إذا كانت يداك مبتلّتين بالعرق؟

قـــال كريس: "هل تعرف يا غوردي أننا سنفترق عندما نبلغ المرحلة الثانوية بحلول يونيو/حزيران المقبل؟"

"ما الذي تتحدث عنه؟ لماذا سيحصل ذلك؟"

"لأن الدراســة عــندها لن تكون سهلة، هذا هو السبب. ستدرس أنت مقــررات الكلّية، وسأدرس مع تيدي وفيرن المقررات الخاصة بالتجارب التي تجرى في المختبر، ونمارس ألعابنا مع باقي الطلاب الكسالى، فنصنع المنافض وبيوت العصافير. وربما يلتحق فيرن بإحدى المدارس العلاجية. وسيتعرف كل منّا على الكثير من الرفاق الجدد، والأذكياء. هذه هي الحياة يا غوردي. هكذا تسير الأمور".

قلت له: "أنت تعني التعرف على الكثير من الفتيات".

أمــسك بذراعــي وقال: "كلا يا رجل. لا تقل ذلك، لا تفكر حتى في ذلك. سيستوعبن قصصك، لأنهن لن يكنّ مثل فيرن وتيدي".

"اللعنة على القصص. أنا لن أصاحب الكثير من الفتيات. كلا سيدي".

"ستكون معتوهاً إذا لم تفعل".

"هل سأكون شخصاً معتوهاً إذا رغبت في البقاء مع أصدقائي؟"

نظــر إليّ بتمعّن، كما لو كان يفكر في إخباري شيئاً. أصبحنا نمشي بــبطء الآن بحيث بات فيرن وتيدي يتقدماننا مسافة كيلومتر تقريباً. باتت أشعة الشمس، التي مالت إلى الغروب الآن، تسطع على وجوهنا من خلال غــصون الأشــجار المتشابكة في الفسحات التي بين الأشجار، محولة كل شيء إلى ذهب؛ ولكنه ذهب زائف. كانت قضبان السكة الحديدة تمتدّ أمامنا لتتقارب في مكان بعيد، وبدت وكأنها تتلألأ. بدأت النجوم تظهر هنا وهناك كمـــا لـــو أن شخصاً ثرياً تنكّر في زي عامل عادي قرر وضع قطعة من الألماس في الفولاذ كل ستين متراً. كان الجو لا يزال حارّاً، وكنا نتصبب عرقاً وهو ما جعل وجوهنا تلمع.

أخيراً، قال كريس: "ستكون معتوهاً إذا تمكن أصدقاؤك من التأثير علــيك. فأنـــا أعرفك وأعرف أصدقاءك، وهم لا يأبهون لك، بل كانوا يأبهــون لشقيقك الأكبر. عندما أُدخل أخي السّجن في بورتسماوث، بدأ والــدي يستعامل معنا ومع الأولاد الآخرين كالمجانين وصار يضربنا طوال الوقت. صحيح أن والدك لا يضربك، لكن ربما كانت تلك معاملة أسـوأ. فقـد جعلــك عديم النشاط. فهل تستطيع أن تقول له إنك تريد

الإنضمام إلى الكشافة مثلاً؟ كان سينتقل إلى الصفحة التالية في صحيفته ويقول: حسناً، هذا أمر جيد يا غوردن. اذهب واسأل أمك ماذا صنعت لنا على مائدة العشاء. ولا تحاول أن تقول لي أمراً مختلفاً، فقد سبق لي أن التثبت بها".

لـم أحاول أن أقول له أمراً مختلفاً. إنه لمن المفزع حقاً أن تكتشف بـأن شخـصاً آخـر، حتى وإن كان صديقاً، يعرف كل شيء عن حياتك العائلية.

"أنت مجرد صبي يا غوردي.."

"أجل، أشكرك يا والدي".

قال بغضب: "أتمنى لو كنت والدك، لأنك لم تكن ستتحدث عن دراسة المقـررات التعليمية التي تتحدث عنها الآن. لقد أعطاك الله موهبة، ولكن الأولاد يخـسرون كـل شيء ما لم يكتشف شخص ما مواهبهم. وإذا كان أبوك مشغولاً لدرجة أنه لن يقوم بذلك، فربما سأقوم أنا بذلك".

بـدا وجهـه كما لو كان يتوقع مني أن أستدير نحوه. كان الإنزعاج بادياً علـيه تحـت أشعة الشمس الذهبية في تلك الفترة المتأخرة من بعد الظهـر. لقـد خـرق القاعدة الرئيسية التي كان يلتزم بها الأولاد في تلك الأيـام. يمكـنك أن تقول أي شيء عن صبي آخر، يمكنك أن تضعه في مـصاف الكلاب، شريطة ألاّ تقول كلمة يكرهها عن أبيه وأمّه. فإذا أساء أحدهم الحديث عن أمك وأبيك، عليك أن توجه إليه بعض الضربات.

"إن القصص التي تحكيها لنا ليست جيدة لأحد سواك يا غوردي. فإذا كـنت تـزاملنا لمجرد أنك لا ترغب في أن تتفكك عصابتنا، فسينتهي بك الأمـر إلى خيبة أمل. إذا التحقت بإحدى المدارس المهنية، ستجد بعد فترة أن كـل ما يهمك هو شراء سيارة لكي تتعرف على فتاة، وتتنقل معها من مكـان إلى آخر، ولن تعمد أبداً إلى كتابة قصة الفطائر. بل إنك لن تكتب شيئاً لأنك ستكون شخصاً آخر يدرس لأجل الدراسة".

كان كريس تشامبرز في الثانية عشرة من عمره عندما أسدى إليّ كل هـذه النـصائح. لكن فيما كان يقول لي ذلك، بدا وجهه متجعداً مثل وجه رجل كبير. كان يتحدث بصوت خالٍ من أية نبرة، لكن ما قاله لي أصابني بالذعـر. بدا كما لو أنه عاش حياته كاملة، حياة يقال لك فيها أن تتقدم إلى الأمام وتدير دولاب الحظ بقوة.

أمسك بذراعي العارية، وضغط بأصابعه عليها. أحسست كما لو أنها حفرت أخاديد فيها. أحسست بأنها، وصلت إلى العظام. كانت عيناه محجوبتين وميتتين؛ لدرجة أنه بدا أشبه بشخص سيسقط في تابوته.

"أنا أعرف ما يقوله الناس عن عائلتي في هذه البلدة. أنا أعرف رأيهم فيّ وما يتوقعونه منّي. لم يسألني أحد حتى إن كنت قد سرقت ذلك المال حينها. وكل ما حصلت عليه هو حرماني من الدراسة طوال ثلاثة أيام".

سألته: "هل أخذتَ ذلك المال؟" لم يسبق لي أن طرحت عليه سؤالاً من قبل، ولو أنك قلت لي بأنه يتوجب عليّ ذلك، لقلت لك بأنك مجنون. لقد خرجت الكلمات من فمي مثل رصاصة جافة.

قال: "أجل، لقد أخذته". لاذ بالصمت فترة وجيزة وهو ينظر إلى تيدي وفيرن اللذين كانا يسيران أمامنا، ثم قال: "أنت تعرف بأنني أخذت ذلك المال، وتيدي يعرف ذلك أيضاً، والجميع يعرف ذلك. وحتى فيرن يعرف ذلك".

أردت التعبير عن رفضي، ولكنني أغلقت فمي. كان على حق. بغض النظر عما قلته لأمي وأبي بأنه من المفترض أن المتهم بريء حتى تثبت إدانته، كنت على قناعة بأنه الشخص الذي سرق ذلك المال.

قال كريس: "ربما أحسستُ بالندم بعد ذلك وحاولت إعادة المال".

نظرت إليه وقد اتسعت عيناي وقلت: "هل حاولتَ أن تعيد المال؟"

قال: "ربما. ربما أعدتُ المال إلى السيدة سايمونز وأخبرتها بالحقيقة، وربما كان المال هناك ولكنني حصلت على تلك العقوبة لأنه لم يتم العثور على المال. وربما ستعود السيدة سايمونز إلى المدرسة في الأسبوع القادم وهي ترتدي تنورة جديدة".

نظرت إلى كريس من غير أن أتمكن من التفوه بكلمة من شدة الخوف. عاد وابتسم في وجهي، ولكنها كانت ابتسامة مصطنعة مخيفة لم تلامس عينيه أبداً.

قال: "ربما، ولكنني تذكرت تلك التنّورة الجديدة. وتذكرت أيضاً بأنها جعلت السيدة سايمونز العجوز تبدو جميلة وأصغر سناً".

"يا كريس، كم كان مقدار ذلك المال؟"

"سبعة دولارات تقريباً".

همست وقلت: "يا الله".

"إذن، لنقل أنني سرقت المال الذي تم جمعه من بيع الحليب ولكن السيدة سايمونز سرقته مني. إفترض أنني أخبرتك تلك القصة. أنا كريس تشامبرز، الشقيق الأصغر لفرانك تشامبرز وآيبول تشامبرز. هل تعتقد بأن أحداً كان سيصدّق تلك القصة؟"

قلت بصوت خافت: "هذا محال. يا الله".

عاد وابتسم تلك الإبتسامة المخيفة وقال: "هل تعتقد بأن تلك العاهرة كانت ستجرؤ على فعل شيء مثل هذا لو أن واحداً يعيش في كاسل فيو كان الشخص الذي سرق المال؟"

قلت: "كلا".

"أجل، لو كان السارق أحد هؤلاء، لقالت: حسناً، سنطوي القضية هذه المرّة، ولكننا سنعاقبك بشدة في حال أعدت الكرّة ثانية. أما أنا... حسناً، ربما كانت تشتهي أن تشتري تلك التنورة منذ زمن طويل. وعلى كل حال، رأت في ذلك فرصة وانتهزتها. كنت غبياً لأنني حاولت أن أعيد ذلك المال. ولكنني لم أفكّر... لم أفكّر للحظة في أن معلمة... من يأبه لهذا الأمر على كل حال؟ لماذا أتعب نفسي بالتفكير فيها أصلاً؟"

مسح جبينه بيده بغضب، وأدركت أنه يبكي.

قلت: "يا كريس، لماذا لا تدرس مقررات الكلّية؟ فأنت تملك من الذكاء ما يساعدك على النجاح فيها".

"لقد اتخذوا قراراً في المكتب. في اجتماعاتهم الحقيرة، كان المعلمون يجلسون إلى تلك الطاولة الكبيرة المستديرة، ويقولون بصوت واحد، أجل. كل ما يأبهون له هو أداؤك المدرسي ونظرة البلدة إلى عائلتك. كل ما يفكّرون فيه هو ما إذا كنت ستلوّث تلك الحفنة الثمينة من الطلاب الذين يدرسون مقررات الكلّية. لكن ربما سأحاول أن أشق طريقي بنفسي. لا أعرف إن كنت سأتمكن من ذلك، ولكن ربما سأجرّب. لأنني أريد الخروج من كاسل روك والذهاب إلى الكلّية وعدم العودة إلى أبي أو أخويّ مجدداً. أريد الذهاب إلى مكان لا يعايرني فيه أحد ولا يوجد لي فيه علامات سوداء قبل أن أبدأ. ولكنني لا أعرف إن كنت أستطيع القيام بذلك".

"ولِمَ لا؟"

"لأن الناس ربما يمنعونك من القيام بذلك".

سألته: "من تقصد". اعتقدت بأنه يعني المعلّمين، أو الوحوش الكبار مثل الآنسة سايمونز التي أرادت أن تشتري تنورة جديدة، أو ربما أخاه آيبول الذي يتسكع مع آيس وبيلي وتشارلي وباقي أفراد العصابة، أو ربما أمه وأباه.

ولكنه قال: "صديقاك يمنعانني من القيام بذلك يا غوردي، ألا تعرف ذلك؟" وأشار إلى فيرن وتيدي اللذين كانا واقفين في انتظار أن نلحق بهما. كانا يضحكان على أمر ما. "صديقاك يفعلان ذلك. إنهما يشبهان الأشخاص الذين يمسكون برجليك بقصد إغراقك. أنت لن تستطيع إنقاذهم، وكل ما سيحصل هو أنك ستغرق معهم".

صاح فيرن الذي كان لا يزال يضحك: "أسرعا أيتها السلحفاتان".

قال كريس: "إننا قادمان". وقبل أن يقول أي شيء آخر، بدأ بالجري، فجريت خلفه، ولكنني تمكنت من اللحاق بهما قبله.

18

مشينا مسافة كيلومتر آخر، وقررنا نصب خيمتنا قبل هبوط الظلام. كان ضوء النهار لا يزال بادياً، ولكن ما من أحد أراد الإستفادة منه في المشي. كنا منهكين من كثرة المشي، ومن التجربة التي مررنا بها على منصة سكة الحديد، ولكن كان هناك أمور أخرى سوى ذلك. فقد وصلنا إلى هارلو الآن، داخل الغابة. وفي مكان ما أمامنا، يوجد صبي ميت، وعلى الأرجح أن يكون مشوهاً ومغطىً بالذباب وربما باليرقات أيضاً بعد مرور كل هذا الوقت. لم يشأ أي منّا الإقتراب منه كثيراً مع هبوط الليل. وسبق أن قرأت بأن شبح الميت يحوم حول جسده إلى أن يُدفن بطريقة لائقة، ولم أكن في وارد الإستيقاظ ليلاً ومواجهة شبح منزعج ومتحرر من جسد راي براور وهو ينحب ويثرثر في الظلام وبين أشجار الصنوبر. بتوقفنا هناك، اعتقدنا بأنه لا تزال يفصلنا عنه مسافة خمسة عشر كيلومتراً، علماً بأننا كنا جميعاً نعرف بأنه لا يوجد شيء اسمه أشباح، غير أن مسافة خمسة عشر كيلومتراً كانت كافية لمعرفة ما إذا كنّا مخطئين في اعتقادنا ذاك.

جمع فيرن وكريس وتيدي الحطب، وقمت بإشعال نار خفيفة فوق طبقة من الحصى، حيث قام كريس برفع كل بقايا الأشجار من محيط النار؛ كانت

الغابة جافة، وهو لم يشأ المجازفة. وفيما كانوا يجمعون الحطب، قمت بجمع بعض العيدان الصغيرة. ضحك الجميع بسبب صنيعي (كان يوجد قسم للكشافة في كاسل روك، ولكن غالبية الأولاد الذين كانوا يتسكعون في العقار الفارغ رأوا فيه منظمة مؤلفة في معظمها من مخنثين)، وتجادلوا بشأن ما إذا كان من الأفضل أن نطهو طعامنا فوق ألسنة اللهب أو على الجمر (لم تكن المناقشة عملية، لأن الجوع الذي استبدّ بنا لم يكن سيسمح لنا بالإنتظار ريثما يتحول الحطب إلى جمر)، وما إذا كان العشب الجاف سيساعد على إشعال النار، وما الذي ينبغي القيام به في حال استنفدنا كل ما لدينا من أعواد ثقاب من غير أن نتمكن من إبقاء النار مشتعلة. لم نكن بحاجة إلى المحاولة لأن فيرن جمع بعض الأعشاب الجافة. لم تكن الشمس قد غابت بعد، كما لم تهبّ نسمات تطفئ النار. تبادلنا جميعاً الأدوار في إذكاء النار الخفيفة إلى أن بدأت تتوهج بعد إلقاء الحطب فيها والذي جمعه الرفاق من شجرة قديمة ميتة على مسافة ثلاثين متراً داخل الغابة.

عندما خفت ألسن اللهب قليلاً، غرست العيدان التي جمعتها حول النار على شكل قمع. جلسنا وراقبناها وهي تتحول إلى اللون البنّي، وتولّت معداتنا إجراء محادثة ما قبل العشاء.

بدأ الجميع، بعد أن عجزوا عن الإنتظار ريثما تنضج قطع الهامبرغر جيداً، برفع العيدان والتقط كل واحد منهم قطعة بدت ناضجة من الخارج ونيئة من الداخل، ولكن الطعام كان شهياً. التهم كل منا طعامه ومسح فمه بيده العارية. ثم فتح كريس حقيبته وأخرج صندوقاً (كان المسدس في أسفل الحقيبة. وبما أنه لم يخبر فيرن ولا تيدي عنه، فقد اعتقدت بأن المسدس كان سرّاً بيننا). فتح الحقيبة وأعطى كل واحد منّا سيجارة، فأشعلها مستعيناً بلهب النار التي أشعلناها ثم اعتدل في جلسته، مثل الرجال في العالم الذين يراقبون الدخان وهو يختفي في ظلمة الغسق. لم يستنشق أي منّا دخان سيجارته كي لا يسعل وهو ما يعني يوماً أو يومين من الوقوع تحت رحمة المستهزئين. كان الأمر ممتعاً بمجرّد مجّ الدخان ونفثه والإنصات إلى حسيس النار (كان ذلك فصل الصيف الذي تعلمت فيه كيف يمكن لاختبار شخص آخر يتعلم كيفية التدخين: إذا كنت مبتدئاً في التدخين، ستجد أنك تبصق كثيراً). كنّا نشعر بمزاج جيد، وبقينا ندخن سجائرنا إلى أن لم يبقَ منها سوى الفلتر، ثم ألقيناها في النار.

قال تيدي: "لا شيء أكثر متعة من التدخين بعد تناول الطعام".

بدأت الحشرات تحوم على الحشيش الأخضر. نظرت إلى فسحة في السماء من خلال فرجة فوق سكة الحديد ورأيت أن اللون الأزرق بدأ يتحول إلى اللون الأرجواني. لكن هذا اللون المصاحب للغمق جعلني في حالة من الحزن والهدوء في الوقت نفسه، وغمرني بحس من الشجاعة، لكن ليس شجاعة حقيقية. بل في الواقع شعرت بوحدة مريحة.

قمنا بتسوية الأرض بجانب سكة الحديد ووضعنا فُرُشنا. وبعد ساعة تقريباً، أذكينا النار بإلقاء المزيد من الحطب فيها، وتبادلنا أطراف الحديث، وهو حديث لا يمكنك تذكره بعد مرور خمس عشرة دقيقة. تحدثنا عن فصل الصيف الذي كاد ينتهي، وأخبرنا تيدي عن الوقت الذي قضاه على شاطئ وليتس بيتش في برونسويك وعن ولد هناك ارتطم رأسه بالقاع أثناء الغوص وكاد أن يغرق. وناقشنا مطولاً مزايا المعلّمين الذين تتلمذنا على أيديهم، واتفقنا على أن السيد بروكس كان الأسوأ في مدرسة كاسل روك الإعدادية؛ فلقد كان يصرخ إذا قاطعتَه في الكلام. ومن ناحية أخرى، كانت هناك السيدة كوت (أو كودي)؛ والتي كانت أحقر عاهرة على وجه الأرض. قال فيرن إنها ضربت صبياً بقسوة بالغة قبل سنتين وأن الصبي كاد أن يُصاب بالعمى. نظرت إلى كريس متسائلاً إن كان سيتفوه بكلمة عن السيدة سايمونز، ولكنه لم يقل شيئاً، وهو لم يلاحظ أنني كنت أنظر إليه؛ كان ينظر إلى فيرن، ويومئ برأسه وهو يستمع إلى قصته.

لم نتحدث عن راي براور بعد أن حلّ الظلام، ولكنني كنت أفكّر فيه. كان هناك شيء مرعب وساحر في مشهد الظلام وهو يحيط بالغابة، فقد كان يهبط من غير أن تخفف من عتمته أضواء السيارات أو أعمدة الإنارة في الشوارع أو أضواء المنازل. كان يهبط من غير سماع أصوات الأمهات وهنّ يأمرن أولادهنّ بالتوقف عن اللعب والعودة إلى المنزل في الحال إيذاناً بحلول الظلام. إذا كنت معتاداً على أجواء البلدات، عندها يبدو حلول الظلام في الغابة أشبه بكارثة طبيعية منه بظاهرة طبيعية. إنها ظاهرة تتجلّى كما يفيض نهر كاسل في فصل الربيع.

وخطرت ببالي جثة راي براور. لم يساورني شعور بالغثيان أو الخوف من أنه سيظهر فجأة أمامنا، بشكل شبح لمرأة خضراء اللون وهي تهذر لكي تدفعنا إلى العودة إلى حيث كنا قبل أن نزعجه، وأنه ينبغي تركه

لـوحده عاجزاً عن الدفاع عن نفسه في الظلام. فلو أراد مخلوق أن يتغذّى عليه، ففي إمكانه أن يفعل ذلك. فأمّه ليست هناك لكي تحول دون ذلك ولا أبـوه هـناك أيضاً. كان ميتاً، وكان وحيداً سقط عن سكة الحديد ووقع في خـندق. وأدركـت بأنـي إذا لم أتوقف عن التفكير في الأمر، فسوف أبدأ بالصراخ.

لذلك، قصصت قصة عن لي ديو بعد أن نسجتها للتو وعلى نحو غير متقن. وعندما انتهت كما انتهت غالبية قصص لي ديو التي ألفتها، مع بقاء أميركـي واحد مفعم بالوطنية والحب لفتاة تعيش في الوطن وهو ينظر إلى الـوجه الحزين والحكيم لرقيب الفصيلة. لم يكن وجهه وجهاً أبيض مرتعباً لـشخص مـن كاسل روك أو وايت ريفر جانكشن رأيته سابقاً، وإنما وجه صبي أصغر سناً بكثير، ميت أصلاً، مغمض العينين، وقد تغيرت ملامحه، وانـسال الـدم من الزاوية اليسرى لفمه. وبدلاً من أرى خلفه دور العبادة والمحـلات المتفـرقة، لم أرَ سوى غابة مظلمة وطبقة من الحصى تتصل بالسماء مثل ركام مقبرة تعود إلى أيام ما قبل التاريخ.

19

استيقظت في منتصف الليل وأنا فاقد التوجيه متعجباً من سبب إحساسي بالبـرد الشديد في غرفة نومي ومن ذلك الشخص الذي ترك النوافذ مفتوحة. ربمـا كـان ذلك ديني. كنت أحلم بديني، وكنت أرى في بعض المرات جثة مرمية في منتزه هاريسون. ولكن ذلك حدث قبل أربع سنين.

هـذه لم تكن غرفتي، بل كانت مكاناً آخر. شعرت بأن شخصاً آخر يدفعني من وراء ظهري، ولمحت ظل شخص ثالث ممدد بالقرب منّي، وقد أحنى رأسه كما لو أنه يريد أن يسمع شيئاً.

تساءلت متعجباً: "أين أنا؟"

سـمعت صوتاً بدا أشبه بصوت فيرن. وهذا ما أعادني إلى رشدي، وتذكـرت حيـنها أين كنت... لكن ماذا كان يفعل الجميع باستيقاظهم في منتصف الليل؟ أم أنني لم أنم سوى ثوانٍ معدودات؟ كلا، لا يمكن أن يكون الحال كذلك لأني رأيت هلالاً فضياً في كبد السماء الحالكة السواد.

صـاح فيـرن: "لا تدعوه يمسك بي. أقسم أنني سأكون ولداً مطيعاً، وأنني لن أقوم بعمل سيئ، وسأقرع الباب قبل أن أدخل إلى دورة المياه...

وسـوف..' ومـع شعوري ببعض الدهشة، أدركت بأني كنت أصغي إلى دعاء؛ أو ما يكافئ الدعاء في نظر فيرن تيسيو على الأقل.

جلست وقد انتابني الخوف وقلت: "كريس؟"

قال كريس: "اخرس يا فيرن". رأيته جالساً على الأرض وهو يصغي إليه. "ليس بالأمر المهم".

قال تيدي: "بل هو أمر ومهم. إنه أمر".

سألته: "ما هو هذا الشيء المهم؟" كنت لا أزال أشعر بالنعاس وفقدان الحـس بالمكان، بعد أن أصبحت في غير مكاني وزماني. شعرت بالخوف بـسبب ذلك لدرجة أنني أصبحت أدرك متأخراً كل ما يطرأ من تطورات؛ متأخراً جداً بحيث أصبحت عاجزاً عن الدفاع عن نفسي كما ينبغي.

كمـا لـو كان ذلك إجابة عن سؤالي، سمعت صوت صراخ طويل وشـديد صادر من وسط الغابة، كان أشبه بالصراخ الذي تتوقعه من امرأة وهي تموت من شدة الخوف والألم.

صـاح فيرن: "يا الله". كان صوته عالياً، ووجهه غارقاً في الدموع. عانقنـي بقـوة لدرجة أنني أحسست بصعوبة في التنفس مما زادني خوفاً. أبعدته عني بقوة، ولكنه عاد والتصق بي مثل كلب صغير لا يمكنه التفكير في أي مكان آخر يلجأ إليه.

همس تيدي: "إنه الصبي براور. وهذا شبحه يتجول في الغابة".

صاح فيرن: "يا الله". لكن بدا واضحاً أنه لم يصدق تلك الفكرة على الإطـلاق. "أعـد أننـي لن أتصفح تلك الكتب القذرة! أعد بأني لن أعطي جزراتـي للكلـب بعد الآن... أعد..." وبقي يكرر وعوده وهو عاجز عن التفكيـر فـي أي شـيء مفيد في غمرة خوفه الشديد. "لن أدخن بعد الآن سجائر بدون فلاتر! لن أقسم أيماناً كاذبة! لن أرفع مدفع البازوكا في وجه من يجمع الصدقات! لن.."

قـال كـريس: "اخـرس يـا فيرن". أحسست بنذر الشر في قساوته الـسلطوية المألوفة. وتساءلت إن كانت ذراعاه وظهره وبطنه بمثل قساوة جلـد الإوزة كمـا هو الحال معي، وما إذا كان الشعر الذي في قفا رقبته سينتصب مثل الريش، كما هو حال شعري.

انخفـض صـوت فيـرن، وأصـبح همساً فيما واصل الحديث عن إصلاحاته في ظلّ على قيد الحياة.

سألت كريس: "كان ذلك صوت طائر أليس كذلك؟"

"كـــلا. أعتقد بأنه لم يكن صوت طائر على الأقل. أعتقد بأنه صوت قــط برّي. يقول والدي إن هذا الحيوان يطلق صيحات مخيفة عندما يصبح جاهزاً للسفاد. إنه صوت أشبه بصوت امرأة، أليس كذلك؟"

قلت بصوت متردد: "أجل".

قـــال كـــريس: "لكن لا يمكن لامرأة أن تصرخ على هذا النحو". ثم أضاف: "هل يمكنها ذلك يا غوردي؟"

قال تيدي بصوت هامس مجدداً: "إنه صوت شبحه". عكست نظارته ضوء القمر الضعيف. "سأخرج لأستطلع الأمر".

لا أعــتقد أنـــه كـــان يعني ما يقول، ولكننا لم نرد المجازفة. عندما نهــض، أعدتـــه وكـــريس إلـــى مكانه. ربما بالغنا في القسوة عليه، لكن عضلاتنا كانت قد تحولت إلى كابلات من شدة خوفنا.

قـــال تـــيدي: "دعونـــي أنهض أيها الملاعين. إذا قلت إنني سأخرج لأســتطلع الأمـــر، فسأخرج لأستطلع الأمر. أريد أن أعرف مصدر ذلك الصوت. أريد أن أرى ذلك الشبح. أريد أن أرى إن كان.."

عاد الصياح واخترق هدوء الليل مجدداً، قاطعاً الهواء مثل سكين ذات شـــفرة من الكريستال، فتجمّدنا في أماكننا وأيدينا تمسك بتيدي. لو كـــان علمـــاً، لكـــنا أشبه بتلك الصورة التي ظهر فيها جنود المارينز. تصاعدت حدة الصراخ، إلى أن وصل إلى حدٍّ لا يُطاق. بقي الأمر على هـــذا الحال للحظة ثم تراجعت حدة الصوت مجدداً ليصبح أشبه بأزيز نحلة هائلة الحجم. تلا ذلك ما يشبه الضحك المجنون... ثم ساد الصمت مجدداً.

لـــم يعد تيدي إلى الحديث عن الخروج إلى الغابة لرؤية مصدر ذلك الـــصوت. وعـــدنا نحن الأربعة إلى التشاور معاً، وراودتني فكرة الهرب. ســـاورني شـــك في ما إذا كنت الوحيد الذي فكر بالهرب. ولو أننا نصبنا خيمتـــنا فـــي فـــناء دار فيرن – حيث يعتقد أهلنا – على الأرجح أننا كنا ســـنهرب. ولكن كانت تفصلنا مسافة كبيرة عن كاسل روك، كما أن فكرة الجـــري علـــى منصة القطار جمدت الدم في عروقي. والركض في اتجاه هارلـــو بحيث نصبح أقرب إلى جثة راي برلور كان خارج نطاق البحث أيضاً. في الواقع، كنّا عالقين.

اقترح كريس حراسة الخيمة فوافق الجميع على ذلك. حددنا لكل فرد منّا فترة للحراسة، واختار فيرن فترة الحراسة الأولى، وحصلت أنا على الأخيرة. جلس فيرن القرفصاء بالقرب من النار فيما استلقى الجميع على ظهورهم مجدداً، واقتربنا من بعضنا مثل الخراف.

كنت متأكداً من أن النوم سيكون مستحيلاً، ولكنني نمت نوماً خفيفاً قلقاً، وغبت في حالة من اللاوعي مثل غواصة رفعت جهاز البيروسكوب إلى أعلى. كانت الأحلام التي راودتني وأنا نصف نائم مليئة بالصرخات البرّية التي ربما كانت حقيقية أو ربما كانت نتاج مخيلتي. رأيت –أو اعتقدت أنني رأيت– شيئاً أبيض لا شكل له يمشي بين الأشجار مثل فراشة مخيفة متنقلة.

وفي النهاية، رأيت ما عرفت أنه حلم. كنت أسبح مع كريس في وايتس بيتش الذي حُوّل إلى بحيرة صغيرة. وفي هذا المكان رأى تيدي الصبي الذي أصيب في رأسه وكاد يغرق.

كنا نسير في الحلم مثل الكسالى فيما كانت أشعة شمس يوليو/تموز اللاهبة تلفحنا. ومن خلفنا، سمعنا صراخاً وصياحاً وأصواتاً ضاحكة فيما كان الأولاد يتسلّقون ثم يقفزون في الماء أو يتسلّقون ويجري دفعهم إلى الماء. كان في مقدوري سماع أصوات العلب الفارغة وهي تصطدم ببعضها، وهو صوت ليس بعيد الشبه عن أصوات أجراس دور العبادة، والتي كانت مهيبة وعميقة. وعلى الشاطئ المكسو بالرمال والحصى، كانت الأجساد المدهونة بالزيت ممددة على المناشف، وكان الأطفال الصغار يلعبون بالدلاء عند حافة الماء أو يجلسون سعداء وهم يتقاذفون بالرمل على شعرهم بواسطة الرفوش البلاستيكية، وكان المراهقون متجمعين ضمن مجموعات، والإبتسامات قد ارتسمت على وجوههم وهم يراقبون الفتيات وهنّ يسرن في أزواج. كان الناس يمشون على الرمال الحارّة وهم يتقاذفون الكرات بأقدامهم وهم في طريقهم إلى مطعم الوجبات الخفيفة. وكانوا يعودون وفي أيديهم رقاقات الشيبس، وديفيل دوغز، والريد بول.

رأينا السيدة كوت أمامنا وهي تتزحلق على طوف مطاطي. كان حذاؤها يرسم خطاً في المياه. وكان شعرها يتطاير في الهواء، وكانت نظارتها تلمع بقوة تحت أشعة الشمس.

قالت: "انتبهوا يا أولاد. إذا لم تنتبهوا فسأضربكم بقسوة ضرباً يصيبكم بالعمى. وفي إمكاني فعل ذلك، فقد مُنحت تلك السلطة من قبل

مجلس الإدارة في المدرسة. والآن يا سيد تشامبرز، منديغ *وال*، احفظ ما قلته لك عن ظهر قلب".

قـال كريس: "حاولتُ أن أعيد المال. وقالت السيدة سايموتز العجوز بأنه لا يوجد مانع لديها في قبوله، ولكنها أخذته. هل تسمعينني؟ لقد أخذَت المال. والآن ماذا تنوين أن تفعلي حيال هذا الأمر؟ هل ستضربينها إلى أن تصاب بالعمى؟"

"يـا منديغ *وال*، يا سيد تشامبرز، لو سمحت، احفظ ما قلته لك عن ظهر قلب". نظر إليّ كريس نظرة تنمّ عن اليأس كما لو كان يريد أن يقول ألم أقل لك بأن هذه هي النتيجة؟ ثم بدأ يمشي في المياه الضحلة. وما لبثت المياه أن غمرت رأسه وملأت فمه.

أخرج رأسه من تحت الماء وصاح: "ساعدني يا غوردي، ساعدني".

ثم نزل تحت سطح الماء مجدداً. نظرتُ إلى المياه الصافية فرأيت جثتين منتفختين وعاريتين وهما تمسكان بقدميه. أحدهما كان فيرن والآخر كان تيدي، وكانـت عيونهما المفتوحة خالية بدون بؤبؤ مثل عيون تماثيل يونانية. مدّ يده بـصعوبة نحـوي وكان صوته يعلو شيئاً فشيئاً في الهواء الحارّ. نظرت إلى الـشاطئ ولكن أحداً لم يسمع الصوت. كان عامل النجاة ذو الجسد الرياضي البرونزي ممدداً على مقعد فوق برجه الخشبي الأبيض. تحول صراخ كريس إلـى قرقرة تخنقها المياه فيما كانت الجثتان تشدّانه إلى الأسفل مجدداً. وبينما كانـا يـسحبانه إلى الأسفل نحو المياه السوداء، كنت أراقب عينيه المتموجتين والمشوهتين وهما تنظران إلى الأعلى نحوي وهما تتعذبان. كان في مقدوري رؤيـة يديـه مـرفوعتين إلى أعلى بيأس نحو سطح المياه المصقولة بأشعة الـشمس. لكن بدلاً من أن أغوص إلى الأسفل وأحاول إنقاذه، إندفعت بسرعة نحـو الـشاطئ، أو إلى مكان لا تغمر المياه رأسي فيه على الأقل. وقبل أن أتمكـن مـن الوصـول إلى هناك –أو حتى قبل أن أقترب من ذلك المكان– أحسـست بيد ناعمة وعفنة وعنيدة وهي تمسك برِجلي وتبدأ بسحبي. تجمعت فـي صدري صرخة... لكن قبل أن أتمكن من إطلاقها، اختفى الحلم فجأة في عـالم الحقـيقة. كـان تيدي هو الذي وضع يده على رِجلي. كان يهزّني لكي أستيقظ، فقد جاء دوري للحراسة.

سـألته وأنـا لا أزال أعيش حلمي، كما لو كنت أتكلم وأنا نائم: "هل أنت على قيد الحياة يا تيدي؟"

لجابني قائلاً: "كلا، أنا ميت وأنت زنجي أسود". استيقظت من حلمي أخيراً، وجلست بالقرب من النار فيما تمدد تيدي لكي ينام.

20

أمـــضى الباقون ليلتهم في سبات عميق، فيما كنت في الخارج، أنام قلـــيلاً وأمـــشي قليلاً، ثم أعود إلى النوم الخفيف مجدداً. كان الليل أبعد ما يكون عن الهدوء، فسمعت صراخ بومة، وصوتاً حاداً لحيوان صغير ربما كـــان على وشك أن يصبح وجبة لحيوان آخر، وصوت شيء ثقيل يمشي بـــين الأشجار. وإضافة إلى كل هذه الأصوات، كنت اسمع صوتاً مستمراً، إنـــه صـــوت الصراصير. لم يعد هناك صرخات. عدت إلى النوم الخفيف لأســـتيقظ بعد ذلك، ثم لا ألبث أن أستسلم للنوم الخفيف مجدداً. وافترضت بأنه لو افتضح أمري وأنا أقوم بمهمة الحراسة على هذا النحو في لي ديو، لكنت خضعت لمحكمة عسكرية وأُعدمت رمياً بالرصاص.

اســـتيقظت مـــن غفوتي الأخيرة وتنبّهت إلى أن أمراً ما بدا مختلفاً. تطلب الأمر ثانية أو ثانيتين لكي أتبين الأمر. فعلى الرغم من غياب القمر، كـــنت أستطيع رؤية يدي وهي تستند إلى رجلي. وكانت ساعتي تشير إلى أنها الخامسة إلاّ ربعاً؛ لقد بزغ الفجر.

نهضت، وسمعت صوت عظامي، ومشيت مسافة عشرة أمتار تقريباً مبتعداً عن أصدقائي، وقضيت حاجتي. كان في مقدوري الإحساس بأوراق الأشجار وهي تتطاير بعيداً، وكان ذلك شعوراً رائعاً.

تـــوجهت نحو الأرض المفروشة بالحصى عند سكة الحديد وجلست علـــى أحد القضبان، وبدأت أعبث بالحصى بين قدميّ، من دون أن أكون مـــتلهفاً لإيقـــاظ الآخرين. وفي هذه اللحظة بالضبط، أحسست بأن النهار أجمل من أن أشارك فيه أحداً.

أطـــلّ الـــصباح بهـــدوء، وبدأت أصوات الصراصير تخف تدريجياً، وتبخرت الظلال أسفل الأشجار مثل برك مياه صغيرة بعد الحمام. كان الهواء خالـــياً مـــن المـــذاق وهو ما كان نذيراً على أنه سيكون أحد الأيام الحارّة في سلـــسلة أيام الصيف الخانقة. والعصافير التي كانت جاثمة في الليل مثلنا تماماً بدأت تغرّد. حط عصفور صغير على أعلى الشجرة الميتة التي اقتطعنا خشبنا منها من أجل إشعال النار، وسوّى ريشه بمنقاره، ثم طار بعيداً.

لا أعــرف كــم مضى من الوقت وأنا جالس عند السكة، فيما كنت أراقــب الألوان الأرجوانية وهي تختفي من السماء بدون ضجيج كما فعلت الــبارحة. كنت على وشك النهوض عندما نظرت إلى يميني، ورأيت أنثى ظبي تقف على سكة الحديد على مسافة لا تبعد أكثر من عشرة أمتار عنّي.

قفز قلبي، وأحسست بأنه وصل إلى حلقي بحيث اعتقدت بأنه يمكنني وضع يدي في فمي ولمسه. وامتلأت معدتي وأمعائي بإثارة حارّة جافة. لم أتحــرك مــن مكاني، ولم يكن في إمكاني القيام بخطوة واحدة ولو أردت ذلك. لم تكن عيناها بنيّتي اللون، بل كانتا سوداوين وغامقتين؛ مثل القماش المخملــي الذي يُستخدم في عرض المجوهرات. وكانت أذناها مثل القماش المزأبــر. نظــرتْ إلــيّ بهدوء وقد حنت رأسها إلى الأمام قليلاً مما أثار فــضولي. كانــت أشبه بطفل جدل شعره، ويرتدي سروال جينز وقميصاً كاكــي اللــون بعد أن لف كميه حتى المرفقين وفقاً للتقليد السائد. ما رأيته كان أشبه بهدية، أو شيئاً يُعطى بلا اكتراث على نحو مروّع.

تبادلــنا النظــرات لفترة طويلة... أعتقد بأنها كانت فترة طويلة. ثم التفــتت، وســارت في الاتجاه الآخر لسكة الحديد. وجدت بعض الأعشاب فــبدأت تأكــل. لم أستطع أن أصدق ما أرى، لقد بدأت تأكل الأعشاب. لم تلــتفت وتنظر إليّ مجدداً وهي لم تكن بحاجة إلى ذلك أصلاً، فقد تجمدتُ في مكاني.

شــعرتُ فجأة بقضبان السكة وهي تهتزّ بقوة. وما هي إلاّ ثوانٍ حتى رأيت أنثى الظبي وهي تجري في اتجاه كاسل روك. وما لبثت أن توقفت، ورفعت أنفها الأسود في الهواء، ثم اختفت داخل الغابة بعد أن قفزت ثلاث قفــزات ولــم يعد يصدر عنها سوى صوت احتكاك جلدها بغصن شجرة كسرته، فصدر صوت أشبه بطلق ناري.

جلــست هــناك، وبقيت أنظر إلى تلك البقعة التي كانت فيها إلى أن ســمعت صوت قطار الشحن. ثم ابتعدت عن السكة، وتوجهت إلى المكان الذي كان رفاقي يناموت فيه.

اســتيقظ رفاقــي بعد أن سمعوا صوت القطار وهو يمرّ ببطء محدثاً صوتاً مرتفعاً، كان البعض يتثاءب والبعض الآخر يحكّ فروة رأسه. ودار حــديث مملّ وعصبي عن "الشبح الذي كان يصرخ"، كما وصفه كريس، ولكــن ليس بالقدر الذي ربما تتخيله، لأن الحديث عن هذا الأمر في النهار

يبدو جنونياً أكثر منه مثيراً؛ بل ويبدو محرجاً. ولذلك وجدوا أنه من الأفضل نسيان الموضوع.

كنت على وشك أن أخبرهم عن أنثى الظبي، ولكنني لم أقل شيئاً. كان ذلك أمراً احتفظت به لنفسي، فلم أتحدث أو أكتب عنه إلاّ في هذه الساعة، وهذا اليوم. وعليّ أن أقول لك إن تلك الواقعة تبدو أقل إثارة عندما تكتب عنها وغير ذات صلة. لكن بالنسبة لي، كانت الجزء الأجمل، والأنقى في الرحلة، وكانت لحظة وجدت أني عدت إليها، بدون قصد منّي، عندما اعترضتني مشكلة في حياتي؛ في أول يوم لي في أدغال فييتنام، عندما كان يسير أمامنا رجل وهو يضع يده على أنفه، وعندما رفعها تبيّن أنه فقد أنفه بسبب رصاصة أطلقت عليه، وفي اللحظة التي قال لنا فيها الطبيب بأن ابننا الأصغر ربما يكون مصاباً بمرض استسقاء الرأس (وتبين في وقت لاحق أن رأسه زائد الحجم وحسب، والحمد لله). وفي الأسابيع الطويلة المجنونة التي سبقت وفاة أمّي، كنت أجد أن أفكاري عادت إلى ذلك الصباح، إلى الجلد المزأبر، والبقعة البيضاء في ذيلها. لكنّ ثمانمائة مليون صيني شيوعي لا يأبهون لهذا الأمر، أليس كذلك؟ إن الحديث عن أكثر الأشياء أهمية هو أصعب أنواع الحديث، لأن الكلمات تقلّص حجمها. ومن الصعب أن تحمل الغرباء على الإهتمام بالأشياء التي تراها جيدة في حياتك.

21

باتت قضبان سكة الحديد منحية الآن في الإتجاه الجنوبي الغربي، وتتجه نحو أشجار التنوب. تناولنا طعام الفطور الذي كان عبارة عن حبّات من العنبيات التي قطفناها من بعض تلك الأشجار، ولكن هذه الثمرة لا تُشبعك أبداً، لأن معدتك تهضمها في غضون ثلاثين دقيقة، ثم تبدأ بالتذمّر مجدداً. عدنا إلى السير على القضبان؛ وكانت الساعة حينها قرابة الثامنة صباحاً. اكتست أفواهنا باللون الأرجواني الداكن، وبدت أجسادنا العارية من الأعلى مخدوشة بسبب احتكاكها بأغصان أشجار العنبيات. تمنّى فيرن بصوت عالٍ لو يأكل بيضاً مقلياً مع قطع من اللحم.

كان ذلك آخر الأيام الحارّة، وأعتقد بأنه كان أكثرها سوءاً. فقد تبددت السحب، وبحلول الساعة التاسعة، أصبحت السماء صافية مما جعلنا

نشعر بالحرارة بمجرّد النظر إليها. كان العرق ينصبب من صدورنا وظهورنا، مخلّفاً خطوطاً نظيفة بين السخام والأوساخ. كان البعوض والذباب الأسود يحومان حول رؤوسنا مثل السحاب. كما أن معرفتنا بأننا بحاجة إلى السير كيلومترات طويلة لم تجعلنا نشعر بمزاج أفضل. لكن الإثارة حفزتنا على المتابعة والمشي بخطى أسرع حتى في ظل ذلك الجو الخانق. كنا مهووسين برؤية جثة ذلك الصبي؛ لا يمكنني وصف الأمر بعبارات أقل بساطة وصدقاً من هذه العبارات. وسواء أكانت التجربة خالية من الأذى أو تملك القدرة على تشويه نومنا بمئات الأحلام المزعجة، أردنا أن نرى تلك الجثة. وأعتقد بأننا رأينا أننا نستحق رؤيتها.

كانت الساعة قرابة التاسعة والنصف عندما رأى تيدي وكريس الماء أمامنا؛ فصاحا باسم فيرن واسمي. جرينا إلى المكان الذي كانا يقفان فيه. كان كريس يضحك مسروراً. أشار إلى المكان وقال: "انظرا هناك. لقد فعلت القنادس ذلك".

كان ذلك من فعل القنادس، حتماً. كان هناك عبّارة أسفل سكة الحديد على مسافة قريبة أمامنا، والقنادس سدّت الطرف الأيمن بسدودها الصناعية الأنيقة؛ أغصان الأشجار المتشابكة مع الأوراق، والطين الجاف. القنادس حيوانات نشيطة، حتماً. كانت توجد خلف هذا السد بركة مياه صافية ولامعة، تعكس أشعة الشمس. كانت بيوت القنادس منتشرة بالقرب من المياه في العديد من الأماكن؛ وبدت أشبه بأكواخ خشبية. كان هناك جدول صغير يصب في الطرف الآخر من البركة، واكتست الأشجار التي تحيط بها باللون الأبيض بارتفاع متر تقريباً.

قال كريس: "ستقضي شركة الشحن على هذا المكان في مدة وجيزة".

سأله فيرن: "لماذا؟"

"لأنها لن تسمح بوجود بركة في هذا المكان على اعتبار أنها تشكل خطراً على سكة الحديد الثمينة. ولهذا السبب بنت الشركة عبّارة لتصريف المياه كخطوة أولى. وسيقومون بإطلاق النار على بعض القنادس، ويخيفون البعض الآخر، ويتخلّصون من ذلك السدّ الذي بنته تلك الحيوانات، ليعود ذلك المكان إلى مستنقع كما كان سابقاً على الأرجح".

هزّ كريس بكتفيه استخفافاً وقال: "من يأبه للقنادس؟ ليست الشركة غريت ساوثرن أند ويسترن بالتأكيد".

سأل فيرن، وهو ينظر بتلهف إلى المياه: "هل تعتقد بأنها عميقة بما يكفي لكي نتمكن من السباحة فيها؟"

قال تيدي: "هناك طريقة لمعرفة الجواب".

سألت: "من يقفز أولاً؟"

قال كريس: "أنا". وتوجه مسرعاً نحو البركة، وخلع حذاءه الرياضي، ورفع قميصه عن خصره، وخلع سرواله بحركة واحدة. وقف على رجل واحدة محافظاً على توازنه وخلع الجارب الذي فيها، ثم وقف على الأخرى، وكرر الأمر عينه، ثم غطس في الماء. وما لبث أن رفع رأسه، وهزّه لكي يرفع الشعر المبتلّ عن عينيه، وصاح: "الأمر في غاية الروعة".

صاح تيدي: "كم يبلغ عمق المياه؟" لم يسبق أن علّمه أحد كيفية السباحة.

وقف كريس في الماء ووصلت كتفاه إلى سطح الماء. رأيت شيئاً على كتفه؛ شيئاً رمادياً ضارباً إلى السواد. اعتقدت بأنه قطعة من الطين فتجاهلت الأمر. ولو أنني نظرت إليه عن قرب، لكنت أرحت نفسي من كثير من الكوابيس لاحقاً. "اقفزوا أيها الجبناء".

التفت، وواصل السباحة بطريقة خرقاء، ثم التفت وعاد. في تلك الفترة، كنّا قد خلعنا ملابسنا. كان فيرن الثاني في النزول إلى البركة، ونزلت المياه بعده.

كانت ملامسة المياه تجربة رائعة؛ مياه باردة وصافية. سبحت نحو كريس وأنا سعيد بالإحساس الحريري لملامسة المياه لجسدي. وقفت، وابتسم كل منّا في وجه صاحبه.

نطقنا جميعاً في الوقت نفسه الكلمة نفسها: "أيها الرئيس".

استمرينا في السباحة في البركة نحو نصف ساعة تقريباً قبل أن ندرك بأن البركة مليئة بالعلقات. غصنا، وسبحنا تحت سطح الماء من غير أن نشعر بشيء. ثم سبح فيرن نحو الجزء الضحل من البركة، وغاص تحت سطح الماء، ووقف على يديه. عندما بدت رجلاه فوق سطح الماء، شاهدت أكوام من العلقات الملتصقة بهما، مثل ذلك الشيء الذي رأيته على كتف كريس. كانت يرقانات كبيرة.

فتح كريس فمه، وشعرت بأن الدم تجمد في عروقي. صرخ تيدي، وامتقع لونه. ثم اندفعنا نحن الثلاثة نحو حافة البركة بأسرع ما يمكننا. ما

أعـرفه عن العلقات الآن أكثر مما كنت أعرفه حينها، لكن حقيقة أنها غير مؤذية تقريباً لم تهدّئ من خوفي المجنون منها منذ أن رأيتها في ذلك اليوم فـي بـركة القـنادس. يحتوي اللعاب الغريب لهذه المخلوقات على مخدّر وعلى مضادّ للتخثّر، وهو ما يعني أن المرء لا يشعر بشيء على الإطلاق عـندما تلتصق به. وإذا لم ترَ تلك المخلوقات وهي تمص دمك، فستواصل عملهـا ذلك إلى أن تسقط أجسامها المنتفخة والكريهة عنك، بعد أن تصاب بالتخمة، أو تنفجر من كثرة الأكل.

خـرجنا من الماء، وبدا أن تيدي انتابته نوبة جنونية فيما كان ينظر إلى نفسه. كان يصرخ وهو ينزع العلقات عن جسده العاري.

سـبح فيرن نحونا، ونظر إلينا نظرة تنمّ عن الحيرة وقال: "ما الذي يحدث له.."

صـاح تيدي: "إنها العلقات". فيما كان ينزعها عن فخذيه اللتين كانتا ترتجفان، ويلقي بها إلى أبعد مسافة ممكنة. "إنها اليرقات الوسخة اللعينة".

صـاح فيـرن: "يا الله". وخرج من الماء بسرعة، وتعثر وهو يمشي عند الحافة.

كـنت لا أزال أشعر بالبرد، كما لو أن حرارة اليوم لم تعد موجودة. وبقيت أحدّث نفسي بوجوب المحافظة على رباطة الجأش وعدم الصراخ، وعـدم التـصرف كالجبناء. نزعت حوالى عشرة من هذه الطفيليات عن ذراعيّ، ونزعت عدداً أكبر منها عن صدري.

الـتفت كـريس نحـوي وقـال: "هل ترى أياً منها على جسدي يا غـوردي؟ انزعها عنّي ارجوك". رأيت المزيد، ربما كان عددها خمس أو سـت يرقانات. رأيتها وهي تزحف على ظهره مثل أزرار سوداء مزخرفة، فقمت بنزع أجسامها الطرية والخالية من العظام عنه.

نزعت عدداً كبيراً منها عن رجليّ، ثم طلبت من كريس أن ينزع ما هو موجود منها على ظهري.

بدأت أشعر ببعض الارتياح؛ وذلك عندما نظرت إلى نفسي، ورأيت كومة منها بين فخذيّ. بدت أجسامها منتفخة بمقدار أربعة أضعاف حجمها الطبيعي. وبدا أن جلدها الرمادي الضارب إلى السواد قد تحول إلى الأحمر الأرجوانـي. كانـت تلك اللحظة التي فقدت فيها السيطرة على نفسي. لم تظهـر آثار ذلك على حركاتي وإنما شعرت باضطراب في داخلي، وهذا

هــو الشعور الأخطر. حاولت أن أتخلص منها بظهر يدي، ولكنها أبت أن تتحــرك. أعــدت الكرة مرة أخرى، ولكنني لم أجرؤ على لمسها. ولذلك الــتفت إلى كريس، وحاولت أن أحدثه عن الأمر ولكنني لم أستطع الكلام، فاستعــضت عــن الكلام بالإشارة. تحوّل لون خدّيه، الخجولَين أصلاً، إلى اللون الأبيض.

قلت بشفتين مشلولتين: "أنا عاجز عن التخلص منها. وأنت تستطيع..."

ولكــنه هــزّ رأسه معبراً عن رفضه، وقال من غير أن يرفع عينيه عنها: "لا أستطيع القيام بذلك يا غوردي. أنا آسف ولكنني لا أستطيع".

قلت في نفسي، عليك أن تتمالك أعصابك. نظرت إلى تلك الطفيليات التي كانت مُعلّقة بجلدي مثل شعر اللحية. كنت أرى أجسادها وهي تنتفخ. عليك أن تتمالك أعصابك وتكون صلباً. إنها العلقة الأخيرة.

أمسكت بها، فانفجرت بين أصابعي، فيما انسال دمي على راحة يدي ومعصمي في فيضان حارّ. عندئذٍ، أجهشت بالبكاء.

مــشيت إلى المكان الذي وضعت فيه ملابسي، وارتديتها وأنا أبكي. أردت أن أتوقــف عن البكاء ولكنني لم أستطع إيقاف دموعي. ثم شعرت بالــرجفة، وهو ما جعل حالتي أكثر سوءاً. هرع نحوي فيرن الذي كان لا يزال عارياً.

"هل بقي شيء منها يا غوردي؟ هل بقي شيء منها على جسمي؟"

بدأ يختال أمامي مثل راقص مجنون في كرنفال.

"هل تخلصتُ منها جميعاً؟ أجبني يا غوردي".

بقي ينظر إليّ بعينين واسعتين مثل عيني حصان.

أومــأتُ برأســي مــشيراً إلــى أنــه لا يزال على جسمه بعض منها، واستمرّيت في البكاء. وبدا أن البكاء سيصبح مهنتي الجديدة. ارتديت قميصي، وأحكمــت أزراره وصــولاً إلى زرّ الرقبة. ثم لبست جوربيّ وانتعلت حذائي الرياضــي. وشــيئاً فشيئاً، بدأت أستعيد رباطة جأشي. وأخيراً، لم يعد هناك سوى القليل من النحيب، الذي ما لبث أن توقف أيضاً.

تقدم كريس نحوي، ومسح فمه بأوراق الأشجار. بدت عيناه متسعتين وفمه مقفلاً وهو ينشد الإعتذار.

بعد أن فرغنا من ارتداء ملابسنا، بقينا ننظر إلى بعضنا للحظات، ثم بــدأنا تــسلق المنحدر للوصول إلى سكة الحديد. نظرت إلى المكان الذي

رقـصنا فيه، وصرخنا من تلك الطلقات وجهدنا في التخلّص منها. شعرت بالراحة، ولكنني بقيت غير مطمئن.

بعـد مرور أربعة وعشرين عاماً، نشرت روايتي الأولى، وسافرت إلـى نيويورك للمرّة الأولى. قال لي المحرّر الجديد عبر الهاتف: "سيكون احتفالاً يدوم ثلاثة أيام".

فـيما كـنت هناك، أردت القيام بكل ما يقوم به من تغرّب عن موطنه؛ الذهاب لحضور حفل موسيقي، والذهاب إلى مبنى الإمبايرستايت (اللعنة على مركـز الـتجارة العالمي، سيبقى المبنى الذي تسلقه كينغ كونغ المبنى الأعلى ارتفاعاً بالنسبة لي)، وزيارة تايمز سكوير ليلاً. بدا محرّري كيث أكثر سروراً بالتباهـي بمدينته. غير أن آخر عمل سياحي قمنا به كان الذهاب إلى ستاتن أيلاند فيري. وفيما كنت متكئاً على المتكأ، نظرت إلى أسفل، ورأيت كومة من الأشـياء البالية التي أعادتني إلى الماضي. وعلى كل حال، عدت بالذاكرة مدة لحظات إلى الوراء، إلى سكة الحديد، والطفيليات الميتة والمنتفخة.

لا بدّ وأن كيث رأى في وجهي شيئاً لأنه قال: "ليس بالمنظر الجميل، أليس كذلك؟"

إكتفـيت بهـزّ رأسي، وأنا أريد بذلك القول إنه ليس في حاجة إلى الإعـتذار، والقول بأن السبب الوحيد الذي يكتب المرء من أجله القصص هـو مساعدة الناس على فهم الماضي والاستعداد للمستقبل. ولهذا السبب، اسـتخدمت صيغة الماضي في كافة القصص التي كتبتها. أردت أن أقول لكيث بأن الشيئين الوحيدين المفيدين هما الدين والقصص.

كـنت ثملاً للغاية في تلك الليلة. لكن ما قلته له حقيقة هو أنني كنت أفكّر في أمر آخر، وهذا كل شيء. إن الحديث عن أكثر الأشياء أهمية هو أصعب أنواع الحديث.

22

واصـلنا الـسير على القضبان الحديدية –لا أدري كم بلغت المسافة التـي قطعناها– وقلت في نفسي: حسناً، سأتمكن من معالجة الأمر، ولكن القـصة قد انتهت على كل حال، فالأمر لا يتعدى بضع طفيليات، وهذا لا يهـم، كـنت لا أزال أفكّر عندما بدأت تظهر فجأة أمام عينيّ موجات من الخيالات البيضاء، وما لبثت أن سقطت أرضاً.

لا بدّ وأنني سقطت على الأرض بقوة، ولكن السقوط على العارضات الخشبية بدا أشبه بالغوص في فراش دافئ وثخين مليء بالريش. رفع أحدهم وجهي عن الأرض. بدت لي وجوه رفاقي مثل بالونات تنظر إلى أسفل من مسافة عدة كيلومترات. كانوا ينظرون كما ينظر الحكم إلى ملاكم تلقّى سيلاً من اللكمات ويأخذ قسطاً من الراحة لمدة عشر ثوان على أرض الحلبة. بدت كلماتهم رقيقة: "غوردي، أنت.."

لا بدّ وأنني قلت شيئاً لا يمت إلى المنطق بصلة لأنني رأيت القلق بادياً على وجوههم.

قال تيدي: "من الأفضل أن نعود به". وما لبثت أن غبت عن الوعي مجدداً.

عندما استعدتُ وعيي، بدا أنني أصبحت على ما يرام. كان كريس يجلس القرفصاء بالقرب منّي، وسمعته يقول: "هل يمكنك سماعي يا غوردي؟ أنت الذي هناك".

قلت: "أجل". وجلست. رأيت بقعاً سوداء أمامي، ولكنها ما لبثت أن اختفت. إنتظرت لمعرفة إن كانت ستعود مجدداً، وعندما لم تعد، نهضت على قدمي.

قال: "لقد أخفتني يا غوردي. هل ترغب في شرب بعض المياه؟"

"أجل".

أعطاني قنينته التي كانت نصف ممتلئة بالمياه، فشربت منها ثلاث جرعات ساخنة.

سألني فيرن بقلق: "لماذا غبت عن الوعي؟"

قلت: "لأنني ارتكبت غلطة فاحشة عندما نظرت إلى وجهك".

"عليك اللعنة يا غوردي".

سألني فيرن: "هل أنت بخير فعلاً؟"

"أجل بالتأكيد. مررت... بتجربة سيئة لفترة من الوقت وأنا أفكر بتلك المخلوقات مصاصة الدماء".

أومأ الجميع برؤوسهم. وبعد فترة وجيزة، واصلنا سيرنا، وعدت إلى السير برفقة فيرن على أحد جانبي سكة الحديد، فيما مشى كريس وتيدي على الجانب الآخر. رأينا أنه ينبغي أن نبقى متلاصقين.

23

لـــم نكـــن متلاصـــقين بقدر ما كنّا نعتقد، ولو أننا كنا نملك قدراً من رجاحـــة العقل ولُمعنا في الخريطة لمدة دقيقتين، لكنا عرفنا السبب. عرفنا أنـــه لا بدّ وأن تكون جثة راي براور بالقرب من طريق باك هارلو الذي ينتهي عند نهر رويال. هناك، كانت توجد منصة أخرى تحمل قضبان سكة الحديد فوق ذلك النهر. وبالتالي خطر ببالنا الأمر التالي: بعد أن نقترب من نهـــر رويـــال، نكـــون قد اقتربنا من طريق باك هارلو حيث أوقف بيلي وتـــشارلي السيارة التي كانا يستقلانها وشاهدا جثة الصبي. وبما أن النهر يـــبعد خمسة عشر كيلومتراً فقط عن نهر كاسل، فقد اعتبرنا أننا نسير في الإتجاه الصحيح.

لكنـــنا وجـــدنا أن قضبان السكة لا تسير على خط مستقيم بين كاسل ورويال، بل تنعطف في حلقة لتجنب إحدى التلال في منطقة تسمى بلاقس. وعلى كل حال، كان في مقدورنا رؤية ذلك المنعطف بوضوح شديد لو أننا نظـــرنا إلـــى خـــريطة، ولعـــرفنا أنه بدلاً من السير مسافة خمسة عشر كيلومتراً، كان في مقدورنا السير مسافة خمسة وعشرين كيلومتراً تقريباً.

بدأ كريس يشعر بأن هناك خطأً ما عندما حل وقت الظهيرة، ومالت الشمس من غير أن يظهر لنهر رويال أثر. توقفنا فيما ذهب ليتسلق شجرة صنوبر عالية لينظر إلى المحيط. وما لبث أن نزل، وأعطانا تقريراً بسيطاً للغايـــة: لن نصل إلى نهر رويال قبل الساعة الرابعة على أقل تقدير، وأننا نستطيع الوصول إلى هناك في حال انطلقنا على الفور.

صاح تيدي: "اللعنة. ماذا سنفعل الآن؟"

نظر كل منّا إلى الوجوه المتعبة التي تتصبب عرقاً. كنّا جائعين وفي مـــزاج سيئ. فقد تحولت المغامرة الكبيرة إلى رحلة طويلة شاقّة؛ ووسخة ومرعبة في بعض الأحيان. كما أنه لا بدّ وأن القلق قد استبدّ بذوينا أيضاً، وفـــي حـــال لم يبلّغ ميلو بريسمان رجال الشرطة عنّا، فقد يكون المهندس الذي كان في القطار الذي عبر فوق المنصة قد فعل ذلك. كنا نخطط للعودة إلى كاسل روك بالتطفل على السيارات المارّة، ولكن الساعة الرابعة تعني أنه لم يعد يفصلنا عن عتمة الليل سوى ثلاث ساعات، ولا أحد ينقل أربعة صبيان على طريق ريفية بعد حلول الظلام.

حاولت أن أستجمع الصورة الباردة لأنثى الظبي، وهي تأكل العشب الأخضر في الصباح، لكن حتى تلك الخاطرة بدت مشوشة وغير جيدة، وليست أفضل من تذكار صيد محنّط فوق رف مدفأة في بيت صيد، وقد صُقلت عيناه لكي تبدو عليهما إمارات الحياة.

أخيراً قال كريس: "لا زالت المسافة قريبة من مقصدنا. لننطلق".

التفت، وبدأ بالمشي على قضبان سكة الحديد بحذائه الرياضي المتسخ ورأسه المنحني إلى أسفل، وظلّه يلامس قدميه. وبعد دقيقة أو نحو ذلك، سار الجميع خلفه.

24

خلال السنوات الممتدة بين تلك التجربة وكتابتي لهذه المذكرات، لم أفكّر كثيراً في هذين اليومين من شهر سبتمبر/أيلول، في حالة الوعي على الأقل. فالربط بين الأحداث الذي تكشف عنه المذكرات كريه بقدر رائحة جثث غارقة في نهر منذ أسبوع كشفت عنها قذيفة مدفعية. ونتيجة لذلك، لم أشكك حقيقة في قرارنا بمواصلة السير على سكة الحديد. وبعبارة أخرى، تساءلت في بعض الأحيان عما قررنا القيام به، ولكنني لم أتساءل أبداً عن كيفية قيامنا به.

لكن في ذلك الوقت، خطر ببالي سيناريو أبسط بكثير. أنا واثق بأننا لو عرفنا المعاناة التي سنعاني منها لكنّا تخلّينا عن الفكرة أساساً؛ كانت فكرة السير على سكة الحديد تبدو جميلة، كما كنّا نقول حينها. ولكن لو تبين لنا ما كنّا سنواجهه، لما خضنا تلك التجربة، ولما كان سيحصل شيء بعد ذلك، ولكان كريس وتيدي وفيرن على قيد الحياة اليوم. كلا، لم يلقوا حتفهم في الغابة أو على قضبان سكة الحديد. لم يمت أحد في هذه القصة باستثناء بعض العلقات الماصّة للدماء وراي براور، ولكي نكون منصفين، كان راي ميتاً قبل أن تبدأ القصة. لكن صحيح أيضاً أنه من بين الأشخاص الأربعة الذين أجروا قرعة لمعرفة الشخص الذي سيذهب إلى فلوريدا ماركت من أجل التبضع، كان الشخص الذي وقعت عليه القرعة الوحيد الذي لا يزال حياً. فالجندي القديم من المارينز في سنّ الرابعة والثلاثين، وأنت أيها القارئ الكريم، في دور ضيف حفلة الزفاف. إذا أحسست بردّ فعل عنيف تجاهي، فأنت

محق؛ وربما كنت أنا السبب. ففي سنّ كنّا نعتبر فيه أصغر وأقل نضجاً بكثير لكي يكون أحدنا رئيساً للبلاد، فارق ثلاثة منّا الحياة. ولو أن الأحداث الصغيرة تردد صداها أكثر وأكثر بالتضخم مع مرور الزمن، ربما لو اخترنا الحل الأبسط وتوجهنا إلى هارلو، لكان الآخرون على قيد الحياة اليوم.

كان في مقدورنا التوجه إلى الطريق 7 الذي يتجه نحو دار ميلوه للعبادة للذي ينتصب عند تقاطع الطريق السريعة مع الطريق بالك هارلو (لغاية العام 1967 على الأقل عندما سُوِّيت بالأرض إثر اندلاع حريق عُزي إلى إلقاء عقب سيجارة). وبقليل من الحظ، كانا سنصل إلى مكان الجثة بغروب شمس اليوم السابق.

لكن هذه الفكرة لم تكن ستلقى قبولاً. كانت ستُطرح جانباً بحجج مفحمة وكلام بلاغي رنّان. كان القسم الكلامي من المناقشة سيحفل بالكلمات البذيئة مثل "عليك اللعنة"، و"هذا مقرف" والعبارة القديمة "هل بقي لأمك أولاد على قيد الحياة؟"

لكن ما لم نعبّر عنه -وربما كان أكثر بداهة من أن نحتاج إلى التعبير عنه- كان فكرة أن ما نقوم به عبارة عن عمل ضخم. فلم يكن ذلك نوعاً من العبث بالألعاب النارية أو محاولة النظر من فتحة المفتاح إلى غرفة الفتيات في منتزه هاريسون، بل كان عملاً يمكن أن يوضع على قدم المساواة مع تجربة الإلتحاق بالجيش، أو شراء سلعة تحبها؛ بدخول أحد المتاجر، والبحث عن السلعة التي تريدها، وحملها، وتقديم بطاقة التجنيد ورخصة القيادة للموظف، ثم الخروج من المتجر مع ابتسامة على وجهك وكيس بنّي في يدك، لتثبت بذلك أنك عضو في نادٍ فيه من الحقوق والإمتيازات ما يزيد قليلاً عما كان يوفره لنا ذلك الكوخ ذو السقف المصنوع من صفائح القصدير.

هناك طقوس مبالغ فيها ترافق كافة المناسبات الهامة، مثل طقوس المرور؛ والممرات السحرية حيث يحدث التغيير؛ والوقوف أمام الوزير؛ ورفع اليد والإدلاء بالقسم. وإذا شئت، السير على سكة الحديد للإلتقاء برفيق في مثل سنّك في منتصف الطريق، تماماً كما فعلتُ عندما قطعت نصف المسافة في شارع باين للإلتقاء بكريس وهو في طريقه إلى منزلي، أو كما كان سيفعل تيدي لكي يلتقي بي في نصف الطريق في شارع

غايــتس لو كنتُ متوجهاً إلى منزله. بدا أنه من الصواب أن تسير الأمور علــى هــذا النحو لأن طقوس المرور عبارة عن ممر سحري، ولذلك كنّا نــصنع ممشى؛ وهو الممر الذي تمشي فيه عندما تتزوج، والذي تُحمل فيه علــى الأكــتاف عــندما يُــراد دفــنك. كان ممرنا تلك القضبان الحديدية المتوازية، وقد سرنا بينها، على أمل أن نصل إلى ما خططنا لأجله. وربما اعتقدنا بأنه من الصواب أيضاً أن يتبين لنا أن هذا العمل كان أصعب مما نــتوقع. فقــد تبين أن الأحداث التي أحاطت بمسيرتنا كانت كما توقعنا منذ البداية: أحداث خطيرة.

لكن ما لم نكن نعرفه عندما قمنا بالإلتفاف حول البلافس هو أن بيلي تيــسيو، وتشارلي هوغان، وجاك مادجيت، ونورمان "فازي" براوكوفيتش، وفينــسي ديسجاردينز، وآييول، الشقيق الأكبر لكريس، وآيس ميريل كانوا يــسيرون على الطريق نفسه لرؤية الجثة بأنفسهم؛ بطريقة ما، أصبح راي بــراور شــهيراً، وتحول مرنا إلى عرض مسرحي. كانوا يستقلّون سيارة الفــورد التي يملكها آيس، وسيارة ستيود بايكر التي يملكها فينس فيما كنا على وشك الوصول إلى مقصدنا.

تمكــن بيلي وتشارلي من الإحتفاظ بسرهما الدفين لمدة ست وثلاثين ســاعة فقط. وبعد ذلك، باح تشارلي به أمام آيس فيما كانا يلعبان بالكرة، وباح به بيلي أمام جاك مادجيت فيما كان يلعبان بالكرات الحديدية. وطُلب من كل من آيس وجاك أن يقسم بألاّ يبوح بالسر، وبهذه الطريقة عرف كل أعضاء العصابة بأمره بحلول الظهيرة.

اجــتمع أعضاء العصابة، وطرح فازي براوكوفيتش نظرية (سبق أن سمعتَ عنها أيها القارئ الكريم) بأنه من الممكن أن يصبحوا أبطالاً -ناهــيك عــن تحــولهم إلــى شخــصيات إذاعية وتلفزيونية- بسبب اكتشاف الجثة. قال فازي بأن كل ما ينبغي عليهم القيام به هو استعمال ســيارتين ووضــع الكثير من معدات الصيد في صندوقيهما. وبعد أن يعثــروا علــى الجــثة، تصبح قصتهم واقعية مئة في المئة. كنا نخطط لاصطياد القليل من السمك من نهر رويال أيها الضابط. وانظر إلى ما وجدناه.

انطلَقــوا بأقــصى سرعة على الطريق الذي يصل بين كاسل روك ومنطقة باك هارلو فيما كنا على وشك الوصول إلى مكان الجثة.

بدأت السحب بالتجمع في السماء عند الساعة الثانية تقريباً، ولكن لـم يعرها أي منا اهتماماً في بادئ الأمر. فالسماء لم تمطر منذ الأيام الأولـى لـشهر يوليو/تموز، وبالتالي لماذا ستمطر الآن؟ ولكنها بقيت تـتجمع فـي الجهـة الجنوبـية، ثم بدأنا نرى البرق، الذي كان أشبه بخطـوط أرجوانية، ونسمع الرعد، ثم بدأت تلك السحب بالتحرك نحو الـبقعة التـي نسير فيها. نظرت إليها، وتحققت من وجود ستار أسفلها وهـو مـا يعني أنها بدأت تمطر أصلاً على مسافة ثلاثين كيلومتراً أو خمـسين كيلومتراً. ولكن لم يظهر أثر للمطر بعد لأن السحب كانت لا تزال تتجمع.

كـان فيـرن يعاني من وجود بثرة في قدمه، ولذلك توقفنا واسترحنا فيما كان يتفحص قدمه.

سألني تيدي: "هل ستمطر السماء يا غوردي؟"

"أعتقد ذلك".

"هذا خبر مؤسف. إنها نهاية مؤسفة ليوم مؤسف".

ضحكت فيما غمزني بعينه.

واصـلنا سيرنا مجدداً، على نحو أبطأ من السابق لمراعاة قدم فيرن المـصابة. وفـي غـضون ساعة بين الساعة الثانية والثالثة، بدأت تظهر علامـات تبدّل في حالة الجو، وأدركنا بأن المطر سيهطل لا محالة. كان الجـو حـاراً كما في السابق بل وأكثر رطوبة، ولكننا عرفنا أنها ستمطر، والطـيور عـرفت ذلـك، لأنها بدأت تحوم في السماء من كل مكان وهي تزقزق وتنادي بعضها. غابت إشراقة النهار وتحول لون السماء إلى اللون العاجـي. وظلالنا التي بدأت تطول أصبحت مشتتة وغير واضحة المعالم. بـدأت الـشمس تميل إلى المغيب، وتحولت السماء في الجهة الجنوبية إلى اللـون النحاسي. راقبنا البرق وهو يقترب منا، وأصابنا الذهول من حجم هـذا الخطـر الـصامت. كان البرق يتحول بين الحين والآخر إلى اللون الأرجواني، ويملأ السماء للحظات بنور رمادي. ورأيت طرف البرق وهو يـسقط فـي الطرف الآخر من الغابة. كان النور قوياً بما يكفي لكي يرسم وشماً أزرق على شبكة عيني. تلا ذلك قصف الرعد الطويل المهتزّ.

لــم نُفكّر كثيراً في احتمال عثور الناس علينا وكيف سيتم ذلك تحت هــذا المطر، والسبب هو أن ذلك كان أمراً متوقعاً، بالطبع، كنا نتطلع إلى تلك اللحظة.

بعد أن تجاوزت الساعةُ الثالثةَ والنصف بقليل، رأينا مياهاً جارية من خلال فسحة بين الأشجار.

صاح فيرن: "لقد وصلنا. هذا هو نهر رويال".

زدنـــا مـــن سرعة خطانا. بدأت العاصفة تقترب منا، وصار الهواء يتحرك من حولنا، وبدا أن درجة الحرارة انخفضت إلى عشر درجات في غضون ثوانٍ. نظرت إلى أسفل، فوجدت أن خيالي قد اختفى تماماً.

عــدنا نمشي في أزواج مجدداً، وكان كل زوج يراقب الجانب الآخر مــن سكة الحديد. كان فمي جافاً. اختفت الشمس خلف سحابة أخرى، وفي هــذه المــرّة لم تعد إلى الظهور مجدداً. بدا للحظة أن ضفة النهر مطرّزة بالــذهب. ثم أصبح الجو كئيباً، فلقد كانت السحب تلتهم بسرعة المساحات الزرقاء الأخيرة. كنا نستطيع أن نشم رائحة النهر بوضوح مثل الخيل، أو ربمــا كانت تلك رائحة المطر في الهواء. كان يوجد محيط من الماء فوقنا محتجَز في كيس رقيق على وشك أن يتصدع ويطلق طوفاناً في أية لحظة.

واصــلت البحث عن مكان أختبئ فيه تحت الأشجار، ولكن عينيّ بقيتا تنظران إلى السماء المضطربة. فمن خلال ألوانها التي كانت تزداد قــتامة، تــستطيع قــراءة القدر الذي تشاء: ماء، نار، ريح، وابل من الأحجار. لمع في السماء بريق مفاجئ بدا أنه يتجه صوبنا، مما حملني علــى الــصراخ ووضع يديّ على عينيّ. سمعت صوت سقوط شجرة كبيــرة فــي مكان لا يبعد أكثر من ستين متراً عنّي. لكن قصف الرعد الذي تلاه جعلني أنكمش. أردت أن أعود إلى البيت وأقرأ كتاباً جيداً في مكان آمن... في القبو مثلاً.

صاح فيرن بصوت عالٍ: "يا الله. انظروا إلى هناك".

نظــرت فــي الإتجــاه الذي أشار إليه فيرن ورأيت كرة نار بيضاء تتوهج على سكة الحديد. تجاوزتنا بسرعة فيما كنا نراقبها وهي تمرّ، وقد ذُهلــنا مــن أن مثل هذه الأمور يمكن أن يحصل. وعلى مسافة ستة أمتار منا، سمعنا صوتاً ثم اختفت كرة النار مخلّفة رائحة هواء ملوث.

تمتم تيدي قائلاً: "ماذا أفعل هنا على كل حال؟"

قـــال كـــريس وقد ملأ السرور وجهه: "سيكون يوماً جميلاً!" ولكنني كـــنت بجانـــب تيدي. غير أن النظر إلى السماء جعلني أشعر بالدوار. بدا المـــشهد أشبه بمدخل حصن رخامي غامض. ثم لمعت السماء مرة أخرى مما حملنا على الإنحناء. في هذه المرّة، بدت رائحة الهواء أقوى. وبدا أن صوت الرعد التالي لن يتوقف على الإطلاق.

كـــنت لا أزال أشـــعر بالطنـــين في أذنيّ منذ أن بدأ فيرن بالصراخ كالمنتصر قائلاً: "انظروا هناك. إنه هناك. إنني أراه".

تبين لي أن فيرن على صواب هذه المرة؛ وكل ما كان عليّ فعله هو الجلـــوس لمدة دقيقة وأنا مغمض العينين. كان يقف في الجانب الأيسر من السكة مثل مستكشف عند مقدمة سفينته، وهو يضع يداً يحمي بها عينيه من وميض البرق الفضي، فيما يمدّ الأخرى مشيراً بها إلى المكان.

ركضنا نحو المكان الذي يقف فيه، ونظرنا إلى حيث أشار. قلت في نفـــسي: لقد ذهبت مخيلة فيرن به بعيداً، هذا كل شيء. فالحشرات الماصة للـــدماء، والحـــرارة، وهذه العاصفة التي تهبّ الآن... لم تعد عيناه تريان بوضوح، وهذا كل ما في الأمر. لكن تبين أن الحال لم يكن كذلك، بالرغم مـــن أنـــه مضت أعشار من الثانية تمنيتُ فيها لو أنه كان كذلك. في تلك اللحظة السريعة، عرفت بأنني لم أكن أريد رؤية الجثة.

أزالت أمطار الربيع المبكرة جزءاً من طريق سكة الحديد في المكان الـــذي كـــنا نقف فيه، مخلّفة القليل من الحصى. ويبدو أن فرق الصيانة لم تـــصل إلى هذا المكان أو أن الإنجراف حدث منذ مدة وجيزة جداً بحيث لم تـــسنح فرصـــة للتبلـــيغ عنه. أسفل المكان المنجرف، ظهرت بقعة موحلة تـــصاعدت مـــنها رائحة نتنة. وبرزت من بين أغصان أشجار العنبيات يد وحيدة بيضاء.

هل تنفس أي منا؟ أنا لم أتنفس.

تحوّل النسيم إلى ريح؛ عنيفة ومتقلبة تهبّ علينا من كافة الإتجاهات، وهي تلفح وجوهنا التي تتصبب عرقاً. بالكاد لاحظت ما رأيت. وأعتقد بأن جزءاً من عقلي كان ينتظر أن يصيح تيدي: "جنود مظليون فوق رؤوسنا!" واعـــتقدت بأنـــه في حال لم يفعل فسأصاب بالجنون. كان من الأفضل أن نـــرى الجـــثة كاملة دفعة واحدة، ولكننا رأينا بدلاً من ذلك طرفاً ممدوداً، شـــاحب اللـــون إلى حدّ مخيف، وأصابع مفلطحة، مثل يد صبي غرق في

الماء. أخبرتنا تلك اليد القصة كاملة. ولا تزال صورة تلك اليد تراودني في كل مرّة اسمع أو أقرأ فيها عن جريمة فظيعة. في مكان ما، وعلى اتصال بتلك اليد، يوجد ما تبقى من راي براور.

لمع البرق في السماء، وبدا أن الرعد في سباق نحو الوصول إلى رؤوسنا. مسح فيرن شفتيه بطريقة قسرية، كما لو أنه تذوّق شيئاً شهياً، شيئاً بدا غريباً لدرجة أنه أثار حماسته وغضبه في الوقت نفسه.

كان تيدي الوحيد الذي وقف ونظر. لفحت الريح شعره المتلبّد، وأبعدته عن أذنيه، ثم أعادته إلى حيث كان. كان وجهه شاحباً تماماً. يمكنني أن أقول لك بأنني رأيت شيئاً هناك، ربما رأيت شيئاً فعلاً، ولكن ليس في تلك اللحظة.

كان النمل الأسود يمشي على يده جيئة وذهاباً.

بدأ صوت همس يتصاعد في الغابة على جانبي السكة الحديدية، كما لو أن الغابة انتبهت لوجودنا وهي الآن تعلّق على ذلك. لقد بدأ هطول المطر.

سقطت قطرات المطر على رأسي وذراعيّ، وسقطت على أساس سكة الحديد، وحولت الطمي إلى اللون الداكن لفترة من الوقت؛ ثم تغير اللون مجدداً بعد أن امتصت الأرضُ العطشى محتواه من الرطوبة.

سقطت قطرات مطر كبيرة لمدة خمس ثوان تقريباً ثم توقفت. نظرت إلى كريس فبادلني النظر بغمزة في عينه.

ثم هبّت العاصفة فجأة، كما لو سُحبت سلسلة مرشة مياه الحمام في السماء. تحول صوت الهمس إلى جدال صاخب. بدا كما لو أننا نتعرّض للتوبيخ بسبب اكتشافنا، وكان الأمر مخيفاً. لا يوجد أحد يخبرك عن التشخيص إلى أن تدخل الكلّية... وحتى عندما كنت في الكلّية، لاحظت بأن أحداً لا يؤمن بوجود مظاهر خادعة سوى المعتوهين.

قفز كريس فوق الأرض التي انجرفت تربتها وقد التصق شعره برأسه، فتبعته. ولحق بنا فيرن وتيدي، ولكن كريس كان أول من وصل إلى جثة راي براور. نظر إلى الأسفل، ونظر إلى عيني راي بوجه كالح؛ وجه راشد. أومأت برأسي قليلاً كما لو تحدث بصوت مسموع.

كان النمل الذي يسير على يده كبير الحجم. تبين أن راي كان يرتدي قميصاً أخضر اللون وسروال جينز. كانت قدماه عاريتين، وعلى

مـسافة بـضعة أمتار خلفه، انتصبت شجرة عُلّيق ضخمة، هناك رأيت الحـذاء الـذي كان ينتعله فشعرت بالحيرة للحظات؛ لماذا هو في هذا المكـان فيما الحذاء عند الشجرة؟ ثم عرفت السبب، وكان أشبه بتوجيه لكمـة أسـفل الحزام. تعتقد زوجتي وأولادي وأصدقائي بأنه لا بدّ وأن امـتلاك مخيلة مثل مخيلتي أمر رائع، إلى جانب صنع العجين، ولكنني أمعـن في التفكير متى صعبت عليّ الأمور، وأجد أنهم في الغالب على حـق. أنـت تـرى أشياء ولكنك تتغاضى عنها بعد قليل، أشياء تبقيك مـستيقظاً حتـى بزوغ الفجر. وقد رأيت واحداً من تلك الأشياء الآن، رأيـته بكل وضوح وتيقّن. لقد تم تجريده من حذائه. لقد انتزع القطار منه حذائه كما انتزع منه حياته.

بقـيت تلـك الفكرة تسيطر عليّ في طريق العودة إلى المنزل. كان الـصبي ميتاً، ولكنه لم يكن مريضاً كما لم يكن نائماً. وهو لن يستيقظ في الـصباح بعد الآن أو يصاب بالإسهال لتناوله الكثير من التفاح أو اللبلاب السام. كان الولد ميتاً، وهو لن يعود إلى اللعب مع أصدقائه في الربيع، أو يضع حقيبته على ظهره، ويضع فيها الأدوات التي يمكن استخدامها بعد أن ينحـسر الثلج. لن يستيقظ الصبي عند الساعة الثانية من بعد منتصف الليل فـي الأول مـن نوفمبر/تشرين الثاني من هذا العام، ويهرع إلى الحمام، ويفـرغ مـا في معدته من حلويات العيد. لن يتمكن هذا الصبي من جذب جديلة فتاة وهي في منزلها، ولن يتسبب لأحد في نزيف في أنفه، أو يصاب هـو بالرعاف. إنه في ذلك الجانب من البطارية الذي يقول *سالب*، أو سلة المهمـلات بجانب طاولة المدرّس التي تفوح منها دائماً رائحة بري أقلام الرصـاص وقشور حبات البرتقال بعد الغداء. إنه المنزل المسكون خارج البلدة الذي تحطمت نوافذه، ووُضع في فنائه لافتات تقول ***ممنوع الدخول***، والعلّـية المليئة بالخفافيش، والقبو المليء بالجرذان. كان الولد ميتاً يا سيد، ويـا أمـي، وسيدي الصغير، وآنستي العزيزة. يمكنني أن أمضي نهاري بأكملـه مـن غيـر أن يتبين لي سبب هذه المسافة التي تفصل بين قدميه العاريتين على الأرض وحذائه الموجود بالقرب من تلك الشجرة. لقد فُصل الصبي عن حذائه بدون أمل في العودة. كان ميتاً.

أدرنـا الجـثة نحو حبات المطر المتساقط، والبرق، والرعد الذي لا يتوقف.

رأينا النمل والحشرات على كامل وجهه ورقبته. كانت يركض بنشاط جيئة وذهاباً من خلال فتحة قميصه. كانت عيناه مفتوحتين، ولكنهما كانتا مخيفتين، إذ كانت إحداهما مرتفعة إلى أعلى بحيث بالكاد كنا نستطيع رؤية القزحية، فيما كانت الأخرى تحدق في العاصفة. رأينا قطعة متجمدة من الدم في فمه وعلى ذقنه، اعتقدت أن مصدرها أنفه. كان خدّه الأيمن ممزقاً وبدت آثار الكدمات الداكنة عليه. وبالرغم مما تقدم، اعتقدت بأن الجثة لم تكن في حال سيئة. فعندما دخلت الغرفة التي كان أخي دينيس ممدداً فيها، رأيت كدمات أسوأ بكثير من الكدمات التي تعرض لها هذا الولد، إضافة إلى أنف نازف.

وقف تيدي وفيرن خلفنا، ولو أنه كان يوجد أدنى بصر في تلك العين التي تحدق في الأعلى، أعتقد بأننا كنا سنبدو بالنسبة إلى راي براور مثل حاملي بساط الرحمة في أحد أفلام الرعب.

خرجت خنفساء من فمه، ومشت على خدّه إلى أن وصلت إلى نبتة في الجوار، واختفت فيها.

سأل تيدي بصوت غريب: "هل رأيت ذلك؟ أراهن بأنه مليء بالحشرات، أراهن بأن دماغه.."

قال كريس: "اخرس يا تيدي". فلاذ تيدي بالصمت.

ارتسمت خطوط البرق الزرقاء في السماء، مما أعطى لمعاناً لعين الصبي الوحيدة. يمكن للمرء أن يصدق بأنه كان سعيداً لأنه تم العثور عليه، على يد أولاد في مثل سنّه. لقد انتفخ جذعه، وخرجت منه رائحة غازية نتنة.

التفتُ إلى الجهة الأخرى، وأنا أكيد بأنني سأتقيأ، ولكن معدتي كانت خاوية، ومتصلبة، ومستقرة. وفجأة، وضعت إصبعين في حلقي محاولاً أن أتقيأ. اعتقدت بأنه ينبغي عليّ القيام بذلك، ولكن معدتي اختلجت قليلاً ثم استقرت.

طغى هدير زخات المطر والرعد المصاحب له بالكامل على صوت السيارتين اللتين كانتا تقتربان من الطريق باك هارلو الذي يبعد مسافة أمتار عن هذه البقعة الموحلة، كما طغى على صوت الشجيرات النامية التي كانت تُسحق أسفل العجلات أثناء توقف السيارتين.

أول شيء تعرفنا عليه كان صوت آيس ميريل الذي علا صوت العاصفة وهو يقول: "حسناً، ما الذي تعرفونه عن هذا الأمر؟"

قفزنا جميعاً كما لو أننا تعرضنا لصدمة وصاح فيرن؛ اعترف لاحقاً بأنه اعتقد لوهلة بأن الصوت صدر عن الصبي الميت.

في الجانب البعيد من البقعة الموحلة، كانت توجد مجموعة من الأشجار التي تحجب نهاية الطريق. وقف آيس ميريل وآيبول تشامبرز جنباً إلى جنب وكانا شبه محجوبين وراء الستار الرمادي الناتج عن المطر. كانا يرتديان سترتين من النايلون الأحمر، وهي السترات التي تشتريها من المدرسة إذا كنت طالباً منتظماً، وهي السترات التي يرتديها اللاعبون الرياضيون. سرّح كل واحد منهما شعره إلى الخلف فيما بدا المطر الذي ينساب على خديهما مثل الدموع المصطنعة.

قال آيبول: "اللعنة، إنه أخي الصغير".

حدّق كريس في آيبول وقد فغر فاهه. كان قميصه مبتلاً، ومترهلاً وداكناً، ولكنه كان لا يزال يلف خصره النحيل. وكانت حقيبته المتسخة والتي ازداد لونها الأخضر قتامة بسبب المطر تتدلّى بين لوحي كتفيه العاريين.

قال بصوت مرتجف: "اهرب يا ريتش، وسنكون الأشخاص الذين عثروا على الصبي، وسنحصل على الدراهم".

"اللعنة على دراهمك. نحن من سيبلّغ عن مكان وجوده".

قلت: "كلا، لن تفعلوا ذلك". شعرت بالغضب الشديد منهم بعد أن ظهروا في الدقيقة الأخيرة. ولو أننا فكرنا في الأمر، لكنا عرفنا بأن أمراً مثل هذا سيحصل... لكن في هذه المرة، وبطريقة ما، لن يتمكن الفتية الأكبر سناً والأضخم حجماً من سرقة المجد بأخذ شيء أرادوه كما لو كانوا يملكون سلطة مقدسة، وكما لو أن طريقتهم السهلة كانت الطريقة الصائبة، والوحيدة. لقد أتوا إلى المكان مستخدمين سيارتين وأعتقد أن هذا ما أغاظني أكثر. لقد أتوا في سيارتين. "يوجد أربعة منّا يا آيبول، وما عليك سوى أن تحصي العدد".

قال آيبول: "أوه، سنحصي العدد، فلا تقلق بسبب ذلك. عندئذ، اهتزت الشجرة خلفه وظهر آيس، ومرّ بينهما تشارلي هوغان وبيلي شقيق فيرن، وهما يطلقان اللعنات، ويمسحان الماء عن عيونهما. أحسست بكرة من

الرصاص تسقط على بطني، وبدت لنها أكبر حجماً عندما ظهر جاك مادجيت، وفازي براكوفيتش، وفينس ديسجاردينز خلف تشارلي وبيلي.

قال آيس وهو يبتسم: "ها قد وصلنا جميعاً. إذن، أنتم مجرّد.."

صاح بيلي تيسيو بصوت مرتجف: "فيرن". قبض كلتا يديه وقال: "يا ابن العاهرة الصغير، كنتَ جالساً أسفل الشرفة".

أحجم فيرن عن الردّ.

قال تشارلي هوغان بطريقة عاطفية: "يجدر بي أن أشبعك ضرباً".

نهق تيدي فجأة وقال: "أجل، حسناً، ما عليك سوى المحاولة". كانت عيناه تقدحان شرراً خلف نظارته التي انتشرت عليها بقع المطر. "هيا سأقاتلك عنه، هيا، هيا أيها الرجال الكبار".

لم يحتج بيلي وتشارلي إلى دعوة أخرى، فتقدما معاً فأجفل فيرن مجدداً. أجفل، ولكنه ثبت في مكانه. كان بصحبة أصدقائه وقد مررنا بالكثير، ونحن لم نصل إلى المكان باستخدام سيارتين.

لكن آيس أمسك ببيلي وتشارلي عبر لمس كتف كل منهما.

قال آيس: "والآن، اسمعوني أيها الرفاق". تحدث بهدوء كما لو أننا كنا لا نقف وسط عاصفة مطيرة. "إننا نفوقكم عدداً، كما أننا أكبر سناً. وسنمنحكم فرصة واحدة لمغادرة المكان. لا يهمني المكان الذي تذهبون إليه، المهم أن تتشبهوا بالشجر وتختفوا من المكان".

ضحك شقيق كريس فيما ربت فازي على ظهر آيس تعبيراً عن تقديره لفطانته.

ابتسم آيس وقال: "لأننا سنأخذ الجثة معنا". يمكنك تخيله وهو يرسم على وجهه الابتسامة الرقيقة نفسها قبل أن يكسر عصا البلياردو على رأس معتوه غير مثقف ارتكب للتو خطأً جسيماً بعدم تمكنه من إسقاط الكرة. "إذا ذهبتم، فسنأخذ الجثة. وإذا بقيتم في أماكنكم، فسنوسعكم ضرباً ونأخذها معنا رغماً عنكم. كما أن تشارلي وبيلي هما من عثر عليه أولاً، وبالتالي فالدراهم دراهمهم على كل حال".

ردّ تيدي بالقول: "لقد اعتراهما الجبن. لقد أخبرنا فيرن بأمر تلك المحادثة. لقد جبُنا وطار صوابهما. ألم يقل تشارلي: 'أتمنى لو أننا لم نسرق تلك السيارة البارحة'؟ أوه يا بيلي، ماذا تراك ستفعل؟ أوه يا بيلي.."

قــال تــشارلي: "لقد طفح الكيل". وعاد إلى التقدم نحونا مجدداً. كان وجهه يحتدم غضباً وقال: "أيها الصبي الذي لا أعرف اسمه، استعد لتلمس حلقك في المرة القادمة عندما تريد أن تمسك بأنفك".

نظــرت بعينــين مفتوحتين إلى راي براور. كان يحدق بهدوء بعين ولحــدة إلــى الأعلى حيث المطر. كان الرعد لا يزال يهزّ أرجاء المكان، ولكن المطر لم يعد غزيراً.

ســأل آيــس: "ماذا قلت يا غوردي". كان يمسك بذراع تشارلي، كما يفعــل المــدرّب لكي يكبح جماح كلب مسعور. "لا بدّ وأن لديك شيئاً من رجاحة عقل أخيك. قل لهؤلاء بأن يتراجعوا، وإلاّ فسأترك تشارلي يشبعكم ضرباً ثم نكمل مهمتنا..ماذا قلت؟"

أخطأ بالإتيان على ذكر ديني. أردت أن أتوصل إلى حل معه، وأشير إلــى مــا يعرفه آيس تماماً، وهو أننا نملك كل الحق في أخذ دراهم بيلي وتــشارلي لأن فيرن سمعهما وهما يتحدثان عن نسيان الموضوع ونسيان دراهمــه. أردت أن أقول له كيف أنني وفيرن هربنا من أمام قطار الشحن على المنصة التي تمتد فوق نهر كاسل، وعن ميلو بريسمان وكلبه الشرس شــوبر، وعــن العلقات التي تمتص الدم أيضاً. أعتقد بأن كل ما أردت أن أقــوله له هو تقدم يا آيس، فأنت تعرف العدل والصواب. ولكنه أقحم ديني في الموضوع، وما سمعته يصدر من فمي، بدلاً من الكلام المنطقي العذب، كان شهادة وفاتي: "عليك اللعنة أيها الحقير".

رســم فم آيس شكل دائرة مثالية من هول المفاجأة؛ كان التعبير الذي ارتــسم على وجهه استثنائياً لدرجة أنه في ظل ظروف أخرى كان سيعتبر مشهداً كوميدياً إذا جاز التعبير. حدّق الجميع –على جانبي البقعة الموحلة– فيّ وقد بدا على وجوههم الذهول.

ثم صاح تيدي: "كان كلاماً رائعاً منك يا غوردي".

وقفــت خــدراً وأنا عاجز عن تصديق ذلك. كان ذلك أشبه بممثل بديل صعد إلى خشبة المسرح في لحظة حرجة وقال سطوراً لم ترد في نــص المــسرحية. أن تقول لشخص عليك اللعنة ليس أقل سوءاً من أن تلجــأ إلى سبّ أمّه. لمحت بطرف عيني كريس وهو ينزل حقيبته على الأرض ويــبحث فــيها كالمجنون، ولكنني لم أفهم ماذا كان يجري؛ في تلك اللحظة على الأقل.

قال آيس بهدوء: "حسناً، لننل منه. لا تؤذوا أحداً باستثناء الصغير لوشانس. سأحطم ذراعيه اللعينتين".

بقيت هادئ الأعصاب ولم أهرب كما فعلت على منصة سكة الحديد، ولكنني لا بدّ وأنني فعلت ذلك لأنه لم يعد في داخلي شيء أعبّر عنه. فقد كان يعني ما يقول كما ترى. ما مضى من سنوات بين تلك الحادثة واليوم غيّر طريقتي في النظر إلى الكثير من الأشياء، لكن ليس هذه الحادثة. عندما قال آيس بأنه سيحطم ذراعيّ، كان يعني ما يقول.

شرعوا في التقدم نحونا تحت المطر. شهر جاك مادجيت سكيناً من جيبه وفتحها، فبرزت شفرة فولانية طولها خمسة عشر سنتيمتراً. وانحاز فيرن وتيدي فجأة نحوي وأخذا وضعية قتال. قام تيدي بذلك بحماسة، بينما قام فيرن بذلك بدافع من اليأس.

تقدم الصبية الكبار في طابور فيما كانت أقدامهم تغوص في الوحل الذي تحول الآن إلى بركة صغيرة بسبب المطر. كانت جثة راي براور ممددة عند أقدامنا مثل برميل مثقل بالمياه. تهيّأت للقتال... وكانت تلك اللحظة التي أطلق فيها كريس النار من المسدس الذي اختلسه من خزانة أبيه.

يا الله، كم كان ذلك الصوت رائعاً. قفز تشارلي هوغان في الهواء، والتفت آيس ميريل، الذي كان يحدق فيّ مباشرة، نحو كريس وقد رسم فمه شكل دائرة مرة أخرى، وبدا آيبول مصعوقاً تماماً.

قال: "هاي، يا كريس، هذا مسدس أبي. وسيمزقك إرباً بسبب فعلتك هذه".

قال كريس: "هذا لا يقارن بما سيحصل لك". بدا وجهه شاحباً على نحو مخيف، وبدا أن الحياة قد انتُزعت منه، وتطاير الشرر من عينيه.

"كان غوردي على حق، أنت لست سوى كومة من النفايات. لم يرد تشارلي ولا بيلي الحصول على تلك الدراهم اللعينة وأنت تعرف ذلك. ولكن ما قاما به كان الذهاب إلى مكان ما والبوح بالقصة وترك آيس ميريل يقوم بمهمة التفكير نيابة عنهما". ثم ارتفع صوته إلى حدّ الصراخ وقال: "ولكنكم لن تحصلوا على الجثة، هل تسمعونني؟"

قال آيس: "والآن، اسمعني. من الأفضل أن تنزل هذا الشيء قبل أن تصيب قدمك به. فأنت لا تستطيع إطلاق النار على جذع شجرة". وبدأ

يقتــرب منه مبتسماً كما في السابق. "لقد أمسكت بمسدس لعين، وسأجعلك تلتهمه".

"إذا لــم تقف في مكانك يا آيس، فسأطلق النار عليك. أقسم بالله أنني سأفعل".

قــال آيس من غير أن يتردد: "ستدخل السجن". كان لا يزال يبتسم، فيما وقف الآخرون وهم يراقبونه وقد امتلأت قلوبهم رعباً وإثارة... تماماً كما كنت وفيرن وتيدي نراقبه. كان آيس ميريل عنيداً ولم أعتقد بأن كريس يمكــن أن يخدعه. إلى أين سيوصلنا ذلك؟ لم يفكر آيس في أن صبياً يبلغ من العمر اثني عشر عاماً يمكن أن يطلق النار عليه، فيما اعتقدت بأنه كان علـــى خطـــأ. فقد تبين لي أن كريس سيطلق النار على آيس ولن يسمح له بتجــريده من مسدس أبيه. في تلك اللحظات المعدودة، كنت متأكداً بأننا في طــريقنا إلـــى الوقـــوع في مأزق خطير لا أعرف أسوأ نتائجه. إنه مأزق ارتكاب جريمة قتل، ثم الجدال بشأن المكافأة التي سيحصل عليها من عثر على الجثة.

قـــال كريس بهدوء وأسف كبير: "أين تريدني أن أضع الرصاصة يا آيس؟ في الذراع أم في الرِّجل؟ فأنا لا أستطيع الاختيار. ما رأيك لو تختار نيابة عني؟"

عندئذٍ، توقف آيس.

27

ضـــعفت تعابير وجهه، ورأيت الذعر فجأة يرتسم عليه. كانت نبرة كريس التي أوقفته وليس كلماته فيما أعتقد. إنه الأسف الحقيقي لأن الأمور ســتنتقل من سيئ إلى أسوأ. ولو كان في الأمر خدعة، لكانت أروع خدعة شـــهدتها في حياتي. أما الصبية الكبار الآخرون فقد كانوا على قناعة تامة بجدّية كريس لأنه بدا على وجوهم الذهول التام كما لو أن أحداً أشعل عود ثقاب وقرّبه من قنبلة فتيلها قصير.

تمالك آيس أعصابه ببطء، وعاد العبوس إلى وجهه من جديد، وضمّ شـــفتيه، ونظـــر إلى كريس كما ينظر المرء إلى رجل تقدم باقتراح مهني جــدّي؛ اقتــراح بالإندماج مع شركتك، أو تغطية سحوباتك الإئتمانية، أو إطلاق النار عليك. كان تعبيراً فضولياً، تعبيراً يُنبئك بأن الخوف إما أنه قد

ذهب أو حلّ في المكان بكل ثقله. أعاد آيس حساباته واحتمال أن يطلق كريس النار عليه، ووجد أنه لا يوجد الكثير مما قد يصبّ في صالحه. ولكنه بقي شخصاً خطيراً؛ ربما أخطر من أي وقت مضى. لم يكن أي منهما يضمر خديعة، بل كانا يعنيان ما يقولان.

قال آيس بهدوء مخاطباً كريس: "حسناً، ولكنني أعرف كيف ستخرج من هذه الورطة أيها السافل".

قال كريس: "كلا، أنت لا تعرف".

قال آيبول بصوت عالٍ: "أيها الحقير الصغير ستندم على فعلتك هذه".

قال له كريس: "يمكنك أن تعضّ حقيبتي".

وبفورة غضب مرتجلة بدأ آيبول يتقدم نحو كريس الذي أطلق رصاصة في الماء على مسافة ثلاثة أمتار أمامه، فتطاير الماء بسببها. قفز آيبول إلى الخلف وهو يكيل اللعنات.

سأل آيس: "حسناً، وماذا ستفعل الآن؟"

"عليكم أن تستقلّوا سيارتكم الآن، وتعودوا فوراً إلى كامل روك. وبعد ذلك، لا يهمني ماذا ستفعلون. ولكنكم لن تحصلوا على الجثة". ولمس راي براور بلطف واحترام.

قال آيس: "ولكننا سننال منكم". وبدأ بالابتسام مجدداً. "ألا تدركون ذلك؟"

"ربما تتمكنون من ذلك، وربما لا".

قال آيس وهو يبتسم: "سننال منكم. وسنلحق الأذى بكم. وأنا لا أستطيع أن أصدق بأنكم لا تدركون ذلك. سنرسلكم جميعاً إلى المستشفى بعد أن نكسر عظامكم. وأنا صادق في ما أقوله".

"أوه، لِمَ لا ترجع إلى بيتك وتقبّل أمك؟ سمعت أنها تحبّ طريقتك في فعل ذلك".

تجمدت ابتسامة آيس وقال: "سأقتلك لقولك هذا. لا أحد يتجرأ على شتم أمّي".

أخبره كريس فيما بدأ وجه آيس يمتقع: "سمعت أن أمك تلهو مع الناس من أجل حفنة من الدولارات. في الواقع، سمعت أنها..."

وما لبثت أن هبّت العاصفة مجدداً. وبدلاً من الهمس أو الحديث، بدا أن الغابة مليئة بالطبول؛ وكان ذلك صوت حبّات البرَد وهي تنهال على جذوع الأشجار. بدأت حبّات البرَد تلسع كتفيّ؛ كما لو أن قوة حاقدة

تمطـــرنا بهـــا. والأسوأ من ذلك أنها بدأت تتساقط على وجه راي براور محدثة صوتاً ذكّرنا به مجدداً، وبصبره الذي لا يفرغ أبداً.

انـــسحب فيرن أولاً وهو يصرخ، وصعد إلى طريق سكة الحديد في خطـــوات كبيـــرة. وصمد تيدي فترة أطول، ثم لحق بفيرن وقد وضع يديه علـــى رأســـه. على الجانب الآخر، تراجع فينس ديسجارديينز نحو بعض الأشجار القريبة ولحق به فازي براوكوفيتش. ولكن الباقين بقوا حيث هم، وعاد آيس إلى الابتسام مجدداً.

قال كريس بصوت منخفض ومرتعش: "ابقَ معي يا رجل".

"أنا باقٍ في مكاني".

قـــال كريس لآيس بعد أن تمكن بطريقة سحرية من التخلص من تلك الرعشه: "اذهب الآن". تلفظ بهاتين الكلمتين كما لو كان يأمر رضيعاً أبله.

قال آيس: "سننال منك. إننا لن ننسى ما حدث، إذا كان هذا ما تعتقده. إنها مشكلة كبيرة أوقعت نفسك فيها أيها الرضيع".

"لا بأس بذلك. ما عليك سوى الذهاب الآن، وانتقم لنفسك في يوم آخر".

"سنكمن لك يا تشامبرز، و.."

صاح كريس: "غادر المكان". وهو يصوّب مسدسه، فتراجع كريس.

نظـــر إلـــى كريس لفترة من الوقت، وأومأ برأسه، ثم استدار وقال لأصـــحابه: "هـــيا بنا". نظر إلى الخلف مرة أخرى وقال لكريس: "سنلتقي مرّة أخرى".

توجهـــوا نحو ستار من الأشجار بين المستنقع والطريق، فيما لزمت وكـــريس مكانـــنا على الرغم من وابل البرَد الذي كان ينهال علينا، ويملأ جلـــدنا بالـــبقع الحمراء، ويتجمع حولنا مثل الثلج الصيفي. وقفنا وأنصتنا لصوتي محركي السيارتين.

قال لي كريس: "ابقَ حيث أنت". وبدأ يتجاوز البقعة الموحلة.

قلت وقد تملكني الخوف: "كريس".

"عليّ أن أفعل ذلك. إلزم مكانك".

بـــدا أنـــه غاب لفترة طويلة لدرجة أنني اقتنعت بأنه إما أن آيس أو آيـــبول كان يختبئ خلف الأشجار وتمكن من الإمساك به. بقيت في مكاني ولـــم يكـــن بجانبـــي أحـــد سوى راي براور وانتظرت عودة شخص، أي شخص. وبعد فترة، عاد كريس.

قال: "لقد نجحنا. لقد غادروا المكان".

"هل أنت متأكد؟"

"أجل لقد غادرت السيارتان". وضع يديه فوق رأسه والمسدس بينهما، وهزّ قبضته المزدوجة في إيماءة تعبّر عن الإنتصار. ثم أنزل يديه، وتبسم فـــي وجهـــي. أعتقد بأنها كانت أكثر الابتسامات التي رأيتها كدراً وخوفاً. تبادلـــنا النظرات الدافئة لبرهة من الوقت، وربما شعوراً منا بالإحراج مما نراه، نظرنا إلى الأسفل في الوقت نفسه. سرَت في بدني قشعريرة مخيفة، وتحرك كريس بسرعة وهو ما جعلني أعتقد بأنه رأى ما رأيت أيضاً. لقد اتـــسعت عينا براور وبدتا شاردتين وبدون أي أثر للبؤبؤ فيهما، مثل عيني تمـــثال يوناني. احتجت إلى ثانية وحسب لكي أفهم ماذا جرى، ولكن فهمي لم يهدّئ من روعي. لقد امتلأت عيناه بحبّات البرَد البيضاء المستديرة. وقد بـــدأت تـــذوب الآن وبـــدأ الماء ينساب على خدّيه كما لو كان يبكي على وضـــعيته الغريبة؛ الجائزة المالية التي تقاتلت عليها مجموعتان من الصبية الـــبلهاء. بـــدت ثيابه شديدة البياض بسبب حبّات البرَد التي كستها. بدا أنه مسجّى بكفنه الخاص.

قال كريس: "أوه يا غوردي، إنه مشهد مرعب".

"لا أعتقد بأنه يعرف.."

"ربمـــا كـــان ذلـــك شبحه الذي سمعنا صوته. ربما عرف بأن ذلك سيحصل. يا له من مشهد مروّع".

ســـمعت صوت أغصان تتكسر من خلفنا، فالتفتّ وأنا واثق من أنهم أحاطـــوا بـــنا، ولكـــن كريس عاد إلى النظر بتأمل إلى الجثة، بعد نظرة عرَضـــية. كان ذلك فيرن وتيدي وقد بدت الأوساخ على مروايلهما اللذَين التصقا بأرجلهما. كانا يبتسمان مثل كلبين يلعقان البيض.

ســـأل كريس: "ماذا سنفعل يا رجل؟" سرت قشعريرة في بدني. ربما كان يتحدث إليّ، ربما كان كذلك. ولكنه بقي ينظر إلى الجثة.

ســـأل تـــيدي فـــي نبرة تنمّ عن الحيرة: "سنعيده معنا، أليس كذلك؟ سنكون أبطالاً، أليس ذلك صحيحاً؟" ونظر إلى كريس ثم إليّ ثم إلى كريس مجدداً.

رفع كريس رأسه كما لو أنه استفاق من حلم. بدت شفتاه متجعدتين، وتقدم بخطوات كبيرة في اتجاه تيدي، ووضع كلتا يديه على صدره، ودفعه

إلـــى الوراء بعنف. تعثّر تيدي، ولوّح بيديه محاولاً المحافظة على توازنه، ثـــم سقط على مؤخرته. نظر إلى كريس نظرة مصدوم. نظر فيرن نظرة محتـــرس إلـــى كريس لأنه خشي أن يصبّ جام جنونه عليه. ربما لم يكن بعيداً عن بلوغ تلك الحالة.

قال كريس لتيدي: "ابقِ فمك مغلقاً. الجنود المظليون يهبطون خلفي".

صاح تيدي بغضب وخجل: "كان ذلك البرْد، وليس هؤلاء الأشخاص يا كريس. أنا أخشى العواصف. وأنا لا أستطيع التغلّب على هذا الخوف". ثم عاد إلى البكاء ثانية وهو جالس في الماء.

وجّـــه كـــريس ســـؤاله إلـــى فيـــرن فقال: "وماذا عنك؟ هل تخشى العواصف أيضاً؟"

هـــزّ رأسه كالأبله تعبيراً عن الرفض. كان لا يزال مصدوماً من ردّ فعل كريس الغاضب وقال: "يا رجل، اعتقدت بأننا سنهرب جميعنا".

"لا بدّ وأنك قارئ أفكار إذن، لأنك هربت أولاً".

بلع فيرن ريقه مرتين ولم يقل شيئاً.

حـــدّق كـــريس فيه بعينين غاضبتين. ثم التفت إليّ وقال: "سنبني له حمّالة يا غوردي".

"الرأي رأيك يا كريس".

"بالتأكـــيد، كما كنا نفعل في الكشافة". ثم ارتفع صوته إلى مستويات عالـــية وقـــال: "كمـــا كـــنا نفعل في الكشافة. حمّالة! من جذوع الأشجار والقمصان، كما هو مذكور في الكتيّب. أليس كذلك يا غوردي؟"

"بلى، إذا كنت ترى ذلك. لكن ماذا لو عاد هؤلاء الأشخاص.."

صاح قائلاً: "اللعنة على هؤلاء الأشخاص. إنهم حفنة من الجبناء".

"فـــي مقـــدورهم إخـــبار الشرطي يا كريس. وهو بدوره سيأتي إلى المكان ويلقي القبض علينا".

"راي ملكنا وسننقله من هذا المكان".

قلت له: "يمكن لهؤلاء الأشخاص أن يقولوا أي شيء للإيقاع بنا". بـــدت كلماتـــي رقـــيقة، وخرقاء. "يمكن أن يقولوا أي شيء ثم ينشروا الأكاذيـــب. وأنـــت تعرف كيف يمكن للأشخاص أن يوقعوا الأشخاص الآخـــرين في مشكلات عبر نشر الأكاذيب. كما حصل معك في حادثة مال الحليب.."

صاح كريس: "أنا لا أبالي". واندفع نحوي رافعاً قبضتيه. لكن إحدى قدميه تعثرت بالقفص الصدري لراي براور، فتعثّر وسقط. انتظرت ريثما ينهض على قدميه، ويوجه لكمة إلى فمي، ولكنه تمدد في المكان الذي سقط فيه، ورأسه يشير إلى سكة الحديد، ويداه ممدودتان فوق رأسه مثل رجل على وشك الغوص في الماء، في وضعية مطابقة لوضعية راي براور عندما عثرنا عليه. نظرت بتمعن إلى قدم كريس للتأكد من أن حذاءه الرياضي لا يزال فيها. ثم بدأ يبكي ويصرخ ويتقلّب في الأرض الموحلة وهو ينشر رذاذ الماء فيما كان يضرب الأرض بقبضتي يديه، ويحرك رأسه يمنة ويسرة. كان فيرن وتيدي يحدقان فيه بتلهّف لأنه لم يسبق أن رأى أحدٌ كريس تشامبرز وهو يبكي. وبعد لحظة أو لحظتين، مشيت نحو سكة الحديد، وصعدت إليها، وجلست على أحد قضبانها. لحق بي فيرن وتيدي فجلسنا تحت المطر من دون أن نتبادل الكلام، مثل القرود الثلاثة التي تباع في المتاجر التي تبيع الأدوات الرخيصة ومحلات بيع الهدايا التي تبدو على شفير الإفلاس.

28

مضت عشرون دقيقة قبل أن يصعد كريس إلى سكة الحديد ويجلس بجانبنا. بدأت الغيوم بالتفسح، وظهرت أشعة الشمس من بينها. وبدا أن الخضرة في الغابة ازدادت قتامة خلال الدقائق الخمس والأربعين الأخيرة. كان الوحل قد لطخ جبينه وشعره. والجزء الوحيد الذي لم يتلطخ من جسمه كان الدائرتين اللتين تحيطان بعينيه.

قال: "أنت على حق يا غوردي. لا أحد سيحصل على الدراهم الأخيرة".

لومأت برأسي. مرّت بعد ذلك خمس دقائق من غير أن يتفوه أحد بكلمة. وصدف أنه خطرت ببالي فكرة؛ لمجرّد التحسّب لاحتمال اتصالهم بانترمان. نزلت عن سكة الحديد، وعدت إلى حيث كان يقف كريس. وجثوت على ركبتيّ، وبدأت أبحث بحرص شديد في المياه والأعشاب مستعيناً بأصابعي.

سألني تيدي بعد أن لحق بي: "ماذا تصنع؟

قال كريس مشيراً بيده: "إنهما على يسارك على ما أعتقد".

نظرت إلى المكان الذي أشار إليه. وبعد دقيقة أو دقيقتين عثرت على الخرطوشتين. كانتا تلمعان تحت أشعة الشمس التي سطعت مؤخراً. أعطيتهما لكريس الذي أومأ برأسه، ووضعهما في جيب سرواله.

قال كريس: "يمكننا أن نذهب الآن".

صاح تيدي في معاناة واضحة: "هيا لنذهب. أريد أن آخذه معنا".

قال كريس: "اسمع أيها الغبي. إذا نقلناه من هذا المكان، سينتهي بنا الأمر جميعاً إلى دخول الإصلاحية. والأمر كما قال غوردي. يمكن لهؤلاء الأشخاص أن يلفقوا أية قصة إذا أرادوا ذلك. فماذا لو قالوا بأننا قتلناه؟ كيف ستجيبون عن هذا الأمر؟"

قال تيدي وقد قطّب حاجبيه: "أنا لا آبه البتّة". ثم نظر إلينا نظرة سخيفة وأضاف: "أضف إلى ذلك، ربما لن يُحكم علينا بأكثر من بضعة شهور، بوصفنا مساعدين في ارتكاب الجريمة. أعني أننا صبية لم نتجاوز الثانية عشرة من عمرنا، وهم لن يرسلونا إلى سجن شاوشانك".

قال كريس بهدوء: "لا يمكنك الإلتحاق بالجيش إذا كانت لديك صحيفة سوابق يا تيدي".

كنت متأكداً من أنها لم تكن أكثر من كذبة مكشوفة؛ لكن بطريقة ما، بدا أن هذا أوانها. اكتفى تيدي بالنظر إلى كريس لفترة طويلة وفمه يرتعش. وأخيراً تمكن من قول: "لا بدّ وأنك تمزح؟"

"اسأل غوردي".

نظر إليّ وهو يأمل بسماع جواب آخر.

قلت مثل أبله كبير: "إنه على حق. إنه على حق يا تيدي. إن أول شيء يقومون به عندما تتطوع للخدمة العسكرية هو التحقق من صحيفتك العدلية".

"يا الله".

قال كريس: "علينا أن نعود إلى منصة القطار. ثم نخرج عن سكة الحديد، ونعود إلى كاسل روك من الإتجاه الآخر. وإذا سألنا الناس عن المكان الذي كنّا فيه، سنقول لهم بأننا ذهبنا لننصب خيمتنا على تل بريكيارد، ولكننا ضللنا الطريق".

قلت: "إن ميلو بريسمان يعرف أننا لم نكن في تل بريكيارد. وذلك الوغد في فلوريدا ماركت أيضاً".

"حسناً، سنقول بأن ميلو أخافنا وعندئذٍ قررنا نصب خيمتنا على تل بريكيارد". اومأت برأسي معتقداً أن هذه الخطة يمكن أن تنجح، هذا في حال تذكر فيرن وتيدي وجوب الإلتزام بها.

قال كريس: "يمكنكم أن تقلقوا بسبب ذلك إذا شئتم. وأعتقد بانني سأتشاجر مع أبي على كل حال".

قال فيرن: "هيا إذن". وهو ينظر إلى الأشجار التي تفصلنا عن طريق باك هارلو. بدا أنه يتوقع ملاقاة بانرمان في أية لحظة. "لنذهب فيما الفرصة سانحة".

نهضنا جميعاً على أقدامنا الآن استعداداً للإنطلاق. كانت الطيور تغرّد كالمجانين، وهي ممرورة بالمطر، وإشراقة الشمس، والدود وكل شيء آخر تقريباً في هذا العالم. عدنا أدراجنا كما لو كنا نُسحب بواسطة الخيوط، ونظرنا مجدداً إلى راي براور.

كان ممدداً هناك بمفرده مرة أخرى. بدا أن يديه قد تحركتا مع عودتنا إلى المكان، وأصبح الآن ناشراً يديه وذراعيه كما لو كان يرحب بأشعة الشمس. بدا لوهلة أن كل شيء على ما يرام، مشهد وفاة طبيعية أخرى أكثر من أي مشهد آخر في المشرحة. يمكنك أن ترى الرضة، والدم المتخثّرعلى ذقنه وأنفه، وكيف أن الجثة بدأت تنتفخ. وأنت ترى الزجاجات الزرقاء وكيف أنها تحيط بالجثة. ستتذكر تلك الرائحة الغازية في الغرفة المقفلة. كان صبياً في مثل سنّنا، وكان ميتاً، وأنت ترفض أية فكرة تقول بأن الوفاة كانت طبيعية. وأنا رفضت تلك الفكرة مع إحساس بالرعب.

قال كريس: "حسناً". أراد أن يبدو قوياً، ولكن صوته خرج من حلقه مثل صوت نزع الشعر الجاف من المقشّة. "بخطى سريعة".

عدنا سالكين الطريق الذي جئنا منه. لم نتبادل الأحاديث. لا أعرف ما اعترى الآخرين، ولكنني كنت مشغولاً بالتفكير بحيث لم أجد رغبة في الكلام. كانت هناك أشياء تزعجني تتعلق بجثة راي براور؛ أزعجتني حينها كما تزعجني الآن.

رضة قوية في خدّه، وتمزّق في جلدة الرأس، وأنف سال منه الدم. لا يوجد شيء أكثر وضوحاً؛ أكثر من هذه العلامات على الأقل. يحاول الناس الإبتعاد عن المشاجرات التي تحدث في الحانات، وفي أسوأ الحالات يلجؤون إلى الشرب. لكن القطار اصطدم به. تساءلت عن سبب خلعه

لحذائـــه وكـــيف أن المهـــندس لم يره. وهل الإصطدام كان قوياً بما يكفي للإلقـــاء به عن سكة الحديد من غير أن يتسبب في وفاته؟ اعتقدت بأنه في ظـــل مجمـــوعة الظروف المناسبة، يمكن أن يحصل ذلك. هل اصطدم به القطار بقوة شديدة فيما كان يحاول الإبتعاد عن طريقه؟ هل اصطدم به مما جعلـــه يطير في الهواء ويسقط في المكان الذي وجدناه فيه؟ وهل بقي على قيد الحياة ممدداً على الأرض وهو يرتجف في الظلام طوال عدة ساعات، وهـــو لا يشعر بأنه تائه وحسب، بل وبأنه فاقد لحس الإتجاه أيضاً بعد أن انقطـــع عن العالم؟ ربما مات من شدة الخوف. سبق أن مات عصفور في يـــدي انتزع ريش ذيله لنفس السبب. كان جسمه يرتجف ويهتزّ باستمرار، وهـــو يقفـــل مـــنقاره ويفتحه، فيما كان يحدق بي بعينيه البرّاقتين. ثم هدأ الإهتزاز وتجمد المنقار وهو نصف مفتوح، وتحولت العينان البراقتان إلى عينين باهتتين وغير مباليتين. ربما هذا ما حصل لراي برلور. ربما قضى نحبه لأن خوفه بلغ حدّاً منعه من مواصلة العيش.

لكـــن كـــان يـــوجد شـــيء آخر، وهو الذي سبّب لي أكبر قدر من الإنـــزعاج. لقـــد بدأ رحلة لقطاف العنبيات. وأذكر أن النشرات الإخبارية قالـــت إنـــه كان يحمل وعاءً أراد أن يضع العنبيات فيه. وعندما عدنا إلى المكتبة، ونظرنا في الصحف لمجرد التأكد من الأمر، وجدنا أن الخبر كان صـــحيحاً. كان يقطف العنبيات، وكان يحمل وعاء أو قدراً أو شيئاً شبيهاً، ولكنـــنا لم نعثر عليه. لقد وجدنا راي ووجدنا حذاءه. ولا بدّ وأنه ألقاه في مكان ما بين تشامبرلين والأرض الموحلة في هارلو حيث لقي حتفه. ربما تمـــسك بـــه بقوة في بادئ الأمر لأنه اعتقد بأنه يربطه بالمنزل والأمان. ولكـــن مع تنامي شعوره بالخوف، والإحساس بأنه لوحده بدون أية فرصة تمكّـــنه مـــن النجاة باستثناء ما يمكن أن يصنعه بنفسه، ومع حلول الرعب البارد في نفسه، ربما ألقى بالوعاء داخل الغابة على هذا الجانب من السكة أو ذاك من غير أن ينتبه إلى المكان الذي سقط فيه.

فكّـــرت فـــي العـــودة والبحث عن الوعاء؛ هل تصيبك هذه الفكرة بالإعـــياء؟ فكّـــرت فـــي سلوك طريق باك هارلو بسيارتي الفورد الجديدة المقفلة في صباح يوم صيفي مشمس، مصطحباً زوجتي وأولادي إلى عالم آخـــر حيث الأضواء تنير، إذا أدرت المصابيح، في الظلام. فكّرت في ما يمكـــن أن أصنعه في تلك الحالة، كأن أوقف السيارة، وأخرج أدواتي فيما

أخلــع قميــصي وأضعه على خصري، وأضع على صدري وكتفيّ زيت الموســكول المنفّر للحشرات، ثم أندفع نحو الغابة إلى ذلك المكان الموحل حــيث عثرنا على الجثة. هل سينمو العشب الأصفر في ذلك المكان بحيث يرســم شــكل الجــثة؟ بالطــبع لا. لن تكون هناك علامة تشير إلى مكان وجودها، لكنني بقيت أتساءل، وأنت تعرف الغشاء الرقيق الذي يفصل بين ثياب الرجل العاقل- الكاتب الذي يرتدي سترة مضلعة وُضع على مرفقيها قطعــتان من الجلد- وأساطير جورغون التي تتحدث عن الطفولة. فكرت فــي صــعود المــنحدر للوصول إلى سكة الحديد، التي نمت بين قضبانها الأعــشاب الآن، ثــم المــشي ببطء بجانب القضبان الصدئة والعارضات الخشبية العفنة في اتجاه تشامبرلين.

إنــه خيال أحمق. رحلة للبحث عن وعاء لحبات العنبيات اختفى منذ عــشرين عامــاً، علــى الأرجح أنه دُفن داخل الغابة أو أسفل التربة تحت جنازيــر جــرافة تعمل على شق طريق لأرض مساحتها نصف فدان، أو أخفــته الأعــشاب الضارّة وشجيرات العلّيق بحيث لم يعد مرئياً. ولكنني مــتأكد من أنه لا يزال هناك، في مكان ما بموازاة خط سكة الحديد القديم، بحــيث تتحول الرغبة في البحث عنه في بعض الأحيان إلى نوبة جنونية. وعادة ما تنتابني هذه النوبات في الساعات الأولى من الصباح عندما تستحم زوجتــي فيما يجلس الأولاد أمام شاشة التلفاز لمشاهدة سوبرمان وسكوبي دي علــى القــناة 38 التي تبث من بوسطن، وعندما أشعر بأنني أشبه ما أكــون بغــوردن قــبل ســنين المراهقة الذي جال الأرض يوماً، ومشى، وتحــدث، وزحــف على بطنه في بعض الأحيان كما تفعل السحلية. ذلك الــصبي كان أنا، حسبما أعتقد. والسؤال الذي خطر ببالي بعد ذلك، والذي جعلني أشعر بالقشعريرة هو: عن أي صبي تتكلم؟

جلست أشرب الشاي وأنا أنظر إلى أشعة الشمس المائلة وهي تخترق نــوافذ المطــبخ، وأستمع إلى التلفاز في جانب المنزل وإلى صوت مرشة المــياه فــي الحمام في الجانب الآخر. شعرت بالنبض خلف عينيّ وهو ما يعنــي أننــي أكثــرت من الشرب في الليلة السابقة، وشعرت بالثقة بأنني أستطيع العثور على الوعاء. في مقدوري رؤية المعدن وهو يلمع من خلال الــصدأ، وشمس الصيف الساطعة التي تعكس أثر ذلك المعدن على عيني. يمكن أن أتوجه إلى جانب منحدر سكة الحديد، وأزيل الأعشاب التي نمت

هناك، وماذا سأفعل بعد ذلك؟ سأقلّبه في يديّ المرة تلو المرة، وأتعجب من معـرفة أن آخر شخص لمسه مدفون في قبره منذ سنين طويلة. لنفترض أنني وجدت ملاحظة في داخله؟ *ساعدوني، فأنا تائه*. بالطبع لن أجد ورقة - فالأولاد لا يذهبون لقطاف العنبيات وفي أيدهم أوراق وأقلام رصاص- لكـن لنفترض ذلك وحسب. أتخيل الفزع الذي سيعتريني في عتمة شبيهة بعـتمة الكسوف. لكن مجرد التفكير في أنني أمسك بذلك الوعاء في يديّ، إنـه رمز لحياتي بقدر ما هو رمز لوفاته، وبرهان على أنني أعرف ذلك الـصبي الـذي أعنيه، ذلك الصبي الذي هو أحد الصبيان الخمسة. أتخيل نفسي وأنا أمسك بهذا الوعاء، وأقرأ كل سنة مضت عليه من خلال الصدأ الـذي يعتليه واللون الذي طمسته أشعة الشمس الساطعة. أتخيل نفسي وأنا أتحسـسه، محـاولاً أن أفهـم الشموس التي أشرقت عليه، والأمطار التي هطلـت علـيه، والثلج الذي غطاه؛ وأتساءل أين كنتُ عندما حصل له كل ذلـك في مكانه الموحش، وماذا كنتُ أفعل، ومن كنتُ أحب، وكيف كنت أمـضي وقتي. سأمسك به، وأقرأه، وألمسه... وأنظر إلى وجهي عبر أي انعكاس ربما بقي فيه. هل يمكنك البحث عنه؟

29

وصـلنا إلـى كاسل روك صباح يوم الأحد بعد أن تجاوزت الساعة الخامـسة بقلـيل، والذي صادف أنه اليوم الذي يسبق يوم العمال. كنا قد مـشينا طـوال اللـيل. لم يشتكِ منا أحد، بالرغم من أننا جميعاً نعاني من التقرّحات ونتضور جوعاً. عانيتُ من صداع قاتل، وأحسستُ بأن رِجليّ قد الـتوتا، واحتـرقتا بفعل التعب. اضطررنا إلى نزول منحدر سكة الحديد مرتين لإفساح الطريق لقطاري شحن، سار أحدهما في طريقنا، ولكنه كان أسـرع من أن نتمكن من القفز عليه. كانت السماء تمطر في النهار عندما وصـلنا مرة أخرى إلى المنصة التي تعبر النهر كاسل. نظر كريس إليها، ونظر إلى النهر، ثم نظر إلينا.

"اللعـنة على هذه المنصة. سأعبرها، وفي حال اصطدم بي القطار، فلن أعود بحاجة إلى الحذرِ من آيس ميريل اللعين".

مـشينا فوق المنصة؛ ربما تكون عبارة تهادينا أكثر دقة. لم نصادف قطـاراً. وعـندما وصـلنا إلى البئر، تسلقنا السياج (لم نجد ميلو ولم نجد

شـــوبر؛ ليس في هذا الوقت المبكر، وليس في صباح يوم الأحد) وتوجهنا مباشرة نحو المضخة. تولّى فيرن مهمة ضخ المياه وقام كل واحد منا على التوالي بوضع رأسه تحت المياه الباردة جداً، ورش الماء على سائر جسده، والـــشرب إلى أن لم تعد المعدة تتسع للمزيد. ثم كان علينا ارتداء قمصاننا مجـــدداً لأن النسمات الصباحية كانت باردة. سرنا- ترنّحنا – عائدين إلى الـــبلدة، ووقفنا للحظة على الممشى قبالة العقار الشاغر. نظرنا إلى كوخنا فوق الشجرة لكي لا نحتاج إلى النظر إلى بعضنا.

قـــال تيدي أخيراً: "حسناً، سأراكم في المدرسة يوم الأربعاء. وأعتقد أنني سأبقى نائماً حتى ذلك الحين".

قال فيرن: "وأنا أيضاً، فأنا منهك بحيث أكاد أعجز عن الحراك".

أطلق كريس صفرة من خلال أسنانه من غير أن يعلّق بشيء.

قال تيدي بطريقة سمجة: "يا رجل. لا يوجد بيننا بغضاء، أليس كذلك؟"

قـــال كـــريس: "كلا". وفجأة، تحول وجهه التعب والكئيب إلى وجه جميل ومبتسم وقال: "لقد نجحنا، أليس كذلك؟ لقد قمنا بالعمل الصعب".

قال فيرن "أجل. والآن سيشبعني بيلي ضرباً".

قال كريس: "لا يهم. سينال ريتشي مني، وعلى الأرجح أن ينال آيس من غوردي، وسينال شخص آخر من تيدي. ولكننا نجحنا في مهمتنا".

قال فيرن: "هذا صحيح". ولكنه بقي غير سعيد.

تحـــدث كريس إليّ بنبرة لطيفة: "لقد نجحنا، أليس كذلك؟ كان الأمر يستحق كل هذا التعب، أليس كذلك؟"

قلت: "كان يستحقه بالتأكيد".

قـــال تـــيدي فـــي تعبيـــر عـــن تذمّره: "اللعنة على هذا الأمر. أنتم تتصرفون كما لو كنتم أمام رجال الصحافة. سأذهب إلى البيت لأعرف إن كانت أمّي قد وضعت اسمي على لائحة المطلوبين العشرة الأول".

ضحكنا جميعاً. لقد تكرّم تيدي علينا بإبراز وجهه المتعجب، وبادلناه بالـــضحك. ثم مضى مع فيرن في طريقهما وحان دوري لكي أمضي في طريقي، ولكنني ترددت للحظات.

عرض عليّ كريس أن يمشي معي. فقلت له: "أجل، بالتأكيد".

مـــشينا مسافة قليلة من غير أن نتفوه بكلمة. كانت كاسل روك هادئة على نحو غريب، وراودني شعور من زال عنه التعب. كنا يقظَين فيما كان

العالم كله نائماً لدرجة أنني توقعت لن ألتفت عند منعطف الشارع وأرى الظبي واقفاً عند الطرف الآخر من شارع كاربابن، حيث تمر قطارات الشركة جي أس أند دبليو أم عبر رصيف التحميل في المعمل.

أخيراً تكلم كريس فقال: "سيتكلمون عن الأمر".

"يمكنك المراهنة على ذلك. لكن ليس في هذا اليوم ولا في الغد، إذا كان هذا ما يقلقك. في اعتقادي، سيمرّ وقت طويل قبل أن يتحدثوا عن الأمر. وربما سيستغرق الأمر سنوات".

نظر إليّ نظرة تعجب.

"إنهم خائفون يا كريس، وعلى وجه الخصوص تيدي الذي يخشى أن يلاقي طلبه بالإلتحاق بالجيش الرفض. كما أن فيرن خائف أيضاً، لأنه سيخسر بعضاً من ساعات النوم إذا فعل ذلك. وستأتي أوقات في هذا الخريف عندما يكون من المناسب إخبار شخص ما بالقصة، ولكنني لا أعتقد بأنهم سيفعلون ذلك. أتعرف شيئاً؟ تبدو الفكرة جنونية... أعتقد بأنهم سينسون كل ما حصل".

كان يومئ رأسه ببطء. "لا أعتقد أن الأمور ستسير على هذا النحو. أنت تتكهن بما يمكن أن يفعله الناس يا غوردي".

"يا رجل، أتمنّى لو كنت أفعل".

ثم مشينا فترة بصمت.

قال كريس: "لن أغادر هذه البلدة أبداً". وتنهّد. "عندما تعود من الكلّية أثناء العطلة الصيفية، ستكون قادراً على النظرّ إليّ وإلى فيرن من أعلى إلى أسفل إذا أردتَ ذلك، ولكنني أعتقد بأنك لن تفعل ذلك". ثم علا صوته بالضحك.

قلت وأنا أحاول الظهور بمظهر الولد الصلب: "أنت تهزأ من نفسك".

عدت بمخيلتي إلى الغابة، وتذكرت ما قاله كريس: *ربما أعدت المال إلى السيدة سايمونز وأخبرتها بالحقيقة، وربما كان المال هناك، ولكنني حصلت على تلك العقوبة لأنه لم يتم العثور على المال. وربما عادت السيدة سايمونز إلى المدرسة في الأسبوع القادم وهي ترتدي تنّورة جديدة...* تخيلت تلك النظرة التي كانت في عينيه.

قال كريس: "أنا لا أمزح".

فركت إصبع السبابة بإبهامي وقلت: "هذه أصغر آلة كمان في العالم".

قال كريس: "كان راي من حقنا". وأغمض عينيه ليحميهما من أشعة الشمس في الصباح.

وصلنا إلى زاوية الشارع الذي يؤدي إلى منزلي وتوقفنا هناك. كانت الساعة تشير إلى السادسة والربع. رأينا في البلدة الشاحنة التي تنقل أعداد صحيفة صنداي تلغراف وهي تتوقف أمام محل القرطاسية الذي يملكه عم تـيدي. ألقى رجل يرتدي كنزة وسروال جينز رزمة من الصحف، فانقلبت علـى الممـشى، وظهرت الرسوم الهزلية. ثم مضت الشاحنة في طريقها، وفـي نـية سائقها نقل أخبار العالم الخارجي إلى باقي البلدات الصغيرة؛ أوتيـسفيلد، نـورواي ساوث باريس، واترفورد، ستونهام. أردت أن أقول المزيد لكريس، ولكنني لم أعرف كيفية القيام بذلك.

قلت له: "أراك في وقت لاحق".

ابتسم – ابتسامته الحلوة المشرقة نفسها– وقال: "إن لم أرك قبلاً أيها اللعين".

مـضى في طريقه وهو يضحك، ومشى بخفة ورشاقة، كما لو أنه لـم يكـن يـشعر بالتعب مثلي، ولم يصب بالقروح مثلي، ولم يتعرّض للسعات البعوض وعضات الذباب الأسود والبرغوث مثلي. مشى كما لو أنـه لا يهتم لشيء في هذا العالم، أو كما لو كان ذاهباً إلى مكتب مدير بدلاً من الذهاب إلى بيت بدون أبواب ونوافذ محطمة سُدّت بالبلاستيك، بـيت على الأرجح أن أخاه يترصّد له في فنائه. حتى وإن كنت أعرف العـبارة المناسبة التي ينبغي قولها، على الأرجح أنني لم أكن سأتمكن مـن قولها. فأنا أعتقد بأن الكلام يعطل وظائف الحب؛ هذا كلام يستبعد أن يـصدر عـن كاتب، ولكنني أعتقد بأنه صحيح. فلو أنك قلت لغزال بأنـك لا تضمر الأذية له، فسيهرب بقفزة واحدة. تحمل الكلمات الأذى في طياتها. والحب ليس كما يعتقد الشعراء الأغبياء من أمثال ماكوين. إن للحب أسناناً، ويمكن أن يعضّ، والجروح التي تنجم عن ذلك لا تلتئم أبـداً. لا يمكـن لكلمة، ولا لأي تركيبة من الكلمات أن تشفي الجروح التـي أحدثتها أسنان الحب. فالكلمات طريقة للإلتفاف على الموضوع، وهـنا يكمن السرّ. فإذا التأمت هذه الجروح، تموت الكلمات معها. تعلّم منّـي. لقد صنعت حياتي بواسطة الكلمات، وأنا أعرف بأن الحقيقة هي مثلما قلت.

وجدت الباب الخلفي مقفلاً ولذلك سحبت المفتاح الإضافي من أسفل ممسحة الأرجل، ودخلت المنزل. كان المطبخ خالياً، وصامتاً ونظيفاً. كان في مقدوري سماع همهمة لمبة الفلوريسنت فوق حوض المغسلة عندما ضغطت على المفتاح. لقد مضت سنوات بالمعنى الحرفي للكلمة منذ أن دخلت المطبخ آخر مرّة قبل أمّي، حتى أنني لا أستطيع تذكر آخر مرة حصل فيها هذا الأمر.

خلعت قميصي، ووضعته في سلّة الثياب البلاستيكية خلف الغسالة. وأخذت قطعة قماش نظيفة من أسفل الحوض، ومسحت بدني بها: الوجه، والرقبة، والإبطان، والبطن. بدا أنني لن أتمكن من تنظيف بدني بهذه الطريقة، علماً بأن الآثار التي خلّفتها العلقات الماصّة للدم كانت تختفي بسرعة. لا يزال هناك ندبة على شكل هلال في بدني. وأذكر أن زوجتي سألتني مرة عنها فكذبت عليها حتى قبل أن أدرك بأنني كنت أتعمّد إخفاء الحقيقة.

عندما انتهيت من مسح بدني، ألقيت بقطعة القماش بعيداً بعد أن أصبحت قطعة قذرة.

أخرجت من الثلاجة عشر بيضات، وخفقت ستاً منها. وبعد أن أصبحت شبه جافة في المقلاة، أضفت قطع الأناناس ونصف كوب من الحليب. جلست لكي أتناول طعامي، وفي تلك اللحظة دخلت أمّي المطبخ وقد ربطت شعرها الرمادي خلف رأسها. كانت ترتدي ثوب حمام زهري اللون، وتدخن سيجارة.

"أين كنت يا غوردن؟"

قلت: "أمضيت وقتي في الخيمة". وبدأت بتناول طعامي. "نصبنا الخيمة أولاً في فناء دار فيرن، ثم توجهنا إلى تلّ بريكيارد. قالت والدة فيرن بأنها ستتصل بك. هل فعلت ذلك؟"

قالت: "على الأرجح أنها تحدثت إلى والدك". وتوجهت نحو حوض المغسلة. بدت أشبه بشبح زهري اللون. كان نور لمبة الفلوريسنت أبعد ما يكون عن اللطافة مع بشرتها لأنه جعلها أقرب إلى اللون الأصفر. تنهّدت، وكادت أن تبكي عندما قالت: "أفتقد دينيس أكثر في أوقات الصباح، أنظر إلى غرفته، فأجدها فارغة دائماً يا غوردن، دائماً".

قلت: "أجل، إنه أمر صعب".

"كان ينام دائماً بعد أن يفتح النافذة، ويغطي بدنه... غوردن؟ هل قلتَ شيئاً؟"

"لا شيء يا أمّي".

".. ويغطي بدنه حتى ذقنه". أنهت كلامها، وحدّقت من خلال النافذة، ثم حدّقت فيّ. واصلت الأكل، ولكن بدني كان بأكمله يرتجف.

31

لم يبح أحد بتفاصيل القصة.

أنا لا أقصد القول لأنه لم يتم العثور على جثة راي براور، فالعكس هو الصحيح. غير أن أحداً من عصابتنا أو من العصابة الأخرى لم ينل فضلاً بسبب ذلك. في النهاية، لا بدّ وأن آيس وجد أن إجراء اتصال من مجهول هو الحل الأسلم، لأن تلك كانت الطريقة التي وصفت فيها التقارير الإخبارية مكان العثور على الجثة. ما أردت قوله هو أن أحداً من الآباء لم يعرف ما فعلناه حتى يوم العمال.

كان والد كريس لا يزال على عادته في الشرب، تماماً كما وصفه كريس. كما أن والدته ذهبت إلى ليويستون لتبقى بجانب أختها، كما كانت تفعل دائماً عندما يذهب السيد تشامبرز إلى إحدى حفلاته الصاخبة. ذهبت وكلّفت آيبول برعاية أشقائه الصغار. وقام آيبول بالمهمة التي كلفته بها بالتسكع مع آيس ورفاقه الأحداث من أصحاب السوابق، تاركاً شيلدون الذي يبلغ من العمر تسع سنين، وإيميري البالغة من العمر خمس سنين، وديبورا البالغة من العمر سنتين لكي يلهوا أو يسبحوا بمفردهم.

انتاب والدة تيدي القلق في الليلة الثانية، واتصلت بوالدة فيرن. قالت والدة فيرن بأننا لا زلنا في خيمة فيرن. وهي توصلت إلى هذا الإستنتاج لأنها رأت نوراً في الخيمة في الليلة السابقة. وقالت والدة تيدي بأنها تأمل بأن لا يوجد في الخيمة من يدخن السجائر، وقالت والدة فيرن بأنها رأت ما يشبه نوراً خاطفاً، وأنها متأكدة من أنه لا يوجد بين أصحاب فيرن أو بيلي من يدخن.

طرح عليّ والدي بعض الأسئلة الغامضة، وبدا عليه الإضطراب قليلاً بسبب أجوبتي المراوغة، وقال إننا سنذهب في رحلة لصيد السمك في

يوم من الأيام، وكانت تلك نهاية قصتي معه. ولو أن ذوينا اجتمعوا معاً في الأسبوع التالي لافتضح أمرنا، ولكن ذلك لم يحصل.

لم يتفوه ميلو بريسمان بكلمة هو الآخر. وأعتقد بأنه فكّر ملياً بشأن ما دار بيننا وبينه، وكيف أننا أقسمنا على الشهادة بأنه أغرى شوبر بالهجوم عليّ. وبالتالي، لم يعرف أحد بالقصة؛ ولكن ذلك لم يكن يعني انتهاءها.

32

اقترب الشهر من نهايته، وفيما كنت عائداً إلى البيت من المدرسة، صعدت سيارة فورد سوداء الرصيف ووقفت أمامي. لم يخامرني شك في تلك السيارة. فُتحت أبواب السيارة، وخرج منها آيس ميرْيل، وفازي براكوفيتش.

قال آيس وهو يبتسم: "غطاء السيارة رخيص أليس كذلك؟ أمّي تحبّ طريقة تقبيلي لها، أليس هذا ما قلتَه لي؟"

قال فازي: "سنشبعك ضرباً أيها الصغير".

ألقيت بكتبي المدرسية على الأرض وركضت. ولكنهم أمسكا بي قبل أن أقطع مسافة طويلة. ضربني آيس بعصاه، فسقطت على الأرض. ارتطمت ذقني بالإسمنت بحيث لم أرَ نجوماً وحسب، بل ورأيت أبراجاً سماوية بأكملها، غيمة سديمية كاملة. كنت أبكي عندما رفعاني عن الأرض. لم أبكِ لأن مرفقيّ وركبتيّ تنزف الدم، ولم أبكِ من شدّة الخوف، ولكنّ غضب العاجز هو الذي جعلني أبكي. كان كريس على حق، كانت الجثة ملكنا.

تمكنت من الإفلات، وكدت أهرب، ولكن فازي أمسك بي وضربني بركبته على معدتي. أحسست بألم مدهش، ألم لا يصدق، ألم منقطع النظير. بدأت أصرخ لأنه بدا أن الصراخ هو فرصتي المثلى.

وجّه آيس لكمتين إلى وجهي. اللكمة الأولى أغمضت عيني اليسرى. وستمر أربعة أيام قبل أن أتمكن من الرؤية في تلك العين مجدداً. واللكمة الثانية كسرت أنفي، وأحدثت صوتاً يشبه أصوات الحبوب الهشة في رأسك عندما تمضغها. ثم خرجت السيدة تشالمرز العجوز من سيارتها البورش، وقد أمسكت بعصاها بيد أصابها الإلتواء بفعل داء التهاب المفاصل وبدأت تجأر فيهما:

"أنــتم هــناك، أيها الصبيان. توقفا عن ذلك. اطلبوا الشرطة، اطلبوا الشرطة".

قال آيس وهو يبتسم: "لا تدعني أرى وجهك أيها الحقير الصغير". ثم اخلــوا سبيلي وتراجعا. جلست، ثم انحنيت، لأداوي جراحي وأنا متأكد من أنني سألتقيا ثم لموت. كما كنت لا أزال أبكي أيضاً. لكن عندما مشى فازي بالقــرب منّــي، ملأنـــي منظــر سرواله الجينز الذي يغطي حذاء راكبي الدراجات بالغضب ثانية. أمسكت برجله وعضضت بطة ساقه. عضضتها بكــل ما أوتيت من قوة، فبدأ فازي يصرخ صراخاً خاصاً به. كما بدأ يقفز علـــى رِجل واحدة. وفي إشارة لا تصدق، وصفني بأني مقاتل قذر. كنت أراقــبه وهــو يقفــز عندما داس آيس على يدي اليسرى فكسر اثنين من أصــابعها، وســمعت صــوت العظام وهي تتكسر. لم يكن الصوت شبيهاً بــصوت الحــبوب الهشة في الفم، ولكنه بدا أشبه بصوت مضغ البسكويت القاســي. عاد آيس وفازي إلى سيارة الفورد. كان آيس يمشي الهوينى وقد وضع يديه في جيبيه الخلفيين، فيما كان فازي يقفز على رِجل واحدة وهو يكــيل لــي اللعنات. زحفت نحو متكأ الطريق وأنا أبكي. كانت العمة إيفي تشالمرز تقوم بنزهتها فاقتربت منّي وهي تضرب العصا بالأرض بغضب. ســألتني إن كــنت بحاجة إلى طبيب. جلست وتمكنت بصعوبة من إيقاف دموعي، وقلت لها بأنه لا حاجة للذهاب إلى طبيب.

صاحت: "هذا هراء". كانت العمّة إيفي صمّاء، وتصرخ كلما أرادت الــتحدث مع أحد. "رأيت ذلك المستأسد وهو يضربك على عينك. ستتورّم وتنتفخ".

اصــطحبتني بــسيارتها إلى منزلي، وأعطتني قطعة قماش مبتلّة لكي أضــعها علـــى أنفي – كان قد أصبح شبيهاً بحبّة قرع صيفي – وأعطتني كــوباً مــن القهــوة بدا أنها ذات مذاق دوائي كان له مفعول مهدّئ بعض الشيء. وبقيت تحدثني بصوت عالٍ بأنها ستتصل بالطبيب وبقيت أقول لها بأنه لا داعي إلى ذلك. وأخيراً، أذعنت للأمر. توجهت نحو المنزل بخطى بطيئة جداً.

نظــر إلــيّ والداي اللذان وبخاني على الفور؛ يتعين عليّ أن أقول الحقــيقة بأني تفاجأت من قدرتهما على ملاحظة ما حلّ بي. من هما هذان الــصبيان؟ هل يمكنني التعرف على واحد منهما؟ طرح أبي الذي لا تفوته

مشاهدة نايكد سيتي وذا أنتاتشبلز هذين السؤالين. قلت له بأني لا أعتقد بأن في إمكاني التعرف على أي منهما، وقلت له بأنني منهك وأنني أعتقد بأنني مصدوم؛ مصدوم وأكثر من ثمل بسبب القهوة التي قدمتها لي العمّة إيفي، والتي لا بدّ وأن ستين في المائة على الأقل من مكوناتها كان شراباً مسكراً. قلت لهما بأنه ربما كانت العصابة من الجهة الأخرى من البلدة، أو من "شمال المدينة"؛ وهي عبارة تعارف الناس على استخدامها للإشارة إلى ليويستون-أوبورن.

أخذاني إلى الطبيب كلاركسون في السيارة العائلية؛ كان الطبيب كلاركسون، الذي لا يزال حياً لغاية الآن، كبيراً بما فيه الكفاية حينها. قام بتجبير أنفي وإصبعي، وأعطى والدتي دواء لتسكين الألم. ثم خرج من غرفة المعاينة لسبب ما ثم عاد واقترب مني كما اقترب بوريس كارلوف من إيغور.

"من فعل بك هذا يا غوردن؟"

"لا أعرف أيها الطبيب..."

"أنت تكذب".

"كلا سيدي".

عاد اللون الوردي إلى وجنتيه الشاحبتين. "لماذا تحمي المعتوهين الذين فعلوا هذا بك؟ هل تظن بأنك ستحظى باحترامهم؟ سيضحكون ويصفونك بالأبله. سيقولون: هذا هو الأبله الذي أشبعناه ضرباً في ذلك اليوم. هاها، هوهو".

"أنا لا أعرفهم".

كان في مقدوري ملاحظة حكاك في يديه يحرّضه على هزّي بعنف، ولكنه لم يكن في استطاعته فعل ذلك بالتأكيد. ولذلك أرسلني إلى والديّ وهو يهزّ رأسه الأبيض ويتمتم عن المجرمين الأحداث.

لا أبالي إن كان آيس وفازي وباقي هؤلاء الحمقى يحترمونني أو يعتقدون بأني أبله أو لا رأي لهم على الإطلاق فيّ. لكن كان كريس الشخص الذي أفكّر فيه. فقد كسر أخوه آيبول ذراعه في موضعين وهشم وجهه. شاهدت السيدة ماكغين صديقي كريس وهو يترنح وينزف من كلتا أذنيه وهو يقرأ كتاباً هزلياً لريتشي ريتش. نقلته إلى غرفة الطوارئ حيث قال كريس للطبيب بأن قدمه زلّت على سلّم القبو في الظلام.

قال الطبيب: "حسناً". حقق الطبيب مع كريس كما حقق الطبيب كلاركسون معي، ثم أجرى اتصالاً مع الشرطي بانرمان.

فيما كان الطبيب يتحدث عبر الهاتف في المكتب، تسلل كريس ببطء حاملاً يده في عصابة تثبت يده عند صدره لكي لا تتأرجح، واتصل بالسيدة ماكغلين- قال لي لاحقاً بأنه كان خائفاً جداً من احتمال ألاّ ترضى بتحمّل كلفة المكالمة- ولكنها تحملتها.

سألت: "هل أنت بخير يا كريس؟"

أجاب كريس: "أجل، شكراً لكِ".

"أنا لن أتمكن من البقاء معك يا كريس، ولكنني صنعت فطائر ووضعتها في.."

قال كريس: "لا بأس يا سيدة ماكغلين. هل يمكنكِ أن تري سيارة البويك في فناء دارنا؟" كانت البويك السيارة التي تقودها أمّه. كان عمر السيارة عشر سنوات، وعند ارتفاع حرارة المحرّك كانت تتصاعد منه رائحة غريبة.

قالت بحذر: "إنها هناك". من الأفضل ألاّ تختلط كثيراً مع أبناء عائلة تشامبرز، فهم حثالة الأيرلنديين البيض الفقراء.

"هل يمكنكِ الطلب من أمي نزول السلّم وفك اللمبة الموجودة في القبو؟"

"يا كريس، صدقني، لقد صنعت فطائر.."

قال كريس: "اطلبي من أمي أن تقوم بذلك على الفور، إلاّ إذا كانت ترغب في دخول أخي السجن".

ساد صمت طويل، ثم وافقت السيدة ماكغلين. لم تطرح أية أسئلة ولم يقل لها كريس أية أكاذيب. وصل الشرطي بانرمان بالطبع إلى منزل عائلة تشامبرز، ولكن ريتشي تشامبرز لم يدخل السجن.

نال كل من فيرن وتيدي نصيبه أيضاً، بالرغم من أن حالتهما لم تكن بمثل سوء حالتي أو حالة كريس. كان بيلي يتربّص بفيرن في المنزل عندما عاد الأخير. لحق به حاملاً عصاه، وضربه بها بقسوة لدرجة أنه غاب عن الوعي بعد أربع أو خمس ضربات جيدة فقط. لم يكن فيرن أقل ذهولاً، ولكن بيلي خشي من أن يكون أخوه قد مات فتوقف عن ضربه. وأمسك ثلاثة من أفراد العصابة بتيدي وهو يمشي عائداً إلى منزله بعد أن كان في العقار

الـشاعر فـي فترة ما بعد الظهر من أحد الأيام. ووجهوا إلى وجهه اللكمات، وكسروا نظارته. حاول الدفاع عن نفسه، ولكنهم تخلوا عن مقاتلته عندما تبين لهم بأنه يحاول أن يتلمّس طريقه للإمساك بهم في الظلام.

سـرنا فـي المدرسة معاً مثل بقايا فرقة تعرضت لهجوم كوري. لم يعـرف أحـد بالضبط ماذا حصل، ولكن الجميع فهموا بأننا مررنا بتجربة قاسـية مع صبية كبار، وتصرفنا مثل الرجال. سرت بعض الحكايات في هذا الخصوص، ولكنها كانت جميعاً بعيدة عن الواقع.

عندما نزعنا جبائرنا، وتعافت رضوضنا، ابتعد عنا فيرن وتيدي. فقد اكتـشفا مجمـوعة جديـدة مـن الأصـحاب. وبالرغم من أنهم كانوا من المعتوهـين، فقـد استمرّ فيرن وتيدي في اصطحابهم إلى العلية، موجّهين إليهم الأوامر وهما يتبختران مثل الجنرالات النازيين.

قـلّ ترددنا أنا وكريس على العلية، وبعد مدة، أصبح المكان مكانهم. وأذكـر أنني ذهبت إلى هناك في ربيع العام 1961 ولاحظت أن رائحته أشـبه بـرائحة مخزن تبن، ولا أذكر أنني عدت إلى ذلك المكان بعد ذلك. وبالتدريج، أصبح تيدي وفيرن مجرد وجهين آخرَين في غرف الإحتجاز. أومأنا برؤوسنا وتبادلنا كلمات الترحاب، وهذا كل شيء، وهذه هي الحياة. فالأصدقاء يدخلون حياتك ويخرجون منها مثل مساعدي النُدُل في المطاعم. هـل لاحظـت ذلك؟ لكن عندما أفكّر في ذلك الحلم، والجثث التي تسحب رِجليّ، يبدو أنه من الأفضل أن تسير الأمور على هذا النحو. بعض الناس يغرقون، وهذا كل ما في الأمر. ومع أن ذلك غير منصف، ولكنه يحدث. بعض الناس يغرقون.

33

قُـتل فيرن تيسيو إثر اندلاع حريق أتى على شقة في مبنى لويستون فـي العـام 66؛ يطلـق الناس في بروكلين وبرونكس على هذا النوع من المـساكن اسم مباني الفقراء. قالت وحدة الإطفاء بأن النار اندلعت حوالى الـساعة الثانية من بعد منتصف الليل، وتحول المبنى بأكمله إلى رماد مع بـزوغ الفجر. أقيمت في المكان حفلة سكر صاخبة شارك فيرن فيها. نام بعـضهم في إحدى غرف النوم، لكن أحدهم نسي أن يطفئ سيجارته. وتم التعرّف على جثته إضافة إلى جثث أربعة آخرين من صور أسنانهم.

قضى تيدي نحبه في حادث اصطدام مروّع. حدث ذلك في العام 1971، أو في مطلع العام 1972. كنت اسمع في أيام طفولتي مثلاً يقول: "إذا خرجت بمفردك فأنت بطل. اصطحب شخصاً آخر معك فتكون نذلاً". رُفض طلب تيدي – الذي لم يكن يريد شيئاً سوى الإلتحاق بالجيش عندما أصبح في سنّ يمكن أن يشتهي فيه كل شيء – من قبل سلاح الجو وصُنف بأنه متطوّع مرفوض لأنه غير لائق بدنياً. كل من رأى نظارته والسماعة التي يضعها في أذنه عرف بأن ذلك ما كان سيحصل؛ للجميع باستثناء تيدي. خلال السنة ما قبل الأخيرة في المدرسة الثانوية، عُوقب بالطرد من المدرسة لمدة ثلاثة أيام لأنه وجه كلاماً بذيئاً إلى المستشار التوجيهي في المدرسة. لاحظ المستشار أن تيدي يتحقق كل يوم من لائحة المهن بحثاً عن فرصة للإلتحاق بالجيش، فقال لتيدي بأنه ربما يجدر به التفكير في مهنة أخرى، وهو ما دفعه إلى كيل الشتائم له.

كما عوقب بالفصل من الدراسة لمدة عام بسبب غيابه المتكرر، وكسله، ورسوبه في الإمتحانات... ولكنه تخرّج في نهاية الأمر. اقتنى سيارة قديمة من طراز شيفروليه، واعتاد على التردد على الأماكن التي كان يتسكع فيها من قبله آيس وفازي وباقي أفراد العصابة: حوض السباحة، وصالة الرقص، وملهى ترافيرن الذي أُقفل الآن، وملهى ميلو تايغر. وفي النهاية، حصل على وظيفة في مديرية الأشغال العامة في كاسل روك حيث كان يملأ الحفر بالإسفلت الحارّ.

وقع الإصطدام على طريق هارلو. كانت سيارة تيدي مليئة بالأصدقاء (كان اثنان منهم من أفراد تلك المجموعة التي تولّى مع فيرن قيادتها في العام 1960). اصطدمت السيارة بعمود خدمة، وانقلبت السيارة على إثر ذلك ست مرات. خرجت فتاة واحدة من السيارة وهي على قيد الحياة من الناحية التقنية. وبقيت طريحة الفراش في المستشفى طوال ستة شهور. ثم قام شبح رحيم برفع جهاز التنفس عنها.

بدأ كريس يشارك في المقررات التعليمية الخاصة بالكلّية عندما أصبح في السنة الثانية في المدرسة الثانوية؛ وعرفنا جميعاً بأن الأوان سيفوت إذا انتظر فترة أطول. كان الجميع يوبّخونه: أبواه اللذان اعتقدا بأنه يبالغ في تقدير نفسه، وأصدقاؤه الذين ابتعدوا في غالبيتهم عنه بدعوى أنه متكبر، والمستشار التوجيهي الذي لم يصدق بأنه يمكن أن يفلح في دراسته،

وكافــة معلّميه الذين لم يرضوا عن ذلك الطالب غريب الأطوار الذي كان يظهر فجأة وبدون سابق إنذار في صفوفهم.

كانــت فكرة ترك الدراسة تراوده عشرات المرات، وكان والده على وجه الخصوص يضغط عليه، متهماً كريس بانه يعتقد بأنه أفضل منه، وأنه يريد الذهاب إلى الكلّية لكي يدفعه إلى الإفلاس. حتى أنه كسر مرّة زجاجة بعــد أن ضــرب بها مؤخرة رأس كريس ليُنقل إلى قسم الطوارئ مجدداً حيث تطلب لأم جرحه أربع قطب. كان أصدقاؤه القدامى يطلقون صيحات الإســتهجان متــى رأوه فــي الشارع. وألح المستشار التوجيهي عليه لكي يــدرس بعض المقررات التعليمية ذات التطبيقات المخبرية على الأقل لكي لا يرســب في كافة الإمتحانات. والأسوأ من ذلك بالطبع كان الآتي: كان يعــبث طــوال الــسنوات السبع الأولى من دراسته العامة، وقد استحقت الفاتورة.

كنا ندرس سوية في كل ليلة تقريباً، وربما امتدت فترة الدراسة ست ســاعات متواصــلة في بعض الأحيان. كنت أرجع دائماً من تلك الجلسات وأنا منهك القوى وخائف في بعض الأحيان؛ خائف من حجم تلك الفاتورة. وقبل أن يتمكن من استيعاب مبادئ علم الجبر، كان عليه أن يعود إلى تعلّم الكــسور التــي أهمــل تعلّمها بالإضافة إلى تيدي وفيرن عندما كانوا في الــصف الخــامس. بالنسبة إلى قواعد اللغة الإنكليزية، كان لا يعرف شيئاً عــنها البتة. كانت أفكاره الإنشائية جيدة ولم تكن سيئة التنظيم، ولكنه كان ضــعيفاً فــي النحو وكان يكتب الكلمات كما لو كان مكرهاً. وبعد أن بلي كتاب وارينر، اشترى نسخة أخرى من متجر لبيع الكتب في بورتلاند كان أول كتاب مجلد يشتريه، وأصبح بمثابة كتاب مقدس بالنسبة إليه.

لكــن عندما أصبحنا في السنة التي تسبق التخرّج من الثانوية العامة، قُبل طلبه أخيراً. لم يتمكن أي منا من احتلال أحد مراكز الشرف، ولكنني حصلت على المركز السابع فيما حصل كريس على المركز التاسع عشر. حــصلنا علــى موافقة من جامعة ماين، ولكنني التحقت بكلّية أورونو فيما التحق كريس بكلّية بورتلاند، وتخصص في الحقوق. هل تصدق ذلك؟ كان ذلك يعني المزيد من العبارات اللاتينية.

بقيــنا على اتصال طوال فترة الدراسة في الثانوية العامة، لكن لم تقصد علاقتــنا أية فتاة. بقينا متمسكين ببعضنا كما لو كنا في مياه عميقة. أعتقد بأن

الأسباب التي دعتني إلى التمسك به لم تكن واضحة. بدا بالنسبة لي أن رغبته في مغادرة كاسل روك هي الجزء الأفضل في علاقتنا، ولم يكن في استطاعتي تركه يغرق أو يسبح بمفرده، لأنه لو غرق، فسيغرق معه جزء مني.

مع اقتراب العام 1971 من نهايته، ذهب كريس إلى متجر لبيع الدجاج المقلي في بورتلاند. كان يقف أمامه رجلان يتجادلان بشأن من ينبغي أن يقف في الصف أولاً. شهر أحدهما سكيناً. تدخل كريس، الذي كان الأفضل فينا دائماً في صنع السلام، بينهما فتلقى طعنة في حلقه. أمضى الرجل الذي طعنه فترة سجنه في أربعة سجون مختلفة، ولم يُطلق سراحه من سجن شاوشانك إلاّ في الأسبوع الماضي. لفظ كريس أنفاسه على الفور تقريباً.

قرأت الخبر في الصحيفة؛ كان كريس يعمل على إكمال دراسات التخرج في سنته الثانية. أما أنا، فقد تزوجت منذ سنة ونصف، وعملت مدرساً للغة الإنكليزية في الثانوية العامة. زوجتي حامل، وأنا أحاول تأليف كتاب. عندما قرأت الخبر الذي جاء تحت عنوان "طالب يلقى حتفه طعناً بالسكين في مطعم بورتلاند"، قلت لزوجتي بأنني سأذهب لشراء اللبن. قدت سيارتي وتوجهت إلى مكان خارج البلدة، ثم أوقفتها، وأجهشت في البكاء. بقيت أبكي قرابة نصف ساعة. لم يكن في استطاعتي البكاء أمام زوجتي لأنني أحبها.

34

وماذا عنّي؟

أنا أعمل كاتباً الآن، كما سبق أن قلت لك. يرى الكثير من النقّاد أن ما أكتبه ليس أكثر من كلام فارغ. وأنا أعتقد في كثير من الأحيان أنهم على حق... ولكنني أشعر بكثير من الإثارة عندما أكتب الكلمتين "كاتب حر" في خانة الوظيفة في الإستمارات التي يتعين عليك ملأها عند طلب القروض وفي عيادات الأطباء. تبدو قصتي أشبه بقصة خيالية سخيفة.

نشرت كتاباً، وجرى تحويله إلى فيلم سينمائي، وحصد الفيلم جوائز عديدة، وحقق عائدات مرتفعة. حدث كل ذلك عندما بلغت سنّ السادسة والعشرين. كما حُوّل كتابي الثاني إلى فيلم سينمائي أيضاً، وكذلك الكتاب

الثالث. قلت لك؛ إنها كتابات سخيفة. وفي هذه الأثناء، لا يبدو أن زوجتي تمانــع بقائــي في البيت، وقد رُزقنا بثلاثة أطفال الآن. وهم يبدون رائعين بالنسبة إليَّ، وأنا سعيد معظم الوقت.

لكــن كمــا قلــت لــك، الكتابة لم تعد سهلة أو مسلّية كما كانت في الماضــي. فــرنين الهاتف لا ينقطع، لدرجة أنني أصاب بصداع شديد في كثيــر من الأحيان لأضطر بعد ذلك إلى الإنتقال إلى غرفة معتمة والتمدد فــيها إلى أن يزول الصداع. يقول الأطباء بأن ما أعاني منه ليس مرض الشقيقة، وإنما صداع الإجهاد، ونصحوني بالتقليل من ساعات العمل. أشعر بالقلــق على نفسي في بعض الأحيان. يا لها من عادة سخيفة... ولكنني لا أســتطيع الــتخلص منها. وأتساءل إن كان يوجد أي هدف في العمل الذي أقــوم بــه، أو ما يُفترض بي كسبه من الكلمات في حين يمكن لرجل أن يصبح ثرياً بتقمص دور *دعنا ندّعي*.

لكــن الأمــر المثير في حياتي هو عدد المرات التي أرى فيها آيس ميــريل. لقد أصبح أصدقائي في عداد الأموات عدا آيس. وقد رأيته وهو يغادر موقف المعمل بعيد إطلاق الصفارة عند الساعة الثالثة في آخر مرة زرت فيها والدي بصحبة أطفالي.

يقــود آيــس سيارة فورد عائلية صُنعت في العام 77 بعد أن كان يقــود ســيارة فورد صُنعت في العام 52. وُضع على صدامها الأمامي ملــصق يقول ريغان/بوش 1980. وغيّر تسريحة شعره وأصبح بديناً. والــسمات الحادة الجميلة التي أتذكرها دُفنت في جبل من اللحم. تركت الأولاد مــع جــدهم فــي الــبلدة مدة كافية. كنت أقف عند زاوية ماين وكاربــاين عندما لمحني وأنا أحاول اجتياز الطريق. لا توجد علامات تساعد في التعرف على وجه رجل في الثانية والثلاثين من عمره كسر أنفي في يوم من الأيام.

راقبته وهو يتوجه بسيارته العائلية نحو موقف للسيارات بالقرب من مــيلو تايغر، ليخرج منها بعد ذلك ويدخل المطعم. يمكنني تخيل صيحات التــرحاب التي أطلقها أصدقاؤه وهو يقفل الباب، ويضع أسته الثقيلة على المقعد نفسه الذي يحمله مدة ثلاث ساعات في كل يوم من أيام حياته –عدا أيام الآحاد– منذ أن بلغ الواحدة والعشرين من عمره.

قلت في نفسي: *إذن هذا ما أصبح عليه حال آيس الآن*.

نظرت ناحية اليسار. كان في مقدوري رؤية نهر كاسل خلف المعمل بعـد أن ضاق مجراه الآن، وإن يكن قد أصبح نظيفاً. وهو لا يزال يتدفق أسـفل الجـسر الممتد بين كاسل روك وهارلو. لم يعد يوجد أثر للمنصة، ولكن النهر لا يزال في المكان، وكذلك أنا.

الفصل الرابع

حكاية شتوية

طريقة التنفس

1

النادي

ارتـديت ثيابـي على نحو أسرع من المعتاد في تلك الليلة العاصفة والعـصيبة التـي تساقط فيها الثلج؛ أنا أعترف بذلك. كان ذلك في الثالث والعـشرين مـن شهر ديسمبر/كانون الأول سنة –197، وأعتقد بأن هناك أعـضاء آخـرين في النادي فعلوا الشيء نفسه. تُشتهر نيويورك بصعوبة العثور على سيارات أجرة فيها في الليالي العاصفة، ولذلك اتصلت بسيارة أجـرة مـزودة بجهاز لاسلكي. حدث ذلك عند الساعة الخامسة والنصف، وطلـبت مـن السائق القدوم عند الساعة الثامنة؛ رفعَت زوجتي حاجبيها، ولكـنها لم تقل شيئاً. خرجتُ من شقتي، ووقفت تحت سقيفة المبنى السكني فـي شـارع إيست 58، حيث أقيم أنا وإلين منذ العام 1946. وبعد مضي خمـس دقائق على الموعد المحدد من غير أن تصل السيارة، وجدت نفسي أمشي جيئة وذهاباً نافد الصبر.

وصـلت سـيارة الأجرة عند الساعة الثامنة وعشر دقائق، فصعدت إلـيها، وشـعرت بـسعادة لاتقائي شرّ العاصفة وهو ما سكّن غضبي من الـسائق. كانت تلك العاصفة، التي شكلت جزءاً من جبهة باردة قد وصلت مـن كـندا في اليوم السابق، تعني فرصاً مهنية. كانت الرياح تصفر حول نوافذ السيارة بحيث طغى صوتها في بعض الأحيان على صوت الموسيقى الـذي كان يصدر من جهاز الراديو في السيارة. رأيت العديد من المتاجر وقـد فـتحت أبوابها، ولكن أرصفة المشاة خلت تقريباً من متسوقي الدقيقة الأخيرة. وبدا أن المارّة منزعجون أو متألمون.

هـبت رياح قوية طوال اليوم، وقد بدأ الثلج يتساقط الآن على شكل نُـدف رقـيقة فـي بادئ الأمر، ليتحول إلى نُدف كبيرة تسقط أمامنا على الطـريق. وعندما أنوي العودة إلى البيت في تلك الليلة، سأفكر في توليفة

الثلج، والعثور على سيارة أجرة، ومدينة نيويورك بانزعاج كبير... ولكني لم أعرف ذلك حينها.

عند زاوية الشارع الثاني والشارع الأربعين، دوّى رنين جرس كرسمس كبير مبهرج عند التقاطع.

قال السائق: "إنها ليلة سيئة. وستستقبل المشرحة عشرات الجثث الإضافية غداً".

"أعتقد ذلك".

أمضى السائق فترة من التأمل، ثم قال: "حسناً، لقد تراجعت الخدمات الإجتماعية، أليس كذلك؟"

"أجدك مفعماً بروح الكرسمس".

سألني السائق: "هل أنت من الليبراليين الذين تتفطر قلوبهم؟"

قلت: "إنني أرفض الإجابة عن هذا السؤال على اعتبار أن إجابتي ربما تدينني بجرم". كتم السائق غيظه، ولم يقل شيئاً.

نزلت من السيارة عند تقاطع الشارعين الثاني والخامس والثلاثين، ومشيت نصف المسافة إلى أن وصلت إلى مبنى النادي، وانحنيت لمواجهة الريح التي كانت تصفر، واستعنت بيدي التي كانت ترتدي القفاز لأبقي قبعتي على رأسي. في لحظة خاطفة، بدا أن قوة الحياة قد تغلغلت داخل جسمي، مشعلة شعلة زرقاء بحجم الشعلة الدائمة في فرن غاز. عندما يكون الرجل في سنّ الثالثة والسبعين، ينتابه إحساس أقوى وأسرع بالبرد. لذلك، ينبغي على هذا الرجل أن يجلس في بيته أمام الموقد... أو أمام مدفأة كهربائية على الأقل. في سنّ الثالثة والسبعين، لا يعود الدم الحارّ جزءاً من الذاكرة، ولكنه يصبح أشبه بتقرير أكاديمي.

كانت الرياح الأخيرة تزداد قوة، والثلج الجاف مثل الرمل يسلخ وجهي. أحسست بالسعادة لرؤية أن الدرجات التي تؤدي إلى الباب الذي يحمل الرقم 249 باء كانت مصقولة بالرمل؛ كان ذلك عملاً قام به ستيفنز بالطبع. كان ستيفنز يعرف أساسيات الكيمياء القديمة بما فيه الكفاية: لا تخلط الرصاص بالذهب، ولكن اخلط العظام بالزجاج.

كان ستيفنز واقفاً، وقد فتح الباب، وبعد لحظة صرت في الداخل. سرت في المدخل المكسو بألواح من خشب الماهوغني، ومررت عبر باب مزدوج يؤدي إلى المكتبة، وغرفة المطالعة، والمشرب. كانت غرفة معتمة

مـضاءة بمـصابيح القراءة. لكن سطع نور أقوى وأزهى على الأرضية المكسوة بخشب السنديان. كان في مقدوري سماع صوت الحطب المشتعل فـي الموقد الضخم. كانت الحرارة تشعّ في كافة أرجاء الغرفة؛ بالتأكيد لن يُـرحّب بـرجل أو امرأة يمكنها مضاهاة النار في المدفأة. سمعت صوت حفـيف الورق، فعرفت أن يوهانسن يتصفح الوول ستريت جورنال. فبعد مـرور عـشر سنين، صار من الممكن اكتشاف وجوده من طريقة قراءته لأخبار أسهمه. كانت طريقة مسلية.

سـاعدني سـتيفنز على خلع معطفي، وقال إنها ليلة سيئة. وتكهنت محطة دبليو سي بي أس باحتمال تساقط الثلج بكثافة قبل الصباح.

وافقـته القـول بأنهـا ليلة سيئة بالتأكيد، وعدت إلى النظر إلى تلك الغرفة الواسعة ذات السقف العالي. ليلة سيئة، ونار ملتهبة... وقصة شبح. هـل سبق لي أن قلت إن في سنّ الثالثة والسبعين، يصبح الدم الحارّ جزءاً من الذاكرة؟ ربما قلت ذلك. ولكنني أحسست بشيء دافئ في صدري عندما خطـرت ببالي تلك الفكرة... شيء لم تتسبب به النار الموقدة أو الترحاب الصادق والمشرّف الذي استقبلني به ستيفنز.

أعتقد بأن السبب هو أنه جاء دور ماكارون لكي يحكي لنا الحكاية.

أنـا أزور المنـزل الذي يحمل الرقم 249 باء في الشارع الخامس والثلاثـين منذ عشر سنين؛ أزور المكان في فترات منتظمة في الغالب. أنا أرى في المكان نادياً للرجال النبلاء، بما يحتويه من أثاث قديم يعود إلى ما قبل غلوريا ستاينم. ولكنني لا زلت لغاية الآن غير متأكد من حقيقة المكان، أو السبب الذي دعا إلى إنشائه.

كان يوجد في النادي في الليلة التي حكى فيه إملين ماكارون حكايته -حكايـة طريقة التنفس- ثلاثة عشر عضواً بالإجمال، بالرغم من أن ستة مـنا فقـط زاروا النادي في تلك الليلة القاسية والعاصفة. يمكنني أن أذكر سـنوات لـم يـزد فيها أعضاء النادي عن ثمانية بدوام كامل، وفي أحيان أخرى كان عددهم لا يقل عن عشرين، وربما كانوا أكثر.

أعـتقد بـأن ستيفنز عرف كيف حدثت القصة؛ هناك شيء واحد أنا متأكد منه وهو أن ستيفنز كان أحد أعضاء النادي منذ البداية، بغض النظر عن طول تلك المدة... وأعتقد بأنه أكبر سناً مما يوحي به شكله. أعني أنه أكبـر سناً بكثير. إنه يتحدث بلكنة أهل بروكلين، بالرغم من أنه دقيق في

اختيار كلماته وفي اتّباع الشكليات مثل كبير خدم إنكليزي من الجيل الثالث. أرى أن تحتفظه يشكل جزءاً من سحره المثير غالباً، وابتسامة ستيفنز الصغيرة أشبه بباب مغلَق. لم يسبق أن رأيت أية سجلات تعود إلى النادي؛ في حال كان يحتفظ بسجلات. ولم أستلم يوماً إيصالاً بالمستحقات؛ لا يوجد أي مستحقات. ولم يسبق أن تلقيت اتصالاً من سكرتير النادي؛ لا يوجد في النادي سكرتير، في المبنى 249 باء المطلّ على الشارع الخامس والثلاثين، لا توجد أجهزة هاتف. ولا يوجد صندوق لقطع الرخام البيضاء والكرات السوداء. ولم يسبق أن حمل النادي اسماً؛ إذا كان في المقدور اعتباره نادياً.

جئت إلى النادي للمرّة الأولى (يتعين عليّ وصفه بأنه ناد) كضيف لدى جورج والترهاوس. ترأس والترهاوس مكتباً للمحاماة عملت فيه منذ العام 1951. كان ارتقائي في المناصب في المؤسسة – التي تُعتبر واحدة من المؤسسات القانونية الثلاث الأكبر في نيويورك– مستمراً، ولكنه تميّز بالبطء الشديد. كنت رجلاً مكافحاً يحبّ العمل، وأحد الركائز في المؤسسة... ولكنني لا أتحلى بالعبقرية أو باي خصائص مميزة. رأيت رجالاً بدؤوا العمل في المؤسسة في الوقت نفسه الذي بدأتُ العمل فيه، وحصلوا على ترقيات في قفزات ضخمة، ولكن ذلك لم يشكل مفاجأة بالنسبة لي.

كنت ووالترهاوس نتبادل المزاح، ونحضر العشاء الإلزامي الذي تقيمه المؤسسة في شهر أكتوبر/تشرين الأول من كل عام. ثم جاء اليوم الذي زارني فيه في مكتبي في أحد أيام نوفمبر/تشرين الثاني.

كانت الزيارة في حدّ ذاتها أمراً غير مألوف أبداً، مما جعلني أفكر في خواطر سوداوية (الطرد من العمل) والتي كان في مقابلها أفكار متفائلة (الحصول على ترقية غير متوقعة). أي أنها كانت زيارة محيّرة. دخل والترهاوس مكتبي، وتحدث في العموميات؛ لم يتحدث عن أمر بدا لي هاماً أو يحمل أية قيمة جوهرية. بقيت أتوقع منه أن ينهي مزاحه ويدخل في موضوع القضايا: "والآن، بالنسبة إلى مرافعة كايسي" أو "طُلب منا إجراء بحث خاص بتعيين العمدة لرجل يدعى سالكوفيتش في منصب.." لكن بدا أنه لا يوجد قضايا يريد التحدث عنها. نظر إلى ساعته، وعبّر عن سروره بالحديث معي، وقال إنه يتوجب عليه الذهاب.

كنت لا أزال متحيراً عندما التفت وقال بطريقة عرضية: "هناك مكان غالباً ما أزوره في أمسيات أيام الثلاثاء؛ مكان يشبه النادي. كانوا في غالبيتهم من الباعة المتجولين، ولكن مرافقة بعضهم كانت مريحة. لديهم قبو ممتاز، إذا كنت من متذوقي الشراب. كما كان أحدهم يقص قصة جيدة بين الحين والآخر أيضاً. لِمَ لا تزور المكان مساء أحد الأيام يا دافيد؟ باعتبارك ضيفي".

تلعثمتُ وأنا أحاول الرد؛ لا زلت لغاية اليوم أجهل حقيقة جوابي. لقد أربكني ذلك العرض. كان عرضه عفوياً، لكنني لم ألحظ عفوية في عينيه الزرقاوين القاسيتين أسفل حاجبيه الأبيضين. وإذا لم أتذكر بالضبط كيف كان جوابي، فذلك لأني شعرت فجأة بأن عرضه - بقدر ما كان غامضاً ومحيراً- كان بالضبط الموضوع الخاص الذي بقيت أتوقع منذ قدومه أن يتطرّق إليه.

جاء ردّ فعل إلين في تلك الأمسية غاضباً على نحو مسلٍّ. حافظتُ على صداقتي مع واترهاوس، وكاردن ولوتون، وفرايزر، وإفينغهام منذ خمسة عشر عاماً تقريباً، وبدا واضحاً بما فيه الكفاية أنني لن أستطيع الترقّي إلى مناصب أعلى بكثير من المنصب المتوسط الذي أشغله حالياً. كانت فكرتها التي تقول بأن هذه المؤسسة بديلاً عالي الكفاءة لساعة ذهبية.

قالت إلين: "يروي الرجال الهرمون قصص الحرب ويلعبون القمار. في ليلة مثل تلك، من المفترض أن تكون سعيداً بالبقاء في غرفة المطالعة إلى أن يخرجوك منها". ثم قبلتني بحرارة. أعتقد بأنها رأت شيئاً في وجهي. فهي تحسن قراءة تعابير وجهي بعد كل هذه السنين التي قضيناها معاً.

لم يحصل شيء يذكر على مدى عدة أسابيع... عندما عدت إلى التفكير في عرض واترهاوس الغريب؛ إنه غريب بالطبع لأنه تقدم به شخص ألتقي به في كل شهرة مرّة وحسب ولا أراه في أكثر من ثلاث مناسبات اجتماعية في السنة، بما في ذلك الحفلة التي تقيمها الشركة في أكتوبر/تشرين الأول؛ اعتقدت أنني أخطأت في قراءة التعابير التي أوحت بها عيناه، وأنه قدّم ذلك العرض بطريقة عرَضية، وأنه نسي كل شيء عنه، أو حتى ندم عليه. ثم جاء اليوم الذي اقترب مني فيه في فترة ما بعد الظهر، في هيئة رجل قارب السبعين لا زال عريض المنكبين وذا مظهر

رياضي. كنت أحاول ارتداء معطفي وحقيبتي بين ركبتيّ. قال: "إذا كنت لا تزال تودّ تناول الشراب في النادي، لِمَ لا تزوره الليلة؟"

"حسناً،... أنا.."

"هذا جيد". ووضع ورقة في يدي وقال: "هذا هو العنوان".

كــان ينتظرني أسفل السلّم في تلك الأمسية، وأبقى ستيفنز الباب مفتوحاً لــنا. كــان الــشراب رائعاً كما وعد واترهاوس. لم يقم بأي محاولة لتعريفي بالأشخاص الحاضرين – اعتقدت بأنه فعل ذلك تكبّراً، ولكنني عدلت عن تلك الفكــرة لاحقــاً– غير أن اثنين أو ثلاثة منهم تولّوا أمر تعريفي بأنفسهم. كان إملــين ماكارون أحد هؤلاء، وكان في أواخر السبعينيات من عمره حينها. مدّ يده، وقبض على يدي لفترة وجيزة. كان جلده جافاً وقاسياً وأشبه ما يكون بجلد سلحفاة. سألني إن كنت ألعب البريدج، وكان جوابي بالنفي.

قــال: "هــذا أمــر جــيد. فهذه اللعبة اللعينة أدت إلى وفاة عدد من الأشــخاص اللاعبين في هذا القرن في محادثات ما بعد موائد العشاء أكثر من أي شيء آخر يمكنك التفكير فيه". ومع هذا الإعلان، ابتعد قاصداً عتمة المكتبة، حيث بدت رفوف الكتب تصعد إلى ما لا نهاية.

نظــرت مــن حولــي بحــثاً عن واترهاوس، ولكنه كان قد اختفى. أحســست بــشيء من عدم الإرتياح وأنني في غير مكاني، فتوجهت نحو المــوقد. كان كما ذكرت لك شيئاً ضخماً؛ بدا ضخماً على وجه الخصوص فــي نيويورك، حيث يعاني ساكنو الشقق السكنية من أمثالي من مشكلة في تخــيل إمكانــية الإستفادة من هذا الشيء الضخم في صنع أي شيء سوى الفــشار أو الخبــز المحمص. كان الموقد الذي في النادي كبير الحجم بما يكفــي لشيّ ثور بأكمله. لم يكن يوجد رف للموقد، ولكن كان يوجد قوس صــخري قاسٍ فوقه. وهذا القوس مقطوع في منتصفه بواسطة حجر عقد بارز إلى الأعلى قليلاً. كان عند مستوى عينيّ تماماً، وبالرغم من أنه كان معــتماً فقد كان في مقدوري قراءة العبارة التي نُقشت عليه بدون صعوبة: العبرة بالقصة، لا بمن يحكيها.

قال واترهاوس بعد أن وقف بجانبي: "هذا أنت يا دافيد". اكتشفت أنه لــم يتركنــي فــي الــنهاية، ولكــنه توجه إلى أحد المتاجر لشراء بعض المشروبات. "الشراب الكحولي لي الشراب الغازي لك، أليس كذلك؟"

"بلى، شكراً لك يا سيد واترهاوس".

قال: "جورج، هنا، يسمّونني جورج".

قلت: "إذن جورج". بالرغم من أنه بدا أن استخدام اسمه الأول جنونياً. "ماذا كنت.."

قال: "اشرب شرابك".

شرب كل منا شرابه.

"ستيفنز هو المسؤول عن المشرب، وهو يعدّ مشروبات جيدة. وهو يحبّ أن يقول بأنها مهارة بسيطة ولكنها جوهرية".

زاد الشراب من شعوري بفقدان حس التوجيه والإرتباك (كنت قد أمضيت نصف ساعة تقريباً وأنا أنظر في خزانتي متسائلاً عن نوع السترة التي ينبغي عليّ ارتداؤها، إلى أن استقرّ رأيي أخيراً على ارتداء سروال بنّي فضفاض وسترة صوفية خشنة تليق به، على أمل ألاّ أختلط برجال يرتدون البزات الرسمية أو سراويل الجينز والكنزات الصوفية... وتبين لي أنني لم أخطئ في مسألة اختيار الثياب على كل حال). إن وجودك في مكان جديد ووضع جديد يجعلك شديد الإنتباه لكل سلوك اجتماعي، مهما كان تافهاً. في تلك اللحظة، أردت التأكد من أنني لم أغفل عن أي تصرف اجتماعي لائق.

سألت: "هل يوجد كتاب ضيوف يجدر بي التوقيع عليه؟ أو أي شيء من هذا القبيل؟"

بدا مندهشاً من سؤالي وقال: "إننا لا نحتفظ بشيء من هذا القبيل، أو على الأقل، لا أعتقد بأننا نملك كتاباً مشابهاً". ثم عاد إلى النظر في الغرفة المعتمة والهادئة. تصفح يوهانسن صحيفة الوول ستريت، ورأيت ستيفنز وهو يمشي في الطرف البعيد من الغرفة، مثل شبح بسترته البيضاء القصيرة الضيقة. وضع جورج شرابه على الطاولة، ورمى بقطعة خشب في النار، فتطايرت الشرارات نحو أعلى المدفأة السوداء.

سألته، وأنا أشير إلى النقش المحفور في حجر العقد: "ماذا تعني هذه العبارة. هل لديك أية فكرة؟"

قرأ واترهاوس العبارة بتأنٍّ، كما لو كان يقرأها للمرّة الأولى، العبرة بالقصة، لا بمن يقصها.

قال: "أعتقد بأنه يوجد لدي فكرة. وأنت أيضاً في حال عدت لزيارة هذا المكان ثانية. أجل، ينبغي أن أقول بأنه ربما كان لديك فكرة أو فكرتان. كل شيء يأتي في أوانه. استمتع بوقتك يا دافيد".

مشى بعيداً. وبالرغم من أنه بدا غريباً تركي لكي أغرق أو أسبح في مثل هذا الوضع غير المألوف، فقد استمتعت بوقتي. فمن ناحية، كنت أجد متعة عظيمة في الكتب دائماً، وكانت توجد مجموعة نفيسة من الكتب المشوقة لكي أتصفحها. مشيت ببطء نحو رفوف الكتب، وتفحصت العناوين بقدر ما أستطيع تحت النور الخافت، وكنت أسحب كتاباً بين الحين والآخر، وأتوقف للحظة لأنظر إلى النافذة الضيقة عند تقاطع الجادة الثانية في الخارج. وقفت هناك، وراقبت المشهد من خلال الزجاج فيما كانت أضواء حركة المرور عند نقطة التقاطع تتحول من الأحمر إلى الأخضر لتعود إلى الأحمر مجدداً، وشعرت فجأة بأغرب حس بالإرتياح وأنا في هذا المكان. لم يكن شعوراً غامراً، وإنما بدأ بالتسلل إلى داخلي بالتدريج. *أجل، يمكنني أن أسمعك وأنت تقول: "هذا أمر منطقي تماماً، مراقبة أضواء حركة المرور تضفي على كل شخص حساً بالطمأنينة".*

حسناً، الأمر غير منطقي أبداً. وأنا أودّ التأكيد على ذلك. ولكنني أحسست بالطمأنينة. وقد جعلتني أفكر للمرة الأولى منذ سنين طويلة من الليالي الشتائية ببيت ويسكونسن الريفي حيث ترعرعت: كنت أتمدد على السرير في غرفة في الطابق العلوي كانت معرضة لتيارات هوائية قوية ترمز إلى التباين بين صفير رياح يناير/كانون الثاني التي تجرف الثلج مثل حبات الرمل الجافة على امتداد عدة كيلومترات من السياج الثلجي، وبين حرارة جسمي التي تولّدت تحت لحافين.

وجدت بعض الكتب القانونية، ولكنها بدت غريبة نوعاً ما. تصفحت أحد هذه الكتب، وكان يتحدث عن المعالجة القانونية (القانون الأميركي هذه المرّة) لقضايا تتعلق بالحيوانات الأليفة؛ من القطط المنزلية التي ورثت مبالغ ضخمة من المال إلى حيوان الأسلوت الذي كسر سلسلته وأصاب ساعي بريد بجرح خطير.

وجدت مجموعة للروائي ديكنز، ومجموعة لديفو، ومجموعة تكاد لا تنتهي لترولوب، كما كانت هناك مجموعة من الروايات– إحدى عشرة رواية –لكاتب اسمه إدوارد غراي سيفيل، ومجموعة من الكتب ذات الغلاف الجلدي الأخضر الجميل ظهر عليها اسم مؤسسة ستيدهام وأبناؤه مختوماً بالذهب. لم يسبق أن سمعت عن سيفيل أو كتبه. يرجع تاريخ حقوق التأليف الخاصة بالكتاب الأول لسيفيل إلى العام 1911. ووجدت

أيـــضاً أن تـــاريخ حقـــوق التأليف الخاصة بكتابه الأخير يرجع إلى العام 1935.

أسفل مجموعة كتب سيفيل، وجدت كتاباً ضخماً تضمن خططاً متدرجة بعـــناية. وبجانبه وجدت مجلداً ضخماً آخر يحتوي على مشاهد شهيرة للأفلام السينمائية المشهورة. خُصص لكل من هذه الصور صفحة واحدة كاملة، وفي مقابـــل كـــل مـــنها، قصائد من الشعر الحرّ إما أنها تحكي عن تلك المشاهد المقترنة بها أو تستلهم منها. لم تكن تلك فكرة ملفتة على نحو استثنائي، ولكن الـــشعراء الذين نظموها كانوا ملفتين: روبرت فروست، وماريان مور، ووليام كارلـــوس ويليامز، ووالاس ستيفنز، ولويس زوكوفسكي، وإريكا سونغ، وهذا غـــيض مـــن فيض. وجدت في ذلك الكتاب قصيدة نظمها ألجيرنون ويليامز بجانـــب الـــصورة الفوتوغرافية الشهيرة لمارلين مونرو وهي تقف على سكة القطار الكهربائي النفقي وهي تحاول إبقاء تنورتها في موضعها.

لم تكن قصيدة سيئة، ولكنها لم تكن بالتأكيد أفضل ما نظمه ويليامز. شـــعرت بأنه في إمكاني التمسك بهذا الرأي لأنني قرأت الكثير من أعمال ألجيرنون ويليامز طوال تلك السنوات. بقيت أبحث عنها منذ ذلك الحين من غير أن أتمكن من العثور عليها... وهو أمر لا يعني شيئاً بالطبع. لا يوجد شبه بين القصائد والروايات أو الآراء القانونية، فهي أشبه بأوراق منتفخة، وأي كـــتاب يحمل عنواناً مثل المجموعة الكاملة لفلان هو كذبة بكل تأكيد. إن للقـــصائد طـــريقتها الخاصة في الضياع أسفل الأرائك؛ وهذا جزء من سحرها، وأحد أسباب بقائها. ولكن..

فـــي لحظة معينة، جاء ستيفنز ومعه كوب ثانٍ (كنت قد جلست على كرسي وفي يدي كتاب لعزرا باوند). كان شرباً منعشاً مثل الشراب الأول. وفـــيما كـــنت أشـــرب شرابي، رأيت اثنين من أولئك الحاضرين، جورج غريغسون وهاري ستاين (كان قد مضى على وفاة هاري ست سنين عندما قص علينا إملين ماكارون قصة طريقة التنفس) وهما يغادران الغرفة عبر باب معين لا يمكن أن يزيد ارتفاعه عن مائة سنتيمتر. تركا الباب مفتوحاً، وبعـــد وقـــت قصير على خروجهما الغريب من المكتبة، سمعت أصوات كرات البلياردو.

مـــرّ ســـتيفنز بقربي، وسألني إن كنت أرغب في مزيد من الشراب، فأشـــرت بالنفي مع أسف حقيقي. أومأ برأسه وقال: "هذا جيد يا سيدي". لم

تتغير ملامح وجهه، ولكن ساورني إحساس غريب بأن جوابي راق له بطريقة ما.

بدأت بقراءة الكتاب الذي حملني على الضحك. وقام شخص بإلقاء مسحوق كيميائي في النار مما أحدث ألواناً متعددة فيها. فكّرت بطفولتي مرة أخرى... لكن بطريقة رومانسية حزينة. شعرت بحاجة كبيرة إلى التأكيد على ذلك. فكّرت في أوقات كنت أقوم فيها بأعمال وأنا صغير، ولكن الذاكرة كانت قوية ورائعة، وغير مشوبة بالندم.

رأيت أن غالبية الموجودين جلسوا على الكراسي حول المدفأة على شكل نصف دائرة. جاء ستيفنز حاملاً وعاء من السجق الساخن فاحت منه رائحة زكية. عاد هاري ستاين من خلال الباب الصغير، وعرّفني بنفسه على عجل، ولكن بطريقة بعثت السرور في نفسي، فيما بقي غريغسون في غرفة البلياردو؛ يتمرّن على ضرب الكرات، كما بدا واضحاً من الأصوات.

بعد لحظة من التردد، قررت الإنضمام إلى الآخرين. قص أحد الحاضرين قصة؛ لم تكن مشوقة. كان نورمان ستيت الذي قصها، وعلى الرغم من أن هدفي ليس إعادة سردها هنا، فعلى الأرجح أنك ستدرك ما أعنيه بشأن نوعيتها إذا قلت لك بأنها تحكي عن رجل قضى غرقاً في كشك الهاتف.

عندما أنهى ستيت –الذي صار في دنيا الحق الآن– قصته، قال أحدهم: "كان الأجدى أن ترجئ قصها إلى الكرسمس يا نورمان". صدرت بعض الضحكات والتي لم أفهم سببها بالطبع، على الأقل في تلك اللحظة.

ثم جاء دور والترهاوس لكي يحكي لنا حكاية، وبدا أنه ليس الرجل الذي يمكن أن أحلم فيه في مئات من السنين. متخرّج من جامعة يال، أبيض الشعر، يرتدي بزة مؤلفة من ثلاث قطع، ويتولى شؤوناً مهمة في شركة قانونية هي من الضخامة بحيث يمكن اعتبارها أقرب إلى المؤسسة منها إلى شركة؛ حكى لنا هذا الوالترهاوس حكاية عن معلّمة علقت في المرحاض.

دعني أتجاوز هذه الحكاية، وكل حكاية أخرى ربما تليها، فهي ليست القصص التي أنوي أن أقصها هذه الليلة. في لحظة معينة، أخرج ستيفنز زجاجة من الشراب بدت أكثر من جيدة. بدا أنها مختارة بعناية. جرى

تمريرها على الجميع، واقترح يوهانسن نخباً؛ نخباً يقول العبرة بالقصة، لا بمن يقصها.

شربنا نخب ذلك.

لـم يطـل الوقت بعد ذلك حتى بدأ الرجال بمغادرة النادي. لم يكن الوقت متأخراً، ولم يكن قريباً من منتصف الليل بعد على كل حال، ولكنني لاحظت أنه عندما تنتقل من الخمسينيات إلى الستينيات، يبدأ الوقت المتأخر بالمجـيء باكـراً أكثر وأكثر. رأيت والترهاوس وهو يُدخل يديه في كمي معطفـه الـذي فتحه له ستيفنز، وقررت بأنه لا بد وأن تلك إشارة لي بأن وقـت الرحيل قد حان. رأيت في الأمر غرابة لأن والترهاوس كان سينسلّ خارجـاً من غير أن يتفوه بكلمة لي (وهذا ما بدا أنه كان سيفعله بالتأكيد. ولو أنني عدت من المكتبة بعد أربعين ثانية من ذلك، كنت سأجده قد رحل بـدون إعلامـي)، ولكنه تصرف لم يكن أكثر غرابة من غالبية الأحداث الأخرى التي جرت في تلك الأمسية.

سرت خلفه، والتفت إلى الوراء كما لو أنه تفاجأ من رؤيتي؛ وكما لو أنـه شعر بدوخة خفيفة. سألني كما لو أننا التقينا للتو بطريق المصادفة في هذا الشارع الخالي والعاصف: "هل تود مشاركتي في سيارة أجرة؟"

قلت له: "شكراً لك". أردت بذلك أن أشكره على تلك السهرة أكثر مما كـنت أود شـكره على عرضه بمشاركته ركوب سيارة أجرة، وأعتقد بأن نبرتـي أوضحت ذلك بطريقة لا لَبْس فيها، ولكنه أومأ برأسه كما لو أنني عبّرت له عن شكري على العرض. تقدمت سيارة أجرة منّا ببطء؛ يبدو أن الـرفاق من أمثال جورج محظوظون في العثور على سيارات أجرة حتى في ليالي نيويورك الباردة أو الثلجية عندما تقسم بأنه لا توجد سيارة أجرة في كامل جزيرة مانهاتن؛ وأشار إليها لكي تتوقف.

فـي الـداخل الدافئ والآمن، كان عداد المسافة يقيس مقدار رحلتنا. عبّرت له عن مدى استمتاعي بقصته. قلت له إنني لا أتذكر أنني ضحكت بهذا الإنفعال أو العفوية منذ أن بلغت سنّ الثامنة عشرة. لم يكن ذلك إطراءً مني وإنما تعبيراً عما شعرت به فعلاً.

"حقـاً؟ لطف منك أن تقول ذلك". كان كلامه مفعماً بالتهذيب. إنكفأت وقد احمرّ وجهي خجلاً. لا يحتاج المرء دائماً إلى سماع ارتطام الباب لكي يعرف بأنه أُقفل.

عـندما اقتربت سيارة الأجرة من الرصيف قبالة المبنى الذي أسكن فيه، شكرته مجدداً، لكنه أظهر مزيداً من الدفء في عباراته هذه المرّة. "كان لطفاً منك أنك لبّيت الدعوة في هذه المهلة القصيرة. عد مرة أخرى إذا أحببت ذلك. ولا تنتظر دعوة منّي، فنحن لا نتمسك كثيراً بالرسميات في اثنين-أربعة-تسعة باء. أيام الثلاثاء هي الأفضل لسماع القصص، ولكن النادي مفتوح كل ليلة".

هل من المفترض بي أن أعتبر ذلك بمثابة عضوية؟

كانت السؤال على طرف لساني. أردت أن أطرح عليه السؤال؛ كان مــن الضروري أن أسأل. كنت أفكّر في صياغته وأستمع إلى ذهني (على طريقة المحامين المملّة) لكي أعرف إن كنت اخترت العبارات المناسبة – ربمــا كان ذلك فظاً– ولكن واترهاوس أشار إلى السائق بالإنطلاق. وفي اللحظـــة التالـــية، انطلقــت الــسيارة متوجهة نحو بارك. بقيت واقفاً على الرصـــيف للحظـــة وقلــت في نفسي: عرف *بأني كنت سأطرح عليه ذلك الــسؤال؛ لقــد عرف ذلك، ولذلك تعمّد أن يأمر السائق بالإنطلاق قبل أن أتمكــن من طرح السؤال*. ثم قلت في نفسي بأن هذه الأفكار سخيفة تماماً؛ بل وتنمّ عن هوس. وكانت كذلك فعلاً. ولكنها كانت أفكاراً صحيحة أيضاً. فـــي وسعي أن أهزأ من تلك الأفكار، ولكن ما من سخرية يمكن أن تغيّر جوهر الشيء الذي أنا متأكد منه.

مشيت ببطء نحو الباب، ودخلت المبنى.

كانــت إلين شبه نائمة عندما جلستُ على السرير لكي أخلع حذائي. مالــت إلى جنبها الآخر وهي تريد أن تجري معي تحقيقاً غامضاً، ولكنني قلت لها بأن تعود إلى النوم.

قالت بلسان ثقيل: "كيف كانت السهرة؟"

تــرددت فـــي الإجابة للحظة، كنت قد فككت بعض أزرار قميصي. وخطــرت ببالي فكرة واضحة: *إذا أخبرتها بما حدث في تلك الأمسية، فلن أرى الوجه الآخر لهذا الباب مرة أخرى.*

قلت: "جرت الأمور على ما يرام. قص الرجال المسنّون قصصاً عن الحرب".

"قلت لك بأن هذا ما سيحصل".

"لكــنها لم تكن سهرة سيئة. وربما أعود مجدداً، وقد يكون ذلك مفيداً لي في المؤسسة".

قالت وهي تسخر: "المؤسسة، يا لك من أبله عجوز يا عزيزي".

قلت: "لكي تعرف شخصاً بأنه أبله، ينبغي أن تكون أبله مثله". ولكنها كانت قد خلدت إلى النوم حينها. خلعت ثيابي، واستحممت، ونشّفت جسمي بالمنشفة، وارتديت البيجاما... وبدلاً من الذهاب إلى الفراش كما كان ينبغي أن أفعل (كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة حينها)، لبست رداء الحمام، وحملت زجاجة من الشراب، وجلست إلى طاولة المطبخ، وشربت شرابي ببطء، ونظرت من خلال النافذة إلى جادة ماديسون وأنا غارق في التفكير. شعرت بصداع في رأسي بسبب ما احتسيته من كحول في تلك الأمسية؛ كانت بالنسبة لي كمية كبيرة. ولكنني لم أكن منزعجاً، ولم يكن في نيتي التوقف عن الشرب.

كانت الفكرة التي خطرت ببالي عندما سألتني إلين عن سهرتي بمثل سخافة الفكرة التي خطرت ببالي بشأن جورج والترهاوس عندما ابتعدت سيارة الأجرة عني؛ ما هو الخطأ في إخبار زوجتي عن سهرة بريئة قضيتها مع أصدقاء رئيسي المملّين... وحتى وإن كان يوجد شيء خطأ في إخباري لها، من سيعرف أنني ارتكبته؟ كلا، هذه الفكرة بمثل سخافة وهوس سابقتها... وكان عقلي يقول لي بأن استنتاجي صحيح.

التقيت بجورج والترهاوس في اليوم التالي في القاعة بين مكتب المحاسبة وغرفة المطالعة. هل التقيت به؟ ربما كان القول بأنني مررت بقربه عبارة أكثر دقة. أومأ برأسه فيما كان يسير بجانبي، ومضى في طريقه من غير أن يتفوه بكلمة... على غرار ما كان يفعل طوال سنين عديدة.

بقيت معدتي تؤلمني طوال اليوم، وكان ذلك الشيء الوحيد الذي أقنعني بأن تلك الأمسية كانت حقيقية.

مرّت ثلاثة أسابيع، وأربعة، وخمسة، ولم أتلقَّ دعوة ثانية من والترهاوس. بطريقة ما، شعرت بأن الأمر غير مناسب وغير لائق. أو هذا ما قلته لنفسي. كانت فكرة مثيرة للإكتئاب والإحباط. افترضت بأنها ستختفي وتزول حرقتها على غرار كافة خيبات الأمل الأخرى. ولكنني كنت أفكّر في تلك الأمسية في أغرب الأوقات؛ كنت أفكر في المكتبة المنعزلة ذات الألوان الخافتة، الهادئة جداً والمتحضرة نوعاً ما، وفي القصة السخيفة والمرحة التي تتحدث عن المعلمة التي احتجزت في

المرحاض والتي رواها لنا واترهاوس، وفي رائحة الجلد القوية التي تفوح من رزم الكتب. وأكثر ما كان يخطر ببالي وهو وقوفي عند النافذة الضيقة ومراقبة التغير في الألوان من الأخضر إلى الأحمر. وفكّرت في الطمأنينة التي أحسست بها حينها.

خلال فترة الأسابيع الخمسة تلك، ذهبت إلى المكتبة وتحققت من دواوين الشعر الأربعة التي كتبها ألجيرنون ويليامز (كان لدي ثلاثة من هذه الدواوين وتحققت منها بنفسي). ظهر على أحدها عنوان يقول مجموعة القصائد الكاملة. تذكرت بعض القصائد القديمة المفضلة، ولكنني لم أجد قصيدة بعنوان *الجزية* في أي من تلك المجلدات.

وأثناء الرحلة نفسها التي قمت بها إلى مكتبة نيويورك العامة، تحققت من فهرس المؤلفين عن أعمال خيالية لرجل اسمه إدوارد غراي سيفيل. وتبين لي أن رواية مجهولة لامرأة اسمها روث سيفيل كانت أقرب نتيجة في البحث.

... عد مرة أخرى إذا أحببت ذلك. ولا تنتظر دعوة منّي...

على كل حال، كنت أنتظر تلقّي دعوة بكل تأكيد. فقد علّمتني أمي على مدى سنوات بألاّ أصدق بطريقة تلقائية الناسَ الذين يدعونك بطريقة عفوية إلى "زيارتهم في أي وقت" أو الذين يقولون بأن "بابهم مفتوح دائماً". لم أشعر بالحاجة إلى بطاقة دعوة منقوشة في طبق من ذهب يضعها عند عتبة داري خادم يرتدي زيه الخاص. لم أكن أريد ذلك، ولكن ما أردته فعلاً لم يكن أكثر من إشارة عرَضية مثل "هل ستزورنا الليلة يا دافيد؟ نأمل بأننا لم نُشعرك بالملل"، أو أي شيء من هذا القبيل.

لكن حتى تلك الإشارة لم تأتِ، وبدأت بالتفكير بمزيد من الجدّية في العودة إلى المكان على كل حال؛ ففي النهاية، يرغب الناس فعلاً في أن تزورهم في أي وقت. وافترضت بأن الأبواب في بعض الأماكن تبقى مفتوحة دائماً، وأن الأمهات لسن على حق دائماً.

... لا تنتظر دعوة منّي...

على كل حال، هكذا سارت الأمور في العاشر من ديسمبر/كانون الأول من ذلك العام. وجدت نفسي أرتدي معطفي السميك وسروالي البنّي الداكن مجدداً، وبحثت عن ربطة العنق الحمراء. كنت قلقاً من خفقات قلبي أكثر من المعتاد في تلك الليلة.

سألتني إلين: "هل انهار جورج واترهاوس أخيراً، وطلب منك تكرار الزيارة؟ زيارة تلك الزريبة مع باقي المعتوهين المغالين في الوطنية؟"

قلت: "هذا صحيح". أعتقد بأن تلك كانت كذبتي الأولى عليها بعد سنين كثيرة مرت على آخر كذبة قلتها لها، وأذكر أنني أجبتها عن معنى الكذب بعد لقائي الأول بها. قلت لها بأن الرجال المسنين يحكون قصصاً عن الحرب.

قالت: "حسناً، ربما كان الأمر يحمل في طياته ترقية فعلاً". وإن يكن بدون أمل كبير. ولكي أكون منصفاً، لم تعلّق على ذلك بكثير من المرارة أيضاً.

قلت لها: "لقد حصلت أشياء غريبة". وقبلتها بنية وداعها.

قالت فيما كنت أتوجه نحو الباب: "رجال معتوهون".

بدت الرحلة في سيارة الأجرة طويلة جداً في تلك الليلة. كانت ليلة باردة، ولكنها مزدانة بالنجوم. ركبت سيارة أجرة صغيرة، ولذلك شعرت بأنني صغير جداً فيها، مثل طفل يشاهد المدينة لأول مرّة. شعرت بالإثارة عندما توقفت السيارة قبالة الحجر الأسمر؛ شيء بمثل هذه البساطة وهذا الإكتمال. لكن يبدو أن الإثارة البسيطة إحدى سمات الحياة التي تتسلّ من غير أن يلحظها أحد، واسترجاعها بعد أن يتقدم المرء في السنّ يمثل مفاجأة دائماً، مثل العثور على شعرة سوداء في المشط بعد مضي سنين على آخر مناسبة رأيت فيها شعرة سوداء.

دفعت للسائق أجرته، وتقدمت نحو الدرجات الأربع التي تؤدي إلى الباب. وفيما كنت أرتقيها، تحول الشعور بالإثارة إلى خوف واضح (شعور يألفه كبار السنّ أكثر من غيرهم). ما الذي أقوم به هنا بالضبط؟

كان الباب مصنوعاً من ألواح سميكة من خشب السنديان، وبدا في نظري بمثل متانة بوابة قلعة. لم يكن يوجد جرس يمكنني أن أراه، ولا مطرقة باب، ولا كاميرا تلفزيونية مركبة في مكان غير بارز ومعتم، ولم أجد بالطبع واترهاوس في انتظاري لكي يرافقني وأنا أدخل المكان. وقفت عند عتبة الباب، ونظرت حولي. بدا فجأة أن الشارع الخامس والثلاثين أشد ظلاماً، وبرودة، وتوعّداً. بدت الأحجار السمراء مثل الأسرار، كما لو أنها تخفي ألغازاً من الأفضل عدم التحقيق فيها. وبدت نوافذها أشبه بالعيون.

قلت في نفسي، *في مكان ما، خلف إحدى تلك النوافذ، ربما يوجد رجل أو امرأة تفكر في ارتكاب جريمة*. مرت رعشة في بدني، ووصلت إلى عمودي الفقري. *التفكير في جريمة... أم ارتكابها*.

وفجأة، فُتح الباب، ووجدت أن ستيفنز واقف خلفه.

شعرت براحة عميقة. أعتقد بأنني رجلاً لا يملك مخيلة مفرطة-في الظروف العادية على الأقل- لكن تلك كانت آخر فكرة خطرت ببالي بمثل وضوح التوقع. كنت سأتحدث بذلك بصوت مسموع لو أنني لم أرمق عيني ستيفنز أولاً. فعيناه لما تعرفانني، عيناه لم تعرفانني على الإطلاق.

ثم جاءت لحظة أخرى من التوقع الواضح المخيف. رأيت باقي تفاصيل أمسيتي بتفاصيل دقيقة. ثلاث ساعات في مشرب هادئ. وشرب ثلاثة أكواب (وربما أربعة) للتخفيف من حدة الإحراج لكوني أحمق بما فيه الكفاية لكي أذهب إلى مكان لست مرغوباً فيه. قصدت أن أتجنّب إذلال نصيحة أمّي؛ عندما يعرف المرء بأنه تجاوز حدوده.

تخيلت نفسي أسير مترنحاً وأنا عائد إلى المنزل، ولكن ليس بطريقة جيدة. رأيت نفسي جالساً في سيارة الأجرة بدلاً من تجربتها من خلال نظرات طفل مليئة بالإثارة والتوقعات. سمعت نفسي أقول لإلين، يبدو الأمر مملاً بعد مدة... *لقد قصّ واترهاوس القصة نفسها عن الفوز بقطع من لحم البقر كانت مخصصة للكتيبة الثالثة في لعبة قمار... وأنهم لعبوا بأوراق الديناري مقابل دولار لكل نقطة، هل يمكنك تصديق ذلك؟... أعود؟... ربما أعود، ولكني أشك في ذلك*. وستكون تلك نهاية المسألة، باستثناء الوضع المهين الذي وضعت نفسي فيه.

رأيت كل ذلك في عيني ستيفنز. لكنني ما لبثت أن شعرت بدفء عينيه. ابتسم قليلاً وقال: "سيد آدلي، تفضل بالدخول. دعني آخذ معطفك".

صعدت الدرجات، وأقفل ستيفنز الباب خلفي بقوة. كم يبلغ الإختلاف في الشعور عندما تكون في الجانب الدافئ من الباب. حمل معطفي، وتوارى عن الأنظار. وقفت في الردهة للحظة أنظر إلى انعكاس صورتي على لوح زجاجي، رجل في الثالثة والستين من عمره أصبح وجهه هزيلاً بحيث لم يعد صاحبه يبدو في منتصف عمره. ولكن الصورة المنعكسة أسرتني بالرغم من ذلك.

توجهت نحو المكتبة.

رأيت يوهانسن هناك وهو يتصفح الوول ستريت. وتحت بقعة ضوء أخـــرى، رأيت إملين ماكارون جالساً قبالة بيتر أندروز. كان ماكارون ولا يزال رجلاً هزيلاً، ذا أنف ضيق مستدقّ، وكان أندروز رجلاً ضخماً، مائل المنكبين، سريع الغضب. كانت لحيته بلون الزنجبيل. وبوضعيتهما المتقابلة ورقعة الشطرنج العاجية بينهما، كانا أشبه بطوطمين هنديين: النسر والدبّ.

وجدت والترهاوس هناك، وهو يعبس في صحيفة التايمز. رفع رأسه إلـــى أعلى، وأومأ برأسه من غير أن يبدو متفاجئاً برؤيتي، ثم انكبّ على صحيفته مجدداً.

أحضر لي ستيفنز شراباً من غير أن أطلب منه ذلك.

حملته، وتوجهت نحو رفوف الكتب، حيث وجدت مجموعة المجلدات الخـــضراء المحيرة والمثيرة مرة أخرى. بدأت أطالع أعمال إدوارد غراي ســـيفيل فـــي تلك الليلة. بدأت القراءة من أول كتاب، وكانت رواية بعنوان هؤلاء كانوا إخوتي. واظبت على قراءة تلك الروايات منذ ذلك الحين إلى أن قـــرأتها كلهـــا، وأعتقد بأنها إحدى عشرة رواية من أروع ما كُتب من روايات في زماننا.

مـــع اقتـــراب أمسيتنا من نهايتها، كانت هناك قصة – قصة واحدة فقـــط– وأحضر ستيفنز زجاجة شراب كالعادة. وعندما فرغ المتحدث من قصته، بدأ الحاضرون بالنهوض استعداداً للرحيل. تحدث ستيفنز من الممر المزدوج الذي يتصل بالردهة. كان صوته خافتاً ومريحاً. قال: "من سيقص لنا قصة ليلة الكرسمس إذن؟"

توقف الحاضرون عما كانوا يقومون به، ونظر بعضهم إلى بعضهم. دار بعض الحديث الخافت والطبيعي ثم علت أصواتهم بالضحك.

صفق ستيفنز، المبتسم ولكن الجدّي، بيديه مرتين، مثل مدرّس للنحو يطلب من الصف التزام الهدوء. "هيا يا سادة، من الذي سيحكي الحكاية؟"

بلع بيتر أندروز، ذو المنكبين المائلين واللحية ذات اللون الزنجبيلي، ريقه وقال: "هناك أمر كنت أفكر فيه. لا أعرف إن كان صواباً. أعني إذا كان.."

قاطعـــه ستيفنز بالقول: "سيفي بالغرض". ثم علا صوت الحاضرين بالـــضحك. ربت بعضهم على ظهره فيما هبّت النسمات الباردة في الردهة مع خروج الرجال من النادي.

عاد ستيفنز بمعطفي، كما لو كان ساحراً، وقال: "عمتَ مساء يا سيد آدلي. يسعدنا حضورك دائماً".

سألته، وأنا أقفل أزرار معطفي: "هل تجتمعون فعلاً في ليلة الكرسمس؟" شعرت بشيء من خيبة الأمل لأنه سيفوتني سماع قصة أندروز، لكنني خططت مع زوجتي للسفر بالسيارة إلى شينيكتادي وقضاء العطلة برفقة شقيقة إلين.

تمكن ستيفنز من الظهور في مظهر المصدوم والمسرور في الوقت نفسه. قلت له: "ليلة الكرسمس ليلة ينبغي على الرجل أن يمضيها مع عائلته. تلك الليلة فقط، إذا لم تكن هناك ليالٍ أخرى. ألا توافقني الرأي يا سيدي؟"

"أوافقك الرأي بالتأكيد".

"إننا نلتقي دائماً يوم الثلاثاء الذي يسبق الكرسمس. في الواقع، إنها الليلة الوحيدة في السنة التي يحضر فيها دائماً عدد كبير من الناس".

لاحظت أنه لم يستخدم كلمة أعضاء؛ هل كان ذلك من قبيل المصادفة؟ أم أنها كانت وسيلة مهذبة للتهرّب من الموضوع؟

"هناك العديد من الحكايات التي سبق سردها في الغرفة الرئيسية يا سيد آدلي. حكايات من كل نوع، من الحكايات الهزلية إلى الحكايات المأساوية، إلى الحكايات التهكمية والعاطفية. لكن في يوم الثلاثاء الذي يسبق الكرسمس، تكون الحكاية من النوع الممتاز دائماً. لطالما سارت الأمور على هذا النحو، بقدر ما أتذكر على الأقل".

هذا يفسر على الأقل التعليق الذي سمعته في زيارتي الأولى، وهو التعليق الذي يقول بأنه كان يجدر بنورمان ستيت أن يرجئ حكايته إلى الكرسمس. بقيت أسئلة أخرى على طرف لساني، ولكنني رأيت انعكاساً حذراً في عيني ستيفنز. لم يكن تحذيراً بأنه لن يجيب عن أسئلتي، بل كان تحذيراً لي بوجوب عدم طرحها أولاً.

"هل يوجد لديك سؤال آخر يا سيد آدلي؟"

كنا لوحدنا في الردهة حينها بعد أن غادر الجميع. وفجأة، أحسست بأن الردهة باتت أشد ظلاماً، وأن وجه ستيفنز الطويل بات أكثر شحوباً، وأن شفتيه باتتا أكثر احمراراً. انفجرت عقدة في الموقد، وانتشر للحظة وهج أحمر على الأرضية المصنوعة من الخشب المصقول. أعتقد بأنني

ســمعت، من مكان ما في تلك الغرف غير المستكشفة بعد، صوت انزلاق شيء ما، وذلك الصوت لم يعجبني، لم يعجبني على الإطلاق.

أجبته بنبرة ثابتة: "كلا. لا أعتقد ذلك".

قال ستيفنز: "عمت مساءً إذن". تجاوزت عتبة الباب. وسمعت صوت الـباب الثقيل وهو يُغلق خلفي، وسمعت صوت إدارة القفل. ثم مشيت نحو أنــوار الجادة الثالثة من غير أن أنظر إلى الخلف، لأنه تملكني خوف من القيام بذلك، كما لو كنت أخشى أن أرى عفريتاً يمشي ورائي خطوة خطوة، أو ألمح سراً من الأفضل أن يبقى غير معلوم. وصلت إلى زاوية الطريق، ورأيت سيارة أجرة فارغة، فلوّحت لسائقها بيدي.

ســألتني إلــين فــي تلــك الأمسية: "هل سمعت المزيد من قصص الحرب؟"

قلــت وأنــا أعلّق معطفي: "سردوا لنا قصة عن الحرب أو قصتين. ولكنني قضيت معظم وقتي في مطالعة كتاب".

"استمع لهذه القصة: أول مرة وضعت فيها عينيّ على تيري لينوكس عندما كان ثملاً في سيارة رولز رويس فضية اللون". واصلت إلين القراءة وقالت: "كان وجهه وسيماً ولكنه كان أبيض الشعر. لكن فيما عدا ذلك، كان يــبدو مــثل أي شاب وسيم آخر في ثياب السهرة ينفق الكثير من ماله في ملهــى وضيع لتدخين الأفيون من أجل ذلك الغرض وليس إلاّ. قصة لطيفة أليس كذلك؟ إنها.."

قلــت وأنا أخلع نعليّ: ".. قصة الوداع الطويل. أنت تقرئين لي تلك الفقرة مرة كل ثلاث سنوات. إنها جزء من دورة حياتكِ".

نظرت إليّ نظرة ازدراء.

قلت لها: "شكراً لكِ".

عــادت إلــى كــتابها، وذهبت إلى المطبخ لإحضار زجاجة من الشراب. وعندما عدت، وجدت أنها تركت كتاب الوداع الطويل مفتوحاً على اللحاف فيما نظرت إليّ نظرة فاحصة. "دافيد، هل تنوي الإنضمام إلى هذا النادي؟"

"ربمــا أفعــل... في حال طُلب منّي ذلك". شعرت بالإنزعاج. ربما كــذبت عليها مرة أخرى. إذا كان هناك شيء يسمى عضوية في 249 باء في الشارع الخامس والثلاثين، فأنا عضو فيه أصلاً.

قالت: "أنا أشعر بالسعادة. فأنت تشعر بالحاجة إلى أمر معين منذ مدة طويلة. لا أعتقد بأنك تعرف ذلك، ولكن لديك حاجة إلى أمر معين. أنا أشارك في لجنة الإغاثة، وفي لجنة حقوق النساء، وفي جمعية المسارح. ولكنك بحاجة إلى أمر معين، أمر تشغل وقتك فيه".

توجهت نحو السرير، وجلست بقربها، وأمسكت بالكتاب. كان يحمل غلافاً برّاقاً جديداً. أذكر أنني اشتريت النسخة الأصلية ذات الغلاف الكرتوني كهدية في ذكرى ميلادها في العام 1953. سألتها: "هل نحن كبيران في السن؟"

أجابت: "أعتقد ذلك". وابتسمت بذكاء في وجهي.

جاء يوم الثلاثاء الذي يسبق الكرسمس. كانت تلك الأمسية شديدة الشبه بغيرها من الأمسيات، باستثناء أمرين هامّين. الأمر الأول هو أن عدد الحاضرين كان أكبر، ربما بلغ عددهم ثمانية عشر رجلاً. والأمر الثاني هو أنه ساد الأجواء إحساس حادّ ومبهم بالإثارة. فقد اكتفى يوهانسن بإلقاء نظرة خاطفة وحسب إلى الصحيفة ثم انضمّ إلى ماكارولي، وهاغ بيغلمان، وأنا طبعاً. جلسنا بالقرب من النوافذ نتحدث عن هذا الموضوع أو ذاك، ثم دخلنا أخيراً في مناقشة حميمة -ومرحة في الغالب- حول السيارات التي كانت تستعمل قبل اندلاع الحرب.

تبين لي، في معرض الحديث عن الموضوع، أنه كان يوجد وجه اختلاف ثالث أيضاً؛ وهو أن ستيفنز مزج شراباً لذيذاً من البيض وعصير الليمون والتوابل. كان شراباً سلساً، ولكنه كان حارّاً أيضاً بسبب التوابل وغيرها. جرى تقديم الشراب في وعاء ضخم بدا أشبه بمنحوتة جليدية، وتصاعدت همهمة المحادثة إلى مستوى أعلى مع انخفاض مستوى الشراب.

نظرت إلى الزاوية بالقرب من الباب الصغير الذي يؤدي إلى غرفة البلياردو، وصُعقت من رؤية واترهاوس ونورمان ستيت وهما يقلبان بطاقات كرة القاعدة في ما بدا أشبه بقبعة مصنوعة من فرو القندس الأصلي. وكانا يضحكان بصوت عالٍ.

تشكلت مجموعات، وأعيد تشكيل مجموعات أخرى. تأخر الوقت... وعندما حان الوقت الذي يبدأ فيه الحاضرون بمغادرة المكان من الباب الأمامي، رأيت بيتر أندروز جالساً أمام النار وفي يده مجموعة من

الرسائل بدون أسماء في حجم المغلف. رمى تلك الرسائل في النار من غير أن يفتحها، وبعد برهة وجيزة، بدأت ألسنة اللهب بالرقص وعرض كامل ألوان الطيف قبل أن تتحول إلى اللون الأصفر مجدداً. جرى نقل الكراسي إلى مكان قريب من النار. كان في مقدوري رؤية حجر العقد الذي نُقشت عليه العبارة: العبرة بالقصة، لا بمن يقصها من فوق كتفه.

مرّ ستيفنز بخفة بيننا، وحمل أكواب الشراب الفارغة، واستبدلها بأكواب تحتوي على شراب آخر. تبادل الجالسون عبارة "ميلاد سعيد" و"سيد الموسم، ستيفنز" ولأول مرة، رأيت أموالاً تتناقلها الأيدي؛ وُضعت ورقة بقيمة عشرة دولارات، وورقة أخرى بدا أنها بقيمة خمسين دولاراً، وورقة من فئة المائة دولار رأيتها بوضوح بالقرب من كرسي آخر.

"شكراً لك يا سيد ماكارون، ويا سيد يوهانسن، ويا سيد بيغلمان..."

ثم ساد الصمت بعد ذلك.

لقد عشت في نيويورك مدة كافية لكي أعرف بأن موسم الكرسمس هو كرنفال للإكراميات. شيء يقدّم للّحام، والخبّاز، وصانع الشماعد؛ ناهيك عن الحارس، والخادمة التي تأتي أيام الخميس والجمعة. ولم يسبق أن التقيت بأحد من طبقتي الإجتماعية وإلاّ وكان يعتبر هذه الإكراميات بمثابة نفقات بغيضة لا مفرّ منها... ولكنني لم أشعر بروح الكراهية في تلك الليلة. كان المال يقدّم طواعية، وحتى بشوق... وفجأة وبدون سبب (كانت تلك الطريقة التي تخطر الأفكار فيها بالبال عندما يكون المرء في الشقة 249 باء)، فكّرت في الصبي الذي ينادي باسم سكروج صباح كرسمس بارد في لندن: "ماذا؟ هذه الإوزة الكبيرة التي يقارب حجمُها حجمي؟" غرق سكروج في ضحك مجلون مشوب بالمرح وقال: "صبي رائع، صبي ممتاز".

مددت يدي إلى محفظتي. كان يوجد خلف صور إلين ورقة من فئة الخمسين دولاراً أحتفظ بها للحالات الطارئة. عندما قدّم لي ستيفنز الشراب، وضعتها في يده بدون أن أشعر بوخز في الضمير... بالرغم من أنني لم أكن رجلاً ثرياً.

قلت: "كرسمس سعيد يا ستيفنز".

"شكراً لك يا سيدي. كرسمس سعيد".

أنهـى تقديم الشراب وجمع إكرامياته ثم انسحب. نظرت في المكان، عـندما وصـل بيتر أندروز إلى منتصف قصته، فرأيته واقفاً بالقرب من الباب المزدوج، كان ظله معتماً، وممتداً، وصامتاً.

قال أندروز بعد أن شرب من شرابه لتنقية حلقه: "أنا محام الآن، كما تعرف الغالبية منكم"، ثم شرب شربة أخرى. "كان لدي مكاتب محاماة في بـارك أفنيو على مدى الأعوام الإثنين والعشرين الماضية. ولكن قبل ذلك، عملت مساعداً قانونياً في مؤسسة قانونية تعمل في واشنطن العاصمة. وفي إحدى ليالي شهر يوليو/تموز، طُلب مني البقاء حتى ساعة متأخرة من أجل إنهـاء ترتيب استدعاءات المحكمة في قضية لا علاقة لها بهذه القصة. ثم جاء رجل؛ كان أحد أشهر الأعضاء في مجلس الكونغرس في ذلك الحين، رجـل أصـبح في ما بعد رئيساً للبلاد. كان قميصه ملطخاً بالدماء وكانت عيناه بارزتين من مكانهما.

قـال: أريـد أن أتحـدث إلى جو. وكما فهمتم، كان يقصد جوزيف وودمن، رئيس مؤسستي، أحد أوسع المحامين العاملين في القطاع الخاص نفوذاً في واشنطن، وكان الصديق المقرّب له.

قلت: "ذهب إلى بيته قبل ساعات من الآن". شعرت بخوف شديد؛ فقد بـدا مثل رجل خرج للتو من حادث تصادم سيارات مروّع، أو من عراك بالـسكاكين. عندما نظرت إلى وجهه –الذي سبق أن رأيته على صفحات الجرائد– رأيت بقعة من الدم المتخثر على أحد خدّيه أسفل عينه... وهذا ما زاد مـن شـعوري بالخوف. "يمكنني الإتصال به إذا..." كنت قد وضعت يـدي على سماعة الهاتف، وأنا متلهف لتسليم هذه المسؤولية غير المتوقعة لأحـد غيـري. وعندما نظرت خلفه، رأيت بقع الدم في آثار الأقدام التي خلّفها على السجادة.

"أريـد أن أتحـدث إلـى جو في الحال". أعاد العبارة كما لو أنه لم يـسمعني. "يوجد شيء في صندوق سيارتي... شيء وجدته في فيرجينيا. لقد أطلقت النار عليه وطعنته، ولكني لم أتمكن من قتله. إنه ليس من جنس البشر، وأنا لا أستطيع قتله".

بـدأ بالقهقهـة... ثم بالضحك... ثم بالصراخ. وبقي على هذا الحال عـندما تمكنت أخيراً من الإتصال بالسيد وودمن عبر الهاتف، وطلبت منه المجيء في أسرع وقت ممكن.

لا أقصد أن أقص قصة بيتر أندروز. في الواقع، لست متأكداً من امتلاكي الجرأة التي تسمح لي بقصها. لكن يكفي القول إنها كانت حكاية مخيفة لدرجة أنني بقيت أحلم بها على مدى عدة أسابيع بعد تلك الجلسة. حتى أن إلين نظرت إليّ على مائدة الفطور، وسألتني عن سبب صياحي فجأة قائلاً: "رأسه، رأسه لا يزال يتكلم تحت الأرض" في منتصف الليل.

قلت لها: "أعتقد بأنه كان حلماً. أحد الأحلام التي لا يمكن للمرء أن يتذكرها بعد أن يستيقظ".

ولكنني حولت ناظريّ على الفور إلى فنجان القهوة، وأعتقد بأن إلين عرفت أنني كذبت عليها حينها.

في أحد الأيام من شهر أغسطس/آب من السنة التالية، كنت منهمكاً في المطالعة في المكتبة عندما دخل عليّ جورج واترهاوس. سألني إن كنت أستطيع زيارته في مكتبه. وعندما ذهبت إلى هناك، رأيت أن روبرت كاردن كان حاضراً أيضاً، وهنري إفينغهام. كنت متأكداً لوهلة أني على وشك أن أتهم بعمل شنيع ينمّ عن غباء أو حماقة.

ثم اقترب كاردن مني وقال: "يعتقد جورج بأن الوقت قد حان لكي يجعلك شريكاً مبتدئاً يا دافيد. وقد حصل على موافقة الشركاء الآخرين على ذلك".

قال إفينغهام في ابتسامة ظاهرة: "سيكون الأمر أشبه بترقية أكبر رجل في العالم لمنصب شريك مبتدئ. لكنها القناة التي ينبغي عليك المرور من خلالها يا دافيد. ومع قليل من الحظ، يمكننا أن نجعلك شريكاً كاملاً بحلول الكرسمس".

لم أرَ أية أحلام مزعجة في تلك الليلة. خرجت مع إلين لتناول العشاء في أحد المطاعم، وشربت كثيراً، وذهبت للإستماع إلى موسيقى الجاز في مكان لم أزره منذ ستة أعوام تقريباً، واستمعت إلى ذلك الرجل المدهش أسود البشرة وأزرق العينين، ديكستر غوردن، وهو ينفخ في مزماره حتى الساعة الثانية من بعد منتصف الليل تقريباً. واستيقظنا في صباح اليوم التالي مع إحساسنا بآلام في المعدة وصداع في الرأس، وكنا لا نزال عاجزَين عن تصديق ما حصل. أحد الأمور التي عجزنا عن تصديقها كان زيادة حجم راتبي بمقدار ثمانية آلاف دولار في السنة بعد مرور وقت طويل على تخلينا عن الأمل بحدوث مثل هذه القفزة فيه.

أرسلتني الشركة إلى كوبنهاغن في رحلة امتدت ستة أسابيع في الخريف من ذلك العام، وعدت لأكتشف بأن جون هنراهان، أحد المشاركين المنتظمين في أمسيات 249 باء قد تُوفي بمرض السرطان. قمنا بجمع تبرّعات لزوجته التي تُركت في ظروف مأساوية. وألحّوا عليّ لكي أجمع المبلغ -الذي سُلِّم بكامله نقداً- وأحوّله إلى الصرّاف لكي يكتب شيكاً بالمبلغ. وقد زاد ذلك المبلغ عن عشرة آلاف دولار، وقمت بتسليم الشيك إلى ستيفنز، وأعتقد أنه أرسله عبر البريد على الأرجح.

صدف أن أرلين هنراهان كانت عضواً في جمعية المسارح التي كانت إلين عضواً فيها. وقالت لي إلين في وقت لاحق أمراً مفاده أن أرلين استلمت شيكاً من مجهول بقيمة عشرة آلاف وأربعمائة دولار. كُتب على أرومة الشيك رسالة مختصرة ومبهمة جاء فيها: *أصدقاء زوجك المرحوم جون*.

سألتني إلين: "أليس هذا أغرب خبر سمعتَه في حياتك؟"

قلت: "كلا، ولكنه من ضمن الأخبار العشرة الأولى. هل يوجد المزيد من الفراولة يا إلين؟"

مرّت سنوات، واكتشفتُ مجموعة كبيرة من الغرف في الطابق العلوي من المبنى 249 باء، غرفة كتابة، غرفة نوم حيث يمضي الضيوف لياليهم في بعض الأحيان (حتى بعد صوت الانزلاق الذي سمعته، أو الذي تخيلت بأني سمعته؛ أعتقد بأنه يجدر بهم حجز غرف في فندق جيد عوضاً عن ذلك) قاعة رياضية صغيرة ولكنها حسنة التجهيز، وحمام سونا. كما اكتشفت وجود غرفة طويلة وضيقة تمتدّ بطول المبنى وتحتوي على مجازين للعبة البولينغ.

في تلك الفترة، أعدت قراءة روايات إدوارد غراي سيفيل، واكتشفت قصيدة مذهلة - ربما تكافئ أعمال عزرا باوند ووالاس ستيفنز- باسم روبرت روزن. واستناداً إلى غلاف أحد المجلدات الثلاثة التي ضمّت أعماله والموجودة على الرفوف، وُلد في العام 1924 وقُتل في أنزيو. وقامت دار ستيدهام وأولاده في نيويورك وبوسطن بنشر أعماله في هذه المجلدات الثلاثة.

أذكر أنني عدت إلى مكتبة نيويورك العامة في فترة ما بعد الظهر من يوم ربيعي زاهٍ في تلك الفترة (لست متأكداً من السنة) وطلبت ما يوازي عشرين سنة من إصدارات ليترراري ماركت بلايس، وهي عبارة

عن نشرة سنوية بحجم دليل الهاتف الخاص بإحدى المدن الكبيرة. وأخشى لنني أغضبت أمين المكتبة بسبب طلبي هذا. ولكنني ألحّيت على طلبي وتصفحت كل مجلد بعناية. وعلى الرغم من أنه يفترض أن تمرد ليترلاري ماركت بلايس كافة المنشورات، صغيرة أم كبيرة، التي صدرت في الولايات المتحدة (بالإضافة إلى العملاء، والمحرّرين، وموظفي نادي الكتاب)، لم أجد مدخلاً لستيدهام وأولاده. وبعد سنة – وربما سنتين على ذلك التاريخ- تحدثت إلى تاجر يبيع الكتب القديمة، وسألته عن هذا الكتاب وأجابني بأنه لم يسبق أن سمع به.

فكّرت في طرح السؤال على ستيفنز – وتذكرت النظرة التحذيرية في عينيه – فصرفت النظر عن الموضوع.

على مدى تلك السنوات أيضاً، كان هناك المزيد من القصص، أو الحكايات، إذا أردت استعمال الكلمة التي استعملها ستيفنز. حكايات مسلّية، حكايات التعرف على الحبّ أو خسارته، والحكايات التي تحكي عن القلق. أجل، إضافة إلى بعض الحكايات التي تحكي عن الحرب، بالرغم من أن أياً منها لم يكن من النوع الذي أرجح أن إلين فكرت فيه عندما ذكرت اقتراحها.

أذكر قصة جيرارد توزمان تماماً؛ حكاية قاعدة عمليات أميركية تلقّت ضربة مباشرة من المدفعية الألمانية قبل أربعة شهور من انتهاء الحرب العالمية الأولى، مما أدّى إلى مقتل كل من كان فيها باستثناء توزمان نفسه.

كان الجنرال الأميركي لاتروب كاروثرز، الذي اعتبره الجميع مجنوناً (لأنه كان مسؤولاً عن تكبّد أكثر من ثمانية آلاف إصابة حتى ذلك الحين)، أمام خريطة توضح خطوط الجبهات عندما سقطت قذيفة. كان يشرح عملية التفاف مجنونة أخرى في تلك اللحظة؛ عملية كانت ستنجح فقط في صنع مزيد من الأرامل.

عندما انجلى الغبار، تبين أن جيرارد توزمان، الدائخ والأصم، والذي كان ينزف من أذنيه وأنفه وزوايا كلتا عينيه، وقع على جثة كاروثرز فيما كان يبحث عن وسيلة للخروج من مقرّ القيادة قبل دقائق من سقوط القذيفة. نظر إلى جثة الجنرال... ثم بدأ بالصراخ والضحك. لم يسمع صوته بسبب الصدمة التي تعرضت لها أذناه، ولكن صراخه خدم في إبلاغ الفريق الطبّي بأن شخصاً ما لا يزال حياً تحت الأنقاض.

قال توزمان بأن كاروثرز لم يتعرض للتشويه بسبب الإنفجار، على الأقل ليس كما يعتقد الجنود الذين شاركوا في تلك الحرب؛ رجال قُطِّعت أيديهم، أو قُطِّعت أرجلهم، أو اقتُلعت أعينهم، أو رجال ذبلت رئاتهم بسبب الغاز. كلا، قال توزمان، لم يتعرّض لشيء من هذا القبيل. كان في مقدور أمه أن تتعرف عليه على الفور. ولكن الخريطة...

... الخريطة التي كان يقف كاروثرز أمامها وهو يشير إليها بعصاه عندما سقطت القذيفة...

سقطت بطريقة ما على وجهه. وجدها توزمان وهو يحدق في قناع الموت. هنا يمتدّ شاطئ بريتاني على الحيد الصخري لحاجب لاثروب كاروثرز. وهنا نهر الراين الذي يتدفق مثل ندبة زرقاء أسفل خدّه الأيسر. وهنا بعض من الأقاليم التي تنتج أفخر أنواع المشروبات في العالم على ذقنه. وهنا إقليم السار الغارق في حلْقه مثل أنشوطة حبل الجلاّد... وعلى بؤبؤ عينه المنتفخة برزت كلمة فرساي.

كانت تلك قصتنا للكرسمس في العام – 197.

أتذكر العديد من القصص غيرها، ولكنها لا تمتّ إلى سياق ما أريد التحدث عنه بصلة. ولكي أكون دقيقاً، لا ينتمي توزمان إلى هذا السياق أيضاً... ولكنها كانت أول حكاية للكرسمس سمعتها في 249 باء، وأنا لا أستطيع مقاومة الرغبة في سردها. وفي تلك السنة أيضاً، يوم الثلاثاء الذي أعقب يوم الشكر، عندما صفق ستيفنز بيديه ليلفت انتباهنا ويسأل عمن سيتكرّم علينا بسرد حكاية الكرسمس، قال ماكارون بصوت مسموع: "أعتقد بأن لديّ قصة يجدر بي أن أقصها لكم. وإما أن أقصها الآن أو لا أقصها أبداً، لأني سأموت قبل أن يتسنّى لي ذلك".

لم يسبق أن سمعت ماكارون يروي قصة طوال السنوات التي واظبت فيها على حضور الجلسات في 249 باء. وربما كان هذا هو السبب الذي دفعني إلى طلب سيارة أجرة في وقت مبكر جداً، وغمرني بالإثارة عندما مرر ستيفنز شراب البيض والعصير والتوابل إلى كافة الحاضرين الستة الذين غامروا بالخروج من منازلهم في تلك الليلة الباردة. كما أنني لم أكن الوحيد الذي شعر بالإثارة، فقد رأيت آثارها على وجوه العديد من الحاضرين الآخرين أيضاً.

جلــس ماكــارون، العجوز، والجاف، والقوي، على الكرسي الضخم أمــام النار وفي يده علبة من المسحوق. رمى المسحوق في النار، ورقبنا ألــسنة النار وهي تتلألأ بالألوان المختلفة قبل أن تعود إلى لونها الأصفر مجــدداً. ثــم قــدّم لنا ستيفنز شراباً آخر، وقدمنا له إكراميات الكرسمس. سمعت أثناء الإحتفال في ذلك العام خشخشة نقود المانح في يد الآخذ. وفي مناسـبة أخرى، رأيت ألف دولار على ضوء النار. وفي كلتا المناسبتين، كانت تمتمة ستيفنز هي نفسها: بنبرة منخفضة، ومترويّة، وصحيحة تماماً. مــرّت عــشر ســنوات تقريباً منذ زيارتي الأولى للمبنى 249 باء برفقة جورج واترهاوس. وفي حين حدثت تغيّرات كبيرة في العالم الخارجي، لم يطرأ أي تغيير على هذا المكان. بدا أن ستيفنز لم يتقدم به العمر ولو شهراً واحداً، ولا حتى يوم واحد.

عــاد إلــى مكانه المعتم، وساد صمت مطبق للحظة لدرجة أننا كنا نــستطيع سماع صفير النسغ الذي يغلي وينساب من قطع الحطب المشتعلة فــي الموقد. كان إملين ماكارون ينظر إلى النار، وكنا جميعاً نتبع نظراته. بــدت ألــسنة اللهب قويةً بشكل ملفت في تلك الليلة. وشعرت بأنني تحت تأثير التنويم المغناطيسي بسبب إمعان النظر في النار؛ كما أعتقد بأن رجال الكهــوف الــذين أنجبونا سقطوا تحت تأثير التنويم المغناطيسي مرّة بسبب النار فيما كانت الرياح تمشي وتتكلم خارج كهوفهم الشمالية الباردة.

أخيراً، انحنى ماكارون قليلاً إلى الأمام وهو لا يزال ينظر إلى النار بحــيث اســتندت ذراعاه على فخذيه، وتدلّت يداه بين ركبتيه، وبدأ يروي قصته.

2

طريقة التنفس

إقتــربت مــن سنّ الثمانين الآن، وهو ما يعني أنني وُلدت مع مطلع القــرن. بقــيت طوال حياتي مرتبطاً بمبنى ينتصب قبالة ساحة ماديسون غــاردن. في الواقع، كان ذلك المبنى، الذي يشبه سجناً رمادياً كبيراً –مثل الــسجن الموصــوف في رواية حكاية مدينتين– عبارة عن مستشفى، كما يعــرف غالبيــتكم. إنها مستشفى هارييت وايت ميموريال. كانت هارييت

وايــت، التــي حملــت المستشفى اسمها، زوجة والدي الأولى. وقد تلقت تدريــبها علــى التمريض وهي لا تزال ترعى الماشية في سنترال بارك. يــوجد تمثال للسيدة نفسها على قاعدة تنتصب قبالة المبنى، وفي حال رآها أي مــنكم، ربمــا سيتساءل كيف يمكن أن تعمل امرأة بهذا الوجه الصارم والعنــيد في هذه المهنة اللطيفة. والشعار المنقوش على قاعدة التمثال، بعد أن تتخلص من التفاهات اللاتينية، كان أقل عزاءً: *لا توجد راحة بدون ألم، وبالتالي فنحن نعرّف الخلاص من خلال المعاناة.*

ولــدت داخــل ذلــك المبنــى الصخري الرمادي في العشرين من مــارس/آذار ســنة 1900. وعدت إلى ذلك المكان كطبيب مقيم في العام 1926. يعتبر سنّ السادسة والعشرين بمثابة السنّ التي تبدأ فيها العمل في عــالم الطــب، ولكنني خضعت لمزيد من التدريبات في فرنسا عند نهاية الحــرب العالمــية الأولــى، محــاولاً إعادة الأمعاء الممزقة إلى البطون المتفجــرة، والإعــتماد على السوق السوداء في الحصول على المورفين، والذي كان مشبعاً إلى حدّ الخطورة في بعض الأحيان.

علــى غرار جيل الأطباء الذي أعقب الحرب العالمية الثانية، تدربنا على إجراء العديد من العمليات الجراحية، والسجلات التي في كلّيات الطب الرئيــسية تظهر عدداً أقل من حالات الفشل في الأعوام الممتدة بين عامي 1919 و1928. كنا أكبر سناً، وأوسع خبرة، وأكثر ثباتاً. لكن هل كنا أكثر حكمة؟ لست أدري... ولكنا كنا بالتأكيد أكثر تشاؤماً. لم نصادف شيئاً من هــذه الترّهات التي تقرأ عنها في الروايات الطبّية المشهورة، مثل الإغماء أو التقــيؤ عــند تشريح الجثة لأول مرّة. ليس بعد بيلو وود، حيث التهمت الجــرذان أمعاء الجنود الذين تُركوا لتبلى أجسامهم في الأراضي المتنازع عليها. لقد أصبح التقيؤ شيئاً من الماضي بالنسبة لنا.

كمــا أننــي أتذكــر مستشفى هارييت وايت ميموريال بسبب أمر حصل معي بعد تسع سنين على تدرّبي فيها؛ وهذه هي القصة التي أريد أن أقصها عليكم في هذه الليلة أيها السادة. إنها ليست حكاية تُحكى ليلة الكرسمس، كما ستقولون (بالرغم من أن أحداثها تدور ليلة الكرسمس)، لكــن في حين أنها مرعبة نوعاً ما، يبدو أنها تعبّر لي عن كافة القوى المدهــشة لجنــسنا البشري. وأنا أرى فيها عجائب إرادتنا... وقدرتها المرعبة والقاتمة أيضاً.

إن الـــولادة فـــي حـــدّ ذاتهـــا، أيها السادة، أمر مروّع بالنسبة إلى الكثيرين، وبات من المعتاد الآن حضور الآباء ولادة أطفالهم. وفي حين أن هـــذه العادة خدمت في إشعار العديد من الرجال بالذنب الذي أعتقد بأنهم لا يـــستحقّونه (إنه ذنب تستخدمه بعض النساء على بصيرة وبوحشية بالغة)، يـــبدو أنهـــا عـــادة مفيدة صحّية بوجه عام. ولكنني رأيت رجالاً يغادرون غـــرف الولادة شاحبي الوجوه وهم يترنّحون، ويسقطون مُغمىً عليهم مثل الفتيات اللواتي تأثرن بالصراخ والدم. وأذكر أن أحد الآباء بقي يحافظ على رباطة جأشه... إلى أن بدأ بالصراخ بشكل هستيري مع خروج ابنه بصحّة مثالـــية إلـــى العالم. كانت عينا الوليد مفتوحتين، وما لبثتا أن استقرتا على أبيه.

الـــولادة أمر مدهش يا سادة، ولكنني لم أجدها يوماً جميلة؛ ليس في حدود مخيلتي. ولنا أعتقد بأنها أكثر وحشية من أن توصف بالجمال. يوجد شـــبه بين رحم المرأة والمحرك. بعد حدوث الحمل، يبدأ المحرّك بالعمل. في البداية، تكون دورته بطيئة... لكن مع اقتراب الدورة الخلاّقة من ذروة الـــولادة، يـــزداد عدد دورات المحرّك أكثر وأكثر. وتتحول همهمة دورته البطيئة إلى همهمة دورة مستمرّة، ثم تتحول إلى هدير، لتصبح في النهاية صـــراخاً مرعباً. بعد أن يشتغل المحرّك، تدرك كل أمّ مستقبلية بأن حياتها تخضع للإمتحان. فإما أن تضع وليدها ويتوقف المحرّك، أو يتعالى صوت المحـــرّك وتـــزداد ســـرعته إلى أن ينفجر مما يؤدي إلى وفاتها من كثرة النزيف وشدّة الألم.

إنها قصة ولادة يا سادة، وفي عشية تلك الولادة، لا نزال نحتفل منذ قرابة الألفي عام.

بـــدأتُ بمزاولة مهنة الطبّ في العام 1929؛ وهو عام سيئ لكي تبدأ فـــيه أي شـــيء. أقرضني جدّي مبلغاً صغيراً من المال، ولذلك كنت أوفر حظاً من العديد من زملائي، ولكن كان لا يزال يتعين عليّ البقاء على مدى السنين الأربع التالية بالاعتماد على فطانتي غالباً.

بحلـــول العام 1935، تحسّنت الأوضاع قليلاً. تمكنت من بناء قاعدة ثابتة من المرضى إضافة إلى المرضى الخارجيين الذين كانت تحولهم إليّ مستـــشفى وايت ميموريال. وفي أبريل/نيسان من ذلك العام، رأيت مريضاً جديـــداً، امرأة صغيرة السنّ سأطلق عليها اسم ساندرا ستانسفيلد؛ وهو اسم

قريب بما يكفي من اسمها الحقيقي. كانت امرأة شابّة، بيضاء، ذكرتْ أن عمرها ثمانية وعشرون عاماً. وبعد أن قمت بفحصها، قدّرتُ بأن عمرها الحقيقي أقل بثلاث إلى خمس سنوات من ذلك. كانت شقراء، نحيلة الجسم، طويلة القامة؛ حوالى مائة واثنين وسبعين سنتيمتراً. كانت جميلة جداً ولكنها بدت منفّرة بطريقة ما. كانت ملامحها واضحة ومتّسقة، وكانت عيناها تشعان بالذكاء... وكان فمها أشبه بالفم الحجري لهارييت وايت في تمثالها المنتصب في حديقة ساحة ماديسون. والاسم الذي كتبته في استمارتها لم يكن ساندرا ستانسفيلد وإنما جاين سميث. أظهر فحصي أنها حامل في شهرها الثاني، ولكنها لم تكن تلبس خاتم زواج.

بعد الفحص الأولي- لكن قبل وصول نتائج فحص الحمل- قالت الممرضة إيلاً دافيدسون: "هذه الفتاة التي جاءت البارحة. جاين سميث. إذا لم يكن اسمها اسماً مستعاراً، فأنا لم اسمع به من قبل".

وافقتها على ما قالت. ولكنني أُعجبت بها. لم تتصرف بطريقة غريبة أو مخجلة أو مثيرة للشفقة، بل كانت صريحة وجدّية. وحتى اسمها المستعار بدا أنه مسألة مهنية أكثر منه تهرباً من الفضيحة. يبدو أنها تقول، *أنت بحاجة إلى اسم تكتبه في استمارتك، لأن القانون ينصّ على ذلك. إذن، إليك هذا الاسم. لكن بدلاً من الوثوق بالأخلاقيات المهنية لرجل لا أعرفه، أفضل أن أثق بنفسي، إذا لم يكن لديك مانع.*

عبّرت إيلاً عن اشمئزازها، وأشارت إلى جملة من الملاحظات -"فتيات عصريات" و"جريئات إلى حدّ الوقاحة" -ولكنها كانت امرأة طيبة، وأنا أعتقد بأنها لم تذكر تلك المعلومات إلاّ من أجل ملء الإستمارة. كانت تعرف مثلي تماماً أنه بغض النظر عن هوية مريضتي الجديدة، لم تكن بغياً قاسية العينين، كلا. كانت جاين سميث مجرد امرأة شابّة تميّزت بالجدّية والعزيمة القوية إلى حدّ بعيد؛ إذا كان يمكن وضع هذين الوصفين إلى جانب كلمة مجرّد. كان وضعاً غير مريح بالمرة (كان يُطلق عليه "الوقوع في مأزق"، كما تذكرون أيها السادة. لكن في هذه الأيام، يبدو أن المرأة الشابّة تستورّط في مأزق للخروج من مأزق آخر)، وكانت عازمة على المحافظة على جنينها بكل ما لديها من عزّ وكرامة.

بعد مرور أسبوع على موعدها الأول، عادت مجدداً. كان ذلك يوماً رائعاً؛ في مطلع شهر الربيع. كان الهواء معتدل البرودة، والسماء صافية،

وحمل النسيم رائحة منعشة؛ رائحة دافئة لا يمكن تمييزها بدت أنها إشارة الطبيعة على أنها دخلت الفصل الثاني. كان من الأيام التي يرغب فيها المرء بأن يكون بعيداً عن تحمّل أية مسؤوليات، ويجلس أمام امرأة محبّة؛ ربما في كوني أيلاند أو في باليسايدس مع سلّة من الطعام على قطعة قماش مضلّعة فيما ترتدي المرأة قبعة بيضاء وعباءة لا أكمام لها لا يقل جمالها عن جمال اليوم.

كان ثوب جاين سميث بكمين، ولكنها كان بمثل جمال اليوم. قماش كتاني أبيض مع حواف بنّية اللون. كانت تنتعل خفّاً بنّي اللون، وترتدي كفّين بيضاوين، وإلى قبعة ضيقة لا تجاري القبعات السائدة نوعاً ما؛ كانت تلك أول إشارة إلى أنها أبعد ما تكون عن المرأة الثرية.

قلت لها: "أنتِ حامل. وأنا لا أعتقد بأنكِ تشكّين في هذا الأمر، أليس كذلك؟"

قلت في نفسي، إذا كانت توجد دموع، فهذا أوان ذرفها.

قالت برباطة جأش مثالية: "كلا". لم تظهر علامات على قرب ذرفها للدموع أكثر من علامات وجود سحاب ممطر في أفق ذلك اليوم. "أنا مترهبنة في العادة".

ساد صمت مطبق لفترة من الوقت.

ثم سألتني مع تنهّد لا يكاد يُسمع له صوت: "متى ينبغي أن أتوقع أوان الولادة؟" كان صوتها أشبه بصوت يمكن أن يصدر عن رجل أو امرأة تنحني لرفع حمل ثقيل.

قلت: "ستكون ولادتك في فترة الكرسمس. يمكنني أن أحدد يوم العاشر من ديسمبر/كانون الأول كيوم للولادة، لكن ربما تحدث الولادة قبل أسبوعين من ذلك التاريخ أو بعده".

قالت مع شيء من التردد: "حسناً. هل ستشرف على ولادتي بالرغم من أني امرأة غير متزوجة؟"

قلت: "أجل، بشرط واحد".

تجهم وجهها. في تلك اللحظة، بدا وجهها أكثر شبهاً بهاريت وايت من أي وقت مضى. لا ينبغي على المرء أن يعتقد بأن تجهّم امرأة ربما لم تتجاوز الثالثة والعشرين من العمر يمكن أن يكون مرعباً على نحو مميز، ولكن ذلك التجهّم كان كذلك. استعدت للمغادرة. لكن حقيقة أنها ستضطر

إلـــى الدخـــول في تلك العملية المحرجة مرة أخرى مع طبيب آخر لم تكن لتردعها.

سألتني بكياسة مثالية: "وما عساه يكون ذلك الشرط؟"

الآن، جـــاء دوري للـــشعور بـــرغبة في صرف عينيّ عن عينيها، ولكنلــي لسـرت ناظـريها. "أنا أصرّ على معرفة اسمكِ الحقيقي. يمكننا متابعة الحالة ودفع التكاليف نقداً إذا كان ذلك ما تفضلينه، وفي مقدوري أن أطلـب مـن الممرضة إيلاّ دافيدسون كتابة الإيصالات باسم جاين سميث. لكـن إذا كـنّا سنكمل الشهور السبعة المتبقية معاً، فأنا أرغب في منادتكِ باسمكِ الذي تستخدمينه في باقي وجوه حياتكِ".

أنهـيت كلامــي، وراقبـتها وهــي تفكر ملياً. كنت متأكداً من أنها ستنهض، وتشكرني على وقتي الذي منحته لها، وتغادر من دون أن تعود. كـنت سأشعر بخيبة أمل لو حصل ذلك، فقد أُعجبت بها، والأهم من ذلك أنــي أُعجـبت بطريقتها المباشرة في معالجة مشكلة كانت ستجعل تسعين امرأة من أصل مائة حمقاوات، وكاذبات، وخائفات من العار مما يجعل من وضع أية خطة للتعامل مع الوضع أمراً من المستحيلات.

أعـتقد بأن العديد من صغار السنّ اليوم سيجدون هذه الحالة العقلية مضحكة، وبشعة، وحتى أبعد ما تكون عن التصديق. أصبح الناس شديدي التلهف لإظهار انفتاحهم العقلي الذي يقول بأنه يحق لامرأة حامل لا تلبس خـاتم زفـاف أن تعامـل باهتمام يوازي ضعف الاهتمام الذي تلقاه امرأة تلبـسه. أنتم تتذكرون يا سادة أن الوضع كان مختلفاً؛ تذكرون الوقت الذي كان يتم الجمع فيه بين الاستقامة والهرطقة لإيجاد وضع صعب على امرأة أوقعـت نفـسها في "مأزق". في تلك الأيام، كانت المرأة الحبلى المتزوجة امـرأة متألّقة، واثقة من وضعها وفخورة بإنجاز الوظيفة التي أوكلت إليها فـي هذه الحياة. وكانت المرأة الحبلى غير المتزوجة بمثابة بغي في عين العـالم وحـريّ بهـا بأن تكون بغياً في عينها أيضاً. كانت الواحدة منهنّ توصـف، إذا أردنا استعمال عبارة دافيدسون، بأنها *سهلة*، وفي ذلك العالم وذلـك الزمان، لم يكن يجري الصفح عن *السهولة* بسرعة. كانت الواحدة مـنهنّ تضع وليدها في بلدة أو مدينة أخرى. وربما تتناول أقراصاً أو تقفز مـن أحد المباني. وربما تلجأ إلى جزار مختص في إجهاض النساء متسخ الـيدين، أو تسعى إلى إجهاض جنينها بنفسها. وفي زماني، رأيت بوصفي

طبيباً لأربع سيدات توفين أمام عينيّ بسبب خسارتهنّ كميات كبيرة من الدم من جراء حدوث خرق في أرحامهنّ؛ في إحدى الحالات، حدث الخرق بسبب العنق المثلّم لزجاجة رُبطت بمقبض مقشة صغيرة. من الصعب أن نصدق الآن بأن أموراً مثل هذه كانت تحصل في الماضي، ولكنها كانت تحصل فعلاً أيها السادة. كان ذلك ببساطة أسوأ وضع يمكن أن تجد امرأة شابة وافرة الصحة نفسها فيه.

أخيراً، قالت: "حسناً. هذا أمر منصف بما فيه الكفاية. إسمي هو ساندرا ستانسفيلد". ومدّت يدها. مددت يدي وصافحتها وأنا في حالة من الذهول التام. كنت في غاية السعادة لأن إيلاً دافيدسون لم ترَني وأنا أفعل ذلك. صحيح أنها لم تكن ستعلّق على الأمر، ولكنها كانت ستعدّ لي قهوة مرّة في الأسبوع التالي.

ابتسمت، ونظرت إليّ، وقالت بصراحة: "آمل بأن نكون صديقين أيها الطبيب ماكاروني. أنا بحاجة إلى صديق في هذا الوقت بالذات، فأنا أشعر بخوف شديد".

"يمكنني أن أفهم ذلك، وسأحاول أن أكون صديقكِ طالما كان في مقدوري ذلك يا آنسة ستانسفيلد. هل يوجد أي شيء يمكن أن أخدمك فيه الآن؟"

فتحت حقيبة يدها، وأخرجت دفتر قطع وقلماً. فتحت الدفتر، وأمسكت بالقلم ونظرت إليّ. لوهلة مرعبة، اعتقدت بأنها ستسألني عن اسم شخص يجري عمليات إجهاض وعنوانه. ولكنها قالت: "أودّ أن أعرف النظام الغذائي الأنسب الذي عليّ اتّباعه. أقصد الطعام الأصلح للجنين".

ضحكتُ بصوت عالٍ، فنظرتْ إليّ بتعجّب.

قلت لها: "اعذريني، لكن يبدو أنك تعالجين المسألة بأسلوب عملي جداً".

قالت: "أعتقد ذلك. فهذا الطفل بات جزءاً من عملي الآن، أليس كذلك أيها الطبيب ماكارون؟"

"أجل، بالطبع إنه كذلك. لديّ كراس أعطيه لكافة مريضاتي الحوامل. وهو يعرض بالتفصيل المسائل المتعلقة بالنظام الغذائي، والوزن، والشرب، والتدخين والكثير من الأمور الأخرى. أرجوكِ ألاّ تضحكي عندما تنظرين إليه، لأنك ستجرحين شعوري إذا فعلتِ ذلك. والسبب هو أنني كتبته بنفسي".

لقد كتبته بنفسي فعلاً؛ بالرغم من أنه كان أقرب إلى الكتيّب منه إلى الكراس، ومع مرور الوقت، أصبح كتابي الذي حمل العنوان الدليل العملي للحمل والولادة. كنت مهتماً بالتوليد وأمراض النساء في تلك الأيام –ولا أزال كذلك– بالرغم من أنه لم يكن مجالاً تتخصص فيه حينها ما لم يكن لديك الكثير من المعارف في المنطقة التي تعمل فيها. وحتى وإن كنت تملك شبكة من معارف قوية، ربما ستحتاج إلى ما بين عشر سنين وخمس عشرة سنة لكي تكتسب شهرة في هذا المجال. غير أن عملي في سنّ مبكرة في هذا المجال كان سببه الحرب، بحيث لم يكن لديّ وقت أخصصه لشيء آخر. كنت أسلّي نفسي بمعرفة أني سأتعرف على العديد من الأمهات المستقبليات السعيدات، وأشرف على ولادة الكثير من الأطفال الرائعين في سياق عملي العام. وهذا ما حصل فعلاً. ففي النهاية، زاد عدد الأطفال الذين أشرفت على ولادتهم على ألفي طفل؛ وهو عدد يكفي لملء خمسين صفاً مدرسياً.

بقيت أتابع المؤلفات التي تتحدث عن الحمل أكثر من أي موضوع آخر في مهنة الطب العام. وبما أن آرائي كانت قوية وحماسية، كتبت مؤلفي الخاص بدلاً من الإعتماد على الكتب القديمة التي كانت تقدّم للأمهات الصغيرات حينها. لن أسرد عليك المواضيع الكاملة التي تتحدث عنها هذه الكتب – لأنني سأقضي الليل بطوله في ذلك– ولكنني سأقتصر الأمر بالإشارة إلى عدد قليل منها.

كانت الأمهات المستقبليات يطالبن بعدم الوقوف على أقدامهنّ بقدر استطاعتهن، مع عدم المشي لمسافة طويلة باستمرار مخافة حدوث إجهاض أو عسر في الولادة. فالولادة عمل مجهد للغاية، وهذه النصيحة أشبه بالقول للاعب كرة قدم بأن يستعدّ لمباراة كبيرة بالجلوس قدر الإمكان لكي لا يرهق نفسه! النصيحة الأخرى، التي كان يقدّمها الكثير من الأطباء، هي تشجيع الأمهات اللواتي يعانين من الوزن الزائد على التدخين... التدخين! وكان التعليل المنطقي لهذه النصيحة بطريقة مثالية بالشعار التالي "شرب سيجارة أفضل من تناول قطعة من الحلوى". والأشخاص الذين كانوا يؤمنون بأننا بدخولنا القرن العشرين نكون قد دخلنا أيضاً عصر التنوير الطبّي، لم تكن لديهم أدنى فكرة عن الجنون الذي يمكن أن يصل إليه بعض الأطباء. ربما كان من الجيد أيضاً أن الشيب يغزو شعورهم.

أعطيت الآنسة ستانسفيلد كراسي فتصفحته بإمعان ربما لخمس دقائق. طلبتُ إذناً منها بتدخين الغليون، فأذنت لي بذلك من غير أن تنتبه إلى ما قلته ومن غير أن تنظر إليّ. وعندما رفعت رأسها أخيراً، لمحتُ ابتسامة خفيفة على شفتيها. سألتني: "هل أنت راديكالي أيها الطبيب ماكارون؟"

"لماذا تقولين ذلك؟ هل لأنني أنصح الأم الحامل بالمشي بدلاً من ركوب عربات الأنفاق التي تنفث الدخان؟"

"إنها الفيتامينات التي تنصح بتناولها قبل الولادة، بغض النظر عن ماهيتها... والترغيب في السباحة... وأداء التمارين التنفسية. ماذا تعني بالتمارين التنفسية؟"

"سيأتي دورها في وقت لاحق. كلا، أنا لست راديكالياً، بل أنا بعيد كل البعد عن هذا الوصف. في الواقع أنا متأخر مدة خمس دقائق عن مريضتي التالية".

"آه، عفواً". نهضت على قدميها بسرعة، ووضعت الكراس السميك في حقيبتها.

همت بمرافقتها، ولكنها قالت: "لا داعي لذلك".

ارتدت معطفها الخفيف، ونظرت إليّ نظرة مباشرة بعينيها بنّيتي اللون. قالت: "كلا، أنت لست راديكالياً على الإطلاق. وأنا أفترض بأنك هادئ... ومرتاح. أليست هذه الكلمة المناسبة؟"

قلت: "آمل بأن تكون كافية. الوصف أشبه بكلمة مثل تلك. إذا تحدثتِ إلى السيدة دافيدسون، فستعطيك جدول المواعيد. ينبغي أن أراكِ مجدداً في مطلع الشهر القادم".

"لا أعتقد بأنني أشكل مصدر ارتياح لتلك السيدة".

"آه، أنا متأكد من أن ذلك غير صحيح على الإطلاق". لم يسبق أنني كنت كاذباً بارعاً، وسرعان ما زال الدفء الذي كان بيننا. لم أرافقها إلى باب غرفة الاستشارات. "آنسة ستانسفيلد؟"

إلتفتت إليّ ببرودة تريد أن تعرف ماذا أريد.

"هل تنوين المحافظة على الجنين؟"

فكّرت للحظة ثم ابتسمت؛ ابتسامة خفية أنا على قناعة بأن النساء الحوامل فقط يعرفنها. أجابت: "أجل". ثم رحلت.

مــع انــتهاء الــيوم، كــنت قد عالجت توأمين متشابهين من حالتين متشابهتين تناولا طعاماً مسموماً، واستأصلت بثرة، وانتزعت قطعة معدنية رقيقة من عين أحد المرضى، وأحلت واحداً من أقدم أصدقائي إلى مستشفى وايــت ميموريال بعد أن شخصت حالته بأنها سرطان. بحلول ذلك الوقت، نسيت كل شيء يتعلق بساندرا ستانسفيلد. ولكن إيلاّ دافيدسون ذكّرتني بها عندما قالت: "ربما لم تكن عاهرة في نهاية المطاف".

رفعــت رأسي بعد أن كنت أنظر إلى ملف المريض الأخير. كنت أنظر إلــيه وقــد تملّكنــي إحساس بالاشمئزاز الذي يشعر به غالبية الأطباء عندما يدركــون بأنهم عاجزون تماماً، ويتمنون لو أنهم يملكون أختاماً لهذا النوع من الملفات؛ بدلاً من أن يقول الختم تم سداد الحساب أو سُدد الحساب بالكامل، أو انــتقل المريض، لِمَ لا يقول شهادة وفاة. وربما مع إضافة جمجمة وعظمتين متصالبتين فوقه، مثل تلك التي توجد على قوارير السمّ.

"عفواً؟"

"المريــضة الآنــسة جــاين سميث. قامت بعمل فريد من نوعه بعد فحــصها هــذا الصباح". بدا واضحاً من مجموعة رأس السيدة دافيدسون وفمها أنه كان صنيعاً لاقى استحساناً منها.

"وما هو هذا الشيء؟"

"عــندما أعطيتها بطاقة المواعيد، طلبت منّي أن أجمع كامل نفقاتها، بما في ذلك تكاليف عملية الولادة ومدة البقاء في المستشفى".

كــان ذلك أمراً فريداً من نوعه، حسناً. لا تنسوا يا سادة أن ذلك كان فــي العام 1935، والسيدة ستانسفيلد أعطت كل انطباع يوحي بأنها تعيش مستقلة. هل كانت ميسورة الحال، أو حتى ثرية؟ لا أعتقد ذلك. كانت ذكية في اختيار ثوبها، ونعلها، وقفازيها، ولكنها لم تكن تضع أي حُليّ؛ ولا حتى الحليّ البسيطة. كما كانت تعتمر قبعة ضيقة لم تعد سائدة بالتأكيد.

سألتها: "هل قمت بذلك؟"

نظــرت إليّ السيدة دافيدسون كما لو أنني ربما فقدت صوابي. "هل فعلتُ ذلك؟ بالطبع فعلت ذلك. قامت بتسديد المبلغ كاملاً ونقداً".

هــذه الكلمــة الأخيرة، التي فاجأت السيدة دافيدسون (بطريقة سارة بالطبع) كما هو واضح، لم تفاجئني على الإطلاق. فالشيء الوحيد الذي لا يمكن للآنسة جاين سميث أن تقوم به في هذا العالم هو كتابة الشيكات.

"أخرجتْ رزمة من الأوراق النقدية من حقيبتها، وأحصت المال، ووضعته على طاولتي. ثم وضعت وصل استلام المبلغ وما تبقى لديها من مال في حقيبتها، وتمنت لي قضاء يوم طيّب. وهذا ليس بالأمر السيئ، وخصوصاً عندما تتذكر كيف أننا اضطررنا إلى ملاحقة بعض من هؤلاء الأشخاص الذين يوصفون بأنهم *محترمون* لحملهم على سداد فواتيرهم".

شعرت بالكدر لسبب معين. لم أشعر بالارتياح لأن السيدة ستانسفيلد فعلت ذلك، ومن السيدة دافيدسون التي شعرت بسعادة كبيرة ورضى تام عن هذا الصنيع، ومن نفسي، لسبب ما لم أستطع تحديده حينها، ولا أزال كذلك لغاية الآن. يوجد أمر فيها جعلني أشعر بأنني صغير.

سألتها: "ولكنها لا تستطيع الآن دفع مدة إقامتها في المستشفى، أليس كذلك؟" كان ذلك أمراً سخيفاً لا يستحق التعليق عليه، ولكن ذلك كل ما استطعت التوصل إليه في تلك اللحظة للتعبير عن استيائي وإحباطي. "ففي النهاية، نحن لا نعرف المدة التي ستحتاج إلى البقاء فيها في المستشفى. هل تتوقعين بالغيب الآن يا إيلاّ؟"

"قلت لها ذلك، ولكنها سألتني عن متوسط مدة الإقامة في المستشفى بعد إجراء عملية لا ينجم عنها مضاعفات. أجبتها بأن المدة تبلغ ستة أيام. أليس ذلك صحيحاً أيها الطبيب ماكارون؟"

كان عليّ الإعتراف بأن تقديرها صحيح.

"قالت بأنها ستدفع كلفة الأيام الستة، وفي حال أقامت في المستشفى مدة أطول، فستسدد الفرق، وإذا.."

أنهيت كلامها بتبرّم: "وإذا كانت المدة أقصر، سنعيد المال الزائد". قلت في نفسي: *اللعنة على هذه المرأة على أية حال؛* ثم ضحكت. كانت امرأة جريئة، ولا يمكن لأحد أن ينكر ذلك.

سمحت دافيدسون لنفسها بالتبسم... أنا أحاول أن أتذكر تلك الابتسامة. قبل ذلك اليوم، كنت سأراهن بحياتي على أنني لن أرى السيدة دافيدسون، التي هي واحدة من أكثر النساء اللواتي عرفتهم *احتشاماً*، تبتسم بحنان بالرغم من اعتقادها أن المرأة حملت خارج إطار الزوجية.

"شجاعة؟ لست أدري أيها الطبيب. لكنها تعرف ماذا تريد. وهذا أمر أكيد".

مـرّ شـهر، وجاءت السيدة ستانسفيلد إلى العيادة في الوقت المحدد تماماً. كانت ترتدي ثوباً أزرق اللون استطاعت أن تضفي عليه حساً بالأصالة، بالرغم من حقيقة أنه بدا واضحاً أنها اختارته من رف مليء بالعشرات من أمثاله. لم يكن خفها يتناسب معه، وكان نفس الخف البني الذي شاهدته في الزيارة السابقة.

أجريت فحصاً دقيقاً، ووجدت أن كل شيء يسير بشكل طبيعي تماماً. قلت لها ذلك، فشعرت بالسرور وقالت: "لقد وجدت الفيتامينات التي تُعطى قبل الولادة أيها الطبيب ماكارون".

"حقاً؟ هذا أمر جيد".

لمعت عيناها بطريقة شيطانية. قالت: "لقد نصحني الصيدلاني بعدم تناولها".

قلت: "عافاني الله من مدقّات الهاون". ضحكت بعد أن أخفت وجهها براحتي يديها؛ إيماءة طفولية بدرت منها في حالة اللاوعي. "لم يسبق أن التقيت بصيدلاني ولم يكن طبيباً محبطاً، وجمهورياً. إن الفيتامينات التي تُعطى قبل الولادة أقراص حديثة، ولذلك يُنظر إليها بشيء من الريبة. هل عملتِ بنصيحته؟"

"كلا، بل عملت بنصيحتك. أنت طبيبي".

"شكراً لك".

"لا داعي إلى الشكر". ثم نظرتْ إليّ مباشرة بعد أن توقفت عن الضحك وقالت: "أيها الطبيب ماكارون، متى ستبدأ علامات الحمل بالظهور؟"

"لن تظهر قبل شهر أغسطس/آب، وربما لغاية شهر سبتمبر/أيلول في حال اخترتِ ارتداء عباءات... فضفاضة".

"شكراً لك". أمسكت بحقيبتها، ولكنها لم تنهض مباشرة بعد ذلك. اعتقدت بأنها ترغب في الحديث... ولم أعرف متى أو كيف أبدأ.

"هل يمكنني الاستنتاج بأنكِ امرأة عاملة؟"

أومأت برأسها وقالت: "أجل، أنا أعمل".

"هل يمكنني أن أسأل أين تعملين؟ إذا كنتِ تفضلين عدم.."

ضحكت بطريقة جافة وخالية من المرح، ومختلفة عن القهقهة بقدر اختلاف الليل عن النهار. "في متجر كبير. ما هو المكان الآخر الذي يمكن

أن تعمل فيه امرأة غير متزوجة في المدينة؟ أنا أبيع العطورات للسيدات السمينات اللواتي يغسلن شعرهنّ ثم يسرحنه على شكل موجات".

"إلى متى ستستمرّين في العمل هناك؟"

"إلى أن يبدأ الناس بملاحظة حالتي الدقيقة. أعتقد بأنه سيُطلب منّي الرحيل عندئذٍ، حتى لا أزعج أياً من السيدات السمينات. ربما سيقف شعرهنّ من صدمة الحاجة إلى انتظار امرأة حامل خارج إطار الزوجية".

فجأة، اغرورقت عيناها بالدموع، وبدأت شفتاها ترتجفان، فبحثت عن منديل. ولكن دموعها لم تسل على خديها؛ لم أرَ أثراً ولو لدمعة واحدة. امتلأت عيناها بالدمع للحظة، ثم أغمضتهما مجدداً. قضمت على شفتيها... ثم بسطتهما مجدداً. قررت ببساطة أنها لن تفقد السيطرة على عواطفها... ولم تفقدها فعلاً. كان ذلك أمراً ملفتاً تجدر مراقبته.

قالت: "أنا آسفة. لقد كنت لطيفاً معي. وأنا لن أستطيع ردّ جميلك بما سيعتبر قصة شائعة جداً".

نهضت استعداداً للرحيل، فنهضت معها.

قلت: "أنا لست مستمعاً سيئاً. ولدي بعض الوقت، فقد ألغت مريضتي التالية موعدها".

قالت: "كلا. شكراً لك".

قلت: "حسناً. لكن هناك أمر آخر".

"وما هو؟"

"ليس من سياستي الطلب إلى مريضاتي سداد تكاليف خدماتي قبل انتهائي من تقديمها. آمل في حال كنت... أعني إذا شعرتِ بأنك ترغبين في... أو في حال احتجتِ إلى..." تلعثمتُ فلذت بالصمت.

"أنا أعيش في نيويورك منذ أربع سنين أيها الطبيب ماكارون، وأنا مقتصدة بطبيعتي. بعد أغسطس/آب -أو سبتمبر/أيلول- سأضطر إلى العيش على مدخراتي إلى أن أتمكن من العودة إلى العمل مجدداً. إنه ليس بالمبلغ الكبير، وهو ما يجعلني أشعر بالخوف في الليل في بعض الأحيان".

نظرت إليّ من غير أن ترفع عينيها عني.

أضافت: "يبدو لي أنه من الأفضل- والآمن- أن أسدد تكاليف الولادة أولاً وقبل كل شيء، لأن طفلي هو شغلي الشاغل الآن، ولأني سأتعرض لإغراءات كبيرة في ما بعد لإنفاق ذلك المال".

قلـت: "حسناً، لكن أرجو أن تتذكري بأنني أنظر إلى المبلغ على أنه سُـدّد قـبل حـساب مجمـوع التكاليف. وفي حال احتجتِ إلى المال، فلا تشعري بالحرج من طلبه".

عادت النظرة العفريتية إلى عينيها: "لأخرج التنّين المختبئ داخل السيدة دافيدسون مجدداً؟ أنا لا أعتقد بأني سأفعل ذلك. والآن أيها الطبيب.."

"هل تنوين مواصلة العمل لأطول فترة ممكنة؟"

"أجل أنا مضطرة إلى فعل ذلك. لماذا تسأل؟"

قلت: "أعتقد بأني سأخيفكِ بعض الشيء قبل أن تغادري العيادة".

اتـسعت عيـناها قليلاً وقالت: "لا تفعل ذلك، فأنا أشعر بالكثير من الخوف أصلاً".

"وهـذا هـو الـسبب الـذي يدفعني إلى فعل ذلك. اجلسي يا آنسة ستانسفيلد". وعندما لم تحرك ساكناً، قلت: "أرجوكِ".

جلست بعد تردد.

قلت لها: "أنتِ في وضع فريد لا تُحسدين عليه". وجلستُ عند زاوية طاولة مكتبي. "أنتِ تتعاملين مع الوضع عن طيب خاطر".

بدأتْ بالحديث، ولكنني رفعت يدي لأشير إليها بأن تتوقف.

"هـذا جـيد. وأنا أحيّيك على موقفكِ هذا. ولكني أكره رؤيتك وأنتِ تلحقـين الأذى بطفلـكِ بـسبب قلقكِ على أمنكِ المالي. كان لديّ مريضة واصـلت العمل شهراً بعد آخر، بالرغم من نصيحتي الصارمة بوجوب أن تفعـل العكـس، وبقيت تشدّ الطوق عليه بلباسها أكثر وأكثر. كانت امرأة متكبرة، غبية، متعبة، وأنا لا أعتقد بأنها أرادت الطفل على كل حال. أنا لا أؤيـد الكثيـر من تلك النظريات التي تتحدث عن اللاوعي، والتي يبدو أن الجميع باتوا يناقشونها هذه الأيام، ولكنني شرحتها لها. ويمكنني القول بأنها -أو جزءاً منها- كان يحاول قتل الطفل".

قالت بوجه بارد: "وهل فعلت ذلك؟"

"كـلا. ولكن الطفل وُلد وهو يعاني من إعاقة؛ ونحن نعرف الأسباب التي تؤدي إلى هذا التخلف، ولكن ربما كانت هي من تسبب به".

قالـت بـصوت منخفض: "فهمت ما ترمي إليه. أنت لا تريدني أن أشدّ حزامي على خصري لكي أتمكن من العمل شهراً آخر أو ستة أسابيع أخرى. أعترف بأن الفكرة خطرت ببالي. ولذلك، أنا أشكرك على اهتمامك".

فـي هذه المرّة، رافقتها وصولاً إلى الباب. كنت أودّ أن أسألها عن مقـدار المال الذي تبقّى في مدخرتها، ومتى سينفد منها المال. لم يساورني شك في أنها لن تجيب عن هذا السؤال، كنت متيقناً من ذلك تماماً. ولذلك، ودّعـتها ونكـرت نكتة عن فيتاميناتها. رحلت، ووجدت نفسي غارقاً في التفكير في اللحظات الحرجة التي ستمرّ فيها في الشهر القادم، و...

عـند هـذه الـنقطة، قاطع يوهانسن حديث ماكارون. كانا صديقين قديمين، وأعتقد بأن هذا ما أعطاه الحق في طرح السؤال الذي خطر ببالنا جميعاً.

"هل أحببتها يا إملين؟ هل هذا هو جوهر القصة، حديثك عن عينيها، وابتسامتها، وكيف أنك كنت تفكر في اللحظات الحرجة التي مرّت فيها؟"

اعتقدت بأن ماكارون ربما شعر بالانزعاج من هذه المقاطعة، ولكن الحـال لم يكن كذلك. قال: "أنت محقّ في طرح هذا السؤال". وتوقف وهو ينظر إلى النار. بدا أنه سيغمض عينيه من النعاس. ثم انفجرت عقدة جافة فـي قطعة خشب، وأطلقت شرارات من المدفأة، فنظر ماكارون حوله بدءاً بيوهانسن ثم إلى باقي الحاضرين.

"كلا، لم أقع في غرامها. وما قلته من أشياء عنها أشبه بالأشياء التي يلاحظهـا رجـل علـى وشـك أن يقع في الغرام؛ مثل عينيها، وثيابها، وضحكها". أشعل غليونه بولاعة خاصة بهذا الغرض، ومجّ الدخان منه إلى أن تحـوّل إلى كتلة من التبغ الملتهب. ثم نفخ الدخان الذي دار ببطء حول رأسه على شكل غشاء معطر.

"أعجـبت بها، وهذا كل ما في الأمر. كان إعجابي بها يزداد مع كل زيـارة كانـت تقوم بها لعيادتي. أعتقد بأن بعضكم شعر بأنها قصة حب قـضت عليها الظروف. لا شيء يمكن أن يكون أبعد عن الحقيقة من ذلك. امـتدت قصتها على مدى النصف الثاني من ذلك العام. وعندما تستمعون إلى قصتها يا سادة، أعتقد بأنكم ستوافقون على أن كل جزء منها كان أمراً شـائعاً جـداً على حدّ قولها. لقد نزحت إلى المدينة مثل آلاف من الفتيات الأخريات، قدمت من بلدة صغيرة...

فـي أيوا أو نبراسكا، وربما في منيسوتا –لم أعد أذكر. مثّلت الكثير مـن الأعمـال الدرامية في الثانوية العامة وعلى المسرح العام في بلدتها الصغيرة، وجاءت إلى نيويورك لمحاولة إيجاد عمل لها في التمثيل.

كانت عملية حتى في موضوع عملها؛ بقدر ما يسمح به طموحها العملي وغير العملي على كل حال. قالت لي إنها جاءت إلى نيويورك لأنها لم تكن تؤمن بالفكرة غير المعلنة للمجلات السينمائية أنه يمكن لأي فتاة قدمت إلى هوليوود أن تصبح نجمة سينمائية، وأنها ربما تشرب مشروباً غازياً في يوم من الأيام وتمثل أمام غابيل، أو ماكموري في اليوم الذي يليه. قالت إنها جاءت إلى نيويورك لأنها اعتقدت بأنه ربما يكون من الأسهل أن تجد لها عملاً في المدينة... وأنا أعتقد بأنها جاءت لأنها كانت مهتمة بالمسرح الحقيقي أكثر من أي شيء آخر.

حصلت على وظيفة في بيع العطورات في أحد المتاجر المتنوعة الضخمة، واشتركت في صفوف لتعليم التمثيل. كانت امرأة تتحلى بالذكاء والعزيمة القوية، ولكنها كانت من صنف البشر مثل أي شخص آخر. كما كانت وحيدة أيضاً، وحيدة بطريقة لا يدرك حقيقة معناها إلاّ الفتيات الوحيدات اللواتي جئن من البلدات المنتشرة في الغرب الأوسط. إن الحنين إلى الوطن ليس شعوراً غامضاً، وشوقاً إلى الماضي وشعوراً جميلاً، بالرغم من أن هذه هي الحقيقة التي تخطر بأذهاننا عند الحديث عنه. يمكن أن يكون شيفرة ماضية، لا مجرّد خيال في المجاز وحسب، بل وفي الحقيقة أيضاً. يمكن أن يغيّر طريقة المرء في النظر إلى العالم، بحيث أن الوجوه التي يراها في الشارع لا تبدو مبتذلة وحسب، بل وبشعة أيضاً... وربما خبيثة أيضاً. الحنين إلى الوطن مرض حقيقي؛ إنه صداع النبتة التي اقتُلعت من جذورها.

على الرغم من أن السيدة ستانسفيلد كانت مثيرة للإعجاب، وعلى الرغم من تحلّيها بالعزيمة، لم تكن تملك مناعة تجاه هذا المرض، وما يتبع ذلك طبيعي جداً بحيث لا يحتاج إلى من يشير إليه. كان هناك شاب يحضر صفوف تعليم فنّ التمثيل. لم تكن تحبه، ولكنها احتاجت إلى صديق-بعد أن أصبحت حاملاً، اكتشفت بأنه لم يكن صديقاً وأنه لن يكون كذلك في يوم من الأيام- ثم وقعت حادثتان، حادثتان جنسيتان. اكتشفت أنها حامل فأخبرت ذلك الشاب، فقال لها بأنه سيقف بجانبها ويقوم "بالعمل اللائق". ولكنه رحل بعد أسبوع، من غير أن يترك عنوان مسكنه الجديد. وكان ذلك الوقت الذي قدمت فيه إلى عيادتي.

عندما أصبحت في شهرها الرابع، عرفت السيدة ستانسفيلد على طريقة التنفس؛ والتي تدعى اليوم طريقة لاميز. في تلك الأيام، كما تعرفون، لم يكن أحد قد سمع عن السيد لاميز.

"في تلك الأيام" -العبارة التي تتكرر مرّة بعد أخرى. أنا أعتذر عن ذلك ولكنني عاجز عن تجنّب الإشارة إليها، ولذلك فإن معظم ما أخبرتكم عنه أو ما سأخبركم عنه حدث على الوجه الذي حدث فيه لأنه حدث "في تلك الأيام".

إذن، "في تلك الأيام"، منذ خمسة وأربعين عاماً، كانت زيارة الغرف التي تُجرى فيها عمليات الولادة في أية مستشفى أميركية كبيرة أشبه بزيارة بيت للمجانين. كانت النساء يبكين بشدة، وكنّ يصرخن ويتمنّين لو يمتن. كنّ يصرخن ويقلن بأنهنّ لا يستطعن تحمّل هذا الألم، كنّ يبتهلن إلى الله لكي يعفو عن سيئاتهنّ، ويطلقن سيلاً من الشتائم والكلمات البذيئة التي لم يكن أزواجهنّ وآباؤهن يعتقدون بأنهنّ يعرفنها. يمكن اعتبار كل ذلك من جملة المظاهر المقبولة، بالرغم من حقيقة أن غالبية النساء في العالم يلدن بصمت شبه كامل، إذا استثنينا الأصوات المصاحبة لكل ثانية من عملية المخاض.

يتحمل الأطباء مسؤولية عن جزء من هذه الهستيريا، ويؤسفني أن أقول ذلك. فالقصص التي تسمعها المرأة الحامل من صديقاتها وقريباتها اللواتي سبق أن مررن بعملية الولادة تسهم في هذه الهستيريا أيضاً. صدقني، إذا قيل لك بأن تجربة ما ستؤلمك، فستؤلمك. معظم الإحساس بالألم يكمن في العقل، وعندما تتشرّب المرأة بفكرة أن الولادة عملية مؤلمة إلى حدّ بعيد- عندما تحصل على هذه المعلومة من أمّها، وأخواتها، وصديقاتها المتزوجات، وطبيبها- تصبح تلك المرأة مهيّأة للإحساس بألم فظيع.

حتى بعد أن مضى على مزاولتي مهنة الطبّ ستة أعوام، أصبحت معتاداً على رؤية سيدات يسعين إلى التغلب على مشكلة ذات حدين. فإلى جانب حقيقة أنهنّ حاملات ويتعين عليهنّ التخطيط للمولود الجديد، هناك حقيقة -رأت الغالبية منهنّ أنها حقيقة- وهي أنهنّ دخلن وادي شبح الموت. كان العديد منهنّ يحاولن ترتيب أوضاعهنّ الأسرية بحيث إنه في حال توفين أثناء الوضع، يكون في مقدور أزواجهنّ متابعة حياتهم بدونهنّ.

إننا لسنا في الزمان ولا المكان المناسبين لإعطاء درس في الولادة، ولكن عليكم أن تعرفوا بأن عملية الولادة في الفترة البعيدة التي سبقت "تلك الأيام"، كانت خطرة جداً في البلدان الغربية. لكن بدأت ثورة في

الممارسات الطبية في العام 1900 تقريباً، وجعلت العملية أكثر أمناً، لكنّ عدداً محدوداً جداً من الأطباء كلّف نفسه عناء إخبار الأمهات المستقبليات بذلك. وعلى ضوء ما تقدم، هل يمكن للمرء أن يتعجب من حقيقة أن غالبية غرف الولادة كانت تشبه الجناح التاسع في بيليفيو؟ لدينا سيدات ضعيفات، حان دورهنّ أخيراً في المرور بعملية وُصفت لهنّ بعبارات غامضة وحسب، بسبب آداب اللياقة التي كانت سائدة في العصر الفيكتوري في تلك الأيام. لدينا سيدات بدأ محرك الولادة لديهنّ أخيراً بالعمل بقدرته القصوى. وهنّ يشعرن بأنهنّ محاصرات بين النذر بالشرّ والعجب الذي يمكن تفسيره بأنه ألم لا يطاق، بحيث تشعر الغالبية منهنّ بأنهنّ سيمتن بعد وقت قصير ميتة الكلاب.

في سياق قراءتي لموضوع الحمل، اكتشفت مبدأ الولادة الصامتة والفكرة من طريقة التنفس. ينجم عن الصراخ تبديد الطاقة التي من الأفضل أن تُستخدم في إخراج الجنين، وهو يضع المرأة في حالة ضعف شديد، وهذه الحالة تُدخل الجسم في حالة طوارئ لا داعي لها؛ بحيث تعمل الغدتان الكظريتان بأقصى طاقتهما، ويرتفع معدل التنفس وضربات القلب. كان من المفترض أن تساعد طريقةُ التنفس الأم على تركيز انتباهها على الحالة التي تمرّ فيها والتغلّب على الألم عبر الإستفادة من الموارد الخاصة بجسمها.

كان يجري استخدام هذه الطريقة على نطاق واسع في ذلك الوقت في الهند وأفريقيا. وفي أميركا، استخدمتها قبائل الشوشون، والكيوا، والميكماك؛ ولطالما استخدمها شعب الأسكيمو أيضاً. لكن وكما أظنكم تعتقدون، لم يأبه غالبية الأطباء الغربيين لها. وأذكر أن أحد زملائي – وكان رجلاً ذكياً– أعاد كراس الحمل إليّ في خريف العام 1931 بعد أن علّم بالقلم الأحمر على الفقرة الكاملة التي تتحدث عن طريقة التنفس. وكتب على الهامش بأنه لو أراد أن يتعرف على "خرافات الزنوج"، لذهب إلى كشك الصحف، واشترى نسخة من *الحكايات الغريبة*!

حسناً، لم أحذف ذلك القسم من الكراس كما أشار إليّ في نصيحته، ولكنني جمعت بين النتائج والطريقة؛ هذا أبسط ما يمكن للمرء قوله. فهناك سيدات استعملن الطريقة بنجاح كبير، وهناك سيدات أخريات بدا أنهنّ استوعبن الفكرة تماماً من حيث المبدأ، ولكنهنّ فقدن القدرة تماماً على التقيد

بهـــا حالما بدأ ألم الإنقباضات يقوى ويشتد. وجدت في معظم الحالات أن الفكـــرة برمتها تعرضت للتشويه عن حسن نية على يد صديقات، وعلى يد قـــريبات لـــم يـــسبق لهـــنّ أن سمعن عنها، وبالتالي لم يكن في مقدورهنّ التصديق بأنها يمكن أن تنجح فعلاً.

لـــستندت الطـــريقة إلى الفكرة التي تقول إنه على الرغم من أنه لا يمكن أن يكون مخاضان متشابهين في الخصائص، فهما شديدا الشبه بوجه عـــام. تـــوجد أربـــع مراحل: المخاض الإنقباضي، والمخاض المتوسط، والـــولادة، والدفـــع بعـــد الـــولادة. الإنقباضات عبارة عن تقلّص تام في العـــضلات البطنـــية والمحيطة بمنطقة الحوض، وغالباً ما تشعر الأم التي تنتظر مولوداً بها بدءاً من الشهر السادس. تتوقع العديد من السيدات اللواتي يحملن لأول مرة شيئاً بغيضاً مثل حدوث تشنجات في الأمعاء، ولكن يقال لي إن الأمر ألطف بكثير؛ إحساس جسماني قوي ربما يتحول إلى ألم مثل الألـــم الـــناجم عـــن حدوث تصلّب في الذراع أو الرّجل. تبدأ المرأة التي تـــستخدم طـــريقة التنفس باستنشاق الهواء في سلسلة من الدفعات القصيرة والمحـــددة، ثم إخراج الهواء عندما تشعر بحدوث انقباض. يتم إخراج كل نفس في نفخة، كما لو كانت تنفخ في مزمار.

خـــلال مرحلة المخاض المتوسط، عندما تبدأ الحامل بالشعور بمزيد من الإنقباضات المؤلمة كل خمس عشرة دقيقة تقريباً، تنتقل إلى أخذ النفس على شكل سلسلة من الدفعات الطويلة متبوعة بإخراج النفس في سلسلة من الزفـــرات الطويلة أيضاً؛ إنها طريقة عدّاء الماراتون في التنفس عندما يبدأ المـــرحلة الأخيـــرة من السباق. وكلما زاد الألم الناجم عن الإنقباض، كلما طالت مدة استنشاق الهواء وإخراجه. وقد وصفت هذه المرحلة في كراسي بأنها مرحلة *ركوب الأمواج*.

المـــرحلة الأخيـــرة التـــي ينبغـــي أن نهتم بها في هذا المقام أسميها *المـــرحلة السيارة*، وغالباً ما يسميها مدرّبو لاميز اليوم مرحلة "تشو-تشو" مـــن التـــنفس. يتـــرافق المخاض الأخير مع آلام يمكن وصفها في الغالب بالعمـــيقة والقاسية. وهي تأتي مصحوبة برغبة لا تقاوم من جانب الأم في الدفـــع... لإخـــراج الجنين. هذه هي المرحلة، أيها السادة، التي يصل فيها المحـــرك المدهش والمخيف إلى أعلى مستويات الأداء. يتسع عنق الرحم بالكامل، ويبدأ الطفل رحلته القصيرة عبر قناة الولادة، وإذا أمكنك مشاهدة

هذه العملية، سترى يافوخ الطفل على مسافة سنتيمترات من الهواء الخارجي. الآن، تبدأ الأم التي تستخدم طريقة التنفس بالاستنشاق والزفير في نفخات حادّة بين شفتيها، من غير أن تملأ رئتيها وبطريقة خاضعة للسيطرة بالكامل. إنه الصوت الذي يصدره الطفل عندما يحاكي شيئاً في المرحلة السيارة يعمل بالدفع البخاري.

يعود كل ما تقدم بتأثير مفيد على الجسم؛ تبقى نسبة الأوكسجين في دم الأم مرتفعة بدون أن تضع أجهزتها في حالة طوارئ، وتبقى واعية ومستيقظة، وقادرة على طرح الأسئلة والإجابة عنها، وقادرة على تلقّي التعليمات. لكن النتائج الذهنية لطريقة التنفس هي الأكثر أهمية بالتأكيد. فالأم تشعر بأنها شاركت بفاعلية في ولادة طفلها؛ أي أنها بطريقة ما كانت تعمل على توجيه العملية. تشعر بأنها تسيطر على التجربة... وتسيطر على الألم.

يمكنكم أن تفهموا بأن العملية برمّتها تعتمد على الحالة الذهنية للمرأة الحامل. يمكن وصف طريقة التنفس بأنها دقيقة على نحو فريد، وفي حال عانيت فيها من إخفاقات، ففي إمكاني شرح السبب بهذه الطرْيقة؛ القناعات التي يزرعها الطبيب لدى المرأة الحامل تتغلّب عليها قريباتها اللواتي يرفعن أيديهنّ فزعاً عندما يسمعن بهذه الممارسة الصحيّة.

من هذا المنظور على الأقل، كانت الآنسة ستانسفيلد مريضة مثالية. فلم يكن لديها قريبات ولا صديقات لإقناعها بالعدول عن استخدام طريقة التنفس (ولكي أكون منصفاً، يتعين عليّ أن أضيف بأني أشك في أن أحداً كان في استطاعته إقناعها بالعدول عن أي شيء بعد أن تعزم على القيام به) بعد أن اقتنعت بها وتوصلت إلى قناعة بجدواها.

سألتني عندما حدثتها عن الطريقة لأول مرة: "إنها أشبه بالتنويم المغناطيسي، أليس كذلك؟"

وافقتها الرأي بكل سرور وقلت: "بالضبط، لكن يتعين عليك ألاّ تنظري إليها على أنها خدعة، وإلاّ فلن تنجح العملية عندما تبلغ مراحلها الحرجة".

"أنا لا أنظر إليها على أنها خدعة على الإطلاق. أنا ممتنّة جداً لك. وسأتمرّن عليها باستمرار أيها الطبيب ماكارون". كانت من صنف النساء اللواتي لم تُخترع طريقة التنفس إلاّ لهنّ. وعندما قالت لي بأنها ستتدرّب

علـيها، لم تقل سوى الحقيقة. لم يسبق أن رأيت أحداً اعتنق فكرة ما بهذه الحماسة... لكن يتعين القول إن طريقة التنفس لامست مزاجها بشكل فريد. هـناك نـساء ورجـال قابلون للتعلّم في هذا العالم وهم يعدّون بالملايين، والـبعض مـنهم أنـاس طيبون. لكن هناك آخرون تتوق أيديهم للإمساك بأرواحهم، وكانت الآنسة ستانسفيلد واحدة من هؤلاء.

عـندما أقـول بأنها آمنت بطريقة التنفس بشكل مطلق، فأنا أعني ما أقـول... وأعـتقد بأن قصة يومها الأخير في المتجر التنوعي حيث كانت تبيع العطور ومساحيق التجميل تثبت كلامي.

جاءت نهاية مدة عملها المربح أخيراً في أواخر شهر أغسطس/آب. كانـت الآنسة ستانسفيلد امرأة شابة نحيلة الجسم وفي حالة صحية ممتازة، وكـان هذا بالطبع طفلها الأول. وأي طبيب سيقول لك بأنه من الممكن ألاّ "تظهـر" علامات الحمل خلال الشهور الخمسة، وربما الستة الأولى. لكن سيأتي يوم يظهر فيه كل شيء دفعة واحدة.

جـاءت إلـى العـيادة مـن أجـل الفحص الشهري في الأول من سـبتمبر/أيلـول وهي تضحك بطريقة تبعث على الحزن، وقالت لي بأنها اكتشفت بأن لطريقة التنفس استخداماً آخر.

سألتها: "ما هو هذا الإستخدام؟"

قالـت: "إنهـا أفضل من العدّ للعشرة عندما تشعر بالغضب من أمر معيّن". كانت عيناها ترقصان. "بالرغم من أن الناس ينظرون إليك كما لو كنت مجنوناً عندما تبدأ بالشهيق والزفير على ذلك النحو".

حكـت لي الحكاية بطريقة تبعث على السرور. فقد ذهبت إلى عملها كالمعـتاد يوم الاثنين الماضي. وكل ما يمكنني التفكير فيه هو أن التحول المفاجـئ مـن امرأة شابة نحيلة الجسم إلى امرأة شابة أبرز بوضوح أنها حامـل- يمكن أن يحدث هذا التحول بطريقة فجائية مثل تحول النهار إلى لـيل فـي المـناطق الاستوائية- حدث يوم عطلة نهاية الأسبوع. أو ربما قررت المشرفة عليها بأن شكوكها لم تعد شكوكاً.

قالت لها تلك المرأة، وتدعى السيدة كيلي، ببرودة: "أريد أن أراكِ في مكتبـي فـي فترة الاستراحة". كانت في السابق صديقة للآنسة ستانسفيلد، وعرضت عليها صور ولديها، وكلاهما في الثانوية العامة، وتبادلا وصفات إعـداد الطعام في مرحلة من المراحل. كانت السيدة كيلي تسألها دائماً إن

كانت قد التقت *بشاب لطيف*. لكن لم يعد لتلك اللطافة والصداقة وجود الآن. وعندما توجهت إلى مكتب السيدة كيلي في فترة الاستراحة، قالت لي الآنسة ستانسفيلد بأنها عرفت ماذا ينبغي عليها أن تتوقع.

قالت تلك المرأة التي كانت مرة لطيفة بعبارات مقتضبة: "أنتِ واقعة في مشكلة".

قالت الآنسة ستانسفيلد: "أجل. هذا ما يقوله بعض الناس".

تحول لون خدّي السيدة كيلي إلى اللون الأحمر وقالت: "لا تتذاكي عليّ أيتها المرأة الشابة. من مظهر بطنكِ يمكنني أن أقول بأنكِ بنصف ذلك الذكاء".

يمكنني أن أتخيل المرأتين في ذهني فيما كانت تحكي لي حكايتها؛ كانت الآنسة ستانسفيلد تركّز ناظريها على السيدة كيلي، من غير أن ترفع عينيها عنها، أو تنتحب، أو تظهر أمارات الخجل بأية طريقة. وأعتقد بأن مفهومها للمشكلة التي وقعت فيها كان أكثر عملانية من مفهوم المشرفة عليها، إذا أخذنا بعين الاعتبار ولديها اللذَين قاربا البلوغ وزوجها المحترم الذي يملك محلاً للحلاقة وأحد مناصري الحزب الجمهوري.

قالت السيدة كيلي بمرارة: "يتعين عليّ القول بأنكِ أظهرتِ القليل من الخجل في الطريقة التي خدعتني فيها".

"أنا لم أخدعكِ. ولم يأتِ أحد على الإشارة إلى حملي حتى اليوم". ونظرت إلى السيدة كيلي بطريقة ملفتة وسألتها: "كيف يمكنكِ أن تقولي بأني خدعتكِ؟"

صاحت السيدة كيلي: "اصطحبتكِ إلى منزلي، واستبقيتكِ على مائدة العشاء... مع ولديّ". نظرت إلى الآنسة ستانسفيلد باشمئزاز مطلق.

في هذه اللحظة بدأت الآنسة ستانسفيلد تشعر بالغضب. قالت لي إنها لم يسبق لها أن شعرت بالغضب في حياتها كما في تلك اللحظة. فهي لم تكن غير مدركة لردّ الفعل الذي يمكنها توقعه عندما يفتضح سرّها، لكن وكما سيشهد كل واحد منكم أيها السادة، يمكن أن يكون الفارق بين النظرية الأكاديمية والتطبيق العملي ضخماً على نحو مذهل في بعض الأحيان.

قبضت الآنسة ستانسفيلد يديها وقالت: "إذا كنتِ تشيرين إلى أنني حاولت إغواء ولديكِ أو أنني قد أعمد إلى ذلك، فهذا أقذر وأفحش شيء سمعته في حياتي".

رجع رأس السيدة كيلي إلى الوراء كما لو تعرّضت لصفعة. واختفى ذلك اللون الأحمر من خديها، تاركاً بقعتين ورديتين صغيرتين. نظرت كل منهما إلى الأخرى من فوق طاولة مكتب وُضعت عليها عينات من العطور في غرفة فاحت منها رائحة الورود على نحو غامض. قالت الآنسة ستانسفيلد بأنها كانت لحظة بدت أطول بكثير مما كانت عليه فعلاً.

ثم فتحت السيدة كيلي درج المكتب، وأخرجت شيكاً أصفر اللون أرفقت به قصاصة ورق وردية اللون. كشرت عن أسنانها، وبدا أنها تقضم كل كلمة تقولها: "مع وجود مئات الفتيات الشريفات اللواتي يبحثن عن عمل في هذه المدينة، من الصعب أن أعتقد بأننا بحاجة إلى مومس مثلكِ بين موظفينا يا عزيزتي".

قالت لي بأن كلمة عزيزتي الأخيرة هي التي رفعت غضبها إلى أعلى المستويات. بعد لحظة، سقط فك السيدة كيلي، واتسعت عيناها عندما انهالت عليها الآنسة ستانسفيلد بالضرب بيديها المجتمعتين اللتين كانتا أشبه بحلقتين من سلسلة حديدية، وبقسوة لدرجة أن ضرباتها خلّفت رضوضاً في يديها (كانت الرضّات واضحة بالرغم من تلاشي ألوانها بعض الشيء عندما شاهدتها في الأول من سبتمبر/أيلول).

ربما لم تكن قصة مسلّية، ولكنني انفجرت ضاحكاً من ذلك المشهد وما لبثت الآنسة ستانسفيلد أن ضحكت معي. نظرتْ السيدة دافيدسون إلى الداخل -للتأكد من أننا لم نستنشق غازاً مضحكاً- ثم غادرت الغرفة مجدداً.

قالت الآنسة ستانسفيلد وهي لا تزال تضحك، وتمسح دموعها بمنديلها: "كان ذلك كل ما استطعت التفكير فيه. لأنني رأيت نفسي في تلك اللحظة أكنس كل عينات العطور تلك -كل واحدة منها- عن مكتبها، وأوقعها على الأرض الخرسانية غير المغطاة. لم أفكر في تلك اللحظة وحسب، بل ورأيتها أيضاً. رأيتها. وهي تتحطم على الأرض، وتملأ الغرفة برائحة كريهة تستوجب استخدام المبخرة.

"عزمت على القيام بذلك. لا شيء كان سيمنعني. ثم بدأت *المرحلة السيارة* وسارت الأمور بشكل طبيعي. استلمت الشيك، وقصاصة الورق الوردية اللون، ونهضت، وغادرت المكان. شكرتها بالطبع؛ كنت لا أزال في *المرحلة السيارة*!"

ضحكنا مجدداً، ثم عادت إلى رصانتها.

"لقـد تجـاوزت الأمر الآن، حتى أنني قادرة على الشعور بالأسف عليها؛ أم أنه كان تصرف ينمّ عن تكبّر منّي؟"

"كلا. أعتقد بأنه شعور نبيل".

"هل يمكنني أن أريك شيئاً أحضرته مع تعويض الصرف من الخدمة أيها الطبيب ماكارون؟"

"أجل إذا كنتِ ترغبين في ذلك".

فتحت حقيبتها، وأخرجت علبة صغيرة مسطحة. "اشتريتها من مكتب الـرهون مقابل دولارين. كانت تلك المرة الوحيدة التي شعرتُ فيها طوال هذا الكابوس بالعار والقذارة. أليس هذا أمراً غريباً؟"

فـتحت العلـبة ووضـعتها على مكتبي لكي أتمكن من رؤية ما في داخلها. لم أفاجأ مما رأيت. كان خاتم زفاف ذهبياً.

قالـت: "سأقوم بكل ما يلزم عمله. سأقيم في منزل لا يساورني شك في أن السيدة كيلي كانت ستسميه منزلاً محترماً. عليّ أن أقول بأن صاحبة المنزل لطيفة وودودة، ولكن السيدة كيلي كانت لطيفة وودودة أيضاً. أعتقد بأنه ربما ستطلب منّي الرحيل أيضاً. وأعتقد بأنني إذا قلت شيئاً بخصوص مال الإيجار الذي دفعته مقدماً، أو التأمين على الأضرار الذي دفعته عندما انتقلت إلى المنزل، ستضحك في وجهي".

"يـا سـيدتي العزيـزة، سـيكون عملاً غير قانوني. وهناك محاكم ومحامون يمكن أن يساعدوكِ على.."

قالـت: "المحاكم نوادٍ للرجال، وهم لا يفضلون الخروج عن نهجهم لمـصادقة امـرأة في مثل وضعي. ربما يمكنني استعادة المال، وربما لا. وفي كلتا الحالتين، بالكاد تستحق تلك التكاليف والمشكلات و... الضيق... مـبلغ سـبعة وأربعـين دولاراً. لا يوجد مبرر لكي أحدثك عن هذا الأمر ابـتداءً. فالأمر لم يحصل بعد، وربما لن يحصل أبداً. لكن على كل حال، عزمت على أن أكون عملية من الآن فصاعداً".

رفعت رأسها، ورمقتني بعينيها.

"يوجد مكان في فيليج يمكن أن أقيم فيه في حال احتجت إلى ذلك. إنه في الطابق الثالث، ولكنه نظيف، وإيجاره يقل بخمسة دولارات عن إيجار المكان الذي أقيم فيه حالياً". ثم أخرجت الخاتم من العلبة وقالت: "لقد لبست هذا الخاتم عندما أرتني المالكة الغرفة".

وضــعته في الإصبع الثالثة في يدها اليسرى مع شعور بالاشمئزاز أعتقد بأنها لم تنتبه له. "الآن، أنا أدعى السيدة ستانسفيلد. كان زوجي يعمل ســائق شــاحنة، ولكنه قُتل على طريق بيتسبورغ-نيويورك. قصة محزنة جداً. ولكنني لم أعد بغياً بعد الآن، ولن يكون طفلي ولداً غير شرعي".

نظــرت إليّ، وتلألأت الدموع في عينيها مجدداً. وفيما كنت أراقبها، سالت دمعة واحدة على خدّها.

قلــت لهــا بعــد أن تملّكني الحزن، وتقدمت منها لكي أمسك بيدها: "أرجوك". شعرت بأن يدها كانت شديدة البرودة. "لا تفعلي يا عزيزتي".

أدارت يــدها التــي أمسكت بها -كانت يدها اليسرى- ونظرت إلى الخــاتم. ابتــسمت. كانت ابتسامة بمثل مرارة الصفراء أو الخل، يا سادة. وذرفت دمعة أخرى.

"عــندما اسمع الساخرين يقولون إن أيام السحر والمعجزات قد ولّت أيهــا الطبــيب ماكــارون، سأدرك بأنني قد خُدعت. أليس كذلك؟ وعندما تــشتري خاتمــاً من مكتب الرهون مقابل دولارين ليمحو هذا الخاتم على الفــور كلاً من صفة الزنا والفسق، ما هو الاسم الذي يمكن أن تطلقه على هذا الأمر سوى السحر؟ سحر رخيص".

"آنــسة ستانــسفيلد... ساندرا، إذا كنتِ بحاجة إلى مساعدة، إذا كان هناك أي شيء يمكنني القيام به.."

أبعدت يدها عن يدي؛ لو أنني أمسكت بيدها اليمنى بدلاً من اليسرى، ربمــا لم تكن ستفعل ذلك. قلت لكم بأنني لم أقع في غرامها. لكن في تلك اللحظــة، كــان مــن الممكن أن يحصل ذلك. كنت على وشك الوقوع في غــرامها. ربمــا لــو أنني أمسكت بيدها اليمنى بدلاً من اليد التي وضعت خاتمها فيها، وسمحت لي بإمساك يدها فترة أطول، إلى أن ينتقل دفء يدي إليها، ربما كنت سأقع في غرامها.

"أنــت رجــل طــيب وكريم، وقد فعلتَ الكثير من أجلي ومن أجل طفلــي... وطــريقة التنفس التي حدثتني عنها أقوى سحراً من هذا الخاتم البغــيض. ففي النهاية، حمتني هذ الطريقة من دخول السجن بتهمة الأذى المــتعمّد، أليس كذلك؟" غادرت العيادة بعد ذلك بوقت وجيز، ومشيت نحو الــنافذة لكي أراقبها وهي تمشي في الشارع متوجهة نحو الجادة الخامسة. أُعجبت بها. بدت رشيقة جداً، وصغيرة جداً، وبدا واضحاً أنها حامل؛ لكن

لـم يكـن يوجد فيها ما يخيفك أو يجعلك تتردد. لم تكن تمشي بسرعة في الـشارع، بل مشت كما لو أن لها كل الحق في الحصول على مكان على الرصيف.

أصبحت خارج مدى الرؤية لدي، عندها عدت إلى مكتبي. وفي أثناء ذلك، لفتت نظري صورة فوتوغرافية معلّقة على الجدار بالقرب من شهادة الدبلـوم، فسرت رعشة مخيفة في بدني. تحول جلدي -بما في ذلك الجلد الذي في جبهتي وظهر يديّ- إلى عُقد باردة مثل جلد الإوزة. انقض عليّ أشد خوف شعرت به في حياتي مثل كفن مرعب، ووجدت نفسي ألهث وأنا أتـنفس. كـان ذلك فصلاً إضافياً في التكهنات يا سادة. أنا لا أشارك في المجـادلات التـي تدور حول ما إذا كان من الممكن أن يحصل مثل هذه الأمـور. فأنا أعرف بأنها يمكن أن تحصل، لأن ذلك حصل معي. حصل معـي مـرة واحدة فقط، وفي فترة ما بعد الظهر من ذلك اليوم الحارّ في مطلع سبتمبر/أيلول. وأنا أدعو الله ألاّ تتكرر تلك التجربة مرّة أخرى.

التُقطت تلك الصورة الفوتوغرافية التي أخذتها أُمي يوم تخرّجي من كلّية الطب. ظهرتُ فيها واقفاً أمام مستشفى الوايت ميموريال ويداي خلف ظهـري، وعلـى وجهـي ابتسامة مثل صبي حصل للتو على إذن باللعب طوال اليوم في متنزه باليسايدس. وظهر عن يساري تمثال هاربيت وايت، وبالرغم من أن الصورة أظهرت وجهه من منتصف الذقن تقريباً، كان من الممكـن رؤية قاعدة التمثال وذلك النقش الخالي من أية عاطفة -*لا توجد راحـة بـدون ألم، وبالتالي فنحن نعرّف الخلاص من خلال المعاناة*- بكل وضوح. وعند قاعدة تمثال زوجة أبي الأولى، وأسفل ذلك النقش مباشرة، تُوفيت ساندرا ستانسفيلد بعد أربعة شهور في حادث مؤسف قبيل وصولها إلى المستشفى لكي تضع طفلها.

ظهـر عليها بعض أمارات القلق في الخريف من ذلك العام بعد أن علمت بأني لن أكون هناك لأشرف على عملية الولادة؛ لأني سأذهب بعيداً لقـضاء عطلـة الكرسمس ولن أكون تحت الطلب. شعرتُ بالخوف لأنه سيـشرف على ولادتها طبيب سيتجاهل رغبتها في استخدام طريقة التنفس والذي سيطلب منها استنشاق الغاز أو أخذ حقنة في العمود الفقري.

وفرتُ لها تطمينات بقدر ما أستطيع. لم يكن يوجد لديّ سبب لمغادرة المديـنة، ولم تكن لديّ عائلة لأزورها في العطلة. فقد تُوفيت أمّي قبل ذلك

بـــسنتين، ولم يكن لي أحد غيرها سوى عمّة عانس تقيم في كاليفورنيا... وقلت للآنسة ستانسفيلد بأنني لا أحب السفر بالقطار.

سألتني: "هل شعرت بالوحدة يوماً؟"

"فـــي بعض الأحيان. ولكني أبقي نفسي كثير الإنشغال عادة. والآن، ســـأعطيكِ هـــذا الـــرقم". وكتبت رقم هاتف منزلي على بطاقة وأعطيتها الـــبطاقة. "إذا كـــنت تستطيعين إجراء مكالمة هاتفية عندما يبدأ مخاضكِ، أرجو أن تتصلي بي على هذا الرقم".

"كلا، أنا لا أستطيع.."

"هـــل تريدين استخدام طريقة التنفس، لم تريدين أن يشرف على ولادتك طبيب يعتقد بأنكِ مجنونة، ويعطيك مخدراً حالما تدخلين *المرحلة السيارة*؟"

ابتسمت قليلاً وقالت: "حسناً، لقد أقنعتني".

لكـــن مـــع توالي أيام الخريف، بدا واضحاً أنها لا تزال قلقة. طلبت بالتأكـــيد الإذن بترك المكان الذي كانت لا تزال تقيم فيه منذ أن التقيت بها لأول مرة، وانتقلت إلى فيليج. لكن تبين أن تلك الخطوة كانت في مصلحتها علـــى كل حال. حتى أنها وجدت وظيفة متواضعة. فقد وظفتها امرأة كفيفة البصر تتمتع بمدخول جيد لكي تؤدي لها بعض الأعمال المنزلية، وتقرأ لها بعضاً من أعمال جين سترلتون بورتر وبيرل باك. واستعادت الرونق الذي تتحلّـــى به غالبية السيدات للحوامل في المراحل الأخيرة من مدة حملهنّ. ولكن كان يوجد ظل معتم على وجهها. كنت أطرح عليها الأسئلة، وكانت تجـــيب عـــنها ببطء... وفي مرحلة معينة، عندما لم تجب على الإطلاق، رفعـــت عينيّ عن الملاحظات التي كنت أكتبها، فرأيتها تنظر إلى الصـــورة الفوتوغـــرافية المعلّقـــة بجانب شهادة الدبلوم وقد ارتسم تعبير حالم غريب على عينيها. شعرت بعودة تلك القشعريرة... وبالكاد جعلني ردّها، الذي لم يكن له أية علاقة على الإطلاق بسؤالي، أشعر بشيء من الارتياح.

"يراودنـــي شـــعور أيهـــا الطبيب ماكاروني، شعور قوي في بعض الأحيان، بأني قد قُضي عليّ".

كلمـــة تـــراجيدية سخيفة. لكن الردّ الذي وصل إلى طرف لساني يا سادة كان: *أجل، يراودني هذا الشعور أيضاً*. ينبغي على الطبيب الذي يقول أمـــراً كهـــذا أن يسارع إلى عرض معداته وكتبه الطبّية للبيع ويبحث عن مستقبل له في أعمال السمكرة أو النجارة.

قلــت لهــا بأنها ليست المرأة الحامل الأولى التي يراودها مثل هذا الشعور، وأنها لن تكون الأخيرة. قلت لها بأن هذا الشعور شائع جداً لدرجة أن الأطباء يكتشفونه بعد قليل من الفحص.

أومــأت الآنسة ستانسفيلد برأسها بجدّية تامة، وأذكر كم بدت صغيرة في ذلك اليوم، وكم بدا بطنها كبيراً. قالت: "أنا أعرف عن هذا الأمر. فأنا أشــعر بــه. ولكــنه أمر منفصل عن هذا الشعور المختلف. هذا الشعور المختلف أشبه... بشيء يلوح في الأفق. لا يمكنني وصفه بطريقة أوضح. إنه شعور سخيف، ولكنني لا أستطيع التخلص منه".

قلت لها: "يتعين عليك المحاولة. فهذا لا يصب في مصلحة.."

ولكنها ابتعدت عنّي لتنظر إلى الصورة الفوتوغرافية مجدداً.

"من هذه؟"

قلت وأنا أحاول أن أقول نكتة إملين ماكارون. بدت طريقة غير فعالة بالمرة. "قبل اندلاع الحرب الأهلية، عندما كان شاباً".

قالت: "كلا، لقد تعرفت على صورتك بالطبع. إنها امرأة. يمكنك أن تحزر بأنها امرأة من حاشية تنورتها ومن خفها. من تكون؟"

قلــت: "إنها تدعى هاربيت وايت". وقلت في نفسي: *وسيكون وجهها أول وجــه ترينه عندما تصلين إلى المستشفى لولادة طفلك*. عادت الرعشة من جديد؛ تلك الرعشة المرعبة عديمة الصورة. *إنه وجهها الحجري*.

ســألتني فــيما كانت عيناها لا تزالان تحلمان في حالة من النشوة: "وماذا يقول النقش المحفور في قاعدة التمثال؟"

كذبت وقلت: "لست أدري. فأنا لست بارعاً في اللغة اللاتينية".

فــي تلك الليلة، عشت أسوأ حلم رأيته في حياتي كلها؛ استيقظت وأنا مذعــور، ولو أنني كنت متزوجاً، كنت سأتسبب لزوجتي المسكينة بخوف شديد.

فــي ذلك الحلم، فتحت الباب الذي يؤدي إلى غرفة الاستشارات في عيادتي ووجدت أن ساندرا ستانسفيلد كانت هناك. كانت تنتعل الخفّ البنّي، وتلبس ثوباً من الكتان الأبيض مع طرف بنّي اللون، وتعتمر قبّعة ضيقة لا تــواكب الزي السائد. كانت القبعة عند مستوى صدرها، لأنها كانت تحمل رأسها في يديها. تلطخ الثوب الكتاني الأبيض بالدم المتخثر. لقد خرج الدم من رقبتها، وانتشر على السقف.

ثم فتحت عينيها -تلك العينان النيّتان- وركزتهما عليّ.

خاطبنـــي رأســـها فقـــال: "لقد قُضي عليّ. لقد قُضي عليّ. لا يوجد خلاص بدون معاناة. إنه سحر رخيص، ولكنه كل ما لدينا".

عندئذٍ، استيقظت وأنا أصرخ.

حـــان موعد زيارتها في العاشر من ديسمبر/كانون الأول ولم تأتِ. وفي السابع عشر من ذلك الشهر، أجريت لها فحصاً، وأشرت إلى أنه بات مـــن شبه المؤكد أن تضع مولودها في العام 1935، ولكنني لم أعد أتوقع قدومـــه إلاّ بعد الكرسمس. تقبلت الآنسة ستانسفيلد ذلك برحابة صدر. بدا أنهـــا تخلصت من ذلك الظل المعتم الذي بقي معلقاً بها في ذلك الخريف. ولقد أثارت إعجاب السيدة غيبس، تلك المرأة الكفيفة التي وظفتها لكي تقرأ لهـــا بصوت عالٍ وتقوم بالأعمال المنزلية؛ كانت معجبة بها بما يكفي لكي تحكـــي لصديقاتها عن الأرملة الصغيرة الشجاعة التي بالرغم من المصاب الذي نزل بها مؤخراً وحالتها الحرجة، كانت تواجه مستقبلها بروح مرحة وافـــرة بالعـــزيمة. وعبـــرت العديد من صديقاتها الكفيفات عن اهتمامهنّ بتوظيفها بعد أن تضع مولودها.

قالت لي: "سأقبل بعرضهن أيضاً من أجل الطفل. ولكن ليس قبل أن أقـــف علـــى قدمـــيّ مجدداً وأكون قادرة على العثور على عمل مستمرّ. تراودني أفكار في بعض الأحيان بأن الجانب الأكثر سوءاً في المسألة- في كل ما حدث لـي- هو أن نظرتي تجاه الناس قد تغيّرت. أقول في نفسي في بعـــض الأحـــيان 'كيف يمكنكِ أن تنامي ليلاً وأنتِ تعرفين بأنكِ تخادعين وتكذبـــين؟' ثـــم أقول 'إذا كانت تعرف، فستطردكِ من المكان، تماماً كما فعلـــت مـــع الفتيات الأخريات'. وفي كلتا الحالتين، أعتبر بأن تلك كذبة، وأشعر بثقلها على قلبي في بعض الأحيان

قـــبل أن تغـــادر العيادة في ذلك اليوم، أخرجت بروح مرحة رزمة صغيرة ملفوفة من حقيبتها ووضعتها باستحياء على المكتب أمامي وقالت: "كرسمس سعيد أيها الطبيب ماكارون".

قلت لها: "ما كان ينبغي عليكِ أن تفعلي ذلك". فيما كنت أفتح الدرج، وأخرج رزمة أنا أيضاً. "لكن بما أنني أحضرت لك أيضاً..."

نظـــرت إلـــيّ للحظة، بدت متفاجئة... ثم ضحكنا معاً. أحضرت لي مشبكاً فضياً لربطة العنق عليه شعار مهنة الطب. أما هديتي فكانت عبارة

عن ألبوم صور لتضع فيه الصور الفوتوغرافية لطفلها. لا زلت أحتفظ بمشبك ربطة العنق كما ترون يا سادة. أنا أضعه هذه الليلة. لكنني لا أعرف ماذا حصل للألبوم.

رافقتها حتى الباب، وعندما فتحته، التفتت إليّ ووضعت يديها على كتفيّ، ووقفتْ على إبهامي قدميها وقبلتني. لم تكن قبلة شهوانية يا سادة، ولكنها لم تكن من نوع القبل التي ربما تتوقعها من شقيقتك أو عمتك.

قالت وقد انقطع نفسها: "أشكرك مجدداً أيها الطبيب ماكارون". كان خدّاها مفعمين باللون الأحمر وكانت عيناها البنيّتان تتوهجان. "أشكرك جزيل الشكر".

ضحكت؛ مع إحساس بشيء من الانزعاج وقلت: "أنتِ تتكلمين كما لو أننا لن نلتقي مرة أخرى يا ساندرا". أعتقد بأنها كانت المرة الثانية والأخيرة التي ناديتها فيها باسمها.

قالت: "سنلتقي مجدداً. لا يساورني أدنى شك في ذلك".

وكانت على حق؛ بالرغم من أن أياً منّا لم يكن في وسعه التكهن بالظروف المريعة التي صاحبت ذلك اللقاء الأخير.

بدأ مخاض ساندرا ستانسفيلد عشية الكرسمس بعيد الساعة السادسة مساءً. بحلول ذلك الوقت، كان الثلج الذي تساقط طوال ذلك اليوم قد تحول إلى خليط من المطر والندف الثلجية. وبحلول الوقت الذي دخلت فيه الآنسة ستانسفيلد المخاض المتوسط، بعد ساعتين من ذلك، أضحت شوارع المدينة مكسوة بطبقة خطرة من الجليد.

كانت السيدة غيبس، المرأة الكفيفة، تملك شقة واسعة وفسيحة في الطابق الأول، وعند الساعة السادسة والنصف مساءً، نزلت الآنسة ستانسفيلد السلّم بحرص شديد، وطرقت بابها، فأذن لها بالدخول، وسألت إن كانت تستطيع إجراء مكالمة هاتفية لطلب سيارة أجرة.

سألتها السيدة غيبس وهي ترتعش: "هل هو الجنين يا عزيزتي؟"

"أجل، لقد بدأ المخاض، ولكنني لا أستطيع المجازفة في هذا الطقس. سيتطلب وصول سيارة الأجرة وقتاً طويلاً".

أجرت تلك المكالمة ثم اتصلت بي. في ذلك الوقت، عند الساعة السادسة والأربعين دقيقة، كانت الآلام تراودها على فترات تفصل بينها خمس وعشرون دقيقة تقريباً. أعادت القول إنها بدأت التمارين في وقت

مبكر بسبب الطقس السيئ. قالت: "أفضل ألاّ أنجب مولودي على مقعد في سيارة أجرة". بدت هادئة على نحو غير عادي.

تأخر وصول سيارة الأجرة، وتقاربت فترات مخاض الآنسة ستانسفيلد بوتيرة فاقت توقعاتي؛ لكن وكما قلت سابقاً، لا يتشابه مخاضان في صفاتهما المميزة. ساعدها السائق على نزول الدرجات الزلقة، بعد أن رأى أنها على وشك أن تضع مولوداً، وكان يناشدها باستمرار قائلاً: "توخّي الحذر يا سيدتي".

لومأت الآنسة ستانسفيلد برأسها. كانت مشغولة في التفكير في استنشاق الهواء بعمق وإخراجه بعد أن بدأت انقباضات رحمها. كان المطر نصف المتجمّد يغلّف أعمدة إنارة الشوارع وسقوف السيارات، وكان يذوب على شكل قطرات كبيرة على الأضواء الأمامية لسيارة الأجرة. وقالت لي السيدة غيبس في وقت لاحق بأن سائق السيارة الشاب كان أكثر عصبية من "ساندرا العزيزة المسكينة"، وأن ذلك ساهم على الأرجح في وقوع الحادث.

الخطوة التالية كانت البدء باستخدام طريقة التنفس.

شقّ السائق طريقه ببطء في الشوارع الزلقة وعبر نقاط التقاطع المزدحمة، والحواجز المحيطة بالطرقات مع اقترابه من المستشفى ببطء. لم يُصب بجروح خطيرة من جرّاء ذلك الحادث الذي تعرض له بعد ذلك، وقد تحدثت إليه في المستشفى. قال لي بأن صوت التنفس العميق الذي كان يصدر من المقعد الخلفي جعله عصبي المزاج، مما حمله على إدامة النظر في المرآة الخلفية ليرى إن كانت "تتناول العشاء أو تفعل شيئاً من هذا القبيل". وقال إنه كان سيشعر بمزاج أقل عصبية لو أنها أطلقت بعض الصرخات الصحّية العالية كما يُفترض بالمرأة التي جاءها المخاض أن تفعل. سألها مرة أو مرتين عن حالها ليطمئن عليها وكانت تومئ برأسها فيما تواصل ركوب *الأمواج* بأخذ أنفاس عميقة وإخراجها.

لا بدّ وأنها شعرت بأنها دخلت المرحلة الأخيرة من المخاض على مسافة مبنيين أو ثلاثة مبانٍ من المستشفى. كانت قد مرّت ساعة منذ ركوبها سيارة الأجرة – كانت زحمة السير خانقة– ولكن المخاض كان بالرغم من ذلك سريعاً بشكل غير عادي بالنسبة إلى امرأة على وشك أن تضع مولودها الأول. لاحظ السائق التغيّر في طريقة تنفسها. قال: "بدأت

تلهــث مثل الكلب في يوم حارّ يا حضرة الطبيب". كانت قد بدأت *المرحلة السيارة*.

في تلك اللحظة تقريباً، لمح السائق فرجة في رتل السيارات الزاحف فــتوجه مــسرعاً نحوها. باتت الطريق إلى وايت ميموريال مفتوحة الآن. كانــت المستشفى على مسافة قريبة. قال السائق: "كان في مقدوري رؤية التمــثال". وبما أنه كان متلهفاً للتخلص من الراكبة الحبلى اللاهثة، ضغط على دواسة البنزين فاندفعت السيارة إلى الأمام، فيما كانت العجلات تدور على الجليد من غير أن تتحرك السيارة.

ذهبتُ إلى المستشفى سيراً على الأقدام، وتزامن وصولي مع وصول ســيارة الأجــرة، لأنني قدّرت مدى تأثير حالة الطقس على القيادة السليمة والآمــنة. اعتقدت بأنني سأجدها في أحد الطوابق العلوية، مريضة أُدخلت بطريقة قانونية ومعها كافة الأوراق التي تحمل التواقيع اللازمة، وأُجريت لهــا الفحــوص الأولــية، ودخلت مرحلة المخاض المتوسط. كنت أرتقي الــسلالم عندما انعكست الأضواء الأمامية على بقعة مكسوة بالجليد لم يكن الــبوابون قد نثروا عليها الرمل بعد. إلتفتُ في الوقت المناسب لأرى ماذا حدث.

كانــت سيارة إسعاف تحاول الخروج من مدخل جناح الطوارئ فيما كانت سيارة الأجرة التي تنقل السيدة ستانسفيلد تدخل باحة المستشفى. كانت ســيارة الأجــرة تــسير بسرعة عالية مما جعل من الصعب على سائقها إيقافها. أصيب السائق بالذعر فضغط بقوة على دواسة المكابح بدلاً من أن يــرفع قدمــه عنها، فانزلقت السيارة ثم بدأت تسير في حركة جانبية. نشر الــضوء النابض المركّب على سقف سيارة الإسعاف شرائح وبقعاً متحركة مــن الضوء الذي بلون الدم في المكان، وفي لحظة غريبة، أضاءت إحدى بقع الضوء تلك وجه ساندرا ستانسفيلد. في تلك اللحظة، بدا أنه الوجه الذي رأيــته في حلمي، ذلك الوجه المضرّج بالدماء والمفتوح العينين نفسه الذي رأيته في رأسها المقطوع.

ناديــتها باسمها، ونزلتُ درجتين إلى أسفل، فانزلقت ووقعت. تلقيت ضــربة قاسية على مرفقي ولكنني تمكنت بطريقة ما من الإمساك بحقيبتي الــسوداء. رأيــت باقي فصول الحادث من المكان الذي تمددت فيه، برأس يطنّ ومرفق ينخزه الألم.

ضغط سائق سيارة الإسعاف على دواسة المكابح فبدأت بالإنزلاق أيضاً. اصطدمت مؤخرتها بقاعدة التمثال فانفتح الباب الخلفي. وخرجت نقّالة- من حسن الحظ أنها كانت فارغة- مثل الرمح، وانقلبت في الشارع فيما كانت عجلاتها تدور في الهواء. صرخت امرأة شابة كانت تسير على الرصيف، وحاولت الهرب فيما كانت السيارتان تقتربان من بعضهما. وقعت على الأرض بعد أن خطت خطوتين ووجهها إلى الأرض، وطارت حقيبتها، وسقطت على الرصيف المكسو بالجليد مثل كرة بولينغ.

بقيت سيارة الأجرة تنزلق، ولكنها أصبحت تسير إلى الوراء الآن. كان في مقدوري رؤية سائقها بوضوح. كان يدير مقود السيارة بطريقة جنونية، مثل طفل في سيارة كهربائية، وارتدت سيارة الإسعاف عن التمثال، واصطدمت في حركة جانبية بسيارة الأجرة. دارت سيارة الأجرة حول نفسها ثم اصطدمت بقاعدة التمثال بقوة مخيفة. وانفجر ضوءها الأصفر، الذي كُتب عليه *نعمل بواسطة الخدمة اللاسلكية* فيما كان لا يزال يومض، مثل القنبلة. وبعد برهة، رأيت أن السيارة لم تصب في جانبها الأيسر وحسب، بل واصطدمت بقاعدة التمثال اصطداماً شديداً شطرها نصفين. تناثر الزجاج على الجليد الزلق مثل قطع الألماس، وخرجت مريضتي من نافذة الباب الخلفي الأيمن من سيارة الأجرة المشطورة كما لو كانت دمية.

وقفت على قدميَ مجدداً من غير أن أشعر بذلك، وأسرعت في نزول الدرجات المكسوة بالجليد، فانزلقت مجدداً، ولكنني أمسكت بالدرابزين، وواصلت سيري. كنت على علم بأن الآنسة ستانسفيلد ممددة أسفل تمثال هاريت وايت البشع على مسافة ستة أمتار تقريباً من المكان الذي انقلبت فيه سيارة الإسعاف على جنبها، فيما كانت أضواؤها لا تزال تضيء عتمة الليل باللون الأحمر. حدث شيء مروع في ذلك الحادث، ولكنني لم أصدق حقيقة ما عرفت إلاّ بعد أن ركلت قدمي شيئاً ثقيلاً بما يكفي لإصدار صوت مكتوم وكدت أقع على الأرض مجدداً. طار الشيء الذي ركلته بقدمَي مثل حقيبة المرأة الشابة، وانزلق بدلاً من أن يتدحرج. انزلق بعيداً، لكن سقوط الشعر- الملطخ بالدماء والأشقر رغم ذلك- الممزوج بالقطع الزجاجية هو الذي جعلني أدرك حقيقة الشيء الذي اصطدمت به. لقد قُطع رأسها في ذلك الحادث. وذلك الشيء الذي ركلته بقدمي وأوقعته في البالوعة المتجمّدة كان رأسها.

مــشيت وأنــا مخــدّر بالكامــل الآن من هول الصدمة نحو جسدها وأدرتــه. أعــتقد بأني حاولت أن أصرخ ما إن فعلت ذلك، وما إن رأيت ذلــك. وإذا كــنت قد صرخت فعلاً، فذلك يعني أنه لم يصدر صوت على الإطلاق، لأنه لم يكن في مقدوري إحداث أي صوت. كانت المرأة لا تزال تتــنفس كما ترون يا سادة. كان صدرها يتحرك إلى أعلى وإلى أسفل في حــركات تنفسية سريعة وخفيفة. سال الجليد على معطفها المفتوح وثوبها الغــارق بالدماء. وكان في مقدوري سماع صوت صفير رفيع وحادّ. لكنه كــان يــذوي ويذبل مثل صفارة غلاّية الشاي التي لا يمكنها الوصول إلى درجــة الغليان. كان ذلك الهواء المسحوب داخل قصبتها الهوائية المفتوحة والذي كان يخرج مجدداً. كما سمعت صرخات قصيرة أحدثها الهواء المارّ من خلال أوتارها الصوتية التي لم يعد لها فم ينطق بحروفها.

أردت أن أهــرب بعيداً، ولكن لم تتوفر لي القوة لكي أفعل ذلك. جثوت علــى ركبتيّ على الجليد بالقرب منها، ووضعت يدي على فمي. وبعد برهة وجيــزة، تنبّهت إلى الدم الذي كان يسيل من الجزء السفلي من ثوبها... وإلى وجود حركة هناك. واقتنعت فجأة بأنه لا تزال هناك فرصة لإنقاذ الجنين.

أعتقد بأني بدأت بالضحك عندما رفعت ثوبها إلى أعلى. أعتقد بأني كنت مجنوناً. كان جسدها لا يزال دافئاً. لا زلت أذكر ذلك. لا زلت أذكر كيف أنها كانــت تلهث وهي تتنفس. جاء سائق سيارة الإسعاف وهو يترنّح كالثمل، وقد وضع إحدى يديه على صدغه، فيما كان الدم ينزّ من بين أصابعه.

كــنت لا أزال أضــحك وأنــا أتلمّس عنق الرحم فوجدت أنه قد توسّع بالكامل.

حــدّق الــرجل فــي جسد ساندرا ستانسفيلد المقطوع الرأس بعينين واســعتين. لست أدري إن كان قد تنبّه إلى أن الجثة لا تزال تتنفس. ربما اعــتقد بأن الحركات ناجمة عن تقلصات عضلية وحسب؛ نوع من الحركة اللاإراديــة النهائــية. لــو أنه كان يعتقد بهذا الشيء، لما ظل يقود سيارة الإسعاف طوال هذه المدة الطويلة. فالدجاجات ربما تمشي لمدة من الوقت بعد قطع رؤوسها، ولكن الناس ينتفضون مرة أو مرتين.

صرخت في وجهه: "توقف عن النظر إليها وأحضر لي بطانية".

ذهــب على غير هدى، لكنه لم يعد إلى سيارة الإسعاف، بل كان يــسير نحــو ساحة التايمز. مشى ببساطة تحت المطر شبه المتجمّد. لا

أدري ماذا حلّ به. التفتُ إلى المرأة الميتة التي لم تكن ميتة بطريقة ما، وتـرددت للحظــة، ثم خلعت معطفي. ثم رفعت وركيها لكي أتمكن من إدخــال المعطف أسفل جسمها. لكني بقيت اسمع صفير ذلك النفس مع دخــول جسدها المقطوع الراس *المرحلة السيارة* من عملية التنفس ولا أزال اسمع ذلك الصوت في بعض الأحيان لغاية الآن يا سادة. لا زلت أسمعه في أحلامي.

أتمنــى علــيكم أن تفهموا بأن وقائع ذلك الحادث جرت في غضون فتــرة زمنية قصيرة جداً؛ تبدو فترة أطول بالنسبة لي، لكن السبب هو أن مخيلتــي بلغت آفاقاً بعيدة جداً. كان الناس قد شرعوا للتو في الخروج من المستــشفى لــرؤية مــا حصل، فيما كانت تقف خلفي امرأة تصيح بأعلى صوتها عندما رأت الرأس المقطوع بالقرب من حافة الطريق.

فــتحتُ حقيبتي السوداء، وأحمد الله لأنني لم أفلتها أثناء سقوطي على الــسلّم، وأخرجت مشرطاً صغيراً. فتحت المشرط، وقطعت ثيابها الداخلية ونــزعتها عــنها. وفي هذه اللحظة، اقترب سائق سيارة الإسعاف؛ دنا منا حتــى مسافة خمسة أمتار، ثم جمد في مكانه. نظرت إليه باعتبار أني كنت لا أزال بحاجــة إلــى بطانية. لم أكن سأحصل عليها منه. كان يحدق في الجــسد الذي لا يزال يتنفس، وقد اتسعت عيناه إلى أن بدا أنهما ستخرجان من مدارهما وتتدلّيان من الأعصاب البصرية مثل لعبة اليويو. ثم جثا على ركبتيه ورفع يديه المقبوضتين. أراد أن يصلّي، كنت متأكداً من ذلك. ربما لــم يعــرف السائق بأنه يرى المستحيل، ولكنّ زميلاً له عرف ذلك. وفي اللحظة التالية، سقط مغشياً عليه.

كنت قد جمعت معدات الجراحة في حقيبتي في تلك الليلة من غير أن أعــرف السبب. فأنا لم أستخدم هذه الأدوات منذ ثلاث سنين، ليس بعد أن شاهدت طبيباً لن أذكر اسمه وهو يخرق صدغ طفل حديث الولادة بواسطة واحدة من تلك الأدوات الجهنمية الحديثة. مات الطفل على الفور. *ضاعت* الجثة وكُتب على شهادة الوفاة عبارة *وُلد ميتاً*.

لكن بغض النظر عن السبب، كانت تلك الأدوات في حوزتي في تلك اللــيلة. تيبّس جسد الآنسة ستانسفيلد، وانقبض بطنها، فتحول من لحم إلى قطعــة حجــر. رأيت رأس الصبي للحظة وجيزة، وقد علاه الدم وغشاء نابض. كان ينبض، أي أنه كان حياً بالتأكيد.

تحول الحجر إلى لحم مرة أخرى، واختفى الرأس من جديد. ثم سمعت صوتاً خلفي قال لي: "كيف يمكنني أن أساعدك أيها الطبيب؟"

كانت ممرضة في منتصف العمر، من نوع النساء اللواتي غالباً ما يشكلن العمود الفقري في مهنتنا. كان وجهها شاحباً بلون الحليب، فيما بدت أمارات الخوف وأمارات عدم التصديق على وجهها وهي تنظر إلى الجسد الذي يتنفس بطريقة غريبة، لم تكن مصابة بصدمة كانت ستجعل العمل معها أمراً صعباً وخطراً.

قلت بعبارات مقتضبة: "هل يمكنكِ إحضار بطانية في الحال؟ لا تزال أمامنا فرصة". رأيت خلفها ما يقارب العشرين شخصاً خرجوا من المستشفى، ووقفوا على درجات السلّم، من غير أن يجرؤ أحدهم على الإقتراب أكثر. لا أعرف على وجه الدقة مقدار ما شاهدوه من العملية. لكن كل ما أعرفه هو أن العديد منهم تجنّب ملاقاتي طوال أيام عقب تلك الحادثة (وبعضهم قاطعني إلى الأبد)، ولم يتحدث معي أحد منهم، بما في ذلك هذه الممرضة، عن تلك العملية.

التفتت، وبدأت تمشي عائدة إلى المستشفى.

صرخت قائلاً: "أيتها الممرضة، لا وقت لذلك. أحضري بطانية من سيارة الإسعاف. الطفل في طريقه إلى الخروج الآن".

غيّرت مسارها، ومشت على الثلج نصف الذائب بحذائها الأبيض، والتفتُ إلى الآنسة ستانسفيلد.

بدلاً من أن تتباطأ المرحلة السيارة من التنفس، بدأت تتسارع... وعاد جسدها صلباً كما كان. أطل الجنين برأسه مجدداً، وبقي يشق طريقه للخروج. لم تكن هناك حاجة إلى الأدوات الجراحية في نهاية المطاف، فقد خرج الجنين من بطن أمه، ووقع بين يديّ. رأيت المطر وهو يتساقط على جسده العاري الممسوح بالدم؛ كان صبياً. رأيت البخار وهو يتصاعد فيما كانت الليلة الجليدية السوداء تنتزع آخر ما تبقى من حرارة في جسد أمه. لوّح بيديه المقبوضتين في حركة ضعيفة، وما لبث أن صرخ بصوت حادّ.

صحت: "أيتها الممرضة. تحركي". ربما تفوهت بكلام بذيء، ولكنني شعرت لوهلة بأنني عدت إلى فرنسا، وأنه في غضون لحظات قليلة، ستبدأ القذائف في الصفير فوق رؤوسنا، وستبدأ المدافع الرشاشة بإطلاق نيرانها الجهنمية، وسيبدأ الجنود الألمان بالظهور من بين الضباب، وهم يركضون

وينـــزلقون ويـــشتمون ويموتون في الوحل والدخان. قلت في نفسي، سحر رخيص، وأنا أرى الأجساد تتلوّى ثم تسقط على الأرض. ولكنكِ على حق يــا ســـاندرا، *لكنه كل ما لدينا*. كنت أقرب ما يكون من فقدان صوابي يا سادة.

"أسرعي أيتها الممرضة".

صرخ الصبي مجدداً، ولكنه لم يعاود الصراخ بعد ذلك. تحول البخار المتصاعد من جسده إلى وشاح. وضعت فمي على وجهه، وشممت رائحة الدم وشذا المشيمة الخفيف والرطب، تنفست في فمه، وسمعت همس نفسي وهــو يخــرج مــن فمه. ثم جاءت الممرضة حاملة البطانية فمددت يدي لأخذها منها.

أرادت أن تناولنـــي البطانـــية، ولكنها أحجمت عن ذلك وقالت: "أيها الطبيب، ماذا... ماذا لو كان وحشاً؟ وحشاً من نوع ما؟"

قلـــت: "ناوليني تلك البطانية. ناوليني إياها الآن أيها الرقيب قبل أن أركل قفاك".

قالت بهدوء تام: "أجل أيها الطبيب". (ينبغي يا سادة أن نشكر النساء اللواتـــي يفهمـــن فـــي الغالـــب من خلال محاولة تجنب الفهم)، وناولتني البطانية. لففت الصبي، ثم أعطيتها إياه.

"إذا أسقطته على الأرض أيها الرقيب، فستأكل شارة رتبتك العسكرية".

"أجل أيها الطبيب".

راقبـــتها وهـــي تعود مهرولة إلى المستشفى حاملة الطفل، وراقبت الحـــشد الـــذي كان يقف على درجات السلّم وهو يفسح الطريق أمامها. ثم نهضت على قدميّ، وتراجعت عن الجثة. كانت تتنفس، ثم تختلج، ثم تختلج مجدداً.

بـــدأت أتـــراجع عنها، ولكن قدمي اصطدمت بشيء، فالتفت فإذا هو رأسها. وكما لو كنت أنصاع لتعليمات خارجية، وضعت إحدى ركبتيّ على الأرض ورفعـــت الوجه عن الأرض. كانت العينان مفتوحتين؛ تلك العينان البنّيـــتان اللـــتان طالمـــا كانـــتا مفعمتين بالحياة والعزيمة. كانتا لا تزالان مفعمتين بالعزيمة يا سادة. كانت تراني.

كانـــت أسنانها مطبقة، بينما تباعدت شفتاها قليلاً. سمعت نفسها وهو يتـــردد بـــسرعة بـــين تلك الشفتين ومن خلال تلك الأسنان فيما كانت في

المـرحلة السيارة. تحركت عيناها نحو اليسار قليلاً كما لو كانت تريد أن تراني بشكل أوضح. تباعدت شفتاها ونطقتا بأربع كلمات: *أشكرك أيها الطبيب ماكـارون*. سـمعتها أيها السادة، لكن ليس من فمها. جاءت تلك الكلمات مـن مسافة ستة أمتار، من حبالها الصوتية. وبما أن لسانها، وشفتيها، وأسنانها، وكل ما نستخدمه في صياغة كلماتنا، كان هنا، فقد صـدرت تلك الكلمات بصوت غير ناضج. ولكنني سمعت أصواتاً منفصلة بعدد مقاطع تلك العبارة، *أشكرك أيها الطبيب ماكارون*.

قلت: "على الرحب والسعة يا آنسة ستانسفيلد. لقد ولدت صبياً".

تحركت شفتاها مجدداً، وسمعت من خلفي صوتاً يقول، صبي..

فقدت عيناها تركيزهما وعزيمتهما. بدا أنهما تنظران الآن إلى شيء يتجاوزني، ربما في السماء الثلجية السوداء. ثم أغمضت عيناها. عادت إلـى *المـرحلة السيارة* مجدداً... ثم توقفت بكل بساطة. بغض النظر عن الأحـداث التي جرت، فقد انتهى كل شيء الآن. شاهدت الممرضة بعضاً مـن تلك الأحداث، وربما شاهد سائق سيارة الإسعاف بعضاً منها قبل أن يُغمى عليه، وربما اشتبه المتفرجون بشيء ما. ولكن الفصل انتهى وللأبد. كل ما تبقّى كان بقايا الحادث الشنيع وحسب... كما كان هناك صبي جديد.

نظـرت إلـى تمـثال هاربيت وايت. كان لا يزال في مكانه، ينظر بعينـين حجـريتين كما لو أنه لم يحصل شيء أمامه، كما لو أن مثل هذه العزيمة، في عالم بمثل قسوة وفراغ العالم الذي نعيش فيه، لا يعني شيئاً... أو يعني ما هو أسوأ، وهو الوصف الوحيد المكافئ لعبارة *لا تعني شيئاً*.

أذكـر أنني جثوت على الثلج نصف الذائب أمام رأسها المقطوع، وأجهـشت بالبكاء. وكما أذكر، كنت لا أزال أبكي عندما جاء طبيب مقيم وممرضتان ساعدتاني على الوقوف على قدميّ وأعادوني إلى المستشفى.

انطفأت النار في غليون ماكارون.

أعاد إشعال التبغ فيما كنا جالسين وقد خيم علينا صمت مطبق. وفي الخـارج، كانت الرياح تجأر وتزأر. أطفأ الولاّعة، ورفع رأسه إلى أعلى. يبدو أنه تفاجأ عندما وجد أننا لا نزال هناك.

قال: "هذا كل شيء. هذه هي النهاية. ما الذي تنتظرونه؟" ثم عاد إلى التفكيـر للحظة. "دفعت تكاليف دفنها من جيبي الخاص. فهي لم يكن لديها أحـد سـواي كما تعرفون". ثم ابتسم قليلاً وقال: "حسناً... كان لديها إيلاً

دافيدســون، الممرضة التي كانت تعمل لدي. أصرّت على المشاركة بمبلغ عشرين دولاراً، وهو مبلغ بالكاد كانت تستطيع تحمله. ولكنها أصرت على ذلك..." رفع كتفيه استخفافاً ثم ضحك قليلاً.

ســمعت نفـسي أطرح سؤالاً فجأة: "هل أنت متأكد من أنها لم تكن حركات لاإرادية؟ هل أنت متأكد..."

أجاب ماكارون: "أنا واثق من ذلك تماماً. ربما الإنقباض الأول كان كــذلك. لكن استكمال مخاضها لم يستغرق بضع ثوانٍ، وإنما استغرق عدة دقائــق. تراودني فكرة في بعض الأحيان بأنها كانت ستواصل انقباضاتها فتــرة أطول لو أن ذلك بدا أمراً ضرورياً. وأحمد الله أن الأمر لم يتطلب ذلك".

سأل يوهانسن: "وماذا عن الطفل؟"

نفث ماكارون الدخان من فمه وقال: "جرى تبنّيه. وأنتم تعرفون بأن سجلات التبنّي، حتى في تلك الأيام، تبقى سرّية بقدر الإمكان".

أعــاد يوهانــسن الــسؤال: "أجــل، لكن ماذا حلّ بالصبي؟" ضحك ماكارون بطريقة ملفتة.

وجه سؤاله إلى يوهانسن وقال: "أنت لا يفوتك شيء، أليس كذلك؟"

هــزّ يوهانسن رأسه تعبيراً عن النفي وقال: "تعلّم الناس هذه الحقيقة بعد معاناة. ماذا عن الصبي؟"

"حسناً، إذا أردت أن تتطلع على باقي القصة، عليك أن تعرف بأنني كــنت مهتماً في معرفة ماذا حلّ بذلك الطفل، أو هذا ما شعرت به. تابعت أخــباره، ولا زلــت أتابعها. كان هناك شاب وزوجته؛ لم يكن اسم العائلة هاريــسون، ولكنه اسم قريب إلى حدٍّ بعيد. كانا يعيشان في ماين، ولم يكن فــي مقــدورهما إنجاب أولاد. ولذلك تبنّيا الطفل وسمّياه... جون. إنه اسم جميل، أليس كذلك؟

أخذ مجة من غليونه، ولكنه وجد أن ناره قد انطفأت من جديد. كنت مدركاً بأن ستيفنز يحوم خلفي، وعرفت بأن معاطفنا ستكون جاهزة، وأننا سنرتديها بعد وقت وجيز ليعود كل منّا إلى حياته.

"أصــبح الــصبي الذي أشرفت على ولادته في تلك الليلة رئيس قسم اللغة الإنكليزية في واحدة من بين أشهر جامعتين أو ثلاث جامعات خاصة فــي البلاد. إنه لم يبلغ الخامسة والأربعين من عمره بعد. إنه لا يزال في

مقتـــبل العمر، ولا يزال الوقت مبكراً. لكنه يمكن أن يصبح في أحد الأيام رئيس تلك للجامعة. وينبغي ألاّ يساورني شك في الأمر. فهو وسيم، وذكي، وجذاب".

أضاف ماكارون: "سنحت لي فرصة مرّة، بعد أن انتحلت عذراً، لكي أتــناول العــشاء معــه في نادي الكلّية. كنا أربعة أشخاص في تلك الليلة. حرصـــتُ علـــى عدم الإكثار من الكلام لكي تتسنّى لي مراقبته. إنه يملك عزيمة أمه أيها السادة..."

"... وعيني أمه البنّيتين".

3

النادي

رافقــنا ســتيفنز ونحن في طريقنا إلى الخروج كما كان يفعل دائماً حاملاً معاطفنا، ومتمنّياً للرجال أسعد الأعياد، وشاكراً لهم كرمهم. تعمّدت أن أكون آخر المغادرين، ونظر إليّ ستيفنز من غير أن يبدو متفاجئاً عندما قلت:

"لديّ سؤال أودّ أن أطرحه عليك، إذا لم يكن يوجد لديك مانع".

ابتــسم قلــيلاً وقال: "أفترض بأنه ينبغي أن يكون لديك أسئلة. وليلة الكرسمس وقت مناسب لطرحها".

فـــي مكان ما في الردهة التي في يسارنا–قاعة لم يسبق أن دخلتها– كانــت تــوجد ســاعة حــائط ترتكز على الأرض مباشرة وتصدر صوتاً جهــورياً، صــوت العمر وهو ينقضي. كان في مقدوري شمّ رائحة الجلد والخــشب المعطـــر، والتـــي كانت أقل قوة من رائحة العطر الذي وضعه ستيفنز.

أضـــاف ســـتيفنز فيما كانت الريح تصفر في الخارج: "لكن عليّ أن أحـــذّرك بأنـــه مـــن الأفضل عدم الإكثار من طرح الأسئلة، إذا كنت تود مواصلة المجيء إلى هنا".

"أتريد أن تقول بأن هناك أشخاصاً مُنعوا من المجيء بسبب إكثارهم مـــن طـــرح الأسئلة؟" لم تكن عبارة *مُنعوا* العبارة التي أردت استعمالها، ولكنها كانت أقرب عبارة أمكنني التوصل إليها.

أجـــاب ســتيفنز بــصوت هادئ ومهذب كما يفعل دائماً: "كلا. لقد اختاروا ببساطة البقاء بعيداً".

نظـــرت في عينيه، وشعرت بقشعريرة تسري في بدني وصولاً إلى ظهري؛ كما لو أن يداً ضخمة، وباردة، وغير مرئية وُضعت على عمودي الفقــري. وجـــدت نفــسي أتذكر صوت الإنزلاق الغريب الذي سمعته في الطابق العلوي في إحدى الأمسيات وتساءلت (كما فعلت أكثر من مرة في السابق) عن عدد الغرف الموجودة في هذا المكان.

"إذا كان لا يزال لديك سؤال يا سيد آدلي، ربما يكون من الأفضل أن تطرحه الآن. فقد شارفت الأمسية على نهايتها".

سألته: "هل لا تزال أمامك رحلة طويلة بالقطار". ولكن ستيفنز اكتفى بالنظر إليّ من غير أن يتحرك. قلت: "حسناً، هناك كتب في هذه المكتبة لا أستطيع العثور عليها في أي مكان آخر؛ لا في مكتبة نيويورك العامة، ولا في فهارس أي من تجار الكتب القديمة الذين تحدثت إليهم. كما أنها ليست بالتأكـــيد من ضمن الكتب التي لا تزال قيد الطبع. كما أن طاولة البلياردو الموجودة في الغرفة الصغيرة من نوع نورد. لم يسبق لي أن سمعت بهذه الماركة. ولذلك اتصلت بلجنة العلامات التجارية الدولية. قالوا لي إنه توجد ماركـــتان تحملان اسم نورد: الأولى لشركة تصنع زلاّجات للتزحلق على الـــثلج والأخـــرى لـــشركة تـــصنع أدوات المطابخ. كما أن صندوق النغم الموجـــود في الغرفة الطويلة من نوع سيفرونت. ولكني وجدت في مسارد اللجنة اسم سيبورغ ولكني لم أجد سيفرونت".

"ما هو سؤالك يا سيد آدلي؟"

كـــان صـــوته هادئـــاً كما كان دائماً، ولكن لمحت شيئاً مخيفاً في عينـــيه فجـــأة... كـــلا. إذا كنت أريد أن أكون صادقاً، لم يكن مصدر الخـــوف في عينيه وحسب، بل وشعرت بأنه انتشر في الجو الذي يحيط بـــي. لـــم يعد الصوت المنتظم القادم من الردهة التي في يساري سوى صـــوت رقـــاص الساعة، بل أصبح صوت نقر قدم الجلاد وهو يراقب المدان فيما يُساق إلى المشنقة. باتت رائحة الزيت والجلد قارصة وتنذر بالخطـــر، وارتفع صوت صفير الريح. كنت متأكداً للحظة وجيزة بأن الـــباب الأمامـــي سيتحطم، بحيث لن يكشف الشارع الخامس والثلاثين وحسب، بل ويكشف مشهد كلارك أشتون سميث حيث تنتصب الأشجار

الملتوية وترسم صوراً ظلّية على أفق عقيم أسفل الشموس التي بدأت تغيب في وهج أحمر.

عرف ما عنيته بسؤالي. لمحت ذلك في عينيه الرماديتين.

أردت أن أسأله: *من أين تأتي هذه الأشياء؟ أنا أعرف من أين تأتي هذه الأشياء يا ستيفنز. لكن إلى أين تنوي الذهاب؟ من الذي وضع تلك النظرة التي لا تزول مع توالي الأيام في عينيك؟ ومن الذي طبعها على وجهك؟*

أين نحن الآن في هذه اللحظة بالذات؟

ولكنه كان ينتظر سؤالي.

فتحت فمي، والسؤال الذي خرج منه كان: "هل يوجد المزيد من الغرف في الطابق العلوي؟"

أجاب من غير أن يرفع نظره عن عينيّ: "أجل سيدي. يوجد عدد كبير من الغرف بحيث يمكن للرجل أن يتيه فيها. في الواقع، هذا ما حصل لبعض الرجال فعلاً. يبدو لي في بعض الأحيان أنها تمتدّ لمسافة عدة كيلومترات، أعني الغرف والممرات".

"المداخل والمخارج؟"

رفع حاجبيه قليلاً وقال: "أجل، المداخل والمخارج".

بقي ينتظر سؤالي التالي، ولكنني وجدت أني طرحت الكثير من الأسئلة؛ لقد وصلت إلى حافة شيء يمكن أن يدفعني إلى الجنون.

"شكراً لك يا ستيفنز".

"أهلاً سيدي". وناولني معطفي وساعدني على ارتدائه.

سألته: "هل سيكون هناك المزيد من الحكايات؟"

"في هذا المكان، سيدي، هناك دائماً المزيد من الحكايات".

مضى وقت طويل على تلك الأمسية، وذاكرتي لم تتحسن بين ذلك التاريخ ويومي هذا (عندما يصل رجل إلى مثل سني، على الأرجح أن يكون العكس هو الصحيح)، ولكني أذكر بوضوح تام طعنة الخوف التي اخترقت جسمي عندما فتح ستيفنز الباب المصنوع من خشب السنديان؛ والرعشة التي شعرت بها عندما رأيت ذلك المشهد الغريب، المتصدّع والغارق في نور دموي صادر عن تلك الشموس المزدوجة التي ربما تغيب وتجلب العتمة التي لا يمكن وصفها لمدة ساعة، أو عشر ساعات، أو

عشرة آلاف سنة. لا يمكنني أن أشرح الأمر لك، ولكنني أقول لك بأن العالم موجود؛ أنا متأكد من ذلك بقدر ما كان إملين ماكارون متأكداً من أن رأس ســاندرا ستانــسفيلد المقطــوع كان يتنفس. فكرت في تلك الثانية الواحدة الخالدة التي يُفتح فيها الباب ويدفعني ستيفنز إلى ذلك العالم لاسمع بعد ذلك صوت الباب وهو يُغلق خلفي... إلى الأبد.

وبدلاً من ذلك، رأيت الشارع الخامس والثلاثين وسيارة أجرة متوقفة بجانــب الرصــيف وهي تطلق الدخان من العادم. شعرت براحة آخذة في الزوال.

أعــاد ستيفنز كلامه: "أجل، هناك دائماً المزيد من الحكايات. عمت مساءً سيدي".

هناك دائماً المزيد من الحكايات.

بالطبع يوجد المزيد من الحكايات. وربما في يوم قريب، سأحكي لك حكاية أخرى.

صدر وسيصدر للروائي ستيڤن كينغ

الدار العربية للعلوم ناشرون

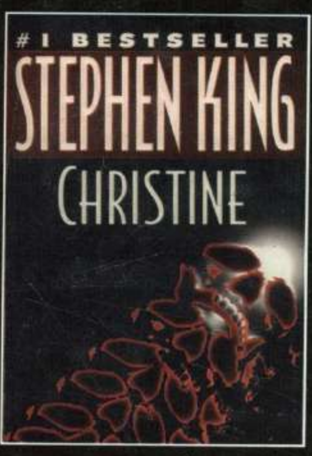
Stephen King

ستيڤن كينغ

THE RUNNING MAN رواية

الهارب

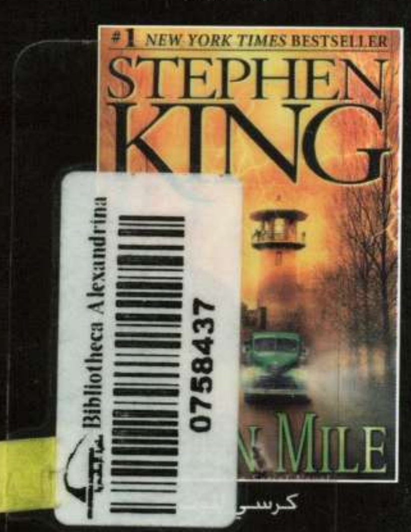
الهارب



كريستين



بؤس



كرسي...



